ملامح الشخصية الفلسطينية

في أمثالها الشعبية

سليم عرفات المبيض

الإهـــداء

أمى

وفـاء لعطـائك الجــزيل

وحبـا لاخلاصـك النبيـل

وتكـريما لكرمك الجليـل

بما أسهمت فى هـذا الكتاب

من تراثنا الفلسطينى الحبيب

أهـديك جهـدى

ولدك

« سـليم »

الاخراج الفنى : سهير معطى

مقـــدمـة

لقد أكد العديد ممن تعمقوا فى دراسة التراث الشعبى أن الابداعات الشعبية الحاضرة أو القريبة لا يتسنى لأحد فهمها الا من خلال النظر اليها من بعيد ، وسبر غور الغريب ، وأن ادراك الخاص يتعذر فهمه واستشفافه الا فى اطار معرفة النواميس والقوانين التى تتحكم فى العام الشائع .

ولما كان الشعب العربى الفلسطينى ومازال يمثل تركيبة حضارية ذات طبقات ثقافية سميكة متميزة بالتفاعل تراكمت بعضها فوق بعض منذ بدء التاريخ ، تأثرت خلالها وأثرت ، كما تفاعلت وانفعلت بحضارات عريقة تليدة تقع الى شرقها من عربية سومرية وكلدانية وبابلية وآشورية فى بلاد الرافدين وحيثية فى الأناضول شمالا وحضارة فرعونية خالدة فى الجنوب بمصر .

ووسط هذا الخضم الحضارى العرم تقع فلسطين كجسر ضيق يربط بينها وممر حضارى اجبارى لها تفاعلت فيه جميع هذه الثقافات الحضارية الغنية الرائدة بتراثها الروحى والمادى ، فاستوعبها الشعب العربى من أجدادنا القدماء الكنعانيين والفينيقيين والفلسطينيين فأخذوا منها وأعطوها ، فابتدعوا للعالم أجمع ـ الحرف المكتوب والمنطوق ـ أى الأبجدية المعروفة . وأول من تلقوا أبانا ابراهيم عليه السلام أبا الأنبياء مباركين ومؤيدين دعوته بأن لا اله الا الله وحده وذلك فى القرن التاسع عشر قبل الميلاد .

كما تفاعلوا فيما بعد مع الحضارات الغازية من يونانية ورومانية وبيزنطية فكانت أرضنا مهد المسيح ومعاشه ومنطلق تعاليمه السمحة الهادية . وقبل مجىء الاسلام كانت أرضنا من ميادين تجارة العرب الرئيسية [رحلة الشتاء والصيف] وكان على رأس أولئك التجار محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه الذى أثرى العديد منهم فى أرض

فلسطين ومنهم عمر بن الخطاب وبالاسلام اصبحت قدس فلسطين اولى القبلتين وفيها ثالث الحرمين وأرض الاسراء والمعراج حيث المسجد الأقصى الذى بارك الله حوله ٠

هذه بايجاز الطبقات الحضارية التى تمثل البنية التحتية التراثية للهوية الفلسطينية التى اورثتنا ملامحنا ٠

ومن هنا غدا البحث عن دراسة وتحليل الملامح الشخصية الفلسطينية مطمحا نتوق للتعرف عليها والذى هى فى الحقيقة دراسة ليست بالهينة عندما نريد التوغل فى البحث عن خصائص هذه الطبقات ومميزاتها وما اندثر منها مع الزمن ومن بقى منها خالدا تاركا بصماته وملامحه المتمثلة فى حضارة هذا الشعب كما هى واضحة فى نشاطه المادي والروحي وشخصيته المتطورة عبر تاريخه المديد ٠

مؤكدين خلال هذه الدراسة أن تراثنا ليس شيئا عفى عليه الزمن واندثر كما انه ليس شيئا للتاريخ والمتحف فقط ، بل هو فى الحقيقة سجل عبقرية هذه الأمة (١) ٠ وهو كذلك القوة الدافعة لاعطاء الأمة شعورا ومطمحا للوحدة والديمومة ٠

تاكيدا لقول السيد « ريل » بأنه ينبغى الا تقتصر الدراسة على مجرد احصاء ظواهرها بل يجب أن تتعدى ذلك الى ادراك فلسفة الشعب الذى يرتبط كل الارتباط بتاريخه وظروفه البيئية ٠

كما قد تساءل السيد « كارل فاين هولد » فى عنوان بحث له « ماذا ينبغى على علم الدراسات الشعبية أن يحقق ؟ » فأجاب بأن مهمة هذا العلم تنحصر فى دراسة الشعب الذى يعيش فى ظروف تاريخية وجغرافية محددة (٢) ٠

فكان هذا هو الأسلوب الذى نرجو أن نوفق فى تطبيقه مع موضوعنا « ملامح الشخصية الفلسطينية من خلال أمثالها الشعبية » ٠ متبعين المنهاج الفولكلورى الحق الذى لا يكتفى بجمع النصوص الشعبية ومنها الأمثال الشعبية فقط بل يتحداه للخوض فى اكتشاف أعماقه لتبيان واقع « المثل » وتفسير كنهه للوصول الى حقيقته الداخلية ثم ربط

(١) كامل اسعفان ـ التراث وواجبنا نحوه ، مكتبة الانجلو ـ القاهرة ـ ص ١٣ ، وانظر ايضا : ميشيل عفلق ـ البعث والتراث ـ بغداد ـ ١٩٧٦ ص ١٦ و ٩٢ ٠

(٢) د٠ نبيلة ابراهيم ـ الدراسات الشعبية بين النظرية والتطبيق ـ دار المريخ الرياض ـ ١٩٨٥ ص ٥٠ ٠

ماضيه بحاضره وقد انتقيت لهذه الدراسة هذا العنوان « ملامح الشخصية الفلسطينية » مع ما له من مسئولية البحث والدراسة العميقة الجادة التى تستمد أصولها من تعقب جذور التاريخ المديدة لهذا الشعب وتقفى آثاره فوق أرضه اركيولوجيا وتتبع مظاهر نشاطه وتعامله مع تربة أرضه وتواؤمه مع مناخها جغرافيا وقدرته على التحايل على ما استعصى عليه من عناصر بيئته بصناعة أدواته وآلاته لتسهيل أعماله وزيادة انتاجه صناعة ، وتصديرا لما فاض من خيرات أرضه وثمار عمله تجارة (*) ٠ ومع ما صاغ من ذاكرته وفيض عواطفه ووجدانه شعرا شعبيا ونثرا بأنواعه وأشكاله المتعددة تبعد انفعالاته فى السراء والضراء من أهازيج ومواويل وعتابا وأغان وبكائيات وهو يحرث ويحصد ويصيد وحين ينسج الملابس ويبنى البيوت أدبا شعبيا وفلكلوريا ٠

فأين لنا من عناصر تراثنا الشعبى العربى الفلسطينى ما هو مؤهل بشمولية التغطية لجميع هذه المجالات الحياتية الشعبية المتباينة ؟! ٠

انه فى نظرنا « المثل الشعبى الفلسطينى » القادر ـ هكذا نأمل ـ على تشخيص ملامح هذا الشعب بما تميز به من غزارة فياضة لها قدرة الكشف عن البنية الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية وحتى النفسية لهذا الشعب بما يضم بين اعطافه من حقائق وتجارب مألوفة كادت أن تغطى جميع مناحى الحياة بعناصرها السابقة ٠

يؤكد على هذا ويدلل عليه « المثل الشعبى نفسه الذى يتخذه ابناء الشعب الفلسطينى مثلا استهلاليا ومفتاحيا لأقوالهم قائلين :

١ ـ المثل ماخلاش حاجة الا لما قالها ٠

قال المثل ٠٠٠

ليبرهن بهذا المثل الشعبى المفتاحى شمولية المثل الشعبى وخاصية تغطيته لجميع عناصر الحياة الأدبية والمادية كما سنرى ٠

ومن هذا المنطلق نؤكد بأن « المثل الشعبى الفلسطينى » هو المدخل الحقيقى لدراسة فلكلورية فلسطينبة شاملة ٠ وعليه اتخذنا منه وسيلة

(★) سبق لنا ان انتقينا أمثلة شعبية لها دلالتها الجغرافية في كتاب بعنوان « الجغرافيا الفلكلورية للأمثال الشعبية الفلسطينية » سنلحق به ونزوده بالأمثال الاقتصادية هذه فى الطبعة الثانية والصادر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦ ٠

للكشف عن ملامح وسمات الشخصية الفلسطينية كعنـــوان للدراســة لاستشفاف قســـماتها خاصة لو علمنا أن دراستها تحت هـــذا العنوان لم يتطرق لها احد من قبل ، الهم الا ما جاء منها ضمن مقالات متناثرة فى بعض المجلات والدراسات المبعثرة ، على الرغم من ان نصيب فلسطين من الدراســات والبحـوث الفلكلورية كان نصـيبا لا بأس به من جانب المستشرقين المغرضين الذين هبوا جميعا فى القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين يحدوهم الأمل فى طمس هوية هـــذا الشـعب العربى الفلسطينى او اظهاره وكانه بدون ملامح ، ومحاولة التشكيك فى اصالته ، علما بانه الشعب الوحيد الذى استمر على أرضه دون انقطاع منذ ما قبل التاريخ وحتى اليوم .

وفى سبيل ذلك اندفع العديد من الصهاينة ومن يدور فى فلكهم باتخاذ أساليب شتى وتحت عناوين مختلفة منها الدراســـات والحفريات الاركيولوجية وأهمهـــا ما أســـموه « مساحة غرب فلسطين Survey of Western Palestine » بقيادة « كوندو وكتشـــــنر » فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ثم بعثات فلندرز بترى وســتاركى (٣) ، وكذا لجنة صندوق اكتشاف فلسطين !! Palestine Exploration Fund .

وهكذا بدأت هذه الحملة باطلاق مسميات جديدة (غرب فلسطين) و « شرق الأردن » او فلســـطين الشرقية » بتأثير دينى مستوحى من التراث اليهـــودى وكان على راس هـؤلاء اللاهـوتى الاســـكتلندى جورج آدم سميث (٤) . كما بذل العـــديد من هؤلاء المستشرقين جهدا لطمس الحقائق العربية الفلسطينية متخذين من الفنون الشعبية وسيلتهم التى استخلصوها او حاولوا استخلاصـــها من الحفريات الأثرية مثـل ميشيل ناؤو وبيشوب بوكوك وبوركهارت ، وما نشره هيل سنة ١٨٨٥ بعنوان « جبال سيناء وغرب فلسطين » درس فيه عادات البدو والفلاحين ، وما أوضحه كوندر عن الأزياء وعادات الزواج والأفراح وألعاب الأطفـال والصناعات الشعبية من خلال كتاباته من فلسطين (٥) كما قد تحـدث « كارشـــنج » عن العمـــارة الشعبية الفلسطينية وهو يدرس حفريات مدينة عسقلان .

(٣) سليم عرفات المبيض ـ غزة وقطاعها ـ الهيئة العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٨٧ ص ٣٧١ ـ ٣٧٢ .

(٤) G. A. Smith, Historical Geographyo of The Holly Land, London, 1968.

(٥) مجلة التراث والمجتمع ـ لجنة الأبحاث الاجتماعية والتراث الشعبى الفلسطينى ـ مجلد ١ عدد ٢ ـ البيرة تموز ١٩٧٤ ص ٢٩ .

كما وضح السيد غوستاف هيرمان دالمان ، الذى ترأس ما سمى « المعهد الألمانى الانجيلى لاستكشاف آثار الأراضى المقدسة فى فلسطين » فيما بين عامى ١٩٠٢ ـ ١٩٢٦م كتـابا بعـنوان « ديوان فلسـطينى » "Palestiniswer Diwon" فى سنة ١٩٠١م ضم ثمانية عشر نوعا من الغنـاء الشـعبى الفلسطينى منها العتابا والموال والهلابا ـ المطلوع ـ الحداء ـ الترديد ـ الشوباش .. الخ كتبهـا جميعـا بلغة عربيـة عامية بالألمانية . كما نشر كتابا فى نهاية عام ١٩٣٢م بعنوان « العمل والتقاليد فى فلسطين » وآخر عن « اللهجـات العربية فى فلسطين وسوريا » . وثالث عن « سلالات فلسطين » (٦) .

أما السيد « أنتى آرنى » فقد وضع دليلا فى سنة ١٩١٠ بمدينة هلسنكى بعنوان « أنماط الحكايات الخرافية وأنواع الحكايات الشعبية » فى عدة مجلدات ضمنها جزئيات الحكايات الفينيقية لتراثنا الذى حمله الأجداد العرب الفينيقيون من البحارة الشوام وطافوا به منذ الألف الثالثة قبل الميلاد (٧) .

ولعل الدكتورة هيلما فرانكفســت ، التى قدمت لفلســـطين فى عام ١٩٢٥م ما يوضح ويكشف مغزى ومرمى هذا الحشد من الدارسين نحو التراث الشعبى الفلسطينى بعد أن قامت بدراستها جميعا دراسة دقيقة . وعندها استرعى انتباهها بأن هؤلاء المستشرقين جميعـا كانوا يهدفون بدراساتهم هذه الربط بين الحياة الشعبية فى فلســـطين وتلك التى صورت فى كتاب العهد القديم كدراسة تمهيدية للهجمة الصهيونية بهدف بيان العلاقة بين اليهود وفلسطين . كما فندت هذه الدكتورة تلك الدعاوى المغرضة بما قالته « ان الشعب العربى الذى يمثل سكان فلسطين الأصليين هو موضـــوع الدراسة وليس اليهود ، كما أنه ليس مبررا لأن يدفعهم (أى المستشرقين) الى اغفال حقبة من الزمن تقرب من ألفى عام وأكثر ، تفصل بين سكان فلسطين الأصليين واليهود الذين وفدوا بعد ذلك » (٨) ثم تعلق الباحثة بوضوح أكثر بقولها « ان العالم ينبغى أن يعلم أن هناك احساسا بالوعى الوطنى فى فلسطين وهو ينمو ويكبر بين الشعب الفلسطينى ويهدف مباشرة الى معاداة الصهيونية ، فالمجتمع

(٦) مجلة التراث والمجتمع ـ العدد ٢ يوليه ١٩٧٤ المرجع السابق ص ٢٨ .

(٧) شوقى عبد الحكيم ـ الحكايات الشعبية العربية ـ بيروت ـ ١٩٨٠ .

(٨) Hilma Granquist, Marriage conditions in a Palestinian Village, Helsingfore, 1931, p. 7-9.

الفلسطيني قوى ومترابط ، وسر قوته وترابطه هو اعتزازه بأرضه وابنائه وتقاليده وتراثه » ·

ومما هو جدير بالتنويه أن الدكتورة هيلما قد قضت ثلاث سنوات في قرية « أرطاس » الفلسطينية ما بين سنتى ١٩٢٥ – ١٩٣١ م · وضعت عدة دراسات عن الطفل الفلسطيني (الميلاد والطفولة بين العرب (٩) وكذلك كتاب عن « مشاكل الأطفال بين العرب – هلسنكى ١٩٥٠ » وآخر عن الوفاة والدفن عند المسلمين فى العادات والتقاليد العربية (١٠) ·

وقد ساعد الدكتورة هيلما عند آخر زيارة لها لفلسطين عام ١٩٥٨ كل من الدكتور توفيق كنعان والدكتور عيسى المصو الفلسطينيان كتبا العديد من الأبحاث عن الفلكلور الفلسطيني عبر مجلة ظهرت فى عشرينات هذا القرن باللغة الانجليزية اهتمت بهذه الدراسة ·

Journal of Palestine Oriental Society

ومع بداية الثلاثينات كتب السيد عارف العارف كتابه عن « القضاء بين البدو » وقد ظهرت فى سبعينيات هذا القرن مجلة التراث والمجتمع الفلسطينية الصادرة عن جمعية انعاش الأسرة بمدينة البيرة الفلسطينية ضمت العديد من الدراسات الفلكلورية الفلسطينية بحيث غطت الكثير من مناحى الحياة الشعبية بدراسات ومقالات قيمة ·

اردنا من هذا السرد لمعظم الدراسات التى اهتمت بالتراث الشعبي الفلسطيني ايضاح ما يلى :

-أولا : انها لم تف فى كمها وكيفها بما يتميز به هذا الشعب من عراقة تراثية زاخرة ولم تغط آدابه وفنونه الشعبية المتنوعة بالقدر الكافى والملائم ·

ثانيا : ان معظم المستشرقين الذين تناولوا التراث الفلسطيني بالدراسة والبحث منذ أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين لم يتناولوها بضمير حى ودراسة بحثية أمينة ، لكنها كانت هجمة على الشخصية الفلسطينية وتراثها بالتلوث والتزييف التاريخى لها ومحاولة سلب العديد من تراثها ونقله خارج حدود البلاد ·

---

(٩) Hilma, Granquist, Birth and Childhood Among the Arab, singfors, 1947, p. 108-110.

(١٠) مجلة شئون فلسطينية – العدد ٩ آيار ١٩٧٢ مقال لنمر سرحان تحت عنوان « هيلما جرانكفست والفلكلور الفلسطيني » ·

ثالثا : النزعة الاستشراقيــة المكتبيــة التى تسيطر على العديد من أولئك الذين تتملكهم الدراسة المكتبية المحضة غير مبالين بالنزول للواقع البيئى المحيط بهم متنقلين لبؤر التراث بين الأهل بالدراســة الحقلية الملموسة وسيجدون عندها لذة البحث ومتعتــه بدلا من أن يكتفوا – وهذا شر البلاء – بما قاله الأجانب والمستشرقون المغرضون ، وعن أى شيء ؟! عن تراثنا الذى هو من أخص خصوصياتنا نحن ·

رابعا : من وحى ما سبق نتمنى استنفار الطاقات الفلسطينية خاصة للتوجه نحو هذا التراث الشعبى ودراسته دراسة فلكلورية علمية تتناول بشكل تخصص جميع مجالاته العديدة والمتنوعة من خلال مؤسسات وجمعيات تعنى بجمعه ودراسته وتحليله · وتقع هذه المسئولية على عاتق الجيل الحالى باعتباره جيل الربط والوصل الذى يزامن أواخر الأجيال الكبيرة من الآباء والأجداد لأخذ ما يحفظونه داخل صدورهم وعقولهم خاصة وقد اختفت معظم سراياهم ودفنت معهم كنوز تراث عزيز علينا ، فاذا لم يقم هذا الجيل بدوره ضاع الشيء الكثير ·

ولعل هذه الدراسة « ملامح الشخصية الفلسطينية من خلال الامثال الشعبية تمثل اسهاما متواضعا فى رسم ملامح الشخصية العربية الفلسطينية كما جاءت فى أمثاله والتى قمنا بتبويبها دينيا واجتماعيا وتاريخيا وسياسيا وكذا نفسيا كما سيتضح متمنين بذلك تعميق الانتماء والحفز على البحث عن هذا التراث من منابعه الأصيلة مما يعزز الاعتزاز بهذه الشخصية ·

لذا اتخذت من بؤر التراث المحلية داخل مدننا وقرانا ميدانا للدراسة متجها للمجالس العامة والخاصة (الدواوين) وكبار السن فى البادية والحضر لآخذ منهم أمثالهم الشعبية التى غالبا ما التقطها وهى تصدر عنهم أثناء أحاديثهم وبحث قضاياهم دون تكلف ، مما أتاح لى الفرصة لتفهم مغزاها ومعناها وهى تخرج على سجيتها من أفواههم فى مناسباتها الطبيعية ·

كما ابتعدت بقدر الامكان عن ذكر الأمثال الشعبية المكشوفة ، كما بعدت عن التكرار فى تدوين الأمثال التى قد تختلف عن مثيلتها فى كلمة أو كلمتين فقط ولو أننا قد كررنا بعض الأمثلة الشعبية المركبة – اذا جاز التعبير – أى تلك التى تضم عدة مواضع كل فى موضعه وكذلك وفقا لتقسيمات أبواب الكتاب ·

واخيرا نسأل الله العلي القدير ان يوفقنا سواء السبيل ، مؤمنين بأن الكمال لله وحده خاصة ونحن بازاء « أمثال شعبية » لايقوى على جمعها او احصائها فرد بذاته ولا أن يحويها كتاب بمفرده معترفين كذلك بأن مالم يضمه هذا الكتـاب منها ربمـا كان أكثر مما يحويه ٠ وعليـه نناشد المثقفين والمتعلمين وأهل البحث من أصـحاب النخوة أن يكملوا المسيرة اما بالنقد البناء القائم على الدراسة المعمقة أو بالبحث والتحليل ، لنستشرف من خلالها جميعا رؤية مستقبلية وثقافة وضاءة لأبناء بلدنا لتنير الدرب وتوضح لهم قسماتهم العربية الفلسطينية الأصيلة ٠

سليم عرفات المبيض

الشجاعية الجديدة ـ غزة

الفصل الأول

٠٠ لماذا ٠٠ المثل الشعبى ٠٠ ؟

- مفهومه ٠٠ وخصائصه ٠٠
- مبنـاه ٠٠ ووظائفه ٠٠

لماذا ... المثل الشعبى .. ؟

علنا بدراسة مفهوم المثل الشعبى وخصائصه ومبناه ووظائفه ، وبتسليط الأضواء على انجازات من سبقونا بدراسته ، نصل الى أجابة نرجو أن تكون كافية وشافية عن سؤال لماذا المثل الشعبى ؟ ونقصد لماذا اتخذناه وسيلة نتلمس بها ملامح الشخصية الفلسطينية داخل مجتمعها العربى الفلسطينى .

آملين كذلك أن يكون هذا فصلا تمهيديا ميسرا لهذه الدراسة ، نتبعها للهدف نفسه ، بدراسة متواضعة عن اللهجات الفلسطينية مفتاحا يسهل على القارىء توضيح ما غمض من الكلمات والمصطلحات العامية الواردة فى مبنى الأمثال وفقا للهجات الأهل فى البادية والقرى والمدينة لما ينتابها من اختلافات فى المبنى والمعنى تصل أحيانا لدرجة الاختلاف داخل أحياء المدينة الواحدة ، بل لا نغالى اذا قلنا انها قد تتباين من شارع لآخر داخل الحى نفسه .

مفهوم المثل الشعبى وخصائصه :

اذا كان مصطلح « فولكلور Folklore » كما جاء ذكره لأول مرة سنة ١٨٤٦م على لسان وليم تومز Wilamas Tomis يعنى بترجمته الحرفية « حكمة الشعب » والذى كان يقصد به دراسة الآثار الشعبية بشموليتها (١) ، فان خير دليل يبلور ويوضح هذا المعنى « المثل الشعبى»

---

(١) فوزى العنتيل ـ بين الفلكلور والثقافة الشعبية ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٧٨ ص ٢٩ و ١٦٣ .

فهو بالفعل وليد تجربة عقلانية واعية رصـــدت بتدبر ووعى ، ودقة ملاحظة ، وقوة استنتاج « حكمه » او قولا هو مايسمى « المثل الشعبى » فاستساغه الشعب ، فاخذ صفة الاستمرارية فى التداول والقبول من شخص لآخر ٠

وقد كان اول سـجل للأمثـال الشعبية هذه بل وأقدم من دونها فى التاريـخ هم العرب السومريون كمـــا أثبت العالمان ادوارد كيرا وصموئيل كريمر من مكتشافاتهما الأثرية فى العراق حيث وجدت الأمثلة وقد كتبت على الواح طينية بالخط المســمارى والمحفوظة بالمتاحف ، تضمنت ســجايا تشبه شبها عجيبا ماهو شــائع فى مجتمعنا العربى والفلسطينى الآن ، ومن هذه الأمثال السومرية القديمة (٢) ٠

« لقد ولدت فى يوم نحس»

ونحن نقول فى مثلنا الشعبى لأولئك الذين يخالفهم الحظ السعيد ولا يحالفهم :

١ ــ فلان ٠٠ منحس ٠

أو حســـومى ٠

ومن الأمثال العربية السومرية :

يقترض الفقير فتركبه الهموم ٠

وكثرة تلك الأمثـــال الشعبية الفلسطينية التى تصف هموم الدين منها :

٢ ــ الدين هم بالليل ومذلة بالنهار ٠

ويقول المثل السومرى :

تدوم الصداقة يوما ولكن القرابة للأبد ٠

ويقول الشعب العربى الفلسطينى ما يكاد يتطابق مع هذا المثـل القديم بقوله :

---

(٢) ناجى زين الدين المصرف ، موسوعة الخط العربى ــ الجزء الأول والثـــانى ــ منشورات وزارة الثقافة والاعلام ــ العراق ــ ١٩٨٤ ص ٦٠ ــ ٦١ ٠

٣ ــ الصداقة يوم والدم دوم ٠

وهذه سمة من عراقة هذا الشعب المديدة تكونت وتالفت من عدة حضارات وثقافات قديمة نشأت وترعرعت قبل الوف السنين على الأرض العربيـــة ٠

وعلى الأرض العربية الفلسطينية قام ســيدنا سليمان الحكيم عليه السلام بجمع الأمثال والحكم فى القرن العاشر قبل الميلاد ٠

وفى العصر اليونانى عرف اداسموس المثل الشعبى الذى رصع كتبهم وعجت به آدابهم بقوله « المثل قول مشهور يشير الى قصة لطيفة »٠

وقال سرفنتس « المثل زبدة اختبار طويل مفرغة فى قالب صغير »٠ فى حين عرف أرسطو المثل بقوله « وكأن الأمثال متخلفات حكم قديمة أدركتهـا الخـراب فسلمت هى من بين تلك الحـــكم لمتانتهـا وجزالة الفاظها » (٣) ٠

وهكذا يشبه أرسطو تراث الأجداد بمخلفـــات متراكمـة أصابها جميعا البلى والتحلل والاندثار باستثناء الأمثال التى ظلت صامدة عاتية تقاوم لصلابتها وقوة ألفاظها وتداولها على السنة الشعب دون غيرها من عناصر التراث ، وبذا يصبح المثل الشعبى اشبه بحفرية حية ترفض الموت والزوال على حد تعبير « بيتر » Ch. F. Pottey وهو يفسر معنى الفلكلور (٤) ٠

وفى العصر الرومانى ظلت الأمثـال الشعبية محورا يستشهد به الأدباء والكتاب فى كتاباتهم وعلى رأسهم شيشرون ٠ حتى حل الظلام على أوربا وأهلها فكرا وثقافة فى الوقت الذى ازدهـر فيـه العـرب وبلغوا شأوا حضاريا فى عصر هارون الرشيد فى القرن الثانى الهجرى نبغ فيه أبو عبيد والأصمعى والمفضل بن محمد والمفضل بن سلمى والمفضل الضبى فكتبوا جميعا فى الأمثال العربيـة الجاهليـة وصدر الاسلام شارحين كل مثـل للوصول الى أصـــل حكايته ليكتبوا بعد ذلك أمثلة المولدين « العامية » فكان أول من كتب من بين من ذكرهم «الميدانى» عبيد بن شريه الذى كانت له صلته بمعاوية بن أبى سـفيان وقد ذكـر له ابن النديم كتابا فى الأمثال ٠

---

(٣) نعوم شقير ــ أمثال العوام فى مصر والسودان والشام ــ مطبعة المعارف ــ مصر ١٨٩٤ ص ٢ ــ ٣ ٠

(٤) فوزى العنتيل ــ بين الفلكلور والثقافة الشعبية ــ المرجع السابق ص ٢٩ ٠

كما كثر كتاب الأمثال فى القرن الثالث الهجرى مثل ابن الأعرابى وابن السكيت وابن حبيب والجاحظ ... الخ (٥) ٠

كما كتب ابن عبد ربه الأندلسى المتوفى سنة ٣٢٨ هـ فى كتابه « العقد الفريد » ومن بعده أبو هلال بن عبد الله العسكرى المتوفى سنة ٣٩٥ هـ فى كتابه « جمهرة الأمثال » ولقد حدد الماوردى المتوفى سنة ٤٥٠ هـ فى كتابه « الأمثال والحكم » معنى المثل الشعبى والشروط اللازم توافرها فى أربع نقاط بقوله « صحة التشبيه وان يكون بها العلم سابقا والكل عليها موافقا ، وان يسرع وصولها للفهم ويعجل تصورها فى الوهم من غير ارتياء فى استخراجها وكدر فى استنباطها وان تناسب حال السامع لتكون أبلغ أثرا وأحسن موقعا » (٦) ٠

وشرح السيوطى المثل قائلا « المثل ما تراضاه العامة والخاصة فى لفظه ومعناه ، وفاهوا به فى السراء والضراء ، واستدروا به الممتنع من المدد ووصلوا به الى المطالب القصية ، وتفرجوا به عن الكرب والمكربة ، وهو من أبلغ الحكمة لأن الناس لايجتمعون على ناقص أو مقصر فى الجودة أو غير مبالغ فى بلوغ المدى فى النفاسة » (٧) ٠

وممن اهتم من علماء العرب بالأمثال اهتماما فائقا « الميدانى » المتوفى سنة ٥١٨ هـ وقد أورد فى كتابه « مجمع الأمثال » الكثير من علماء العرب الذين عرفوا المثل ، فقد قال الميدانى فى تعريف الأمثال « كفاها جلالة قدر وفخامة فخر ، أن كتاب الله عز وجل ـ وهو أشرف الكتب التى نزلت على العجم والعرب ـ لم يعر من وشاحها المتصل ترائب طوالة ومفصلة ، ولا من تاجها المرصع مجمله ومفصله ، وان كلام نبيه صلى الله عليه وسلم هو أفصح العرب لسانا وأكملهم بيانا ، وأرجحهم فى ايضاح القول ميزانا ـ لم يخل من ايراده واصداره وتبشيره وانذاره ، من مثل يحوز قصب السبق فى حلبة الايجاز ويستولى على الحسن فى صيغة الاعجاز » ٠

وقد أورد العديد فى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى توضح الأمثال كما أورد تعريف ابراهيم النظام فى المثل حيث قال « تجمع فى

(٥) أبى عبيد البكرى ـ فصل المقال فى شرح كتب الأمثال ـ حققه د٠ احسان عباس و د٠ عبد المجيد عابدين ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٩٧١ ٠

(٦) على بن محمد بن حبيب الماوردى ـ الأمثال والحكم ـ تحقيق د٠ فؤاد عبد المنعم أحمد مؤسسة شباب الجامعة ـ الاسكندرية ـ بدون تاريخ ص ٢ ١ـ ١٣ ٠

(٧) على بن محمد بن حبيب الماوردى ـ الأمثال والحكم ـ المرجع السابق ص ١٣ ٠

المثل أربعة لا تجتمع فى غيره من الكلام : ايجاز اللفظ واصابة المعنى وحسن التشبيه وجودة الكناية فهو نهاية البلاغة » (٨) ٠

وقد اقتبس الأبشيهى والمتوفى سنة ٨٥٠ هـ فيما بعد فى كتابه « المستطرف فى كل فن مستظرف » تعريفه للمثل من الميدانى حيث قال « اعلم ان الأمثال من أشرف ما وصل به اللبيب خطابه وحلى بجواهره كتابه ، وقد نطق كتاب الله تعالى وهو أشرف الكتب المنزلة بكثير منها ولم يخل كلام سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها وهو أفصح العرب لسانا وأكملهم بيانا فكم من ايراده واصداره من مثل يعجز عن مباراته فى البلاغة كل بطل » (٩) ٠

أما الشعوب فلها تعريفها للمثل فيرى الشعب السوفيتى أن « الأمثال عمله الناس » فى حين يفسرها الشعب السويسرى قائلا « بالمثل تشترى بأذنيك أحسن دوس بأرخص ثمن » (١٠) ٠

أما شعب البوسنه فيقول « الأمثال فى الكلام تضىء فى الظلام » وأما الشعب العربى الفلسطينى فيفسره موضحا شموليته قائلا

٤ ـ المثل ما خلاش حاجة الا لما قالها »

مؤكدا أيضا مصداقية التجربة المثلية الشعبية بقوله :

٥ ـ المثال (المثال) قعد أربعين سنة يمثل وما كدبش المثل -

وزاد دقة فى تعريفها بقوله :

٦ ـ الأمثال مصابيح الأقوال ٠

وبتوضيح دقيق قال :

٧ ـ أمثال العوام ملح الكلام

ليفسر بالتالى ويشير لأدق وظائفها فعالية ٠

(٨) ابى الفضل أحمد بن محمد النيسابورى الميدانى ـ مجمع الأمثال ـ حققه محمد محى الدين عبد الحميد ـ دار الفكر ـ بيروت ـ الجزء الاول ـ ١٩٧٢ ص ٥ ٠

(٩) الأبشيهى ـ المستطرف فى كل فن مستظرف ـ دار الفكر ـ بيروت ـ بدون تاريخ ص ٢٧ ـ ٢٩ ٠

(١٠) ابراهيم أحمد شعلان ـ الشعب المصرى فى أمثاله ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٧٢ ص ٤٥ ٠

ولو أردنا بعد ذلك استعراض جميع ما قيل من تعريفــات للمثل الشعبى من العلماء والدارســين المحدثين الأجانب منهم والعرب ، فانهــم لم يفاقوا المعانى العربية القديمة ولم يأتوا بجديد باستثناء اضافة بعض المفردات الحديثة التى اقتضتها ثقافة العصر الحاضر .

ولعل ايرادها هنــا ما يعزز الانتماء والاعتماد على تراث أجدادنا والابتعاد عما يورده الأجانب خاصة تلك المتعلقة بتراثنا الفلسطينى .

فها هو الكسندر كراب يعرب المثــل قائلا « انه يعبر فى شــكله الأساسى عن حقيقة مألوفة وان كانت صيغت فى أسلوب مختصر ســهل حتى يتداوله جمهور واسع من الناس » (١١) .

وتقول الموسوعة البريطانية « المثل جملة قصيرة موجزة مصيبة المعنى شائعة الاستعمال » ودائرة المعارف الأمريكيـــة تعــرفه قائلة « هو جملة قصيرة مصيبة المعنى تستحضر بدقة الحقيقة الشائعة وتتولد أساسا من المجتمعات الأولى بأسلوب عامى غير أدبى وتكون شكلا فلكلوريا شائعا فى كل الأجيال » .

أما دائرة المعارف الفرنسية فتقول « الأمثال أصداء للتجربة وهى اختصار معبر فى كلمات قليلة أصبحت شعبية » (١٢) .

أما الأســتاذ أحمد أمين فيقول « الأمثــال نوع من أنواع الأدب يمتاز بايجاز اللفظ وحسن المعنى ولطف التشبيه وجودة الكنـــاية ، ولا تكاد تخلو منها أمة من الأمم . ومزية الأمثال أنها تنبع من كل طبقات الشعب ، وليست فى ذلك كالشعر والنثر الفنى فانهما لاينبعان الا من الطبقة الارستقراطية فى الأدب وأمثال كل أمة مصــدر مهم جدا للمؤرخ الأخلاقى والاجتماعى .. لأن الأمثال وليدة البيئة التى نشأت عنها» . (١٣)

ويدور فى فلك تلك المعانى كل من حاول تعريف المثل الشعبى حتى اليــوم .

فأين من كل هذه التعاريف ما هو جديد يمكن اضافتــه لما قاله أجدادنا العرب منذ قرون خلت ؟!!

---

(١١) الكسندر هجرتى كراب ـ علم الفلكلور ـ ترجمة رشدى صالح ـ دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ـ القاهرة ١٩٦٧ ص ٢٣٥ .

(١٢) ابراهيم احمد شعلان ـ الشعب المصرى فى أمثاله ـ المرجع السابق ص ١٨ .

(١٣) احمد امين ـ قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية ـ مكتبة النهضــة المصرية ـ الطبعة الثانية ـ بدون تاريخ ص ٦١ .

نقول ذلك لنؤكد حقيقة هى أن تراثنا على وجه الخصوص لايمكن لأحد سبر أغواره وتفسير كنهه ، والخوض فى مرماه الا أبناءه المعايشون له لأنهم الأقدر على معرفة أسرار لهجته العامية التى يتداولونها شفاهة . فاهالى نجد أدرى بشعابها كمــا يقول المثل العربى ، وأبنـــاء الشعب الفلسطينى يقولون :

٨ ـ ابن بطنى بيعرف رطنى (*)

خاصة وقد فرضت علينا منذ القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وحتى اليوم هيمنة ثقافية كادت تشلنا حتى عن التعبير عن تراثنا الذى هو مصدر هويتنا فأصبح العديد من العرب لايكتبون عن تراثهم الا مما يترجمون عن المستشرقين العساكر المقنعين بقناع الرحالة ودارسى الآثار والمرتدين لباس المبشرين من دارسى التراث . وقد حاولوا جميعا جاهدين اما رد هذا التراث الى من هم غير العرب ـ كما أسلفنا ـ أو تشويهه والتخفيف من حدة ملامحه العربية الاسلامية ، أو فهمه ومحاولة استيعابه للتغلغل فى وجدان الشخصية العربية واســتغلالها بالنفاذ داخل أفكاره لسهولة غزوه عسكريا وثقافيا والسيطرة عليه كما حدث فعلا قبل الحرب العالمية الأولى وبعدها . أو كتابته بلغتهم مما يخرج عن المعنى المراد به ويفقد التراث نكهته التى هى من خصائصه .

المثل والحكمة والقول السائر

المثل الشعبى وكما بينا فى عدة تعريفــات له لم يظهر من فراغ بل هو حصيلة تجارب وملاحظات حدق فيها الانسان بما حوله وشــغل فكره خيــال ظاهرات طبيعية تواترت بأحداثهــا عليه وأثــرت فيــه [كالرياح ـ الأمطار ـ القمر الشمس ـ السيول ـ التربة ... الخ] (**) أو أحداث بشرية نشأت بينه وبين أخيه داخل مجتمعه ، فأفرزت هذه العلاقات وجهــة نظر ثاقبــة صاغها بعبارة مقبولة على الفهم والسمع ، رددها من بعده الشعب جميعا فأصبحت مثــلا شعبيا ، من هنا ندرك أن المثل الشعبى افراز فكرى لأحداث أو قصص حدثت فعــلا بين الانسان وبين ما حوله من عناصر بيئية طبيعية أو بشرية ـ لذا كان الانسان محور

(★) رطنى : أى كلامى ويعنى بالمفهوم الشعبى الكلام السريع المبهم وغير المفهوم .

(★★) انظر كتاب المؤلف ـ الجغرافيا الفلكلورية للأمثال الشعبية الفلسطينية ـ حيث تناول فيه مئات الأمثال الشعبية التى تتناول مثل هذه الظاهرات الجغرافية ـ الصــادر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٨٦ .

الأمثال ولا فكاك له من أحداثهـا أو قصصها المحسوسة . فى حين نجد « الحكمة » وهى الكلام الموافق للحق أو صواب الأمر وسداده هى أيضـا وليدة تجربة لكنها شخصية أو ذاتية لم تخرج عن نطاق الفرد وتجربته المعنوية ، من هنـا قيل أن التجربة المثليـة عامة على حين نجد التجربة الحكمية ذاتية خاصة أو تكاد تكون (١٤) .

وعليه أصبح المثل أكثر شيوعا وذيوعا بين أفراد الشعب مما كفل له البقاء يتحدث به العام والخاص من الناس خاصة وان كلماته غالبا ما تكون من المفردات العامية المتداولة . أما الحكمة ونظرا لبعدها عن عامة الشعب وخصوصيتها لعدم وجود قصة لها أو تفاصيل يمكن الوصول اليها ، لذا فلا يرددها الا الخاصة من الناس فى الغالب الأعم .

هذا على الرغم من المثل الشعبى الفلسطينى الذى يوضح العلاقة بين المثل والحكمة والقائل :

٩ ـ فى كل مثل حكمة .

وربما يعنى بهذه العلاقة الشمولية للمثل ومدى ما يحويه كل مثل ـ الحكمـة ـ تعنى بالمفهوم الشعبى الموعظة أو العبرة ، وان كل مثل شعبى يضم نصيحة وتجربة لابد من استيعابها والأخذ بها .

ولعل فى ذكرنا لبنى الأمثال وتركيبهـا وصياغتهـا ما يوضح ما تنفرد به عن غيرها من الحكم والأقوال السائرة .

فالأمثال تتميز بصيغة يمكننا التعرف عليها بسهولة فهى تتكون فى الغالب من جزءين يتمم أحدهما الآخر وفى الغالب الأعم يتساويان فى الوزن والفاصلة كقولنا « طول البال بيهد جبال » .

وأحيانا نجد انهما يتساويان فى الفاصلة ويختلفان فى الوزن مثل « الجار ولو جار » أو « صدرك أوسع لسرك » .

ونجدهما أيضـا يتساويان فى الـوزن دون الفاصـلة كالقول « دوا الدهر الصبر عليه » (١٥) . والحقيقة تلك هى الأمثال التى لهـا

---

(١٤) محمد قنديل البقلى ـ وحدة الأمثال العامة فى البلاد العربية ـ مكتبة الانجلو المصرية ـ القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٩ ـ ١٠ وانظر أيضا لنفس الكاتب كتاب ـ الأمثـال الشعبية ـ سلسلة كتابك رقم ٤٤ دار المعارف ـ ١٩٧٨ ص ٥ ـ ٦ .

(٥) نعوم شقير ـ أمثال العوام فى مصر والسودان والشـــام ـ المرجع السابق ص ٣ .

الواقع المريح والأثر الفعال على النفس البشرية لحسن تركيبهـا ووقعها الموسيقى المنغم .. وهناك ما لاتجده يخضع لقاعدة أو حكم مثل قولنا ـ « الشعير للبعير » أو « البدرى فى المال فالح » وخاصـة تلك التى تبدأ بكلمة « زى » أى مثـل ، بحيث لانجد لهـا وقعـا أو جرسا موسـيقيا مما يخفف من وقعها الحسى والمعنوى سواء بالنسبة للقائل او السامع مثل قولنا « زى رغيف الصاج » ومثل ذلك كثير جدا كما سنرى فيما بعد وتلك هى خصائص الأقوال السائرة فى غالبتها العظمى .

ومن خلاصة ما استعرضناه جميعا ، ومن وحى ما يحويه المثل فى أعماقه ومكنوناته ندرك : بأن المثل الشعبى عصـارة تجارب مختزلة ، توصل الانسان اليها بعد مجهـود فكرى وعضلى ممتزج بعناصر بيئته المحلية المحيطة به أرضا ومناخا صاغها بعبارات مختصرة وبكلمات معبرة ومنغمة ، يسهل حفظها ويحلو ترديدها للقائل برهانا لما يقول ويرتاح لها السامع ويزداد اقتناعا بما يسمع ، فالمثل خبرة شعبية صادقة آمن بها الشعب كوصـفة طبية يطيب له استـخدامها كلما دعت الحاجة لذلك فينفعل حيالها نفسيا وعضـويا سلبا وايجابا حتى باتت مشـار بحث لسحرها على النفس وأداة بالتـالى عنـد البعض للتغلغل بوجهيـه خيرا كان أو شرا .

وظائف الأمثال

لو أمعنا النظر فى المثل الشعبى ووظائفه نجده أكثر فروع التراث الشعبى أكتنازا وثراء وتوضيحا لمفهوم « الثقافة » . ان لم يكن هو الثقافة بحد ذاتها لو أريد توظيفه توظيفا تحليليا وعلميا دقيقا .

فاذا كان مفهوم الثقافة من وجهة نظر الانثروبولوجيا ووفقا لتعريف ادوارد بيزنت تايلور : « ذلك الكل المركب الذى يتألف من المعرفة والفن والأخلاق والقانون والعرف وكل المقدرات والعادات الأخرى التى يكتسبها الفرد من حيث هو عضو فى مجتمع » وبمعنى آخر « كل المظاهر الروحية والمادية فى المجتمع من حيث انها تصدر عن القدرات الابداعية للانسان أو تقوم على تلك القدرات » (١) .

واذا اعتبرنا أن الثقافة هى بايجاز « أسلوب الحياة فى المجتمع » بكل ما يتضمنه ذلك الأسلوب من سلوك وتصرفات وابداعات وقيم ، نجد المثل الشعبى هو أقدر فروع التراث الشعبى على استيعاب هذه التوليفة الروحية والسلوكية ، الاجتماعية والاقتصادية وكذا السياسية ، وأكثرها احاطة بمكنوناتها ومضمونها .

ومن ثم فقد استمرت الأمثال تلعب دورها كمعلم معين للحياة الشعبية الفلسطينية مما أحاطها بهالة وظيفية لها دورها فى مناحى الحياة المختلفة فالمثل الشعبى من أكثر المأثورات التراثية الشعبية التى تنافس الطب الشعبى تصديا وتحديا للمشاكل وما يعتريها من انفعالات ويلازمها من أفراح واتراح يومية ، يعمل على حلها أو التلطيف من

(١) د. أحمد أبوزيد ـ مستقبل الثقافة فى مصر ـ مقال بمجلة الهلال عدد أول فبراير ١٩٨٨ ص ١١ .

وقعها وحدتها سواء بالنسبة للفرد أو الجماعة . وذلك لتفرده بخاصية الشمول لجوانب الحياة المختلفة بحيث يمكن اجمال وظائفه فى التالى :

المثل كقاعدة تشريعية شعبية :

للمثل دوره التشريعى المستمد من الأعراف والتقاليد الاجتماعية التى سنها الشعب وفقا لدياناته ومعتقداته على مر الأزمان ، تأخذ مكانه القانون والدستور يحدد بمقتضاه العلاقات بين الناس ، ويتجلى دور هذا فى الفترات التاريخية التى تغيب فيها السلطة المحلية الشرعية عن قيادة شعبها أيام الغزو والاحتلال مع ما يصاحبها من اضطراب الأمن وانتشار الفوضى ، فيتجه الشعب نحو قياداته الشعبية الممثلة فى أصحاب الجاه والخبرة من رؤساء العشائر وكبار الحمايل ممن يطلق عليهم « أصحاب الحل والربط » « والمخاطيط » و « مناقع الدموم » ، كل وفق تخصصه ودرايته فى المشاكل كتعبير عن رفضهم للسلطة الغريبة الدخيلة وتشريعاتها المرفوضة كما سنلمس ذلك فى مجتمعنا الفلسطينى عند تعرضنا لأحواله وملامحه الاجتماعية من خلال أمثاله .

المثل فى الصحة النفسية والطبية الشعبية

ما أكثر الأمثال التى لها وقع السحر على النفس ، وتفريغ شحنات القلق التى تملأ النفوس المرهقة أحيانا وتبعث على ترويح النفوس المتعبة فترسم الابتسامات على الوجوه العابسة لما تتضمنه من نوادر مضحكة وما يغلفها من نكات ظريفة . فقد قال على بن أبى طالب رضى الله عنه « ان القلوب تمل كما تمل الأبدان فاهدوا اليها طرائف الحكمة » .

ويقول العالم النفسانى ليورونان « ان المثل الذى نردده فلسفة مضغوطة أو فلسفة جيب لها تأثيرها على مجرى حياتنا نفسيا وجسمانيا » مما دفعه للقيام بدراسة شاملة يبين فيها مدى تأثير الأمثال الشعبية على صحة الأفراد الذين يرددونها وأثرها على سامعيها .

فهناك أمثلة شعبية حافزة لطموح بالغ تحث على الاسراع والاستعجال واللحاق بالآخرين مما يدعو للتوتر العصبى والأمراض [أمراض القلب ـ السكر ـ الضغط .. الخ] . وبالمقابل نجد العديد من الأمثال هى بمثابة وصايا صحية وقائية ومهدئة كما سنرى عند ذكرنا لدور الأمثال كوصايا صحية وقائية وكذلك دورها الترفيهى .

المثل الشعبى نص تعليمى مأثور

يمكن توظيف المثل كنص تعليمى مأثور لكونه تعبيرا مجازيا يغطى ليس فقط مجالات الحياة اليومية بل وأيضا للعديد من العلوم الدراسية وذلك لطبيعة تكوينه اللغوى المختزل والمنغم بحيث يسهل على الطالب استيعابه واكتنازه فى ذاكرته . كما تتضح أهميتها كوسيلة تربوية تعليمية لأن فيها « التذكير والوعظ والحث والزجر ولأن تصوير المعانى وتصور الأشخاص والأعيان أثبت فى الأذهان لاستعانة الذهن فيها بالحواس ولذا قيل « المثل أعون شئ على البيان » (٢) . من هنا حث العديد من علماء التربية طلبة العلم على حفظ الأمثال لأنها بمثابة « الأنغام اللغوية الصغيرة للشعوب ينعكس فيها الشعور والتفكير وعادات الأفراد وتقاليدهم » (٣) .

كما بين « كراب » الطابع التعليمى للمثل بقوله « ان للمثل طابعه التعليمى الذى يكون مباشرا فى أغلب الأحيان ، فالمثل هو ابتكار تصنعه العبقرية الشعبية ، ومن خصائصه أن يثبت أكثر مما تثبت الأنواع الأدبية الأخرى » (٤) .

وما أكثر ما خلده أجداد العربى الفلسطينى من أمثال شعبية يمكن توظيفها للعديد من العلوم الجغرافية والتاريخية والاجتماعية فى العملية التعليمية بجعلها مفتاحا لمواضع عدة « كالرياح والأمطار والغيوم والنجوم والآبار والزراعة والصناعة والتجارة .. الخ (٥) . كما سجلت الأمثال عناصر السلطة فى القديم (السلطان – الباشا – النقيب .. الخ) كما سنرى فيما بعد لتكشف عن الظروف التاريخية التى سادت فى البلاد .

هذا بالاضافة للعديد من الأمثلة الشعبية التى تشخص الكثير من الظاهرات النفسية لتخدم علم النفس وكذا الاقتصاد والانثروبولوجيا والعديد من العلوم الأخرى التى نأمل أن توظف توظيفا أمثل كنصوص

---

(٢) على بن محمد بن حبيب الماوردى – الأمثال والحكم – تحقيق د. فؤاد عبد المنعم أحمد – المرجع السابق ص ١٢ .

(٣) رودلف زلهايم – الأمثال العربية القديمة – ترجمة د. رمضان عبد التواب – مؤسسة الرسالة بيروت – بدون تاريخ – ص ٤٦ .

(٤) الكسندر كراب – علم الفلكلور – ترجمة رشدى صالح – المرجع السابق ص ٣٢٦ .

(٥) جاءت هذه الأمثال فى كتاب المؤلف – الجغرافيا الفلكلورية للأمثلة الشعبية الفلسطينية – المرجع السابق .

تعليمية تسهل بواسطتها عملية التحصيل والاستذكار عند الطالب وتعزز بها فى الوقت نفسه عنصر الانتماء لتراثه والتقدير لأجداده .

ويكفينا ما ذكره الله عز وجل فى كتابه العزيز للذين ادركوا الأمثال وكنهها بقوله « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون » صدق الله العظيم ، ليخص من يدركها بأسمى مراتب العلم فيسميه عالما .

المثل وترسيخ القيم الأخلاقية والاجتماعية والدينية :

فالمثل الشعبى لم يترك قيمة من القيم الأخلاقية والسلوكية الا وعالجها ، من هنا تبدو اهميته فى توكيدها وتأصيلها عند الناشئة من أفراد المجتمع خاصة عند غياب السلطة الشرعية فى فترات الغزو والاحتلال الذى يغزو عندها أفراد المجتمع بقواعد سلوكية مبرمجة تتنافر واعراف الشعب الاجتماعية ومعتقداته الدينية القويمة ، فتكون هذه الأمثال حينها من عناصر القوة الحقيقية المحافظة على هيكله الاجتماعى وكيانه الخلقى لأنها خرجت من وعيه ووجدانه الشعبى لتقيه من القهر والتسيب عند المحن . وخير ما يدعم هذا المثل الشعبى ويقويه ويمكنه فى نفوس الناس أن العديد منها مقتبس من تعاليم كتاب الله وسنة رسوله تنهى ما نهى الله عنه وتأمر بما يأمر به كما سنلاحظ ذلك عند دراستنا للملامح الدينية للشخصية الفلسطينية فيما بعد . هذا على الرغم من تحفظنا للبعض منها والتى ربما نشأت فى ظل ظروف اجتماعية خاصة .

المثل الشعبى مستوى بلاغى وأدبى رفيع :

لقد ذكر العديد من خلال شرحهم للمثل بأنه نهاية البلاغة لما يمتاز به من طلاوة نثرية ورشاقة لفظية . كما أنها أبدعت فى اتخاذ أساليب ووسائل فنية أخاذة للوصول الى ذهن السامع ووعيه بطريقة سلسة وصريحة ومن أساليبها فى ذلك :

(أ) الميل الى التلميح دون التصريح والكناية لا الافصاح والرمز دون التقرير ، مغلفة اسلوبها بذلك تفاديا لما قد تتعرض له من جبروت السلطة وقسوة المستبدين الطغاة .

(ب) اسناد الأمثال كلماتها الى الأقوال لسهولة تمريرها (الأمثال القولية) التى نجدها تبدأ دائما بكلمة .. قالوا أو قال .. [قالوا للأعمى ... قالوا لجحا ... قالوا للأقرع ... الخ] .

(ج) – هناك أمثال تنطوى على الموازنة لتبيان التناقضات لتعزيز مقولاتها وتوكيدها فالضد يظهر حسنه الضد .

(د) – فى الأمثال ما يكون مجازا يستخدم فى موقف معين .

(هـ) – يتضمن المثل أحيانا التشبيهات سواء أكان لبعض الأبطال الشعبيين أم لأولياء الله الصالحين وأحيانا للجن والشياطين .. الخ مثل [عنتر – أبو زيد – هامان – فرعون – قيس ويمن – أبو طبر – أيوب ..] وعليه يمكن توظيف هذه الأمثال توظيفا أدبيا كنماذج ونصوص بلاغية راقية .

المثل الشعبى والحركة الفنية :

المثل الشعبى عامل مهم وعنصر ملهم فى تنشيط الحركة الفنيـــة واستنفار طاقاتها الكامنـه بما توحيه للفنـان من صور شعبية لمجالات الحياة الاجتمـاعية والاقتصادية والسياسية المتشعبة ، حتى ليكاد كل مثل شعبى يحمل صورة حية أو لوحة نابضة جميلة يمكن تخيلها وتنفيذها

المثل الشعبى والهوية القومية :

يسهم المثـل الشعبى بأسـلوب فعال فى صياغة الهـوية القومية للذات العربية بوجه عام والفلسطينية بوجه خاص كجزء من الأمة العربية وذلك بابراز ملامحها لمواجهة تحديات الآخرين من الأعداء الذين يبذلون الجهد المتواصل لطمس ملامحه وشطب قسـماته ومحـاولة القضـاء على مقوماته .

فالأمثال بذلك تقر حقيقة قومية عربية واسلامية واضحة بما تفنده من مقومات لغوية ووقائع تاريخيـة وأعراف اجتماعية ومعتقدات دينيـة وجذور سلالية ، تؤكد جميعا حضارته التليدة وعراقته المجيدة ، وقدرته على الاستيعاب والتفاعل مع الحضارات الأخرى مما تمنح أهلها هوية قومية متميزة وتفصح عن خصوصية « بصـمته » التى هى من خصوصيـية شخصيته . خاصة وان المثل الشعبى يتميز بحصانة ومناعة ضد الطمس والالغاء من جانب حتى خصومه وأعدائه الطغاة لا من أصحاب السـلطة الذين يمكنهم أن يوقفوا كل شيء كأن يكمموا أفواه المغنين وأغانيهم ويلغوا أفراحهم وحتى أتراحهم ، لكنهم لن يستطيعوا مهما أوتوا من قوة وجبروت أن يحولوا دون تداول الأمثال بين الناس ، من هنـا استمدت خلودها وديمومتها وأصبحت سندا تراثيا يركن اليه كوثيقة تحمل ملامح شعب .

وقبل أن ننهى حديثنا عن الأمثال ووظائفهـا لابد لنا فى التنويه على ما يبدو أحيانا الى تناقضات الأمثال فى حديثها ومعالجتها لكثير من المسائل والقيم الاجتماعية والعلاقات بين الأفراد السالبة منها والموجبة ، أو تلك الخاصة بعلاقة الأسرة الواحدة وكما تبدو أحيانا عند ذكرنا للعلاقة بين الجيران الى آخر ذلك من هذه المواضع كما سنراها .

هذه التناقضات هى فى الواقع رد فعـل طبيعى لمجريات الأحداث التى تتباين بتباين الأزمان ومن ثم اختـلاف النفس البشرية نفسـها فتأتى عندها الأمثال لتسجل هذه الاختلافات حيال الحدث الواحد فتبدو متناقضة . كما نرى الأمثال متناقضة وذلك لتناقض الطبقات الاجتماعية وتعددها واختلاف أمزجتها حيال الأحداث . والمجتمع الفلسطينى فى عمومه تحفه من الجنوب والشرق البداوة فى الغـالب الأعم ، وتتسنم ذرا أطواده وبطون أوديتـه القرى الفلاحيـة الزراعية فى عمومها ، فى حين تنتشر المدن بسكانها الحضر فى المناطق الساحليـة والداخلية على الأخص .

ولا ننسى أن مبدعى الأمثال هم أفراد من الناس قد تتباين تجاربهم وتجاوبهم تجـاه الموقف الواحد فتنعكس على أمثالهـم التى قد تبدو متناقضة ، كما أن الأمثـال هى فى الواقع حصـيلة تجارب تتفاوت بتفاوت السلطات المتناقضة والمتضادة فتبدو التجارب المثلية الشعبية مختلفة ومتضادة سواء فى صيغتها أو مدلولهـا ، فعـلى سبيل المثال لا الحصر نجد الأمثال الشعبية فى العصر الجاهلى تختلف عن تلك التى فى العصر الاسلامى التى هذبها الاسلام وشذب من معانيهـا ومراميها ، كما أنها تختلف أحيانا عن الأمثال التى جاءت مع اختلاط العرب بالفرس وغيرهم من الشعوب التى أخذوا عنها الكثير أثناء رحلاتهم التجارية وفى أسواقهم ، وما أطلعوا عليه من كتب شعوب أخرى وثقافاتها .

وبعد ، لعل ما ذكرناه من مفهوم المثل الشعبى وخصائصه ، مبناه ووظائفه يفسر لنا لماذا اتخذنا المثل عنوانا ووسـيلة لتفسير ملامح الشخصية الفلسطينية .

الفصل الثانى

اللهجات الفلسطينية
فى أمثالها الشعبية

اللهجات الفلسطينية
فى أمثالها الشـعبية

يقال ان اللهجة هى النطق بلغة خاصة داخل نطاق بيئى محدد (١)؛ ويقال ان أصول الأدب مشتقة من التفكير العام للأمم والشعوب ومستوحاة من أحاديثهم وصور مجتمعاتهم ·

بالاضافة لذلك هناك ادعاء بأن العامية صورة متدهورة من العامية الفصحى وأنها تركيب آلى غير جدلى من العربية والقبطية واللغات التى عرفتها الساحة العربية خلال تمازجها مع الحضارات الغازية من الشرق والغرب (٢) · وفلسطين حركتها بحكم الموقع الجغرافى الوسيط والجسر الأرضى الاجبارى لمرورها جميعا والذى يستند طرفه الجنوبى على المنبع البشرى الهائل للبشرية جمعاء فى شبه الجزيرة العربية التى ولدت منها اللغة السامية التى تفرعت منها العربية الفصحى لغـــة القرآن الكريم والقومية العربية المتميزة بالنماء والتطور والقدرة على الأخـذ والعطـاء واستيعاب العديد من الكلمات والمصطلحات والصيغ العامية · ولكن كما يقول رئيف خورى لن تتحقق الا من خلال لغة الشعب والذى يرى أن صيغ الجمل العامية من مولدات تعبيرية منبثقة عن العبقرية الشعبية معتقدا بأن الألفاظ والتراكيب العامية يمكن تفصيحها بدون أدنى شك عنـد الضرورة « وأنف اللغويين المتزمتين راغم » (٣) ومما هو معلوم أن اللهجات

---

(١) أحمد تيمور باشا ـ لهجات العرب ـ المكتبة الثقافية ٢٩٠ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٧٣ ص ٧ ·

(٢) أحمد رشدى صالح ـ الأدب الشعبى ·

(٣) نبيل فرج ـ التجديد والثورة في الفكر العربى الحديث ـ مقال بمجلة القاهرة ـ عدد (٧٧) بتاريخ ١٩٨٧/١١/١٥ ص ٣٥ ·

العامية هذه لا تمتلك حروفا خاصة بها ولا حركات تتميز بها ، أى لابد للتعبير عن العامية من استخدام حروف اللغة العربية الفصحى وحركاتها ، الا أن قراءة « المثل الشعبى » بالفصحى يفقده طلاوته النثرية ورشاقته اللفظية ، من هنا جاءت كتابتها كما يلفظها الشعب على الرغم مما يشوب هذه الكتابة من أخطاء .

ولدى استعراضنا لتاريخ اللغة العربية واللهجة الفلسطينية لابد لنا من الخوض لأصل تاريخ هذا الشعب الذى ظهر مع بدء التاريخ وأبعد من العصر الحجرى الذى اكتشفت آثارها من أدوات وأوان صوانية متنوعة فى مدن وقرى منتشرة فى بقاع شتى على الساحة الفلسطينية سواء أكانت فى أريحا ــ شرقا أم المدن الساحلية غربا وفى مدن النقب ووادى غزة جنوبا (٤) .

ففى بلادنا اقدم مدن العالم قاطبة « أريحا » التى تشهد آثارها على تنظيم وتخطيط مدنى بلغ درجة من التقدم لشعب عريق كما أثبت ذلك العديد من بعثات الآثار من أمثال « كاثلين كينيون » التى قامت بدراسة حفائر هذه المدينة (٥) والتى دلت على وجود شعب سكن فلسطين وكان على درجة من الرقى والادارة وهو الشعب العربى الكنعانى بقبائله المتعددة من فينيقية ويبوسية وعناقية .. الخ فشادوا المدن وحفروا الآبار وزرعوا الأعناب ورسموا الحرف ونطقوا به فأهدوا العالم لغة مكتوبة ومقروءة مازالت للآن لها أثرها على لغاتهم . فلا عجب أن يندمج هذا الشعب العربى مع جيرانه العرب شرقا يعطيها ويأخذ منها ليعزز عروبته .

فاللهجات العربية الفلسطينية العامية مازالت بين طياتها سواء كلماتها أو أسمائها الشخصية الكثير من الكلمات البابلية والآشورية التى هى من لهجات اللغة الآكدية ينطق بها شعبنا حتى اليوم ربما دون ادراك منهم بعمقها التاريخى والتى استخدمت فى العراق منذ سنة ٢٥٠٠ قبل الميلاد واستمرت متداولة حتى القرن الأول قبل الميلاد (٦) .

فالدارسون للغة الآكدية يقولون بأن أفراد شعبها لا يلفظون بعض

---

(٤) سليم المبيض ــ غزة وقطاعها ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ القاهرة ١٩٨٧ ص ٤٧ ــ ٥٦ .

(٥) K. M. Kenyon, Archaeology in the Holy Land, 3Edition London, 1970, pp. 58-69. â

(٦) التراث الشعبى ــ العددان ١١ ــ ١٢ ــ السنة السابعة ــ وزارة الاعلام ــ بغداد ، ١٩٧٦ ص ٥ ــ ٦ .

الكلمات التى تتضمن حرفين شفافين وان يكتبوها صحيحة مثل كلمة « ماركاباتى » أى « مركبة » فيلفظونها « ناركاباتى » وذلك باستبدال الحرف الأول « ميم » بحرف « نون » ومثلها « ذبابة » يلفظونها « دبانة » بابدال الحرف الشفافى الثانى « ب » بحرف « ن » ومازال هذا شائعا فى اللهجة العامية العربية الفلسطينية حتى اليوم خاصة بين أبناء غزة .

ومن الأسماء الشائعة لدى الشعب الفلسطينى اسم « نشمى » وجمعها « نشامة » وهى كثيرة الاستخدام فى أمثالنا الشعبية وأغانينا وأهازيجنا الشعبية والتعابير اليومية وهى آكدية تعنى « صاحب المروءة والنخوة لنجدة الآخرين ومساعدتهم كما تعنى المتصف بالجود والكرم مشتقة من المصدر « ناشامو » . وهناك كلمة « منو » بمعنى « منه هو » وكذلك اسم « بربر » ومعناها لمعان النجوم وعبادة (٧) . وفى فلسطين قرية تحمل هذا الاسم من قرى شمال مدينة غزة .

ومن الكلمات الشائعة الاستخدام فى اللهجة الفلسطينية وخاصة عند الأفراح « شوباش » وهى آكدية الجذور محرفة من « شبيشو » وتعنى الضريبة العينية التى كانت تؤخذ قديما على الحبوب (*) . بالاضافة الى كلمات « داده » وتستخدمها الأمهات بنفس اللفظ وتعنى المحبوب أو الحبيب ومن الأسماء الشائعة فى فلسطين « عاشور » وهو مشتق من « اشورو » الآكدية بمعنى اليوم العاشر (٨) . وعله بذلك يذكرنا بيوم عاشوراء .

وهكذا استمرت العامية كأداة فنية تعبر بسلاسة عن مشاعر هذا الشعب العربى الفلسطينى ووجدانه فكانت وسيلة التفاهم وحل قضاياه وقد استوعبت العديد من الكلمات لحضارات مختلفة وفدت لهذه الأرض لتؤكد صلابته وقدرته على التأقلم معها جميعا ولتعكس بمفرداتها المتنوعة تفاعلات هذا الشعب مع الشعوب الأخرى سواء عن طريق علاقاته الثقافية أو الاقتصادية والهجرات الطبيعية أو الناجمة عن الغزو الاستعمارى والثقافى لموقعها البيئى .

وعلى العموم فقد تناوبت فلسطين لغات ثلاث هى العربية الكنعانية

---

(٧) التراث الشعبى ــ العددان ١١ ــ ١٢ ــ المرجع السابق ص ٧ .

(٨) التراث الشعبى ــ المرجع السابق ص ٨ ــ ٩ .

(★) وهناك ما كان يطلق عليهم الشعب الفلسطينى « أصحاب الشوباش » : وهم مجموعة من الطبالين والعازفين على الربابات خلف الجنود لبث الحماس والشجاعة فيهم .

والآرامية ثم العربية الحديثة مع ما تداخلت بينها من لغات غازية عسكريا او لغات تاثرت بها تجاريا وثقافيا .

فاللغة الكنعانية الفينيقية استمرت تصبغ أسماء مدننا وقرانا العديدة والعديد من مفرداتنا ومصطلحاتنا الحديثة .

وقد استمرت هذه اللغة شائعة مع شعبنا فى مدن جباله وسهوله ووديانه التى يقطنونها وفق نظام « المدينة الدولة » والتى ربما نجم عن هذا التباعد الجغرافى لحد ما اختلاف اللهجات حتى القرن السادس قبل الميلاد أما اللغة الآرامية فقد شاعت وانتشرت فى المدن الفلسطينية ابتداء من القرن السادس قبل الميلاد وحتى نهاية القرن الثامن الميلادى (٩) ، اى لحوالى ألف سنة وهى لغة السيد المسيح عليه السلام الذى ولد وترعرع فى فلسطين ومازالت هذه اللغة ينطق بها اليعاقبة والسريان والموارنة والكاثوليك وللآن هناك كلمات آرامية متداولة فى لغتنا العربية وانطبعت على أسماء قرى ومدن فلسطينية مثل (بيت جبرين اى بيت الجبابرة والأقوياء ، وبتير أى عطش الطير ، وصفد بمعنى الربط والشد ، وبيت حنينا اى بيت النازلين أو المقيمين) بالاضافة للعديد من الكلمات المشتقة من الآرامية ومتداولة للآن فى لغتنا ولهجتنا عبر أمثالنا الشعبية الفلسطينية المحلية مثل [خابية — بور — يم — بلوط — توت — أزز — بطيخ — زفت — زنار — دولاب — قس — شماس ...] (١٠) .

وفى هذه الحقبة التاريخية تعرضت فلسطين للغزوة اليونانية بقيادة الاسكندر الاكبر سنة ٣٣٢ قبل الميلاد وأصبحت فلسطين أرض صراع بين خلفائه من البطالمة والسلجوقيين ليأتى بعدهم الرومان والبيزنطيون ، سادت خلالها اليونانية كلغة أثرت على الشعب العربى الفلسطينى بقالبها لا بقلبها فنرى أسماء المواطنين بقيت عربية ولو أنها كتبت بأحرف لاتينية كما دلت العديد من الآثار التى عثر عليها فى فلسطين ومنها كتابة على شاهد قبر فى مدينة رفح (١١) . كذلك الأسماء العربية التى وردت

---

(٩) وليم أولبرايت — آثار فلسطين — ترجمة د. زكي اسكندر — المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ، الكتاب الحادى عشر — القاهرة ١٩٧١ ص ١٧١ .

(١٠) مصطفى مراد الدباغ — بلادنا فلسطين — الجزء الأول — بيروت — ١٩٦٦ ص ٦١٠ ، ٦١٢ .

I.E.J., Vol. 24, 1974, pp. 128-131.

فى برديات العوجافير (نصتان) فى العصر البيزنطى واستخدام اللغة العربية جنبا لجنب مع اللغة اللاتينية فى نفس الوثائق والمستندات لتؤكد بقاء اللغة العربية (١٢) ، ومن اللغة اليونانية اخذت اللغة العربية مفرداتها منها على سبيل التمثيل لا الحصر [قفة — ينسون — طاجن — كراوية — فانوس ..] . وتاثرت لغتنا بلهجاتها — وبحكم الجوار الجغرافى — بالقبطية أو اللغة المصرية القديمة وخاصة أسماء الأشهر التى مازال الشعب الفلسطينى يستخدمها فى بعض أمثاله الشعبية كما سيأتى ذكره ، هذا بالاضافة للعديد من الكلمات والأسماء التى دخلت فى أمثالنا الشعبية منها [برسيم — التمساح — بورى — سنط — ورور ..] (*) وكثيرا ما يستخدم شعبنا هذه الكلمة الأخيرة فى مثله الشعبى الشائع :

١٠ — صلع الورور .

للدلالة على الاستغراب الممزوج بالاستهزاء وتستخدم النساء فى الغالب هذا القول السائر فيما بينهم .

كما اتخذت من الفارسية الكثير من كلماتها ومصطلحاتها التى دخلت فى بطن اللغة العربية مثل [كمنجة — تخت — هندام — قماش — لون — خيار — دكان — شاكوش — سروال — شال — ياسمين — طشت — طربوش — كهربا ...] .

ومن الكلمات السريانية التى شاع استخدامها فى اللغة العربية ولهجتها العامية مفردات مثل [شتلة — كرنب — كوز — مالوش — بردعة — سمسار — بز] ثم دخلت بعض الكلمات الهندية مثل [بفتة — خرزان — سكر — جنزبيل] وكذلك استخدمت بعض الكلمات التركية مثل [قشلاق — خشوقة — طابور — برنجى — شوربة — دمغة — شنطة — زمبلك — راهوان — زلابية — خوجة بمعنى أستاذ — كرباج ..] وقد ورد العديد من هذه الكلمات فى الوثائق والحجج العربية الفلسطينية فى العصر التركى (١٣) .

كما دخلتها بعض الكلمات الأوربية الحديثة مثل [برميل —

---

(١٢) مصطفى العبادى — محاضرات فى تاريخ العرب قبل الاسلام — بيروت — ١٩٨٢ ص ١٧٥ — ١٨٦ .

(★) ومن الكلمات القبطية الشائعة : بيصارة ومعناها الفول المطبوخ وكذلك : مش — شوب — فاس — طورية .

(١٣) — كتاب المؤلف — غزة وقطاعها — المرجع السابق ص ٣٥٤ — ٣٦٠ .

برنيطة ـ بورصة ـ خرطوش ـ شوكولاته ـ جازوزة ـ بسـكوت ـ بركان ـ طاولة] وهى ايطالية فى الغالب .

وعلى ذلك لم تكن الشخصية العربية الفلسطينية شخصية جامدة لم تؤثر فيها التطورات الحضارية بل تجاوبت معها جميعا بالتأثير والتأثر ، والأخذ والعطاء متفاعلة ومنفعلة بجميع الأحداث التاريخيـة ومستبيحة للتفاوت الاقتصادى والسياسى لتؤكد شـخصيتها المرنة وقسـماتها المتميزة .

ومما نود تأكيده هو الحضور العربى الكنعانى والفينيقى والفلسطينى على الساحة الفلسطينية دون انقطاع ، تمتع بتواجده بمراحل وفترات طويلة من الهدوء والاستقرار ، أبدع خلالها بحضارته فزرع وصنع وأشاد البنيان فكانت مدينة « أريحا » من أقدم مدن العالم . ثم صنع الحرف والكتابة وقام بالنحت والتعدين ثم جاب أجدادنا الفينيقيون بحار ومحيطات العالم حتى وصلوا لأمريكا الجنوبية قبل الميلاد .. فنسج من خلالهـا آدابا شعبية عربية وتمسك بمعتقدات وممارسات عمرها آلاف السنين ورثها لخلفه فكانت كافية لخلق حياة شعبية فلسطينية عريقة . أمدها فيما بعد العرب المسلمون بزخم تراثى هائل ، كان الجنوب الفلسطينى فيه « بوابة التعريب » حيث وقعت على أرضه أول وقائع المسـلمين [واقعة العربة وداثن (الدميثة) جنوب شرق غزة ـ واليرموك (١٤) .

ومن فلسطين ومن مدينة الرملة بالذات انطلقت سياسة التعريب واتخذت العربية لغة رسمية عام ٨٧ هجرية (١٥) ليعيد بذلك عبد الملك ابن مروان خليفة المسلمين للغة العربية سيادتها كما كانت أيام أجدادهم من العرب الكنعانيين والفينيقيين والأنباط .

وبدأت القوة العربية الاسلامية بقيادة عمر بن الخطاب ومن قبـله رسول الله صلى الله عليه وسلم فى اقطاع الأراضى وتشجيع المسلمين على زرع خربيها فدخلت القبائل العربية المختلفة الأراضى الفلسطينية ينطقون لغة القرآن ويتحدثون الفصحى لغة قريش ومعها العديد من القبائل التى جاورتها بلهجاتها المختلفة فجددوا بذلك لفلسطين وشعبها عروبتهما .

(١٤) الامام أبى الحسن البلاذرى ـ فتوح البلدان ـ المكتبة التجارية الكبرى ـ مصر ـ ١٩٥٩ ص ١٤٤ .

(١٥) أبى عبد الله محمد الجهشيارى ـ حققه مصطفى السقا وآخرون ـ الطبعـة الثانية ـ شركة ومطبعة مصطفى البابى ـ مصر ، ١٩٨٠ ص ٤٠ .

ولعل فى ذكر ما جاء بوثيقة رسول الله صلى الله عليه وسلم التى اقطع بموجبها الصحابى تميم الدارى أراضى مدينة الخليل وبعضا من قراها ما يشير الى اللغة العربية ولهجاتها فقد جاء فيها :

« بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أنطى (أعطى) محمد رسول الله لتميم الدارى وأصحابه ، أن انطيتكم بيت عين وحبرون وبيت ابراهيم بذمتهم وجميع ما فيهم نطيه بت نفدت وسلمت ذلك لهم ولأعقابهم من بعدهم أبد الأبد فمن آذاهم فيها آذاه الله ، شهد أبو بكر بن أبى قحافة وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب ومعـاوية بن أبى سفيان » (١٦) .

وانتشرت بذلك القبائل العربية فى طول البلاد الفلسطينية وعرضها واستمرت راسخة تعمر القرى والمدن تحرث الأرض وتزرعها فى الوقت الحاضر . ومن هذه القبائل التى مازال أحفادهم يعيشـون على ترابهـا متمسكين بلهجاتهم :

قبيلة جذام : التى انتشرت بطونها فى شتى المدن والقرى ابتداء من مدينـة العقبة جنوبا وحتى قرى عبسـان الكبيرة والصغيرة ومدينة خان يونس الى الشمال منهم عائلات [القدرة ـ العبادلة ـ الأحامدة ـ بنو بهى ـ بنو خديجة ـ وعائلة البطة] (١٧) . وكذلك سكنوا طبرية واللجون واليامون قرب عكا وفى بيت جبرين وزمارين بالقرب من حيفا وفى منطقة الغور وبئر السبع حيث يقطنها عرب الجبارات . ومنهم من نزل بقرية حجة بنابلس . وفى الشـيخ مونس « آل بيدس » والسـعيد بمدينة يافا .

كما سكنت قبيلة لخم وأحفادها بمنطقة الأغوار ومنهم « المساعيد » وحول مدينة بئر السبع فى النقب الفلسطينى ومنهم « بنو نبهان » وفى جنوب شرقى البحر الميت ومنهم التميميون من ذرية الصحابى تميم الدارى بمدينة الخليل ونابلس وبئر السبع .

وهناك حفدة قبيلة بنو كلب : ومنهم بنـو عامر الذين استوطنوا

(١٦) تقى الدين أحمد بن على المقريزى الشافعى ـ ضوء السارى لمعرفة خبر تميم الدارى ـ وقد ورد مصورا فى مجلة :
Journal of the Palestine Oriental Society, Vol XIX, pp. 161-162.

(١٧) أبى الفوز محمد أمين البغدادى السويدى ـ سبائك الذهب فى معرفة قبائل العرب ـ دار احياء العلوم ـ بيروت ـ بدون تاريخ ص ٥٥ .

السهل الشمالى الفلسطينى المسمى باسمهم « سهل مرج بن عامر » ومنهم « الهديبات » فى جبل الخليل وعشيرة السراحين فى منطقة بئر السبع الذين هم من جراوين أبى صعيليك » كعشيرة من قبيلة الترابين ومعهم العديد من العشائر والحمايل (١٨) ، كذلك استوطن بعضهم بعض أحياء مدينة غزة وسميت باسمهم « حى بنى عامر » تابع لحى الدرج .

وهناك قبيلة جرم بن ربان من قضاعة وقد سكنت منطقة غزة وبعضهم نزل شمالا فى منطقة « وادى حنين » .

أما قبيلة عاملة وهم من القحطانية فقد انتشروا أيضا جنوب فلسطين فى المنطقة الواقعة غرب البحر الميت . هذا بالاضافة لقبيلة سليح التى هى بطن من قضاعة من القحطانية وكانوا من النصرانية .

هذا بالاضافة للعديد من القبائل العربية التى مازالت تحمل أسماءها قرى فلسطين مثل معن وخزاعة وبنى سهيلا وعبسان شرق مدينة خان يونس ، وقبائل ذبيان وبنو بهراء (١٩) وبنو غدره والحوارث وغيرهم بحيث كانت لهذه القبائل وغيرها الآثر الفعال فى ادخال لهجاتها ومن ثم تنوعها وتعددها على النطاق الجغرافى الفلسطينى والديمغرافى فأضفوا عليها وعززوا السمات العربية الأصيلة على جميع ملامحها فنجد معظم أسماء العائلات الفلسطينية تبدأ بـ « بنى أبو – بنو – أبى » لتؤكد عروبتهم الخالصة هذا بالاضافة لمئات القرى والمدن والمواضع الفلسطينية التى تبدأ بكلمات عربية مثل [أبو – أم – بنى – بيت – تل – خان – خربة – دير – عراق – عرب – عين – بئر – كفر – مزرعة أو المزرعة – نزلة أو النزلة] (٢٠) . لتطبع بذلك الملمح العربى الأصيل على الخريطة الديمغرافية الفلسطينية بكامل اتساعها وامتدادها كجزء لا يتجزأ من الوطن العربى الواحد . كذلك أضفت عليها وعلى سكانها خاصة لهجاتها التى مازال الجميع متمسكين بهـا رغم كل المعوقات والتقدم الحضارى والثقافى وكذا الانتشار والشتات التى فرضته ظروفهم القاسية الناجمة عن اغتصاب الأرض والتشريد .

ولعل فى ذكرها ما يعيننا على توضيح وتفسير العديد من الأمثال الشعبية الفلسطينية ويفصح عن ملامحها العربية النقية فمثلا :

---

(١٨) عارف العارف – القضاء بين البدو – القدس ١٩٣٣ ص ١٥ .

(١٩) السويدى – سبائك الذهب فى معرفة قبائل العرب – المرجع السابق ص ٥٦ – ٥٩ .

(٢٠) انظر مجموعة الخرائط الفلسطينية ١ : ١٠٠,٠٠٠ :
Survey of Western Palestine :

– احسان لفظ الضاد بلفظ ظاء لتؤكد العروبة النقية .

– الامالة الكبرى وهى موجودة فى القراءات القرآنية السبع نحو عيسه (عيسى) وموسه (موسى) حمزية (حمزه) .. الخ (٢١) .

– كذلك قول العديد من أبناء الشعب الفلسطينى « أنى » بدلا من قولهم « أنا » . كما هو الحال عند أهالى خان يونس ورفح وغزة وقراها وكذلك مدينة نابلس ، وهذا ما يلفظه سكان جنوب الجزيرة العربيـة بما فيها اليمن .

– وهناك من يلفظون « القاف » كما هى بلفظها الأصلى وكذلك حرف الضاد التى تكنى اللغة العربية به (لغة الضاد) وحرف الثاء كما هو الحال عند بعض سكان قرى غزة خاصة أهل السوافير .

ويتوج هذه العروبة الاسلامية النقية استخدام سكان فلسطين كلمات وتعابير واقوال سائرة دارجة على ألسنتهم ترجع باصولها للقرآن الكريم كقولهم :

١١ – الله لا يتيرك .

أو الله يتيرك .

فقد جاء فى القرآن الكريم « لن يتركم أعمالكم » صدق الله العظيم بمعنى لن ينقصكم أعمالكم وقد حرفت بلهجة الامالة وهذا القول شائع بين سكان مدينة غزة وأبناء نابلس .

ومن مصطلحات سكان قرى مدينة غزة الشائعة وعلى الأخص أبناء قرية جباليا قولهم « أكفر العجين » أو « أكفر الصحن » بمعنى « غطى » أو قم بتغطية العجين . وقد ورد فى الآية الكريمة « كزرع أعجب الكفار نباته » صدق الله العظيم ، والكفار هنا بمعنى المزارعين الذين يغطون الحب بالتراب .

وهناك لفظة دارجة فى أمثالنا الشعبية وهى « الكنة » كقولنا فى مثلنا الشعبى :

---

(٢١) احسان النمر – تاريخ جبل نابلس والبلقاء – الجزء الثانى – نابلس ١٩٦١ ص ١٠ – ١١ .

« يا بلحكم » وقولهم « يخلف عله » بدلا من « يخلف عليك » كما يلفظها الترابين .

ويطلقون عليها لثغة بني طيء وهي القبائل التي ماتزال تسكن منطقة بئر السبع وتعدد باصولها لهذه القبيلة العربية (٢٣) . كما تسود هذه اللهجة بين أهالي القرى الحدودية بين المدينة والبادية (هوج – سمسم – برير ..) شرق وشمال غزة .

العنعنة :

وتقوم على ابدال حرف « العين » من الهمزة فيقولون « عن » بدل من « أن » كقولهم « اشهد عنك رسول الله » بدلا من « أشهد أنك رسول الله » . وأكثر ما تتضح بين أهالي البادية والقرى المتاخمة لها . واحيانا ينطقون « لا » بـ « لع » ويقال عنها عنعنة تميم .

التلتلة :

وذلك بكسر أول حروف المضارع كقولهم « تعلم » بدل « تعلم » و تلعب وتدرس وكذلك قولهم « عنيدها » بدل « عندها » .

الوكم :

وهي كسر « الكاف » المسبوقة « بيـاء » أو كسرة مثل قولهم « السلام عليكم » بدل « السلام عليكم » وقولهم « منكم » بدل « منكم » ويقال أنها لغة أهل الروم وقيل لغة ناس من بكر بن وائل .

وهذه اللهجة منتشرة بين أهالي قرى بني سهيلا وعبسان وخزاعة شرق مدينة خان يونس كقولهم « جميزة – عملة بدلا من جميزة وعملة كما يكسرون سكان هذه القرى الحرف قبل الأخير من الألفاظ المؤنثة مثل « فاطمة » وماشية بدل من فاطمة وماشية .

الوتم :

وهي قلب « السين » الى حرف « ت » فيقولون « النـات » بدل « الناس » وهي لغة أهل اليمن .

(٢٣) السويدي – سبائك الذهب في معرفة أنساب العرب – المرجع السابق ص ٥٥ .

وبالاضافة لهذه اللهجات الواضحة هناك من الأهالي من يبـدلون « أل التعريف » بـ « أم » فيقولون « امبارح » بدل « البارحة » وأحيانا يلفظونها « امبيرح » كسكان مدينة غزة وترتد في أصلها لبني تميم .

وهناك من يستبدلون أحرف « ث » وحرفي الذال والظاء المعجمة فيلفظونها « تاء ودالا وزايا وحرف الظاء بحرف ضاد فيقولون « اتنين » بدل « اثنين » و « دهب » بدل « ذهب » . كما هو الحال عند أهالي مدينة غزة في حين يلفظها العديد من أبناء القرى كما هي باللغة الفصحى .

وهناك من يبدلون حرف الصاد بحرف « سين » فيقولون « سغيرة » بدل « صغيرة » كما عند أهالي جباليا . اما سكان غزة فيبدلون حرف الصاد بحرف « ز » فيقولون « زغيرة » بدل « صغيرة » .

ومن السكان من يتميزون بالاطالة في كلامهم او المد في الحـديث والتروى مما يدعو لتفهيم السامع كأهالي جباليا وسكان دير البلح الذين يجمعون الكلمات على غير المعتاد [فجمع كباية كبابي ، وابريق جمعهـا برقان ، كما يسمون الأشياء باسم صناعها فيطلقون على الابريق الفخاري اسم الغزاوى] .

ومن الشعب الفلسطيني من يلفظ حرف « القاف » مثل « الجيم » المصرية خاصة عند أبناء غزة ويلفظونها مفخمة كأهل الصعيد المصري ومثلهم سكان قرى بني سهيلا وعبسان وخزاعة .

وهناك من يدخل حرف « باء » زائدة على أول الفعل المضارع كقولهم « بتكتب بتضرب بدل تكتب وتضرب » ويقال انها تسربت الينا من اللغة السريانية (٢٤) وهي شائعة بين أهالي غزة وقراها الجنوبية .

كما يستبدل سكان قرى شرق خان يونس حرف « الضاد » بحرف « ز » فيقولون « بيز » بدل « بيض » و « عزني » بدل « عضني » . كما يتميزون بالامالة أي أنهم يميلون بالفتحة نحو الكسرة وبالألف نحو الياء . كما نجدهم يقفون على الحرف الساكن في كل كلمة ، وقد يبتدئون بالحرف الساكن كقولهم « دعامة المنزل » بدلا من « دعامة المنزل » .

وهناك من سكان فلسطين من يستبدل حرف «القاف» بحرف «الغين» فيقولون مثلا : « مش غادر » بدلا من « مش قادر » . كما يستبدل البعض حرف « القاف » بحرف « كاف » فيقول « كال » بدل من قال وخير ما ينطبق

(٢٤) احسان النمر – تاريخ جبل نابلس والبلقاء – ج ٢ المرجع السابق ص ١٣ .

هذا على سكان مدينة « المجدل » وبعض قراها المجاورة مثل قرى « الجورة ـ حمامة ـ بربر » مثل قولهم : « أكلتيلكيش أني » بدلا من قولهم « ألم أقل لك أنا » ومن السكان من يستبدل حرف « القاف » بالهمزة خاصة أبناء المدن فيقولون « آل » بدل « قال » و « أتلنى » بدل من « قتلنى » ويقال أن مرد ذلك أصلا للغة البونية والبونية الحديثة التى كانت سائدة فى شمال افريقيا وهى متفرعة بدورها من اللغة العربية الفينيقية الأم (٢٥) ٠

ومن أبناء الشعب الفلسطينى من يزيدون حرف « شين » فى آخر الكلمة للدلالة على « النفى » مع سبقه بحرف « ميم » كقولهم « مكتبتش » و « ملعبتش » بدلا من لم أكتب ولم العب ، بما يذكر بالتشتشة عند العرب ٠

ومن سكان قرانا الفلسطينية من يستبدلون حرف « الشين » عند أول الكلمة بحرف « هاء » فيلفظون كلمة « شوف » بقولهم « هوف » أى انظر ويتميز بذلك أهالى قرية جباليا ٠٠ كما يلفظون حرف « الهاء » بحرف « عين » فبدلا من قولهم « هيوا » اى « هذا هو » يقولون « أعيتو » ويشبههم فى ذلك سكان قرية برك سليمان شمال بيت لحم ٠

كما تتميز لهجة بعض القرى بالشدة على الكلمة عند نهايتها مع اضافة حرف « الياء » اليها مثل قرى دمرة وبيت حانون ودير سنيد كقولهم :

بقول ليكى ، بدلا من أقول لك

وهناك من يضيفون حرف « ن » على معظم الكلمات التى ينطقون بها خاصة عند الجمع فيقولون « قالن » بدل من « قالوا » وكقولهم « خربنو » بدل من « خربوه » وهذه شائعة بين سكان حى التركمان بالشجاعية بمدينة غزة ٠ وهكذا أهملوا « واو » الجماعة واستبدالها بحرف « نون » ٠

وهناك من يهملون « ميم » الجماعة فيقولون « انتوا قرأتوا » بدل من « أنتم قرأتم » كقول أهل بقية أحياء مدينة غزة ، أما حى التركمان فيستبدلونها بحرف « ن » كقولهم « قريتن » و « خربهن » بدلا من « قرأتم وخربتم » ٠ ويقال ان ذلك من أحكام اللغة السريانية التى انتشر استعمالها فى بر الشام (٢٦) ٠

(٢٥) يسرى غرايطة ـ الفنون الشعبية فى فلسطين ـ م٠ت٠ف ـ بيروت ١٩٦٨ ص ٣٥ ـ ٣٦ ٠

(٢٦) نعوم شقير ـ أمثال العوام فى مصر والسودان والشام ـ المرجع السابق ص ٧ ـ ٨ ٠

ومنهم من يبدل حرف « الجيم » بحرف « الزاى » فيقولون : ززر وفزل بدلا من جزر وفجل ٠ وهى من ألفاظ بعض القبائل العربية الفلسطينية وكذلك سكان بعض المدن كاهالى « يافا » ٠

ومنهم من يستبدلون الهمزة بحرف « واو » فيقولون « وين » بدل من « أين » وهى سائدة بين بعض القبائل البدوية وأبناء مدينة غزة ٠

كما يستبدل البعض الحرف الثانى « بياء » من الأفعال المضارعة فيقولون : سديت الدين بدلا من سددت الدين وكقولهم « هديت الدار » بدلا من « هددت الدار » ٠

ومن أبناء الشعب الفلسطينى من يزيد حرف « السين » على « التاء » بما يشبه حرفى Ts بالانجليزية فيقولون : « انتسوا » بدلا من « انتوا » وتسود بصفة خاصة بين أهالى مدينة الخليل وما جاورها من قرى وهى بالتالى قريبة من « كسكسة بنى تميم » الذين يقلبون « كاف » المؤنث سينا عند الوقف دون الوصل فيقولون : « اكرمتكس » بدلا من « اكرمتك » وهى قريبة بالتالى من لغة مضر وربيعة (٢٧) ٠

ونظرا للاستخدام الكثير من الكلمات شبه المتكررة فى الأمثال الشعبية والأقوال السائرة وكذا أحاديث الناس وأقوالهم ، لذا فقد قاموا بتخفيفها وحذف بعض حروفها مثل [على ـ هذا ـ حتى] فيخففونها بأحرف [ع ـ هـ ـ ت] على التوالى ٠ كما حذفوا الهمزة فى بعض الكلمات فقالوا [حد ـ ليها ـ ردت] بدل [أحد ـ الها ـ أرادت] على التوالى ٠ وأحيانا زادوا الهمزة أو غيروا موضعها فى الكلمات فقالوا [اجت ـ اله] بدل [جاءت ـ له] ٠

كما اختصروا بعض الكلمات لسهولة تداولها شعبيا وكثرة شيوعها واستخدامها فى الغالبية الساحقة من الأمثال لذا نود ذكرها معينا للقارىء ٠

(٢٧) أحمد تيمور باشا ـ لهجات العرب ـ المرجع السابق ٠

الكلمة	الاختصار الشعبى	ملاحظات
هذه الساعة	هسه ـ هسع ـ أسى	قرى ومدن شمال ووسط فلسطين
هذا الحين هذا الوقت	هلحينى ـ دحين هلوقيت ـ هلوقيتى هـلا	أهالى القرى الجنوبية فى فلسطين من أهالى المدن خاصة يافا غـزة
اى شىء ؟	ايش	من أهالى غزة
لأى شىء ؟ لماذا	ليش	
اى شىء أقوله لك	ايشـمقلك [ايش ما أقوله لك]	أهالى غزة
ماذا تريد ؟	ايش بدك أو ايشمالك .	
هذا	هادا (غزة) وهزيه (قرى غزة)	
علشان اى شىء	عشنيش .	
هذا هو	هرعى أو هرعيته .	تحريف لجملة « ها أنا رأيته » فى المنطقة البدوية والخليل .
ها هو	هيو (غزة) وهياتو (يافا) أعيتو (جباليا)	
أبناء عم أو عمومة	بنعمه (بنى عم)	المنطقة البدوية
ابن أخيه	ابناخه	المنطقة البدوية

هذا بالاضافة للعديد من الكلمات والتعابير الشعبية المتداولة بين أفراد الشعب الفلسطينى والتى لا يخلو الكثير من الأمثال الشعبية منهـا خاصة تلك الصادرة والمتداولة من أبناء شعبنا فى البادية الذين هم جذر وجذور التراث الشعبى العربى الفلسطينى ، لذا نورد بعض ما استطعنا جمعه وتحصيله علّه يعين القارىء على تفهم ما سوف يجىء منها فى أمثالنا الشعبية .

وذلك من خلال تفسير مفهوم كل كلمة :

الكلمة	المعنى	من يقولونها « أماكن الانتشار »	ملاحظات
ارميه	اضربه	قبيلة الحناجرة	
جوده	اضربه	» التياها	
صوبه	اضربه	» الترابين	
افلح	تقدم	» التياها	عند تقديم الطعام
يا حيف	يا خسارة	» التياها	
الذيخ	الكلب الأليف	» التياها	جمعها ذياخة
ارجب	قف عن الكلام	» التياها	
اقرع	قف عن الكلام	» الترابين	
اقرع ألبل	أوقف الابل أو ردها	» الترابين	
طب	قف عن الكلام	» الترابين	
أرع	اسمع	» التياها	
شوف	اسمع	» الترابين	وعند أبناء غزة
شن	اسمع		
يا هن	ياهذا	» الترابين	
هيناتى ـ هينسانتى	هناك	» التياها	لتحديد المكان أو الموقع
قوطر	اذهب أو انصرف		
عجد أو عقد	اذهب أو انصرف	جميع القبائل البدوية	
أهزم	اذهب أو انصرف	معظم القبائل البدوية	
هاك	خذ	التياها والعزازمة	
اروج	عجل	معظم القبائل البدوية	
باخن	عارف	القبائل البدوية	
جهامة ـ ذود ـ طرش	مجموعة كبيرة من الابل	القبائل البدوية	
خراف	حديث أو كلام	البدو وأبناء غزة وبعض قراها غزة	
دب	املأ		
قزى	ارسل	منتشرة بين أهالى قرى	
هول	كثير		
دوبو	الآن	غزة وبعض القرى الشمالية فى نابلس	
بصة	حجرة صغيرة من النار	البدو وأبناء مدينة غزة	
ودى لفلان	اعطى لفلان		
ارشد	اتبعنى	معظم القبائل البدوية (٢٨) .	

(٢٨) للمزيد انظر عارف العارف ـ القضاء بين البدو ـ القدس ١٩٣٣ ـ ص ٣٩ .

وأهل البادية الفلسطينية عموما وان اختلفت لهجاتهم قليلا عن بعضها الا أنها جميعا متقاربة ويسهل على السامع معرفتها ، وهم جميعا يختلفون لحد ما عن أهل القرى والمدن فى لهجاتهم ولو أن أهل القرى البينية تمثل فى لهجاتها منطقة الانتقال السلسة بين البادية والمدينة مثل أهالى قرى (هوج — الكوفخة — المحرقة — بئر السبع وأحياء مدينة غزة الشرقية وقرية الظاهرية ويطه والسموع) ٠

ومما تجدر معرفته عن أهل البادية الفلسطينية أنهم يميلون للاختصار المفيد فى أحاديثهم وبأسلوب ينم عن التصميم والعزيمة ، وكثيرا ما يعتمدون حرف « الهاء » فى نهاية كلامهم ٠

ومما يلفت النظر استخدام عرب التياها فى لهجتهم الصوت الخشن فى الغالب الأعم فى حين نجد الصوت الناعم عند الترابين ٠

أما الآن فنجد حدة هذا اللهجات قد بدأت تخبو لانتشار البدو فى جميع أنحاء فلسطين بعد أن كانوا يتمركزون فى النقب جنوبا ، فاتجهوا للأغوار الشمالية حول مدينة بيسان (سنة بيسان) نظرا للقحط الشديد الذى كان يصيب الجنوب الفلسطيني ، ومنهم من استوطنوا شمالا بالقرب من المدن الساحلية مثل [عرب الوحيدات — أو كشك — الحوارث] ٠

كما اختلطوا بسكان القرى والمدن وصاهروهم مما خفف من لهجتهم هذا بالاضافة لانتشار التعليم وتفوق العديد من أبنائهم وسكناهم داخل المدن مما جعل تقارب اللهجات وطيدا ٠ زادها تقدم المواصلات منذ نهاية القرن الماضى وبداية القرن الحالى خاصة دخول القطار مما يسر الاختلاط وزال الكثير من التفاوت فى اللهجات ٠ وزادها توطيدها واقترابا من بعضها ارتفاع مستوى المعيشة والهجرة الداخلية والحرفية من الرعى للزراعة لمجتمع التجارة والصناعة ٠

أما العرب الدروز الذين يتمركزون فى بعض قرى الجليل فى الغالب فيتميزون بأنهم يتحدثون الفصحى مع التشديد على بعض الحروف مثل القاف — والطاء ويمدون « الواو » و « الياء » ومنهم من انتشر نحو القرى الجنوبية لعوامل اقتصادية واجتماعية فحملوا معهم لهجتهم ٠

ومثل هذه الهجرات الداخلية خاصة على مستوى العائلات الكبيرة كثيرا ما تبرز صورة تعدد اللهجات فى القرية أو المدينة الواحدة سواء كان هذا اللجوء نتيجة أحداث اجتماعية مختلفة ٠

وبالاضافة لهذه اللهجات الفلسطينية العربية هناك « النبرة » التى تلحن اللهجة نفسها — اذا جاز لنا التعبير — والتى تميز فروقا صوتية

من العسير كتابتها ، الا تسجيلا صوتيا — كما هو واضح فى حالة « المدة » التى تغلب صيغة الاستفسار أو السؤال عند نهاية الكثير من الجمل التى ينطق بها أبناء مدينة غزة ، وقد حرف الميم وحرف الواو وتشديد حرف « الدال » مثل « دكان » بين أهالى قرية جباليا ، أو مد الكلام بلحن منخفض عند سكان « حى التفاح » بمدينة غزة ، أو كمد الصوت فى أحرف العلة بين أهالى مدينة القدس ، ومده عند نهاية كل كلمة عند أهالى الخليل وبصوت جهورى ٠ خاصة كلمة « خالى » التى يخاطبون بها الآخرون عند نهاية كل جملة تقريبا ٠

وهكذا ومن خلال هذه اللمحة عن اللهجات الفلسطينية العربية نجد أننا بازاء شخصية عربية الملامح من جلدها حتى نخاعها ، وتختزن رصيدا تاريخيا هائلا يلخص فى الحقيقة تاريخ العالم القديم المتمدن برمته ، بحكم وسطية موقعها المرورى ، استجابت معه هذه الشخصية بالعطاء بلغتها ، والأخذ من اللغات الأخرى ، وامتزاجها بثقافتها ، متميزة بذلك بالبعد عن الرتابة وضد الثبات ، شخصية عربية كنعانية فلسطينية من جذورها حتى أطراف فروعها الحديثة الآن ، يصور تاريخها المراحل المختلفة للنشوء والنمو والاكتمال ٠ وكأننا مع تعددها هذا بازاء أرضية من الفسيفساء الجميلة مساحتها مساحة فلسطين ، ذات ألوان متباينة أخاذة البريق واللمعان ، لكنه الاختلاف فى اطار الوحدة ، وحدة لغة القرآن الكريم ، لتجتمع مع بعضها بأسلوب متناسق جميل تشكل فيما بينها صورة واضحة المعالم ، هى صورة العربى بملامحه الوضاحة ، وجذوره المديدة ، مجتمعة فى الانسان العربى الفلسطينى ٠

وأخيرا فان تمسك الأسرة الفلسطينية بالاحتفاظ بلهجتها هو رمز من رموز التجذير والتأصيل لكل عنصر من عناصرها ، ومقاومة لن تقهر فى سبيل تعميق صلته بقريته أو مدينته التى يعيش أو كان يعيش فيها بعد تعرضه للشتات واللجوء القهرى على يد الصهيونية فى عام ١٩٤٨ و ١٩٦٧ على ما تبقى من الأرض الفلسطينية [قطاع غزة والمنطقة الجبلية الوسطى بما يسمى الضفة الغربية] والدول العربية المجاورة ثم سكنى المخيمات والمعسكرات محتفظين بلهجاتهم بها ، وسيلة من وسائل المقاومة ٠ حتى أصبحوا يستهزئون من كل فرد يحاول الفكاك من لهجته ، حتى ولو أدت به الظروف للغربة خارج وطنه ، تجد أهل قريته يتقاطرون عليه بمجرد عودته ، وأول ما يشدهم الاصغاء الى لهجته فاذا لمسوا تغيرا ما قد طرأ عليها ، ارتسمت على وجوههم ابتسامة السخرية وقد انفضوا من حوله مرددين مثلهم الشعبى الساخر :

١٦ — ما نابنا من غربتنا غير عوج ضبتنا ٠

الفصل الثالث

أمثال ...

المعتقدات .. والمعارف الدينية

● الشمس ★ القمر ★ الدبانة ★ الحية ★ بيت الاله

أقام أجدادنا العرب الأوائل من الكنعانيين أولى المدن وأقدمها فى العالم على أرضه « مدينة أريحا » بفلسطين . ليقيم من بعدها العديد من القرى والمدن والمزارع فوق ذرا جباله وسفوحها ، وعلى ضفاف الأنهار ، وبالقرب من العيون ، والآبار التى حفرها . وسط بيئة جغرافية طبيعية ليست بالذلول الهين ، بل انها حافزة بالتالى على الكد اذا ما حفر أو زرع أرضا ، وباعثة على التأمل وهو ينتظر سقوط أمطار فصلية قد يليها يلازمها رياح ويعقبها جميعا فصل صيفى بشمسه الساطعة وقمره الوضاء . أورثته جميعا مشاكل أخذ يبحث عن حل لفك رموزها ليتسنى له فهمها والتصدى لها ، أو التحايل عليها ، ليخفف من رعبه . ولما لم يجد لذلك تفسيرا خضع لجبروتها وسرها الدفين ، فقام بعبادتها والتقرب منها وارضائها خوفا من بطشها بتقديم أعز ما لديه من زرع وبنين قربانا لها وكسبا لرضاها . فاختاروا الشمس والقمر آلهة لهم لاعتقادهم بأنهما يرقبانهم فى نهارهم وليلهم ، فاعتقدوا فى « بعل » اله الشمس [ومعنــاه المالك أو الرب أو سيد] ، وبأنه مانح الأرض خصوبتها ومنبت زرعها اليانع وهو بدوره – أى بعل – يمثل قوة الخليقة الذكرية . أما الهة القمر « عشتاروت » فهى فى نظرهم واعتقادهم القوة الأنثوية (١) .

فلا عجب أن تجد من حفدتهم اليوم وبعد آلاف السنين من يعبر عن سخطه من أبناء الشعب وعدم يقينه واعترافه بهذه المعتقدات التى عفى عليها الزمن عندما يردد المثل الشعبى القائل :

---

(١) مصطفى مراد الدباغ – بلادنا فلسطين – المجلد الأول – القسم الأول – بيروت ١٩٦٧ ص ٤٩٠ – ٤٩٣ .

١٧ ـ شخر ونخر وسب الشمس والقمر .

ولا نود هنا وبادىء ذى بدء أن ندرس تعاليم دينية محضة .. لا . ولكننا بصدد تحليل التعبير الفنى للمثل الدال والمشير لهذه المعتقدات ، ومدى تأثر الشعب العربى الفلسطينى بهذه المعتقدات القـديمة اليوم ومردودها على مناحى حياته الفكرية ومشاكله الحياتية ومازال شعبنا لليوم يزعم بأن الطفل اذا ما فقد سنا من أسنانه أمسك بها وقد وقف مواجها لقرص الشمس لكى يرمى بسنه لها مؤملا أن تستبدله بسن أجمل منه .

وهى عادة عربية قديمة جاء ذكرها على لسان الأبشيهى (٢) .

ومازالت هذه التأثيرات ماثلة فى وجدان الشـعب وفكره متأثرا بمعتقدات أجداده الذين عبدوا أيضا ضمن من عبدوا الاها أسموه « بعل زبوب » بمعنى « اله الذباب » ومازال العديد من الدارسين لم يتوصلوا لأسباب ذلك معتقدين أنهم كانوا يحارون فى سر هذه المخلوقات الصغيرة التى تنتشر غالبا مع بداية الصيف .

ولعل فى تسمية الشعب الفلسطينى لأول مطرة تسقط مع بداية الخريف « ٢٧/ سبتمبر » باسم :

١٨ ـ مطرة الدبانة .

ما يقودنا لتوضيح تأثير هذه « الذبابة » على حاصلاته ومنتـوجاته الصيفية من الفاكهة عند اعدادها للتخزين وذلك بتجفيف ـ العنب والتين والجميز وأنواع أخرى عديدة من الفاكهة تحت الأشجار فتسقط عليهـا فجأة هذه « المطرة » مما يعرضها للبلل فيندفع الذباب ويتكاثر فوقهـا مما يؤدى لخرابها ، وأيما خراب ، لانسان انتظر نضجها واهتم بها طوال عامه لكى يخزنها [زبيب ـ قطين] كمؤونة شتوية ، وهذا كان حال أجدادهم الذين يحارون عندها أمام هذا المتحدى البسيط « الذبابة » وما تنزله من خسارة فادحة على الرغم من ضعفها مما دعاه لعبادتها . ومازال الشعب العربى الفلسطينى يرى فى هـذه « المطرة » المبـكرة وفقا لما جاء فى مثله الشعبى القائل :

---

(٢) الأبشيهى ـ المستطرف فى كل فن مستظرف ـ الجزء الثانى المرجع السابق ، ص ٨٠ .

١٩ ـ ان صلبت خربت .

أى اذا داهمته « مطرة الصليب » هذه فانها تعمل على تخريب اهم نتاجاته الصيفية وهو يجففها الا اذا أسرع فى تخزينها من قبل (٣) . وذلك من تأثير « الذبابة » وحتى اليوم نجد الفكر الشعبى لا يرى فى الذبابة حشرة نجسة فى حد ذاتها قائلا :

٢٠ ـ الدبانة مش نجسة بس بتغلت النفس .

أى نظرا لوقوعها على أشياء غير نظيفة وحملها لها فانها تقلق نفسيته وتزعج شهيته عن الأكل .

وقد عبد الكنعانيون « الحية » أى الثعبان ، وقد بدا ذلك واضحا فى اكتشاف العديد من التماثيل لها فى منطقة « تل بيت مرسم » بجنوب هضبة الخليل والتى تعود للفترة الواقعة ما بين ٢٠٠٠ ـ ١٦٠٠ سـنة قبل الميلاد كما بانت الثعابين فى هذه الحقبة على العـديد من الأدوات والأوانى الخاصة بعبادة الكنعانيين ، كما نقشوها على أختامهم « الجعارين » التى عثر عليها فى مدينة « تل العجول » جنوب مدينة غزة (٤) .

وهكذا أخذت « الحية » دورا فى وجدان الشعب الفلسطينى وتفكيره على الرغم من الشقة الزمنية الهائلة فأطلق عليها عدة تسميات [الحية ـ الزعرة ـ الرقطا ـ العربيد ... الخ] (٥) ودارت حولها العـديد من قصصه وخرافاته ، فقد ذكرها الحافظ بن عساكر قائلا ان بمدينة القدس حيات عظيمة قاتلة توجد على حجارة ضخمة تشبه اسطوانتين كبيرتين على رأسهما صور حيات يقال انها طلسم ، وأن الأفعى اذا لدغت أى انسان ما فى بيت المقدس لم تضره أما اذا خرج من حدود المدينة فيحدث العكس ، وقد أيده فى ذلك الهروى فى كتاب الزيارات (٦) .

---

(٣) سليم المبيض ـ الجغرافيا الفلكلورية للأمثال الشعبية الفلسطينية ـ المرجع السابق ص ٢١ ـ ٢٢ .

(٤) M.A. Murray, some canantie Scarabs, P.E.F.G., 1949, pp.

وانظر أيضا كتاب المؤلف ـ غزة وقطاعها ـ الهيئة العامة للكتاب ـ القاهرة ـ ١٩٨٧ ص ٥٥ ـ ٥٧ .

(٥) انظر أسماءها فى كتاب : ابن سيده ـ المخصص ـ المجلد الثانى ـ السـفر الثامن ـ دار الفكر ـ بلا تاريخ ص ١٠٦ ـ ١١٢ .

(٦) مجير الدين الحنبلى ـ الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ـ الجزء الأول ـ عمان ـ ١٩٧٣ ص ١٢٦ .

وبقيت « الحية » ماثلة فى الذاكرة الشعبية الفلسطينية لتواجدها وانتشارها فى الوسط البيئى وبأنواعها العديدة فى الصحراء الفلسطينية بالنقب ، وبداخل الكهوف الجبلية وبين نباتاته البرية بداخل حقوله تمثل الرعب لما تتميز به من قدرة على اللدغ والاختفاء بسرعة فائقة ودون أن يراها أحد أو يسمع مجرد صوت لها فيسجلون هـــذا الموقف المرعب بقولهم :

٢١ ـ زى الحية بيقرص وبيلبد •

هذا بالاضافة لما تفرغه من جسم من تلدغه بسمومها القاتلة ان لم يجد من يسعفه ، وهذا أمر نادر خاصة وان الفلاح بصفة خاصة غالبا ما يكون فى حقله منفردا • مما يزيده رعبا فلا نبالغ ان قلنا بأن لا شىء يروعه أكثر من « الحية » التى اذا ما ظهرت لأحد صرخ قائلا « الحيـــة » وهذه الصرخة كفيلة باستنفار كل أبناء القرية أو من يســـمعه ليهبوا جميعا وبأيديهم كل ما تقع عليه من عصى لقتلها ـ ونادرا ما يفلحون فى ذلك لسرعة اختفائها والعثور عليها ، فهم يقولون فى ذلك :

٢٢ ـ مثل الهام لا بحفر جحر ولا بنام فى العرا •

وكذلك قولهم :

٢٣ ـ دوا الحية العصية •

لأن العصا الطويلة الغليظة هى الوسيلة الناجعة لقتل « الحية » خاصة « العربيد » لقدرته على القفز والانقضاض السريع •

ونظرا لندرة حوادث الأفاعى ولسعها للانسان ، تراهم يقولون :

٢٤ ـ قرصة عربيد •

للدلالة على ندرة وقوع الشىء أو وصف حدث نادرا ما يحدث •

لذا ومن قبيل ادخال الطمأنينة فى نفوس الناس تجدهم يقولون :

٢٥ ـ الحية مسيرة •

أى أنها تسير بقوة الاهية فهى لا تؤذى بذلك الا من يؤذيها أو يحاول التعرض لها واصفين هذا الموقف بمثلهم القائل والمحذر :

٢٦ ـ عين على قلبك وعين على طريقها •

وكان الأفعى من واقع هذا المثل تسير وهى تنظر للانسان وما تنطوى عليه نفسه وقلبه بعين فى حين تنظر العين الأخرى لطريقهـــا • فاذا ما شعرت بمحاولته ايذاءها لدغته والا فلا •

ويقولون وفق تجربتهم المثلية الشعبية :

٢٧ ـ مطرح العقرب لا تقرب ومطرح الهام افرش ونام •

تأكيدا على عدم ايذائه ، مادام الانسان نائما لا يفكر فى الاعتداء عليه فى حين قد تلسع العقرب الانسان فى كل الحالات •

كما أن للأفاعى فترة مبيت فى الشتاء وتحركها وانتشارها ابتداء من الربيع •• كما جاء فى المثل الشعبى القائل (٧) :

٢٨ ـ فى آذار بتفتح العنقة والنبقة واصفر الأطيار •

وهناك من أفراد الشعب من كان يستثمر رأس الأفعى فى العديد من الحجب والتعاويذ حيث يتمتمون عليه بعد قطعه قائلين :

٢٩ ـ ثور يا ثار بن بكر :

ليضعوه بعدها فى قطعة من القماش « كحجاب » للمرأة التى تحلم بأن أحدا يريد ضربها أو التى لا تحمل (*) • كما يضعون فيها « حرز » يوضع فوق رأس من يشكو الصداع •

وتظل الأفعى أو الحية راسخة فى الوجدان الشعبى بأنها رمز العداوة التى لا يطاق فيقولون وبكل تأكيد :

٣٠ ـ ما فى الحيات صالحات •

ومن ثم فان :

---

(٧) انظر المزيد من هذه الأمثلة فى كتاب المؤلف ـ الجغرافيا الفلـــكلورية ـ ص ١١٩ ـ ١٢٠ •

(★) كما ذكرت لى احدى النساء المتقدمات فى السن : بأنها تضع رأس الأفعى مع تكاكة العلب بالإضافة لسبع خيوط حريرية مختلفة الألوان وسبع ابر طرش (طباعة) وسبع ابر خرس (للخياطة) ووضعهم جميعا في قطعـــة قماش كحجاب يوضـــع داخل المخدة •

وهناك من ياكل نصف الأفعى (الحية) كوصفة للرجل الذى لا ينجب •

٣١ – الحية ما بتولد غير الحية .

ومن المستحيل التى تلد غير ذلك ولو كان « الحردون » الكريه .

٣٢ – الحية بتخلفشى حردون .

لذا فقد جر الانسان الشعبى الفلسطينى هذه العداوة المتأصلة منذ آدم فى وعيه وفكره تجاه الحية للتعبير عنها بعلاقاته مع غيره ، فجاء مثله معبرا عن ذلك بقوله :

٣٣ – عمر الحية ما بتصير خية .

وعليه سخر من الذين يمنحون الأمان لغير أهله مثلهم فى ذلك مثل :

٣٤ – مثل اللى بيحط الحية فى عبه .

ولاستحالة ذلك أكدوا بمثلهم الشعبى القائل :

٣٥ – ان كان الحية بتنحط فى العب عمر العدو ما بيصير محب .

فمن يضع الحية فى « عبه » فانها بالقطع ستلدغه ، من هنا كانت نظرة الشعب لمن لا يتعظ من النصح والابتعاد عن مصادر الأخطار نظرة استخفاف قائلين :

٣٦ – بعد ما انقرصوا احترسوا .

فأصبح لهذا من تحصيل الحاصل أن يخرجوا بمثلهم القائل :

٣٧ – كل محروس مقروص .

ولقد بلغ الابداع الشعبى حدا عندما ربط بين هـذه المثيرات التى تسببها « الحية » وردود فعلها على نفسية الانسان بقولهم :

٣٨ – المقروص بيخاف من جر الحبل .

نظرا لما يثيره جر الحبل فى نفسية الانسان الملدوغ من قبل « كمثير صناعى من انفعالات حيث يذكره بالأفعى وحركتها المترسبة فى أعماقه مما يبحث فيه الذعر والخوف ، ولعل هذا يذكرنا بنظرية « بافلوف » .

الذى يؤكد هذا المثل الشعبى بل التجربة الشعبية بانها قد سبقت هذه النظرية بأزمان .

ولقد استعار تراثنا الشعبى من صفات الأفاعى الكثير ، ليصف بها البعض فشبه الأنثى الماكرة بأنها :

٣٩ – زى الحية الزعرة .

ونظرا للعديد من المعتقدات الشعبية السائدة فى أذهان الناس نجدهم يقولون :

٤٠ – فشقة (*) الحية ولا فشقة لبنيه [تصغير بنت] .

أى يفضلون أن تتخطى أو تقفز « الحيـة » عن طفل أو عن بعض ملابسه ولا تخطو كمثل ذلك بنت لأن فى نظرهم ربما يسبب ذلك للطفل مرضا معينا أو يدعوهم للتشاؤهم ، ولهذه الحساسية فى الوجدان الشعبى عن البنت تجدهم يرددون مثلهم الشعبى :

٤١ – تكبر الحية ولا تلد بنية .

معبرين بذلك عن عدم حبهم لانجاب « البنات » مفضلين عنهم الأولاد .

وأخيرا فان المعتقد الشعبى يرى أن فى الحية ورؤيتها فى الأحلام ما يدل على الحياة فيفسرونها وفقا لمثلهم الشعبى القائل :

٤٢ – الحية حياة .

كما أنهم يرون فى الكلمة الطيبة قوة سحرية لحل العديد من المشكلات والمعضلات التى تعتور حياتهم ، معبرين عن ذلك بقولهم المثل :

٤٣ – الكلمة الحلوه بتطلع الحية من وكرها .

تماما كما قال الشاعر العربى الأصمعى :

٤٤ – من يستعن بالرفق فى مرة   يستخرج الحية من وكرها .

هذه هى «الحية» فى الوجدان والفكر الشعبى الفلسطينى بخصائصها التى رآها ولمسها وسط واقعه البيئى الجغرافى الملموس الآن ومنذ آلاف

(*) فشقة : بمعنى خطوة واسعة يقفز بها الانسان فوق شىء ما .

السنين ، والتى امتزجت بتأثيراتها القديمة على نفوس وعقيدة الأجداد ، نقلها عنهم الخلف فتسربت تأثيراتها فى العديد من معتقداته وآدابه (٨) .

وقد تبلورت بعد ذلك تأثيرات العقيدة العربية الكنعانية لأجدادنا فى بناء معابد خاصة لهم ، اقاموها على قمم التلال والمرتفعات حيث أقاموا تمثالا اسموه « ايل » أو « آل » بمعنى « اله » باللغة العربية السامية القديمة ، وقد وصفته نصوص « أوجاريت » بالقاب « [أبو البشر وخالق البشر – الخالد – المالك ذو الفؤاد (الرحيم) واشيب اللحيـــة] (٩، ١٠) » . وقد أقاموا معابدهم فى العراء كدين الفطرة القريبة من الطبيعة وبالقرب من الأشجار والينابيع ، حيث يقع الهيكل وسط ساحة سماوية يحيط بها سياج وتتألف من مذبح به حجر أو حجران مقدسان يعتقدون أنهما مسكن للآلهة أسموه « بيت الاله » . ولعل المثل الشعبى الذى يطفو بين الحين والآخر على ألسنة الناس والقائل :

٤٥ – من حب عبد عبده ومن حب حجر نقله .

ما يوحى بدلالته العميقة على مثل هذه المعتقدات والشعائر الدينية القديمة تجاه الأحجار ، بل هناك مثل شعبى آخر يفصح بصورة أوضح قائلا :

٤٦ – آمن بالحجر تبرا .

للدلالة على قيمة وقوة الايمان فى نفس الانسان والثقـــة بالله ، فالايمان المطلق يعنى البراءة من كل الأدران والوســـاوس ، والاحساس بحلاوة الايمان ولذته ، وهذا ما تتمتع به الروح الفلسطينية الشعبية بعامة .

وقد دلت الحفريات الأثرية التى جرت فى فلسطين منـــذ أواخر القرن التاسع عشر وثلاثينات القرن العشرين على وجود العديد من المعابد أو « بيت الاله » فى مدن « بيت ايل » بمنطقة رام الله وفى أريحا واللجون أو تل المتسلم واسمها العربى القديم « مجدو » وكذلك فى تل أبوشوشة

---

(٨) انظر للمقال الجيد فى مجلة التراث والمجتمع – العدد السادس – المجلد الثانى – البيرة – تموز ١٩٧٦ ص ٤ – ٥٥ .

(٩) اسبتينو موسكاتى – الحضارات السامية القديمة – المرجع السابق ص ١٢٧ – ٢٧٣

(١٠) أحمد سوسة – حضارة وادى الرافدين – وزارة الاعلام العراقية – بغـداد ص ٣١٦ – ٣١٧ .

[جازر] ومدينة بيسان وصفورية وغيرها من المدن الفلسطينية مما ترك طابعه على تسمية العديد من المدن الفلسطينية التى ابتدأ اسمها بكلمة « بيت » كسمة دينية وتيمنا بالهياكل المقامة منذ الألف الثانية قبل الميلاد كما هو الحال – على سبيل التمثيل لا الحصر – فى مدن بيت ايل بمنطقة رام الله وبيت شمس (الشمس) وبيت يارح « القمر » وبيت دجن بالقرب من يافا (١١) وأخرى بنفس الاسم فى منطقة نابلس ومدينة بيت لحم (بيت الاله لحمو) وبيت لاهيـــا وقرية بيت حانون شـمال غزة .. الخ . فهناك ما لا يقل عن ٥٢ قرية ومدينة فلسطينية تبدأ اسمها بكلمة « بيت » لتفصح بذلك على مدى سيطرة الوازع الدينى على شبكة الاستقرار والعمران على خريطة فلسطين العربية الكنعانية القديمة وحتى الآن . ليصبح بذلك « البيت » جذر وجذور الشعب الفلسطينى يجمعهم جميعا فى « بيت » واحد يعكس معه شعوره « بالأسرية » التى أضحت ملمحا من ملامح سلوكه الحياتية ، فلكى يتعرف أحدهم على الآخر تراه يبادر بسؤال شعبى تقليدى قائلا :

انت من بيت مين ؟ .

وعند مديحهم لبعضهم البعض يقولون :

انت من بيت طيب .

وكأنهم بذلك يمتدحون الجذور والأصول للبيت الفلسطينى الواحد ، فاصبح معه « البيت » عنصر الوحدة الشعبية ، يشد أزرها ويشيع فيهم روح الجماعة ، حتى أنهم ومنذ القدم كانوا يضعون مدافن موتاهم من الفخار على هيئة « بيت » يرتكز على اربع أرجل كمـــا عثر عليـه فى مدينـة « الخضيرة » على الساحل الشمـــالى لفلسطين والذى يعـــود للعصر الكالكوليثى (١٢) .

وها هى قرية « صفورية » فى الشمال الفلسطينى والتى كان يطلق عليها « صفرايا » بمعنى شروق شمس ايل وكذلك « مطرون » بمعنى المطر الذى ينبت القمح برعاية شمس ايل فجعلها أرض الذهب الأصـفر

---

(١١) وليم ف. أولبرايت – آثار فلسطين – ترجمة د. زكى اسكندر – المجلس الأعلى للشئون الاسلامية – القاهرة ١٩٧١ ص ١٧١ .

(١٢) وليم ف. أولبرايت – آثار فلسطين – المرجع السابق ص ٧١ – ٧٢ .

واللبن والعسل على حد تعبير أجدادنا الكنعانيين مما حدا بابنائهم اليوم من أهالى القرية أن يعتزوا فخورين بما تنبته أرضهم وقد سجلوا ذلك قائلين :

٤٧ ـ بين صفرة وكفرة مال لايحصى

ويقصدون بـ « صفرة » قريتهم « صفوريا » أما كفرة فهى قرية « كفر كنا » القريب منها وما بينهما من أراض خصبة وزراع يدر المال الوفير .

الفصل الرابع

أمثال الأنبياء

● ابونا .. ابراهيم ★ النبى شعيب
الخضر ★ النبى صالح ★ أيوب
سليمان ★ .... الخ .

ولم يبق أجدادنا العرب الكنعانيون على وثنيتهم ، الى أن جاء عهد مليكهم « مليكى صادق » بانى مدينة « يبوس » (القدس) العربية والتى أطلق عليها فيما بعد « أور سالم » أى مدينة السلام ، وقد وصف بأنه كان كاهنـــا لله العلى (١) . وكان له شرف استقبال أبينـا ابراهيم عليه السلام فى فلسطين قادما لها يحمل رسالة البلاغ بأن « لا اله الا الله وحده » داعيا لهم بترك الأوثان وعبادتها اسما وموضـــوعا قائلا لهم « ان هى الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان » صدق الله العظيم .

فأكرمه ملك العرب اليبوسى (المقدسى) الكنعانى ، فكان أول من آمن برسالته كما جاء فى التوارة [وملكى صادق ملك شاليم .. وهو كاهن الله العلى ... وقال مبارك ابراهيم من الله العلى مالك السموات والأرض .. فأعطاه عشرا من كل شىء] (٢) .

وعندها قام الملك العربى « مليكى صادق » وعلى ثرى مدينة يبوس (القدس) ببنـاء بيت مقدس يمارس فيـه عقيدة التوحيد وذلك بعد أربعين ســنة من بناء أبينـا ابراهيم وولده اسـماعيل أول مسـجد بمكة المكرمة .

« واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا

---

(١) لى ـ ب. ماير ـ حياة ابراهيم ـ ترجمة القمص مرقس داود ـ مكتبة المحبة ـ الطبعة الثانية ـ القاهرة ١٩٦٠ .

(٢) التوراة ـ تكوين ١٤/١٨ ـ ٢٠ .

انك أنت السميع العليم » (ســـورة البقرة ١٢٧) . كمـا اكد بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما ساله ابو ذر قائلا :

قلت يارسول الله أى مسجد وضع فى الأرض أولا ؟

قال : المســجد الحرام .

قلت : ثم أى ؟

قال : المسجد الأقصى

قلت : كم بينهما ؟

قال : أربعون سنة ، وأينما أدركتك الصلاة فصل فهو مسجد ، وفى حديث أبى كامل ثم حينما أدركتك الصلاة فصله فانه مسجد (٣ ، ٤) فاذا ما اعتمدنا بذلك على ماذكره معظم الدارســين والأركيولوجيين من رجال الآثار الذين أرخوا لقدوم سيدنا ابراهيم العربى المسلم لفلسطين وذلك فى منتصف القرن التاسع عشر قبل الميلاد [١٨٥٠ قبل الميلاد] (٥)، فان من المرجح أن يكون بناء المسجد الأقصى على يد ملكى صادق قد انتهى مع نهاية القرن التاسع عشر أو فى النصف الأول من القرن الثامن عشر قبـل الميــلاد على أبعد تقـدير . أى قبل مجىء القائد اليهـودى « يوشع بن نون » الذى أهلك بنـاره الزرع والضرع وخلطهـا جميعا بدماء الانسان وحجارة البنيان فى مدينة أريحا العربية بما لايقل عن خمسة قرون تقريبا ، وقبل بناء سليمان عليه السلام لهيكله الذى بناه له العرب الفنيقيون بثمانية قرون تقريبا .

اذا بدأ الايمان بالله الواحد الأحد من فلسطين وانتقل لمصر فى عهد اخناتون (امنمحتب الثالث) بعـد ذلك بأربعـة قرون ونصف تقريبـا (١٣٦٧ ـ ١٣٥٠ قم) . الذى قام بثورته الدينيـة ضد تعدد الآلهة فمحاها من المعابد وأمر بعبادة اله واحد (٦) .

---

(٣) مجير الدين الحنبلى ـ الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ـ المجلد الأول ـ المرجع السابق ص ٧ .

(٤) د. محمد أحمد حسن ـ المسجد الأقصى فى الكتب المقدسة ـ مكتبة النهضـة القاهرة ـ ١٩٨٥ ص ٩ ـ ١٠ وانظر أيضا مقدمة ابن خلدون الناشر عبد الرحمن محمد ـ المطبعة البهية المصرية ـ بدون تاريخ ـ ص ٢٥٠ .

(٥) وكذلك انظر : صحيح مسلم (بشرح النووى ـ المجلد الثانى) ص ١٥٣ . G. Roux. Ancient, Iraq, London, Polican Book, 1966 p. 21».

(٦) محمد أحمد حسن ـ المسجد الأقصى فى الكتب المقدسة ـ المرجع السابق ص ١٢ .

وهكذا استقر فى الوجـدان الشعبى وخلده ذكرى أبينا ابراهيم عليه السلام والذى استقر به المقام هو وأنجاله بمدينة « أربع » العربية العناقية الكنعانية والتى بناها « أربع » القائد العربى فسميت باسـمه ليطلق عليها فيما بعد العرب أنفسهم مدينة « الخليل » خليل الرحمن مترفعين بذلك عن أسمائها القديمة ذات الجذور العربية التى تفسر نفس المعنى [حبرى ـ حبرون] أى الصديق أو الخليل باللغة العربية الكنعانية « واتخذ الله ابراهيم خليلا » صدق الله العظيم (ســورة النسـاء) . وأصبح يطلق على كل حى من أحياء المدينة لقب « خله » . كما اتخذوا من مقامه مصلى وأطلقوا عليه « الحرم الابراهيمى » وأقاموا الزوايا والتكايا من حوله وأخذوا يقدمون الأكل للمسافرين والمحرومين وعابرى السبيل والفقراء يوميا بما أسموه :

٤٨ ـ سماط الخليل

وكما وضعه مجير الدين الحنبلى بأنه من عجائب الدنيا وهو عبارة عن خبز يفرق كل يوم ثلاث مرات (فى الصباح والظهر وبعد العصر) بحيث بلغ ما يوزع منه يوميـا ما بين ١٤ ـ ١٥ الف رغيف على زمن مجير الدين القاضى الفلسطينى فى نهـاية الفترة المملوكيـة (٧) . وحتى اليوم بقيت ذكراه الدينية متمكنة فى الوعى الشعبى خاصة عندما ينتهى الفلاح الفلسطينى من حصـاد قمحه فان أول ما يقـدمه ويوزعه للفقراء هو :

٤٩ ـ صاع الخليل

من حليبة القمح شكرا لله على نعمائه .

ومازالوا يتغنون عند عمليات الحرث والبذر والتذرية ببركة أبينا ابراهيم عليه السلام لايمانهم به نبيا عربيـا مسلما [ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما] سورة آل عمران .

فهاهم ينشدون من ايقاع المذراة اهازيج التذرية :

٥٠ ـ الهوارى توى لقانى

محمل جحشه حمل مذراتى

---

(٧) مجير الدين الحنبلى ـ الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ـ المجلد الأول ـ المرجع السابق ص ٦٣ . وانظر اليه أيضا فى معنى « الجلة » ص ٥٢ .

يا ابراهيم يا ابراهيم

يا خليل الله

ياعبد الله عشى أولادك

من باب الله

من باب الله يا الله يا الله

يا مدراتي

عشى أولادك من باب الله

يا ابراهيم وريح الغربى

تـوى لقانى

وتابع الشعب العربى الفلسطينى خطى أبينا ابراهيم عليه السلام فخلد مواقع اقامته على الخريطة العمرانية الفلسطينية ، فقرية « يعبد » يعتقد أبناء فلسطين انها مكان تعبد فيه ابراهيم عليه السلام أربعين سنة فكان اسمها كذلك .

ومدينة « بئر السبع » عاصمة النقب الفلسطينى نسبة « لبئر ابراهيم » الذى أقام عليه عهدا مع ملك الفلسطينيين بهـا بسبع نعاج ، وأحيانا يقال له « بئر القسم » (٨) .

وبقوة الايمان نفسه سجل الشعب الفلسطينى فى ذاكرته قصص الأنبياء على أرضه مخلدا اياها فى ذاكرته نقشا لايزول ، ومترجما بحسه وبسلوكه ذكراهم بأعياد شعبية لن تختفى ، فما من قرية أو مدينة فلسطينية الا وتعطرت بنفحات أنبياء الله ودعواهم ، واقتدى شعبنا بتعاليمهم وسجل لهم فى مختلف مواقعهم السكنية حدثا ومثلا شعبيا .

فهاهم يطلقون على عين ماء تقع بالقرب من مدينة عكا « عين البقر » لاعتقادهم بأن « البقر » خرج ولأول مرة لسيدنا آدم عليه السلام ليحرث الأرض بها كما جاء على لسان ياقوت فى كتابه « المشترك » وكما ذكرها الشيخ النابلسى وابن جبير (٩) .

وما دام « آدم » هو أبا البشر جميعا ، رفض شعبنا اسلوب التمييز والتمايز بين الناس سواء الأقربون منهم أو الأبعدون فقالوا :

(٨) ف. ب. ماير – حياة ابراهيم – المرجع السابق ص ١٤٣ .

(٩) رحلة ابن جبير – دار التراث – بيروت – ١٩٦٨ ص ٢٤٩ .

٥١ – كلنا أولاد آدم وحوا

وقولهم :

٥٢ – كلنا ولا تسعة .

ولسيدنا موسى عليه السلام (كليم الله) وقصصه مع فرعون مصر وخروجه منها ما ترك انطباعات خالدة سجلها الشعب الفلسطينى فى مثله الشعبى فقالوا :

٥٣ – عبدو العجل .

كناية عن الظلم وقسوة الانسان لأخيه الانسان وقهره له بأن يفرض عليه « عبادة العجل » ، ولعل المثل مستوح من قصة العجل والسامرى (١٠) .

[واذ قال موسى لقومه ياقوم انكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا الى بارئكم] صدق الله العظيم (سورة البقرة ٥٤) .

ويقولون من وحى قصة سيدنا موسى عليه السلام وفرعون مصر عند خروجه :

٥٤ – اللى ما بيجى بعصاة موسى بيجى بعصاة فرعون .

أى من لايأتى بالكلمة الطيبة الساحرة (نسبة لعصا موسى السحرية) وكما جاء فى القرآن فانه يأتى بعصا فرعون الظالمة الآثمة القوية ، وفى هذا المضمار يقولون أيضا :

٥٥ – اللى بيقول عنه موسى بيطلع فرعون

أى من تتوسم فيه أحيانا الطيبة (موسى) تراه ينقلب ويظهر على غير حقيقته فى صورة « فرعون » . وفرعون فى الذاكرة الشعبية الفلسطينية رمزا للجبروت والقوة والتعالى فيصفون من يتخذ من هذه الصفات والسلوك بانه :

(١٠) عبد الوهاب النجار – قصص الأنبياء – الطبعة الثالثة – دار احياء التراث العربى – بيروت بدون تاريخ ص ٢١٨ – ٢٢٥ .

٥٦ ـ متفرعن !!

ويفسرون تفرعنه هذا بخنوع الآخرين تجاهه وعدم رده وصده بقوة أكبر .

فيقولون :

٥٧ ـ قالوا لفرعون ليش متفرعن ؟! قال مش لاقى حد يكسر راسى !!

كما يرفضون ان يسخر منهم احد أو يتحايل عليهم فيحذرونه باستخفاف قائلين :

٥٨ ـ على هامان يافرعون !!

وكأن لسان حالهم يقول « على ين ؟! » . وقد قال جل جلاله « ان فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين » (سورة القصص ٢٨) .

ولقد أقام الشعب الفلسطينى موسما خاصا يتجمع فيه جميعهم تتقدمهم الرايات متجهين نحو قبره الذى قال مجير الدين الحنبلى عنه « وفقا للمشهور عند الناس » يقع للشرق من بيت المقدس حيث يضعون على قبره ستر من الحرير الأسود وعليه طراز أحمر مزركش دائر على جميع أطرافه بالذهب ، وقد بنى على قبره قبة الملك الظاهر بيبرس سنة ٦٦٨ هـ عند الكثيب الأحمر (١١) . ومازال شعبنا يقيم له موسما بتشجيع يعود لأيام صلاح الدين الأيوبى حيث يكون الجميع بسلاحهم ومؤونتهم فوق جيادهم فيما لو اعتدى الصليبيون كأهل غدر بهم فى « عيد الفصح » الذى يأتى فيه الأوربيون (الفرنجة) لزيارة القدس آنذاك تصدوا لهم فى الحال (١٢) (*) .

وللنبى شعيب الذى لجأ اليه موسى عليه السلام وتزوج من ابنته « صفورة » ايمان واعتقاد برسالته السمحة ، فهناك العديد من المواقع والمزارات التى تنسب للنبى شعيب فى فلسطين ، ففى مدينة طبرية مسجد يعرف بمسجد الأنبياء فيه قبر ينسب اليه كما جاء على لسان

---

(١١) مجير الدين الحنبلى ـ الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ـ المجلد الأول ـ المرجع السابق ص ١٠٢ .

(١٢) عمر البرغوثى وخليل طوطح ـ تاريخ فلسطين ـ القدس ١٩٢٣ ص ١٩٩ ـ ٢٠١

(*) ومع النبى موسى يحتفون أبناء الشعب الفلسطينى من عرب المساعيد والمشالحة والصقر بموسم أبو عبيدة بن الجراح .

ابن جبير (١٣) والهروى (١٤) ، كما له مقام جنوب غرب حطين بسبعة كيلومترات تقريبا له قداسته عند العرب الدروز يزورونه وسط مراسيم احتفالية فى شهر نيسان من كل عام « موسم النبى شعيب » وتبركا به يقومون بتقديم « صاع شعيب » من القمح للفقراء عند تمام الحصاد وجمع المحصول قائلين :

٥٩ ـ اول صاع قطاع للنبى شعيب

كما أن للخضر عند الشعب الفلسطينى اعتقادا وطقوسا يقيمونها فى مزاراته المختلفة فى معظم أنحاء فلسطين أبرزها تلك التى بمدينة دير البلح جنوب فلسطين وفى قرية « الخضر » التى سميت باسمه شمال مدينة الخليل .

ويحتفى به الأخوة المسيحيون « عيد مار الياس » فيقولون :

٦٠ ـ عيد الخضر حرام حط النير ع البقر .

حيث يصادف عيده فى السادس من شهر ايار (مايو) من كل عام حيث ينتهى ميقات حرث الأرض [كراب وتثنية وتثليث] وتبدأ الحرارة فى الارتفاع لذا يوصون مع ميقات العيد هذا بعدم استخدام البقر للحرث (١٥) .

وكثيرا ما يقدمون « النذور » فى مزارة مستهلين دعاءهم بقولهم :

٦١ ـ ياخضر يا أخضر ..

وللنبى صالح عليه السلام الذى نزل بأرض فلسطين كما جاء على لسان كل من ابن الأثير والنويرى وابن جبير (١٦) .. لدى الشعب الفلسطينى اعتقادات ومراسيم يقيمونها كل عام منها «موسم النبى صالح» حيث يحتشد معظم أبناء فلسطين من أقصى مدنها الشمالية وحتى الجنوب لتبلغ ذروتها يوم « الجمعة » التى تأتى بعد « عيد الفصح » من شهر نيسان ويطلق عليها لدى عامة الشعب « الجمعة الحامية » ليلتقوا

---

(١٣) رحلة ابن جبير ـ دار التراث ـ المرجع السابق ص ٢٥٤ .

(١٤) الهروى ـ كتاب الاشارات ـ مخطوط ص ٢١ .

(١٥) سليم المبيض ـ الجغرافيا الفلكلورية ـ المرجع السابق ص ٢٠١ .

(١٦) رحلة ابن جبير ـ المرجع السابق ص ٢٤٩ .

بالويتهم بمدينة « الرملة » التى يقال بأنه مدفون بها (١٧) فى مغارة تحت الأرض فى صحن الجامع الأبيض بالمدينة ، فى حين ذكر كل من ناصرو خسرو ١٠٤٧ م وابن جبير ١١٨٤ م والهروى المتوفى سنة ١٢١٥ م أن ضريحه يقع بالقرب من مدينة عكا .

وفى هذا الموسم الحاشــد يتبارى رجال الدين خاصة من أبنـاء مدينتى اللد والرملة على أيهما يصل ببيرقة لضريح النبى صالح أولا قائلا :

٦٢ ـ قربت يا غانم .. قربنا نغلب .

ومع النبى صالح عليه السـلام وناقته التى وردت فى كتاب الله عند عامة الشعب الفلسطينى ايمان واعتقاد ينم على تفهم واستـع وتدبر لآيات القرآن الكريم ، فاذا ما اختلف أحدهم مع الآخر عند شراء « ناقة » أو لأى سبب آخر قالوا :

٦٣ ـ هى ناقة صالح ؟!!

واحيانا نجد بعضهم يقسم :

٦٤ ـ وحياة ناقة صالح :

لما تميزت به « ناقة صالح » (١٨) لكونها آية كما جاء فى كتاب الله « هذه ناقة الله لكم آية » صدق الله العظيم .

ولقد انتشرت وتعددت مقامات ومزارات « النبى صالح » على الساحة الفلسطينية لتعبر عن المكانة الدينية المتأصـلة فى النفسية العربيـة الفلسطينية فبالاضافة لما سبق ذكره فى مدينتى الرملة وعكا هناك مقام فى قرية « بيت عفـا » وخربة عودة . من قرى غـزة ومزار بقرية « خله صالح » بالقرب من ادنا بمنطقة الخليل هذا بالاضـافة « لقبر صديق بن صـالح » فى قرية « الشـجرة » من قرى طبرية ، وقرية النبى صالح من أعمال رام الله .

وتبقى الشخصية الفلسطينية فى استمراريتها مستوعبة الماضى بعبقه الدينى الخالد تحمله وتحميه وتأخذ به نـورا للهداية مع كل نبى ورسول شرف هذه الأرض وشرفت به ، فكان من ركبهم النبى أيوب

---

(١٧) النويرى ـ نهاية الارب ٨٥/١٣ .

(١٨) عبد الوهاب النجار ـ قصص الأنبياء ـ المرجع السابق ص ٦٠ ـ ٦٥ .

عليه السلام العربى الايدومى الفلسطينى فى منتصف القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، فكان آية فى الصبر على الآلام وتحمل المشاق والبلاء .

دونما استسلام أو يأس حتى غدا رمزا للصبر حتى لقبه البعض « بطريرك العرب » (١٩) فسجل شعبنا فى ذاكرته صبره مثلا شعبيا وتغنوا بهذه القيمة فى أهازيجهم وأسبغوا على قراهم واديرتهم وآبارهم اسمه ، واتخذوا له موسما سنويا تفرد عن المواسم الأخرى بالاضافة لفضيلة « الصبر » بظاهرة لقائهم على شـاطئ البحر (*) . فمع الصبر قالوا :

٦٥ ـ صبرت عليك صبر النبى أيوب .

ويقولون معلنين عن شدة ما تحملوه :

٦٦ ـ صبرنا ع المكتوب صبر ايوب

واذا ما فاضت نفوسهم بالصبر استغاثوا بمثلهم قائلين :

٦٧ ـ ياصبر أيوب .

متأسين بصبر أيـوب عليه السـلام ومؤمنين بوعد الله للصابرين كمـا قال :

« فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسـل ولا تستعجل لهم » صدق الله العظيم (الأحقاف ٤٦) .

وقوله تعـالى : « سـلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » « سورة الرعد ١٣ » .

فاشـتق شعبنا من هذه الفضيلة الخيرة الواردة فى آيات الله أمثاله فقالوا :

٦٨ ـ الصابرين ع خير

وقالوا بنفس المعنى :

---

(١٩) مصطفى مراد الدباغ ـ القبائل العربية وسلائلها ـ المرجع السابق ص ٣٤ ـ ٣٥

(*) بعد موسم أربعاء أيوب بيوم يجىء « خميس المنطار » بموسمه بمدينة غزة .

٦٩ ـ الصبر عند الشدائد افضل المحامد

مؤكدين بذلك على حسن الجزاء للصابرين :

٧٠ ـ بشر نفسك بالظفر بعد الصبر

وكذلك :

٧١ ـ من صبر نال ومن لج كفر .

فالصبر قيمة اجتماعية للسلوك الانسانى تمنحه نوعا من الهدوء والراحة النفسية .

وتبين فى الوقت نفسه قدرة الانسان على التمسك بعقيدته ، حتى أصبح الصبر فى المجتمع الفلسطينى دواء شعبيا يتحدى به نوائب الدهر .

٧٢ ـ طوله الروح والصبر أحسن دوا لعوادى الدهر .

فطوله الروح أو « طولة البـــال » هى المصطلح الشعبى المرادف للصبر » والتسلح بهـا كفيل بتذليل العقبات والوصـــول للنتيجة المرجوة مهما طالت وتصلبت كالجبال فبالصبر والنفس الطويل لا محالة ناسـفها :

٧٣ ـ طول البال بيهد الجبال .

وبالصبر تتقوى روابط الصداقة وتشتد ، اذا ما تذرع أحدهما به أمام غضب صديقه أو احتجاجه فيقولون :

٧٤ ـ اصبر ع صاحبك وابقيه .

كذلك فان « طول الانتظـــار » لون من ألوان الصـــبر ان لم يكن الصبر نفسه والتحلى به نتيجته الخير :

٧٥ ـ كل تأخيرة وفيها خيرة .

وبنفس المعنى يقولون :

٧٦ ـ ان طالت هانت

وكذلك :

٧٧ ـ ان طال مشوارك استرجيه

ولكى تصل هذه الفضيلة بسهولة ويسر لعقلية السامع استعاروا لها مثلا من الواقع البيئى الزراعى فقالوا :

٧٨ ـ اصبر ع الحصرم بيصير عنب .

وعليه أصبح الصبر فى الوجدان الشعبى هو الخير والظفر والرجاء وعكسه هو الكفر والبلاء .

فاذا ما اشتد الجفا ولج ، وضاق صدره فاهتاج معبرا عن شعوره بمثله القائل :

٧٩ ـ طولة الروح بتطلع الروح

ومن قولهم :

٨٠ ـ الصبر بودى القبر

يبادر الشعب وبأسلوب ينم عن التحدى والرفض لهذه الروح التى ضاق صدرها ونفد صبرها بقولهم :

٨١ ـ ان صبر صبر وان ما صبر هادا الحبل وهادا الشجر .

أجـل فمن لا يتذوق حلاوة الصبر ويرتضى به ، فهذا هو الحبل وتلك هى الأشجار دونكم واياها ، وكأن لسان حالهم يقولون « موتوا » .

واتخذ الشعب الفلسطينى للنبى أيوب موسـما شعبيا اختاروا له يوم الأربعاء » من أيـام الاسـبوع فأسموه « موسم أربعا أيوب » يقام يوم الأربعاء التى يسبق « خميس الأموات » أو « خميس البيض » الواقع قبل عيد الفصح بثلاثة أيام ويسميه الأخوة المسيحيون « عيد العدس » تحريفا « لخميس العهد » كما يحتفل به الأخوة الدروز فى موسم يسمونه « عيد النبى أيوب » .

حيث يخرج فى هذا اليوم جميع أبناء فلسطين متجهين نحو البحر يصطحب البعض منهم خاصة « الفلاحين » ابلهم ومواشيهم ، وكل فرد منهم يحدوه أمل يتمنى تحقيقه فى هذا اليوم .

فها هو مريض يشكو من مرض جلدى يدعو ربه مستغيثا وهو يلقى بنفسه فى البحر داعيا :

٨٢ – يا اللى بريت أيوب ابرينا من ها الداء
يا اللى نجيت بالدعا نجينا من ها البلاء
يا رب يا شافى بحق سبع بحور
ارفع عذابك ومقتك عن عبدك المغرور

وتلك المرأة تشكو عدم الانجاب وتطلب من الله ببركة النبى أيوب « فك عاقتها » كما يقولون شعبيا تقف على شاطىء البحر وبجوار منها عجوز تغرف من مياه البحر « بكيلة (*) » وتصبها على رأس المرأة وبعدها تقودها داخل البحر لتغمس برأسها سبع مرات (**) فى سبع موجات وهى تستنجد بالأنبياء قائلة :

٨٣ – لا كباس ولا لباس
الا أولاد زى أولاد الناس
بحياة الخضر وأبو العباس

وعلى لسان المرأة :

٨٤ – يا بحر اجيتك مدهوشة بدى ولد والو شوشه
يا بحر اجيتك عطشانه بدى ولد شوشته مرجانه
يا بحر اجيتك مشتطه بدرى ولد على راسه حطه

٨٥ – رب البحر والسما تفك عسيرها
وتعطيها حبى ينور حصيرها
رب البحر والسما تحل عقدتها
وتعطيها صبى يزين حارتها

وأخيرا تستغيث بدعائها :

٨٦ – يا بحر راسى عريانه بدى ولد يغطيها
وان ما جانى ولد لقد ثيابى وارميها

(*) تضع فى هذه « الكيلة » ما يسمونه « كباسات » ثم تخضها بماء البحر وتصب بعدها على راسها .

(**) عادة ما يكون راس المرأة مربوطا بالحرز .

وها هى فتاة أصابها الارباك والحيرة على مستقبلها لاحساسها بان العمر قد طال بها دون زواج فتناجى « بحر أيوب » وبركته فتغتسل « بماء أيوب » وهى تناجيه :

٨٧ – يا بحر جيتك زايره من كتر ما انا بايره
كل البنات تجوزت وانا ع شطك دايره

استغاثة فتاة أصابها ما أصابها من خلل وارباك لظروف نفسية او فسيولوجية ربما غذتها بعض التقاليد والأعراف التى تلح على الزواج المبكر للفتاة قبل سن العشرين فى الغالب الأعم ..

وتستمر ممارسة هذه الطقوس على شاطىء البحر فترى اما تقوم باستحمام ابنها بماء البحر أملا فى شفائه لتأخر نموه أو لاعتقادها بانه مصاب « بالقرين » والروح الشريرة وفقا للمعتقد الشعبى ، وبعد غسله تقوم بوضع معظم جسده فى رمال الشاطىء الناعمة حتى رقبته ، لكى يجهده العرق ويغطى وجهه عندها يقوم النساء من حولها بالزغاريد داعين له :

٨٨ – يارب تشفيه
وتبارك فيه
ومن القبر تعفيه

أما اذا لم يصب بالعرق ، قاموا على الفور بانتشاله من الرمل وطرحوا فوقه شبكة صيد يحيط بها قطع من الرصاص لاعتقادهم بأنها تعمل على طرد الروح الشريرة ورد العين وفقا للظن الشعبى وهم يناجون بحر أيوب قائلين (٢٠) :

٨٩ – يا بحر خود ابنك وهات ابنا .

وعند مغيب شمس ذلك اليوم يأخذ الفلاحون بغسل ماشيتهم وابلهم وقد أمسك البعض منهم باناء فخارى « المحلبه » لكى يسقوا ابلهم بواسطتها من ماء البحر لشفائها من مرض « الجعام » الذى يصيب الابل بالاسهال قائلين (٢١) :

(٢٠) زكى العيلة – تراث البحر الفلسطينى – دار الرواد – القدس – ١٩٨٢ ص ٧٠ – ٧٦ .

(٢١) سليم المبيض – الجغرافيا الفلكلورية – المرجع السابق ص ١٣٥ – ١٣٦ .

٩٠ ـ اشهد يا سهيل(*) سجرنا البل فى الليل

ينتهى بذلك يـوم من الأيام المشـهودة ويعود الجميع مع الغروب لبيوتهم ، تلك هى الطقوس والمعتقدات التى يزاولها أبناء فلسطين فى هذا اليوم وقد أخفى الوجدان الشعبى على « بحر أيوب » أو « براة أيوب » خاصية العطاء والأخذ لتؤكد مكانتـه الاسطورية فى الذهن الشعبى . وتخليدا لذكراه سجل الشعب الفلسطينى كعادته اسمه على العديد من مواضعه العمرانيـة فهـا هو « بئر أيـوب » بمنطقة سـلوان بالقدس ووادى أيوب » فى منطقة الرملة « وعين أيوب » بمنطقة رام الله . وأخيرا يذكر مجيرالدين الحنبلى بأن سيدنا أيوب توفى بفلسطين وقبره فى قرية « كفل حارس » من أعمال نابلس (٢٢) وفى اليوم « التالى لأربعاء أيوب » يقام « موسم وادى النمل » فى مكان يقع بالقرب من « عسقلان » يطلق عليه « وادى النمل » ويقال كما هو شائع شعبيا بأن هذا الوادى قد سمع فيه سليمان عليه السـلام النمل وهى تخاطب بعضها وجنـدها بقولها (٢٣) : [يا أيتها النمـل ادخلوا مساكنكم لايحطمنكم سليمان وجنوده وهم لايشعرون] صـدق الله العظيم . حيث تجمع جميع سكان مدينة المجدل وقراها بصفة خاصـة متجهين نحو مشهد سيدنا الحسين ابن على رضى الله عنه ، حيث يقـال بأن الذين حملوا رأس الحسين بعد حادثة كربلاء قد مروا به فى بلاد الشـام واستراحوا قليلا فى منطقة عسقلان حيث أقيم المقام فيه (٢٤) .

واصبحت ذكرى سيدنا سليمان عليه السلام تشيع فى النفس الشعبية ذكريات نحو « خاتم سليمان » متخذين منـه وصفا جميـلا يصفو به أجمل الأشياء « تمك خاتم سليمان » ويتندرون بقـدرته على العطاء اللا محدود .

(★) سهيل : نجم يظهر فى هذه الليلة فى الزاوية الجنوبية الشرقية يهتدى به الشعب الفلسطينى ويتخذ منه العديد من الأمثلة الشعبية (انظر المرجع السابق للمؤلف)

(٢٢) مجير الدين الحنبلى ـ الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ـ المجلد الأول ـ المرجع السابق ص ٧٣ .

(٢٣) عارف العارف ـ تاريخ غزة ـ القدس ـ ١٩٤٣ ص ٣٢٥ .

(٢٤) مجير الدين الحنبلى ـ الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، المرجع السابق جـ ٢ ص ٧٤ .

هذا المشـــهد بناه الفاطميون فى نفس المكان الذى زعمـوا أنه رأس الحسين بن على رضى الله عنهما به ، كما ذكر مجير الدين الحنبلى بالمرجع السابق .

٩١ ـ شبيك لبيك خاتم سليمان بين ايديك

وما كان يمتلكه من كنوز وفيرة كانت مجالا للتفاخر والمباهاة والكرم .

٩٢ ـ سيدنا سليمان مات اخضر يابس هات

يقوله الفضوليون من الضيوف تشـجيعا لمضيفهم على تقـديم كل ما هب لهم ومهما كانت جودته ، ما دام صاحب الكنوز قد مات !! .

وكرمز للعطاء الذى لا يضاهى وحبا وتقـديرا لسيدهم سليمان عليه السلام أطلقوا اسمه على « برك المياه الكبيرة التى تمول مدينة القدس بمياه الشرب منذ الفترة الرومانيـة فأسموها « برك سليمان » (*) الواقعة للجنوب من مدينة القدس . وقد ذكر مجير الدين الحنبلى بأن سيدنا سليمان قد ولد بمدينة غزة (٢٥) . والغريب ان هذه المدينـة حظيت بكثير من الحرق والهدم (٢٦) وكذا الاهمال « لأن غزة تكون متروكة من الرب » ! هكذا جاء فى التوراة (٢٧) .

وقد توفى سيدنا سليمان ودفن فى الجيسمانية بمدينة القدس هو وابنه داود عليهما السلام فى قبر واحد (٢٨) .

وللنبى روبين موسمه فى فلسطين ، الا أن هذا الموسـم يتميز عما سواه بأنه يحدث فى فصل الصيف لا فى الربيع كبقية المواسم ، وروبين عليه السلام هو ابن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم ، ويقع مشهده غرب مدينة الرملة والى الجنوب من مدينة يافا بالقرب من ساحل البحر وعند مخاضه نهر روبين الذى سمى باسمه حيث يتجمع الناس والعديد من الطرق الصوفية حوله فى موسم مهيب تنفق فيه أموالا كثيرة على حد رأى مجير الدين الحنبى (٢٩) ، ولشدة حرص أهالى يافا خاصة نساءهم

---

(٢٥) مجير الدين الحنبلى ـ الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ـ المجـلد الأول المرجع السابق ص ١١٧ .

(٢٦) الكتاب المقدس ـ الاصحاح الأول من شعر عاموس ٦ ـ ٧ .

(٢٧) الكتاب المقدس ـ الاصحاح الثانى من شعر صفنيا .

(٢٨) مجير الدين الحنبلى ـ المرجع السابق ص ١٤٥ .

(٢٩) مجير الدين الحنبلى ـ المجلد الأول ـ المرجع السابق ص ٧٢ .

(★) وهى عبارة عن ثلاث برك على هيئة أحواض بنيت على ثلاث مستويات تعـلو بعضها البعض فأعلاها « البركة الفوقا » ترتفع ٧٩٧٫٥ متر عن مستوى سطح البحر الى الشرق منها مباشرة « البركة الوسطى » وترتفع ٧٨٣ متر عن سطح البحر ثم تليها « البركة التحتا » وترتفع ٨٦٨ متر عن مستوى سطح البحر وكان يطلق عليهـا جميعا « ترك المرجيع » .

على حضوره تجد المرأة تهدد زوجها اذا ما حاول منعها من الذهاب بقولها الذى أصبح مثلا شعبيا :

٩٣ ـ يا بتروبنى يا بطلقنى

تلك هى المواسم الفلسطينية ذات الطابع الدينى التى تستقطب معظم أبناء الشعب الفلسطينى وما جاوره من مدن عربية أخرى بصفة رئيسة ، بالاضافة للمواسم .

الفصل الخامس

أمثال المواسم ..

- « الخمســـان »
- باب الدارون

المحلية التى تنفرد بها بعض المدن الفلسطينية خاصة مدينة غزة التى يحتفل أبناؤها بمواسم خاصة بها يطلقون عليها :

مواسم الخمسان .

لأنها جميعا تتركز فى شهر الخميس أى شهر « ابريل » أوج الربيع وتكون فى أيام « الخميس » من كل أسبوع وعلى مدى سبعة أسابيع حيث يخرج السكان جميعا فى موكب دينى لبعض أضرحة أولياء الله الصالحين كما سنوضح ، وهم :

١ ـ خميس الجعبرى وكان يطلق عليه سابقا « خميس فات » ويأتى بعد موسم « باب الداروم » بالمدينة .

٢ ـ خميس السيد أو « خميس النبات » فما سبق حيث تزدهر النباتات والزهور ويخرج الجميع للتنزه بين الأشجار وفى الحقول بعد موسم الشتاء فيقولون :

٩٤ ـ صلب وخش وخمس واطلع .

أى عند الصليب (٩/٢٧) بداية سقوط الأمطار الزم بيتك وفى شهر الخميس أو عيد الخميس (ابريل) أخرج وانتشر بين الحقول .

٣ ـ خميس ابو خليفه وهو « خميس الزهور » واستنشاق عبيرها

٤ ـ خميس التاية أو « ابو حرمه » وفيما سبق « خميس الحلوى »

٥ ـ خميس ابو عبيد أو (خميس الاموات) وهو اكثرهم شهرة حيث تخرج النساء لزيارة القبور وتوزيع الكعك والمحمول على روح موتاهم ·

٦ ـ خميس ابو الكاس أو « خميس البنات » وفيه يتقدم كل خطيب بتقديم الهدايا من الشياب والحلى لخطيبته ·

٧ ـ خميس المنطار وهو آخر الخمسان وأكثرها شهرة فى فلسطين عامة حيث يفد لمدينه عترة حشد هائل من ابناء فلسطين احتفاء بهذا الموسم ·

ومن المواسم الغزية التى تسبق هذه المواسم جميعا كما ذكرنا « موسم باب الداروم » أى باب غزة الجنوبى حيث يتجمع السكان فى ساحة تقع للجنوب من مدينة غزة مباشرة [نهاية شارع الكمالية الجنوبى]. وهذا الموسم ايذان بقدوم الربيع ونهاية الشتاء فيقولون :

٩٥ ـ اذا صلبتم شتيتم وان دورمتم صيفتم ·

وبقدومه يحاول الفلاحون اطلاق ابلهم من عقالها الشتوى ·

٩٦ ـ ان هل الدارون اطلق جملك يا مجنون ·

أى اذا أهل « موسم باب الدارون » فعلى الفلاح أن يطلق سراح ابله للمرعى وهذا الموسم يعتبره الفلاح ايضا نهاية لميقات عدم بذر الحبوب خاصة القمح والشعير فيقولون :

٩٧ ـ من ميلاده لباب الدارون ضب بدارك يا مجنون ·

أى ابتداء من عيد الميلاد (ميلاده) أواخر ديسمبر أو اول يناير وحتى باب الدارون « عيد الفصح ـ حافظ على البذور (بدارك) ولا تحاول بذرها فى الأرض لأنها فترة غير ملائمة للانبات ·

أما طقوس هذا اليوم الاحتفالية (باب الدارون) عند اهالى غزة والذى يأتى قبل « موسم الجعبرى » كما ذكرنا وبعد عيد الفصح أو عيد القيامة عند الأخوة المسيحيين بيوم واحد · حيث يتجمع الأطفال

(★) دورمتم : من داروم وهى كلمة عربية كنعانية بمعنى الجنوب وهناك من يقول بأنها ليست داروم بل هى ا دير الروم » وقد صرفت الى « داروم » او كما يلفظها عامة الشعب « دارون » ·

والشباب وسط الأراجيح وجيوبهم ملأى بالبيض الملون بالوان زاهية جميلة ، قد صبغتها لهم أمهاتهم بورق اللوز وبعض النباتات المغلى بالماء أثناء سلقه ثم ليمنح البيض أرضية ملونة يقومون بعدها بتلوينه ·

فلا عجب بعد ذلك أن ترى أحدا يتهكم على من يرتدى ثيابا ذات الوان متباينة بقوله :

٩٨ ـ زى بيض باب الدارون ·

وبعدها يقوم الأطفال والشبان بالمبارزة فيما بينهم « بتطقيش البيض » حيث يمسك كل منهم بيضة بقبضته تاركا جزءها العلوى مكشوفا ليضربها الآخر برأس بيضته ، فاذا ما انكسرت تكون من نصيب كاسرها وفى وسط هذا الحشد يقف طفلا لا يملك الا بيضة واحدة متفرجا لا يقوى على المبارزة ، ومنه استمدوا مثلهم الشعبى القائل :

٩٩ ـ ابو بيضة بقامشش (*)

وكثيرا ما يوظف الشعب الفلسطينى هذا المثل على الولد الوحيد لأمه والمجازفة بدفعه لأى غرض ·

وقبل أن نترك « المواسم » فان هناك طقوسا متشابهة فيها جميعا لابد من ذكرها ووصفها حيث يسبق كل موسم [باستثناء موسم باب الدارون] استعدادات تبدأ من الليلة السابقة أى مساء يوم «الأربعاء» فتجمع الناس خامته من رجال الطرق الصوفية فى جامع المدينة أو الحى المركزى [جامع ابن عثمان بالنسبة لمدينة غزة] · فيبدأون بقراءة القرآن والأحاديث والتواشيح ، كما يأخذون فى انشاد أغانى الاذكار العامية بما تشتمل عليه من أفكار وخوارق الأولياء يطلقون عليها « الحضرة » ، وفى مساء اليوم التالى « الخميس » يخرجون بعد صلاة العصر مباشرة من الجامع نفسه متوجهين لضريح ولى الله [الجعبرى أو السيد ··· الخ] بالنسبة لمدينة غزة يحملون الرايات « زفة البيارق » ذات الألوان المختلفة بينما هناك مجموعة من « الدراويش » يقومون أحيانا بأعمال خارقة مثل « ضرب الشيش » وهو أشبه بمسلة كبيرة الى حد ما رأسها حاد ودقيق كرأس الابرة وتنتهى بمجموعة من السلاسل الصغيرة المنتهية كل واحدة منها بخزرات صغيرة ، يأخذ الدرويش بأصابع

(★) بقامشش : أى لا يطاتش ببيضته أى لا يدخل فى مبارزة التكسير ·

كلتا يديه فى لفها بشكل دائرى وهو فى حالة من الاستغراق والذكر ، لايلبث بعدها أن يضعها فى فمه ليخرق بها خده ، فيتقدم عندها أحد كبار المشايخ أو الطرق الصوفية لينتزعها فى الوقت الذى يحاول فيه ايقاف مايمكن ان يحدث من نزيف بواسطة ريقه .

ومنهم من يضع على صدره جذعا من ضلوع الصبر [التين الشوكى] ذى الأشواك الحادة ويقـال أن هذه من صـفات وقدرات الطريقـة الرفاعية (١) ، وهكذا يستمر موكب « زفة البيارق » أو ما يطلق عليه شعبيا « العدة » وسط ضرب الدفوف والطبول حتى يصل لضريح ولى الله ، لينتهى بعدها الموسم وقد قربت الشمس من المغيب .

ويبدو أن مثل هذه التصرفات أو الخوارق لا تروق الفكر الشعبى العامر بالايمان والتقوى الصالحة فيحكمون عليها بمثلهم القائل :

١٠٠ ـ ضراب الشيش ونتاف الريش بيدور بيلاقيش .

فضراب الشيش من الدراويش مثـله مثـل صـائد الطيور « نتاف الريش » لاتمنح صاحبها فرصـة الكسب المجزى لاقامة حيـاة أسرية كريمة مهما دار فى حياته فى ممارساته هذه .

ويمكننا أن نستبين من هذه « المواسم » وطقوسـها دلالات عدة استطاعت أن تؤثر وتتأثر بمناحى الحياة المختلفة الدينية والاجتماعية وكذا الاقتصادية والسياسية للشعب الفلسطينى .

فمن الناحية الدينية :

يمكننا أن نستبين من هذه « المواسـم » وطقوسـها الدينيـة ما ينم على امتزاج العديد من الموروثات ذات الجذور العربيـة القديمـة التى تعود للوثنية عندما كان أجدادنا القدماء من العرب الكنعانين يحتفون بفصل الربيع ، فصل انبعاث الحيـاة وتجددها كعيد للطبيعة والشعب حيث يتجاوب الطرفان بعطاء الأرض وما تنبته من زهور ورياحين ، خاصة لو عرفنا بأن جميع « المواسم » الفلسطينية السابقة الذكر « باستثناء النبى روبين » تبدأ فى فصل الربيع وتنتهى بانتهائه ، لتنتقل بعدها ويحملها الشعب العربى الفلسطينى المسيحى ويحتفى بهـا بأعيـاد خميس التبات ـ والزهور والقديسين فى أضمومة « الخمسـان » وفى

---

(١) د. محمد ربيع المدخلى ـ حقيقة الصوفية ـ المرجع السابق ص ٤١ .

نفس الفترة الزمنية ليحملها من بعده نفس الشعب العربى الفلسطينى المسلم فتصبح مواسم الأنبياء وأولياء الله الصالحين والشهداء حيث دخل معظمهم فى دين الله أفواجا ، دين التسامح الذى لايفرق بين أحد من رسله . فشرفها خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم باسرائه ومعراجه من أرض قدسها « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله) صـدق الله العظيم . وعليه خص الاسلام هذه الأرض بالبركة فقال عليه الصلاة والسلام «البركة فى الشام» وقال أيضا « الشام خيرة الله فى أرضـه يشوق لها خيرته من عبادة » وقال عليه السلام « لاتشـد الرحال الى ثلاثة مساجد ، المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدى هذا » صدق الرسـول العظيم . كما اجمع الصحابة رضـوان الله عليهم « المقام بالشـام اقرب للرباط وواجب للنشاط » .

وعن أم سلمة زوج النبى أنها سمعت الرسـول يقول « من أهل بحج أو عمرة من المسجد الأقصى الشريف الى المسجد غفر الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر وأوجبت له الجنة » .

لذا فقد تسابق المسلمون جميعا لنصرة الاسلام على ثرى الأرض الفلسطينية الطهور فكانت أولى المواقع العربيـة الاسلامية مع الفتح الاسـلامى فاستشهد على ثراها مالايقـل عن ثمانين صحابيا وكثير من مشاهير التابعين (٢) ، وازداد موكب الشهداء وهم يقاومون الفرنجـة (الصليبيين) فأقيمت عليهم المسـاجد والمقامات والمشـاهد والأربطة خاصة فى الفترة الأيوبية والمملوكية لتخليد ذكراهم ونبراسا لكراماتهم ولتأكيد هوية الشـخصية العربية الاسـلامية الفلسطينية ولتشخيص عروبتها وثراها الذى انجبل بدمائهم الزكية فى كل شبر من أرضـها الطهور لتغدو وبحق أرض الأنبياء والصحابة والشهداء والصالحين هذا بالاضـافة لموكب الشهداء من النسـاء الصالحات اللواتى أقيمت لهن مساجد وأضرحة فقد حدد الأستاذ الفلسطينى والباحث الفلكلورى بأن هناك ١٣٪ من عدد الأولياء لفلسطين هم من النساء (٣) (*) .

---

(٢) انظر أسماءهم فى كتاب ـ مصطفى مراد الدباغ ـ القبائل العربية وسلائلها فى بلادنا فلسطين ـ المرجع السابق ص ٢٤٣ ـ ٢٤٥ وكذلك ـ محمد كرد على ـ خطط الشام ـ دمشق ـ ١٩٢٦ ص ١٨ ـ ٢٠ .

(٣) Canoon Tawfiq, Mohammedan Saints and Sanctuaries in in Palestine ,London, 1927, pp. 253.

(★) غالبا ما تتوزع هذه الأضرحة والمقامات على المناطق المرتفعة سواء فى الداخل أو على الساحل الفلسطينى مثل (الشيخ عجلين ـ الشيخ رضوان ـ الشيخ محمد البطاحى =

من هنا جاء يقين الاعتقاد ورسوخ الايمان فى الوجدان والفكر الشعبى العربى الفلسطينى بطهارة أرضهم وابائها ورفضها فى أن تخفى مجرما او يحتمى بها لص الا وكشفته وأفصحت عنه وأبانت ما انطمر بها من محرمات فورا ، فتجدهم يعبرون عن اطمئنانهم فور سماعهم لجريمة وقعت واختفاء آثارها بأن لابد من ظهور الآثم وانكشاف ما غمض ولو بعد حين ، معبرين عن ذلك ووفقا لتجاربهم عبر أقوالهم المأثورة :

١٠١ ـ ارضنا مقدســـة ٠

ويوضحون أكثر :

١٠٢ ـ أرضنا مقدسة فش اشى بيضيع فيها ٠

أو

١٠٣ ـ أرضنا مقدسة فش اشى بتخبا فيها ٠

الى متخبى فيها بيبان

ومارس الشعب العربى الفلسطينى المسلم شعائره الدينية فى مساجده وتعددت طرق الصوفيـــة فأقيمت الزوايا والتكايا والرباطات فى شتى أنحاء فلسطين وبصفة خاصة فى مدنها الرئيسية التى اتسمت بالمسحة الدينية [ـ غزة ـ الخليل ـ القدس ـ نابلس وصفد وعكا] ٠

ففى المساجد التى تعددت وظائفها (مدرسة ـ محكمة ـ) أقيمت الصلاة بصفة خاصة باعتبارها عمود الدين فقالوا بايمان عميق :

١٠٤ ـ الصلاة عمود الدين

أقاموها فى مواقيتها الخمسة طلبا للغفران وتقربا لله الواحد ٠

١٠٥ ـ اللى بيصلى بيطلب الغفران ٠

وفضلوا الصلاة حتى على ساعات الراحة أو التجارة ٠

= (المنظار) والشيخ سليم والشيخ حموده بقطاع غزة والشيخ على بن عليل فى أرسوق الذى يعود بنسبه لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب والمتوفى سنة ٤٧٤هـ وله موسم فى الصيف يحتفى به بنى صعب والشعراوية) ٠

١٠٦ ـ الصلاة خير من النوم ٠

فالصلاة هى الواسطة بين الانسان وربه يتقرب بها نحوه شاكرا نعماءه متلمسا غفرانه ورزقه :

١٠٧ ـ اللى ما بيصلى رزقه بيولى (*)

وتأكيدا لهذا الايمــان فقد حــذر الشعب أولئك الذين يتركون الصلاة ووفقا لما جاء فى كتابه العزيز فقالوا :

١٠٨ ـ جاك الموت ياتارك الصلاة ٠

وافصحوا عن ذلك بأغانيهم التحذيرية قائلين :

١٠٩ ـ يا اللى ســمعت الأذان والوقت راح منــك
بكره تقــوم القيــامة وينطلب منــك
لاينفعــك أبــوك ولا تنفعــك أمــك

وبطبيعة الحــال يسبق الصــلاة فرائض الوضــوء التى وعاها شعبنا بدقة من وحى كتاب الله وســنة رسوله الكريم ، فكانت لهم فى الصيف رحمة ونظافة ومع برد الشتاء بشرى فقالوا عنها :

١١٠ ـ فى الصيف نشرة وفى الشتا بشرى ٠

كما أنهم مدركون بأن :

١١١ ـ اذا حضر الماء بطل التيمم ٠

ومفضلين النشاط والتبكير فى الوضــوء حتى يتمكن الفرد منهم من الصلاة جماعة :

١١٢ ـ اللى بيتوضى بدرى بيصلى حاضر

وكثيرا ما يوظف هذا المثل للحث على التخطيط والتحضير المسبق للأمــور للوصــول للنتائج المرضيــة والمرجــوة والابتعاد عن الارتجــال والعفوية ٠

(★) بيولى بمعنى يقترب ٠
(★★) جاك : اى جاءك ٠

ونظرا لحساسية الوضوء وسهولة نقضه حتى بمجرد اللمس من أنثى أو اى شىء آخر من نواقض الوضوء فقد عبروا عن ذلك بقولهم :

١١٣ ـ فش أسهل من نقض الوضو (الوضوء) .

مستثمرين هذا المثل وبأسلوب الكناية احيانا بمعنى ليس هناك أسهل من نقض الاتفاقيات اذا ما طرأ ما يوجب ذلك ولأبسط الأسباب ولا مانع وسط هذه الجموع من أن نجد الشخصية المريضة التى تظهر بعكس ما تبطن والتى تتخذ من الدين ستارا لمارساتهم الضلالية والتى سرعان ما يمزق الشعب ستائرها الشفافة البالية بمثلهم القائل مستهترا :

١١٤ ـ ضلال وعامل امام .. والله حرام !!

ويتهكمون على مثل هؤلاء بقولهم السائر المأثور :

١١٥ ـ بشوف القبة بحسبها مزار !.

ومن الشعب من يتخذ حيال هؤلاء موقفا وسطا فيطلبون أخذ ما يمكن أخذه من علمهم تاركين ومبتعدين عن اعمالهم ، بقولهم :

١١٦ ـ خود من علمه وما تاخد من عمله .

الفصل السادس

أمثال ...

- المذاهب والطرق الصوفية ..
- الزوايا والتكايا ..
- النذور والصدقات ..
- الوقف ..

المذاهب والطرق الصوفية :

لقد تميز الأئمة الأربعة باجتهاداتهم وتأويلاتهـم التى ترتكز فى جوهرها على الفهم العميق لكتاب الله وسنة رسـوله الكريم فى استنباط الأحكام الشرعية بما يلائم أحوال الشعب الاسـلامى فى شتى أنحاء المعمورة ، فهم بالتالى أصحاب الفضل بما يشبه التقنين للفقه الاسلامى فى شتى مواضيعه المختلفة ، ويكفى أن نذكر فخرا بأن أحد هؤلاء الائمة وهو الامام الشافعى قد ولد بمدينـة غزة الفلسطينية صاحب المذهب الشافعى المشهور والذى ساد مذهبه وعم فلسطين فى العهدين الأيوبى والمملوكى ، وعندما تعرضت العراق للغزو التترى مما دفع العديد من علماء العراق ممن اعتنقوا المذهب الحنبلى لأن يتصدوا لأصحاب المذهب الشافعى ومنافســتهم ، وربما كان ذلك حافزا للشـعب الفلسطينى بقوله السائر :

١١٧ ـ بلاش تكون حنبلى !!

ويعنى بذلك فى غالب الأحوال عدم التزمت والتمسـك بصـلابة لامبرر لها لبعض القضايا أو الأفكار والمسائل .

ولما استولى العثمانيون على البلاد مع بداية القرن السادس عشر (١٥١٧ م) ساد المذهب الحنفى وأصبح المذهب الرسمى المنتشر فى فلسـطين مما أضعف المذهب المالكى وبقيت السـيادة للمذهبين الشافعى والحنفى .

الطرق الصوفية :

أما الطرق الصوفيـــة فقد سجلها شـــعبنا من خـــلال أمثاله فنجده يقول :

١١٨ ـ كل شيخ والو طريقة

أجل فلكل شيخ طريقة من الطرق الصوفية يتبعها ويمارس طقوسها كما أن للمشايخ ألقابهـم ومناصبهم فى الطريقة مثل [الأســـتاذ ـ امام الوقت ـ شيخ العهد ـ النقباء ـ الابدال ـ الأوتاد ... الخ] . ولكل ولكل واحد منهم اختصاصاته فى سلك الطريقة .

وقد انتشرت هذه الطرق بصفة عامة بعد القرن الثالث الهجرى فظهرت بمدينة البصرة بالعراق لدى أناس بالغوا فى العبـادة والزهد كما جاء على لسـان ابن تيمية (١) . ويقـال انهـا سميت كذلك لارتداء الصوف كعلامة على الزهد ، ويرى آخرون بأن ذلك تشبه بالسيد المسيح عيسى بن مريم فى حين كان النبى عليه الصلاة والسلام يرتدى القطن(٢) .

وبادىء ذى بدء لسنا هنـا فى مجـال تقييم هذه الطرق الصوفية ونقدها سواء من الناحية الدينيـــة أو المسلكية ، فقد كتب العديد من الدارسين والمتخصصين من رجال الدين كثيرا من الدراسات عنهم ما بين المؤيد لهـا والمؤكد بأنهـا اسـلامية الجوهر والنشأة والنزعة وهنـاك المعارضون لها والذين اعتبروا التصوف وما نجم عنه من فكر وسـلوك حياتى مسئولا عن تدهور حال المسلمين ومن هؤلاء جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ومحمد اقبال وسبقهم ابن الجوزى سنة ٥٩٧ هـ فى كتابه « تلبيس ابليس » (٣) وانما نورد ما كان لرد الفعل الشعبى حيالهـا والمدن وفى أمثاله الشعبية المعبر عن تجربته ووجدانه .

وانتشرت الطرق الصوفية فى شتى المدن الفلسطينية خاصـة فى القرن الخامس الهجرى وما بعده وفقا لأقطابها ومنها الأحمدية والشاذلية

---

(١) د. محمد ربيع المدخلى ـ حقيقة الصوفية فى ضوء الكتاب والسنة ـ المرجـع السابق ص ١٥ .

(٢) الامام أبو حامد الغزالى ـ احياء علوم الدين ـ المجلد الخامس ـ دار الفكر ـ بيروت ـ بدون تاريخ ص ٦٢ ـ ٦٣ .

(٣) د. محمد ربيع المدخلى ـ مقال بمجلة الفيصل ـ العدد الأول ـ السنة الاولى يونيه ١٩٧٧ ص ٢٩ .

والخلوتيه الرفاعية. هذا بالاضافة للطرق القادرية والدسـوقية والبدرية والسعدية والعليلية (*) .

وقد تحدث عن هذه الطرق واتباعها كثير من الرحالة المسلمين مثل الشيخ النابلسى عند زيارته للمدن الفلسطينية وهو فى طريقه لمصر ، كما تحدث عنها الشيخ مصطفى البكرى أحد أقطاب الطريقة الرفاعية .

فقد بلغت عدد الطرق بمدينـة نابلس الفلسطينية عشرين طريقة ضمنتها عديدا من الزوايا (٤) كما انتشرت بمدينة غزة عدة طرق صوفية خاصة « الأحمدية » حيث أقيمت لها زاوية فى قلب المدينـة (الزاوية الأحمدية) . فتراهم وقد نسجوا أقوالهم الشعبية متأثرين بهذه الطريقة وقطبها قائلين :

١١٩ ـ ع البساط الأحمدى .

١٢٠ ـ أو : خليهـا احمدى

وأحيانا يقولون :

١٢١ ـ خلى البساط احمدى .

لاعتقادهم بأن السيد أحمد البدوى كان يجلس على بسـاط صغير على قدر جلســته لـكنه فى الوقت نفســه يتسع لجميـــع من أرادوا الجلوس معه .

(*) الطريقة الأحمدية نسبة لسيدى أحمد البدوى المتوفى بمدينة طندتا (طنطا) سنة ٦٧٥هـ .

ـ الطريقة الشاذلية : نسبه لسيدى أبو الحسن الشاذلى ٥٩٣هـ والمتوفى سنة ٦٥٦هـ

ـ الطريقة الخلوتية الرفاعية : نسبه لسيدى أحمد الرفاعى ولد سنة ٥٠٠هـ وتوفى سنة ٥٧٨هـ .

ـ الطريقة الجيلانية : نسبه لسيدى عبد القادر الجيـلانى سنة ٤٧٠هـ والمتوفى سنة ٥٦١هـ .

ـ الطريقة الدسوقية : نسبة لابراهيم الدسوقى ولد سنة ٦٣٣هـ وتوفى بدسوق سنة ٦٧٦هـ .

ـ الطريقة العليلية : نسبه للشيخ على بن عليل المتـوفى بمدينة أرسـوف الفلسطينية سنة ٤٧٤هـ ، وهى بالتـالى ربما كانت اقدم الطرق الصـوفية بفلسطين .

ـ الطريقة القادرية وكان شيخها فى فلسطين والمملكة الاسلامية شـمس الدين أبو العون محمد الغزى نزيل جلجوليا وهو الذى إقام مشهدا لضريح الشيخ على ابن عليل (صاحب الطريقة العليلية) سنة ٨٨٦هـ .

(٤) احسان النمر ـ تاريخ جبل نابلس والبلقاء ج ٢ المرجع السابق ص ٣٥ .

ويقولون ذلك تعبيرا أيضا عن البســـاطة والصراحة التى تلازم « المريد » أو الجالس أمام امامه من شيوخ الطريقة .

كما دخل هذه الطريقـة العديد من أبنـاء البادية الفلسطينية من قبيلة الحناجرة [الحمدات] للطريقة الشاذلية واللطيفية التى دخلهـا بعض من عرب الجبارات (٥) ، كما شاهد الشيخ النابلسى أبناء الطريقة القادرية بمدينة الخليل وهم يمارسون أذكارهم ، كما اســـتطاع أحد مشايخ مدينة غزة سنة ١٢٨٩هـ أن يضم حوالى الف شخص من الرجال والنساء لعدة طرق صوفية من سائر المدن الفلسطينية وكذلك من أبناء مصر والسعودية وســوريا واليمن ســـجل أســماءهم فى سجل خاص مازال مخطوطا » (٦) .

وكانت الصوفية تمنح حرية الاختيـــار لمن يريد الانضمام لها ويسمونه « المريد » فى ان يختار شيخه أو أستاذه شريطة أن يرتبط به ارتباطا لا فكاك منه ويتوجب عليـه تنفيذ تعاليمه فلا يخـالف شيخه أو يعترض عليه وأن يقدمه عمن سواه من مشـــايخ الطرق الأخرى .

ولعل ما جاء فى وصف السيد ابراهيم الدسوقى من علامات المريد لشيخه ما يدلنا على هذه الطاعة المطلقة اذ قال :

« ان المريد مع شيخه على صورة الميت ، لا حركة ولا كلام ولا يتحدث بين يديه الا باذنه ولا يعمل شيئا من زواج أو سفر أو خروج أو دخول أو عزلة أو مخالطة أو اشتغال بعلم أو قرآن أو ذكر أو خدمة الزاوية الا باذنه » (٧) وأوجزها الشيخ مصطفى البكرى شعرا وهو من أقطاب الرفاعية بفلسطين قائلا (٨) :

١٢٢ ـ وســلم الأمر لاتعترض
ولو بعصـيان اتى اذا فرض
ولكن لديه مثل ميت فانى
لدى مغسـل تمس دانـى
ولا تطـأ له على سجادة
ولا تنم له على وســـادة

(٥) عارف العارف ـ القضاء بين البدو ـ القدس ١٩٣٤ ص ٢٥٣ ـ ٢٥٤ .

(٦) الشيخ احمد بسيسو ـ طرائق السادة الصوفية ـ مخطوط ـ ١٢٨٩هـ غزة .

(٧) ابراهيم مصباح ـ حول قضية التصوف فى الاسلام ـ مقال بمجلة الفيصل ـ العدد الأول ـ المرجع السابق ص ٢٩ .

(٨) د. محمد ربيع المدخل ـ حقيقة الصوفية فى ضوء الكتاب والســـنة ـ المرجع السابق ص ٢٣ .

وقد انضم لهذه الطرق جميع فئات الشعب رجالا ونساء على اختلاف مراكزهم ومناصبهم ، وكان يحق « للمريد » أن يجاز باكثر من طريقة واحدة كمـا بدا لنـا من قائمة المريدين المدونة بمخطوط الشيخ أحمد بسيونى سنة ١٢٨٩ هـ والتى كما ذكرنا زاد عددهم عن ألف مريد طرد منهم وفقا لما جاء فى مخطوطه سبعة أشخاص .

وكان لكل طريقـة أسـماء تتالف من سبعة أصول وستة فروع على حد تعبيرهم (٩) (*) .

وكان يميز كل شيخ طريقة زى خاص يميزه عن غيره من أصحاب الطرق الأخرى ويبدو ذلك جليا فى لباس الرأس بصفة خاصة « اللفة » أو « العمة » كما جاء على حد قول المثل الشعبى :

١٢٣ ـ كل شيخ والو لفه .

فالطريقة العلوية على سبيل المثال وضع مشايخها على رؤوســهم قلنسوة أو طاقية وأحيـانا طربوشا غطوها بقطعة قمـاش بيضاء .

اما الطريقة الرفاعية فتميزت بلون القماش الأخضر الذى يلف العمة أو الطاقية جميعها . فى حين نجد الطريقة الجيلانية اتخذت من القماش الأحمر الذى يلف غطاء الرأس رمزا لها فى فلسطين .

وعلى الرغم من كل هذا لاينطلى على الشعب بعض المرائين والمندسين

(٩) الشيخ أحمد بسيسو ـ طرائق الســـادة الصوفية ـ مخطوط ـ المرجع السابق ص ٢٦ .

(★) أسماء السبعة فى الطريقة الحلوتية هى :

لا اله الا الله ـ الله ـ هو ـ حق ـ حى ـ قيـوم ـ قهـار .

يلقنها الشيخ للمريد على التدريج ولا تلقن جملة ، ويلقن فيها الاسم ثلاث مرات وهو مغمض العينين وتلقن الأسماء الستة الأولى في أذنه اليمنى اما السابع « قهـار فقى أذنه اليسرى .

أما الطريقة الرفاعية فلها سبعة أصول وستة فروع أما أصولها السبعة فهى :

لا اله الا الله	وعـدد	تلاوتها	مائة ألف مرة .
الله	»	»	٧٨٤٨٠ »
هـو	»	»	٤٤٠٣٨ »
حـى	»	»	٢٠٠٢٢ »
واحـد	»	»	٩٣٤٢٠ »
عـزيز	»	»	٧٤٦٤٤ »
ودود	»	»	١٠١٠٠ »

وستة فروع هى قهار ـ قيوم ـ وهاب ـ مهيمن ـ باسط .

ومرضى التلوث ممن يتخذون من هذه الطرق قناعا يتسترون خلفها ليتصرفوا بتصرفات تتنافى مع الدين والسلوك القديم والعقيدة السليمة والمعاملة الصالحة والعبادة الصادقة ، فيكشفها الشعب بمثله الشعبى الضاغط بأدب قائلين :

١٢٤ – مش كل من لف لفة صار شيخ

ويلمحون بأسلوب مثلى لاذع عن التناقض بين التصرفات الظاهرية المرئية لبعض هؤلاء المرضى كما تبدو فى « تكبير حجم اللفة أو العمة » وبين مسلكياته الداخلية والخلقية كما تبدو فى « توسيع الذمة » ، وكيف أن العلاقة بينهما علاقة طردية شكلا وعكسية تصرفا فيقولون :

١٢٥ – كبر العمة ووسع الذمة .

وبأسلوب أكثر نقدا وأشد صراحة ولذعا قالوا :

١٢٦ – تحت اللفة قرود ملتفة .

ليكشف بالتالى عن وجهة النظر الشعبية التى كثيرا ما تخيب آمالهم فيمن يأتون بممارسات تتناقض مع مواقعهم سواء كانت دينية أو ادارية ، ولعل هذه الأمثلة الشعبية كثيرا ما انسحبت على « مشايخ » المهن المختلفة (شيخ النجارين والحدادين – شيخ القرية أو البلدة او الحارة .. الخ) حيث كان البعض منهم يمثل عبئا على أصحاب مهنته فى المراقبة والتفتيش فمنهم من كان يتقبل الرشاوى فى فترات التسيب والانحلال كما كان الحال عند نهاية الفترة العثمانية (١٠) وكذا المملوكية . حيث يجد الشعب فى هذه الأمثلة حجارة يرجمونها بهم لكى تعبر عن سخطهم وتهون عليهم .

وتخليدا للرجال الصالحين من هؤلاء المشايخ أطلق الشعب الفلسطينى على العديد من ضواحى مدنه وقراه أسماء هؤلاء [الشيخ عجلين والشيخ رضوان من احياء غزة والشيخ جراح بالقدس ، والشيخ مؤنس بيافا وكذلك الشيخ داود والشيخ دنون بعكا والشيخ بريك والشيخ حلو بمدينة حيفا ومن النساء كثر نعمة بيافا وأم حسنين بالرملة وسعيدة بمنطقة الخليل والست رقية بمدينة غزة] هذا على سبيل المثال لا الحصر .

---

(١٠) سليم المبيض – غزة وقطاعها – المرجع السابق ص ٣٨٣ و ٣٨٥ .

الزوايا والتكايا :

وبانتشار الطرق الصوفية فى أرجاء المدن الفلسطينية ازداد معها انشاء الزوايا كأماكن يخلو فيها أصحاب الطريقة ليقيموا الذكر وقراءة القرآن وغالبا ما يطلق عليهم « الدراويش » ففى مدينة غزة على سبيل المثال عدد من الزوايا أهمها الزاوية الأحمدية وزاوية الهنود وزاوية أبو مدين الغوث (١١) (*) . وبمدينة الخليل هناك تسع عشرة زاوية كما جاء على لسان مجير الدين الحنبلى وأكثر من ذلك بمدينة القدس (١٢) وقد سجل لنا التراث الشعبى بتجربته المثلية التى تفصح عن اكتشافهم لبعض الذين يحاولون اللجوء للزوايا تمسحا وتمويها لما يرتكبونه من أخطاء مما لا ينطلى على الشعب صاحب الفطرة الدينية السليمة فيقولون :

١٢٧ – بسوى السوايا وبيلطى فى الزوايا

وبأسلوب ينم عن التلميح دون التصريح يعبر عامة الشعب عما يدور فى الزوايا وربما خوفا من سطوة اتباعها لما لهم من مكانة وثقل اجتماعى أطلقوا مثلهم الشعبى المعبر عن العديد من المعانى قائلين :

١٢٨ – فى الزوايا خبايا

فما هى هذه الخبايا ؟ يبقى الجواب فى خلد الشعب بايجابياتها وسلبياتها التى لايعرفها عامة الناس .

ولهذه الطرق الصوفية « تكايا » هى فى الواقع أشبه بمؤسسة خيرية تقدم الغذاء للفقراء والمحتاجين مجانا فى كل يوم . فانعكس ذلك على الفكر الشعبى الفلسطينى الرافض فى الغالب على بعض أولئك الذين لايستحقون هذه المعونة فيكونوا بمثابة « متسولين » وهم القادرون على العمل والانتاج ، فيزجرون مثل هؤلاء بتعابيرهم الشعبية القائلة لهم :

(★) أبو مدين الغوث : هو شعيب بن حسن الانصارى الاندلسى ولد بحصن قطنيانة من قرى اشبيلية وبعد تنقله فى المدن المغربية سافر لمكة وربما نزل مدينة غزة حيث أقيمت له زاوية باسمه وسط مدينة غزة ويوجد بداخلها ضريح « الرجاجى » واخيرا استقر به المقام بمدينة تلمسان حتى توفى بها سنة نيف وثمانين وخمسمائة عن عمر يناهز الثمانين عاما .

(١١) الامام عبد الحليم محمود – أبو مدين الغوث – دار المعارف – القاهرة ١٩٨٥ ص ٢٣ و ٥٣ و ١٥٠ .

(١٢) مجير الدين الحنبلى – الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل – المجلد الثانى – المرجع السابق ص ٧٩ .

١٢٩ ـ مش عملينها تكية !!

وكان لسان حالهم بهذا التعبير يطردهم ويرفض تقديم العون لهم ، لأن الاسلام حرص بل وحض على العمل والعرق وجعل اليد العليا أفضل من اليد السفلى ، لذا فانهم يصدون من يطرق باب العون دون بذل الجهد قائلين لهم وبعنف :

١٣٠ ـ مش فتحينها تكية !!

وقد ذكر الرحالة أوليا جلبى أن بمدينـــة غزة عند بداية القرن السابع عشر تكيتين [تكية مرجان وتكية عبد العظيم] (١٣) ، كما كان بالقدس تكايا لسبعين طريقة وصف اتباعها بأنهم « أهل ذوق ودراويش متصوفون » (١٤) .

ويســود الاعتقاد بين « الدراويش » بأن أكل الخضروات وبعض الفواكه هى مما يجب تناولها والاعتماد عليها فى غذائهم قبل قيامهـــم « بحلقـات الذكر » خاصـــة فيرون أن أكل اللحوم بأنواعها غير محببة لاثارتها للغرائز ، فأيدوا ذلك بأمثالهم وتعابيرهم الشعبية لتوثيقها فى الذاكرة فقالوا :

١٣١ ـ التفاحة ما بتشبع بس بتقعد المنافس

أن أنها تعمل على فتح الشهية وتحول دون التقىء (بتقعد المنافس) .

ولهم فى الزبيب والجوز قيمة غذائية فائقة أوصوا بتناولهما :

١٣٢ ـ الزبيب ما يبات فى جوف انسان الا أصلحه .

وبالنسبة للجوز قالوا :

١٣٣ ـ أكل الجوز بيربى مكارم فى الجوز

أن يزيد الزوج خصوبة ، لما يحويه من زيوت

ومن الخيار كفاكهه صيفية يقولون :

---

(١٣) أوليا جلبى ـ سياحتنا مى سى ـ ترجمة حنا اسطفان ـ المتحف الفلسطينى ص ٧٦ ، انجليزية .

(١٤) عارف العارف ـ تاريخ القدس المفصل ـ القدس ١٩٦١ ص ٢٦٨ .

١٣٤ ـ الخيار بيطفى ع القلب النار .

وعلى النقيض من ذلك تجنبوا أكل بعض الفواكه كما جاءت فى وصاياهم المثلية الشعبية فقالوا :

١٣٥ ـ اللى بياكل الفجل بصير زى العجل

لما يسببه من غازات .

١٣٦ ـ الفجل ما الو شراب والحيوان ما الو جواب

أى عدم الجدوى من الفجل وشرابه وأحيانا يعبرون بهذا المثل عن عدم توقع الخير من انسان سىء .

كما لا يفضلون أكل التين ليلا والمشمش :

١٣٧ ـ التين ما يبات فى جوف انسان الا افسده .

١٣٨ ـ أكل المشمش مدحش

أى انه مفسد لمحتويات الأمعاء .

واحترسوا من أكل الفول والمبالغة فى تناوله وذلك لأن :

١٣٩ ـ اللى بياكل فول بصير راسه اقوى من العالول .

وكذلك :

١٤٠ ـ من أكل أربعين يوم فول استتيس

أى أصبح كالتيس رمز الغباء والعناد .

ويفضلون النوم نهارا تحت ظلال الأشجار الوارفة طلبا للراحة فيقولون :

١٤١ ـ تحت الدوم (*) بيحلى النوم

كما يعتقدون بأن فى شرب الدخـــان وسيلة للتنفيس والترويح عن النفس (١٥) :

(*) الدوم هى شجرة الزيزفون .

(١٥) التراث والمجتمع ـ العدد الخامس ـ المجلد الثانى ـ البيرة ـ كانون الثـــانى ١٩٧٦ ص ٦٤ ـ ٦٥ .

١٤٢ ـ شرب الدخان بيزيل النسيان ٠

وكذلك :

١٤٣ ـ ان كترت همومك عبى غليونك ٠

النذور والصدقات :

أولياء الله هم رجال لهم مكانتهم فى الوجدان الشعبى كما ذكرنا ولهم صفاتهم التى ترفعهم لهذه الدرجة فيصفونهم أحيانا بصفة « واصل » او من « الصلاح » اى من الصالحين وكذلك « ع الطريقة » وأحيانا يسمونهم من « أهل الله » ولسنا مبالغين عندما نقول بان المعتقد الشعبى يصل به أحيانا حد الاعتراف للأولياء بقوة خارقة لا تعيقها أية عوائق ، وينسبون لكل منهم خوارق وكرامات وصفات كثيرا ما تحدث عنها العديد من الرحالة والكتاب وعلى رأسهم الشيخ النابلسى الذى ذكر الكثير من كراماتهم عند زيارتهم من أمثال « الشيخ عجلين والشيخ رضوان » بمدينة غزة (١٦) ٠ مما عزز الاعتقاد بهم فى الفكر الشعبى الذين أخذوا يقصون العديد من القصص الخارقة عنهم ٠

وهؤلاء الأولياء هم اما علماء بأمور العلم والدين ولهم مواقفهم الشجاعة فى اظهار الحق ودحض الباطل ق أو ممن بأنفسهم شهداء فى سبيل الله أو قضوا سنين عمرهم فى طاعة الله متميزين بالزهد والصلاح أو يعودون بنسبهم الى أهل البيت والصحابة ٠

لهذا توجه العديد من عامة الشعب بزيارة أضرحتهم للتبرك متوسلين لهم كوسطاء لدى خالقهم خاصة أيام « المواسم » يقدمون النذور كاضاءة شمعة أو توزيع الصدقات كالخبز والمحمول أو القطين والفول الأخضر أو النقود للفقراء والمساكين وأحيانا يذبحون الذبائح ٠ وحرصا منهم على الوفاء قدمت لهم التجربة المثلية الشعبية مثلها القائل :

١٤٤ ـ قل من النذر واوفيه

ولأن الوفاء به فريضة واجبة على المسلم تمشيا مع قوله تعالى « يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا » ٠ لذا رأت التجربة الشعبية ان تكون هذه النذور متوائمة وقدرات صاحبها المادية حتى يتم له انجازها والوفاء بوعده ٠

---

(١٦) الشيخ النابلسى ٧

وتكثر الصدقات مع النذور فيقدمونها على هيئة « خبز » للفقراء بوجه خاص مؤمنين بأن :

١٤٥ ـ كتر اللقم بترد النقم ٠

وكذلك :

١٤٦ ـ لقمة فى بطن جايع أحسن من بناية جامع ٠

وينصحون الفقير اذا ما حاول التصدق قائلين :

١٤٧ ـ اللى بتتصدق به اتشلق به

اى انك أحوج لأكل (اتشدق) ما تريد التصدق به ٠

وفى الوقت نفسه يحذرون من تفشى الفقر وكثرة الشحاذين لأن معناه التقليل من قيمة الصدقة فتغدو العلاقة عكسية فاوضحوها فى مثلهم القائل :

١٤٨ ـ ان كتروا الشحاتين بتقل الصدقة ٠

وكما تقدم النذور عند أضرحة أولياء الله وعلى أعتاب المساجد فانها أيضا تقدم فى الأديرة والكنائس العربية المسيحية داخل المدن الفلسطينية التى يتأفف منها أحيانا بعض السدنه ومنهم « سمعان » الذى يردد مثله القائل :

١٤٩ ـ النذر للدير والوسخ ع سمعان

فهو خادم الدين الذى يقوم بأعباء تنظيفه وكنسه بعد مغادرة أصحاب النذور للدير وترك النظافة عليه غير مبالين ٠

وهكذا كانت فى فترات عدة للسلطة الروحية عند الشعب العربى الفلسطينى مكانتها فى أفئدتهم ربما فاقت وتفوقت على السلطة الزمنية التى تمتع بها الملوك والسلاطين والأمراء والولاة ٠

ظاهرة الوقف :

يقر الفكر الشعبى بايمان عميق عبر ناموسه المثلى قائلا :

١٥٠ ـ مال الوقف بيهد السقف .

بهذا المثل التهديدى المروع هدد الشعب البعض من محاولة التعدى على مال الوقف الذى اتخذ صورا شتى كالأراضى الزراعيـــة والعقارات التجارية التى أوقفها العديد من الأمراء والسلاطين والاقطاعيين خاصة فى الفترة الأيوبية والمملوكية وكذا العثمانية (١٧) ، شاركهم فى ذلك الكثير من أبناء فلسطين رجالا ونساء خدمة للعديد من المساجد والزوايا والتكايا وكذا للمدارس والبيمارستانات (المستشفيات) والأسبلة (١٨) وذلك للابقاء عليها عامرة ومؤدية لرسالتها المقدسة على مدى العصـور مؤكدة السمات العربية الاسلامية فى فلسطين خاصة فى فترات اجتاحت بلادنا قوى عدائية صارخة حاولت ـ ولا تزال ـ شطب هذه القسمات والملامح الدينية الاسلامية . وقد أصبحت كلمة « وقف » لها رهبتها فى النفس الفلسطينية فأصبحت تعنى « عدم الاعتداء أو الاقتراب أو محاولة التملك» لأى مادة وقفية حتى انهم يشيرون لأى شىء مقدس لايريدون مساسـه أو الاعتداء عليه بقولهم :

١٥١ ـ زى مال وقف .

تلك هى الملامح الدينية وما يرتبط بها من ممارسات دينية أيام المواسم الفلسطينية .

ثانيا : الناحية الاقتصادية :

تشكل المواسم فى المدن الفلسطينية سـوقا للتجارة المحلية حيث تسوق بها منتجات البلاد الزراعية من خضار وفواكه وبعض الصناعات القائمة عليها وكذا المنسوجات خاصة (المجدلاوية) والا كلمة الصوفية والبسط الغزية فيغدو « الموسم » سوقا رائجة تعج بالحركة والنشاط فى البيع والشراء والباعة الذين ينادون بأصوات منغمة ومميزة لجذب المشترين فهذا ينادى : « العين الى بتاكل ! » وآخر ينادى بصوت شجى « اصابيع البوبو يا خيار .. أمه بتحبو يا خيار » وثالث يشجو مناديا « ياما غنت عليك البلابل ياتين » وآخر يحث المشترين على الشراء بسرعة فيقول « لاتجرى خليت لك » وكثير من تلك النداءات التى تبعث على البهجة تضفى على الموسم جوا من الفرحة والسرور كفرحة العرس .

---

(١٧) محمد ابشرلى ومحمد التميمى ـ اوقاف وأملاك المسـلمين فى فلسطين ـ استانبول ـ ١٩٨٢ .

(١٨) سليم المبيض ـ غزة وقطاعها ـ المرجع السابق ص ٤٦٢ ـ ٤٧٣ و ص ٣١٢ .

ثالثا : الناحية الاجتماعية :

كانت المواسم تتيح فرصـــة جيدة لالتقاء أبناء الأسرة الواحدة المنتشرين فى أنحاء المدن والقرى الفلسطينية مع بعضهم البعض لتمتين أواصر المحبة وكذا بقية الأصدقاء يتدارسون أحوالهـم والمستجدات الطارئة على مناحى حياتهم المختلفة ، هذا بالاضـافة للدور الترفيهى الباعث على تجـدد النشـاط والحيوية عند الكبار والصغار الذين يستمتعون بركوب الأراجيح « المرجيحة » وهم ينشدون بأغانيهم العذبة على وقع دفعات صاحب الأرجوحة مغنين :

١٥٢ ـ طيرى وهدى .. ياوزة .
ع بلاد غزة .. ياوزة .
خلوك حزينة .. ياوزة .
على عرق التينة .. ياوزة .

وعلى مقربة منهم تجد أطفالا قد جلسوا على مقعد طويل يستمعون بمشاهدة « صندوق العجب » ومن خلفه رجل يحكى لهم بصوت منغم قصة أبو زيد حيث يشاهدون صورا متحركة له داخل الصندوق .

وهناك يقف رجل آخر على كرسى ينادى بأعلى صوته « حاوى سيماوى ياكل النار بالشوكة » . فيلتف حوله الناس باذلا الجهد لاظهار موهبته السحرية فى حين ترقبه عيون الناس بشغف منتظرة منه خطأ لأنهم على يقين بأن :

١٥٣ ـ الحاوى ما بسلم من لسعات الحيات

خاصة وان الحواه كثيرا ما يستخدمون « الأفاعى » فى آلاعيبهم وممارساتهم ، وهناك على بعد تجد الطبيب الشعبى معلنـا عن حضوره مناديا بصوت عال « أنا الطبيب المداوى بداوى كل البلاوى » . فيصطف الناس أمامه ، يعرض عليهم وصـفاته الطبية وما فى جعبته من أدوية وعلاجـات .

وعلى مقربة منه نجد رجلا آخر يقوم بحركات بهلوانية تثير الضحك ملقيـا على النـاس من حوله بعض النكات والطرف مصحوبة بحركات تمثيلية تبعث فى النفس البهجة والمرح .

وهناك شباب قد أمسكوا ببعضهم البعض على هيئة دائرة يرقصون رقصتهم الشعبية « الدبكة » على صـوت الأرغول والشبابة وهم يغنون بأغانيهم الشعبية العديدة « والتى منها » « وعلى دلعونا » .

وآخر واقف يستعرض عضلاته صائحا « يوه تبان » وهى أشبه اليوم بالمصارعة .

ولعل من اجمل ما يزين الموسم ويبعث فى النفوس النشوة والحمية والنخوة « سباق الخيل » الذى يستقطب معظم جموع المحتفلين ، يصفقون للفرسان وسط زغاريد النساء واغانى الرجال التى تشحنهم بالحماس والشجاعة .

١٥٤ – شدوا ع الخيل يا صبيان شدو
علينا القول وانتو بس ردو
شدوا للخيال على جواده
عقيد الشور (*) يا حامى بلاده
شدوا للخيال ع المضمر
عقيد القوم يا سبع مشمر
شدوا للخيال ع المكحولة
عقيد الشور ياكبير الحمولة

ومن اهازيج السباق ما هى مفعمة بالتأثير الدينى والروحانى للأنبياء والصالحين الذين عقدت لهم المواسم ، وقد أحصوها جميعا فى اهازيجهم :

١٥٥ – العبى يا خيل اهلنا العبى
شاربة عين زلال وحليب
خيل أهلنا زايرة النبى داود
جاية دم الأعادى ع البارود
العبى يا خيل أهلنا العبى
شاربة ميه زلال وحليب
خيل أهلنا زايرة النبى صالح
رافعين لها الرايات من مبارح
خيل أهلنا زايرة النبى عباس
جايبه دم الأعادى كاس بكاس
خيل أهلنا زايرة النبى روبين
جايبه دم الأعادى ع المنديل

(*) عقيد الشور – أى الرجل الكبير الذى تعقد عنده المشورة « كبير الحمولة والعشيرة » .

خيل اهلنا زايرة أبونا الخليل
جايبه دم الأعادى فى البرميل
خيل اهلنا زايرة واد النمل
جايبه دم الأعادى فى السطل
خيل اهلنا قبلت ع المنطار
جايبه دم الأعادى ع الزنار
لورا ياخيل الأعادى لورا
فى رجال جابوها مجنزرة
العبى يا خيل أهلنا العبى
شاربة مية زلال وحليب

الناحية السياسية والعسكرية :

يقال ان أول من خطط لهذه المواسم الشعبية وتوزيعها توزيعا جغرافيا محسوبا ودقيقا على المدن الفلسطينية هو القائد المسلم صلاح الدين الأيوبى بعد موقعة حطين سنة ١١٨٧ م (١) ، تحسبا من غدر الفرنجة (الصليبيين) مستغلا فرصة التجمع وحشود أبناء فلسطين خاصة أيام موسم النبى موسى القريب من القدس والذى يصادف موسم قدوم الفرنجة لها (أحد الشعانين) حتى اذا ما فكروا فى الاعتداء ، كان الشعب على أهبة الاستعداد لصدهم خاصة وان معظم الوافدين للموسم يكونون بكامل عدتهم وعتادهم وهم فوق جيادهم تزكيهم وتشد أزرهم اهازيج السباق الحماسية كما سبق أن بينا .

واستمرت هذه المواسم طيلة الفترة العثمانية الاسلامية ، حتى ابتليت الأمة العربية بالانتداب البريطانى الأسود بوجه عام والشعب الفلسطينى بوجه خاص حيث طعنته طعنة غادرة فغرست فى جسده بذور الكيان الصهيونى ممثلا فى وعد بلفور المشئوم سنة ١٩١٧ م . مما جعل المواسم من بعدها فرصة جماهيرية للتعبير عن سخطهم وغضبهم على الاستعمار البريطانى ومعه الصهيونية التى بدأت تضرب جذورها كما حدث فى موسم النبى موسى من عام ١٩٢٠ م ، ثم قام الكيان الصهيونى ممثلا فى اسرائيل سنة ١٩٤٨ م فأمطرت فى موسم أبو الكاس يوم الخميس من عام ١٩٥٥ مدينة غزة بقنابل المورتر العشوائية فهرع

(١٩) عمر البرغوثى وخليل طوطح – تاريخ فلسطين – المرجع السابق ص ٢٠٠ ، وكذلك احسان النمر – تاريخ جبل نابلس والبلقاء – ج ٢ المرجع السابق ص ٥١٣ .

الناس فى جميع الاتجاهات مما أحدث مجازر رهيبـة فى يوم موسمهم هذا فسالت دماء الأطفال والنساء والشباب والشيوخ ، خاصة وانهم ـ الصهاينة ـ كانوا يعودون بضرب الأماكن التى سبق لهم ضربها مرة ثانية لعلمهم بان الناس يهرعون لنجدة اخوانهـم مما ضاعف من عدد القتلى والجرحى ومن بعدها امتزجت اهازيجهم بروح المقاومة ونغمة النضال من أجل استرداد ما اغتصب من أراضيهم . متمسـكا ومحتفظا بتراثه وساما ونبراسا يجسد اصالته ويعمق من ملامح هويته وقسمات شخصيته العربية الاسلامية ولتبقى المواسم وسـاما فى صدر صفحات تاريخه الشعبى يشع منها تلاحم الشعب وتماسـكه ، وتبقى عرسا فلسطينيا تشيع فى النفس الابتهاج والزهو وهى تصفه قائلة مقولتها المأثورة :

١٥٦ ـ صدق اللى قال ٠٠ موسم !

متخذين من يوم الموسم وصـفا عذبا ملؤه السعادة وهم يصفون اجمل الأشياء بقولهم :

١٥٧ ـ زى الموسـم

وصفة جميلة لأصحاب النخوة عندما يحتشدون لمعونة اخوتهم عند الفلاحة وحرث الأرض فيقولون :

١٥٨ ـ شدة فلان زى الموسم ٠

الفصل السابع

أمثـال ٠٠٠

الأعياد المسيحية ٠٠

● الصليب ★ لـد ★ ميلاده

● الغطاس ★ التجـلى ★

وقبل أن نترك عبير المواسم الشعبية الفواح بفعالياتها البناءة ، لابد لنا من وقفة مع مواسم وأعياد الأخوة من العرب المسيحيين الفلسطينيين اخوة العروبة والمصير والهدف ، وقد تجلت هذه الروابط الأزلية على أرض فلسطين بمولد السيد المسيح عيسى عليه السلام وامه مريم التى بشرتها الملائكة بمدينة « الناصرة » فى الشمال الفلسطينى بولادته فانتسب المسيحيون الشرقيون باسمها فاطلق عليهم «النصارى» .

فاضحت كنائسها بعد ذلك محجا لمسيحيى العالم بأسره يحجون للقدس حيث « كنيسة القيامة » ومدينة بيت لحم وبها « كنيسة المهد » ومدينة الناصرة وعين العذراء ثم الى نهر الأردن .

فنسجت المسيحية تراثها الزاخر وتعاليمها وتقاليدها المجيدة على الأرض العربية الفلسطينية فصانها الشعب العربى ووعى أمجادها وادرك تعاليمها واعيادها فتمكنت فى نفسيته الشعبية فوثق اعيادها أمثالا شعبية اتخذها الشعب تقويما يحدد من خلالها مواسمه الزراعية بخصائصها المناخية ومميزاتها النباتية وممارساته الزراعية خلالها .

فهاهو الفلاح الفلسطينى العربى المسلم والمسيحى معا يقسمون عامهم الزراعى لأربعة أقسام يضم كل قسم منها أربعين يوما تحددها الأعياد على النحو التالى :

أربعون يوما ·

١٥٩ - من الصليب (١) لعيد لد (٢) أربعون يوما ·
من عيد لد لميلاده (٣) أربعون يوما ·
من ميلاده لباب الدارون (٤) أربعون يوما ·
من باب الدارون للخمسان (٥) أربعون يوما·

حيث يتجلى فى هذا التقسيم التزاوج العربى المسلم والمسيحى بسماحة نادرة ، فهناك أعياد مشتركة للمسلمين والمسيحيين مثل (باب الدارون) السابق ذكره بالاضافة « للخمسان » وهى للمسلمين اليوم والمسيحيين من قبل ·

وهناك تقسيم آخر للسنة الزراعية اشتملت على سبعة أقسام يشمل كل قسم على خمسين يوما ، فى كل قسم منها ممارسات زراعية خاصة على النحو التالى :

١٦٠ - من العيد للعنصرة خمسين يوم مقدرة (٦)
- من العنصرة للمنطرة خمسين يوم مقدرة
- من المنطرة للمعصرة خمسين يوم مقدرة
- من المعصرة لعيد لد خمسين يوم مقدرة
- من عيد لد لميلاده خمسين يوم مقدرة
- من الميلادة للصيام خمسين يوم مقدرة
- من الصيام للعيد خمسين يوم مقدرة

حيث يزاول الفلاح فى كل فترة منها أعمالا خاصة كحصاد العدس والكرنب فى الفترة الأولى ثم حصاد القمح والشعير ودرسه فى الفترة

---

(١) عيد الصليب - يصادف يوم ٩/٢٧ ذكرى عثور قسطنطين وهيلانه على الصليب الذى يعتقد بأن المسيح عليه السلام صلب عليه وهو بداية سقوط الأمطار (مطرة الصليب)

(٢) عيد لد / يوافق يوم ١٦ نوفمبر ويحتفل به بمناسبة نقل رفات الخضر (مارالياس) لمدينة اللد ويذكر البعض انه بمناسبة تجديد هيكل القديس جاروجيوس فوق قبره باللد ·

(٣) ميلاده : أو عيد الميلاد يصادف يوم ٢٥ ديسمبر وفق التقويم الغربى وهو ذكرى ميلاد المسيح ·

(٤) باب الدارون : انظر موسم باب الدارون سابق الذكر ·

(٥) الخمسان / مواسم الخمسان السابقة الذكر والتى تقام فى شهر الخميس أى شهر ابريل ·

(٦) العيد هو عيد الفصح - العنصرة عيد اثنين العنصرة ويصادف يوم الاثنين بعد خمسين يوما من عيد الفصح ويمثل حادثة حلول الروح القدس على تلاميذ المسيح ·

الثانية والتى تنتهى فى ٢٠ يوليه ثم يأتى موسم حراسة العنب والتين (المنطرة) حيث يزاول النواطير (مفردة ناطور) حراستهم فى « المعصرة » أى فترة عصر الزيتون وهكذا يستمر طيلة عامة يزاول الحرث والزرع فى الفترة الخامسة ليأتى بعدها الشتاء (٧) ·

وقد وظف هذه المناسبات وأمثالها الشعبية لأغراض شتى لها دلالتها الصحية أو الاقتصادية ، فمن وحى عيد الصليب ، قالوا :

١٦١ - اجا الصليب روح بلدك يا غريب

حيث تبدأ الأمطار فى السقوط وعندها ما على الغريب المزارع الا أن يعود لقريته ولتأكيد ذلك قالوا :

١٦٢ - ان صلب الصليب لا تامن الصبيب

أى لا تأمن هطول الأمطار ، وعليه أمروا الناس بالاحتماء ببيوتهم قائلين :

١٦٣ - صلب وخش وخمس واطلع

أى فى الصليب أدخل لبيتك (خش) وفى شهر الخميس (ابريل) اخرج للزراعة والمزارع ، تماما كما أوردها فى مثله القائل :

١٦٤ - ان صلبتم شتيتم وان دورتم (باب الداروم) صيفتم ·

وفى الصليب حيث تسقط الأمطار المفاجئة ربما تخرب بعض المحاصيل الصيفية أو البيوت التى صنعوها من أغصان الأشجار صيفا « الخص » أو « القشعة » فيقولون كما سبق ذكره « ان صلبت خربت » · ومن ذكرى عيد لد (أى عيد مدينة اللد) استوحوا مثلهم القائل :

١٦٥ - عيد لد قد وجد ·

أى ابدأ فى حرث وشق (قد) الأرض بالمحراث وفيه أيضا يبدأ الفلاح فى جد أشجار الزيتون وجمع ثمارها · وبنفس هذه المناسبة قالوا عن ظاهرة الأمطار :

---

(٧) مجلة التراث والمجتمع - العدد الأول - المجلد الأول - نيسان ١٩٧٤ ص ١٠٦ - ١٠٧ وقد ورد هذا التقسيم فى كتاب توفيق كنعان بالألمانية « تقويم الفلاحين الفلسطينيين » ·

Nkalender des Palestinischen Fellachen, ZDPV, 1916.

١٦٦ ـ عيد لد يا مطر بيهد يا صيف بيجد ·

اى اما امطار غزيرة تسقط فى هذا العيد بدرجة يمكنها هد البنيان فيها أو ندرتها وانحباسها بدرجة يمكن تصور وكان الصيف قد أتى ، وهذا ليس بغريب على أمطار فلسطين الاعصارية المتذبذبة ·

اما بالنسبة للقمح فى نفس الفترة فانه يتميز بجودته خاصة فى فى شهر ديسمبر ويناير (فى عيد الميلاد) فقالوا :

١٦٧ ـ يا عيد لد يا قمح المواليدى !

وقد نصحوا الناس بعدم السفر أو التنقل الكثير فى الفترة الواقعة بين عيد ميلاده وعيد الغطاس · فقالوا :

١٦٨ ـ ما بين ميلاده والغطاس (*) لا تسافر يا ابن الناس ·

لما تتميز به هذه الفترة من كثرة انتشار الانخفاضات الجوية وهبوب الأعاصير وسقوط الأمطار بغزارة ·

وبعد عيد الغطاس مباشرة تبدأ حدة البرودة فى التـلاشى وتأخذ درجة الحرارة فى الارتفاع ، فوجهوا الناس بمثلهم قائلين :

١٦٩ ـ ان غطس النصرانى اشلح توبك الفوقانى ·

أى ليبدأ الناس بتخفيف ملابسهم خاصة الثوب العلوى «الفوقانى» فقط ·

اما فى عيد بربارة فقد أشاروا لظاهرة جغرافية تعلن عن بدء قصر الليل بعد قليل :

١٧٠ ـ شهر بربارة بياخد من الليل غباره ·

كما سجل الشعب العربى الفلسطينى بمناسبة « عيد التجلى » مثله الراصد :

(★) عيد الغطاس : بمناسبة اعتماد السيد المسيح فى نهر الاردن من يوحنا المعمدان فى يوم ١٩ كانون الثانى وفق التقويم الشرقى ·

١٧١ ـ عيد التجلى يا صيف ولى ويا شتا هل ·

حيث يبدأ بمقدمة فصل الشتاء وينتهى فصل الصيف (١٨) ·

هكذا يردد الشعب العربى الفلسطينى أمثاله الشعبية تقـويما وارشادا لمناحى حياته والتى صاغها من تراثه العربى المسيحى فحملها الشعب بتسامحه الدينى دون حساسية تذكر بل وخلدها كعـادته على أسماء قراه ومدنه ·

والعديد من مواضعه الجغرافية السكانية الثابتـة ، فقد حملت ما لا يقل عن ٣٦ قرية ومدينة فلسطينية اسم « دير » قبل اسمها هـذا بالاضافة للعديد منها والتى سميت بأسماء الأنبياء والقديسين ·

ولما كانت المسيحية ايذانا بميلاد دينى جديد ناصبته اليهـودية العداء منذ ميلاد السيد المسيح ، فقد عبر عن هذا التناقض المثل العربى الفلسطينى بقوله :

١٧٢ ـ عيسى فارق موسى ·

رمزا للفراق الناجم عن التناقض فى وجهة النظر والمبادىء والقيم بين الديانتين ، وكثيرا ما يسخره شعبنا للدلالة على الابتعاد بين اثنين أو عند فض الخلاف بينهما ليذهب بعدها كل شخص وشأنه وعنـدها يرددون هذا المثل ·

وانتشرت الديانة المسيحية فى ربوع فلسطين يحمل مبادءها رجال الدين من « الرهبان » الذين تميزوا ووفق المأثور الشعبى المثلى بعنادهم فى التمسك بطقوسهم وعباداتهم وهم فى أديرتهم فقالوا :

١٧٣ ـ احذر عناد الرهبان وكيد النسوان وغضب السلطان ·

---

(١٨) لمزيد من التوضيح والتفسير لجميع الأمثلة السابقة راجع كتاب المؤلف ـ الجغرافيا الفلكلورية للأمثال الشعبية الفلسطينية ـ المرجع السابق صفحات ٦٠ ـ ٦٣ ـ ٨٥ ـ ٩٣ ـ ١٠٠ ـ ١٤٧ ·

الفصل الثامن

أمثـال ... القيم الاسلامية

- القضاء والقدر
- القسمة والنصيب
- التسويف ★ الأمانة والسر .

ثم كرم الله فلسطين وشعبها العربى بالاسلام وتم للمسلمين فتح فلسطين مع الثلث الأول من القرن السابع الميلادى ، ففلسطين بحكم موقعها هى من أقرب الأمم العربية والاسلامية موقعا من مدن مكة والمدينة ، مدن تنزيل كتاب الله ، ففتح الله قلوب شعبها العربى المسيحى والوثنى فدخلوا فى دين الله أفواجا وبعض من كان منهم من العرب اليهود .

فكان الحضور الاسلامى بمبادئه وقيمه السمحة تعزيزا للتواجد العربى من قبل ، وتعقيدا له ، واثراء لبنيته الثقافية ، وتقويما لسلوكه الاجتماعى وتهذيبا لكيانه الخلقى ونسيجه الفكرى .

فدعم النفس العربية الاسلامية بسمات السماحة الدينية حيث لا اكراه فى الدين ، قدوتهم فى ذلك رسولهم الكريم فرفعوا هذا الشعار الخالد بفطرتهم السليمة قائلين للجميع :

١٧٤ ـ كل من هو على دينه الله يعينه .

مؤمنين بأن :

١٧٥ ـ الدين لله .

رافضين اسلام من كان متشككا وهو فى ريبة من أمره مستغلا اعلان اسلامه فى الظلام مستهزئين به قائلين :

١٧٦ ـ زى اللى اسلم فى العتمة لا عيسى شطبه ولا محمد كتبه .

وبنفس المعنى والمضمون سخروا على مثل هذه الفئة المستغلة والمترددة قائلين :

ذى اللى اسلم الظهر ومات العصر ، لا عيسى شفع له ولا محمد درى فيه

وينسحب المثلان على اولئك الذين لا يتخذون لأنفسهم مواقف ثابتة حيال الأحداث . كما ترفعت الشخصية العربية المسـلمة عن البـكاء والنحيب فلم تعترف « بحائط المبكى » ، ونأت بنفسها عن ذلك وعرفتها « بحائط البراق » وأشادوا أول قبة اسلامية بنيت فى الكون فوق الصخرة المشرفة بالقدس الفلسطينية ، فكان معناها الاحتواء والمحبة والحنو سمات الأم والأمومة فوق أنقاض أول بيت بناه أجدادهم لعبادة الله الواحد الأحد أيام « مليكى صادق » العربى الكنعانى .

والعربى الفلسطينى يؤمن بالله ايمانا عميقا وبكتابه وسنة رسوله ، مؤتمرين بأوامره ومبتعدين عن نواهيه ، فتقوى الله هى أسمى الغايات واقواها :

١٧٧ ـ التقوى اقوى .

مؤمنين بأن دينهم دين القيمة ، متعجبين من كل من يحاول الارتجال فيه .

١٧٨ ـ هو تين ولا دين .

ومؤمنين بيوم الحساب عاملين له بالتقوى والطاعة :

١٧٩ ـ اعمل يا فاخرة الك وللآخرة .

ومنذرين بأن الحياة وبخواتيمها .

الآخرة يا فاخرة .

وان كانت الحياة الدنيا تقوم على المجاملة عندما تتقابل الوجـوه خاصة ، فان الآخرة لها العمل والعمل الطيب .

١٨٠ ـ الدنيا بالوجهية والآخرة بالعمل .

وان الدنيا بكل مباهجها واغراءاتها لا تغنى عن الآخرة .

١٨١ ـ الدنيا بتغنيش عن الآخرة .

وان كل انسان مجزى بعمله :

١٨٢ ـ ذنبك على جنبك .

مدركين بأن الحساب هو حساب الآخرة لا الدنيا :

١٨٣ ـ خل لحساب ليوم لحساب .

وهى على يقين بأن مشيئة الله هى النافذة :

١٨٤ ـ انت تريد وانا اريد والله يفعل ما يريد .

وأن الله جل جلاله يدبر الأمور أخيرا :

١٨٥ ـ العبد فى التفكير والرب فى التدبير .

وبايمانهم بربهم يرفضون الشكوى لغيره :

١٨٦ ـ الشكوى لغير الله مذلة .

ومهما غفا الانسان وغفل فان الله عز وجل حسبه :

١٨٧ ـ يا غافل الك الله .

وان لكل عقدة عند رب العالمين حلا لها :

١٨٨ ـ كل عقدة والها عند الكريم حلال .

ومهما ضاقت فالله من ورائها بالفرج :

١٨٩ ـ من هون للعشية بيفرجها رب البرية .

واذا ما عمر الايمان قلب مؤمن فانه ينير له دربه ويزوده ببصيرة ثاقبة :

١٩٠ ـ قلب المؤمن دليله .

ومهما فقد الانسان من أعزائه فان الله حسبه :

١٩١ ـ اللى ما الو أب الو رب .

ومن دلائل الايمان وحب الله لعبده :

١٩٢ ـ اللى بحبه ربه بيحبب فيه خلقه .

وبالنسبة للقضاء والقدر فهو مؤمن بقضاء الله وقدره وحتمية نفاذهما ، ولكن بعقلانية يرى بان :

١٩٣ – اللى ع الجبين لازم تراه العين .

ومهما بلغت قدرة الانسان على اتخاذ اساليب الحيطة والحذر فان قدر الله نافذ :

١٩٤ – لا يمنع حذر من قدر .

واذا ما وقع القدر فانه لا يرى مبررا للاستفسار والمبالغة فى ذلك :

١٩٥ – لا تقول عن اللى جرى كيف جرى ؟! كلها أمور مقدرة .

نظرة واقعية وايجابية بقضاء الله وقدره ، لكنها النظرة العقلانية التى لا تعنى كما يتهم البعض بأننا أمة تؤمن بالقدرية المطلقة التى لا تعرف معنى الحرية الفردية أو الشخصية الفردية ، بدليل أن شعبنا يضع قانونه الشعبى الرافض لذلك بقوله :

١٩٦ – لا تدير ظهرك للدبابير وتقول تقادير .

مما يؤكد رفضه وخضوعه للاستسلام المطلق أو الغيبيات ، وترك امورا فى مهب الريح ، بل يملك القدرة على النظر للآمور نظرة واقعية يبذل خلالها كل جهد مستطاع للوصول لما يصبو اليه ، فاذا ما اعترضته المقادير آمن بها ، وبهذا الايمان على احتمال المكاره وقبولها يكون دافعه على مواصلة السير ، و لأدل على ذلك سخريته من أولئك الذين يحاولون ترك أمورهم وأنفسهم غير مبالين ، ومعتمدين ومفسرين القضاء والقدر بمفهومهم السلبى الخاطىء قائلين :

١٩٧ – برمى حاله عن الحيطان ويقول يا قضا الرحمن !!

فايمانه بربه قائم على عقيدة تؤمن بالعمل وبذل الجهد والعرق ، حتى اذا ما اعترضته المقادير بما لا يتمنى الوصول اليه ، عندها يقول قولته المأثورة :

١٩٨ – الخيرة فيما اختاره الله .

فتكون قولته هذه بلسما يخفف بها عن نفسه ، وتعطيه قوة خفية حافزة على التجديد والاندفاع للأمام .

ومن حيث القسمة والنصيب فيرى بان :

١٩٩ – كل شىء قسمة ونصيب .

ويستدل على ذلك بتجربته القائلة :

٢٠٠ – بتكون فى تمك وبتقسم لغيرك .

وان الانسان لا يحصل الا بقدر ما قسم الله له :

٢٠١ – اللى الك الك واللى ما هو الك محرم عليك .

لكنه يرفض تسمية القسمة المسبقة من الآخرين للاشياء فيقول :

٢٠٢ – مش لمين سمى ٠٠ لمين قسم .

اى ليست القسمة بما تقومون بالتسمية له ٠ مسبقا ، وانما هى لمن قسم له الله بها ٠

حتى ان الأصدقاء لا يملكون تقديم الأشياء لأحبائهم اذا ما أرادوا لذا أوصوا قائلين :

٢٠٣ – لا تعتب على حبيبك اعتب على نصيبك .

فالعطاء من الله وحده ، يقسم الأرزاق على عباده لمن يشاء ، لذا فهو – أى الانسان – لا يخشى أحدا سواه :

٢٠٤ – اللى ما يطعمك ولا يسقيك لا يميتك ولا يحييك .

وانه سبحانه وتعالى يعطى كل عبد من عبيده بقدر :

٢٠٥ – وربك رب العطا يعطى البرد على قد الغطا .

ومن الناس من يرى أن لقمة العيش هى نصيب مكتوب مهما بذل الانسان من جهد :

٢٠٦ – أو تجرى جرى الوحوش غير رزقك ما بتحوش .

وفهم ما هو مدرك ووفق تجربته الشعبية بأسماء الأشياء قد تأتى بأدنى الأسباب وأقل الجهد :

٢٠٧ – تيجي على اهون سبايب .

لكنه يدرك ذلك بعيدا عن الاتكالية المفرطة ، والتسليم المسبق بالقسمة والنصيب ، فهو مؤمن بها بقدر ايمانه بالسعى الحثيث والجهد المضنى لاكتساب لقمة عيشه ، لعلمه بأن الايمان معناه العمل الذى حث عليه اسلامه به والذى يدعوه دوما للسعى الدءوب ، وسعيه هذا يؤازره به ربه الذى يقول له وفق ما صاغه فى قوله :

٢٠٨ – اسعى يا عبد وأنا باسعى معاك .

لذا فقد شمر عن ساعديه قائلا قولته السائرة وهو يهم على العمل :

٢٠٩ – استغنى ع الشقا بالله .

فان كسب القوت لا يأتى بالخلود للراحة والاستكانة أو الدعاء والتمنى :

٢١٠ – كلمة ياريت عمرها ما عمرت بيت .

ولا حتى بالأمل المفرط :

٢١١ – كل شىء بالأمل الا الرزق بالعمل .

حتى انه يرى الزواج نفسه يقوم على التفهم بمعرفة الأمور ودراستها قبل الاقدام عليه منكرا القسمة والنصيب المطلقة فيه فيقول مثله :

٢١٢ – كل شىء نصيب الا الزواج تسبيب .

التسـويف :

يرفض الشعب العربى الفلسطينى ولا يحبـذ التعجيل واستباق الأمور مؤمنا بالملموس والمدرك بين يديه ، بل تجد العديد يتشاءمون من الافراط فى الحديث عما سوف يعملونه ، لايمانهم بربهم القائل فى كتابه العزيز :

« ولا تقولن لشىء انى فاعل ذلك غدا الا ان يشاء الله » صدق الله العظيم

لذا تراهم يبادرون تلك الفئة التى تستعجل الأمور بقولهم :

٢١٣ – لما بييجى الصبى بنصلى ع النبى .

وبنفس المعنى والمضمون يقولون :

٢١٤ – لما نشوف الفول بنحضر لعدول .

أى عندما نرى الفول عندها سنحضر له الشـوالات او الاكياس (العدول) ويؤكد ذلك بصيغة الأمر المثلية :

٢١٥ – ما تقول فول حتى يصير فى المكيول .. (المكيال)

وقولهم كذلك :

٢١٦ – لا تقول عنب الا لما يصير فى السلة .

وبنفس المعنى يرفض التسويف مؤكدا رؤيته للأشياء :

٢١٧ – لا تعد الصيصان قبل ما تفقس

وكذلك :

٢١٨ – لا تعد السخول قبل ما تفطمها .

الأمانة والسر

غرس الاسلام العديد من القيم الروحية والخلقية وكذا السلوكية فى النفس العربية المسلمة بفلسطين . فهم يحفظون الأمانة ويجدون من العار عليهم خيانتها فيقولون :

٢١٩ – من أمنك لا تخونه لو كنت خاين .

لذا تعتريهم الدهشـة عندما يشكك البعض فى نياتهم تجاه هذه القيم فيتساءلون بسؤالهم السائر المأثور :

٢٢٠ – هى أمانة ولا خوانة .

وحاولوا جاهدين كتمان السر لأنهم وجدوا فى كتمانه حفاظا على أنفسهم :

٢٢١ – أكتم سرك تملك أمرك .

وعبر عنها ابن البادية الفلسطينية فقال :

٢٢٢ – ضب ماك فى سماك .

أى احفظ (ضب) ماءك (ماك) فى سمائك (سـماك) . وعدم تركها تهطل على الآخرين .

وحرصوا كل الحرص على البوح بأسرارهم أمام صغارهم حتى لا يقعوا فريسة المثل الشعبى القائل :

٢٢٣ – خود اسرارهم من صغارهم .

الفصل التاسع

أمثال .. رمضان والعيد ..

ينتظر الشعب العربى الفلسطينى شهر رمضان بكل شوق وترقب ، فيعدون الأيام ترقبا وانتظارا لاطلالته ، ينادونه بمثلهم الشعبى :

٢٢٤ ـ يا رمضان يا ابو الأشهر مش تامم الا تلات تشهر .

فيستبشرون بلقائه منذ شهر رجب فيبدأون بالصوم يومى الاثنين والخميس وكذا الصيام فى « أيام التلاته البيض » و « الستة البيض » (*) كعملية تمهيدية لتدريب النفس والجسد على الصوم ، حتى ان الصوم فى شهر رجب خاصة يومى (الاثنين والخميس) أصبح مثار التساؤل لدى عامة الشعب بمثلهم القائل :

٢٢٥ ـ مش عاجبه العجب ولا الصيام فى رجب .

وربما لأن الصيام فيه ليس صوما فرضا .

وبقدوم شهر شعبان تبدأ فئة من الناس فى صيام الثلاثة أيام الأوائل منه وآخرون يفضلون الصوم فى الاسبوع الأول منه اعتقادا منهم بأن ذلك حلال ، لكن الأغلبية تحرص على صيام منتصف شعبان حيث يطلب المسلم من الآخرين أن يسامحوه باعتباره « يوم المسامحة » وقد شجعوا بعضهم البعض بأقوالهم وأمثالهم التى تحث على ذلك :

٢٢٦ ـ لمسامحين غلبوا الصالحين

وكذلك :

(★) أيام الثلاثة البيض هى صيام أيام ١٣ و ١٤ و ١٥ من شهرى رجب وشعبان وكذلك « الستة البيض » من شوال . وهم من السنة .

٢٢٧ ـ **لمسامح كريم .**

وايمانا منهم بالتسامح وأن الله سبحانه وتعالى هو الكفيل بالمحاسبة والمجازاة يقولون :

٢٢٨ ـ **لا تجازى والك فى السما مجازى .**

أما الاسبوع الأخير من شهر شعبان ففى وجدانهم أن الصيام فيه غير محبب بل ومكروه ، وذلك لبدء الصيام الذى يحسبون لأيامه بفارغ الصبر معبرين عن ذلك بمثلهم :

٢٢٩ ـ **رمضان يا ابو الأيام مش تامم الا تلات أيام .**

فاذا ما جاء آخر يوم من شعبان قاموا بعمل الولائم فى ذلك اليوم حيث تقوم كل أسرة بطهى طعام جيد يطلقون عليها « الفجعة » ولسان حالهم يردد مثلهم :

٢٣٠ ـ **رمضان يا ابو العيلة مش تامم ولا ليلة .**

وفى تلك الليلة يكون الاحتفال برؤية هلال هذا الشهر الفضيل ، حتى اذا ما ثبتت رؤيتـــه شرعا فرح الجميع وأذرعتهم ممدودة للسماء داعين الله بأن يكون شهرا فيه البركة بقولهم :

٢٣١ ـ **هل هلالك شهر مبارك .**

تتصف فيه النفـــوس بالنقاء والصفاء والتـــواد والتراحم بينهم حريصين على صيامه واقامة الصلاة فى المساجد مؤمنين بأن :

٢٣٢ ـ **الصوم بلا صلاة زى الراعى بلا عصاه .**

ففى هذا الشهر الذى أنزل فيه القرآن تكثر تلاوته فى المساجد وينكب الوعاظ ورجال الدين بشرح آياته واستخلاص العبر منها وتوجيه الناس لما فيه الخير حيث يستمعون اليهم عامة الشعب بكل شغف وتلهف واهتمام يعبر عن ذلك ويفصح عنه مثلهم الشعبى المعبر والقائل :

٢٣٣ ـ **القارى كالحالب والسامع كالشارب .**

تشبيه بليغ يصـــفون فيه قارىء القرآن (القارى) كمن يحلب والسامع كمن يشرب ويتغذى على هذا الحليب .

وقبل الغروب تتجمع الأسرة صغيرها وكبيرها متحلقين حول مائدة الافطار مستغفرين الله ومنتظرين سماع الآذان الذى غالبا ما يكون مصحوبا بصوت (مدفع الافطار) معلنا بدء الافطار الذى غالبا ما يبداونه ببضع تمرات تيمنا برسولنا الكريم .

ولا يكادون الانتهاء من الافطار حتى تفاجئهم أصوات أطفال الحى وقد اجتمعت زمرة منهم يحملون بأيديهم فوانيس صغيرة غالبا ما يصنعوها من علب الصفيح الصغيرة حيث (يثقبونها بمسامير) واضعين بداخلها شمعة (*) ، ويأخذون فى المديح بصوت ملحن :

٢٣٤ ـ **ايوحا (*) بالمديله**
ربى ارزقهم
بعروسه الهم
يا طالب الحدرة
جيب لى معك بقره
حلابت العشره
تحلب وتسقينى
صينى على صينى
والرب يعطينى
عروستك يا (محمد) [يختارون اسما من افراد العائلة]
محمرة ومقمره .
وع الخيط مصموده .
اعطونا الكعد يا أفنديه
يا الى قعدين ع الناموسيه
هاتو هاتو
واليهود (**) ماتو
هاتو هى
واليهود فى البريه

(★) يقال ان سكان مصر استقبلوا الخليفة الفاطمى المعز لدين الله ليلا وهم يحملون فوانيس مضاءة حيث صادف قدومه احدى ليالى رمضان فاستمرت هذه العادة يمارسها الأطفال حتى اليوم .

وفى تركيا يضع الأطفال شمعة مضيئة وسط وعاء لبن الزبادى وأحيانا يضعون فتيلا يضىء بالزيت ويطلبون من المارة نقودا مدعين بأنها ثمن الزيت . انظر : مجلة القاهرة ـ العدد ٥٩ فى ١٥ مايو ١٩٨٦ ص ٣٤ ـ ٣٨ .

(★) أيوحا : يرى بعض الدارسين انها تحريف لاسم [ايوح] اله القمر عند قدماء المصريين وكان هذا التاثير قد وصل الينا فيما بعد .

انظر : مجلة القاهرة العدد ٥٩ المرجع السابق ص ٣٤ ـ ٣٨ .

(★★) اليهود : يذكرون اليهود هنا كرمز للبخل وللتعبير عن احساس المرارة لما لاقوه من اضطهاد وتشريد .

فينهض فى الغالب الطفل أو الشاب الذى مدحوه ودعوا له بالعروسة الجميلة ممسكا بيده بعض ما حوته المائدة من فاكهة أو خبز ليقدمها لهم فيتسلموها فرحين ، اما اذا لم يلب طلبهم فعندها ينشدون غاضبين :

طوبى طوبى
تصبح داركو مخروبة .

ففى الصيام صبر على الجوع وعظة وعبرة للناس لكى يحسوا بأحاسيس الآخرين خاصة الفقراء منهم ، كما أن فى الصيام صحة للأبدان ، فهم على يقين من ذلك بقولهم :

٢٣٥ ـ صحة البدن فى الصوم .

وكذلك :

٢٣٦ ـ صوموا تصحوا .

وفى هذا الشهر الكريم يكثر العطاء وخير ما يميزه كثرة الولائم العامة التى يقيمها بعض الناس للفقراء بصفة خاصة وللأصدقاء والجيران عامة . ويطلقون عليها « الختمة » فيقرأ فيها المشايخ آيات من القرآن والتواشيح الدينية قبل الافطار تبركا وترحما على أرواح موتاهم وطلبا للثواب فهم مدركون بأن :

٢٣٧ ـ فى رمضان لموا الرغفان واطعموا الغلبان .

وكذلك قولهم :

٢٣٨ ـ فى رمضان اشوى الرغفان .

وبعد الانتهاء من الافطار بوجه عام يفكر أفراد الأسرة بعدها لزيارة الأقارب أو الجيران والأصدقاء وغالبا ما يخرج الرجال اما للجلوس فى « ديوان » الحى أو مضافة القرية . وآخرون يذهبون فورا للمساجد وبعضهم يخرج للمقاهى ، ولعل فى وصف الجبرتى لاحدى الليالى الرمضانية بمدينة غزة فى مارس ١٧٩٩ ميلادية التى صادفت الاحتلال الفرنسى لها ما يرينا صورة صادقة عنها حيث قال :

« يقومون بزيارة الاخوان ليلا ، والمشى على العادة بالفوانيس ودونها ،

واجتماع الناس للسهر فى الدور والمقاهى ، ووقود المساجد وصلاة التراويح وطواف المسحرين ، والتسلى بالرواية والنقول وترجى المأمول » (١) .

وبعد قضاء ليلتهم هذه يذهب الجميع لبيوتهم ليخلدوا للنوم وقد أيقظهم صوت « المسحر » وهو يضرب على طبلته بعود الخيزران ، وهذا هو مطلبه وفق ما جاء فى مثله الشعبى :

٢٣٩ ـ فى رمضان هاتوا مطارق الزان .

وهو يصيح بصوت منغم موقظا الجميع بتعبيره الدارج « قوم يا نايم وحد الدايم » .

ثم يأخذ بعدها فى الغناء بصوت عذب على ايقاع الطبلة ومن خلفه من يردد معه :

٢٤٠ ـ يا عبد لا تنقهر — رزقك على البارى
هو الحكيم العليم — بمواجعك دارى
اذا ابتليت يا عبد — دارى على بلوتك دارى
ياتيك قوام بالفرج — ولا حد ابو دارى

ومنها أيضا :

٢٤١ ـ الليل كله مكاسب بس آه النوم
يرتاح بيه الجسد لكن يجيب اللوم
وحياة نبى واحد أنشا الصلاة والصوم
مشى المقادم شرف اليوم وغير اليوم (*)

فقد اعتاد « المسحر » فى بلاد الشام عامة باستخدام الغناء والعزف على الموسيقى بينما استخدم أهل القاهرة الطبول للسحور فى حين استخدم أهل الاسكندرية النبابيت لقرع الأبواب (٢) .

أما أولئك الحفنة النادرة من الذين لا يصومون خاصة من الصبية

---

(١) المختار فى تاريخ الجبرتى ـ اختيار محمد قنديل البقلى ـ كتاب الشعب ٣١ ، الجزء الثالث ـ مطابع الشعب ـ القاهرة ـ ١٩٥٨ ص ٣٠٠ .

(★) هذه التواشيح كان يلقيها المرحوم الشيخ موسى أبو لبده والشيخ أبو صحة بمدينة غزة .

(٢) مجلة القاهرة ـ العدد ٥٩ المرجع السابق ص ٣٤ ـ ٣٩ .

فيزدريهم الجميع ويكونون موضع احتقار من الناس قد يصل بهم الأمر للتعدى عليهم وضربهم ويلاحقهم الصبية والفتيان مرددين :

٢٤٢ ـ يا مفطر فى الحارة ندبحلك حمارة .

وكذلك :

٢٤٣ ـ يا مفطر رمضان ما أقل دينك
كلبتنا السودا تقطع مصرينك .

أما الصائم فله تقديره واحترامه ويكون محل ثقة عند الجميع ، ويغنى له الفتيان :

٢٤٤ ـ يا صايم رمضان احشى لك قربان
امك الملكة وأبوك السلطان .

ومن الصائمين من ليس له المقدرة الكافية على تحمل الجوع والعطش ، فتجده سريع الغضب والتأثر اذا ما تعرض له البعض بأتفه المشاكل خاصة بعد العصر حيث يكون الجوع قد أخذ منه مأخذه . ولهذا النوع من الصائمين يحذر المثل من الاقتراب منهم ويطلب أحيانا ممن يعشقون الشر بلا أسباب على التوجه لهم قائلين :

٢٤٥ ـ يا طالب الشر بلا أصل تعال للصايم بعد العصر .

وفى الاسبوع الأخير من شهر رمضان المبارك يبدأ « المسحر » فى « التواحيش » بالابتهالات المنغمة على وقع الطبلة وأحيانا يستخدمون الدفوف مرددين بصوت شجى :

٢٤٦ ـ ما أوحش الله منك يا رمضان
يا شهر الخيرات والاحسان .

بنغمات تنم عن الرغبة الصادقة النابعة من ايمان عميق باستمرار هذا الشهر لمدة زمنية أطول . وليؤكدوا الاحساس الدينى المرهف حيال هذه الأيام الفضيلة الكريمة .

وتكون الفرحة غامرة بالنسبة للأطفال وهم يتسامرون فى ليالى رمضان الأخيرة مبتهجين باقتراب العيد معبرين عن فرحتهم هذه بأغانيهم :

٢٤٧ ـ يا رمضان جديد جديد
بكره الوقفه وبعده العيد
بكره العيد بانعيد
وندبح بقرت السيد
والسيد مالو بقره
بندبح بنته ها الشقره

وتصل الفرحة لذروتها الغامرة فى صباح العيد فيخرج الأطفال بصفة خاصة بملابسهم الجديدة الجميلة وبما سوف ينالونه من الآباء والأقارب من نقود ، ففى العيد وعلى حد رأى المثل :

٢٤٨ ـ ع العيد كل الناس أجاويد .

فالجميع فى العيد وبلا استثناء كرماء وأصحاب نخوة وجود وكرم لأنه وعلى حد تعبير من يحاول التقتير أو البخل :

٢٤٩ ـ هو يوم فى السنة .

يفرح به الأطفال بالمال ليتسنى لهم شراء المزيد مما يشتهون مؤكدين ذلك بأقوالهم وتعابيرهم الشعبية القائلة :

٢٥٠ ـ العيد للصغار .

وكذلك :

٢٥١ ـ العيد عيد الصغار .

لأن فرحة الكبار هى فرحة الافطار وبما قدره الله لهم من الصوم والعبادة طيلة أيام الشهر .

وتظل السماحة فى نفوس الناس التى يغمرها الحب للجميع عندما يعبرون عما يجيش فى صدورهم من أمنيات فى هذا العيد لاخوانهم المسيحيين لو صادف عيدهم مع عيد اخوانهم من المسلمين الذين سجلوا ذلك فى مثلهم الداعى :

٢٥٢ ـ أبرك السنين عيد النصارى مع المسلمين .

هكذا يرون البركة فى تلك السنة التى يجتمع فيها العيدان عيد النصارى وعيد المسلمين .

اما الأطفال فغالبا ما يقضـــون اوقاتهم فى ركوب المراجيح حين يعمرون الشوارع باغانيهم الجميلة التى لا يحـلو لهم ترديدها الا وهم يتأجحون مغنين :

٢٥٣ - يا اولاد حارتنا يويـــه
شـــلو طارتنا يويـــه
طارتنـــا حديد يويـــه
واليـــوم العيد يويـــه

وما تنقضى أيام العيد حتى تجد البعض من هؤلاء الأطفال الطـلاب الذين لم يعتادوا عمل واجبهم المدرسى حتى يبدأ فى مصارعة ضميره ولسان حاله يقول مثله الشعبى :

٢٥٤ - راح العيد وفرحاته واجا المعلم وقتلاته .

كذلك هناك المراة الرعناء وفق المفهوم الشعبى التى ما انفكت قبل العيد من جمع الملابس والحلويات تأهبا واستقبالا له وبكميات كبيرة ظنا منها أنها بالكاد تكفى ! . فيجيء العيد فتفاجيء بانه يوم كمثل بقية الأيام فتصرخ قائلة مثلها :

٢٥٥ - العيد يوم والرعنا شنقت حالها .

الفصل العاشر

أمثـــال ...

● الحج ..

● عاشوراء ..

فريضة الحج ركن من أركان الاسلام يتوق كل مسلم لتلبيتها ، لينال غفران الله وشفاعة رسوله الكريم ، ويغتسل من خطاياه بأداء مناسك الحج ففي يقينه أن :

٢٥٦ – من حج حجة وفى فرضه ومن حج حجتين وفى الدين .

والشعب العربى الفلسطينى المسلم من أشد شعوب الأمة الاسلامية تلهفا وشوقا للحج ، يدفعه ويغريه عاصمته القدس أولى القبلتين وثالث الحرمين مستغلا مواطنته بتقديس حجته بها .

وبمجرد اتخاذ الرجل أو المرأة قراره للسفر للحج تحتشد النساء فى بيته وقبل سفره بثلاثة أيام لينشدن ما يسمونه « التحانين » بلحن هادىء شجى يعبر عن « الحنو » والشوق سواء لزيارة النبى عليه السلام وعلى المسافر المتجشم مشقة السفر ، متذرعين للاله العلى القدير بعودته سالما وتستمر التحانين ثلاثة أيام أخرى مع أول يوم للسفرة ، وثلاثة أيام أخرى وهو على جبل عرفات .

وللرجال « تحانين » خاصة بهم وللنساء تحانينهن نقتطف منها ما هو خاص بالرجال :

٢٥٧ – ع باب النبى بنوره — وبتنطوى ظى القنديل
وسعيد من زار النبى — وحج حجته لاثنين
ع باب النبى بنوره — وبتظوى ظى الشمعة
وسعيد من زار النبى — واحجت حجته بالجمعة

فسعيد ذلك الحاج التى تصادف حجته فى يوم الجمعة فكأنه حج سبع مرات وعليه يصبح محل حظوة وفخر عند عامة الشعب فيقولون :

٢٥٨ ـ جيالك الحجة بالجمعة

او

٢٥٩ ـ اجتـو بالجمعة

وكثيرا ما يوظف شعبنا هذا التعبير المأثور للدلالة على من تسعده الظروف بشكل كبير ومضاعف ·

وكما ذكرنا للنساء تحانين خاصة بهن منها (*) :

٢٦٠ ـ تعجي صـبية — ما أحسنك يا حجة
لمـكة البهيـة — والحسن والحسين
تعجي صبية — ما أحسنك يا حجة
ع الكعبة البهية — تنقشي مالك
يا لمعة حلقها — يا بياض عنقها
طالعة محرمة — لرب خالقها
تعجي بمـالك — ما أحسنك يا حجة
وابنك حمالك — ما أحسنك يا حجة
وخبزك الزيتي — ما أحسنك يا حجة
بخبزك وزيتك — يـردك لبيتـك
يا الهى السما .

وفلسطين بحكم موقعها الجغرافى اللصيق للأراضى الحجازية المقدسة ، والمتوسط بالنسبة للعالم العربى الاسلامى ، يوم لم تبتل بالحدود وأسلاكها والجوازات وتاشيراتها ، كانت مدنها مركزا لتلاقى الحجاج القادمين من الشمال [تركيا وجنوب أوربا وبلاد الشام] وابنـاء مصر فى الجنوب فيجتمعون بمدينة غزة ليخرج منها ركب الحج بقيادة والى غزة (**) الذى يطلق عليه « أمير الحج » أو « امير الركب » ويتالف هذا الركب من جميع الحجاج رجالا ونساء تحرسهم كوكبة من الجنود مصحوبة بفرقة من الموسيقات (الطبلخانة) وفريق من « الطهاة » لذا يطلقون على هذا الركب أحيانا « جردة الحج » · لما يعتور هذه الجردة من مصاعب لابد من الاستعداد الجيد لها تفاديا للمخاطر التى قد تجابههم واهمها التباين فى درجة الحرارة والتغير المفاجىء لها فهم ينتقلون من منطقة معتدلة الى أخرى شبه صحراوية

(★) هذه التحانين ترددها النساء بمدينة غزة وقراها بصفة خاصة .

(★★) واحيانا يخرج الركب من مدينة نابلس وجنين (اللجون) · وعند خروجه من غزة كان يتجه نحو العوجاحفير فالويلح حتى العقبة ومنها مساحلين حتى مكة المكرمة ...

ثم الى منطقة صحراوية قارية المناخ مما ينعكس بدوره على الظروف الصحية للحجاج خاصة وان معظمهم من كبار السن ·

وقد كانت رحلة الحج هذه تستغرق ما بين ٤ ـ ٧ شهور ذهابا وايابا يستشهد العديد منهم فى الطريق ، لكنها كانت المشقة المحببة على النفوس وفى سبيلها يهون الغالى والرخيص ومنهم من كان يتمنى هذه الشهادة فهم موقنون بمثلهم الذى يحدوهم دوما :

٢٦١ ـ مكة مش بعيدة ع اللى بده يحج ·

لهذا كانت الدولة الاسلامية تاخذ ضرائبها عند اقتراب موسم الحج اشياء وسلعا عينية لركب الحج كل وفق انتاجه وصناعته فتأخذ مثلا القرب للمياه والحبال والخيش للخيام والمؤن والغلال وذلك حرصا منها على بقاء النقود وسيولتها داخل المدن فى فترة غياب الركب (١) ·

وبانقضاء مناسك الحج يبدأ الحجاج فى العودة لديارهم ومنهم من يفضل البقاء بجوار نبيه متعبدا وعليه يقولون :

٢٦٢ ـ راح يحج جاور ·

وتكون الفرحة الغامرة الشاملة لجميع الأهل والأقارب بعودة حجاجهم فيقابلونهم بالبشر والتهليل والغناء :

٢٦٣ ـ يا مرحبا بيك مرحبـا — سـكر وفوقه محلبا
عيني تشوفك من بعيد — قلبى يقولك مرحبـا
يا مرحبـا باللى طـل — زى الهـلال تهـل
دشر عـداد وراه — زى الورق تنبـل
يا مرحبـا ميت وميت ترحيب
يا عز الحبايب ما يغلى عليك حبيب
هات ايدك تسـلم عليك — يا اللى عجاج السفر ع رجليك
والك الحمـد يا ربى — اللى هـدى بالنا عليك ·

ويتبارى الجميع من الأهل والأصدقاء بذبح الذبائح له [أخذ الغذاء] فالحاج بعد ذلك تصبح له مكانته وتقديره فهو بين الناس موضع

(١) احسان النمر ـ تاريخ جبل نابلس والبلقاء ـ الجزء الثانى ـ المرجع السابق ص ٥٣٠ ·

ثقة واحترام وتزكيه من الجميع ، فقوله يؤخذ به مأخذ الجد وشـــهادته شهادة باتة وقاطعة ·

وفى الوقت نفسه تبقى « الحجة » ولقب « الحاج » رقيبا عليه اذا ما حاول البعد والابتعاد عن قول الحق أو فعل ما يشين ، عندها يبادرونه بقولهم « أنت حجيت بيت الله » :

ويسلطون عليه أحيانا مثلهم الشعبى الساخر اللاذع اذا ما اشتط فى غيه قائلين :

٢٦٤ ـ الحاج حج والقمزة العتيقة فيه ·

واذا لم تغيره حجته وتهديه لسواء السبيل ضربوه بمثلهم :

٢٦٥ ـ راح قدوم ورجع منشار ·

خاصة لو كان مصابا بداء النميمة ·

كما يرفض الشعب من يذهب للحج وفى خلده تنفيذ أغراض أخرى كالتجارة أو أى هدف آخر غير الحج فيقولون :

٢٦٦ ـ حجة وحاجة ·

وهذه الحجة مرفوضة فى الشرع الاسلامى اذا لم تــكن خالصة لوجه الله ·

يوم عاشوراء

يلخص المثل الشعبى الفلسطينى القائل :

٢٦٧ ـ كلو جاحكو (*) ولاقوا حجاجكو

مناسبتان عزيزتان هما :

الاحتفال بيوم « عاشوراء » ، وفى الوقت نفسه هو انذار وتنبيه لمن لهم حجاج بأن ينتظروهم ·

فالاحتفال بيوم عاشــوراء يتم فى يومى التاسع والعاشر من المحرم حيث ينفق الأب بسعة على أسرته فيولمون بأكل الدجاج واللحم ، وان لم يكن ذلك ميسورا يوسعون عليهم بالأخلاق تمشيا مع قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « من وسع على عياله يوم عاشوراء وسع الله عليه طول السنة » وعليه يطلق أبناء نابلس بيوم « البحبحة » ·

أما فى اليـــوم العاشر فيصحو النـــاس فيصلون قبـل الشروق ركعتين لله ثم يخرجون بعد طلوع الشمس بزيارة أحد أولياء الله الصالحين لكى يذكرهم بمقتل الحسين رضى الله عنه وليوضح فى الوقت نفسه جانب الاعتدال فى الشخصية العربية الفلسطينية السنية بعكس ما يقوم به أهل الشيعة ·

فيوسعون على اليتامى ويمسحون على رؤوسهم ثم يتوجهون للنزهة لقضاء سحابة يومهم ·

والاحتفال بهذين اليومين يذكرهم ووفقا لما ســجله مثلهم الشعبى بقدوم الحجاج لانتهاء مناسكهم منذ شهر سبق مما يدل على أن الرحلة قد تستغرق فى العودة قرابة الشهرين كما سبق أن ذكرنا ·

(*) جاحكو : جمع دجاج أو دجاجة ·

الفصل الحادى عشر

أمثال ...

● الموت ...

الموت من أشد ما يبعث فى النفس البشرية الحزن والأسى ، وتلك احاسيس تنتاب النفس وتأصله فيها منذ بدء الخليقة سواء فى مرحلتها البدائيـــة وهى تعيش فى الأدغال والكهوف وحتى اليوم وهى فى أعلى مراتب الرقى ٠

والانسان العربى الفلسطينى مؤمن ايمانا مطلقا بأن الله سبحانه وتعالى هو الذى يحى ويميت ، وان الانســان وديعــة خالقه على الأرض يختارها من شاء ٠

من هذا الاعتقاد تجد شعبنا اذا ما أراد أحدهم نقل خبر وفاة أحد لشخص ما أبلغه بتعبير شعبى له دلالته الحسية الفائقة بقوله :

٢٦٨ ــ الله أخد بوداعته ٠

أى أن الله سبحانه وتعالى أخذ وديعته ٠ لذا فهو مؤمن بأن :

٢٦٩ ــ الحى ما الو قاتل وان قتلته ما بيموت ٠

٢٧٠ ــ الأعمار بيد الله ٠

وكذلك :

٢٧١ ــ اللى ما بيطعمك ولا بسقيك لا بميتك ولا بحييك وبنفس المفهوم مؤمن بأن :

٢٧٢ ــ الدوام لله ٠

٢٧٣ ــ ما حد باقى الا وجهه ٠

ومدرك تمام الادراك بأن :

٢٧٤ ـ الموت حق ٠

ولا مفر منه :

٢٧٥ ـ الموت كاس داير ع كل الناس ٠

٢٧٦ ـ الموت ع رقاب العباد ٠

٢٧٧ ـ العمر واحد والرب واحد ٠

فالله وحدة هو الذى يحى ويميت :

٢٧٨ ـ لو صبر القاتل ع المقتول لمات لحاله ٠

فالحياة من وجهة النظر الشعبية مجرد « أنفاس ٠٠ » داخل قفص من السهولة خروجها فى كل لحظة :

٢٧٩ ـ نفس فى قفص ٠

وانها أيضا مجرد « أنفاس » معدودة فى أوقات محددة ، معبرا عنها بمثله :

٢٨٠ ـ انفاس معدودة فى أوقات محدودة ٠

مستغلا بالتالى كل لحظة من عمره فى عمل الخير وتادية الواجب تجاه أصدقائه بالتواصل والمجاملة لادراكه بان :

٢٨١ ـ الدنيا من موت ومن فوت ٠

لأنه على يقين بأن :

٢٨٢ ـ الدنيا فانية ٠

ويتساءل باستغراب مؤكدا هذه الحقيقة بمثله :

٢٨٣ ـ هى دامت لمين يا هبيل ؟ !!

ويواسى نفسه بحقيقة واقعية مفصحا عنها عبر مثله القائل :

٢٨٤ ـ لولا الأموات بتموت ما ضل (ظل) للاحياء بيوت

فالموت اذن نعمة من نعائم الله يتيح للآخرين فرصة البقاء لحين ،

حتى تجد كبار السن يتقبلون هذ االنتيجة بصدر رحب معبرين عن زهدهم وقناعتهم بما كسبوه فى حياتهم فيقولون :

٢٨٥ ـ بدنا ناخد عمرنا وعمر غيرنا !!

تاركين بذلك فرصـــــة للآخرين الصـغار أن ينـالوا حظهم دون مزاحمة منهم ٠

ويفضل عامة الشعب الفلسطينى الموت دون عاهة تقعده أو مرض شديد يطرحه الفراش فتجده يدعو الله بقوله السائر :

٢٨٦ ـ موته بلا عاهة ٠

وكذلك :

٢٨٧ ـ يوم ع الفرش ويوم ع النعش ٠

لذا يرى البعض أن موت الشباب ـ وفى عز عنفوانه ـ هو افضل من شيخوخة معذبة :

٢٨٨ ـ موت الفتى فى عزه احسن من ليال عرسه ٠

وهذا لا يمنع من وجود المتشبثين بالحياة الدنيا والممسكين بترفها ونعيمها مفصحين عن ذلك بقولهم السائر :

٢٨٩ ـ يوم ع الأرض ولا ميه تحتها ٠

حتى ان البعض منهم يفضل الحياة بكدرها وشقائها عن الموت بقوله :

٢٩٠ ـ العيشة الكدر ولا النومة تحت الحجر ٠

أما فى حالة الوفاة ومراسيمها ، فقد استوحوا من « عملية الغسل » للميت قولهم السائر الذى جاء على لسان « المغسل » نفسه :

٢٩١ ـ مغسل وضامن الجنة ٠٠ لا ٠٠ !!

مؤكدا بذلك أن الانسان يقوم بواجبه أو عمله دون التأكيد على ضمانه ما سوف يحدث مستقبلا ٠

ويفضل الشعب العربى الفلسطينى سرعة مراسيم الدفن بقوله :

٢٩٢ ـ كرامة الميت فى سرعة دفنه ·

وذلك اختصارا للأحزان وما قد ينتاب الأقرباء من حالات صعبة لشدة حزنهم · هذا بالاضافة لما قد يحدث « للجثة » من ظواهر اذا ما طال بها الزمن ·

وفى الجنازة يبادر الجميع للصلاة عليها والسير وراءها لأن فى ذلك ثوابا لهم وكان ـ حتى الماضى القريب ـ يصطحب الجنازة بعض النسوة من الأقرباء فقط بالقرب من « المقبرة » بالصراخ ولطم الخدود ـ وهذا ما يلفظه الشعب بحسه ووعيه الدينى معبرا عن ذلك بقوله السائر الرافض لذلك :

٢٩٣ ـ بدهم جنازة ويشبعوا فيها لطم ·

موجهين مثلهم هذا لأولئك الذين يصطادون فى الماء العكر ويستغلون الفرص للتعبير عن أحاسيسهم الزائفة · ولمثل هؤلاء من النساء يقولون مثلهم الشعبى :

٢٩٤ ـ أهل البيت صبروا والندابات كفروا ·

فالندابات هم بعض النسوة قد تخصصن فى الندب أو التعديد وذلك بالقاء أشعار ومراث حزينة تعمل على الهاب أحاسيس أهل المتوفى من النساء وشدة حزنهم وبكائهم ، وقد تعددت هذه المراثى فمنها ما هو للذكور وأخرى للاناث كل وفق ظروفه الاجتماعية وكذا العمرية ·

فمن مراثى الشباب الأعزب المتوفى :

٢٩٥ ـ يا امى أخطبى لى بيضة وشعرها اشقر
يا امى خطبت الك بس العمر قصر ·
يا مرحبا يا اسمر اللحد قال ·
يا ابو الصديرى والقفطان الأحمر
يا مرحبا يا أمير قال للحد
يا أبو الحطيطة والقميص حرير

أما بالنسبة للشاب المتزوج فتندب قائلة :

٢٩٦ ـ جمل المحامل وقع منى — وحملى تقيل يا مين يحملنى
جمل المحامل وقع في الشوك — دشر حمولته علىوانضجع في الموت
أجيب لبابهم القلق في المفتاح — قال ارجعى يا حزينة
كان الك زمان وراح

اجيب لحبايبى القلق في الضبه — قال ارجعى يا حزينة
كان لك زمان وعدى

أما للرجل المتوفى ذى المكانة والمنصب الرفيع :

٢٩٧ ـ يا امير يا ابن الأمير — يا لابس الجوخ المخبخب
على وين رايح — رايح اقضى مصالح للرفق ·
ياحرقتى ع الجدعان — والجدعان مصفوفة
لاغطى عينى وأقوله — مطروفة

٢٩٨ ـ باب اللحد ماهوش باب ديوان
باب اللحد ضيق مابيساع جدعان
باب اللحد ضيق ماهوش كروم
باب اللحد ضيق مابيساع الطول

وبعد دفن الميت يتقاطر الناس من كل صوب لتعزية أهل المتوفى · فيرددون وهم جلوس العديد من التعابير الشعبية والأمثال التى لها الوقع المخفف على نفوس أهل الفقيد وأبنائه كما ان لها دلالتها ووقعها الواعظ على مسامع الحاضرين كقولهم :

٢٩٩ ـ اللى كتب غلب ·

٣٠٠ ـ كل شئ بيولد صغير وبيكبر الا الموت بيولد كبير وبيصغر

٣٠١ ـ ما حد بيخلى من عمره يوم ·

٣٠٢ ـ كل واحد بستنى يومه ·

٣٠٣ ـ كلنا الها ·

ويحثون أولاده بصفة خاصة على الصبر وتحمل المكارة مخففين عنهم بقولهم المأثور :

٣٠٤ ـ اللى خلف ما مات ·

واذا توفى الله الميت فى أرض غير أرضه أى خارج وطنه يرددون :

٣٠٥ ـ اترابه ناداه ·

او كما يقولون أهل الجبل الفلسطينى :

٣٠٦ ـ اتراباته أخدته

ومن غير المحبب لدى الشعب العزاء المتأخر خاصة بعد انقضاء فترة طويلة ، لأنهم يرون فى هذا العزاء تجديدا للحزن بقولهم :

٣٠٧ ـ يا معزى بعد سنة يا مجدد الأحزان ٠

ويرى البعض أن العزاء فى غير ميقاته هو بمثابة « شـــماتة » وهذا ما يستنكره الشعب عامة لأنهم يرفضونها حتى ولو كانت هناك خلافات مسبقة مع المتوفى . فيترفعون عن ذلك بقولهم :

٣٠٨ ـ فش ع الموت شماتة ٠

اما بخصوص التركة للمتوفى فقد أبانت لنــا الأمثلة الشعبية صنفين من الناس احدهما يترك وراءه البيت والمال وقد امتدحوه بمثلهم الشعبى القائل :

٣٠٩ ـ يا بخت من بنى وعلى وراح وخلى ٠

اما النــوع الثانى الذى لا يترك لهم من حطـام الدنيا شىء مذكور فيصفونه بمثلهم قائلين :

٣١٠ ـ ما ترك للورات غير حطب الكرات ٠

وهل للكرات حطب ؟!! ٠

الفصل الثانى عشر

- التفاؤل والتشــاؤم
- الطيــور ٠٠٠
- الأرقــام ٠٠
- ايــام الأســبوع
- نجمــة ام ذنب ٠
- طنــة الأذن ٠

تنصب هذه الأمثـــال الشعبية نحـــو بعض الأفكار والهواجس الاعتقادية الشعبية التى تعالج العديد من المســـائل والقضايا الحياتية اليومية والتى غالبا ما تمس الكثير من الجوانب السلوكية والنفسية فى الشخصية الفلسطينية المترسبة فى نسيجهم العاطفى وبنيتهم الفكرية التى ربما يرتد البعض منها لمعتقدات وأفكار قديمة .

واختلطت مظاهر التفاؤل والتشاؤم المتناقضة بطبيعتها فى عديد من الأمثال الشعبية كمـا سنرى لتشــير على مظهر من مظـاهر التطور الفكرى ، فهناك ما يدحض التشاؤم وآخر يبقى على تفاؤله لنفس المظهر والموضوع الواحد .

التفاؤل والتشائم من الطيور

١ ـ البــوم

لايختلف اثنان من الشعب الفلسطينى على التشاؤم من نعيق البوم ·

٣١١ ـ زعق البوم تحضر يا مشوم ·

وكان زعيق البـوم كما يقول المثل نذيرا بالشؤم وعلى من يسمعه أن يحضر نفسه سوف يحدث له ·

فزعيقها الحاد والمفاجىء يثير الشعور بالاشمئزاز المشوب بالقلق ، فتجد عامة الناس يرددون بسرعة متسائلين باسترحام بما يشبه المثل قائلين :

٣١٢ ـ خير يا طير !!

فقد اعتـاد هذا الطير أن يعشش ويعيش فى المناطق الخربة وكانه بذلك ينذر بالخراب وفقا للاعتقاد الشعبى :

٣١٣ ـ مثل البومة يزعق فى الخراب ·

وبنفس المعنى قالوا مثلهم :

٣١٤ ـ الحق البوم بدلك ع الرجوم · (الخرائب) ·

هذا على الرغم من انه لا توافق البتة بين زعيقهـا وما يحدث من مكروه لسامعيها الا اذا كانت هنـاك فرص نادرة توافقت حدوثهـا مع زعيقها فاصبحت من بعد ذلك قاعدة ـ على الرغم من شذوذها ·

هذا على الرغم من ان البومة لها مع التاريخ الفلسطينى دور بارز يوم كانت تضرب على العديد من النقود الفلسطينية فى الفترات العربية الفينيقية ثم اليونانية وكان لها قيمتها ورواجها (١) ·

وعلى الرغم من ذلك وبمـا تميزت به البـومة من عينيها الجميلتين ووجهها المستدير وريشـها الناعم الجميل ، الا أنها قد فقدت مصداقيتها عند عامة الشعب ، فهاهم يحدثونها بمثلهم الشعبى القائل :

٣١٥ ـ قالوا للبومة ليش راسـك كبير ؟ قالت شيخة
قالوا الها : ليش دنبك قصير ؟ قالت فريخة
قالوا الها : من راسـك لديلك ما صـدقت ·

هكذا وباصرار تبقى البـومة فى نظرهم قبيحة وتدعو للتشـاؤم ويكفى ان يقال :

٣١٦ ـ زى البومة ·

لأية انثى ليثير الغضب والاشمئزاز لدى السامع أو السامعة ·

٢ ـ الغــراب

الغراب من الطيور التى تدعو للتشاؤم بنعيقها وربمـا افصحت معظم الأمثال الخاصـة والمتحدثة عن الغراب عن دلالتها ومردودها التى يعود لقصة سيدنا نوح ، فها هو مثل يقول :

٣١٧ ـ ابطا من غراب نوح ·

ليدل على أن سيدنا نوح قد ارسل الغراب من فوق سفينته لكى يعرف ما اذا كانت الأمطار قد توقفت الا أنه أى الغراب لم يعد فقالوا :

٣١٨ ـ مثل غراب نوح راح ما رجع

وبنفس المعنى والمدلول قالوا :

٣١٩ ـ مثل لغراب ودى وما جاب ·

وقولهم :

---

(١) سليم عرفات المبيض ـ النقود العربية الفلسطينية وسكتها المدنية الأجنبية ـ الهيئة العامة للكتاب ـ القاهرة ـ تحت الطبع ·

٣٢٠ ـ اخدها لغراب وطار ٠

ليدل بذلك على فقـــدان الأمل فى عودة الغـراب أو ما أخـذه ، وكثيرا ما يردد الشعب هذا المثل عند فقدان شىء عزيز فى أحلى المناسبات وبطريقة مفاجئة ومباغتة فيقولون :

٣٢١ ـ يا فرحة ما تمت اخدها لغراب وطار

لهذا تجدهم يهزأون من الولد العاق لأمه ، الذى لا يعمل ولا يقدم لها شيئا ، أو لمن يقدم الشىء القليل جدا فيقولون ساخرين عليه :

٣٢٢ ـ ياما جاب لغراب لأمه !!

ويبقى الغراب بلونه الأســود ونعيقه الأبح وسكناه فى الخرائب موضع تشاؤم وأذى فى رأى الشعب وعلى حد رأيه المثل القولى :

٣٢٣ ـ قالوا للغراب ليش بتسرق الصابون ؟ قال الأذى طبعى ٠

كما يكفى أن يقال لشخص التعبير الشعبى التشبيهى :

٣٢٤ ـ زى الغراب ٠

لكى يغضب ويثور ٠

ويتشاءم ســكان البـــادية الفلسطينية من نعيق طير يسمونه « الكندرة » أو « أم قرص » لذا تجدهم يصرخون فى وجه من يتشاءمون منه لنقله خبرا مزعجا قائلين :

٣٢٥ ـ ام قرص !!

للدلالة على التشاؤم الممزوج بالغضب والنفور ، فى حين يتفاءلون من الحمام وخاصـــة طائر يشبهه يدعى « الجمام » ومن هديله عند الصباح الباكر حيث يترجمون هذا الهديل بأنه ذكر لله ويوحده وانه يقول « وحدوا ربكم » ٠

الأطفال ـ الأجرود

دقائق الصباح المبكرة من أدق الأوقات حساسية وشـفافية فى النفسية الفلسطينية خاصة وهم يستعدون للخروج لأعمالهم ، فابتسامة طفل أو كلمة يتفوه بها بعفويته ربما تبعث فى نفسه النشوة المتفائلة فيندفع لعمله بحماس فائق وهو يردد مثله الشعبى :

٣٢٦ ـ خود فالها من طفالها

وربما يكون الفال سلبيا ويدعو للتشـــاؤم لو حدث العكس من صراخ طفل أو بكائه وربمـا يذكرنا ذلك بقصـة الطفل الفلسطينى فى القرن الخامس الميلادى عندما احتار أهل المدينة عند تحولهم من الوثنية الى المسيحية عما يفعلون بعد أن حطموا جميع الأصنام وبقى تمثال الاله « مارنا » رب الأرباب داخل مدينة غزة هل يدمرونه أو ينقلونه ، فاذا بطفل ينطق وهو ماش بتلقائية « احرقوه » فما كان من رجال الدين الا قاموا بتنفيذ ما نطق به فاحرقوا التمثال (١) ٠

ويتشاءم البعض من رؤية الرجل الأجرود [الأمرد] وهم يهمون لأعمالهم صباحا فيقولون :

٣٢٧ ـ صباح لقرود ولا صباح الأجرود ٠

وربما كان مرد ذلك أنهـم لا يرون فيه مظاهر الرجولة والخشونة

وأحيانا يتشاءمون من ذوى السمعة السيئة فيما لو رأوهم صباحا سواء أكانوا رجالا أم نساء ، فالأهل فى البادية الفلسطينية يتشاءمون من

(١) G. Dawney, Gaza in the early Sixth century, university of Acklahama Press, 1963, p. 15.

مجرد ذكر اسم « عمرى » لما لصق بهذا الرجل من القصص والاقاويل السيئة . فاذا ما صادفوا رجلا يأتى بفعال سيئة صرخوا فى وجهه قائلين « عمرى » أو ينعتونه بوصفهم قائلين « حسومى » وكأنه ولد فى الأيام الحسوم وأحيانا يلقبونه بكلمة « منحس » . لذا تجدهم يقولون لسيء الحظ او الفال .

٣٢٨ ـ اترتع فى منحوسك ليجيك انحس منه

واخيرا اذا ما تشاءموا من أحد نعتوه بقولهم السائر :

وجهك وجه نو

أى متقلب ومكفهر تماما كتقلب الأنواء وما اكثرها فى بلادنا فلسطين وما اكثر ضررها .

الارقام

وللارقام انعكاساتها النفسية على الوجدان الشعبى فمنها ما يتجنب ذكره ويبتعد حتى عن النطق به واذا ما دعته الحاجة أشار اليه بالرمز أو التمثيل والاشارة ، وأحيانا خففه أو استعاض عنه بكلمة أخرى وهناك أرقام يحلو له النطق بها لدلالتها المريحة على نفسيته .

والشعب الفلسطينى كسائر الشعوب التى غالبا ما تنبذ لغة العد أو الاحصاء كما فى العديد من الشعوب الأوربية والآسيوية ، فان سألت العديد من أفراد الشعب الهندى عن عدد ثرواته الحيوانيـة أو أولاده رفض حتى مجـرد الرد على السؤال لاعتقاده أن هنـاك أرواحا شريرة ستسمعه وتفتك بثروته أو بعض أولاده أو تجلب لهم الأمراض ، ذات المال كما عند عرب الجاهلية (٢) .

الرقـم ٥

هذا الرقم يتشاءم منه بعض أفراد الشعب الفلسطينى فتجدهم دفعا عن أذاه لاينطقون به قائلين قولتهم السائرة « عدد كف » وأحيانا يستعيضون بها بكلمة واحدة قائلين « كف » . وبتعبير آخـر يقولون « عدد اليد » ، واذا تجاوز أحد الأفراد بأن ذكر الرقم واضـحا بقوله « خمسة » ردوا عليه « خمسة فى عين الشيطان » . وردا للحسد تجدهم يقولون :

٣٢٩ ـ خمسة فى عين الشيطان .

وأحيانا يرددون :

(٢) مجلة التراث الشعبى ـ العدد ٦ السنة الثانية ـ وزارة الاعلام ـ بغداد ـ ١٩٧٧ ص ١٥ ـ ١٦ .

٣٣٠ ـ خمسة وخميسه ٠

والخميسه ٠٠ هى عبارة عن كف يصنع من الفضـــة أو الذهب وأحيانا من البلاستك يعلقونه على الأشياء العزيزة عليهم ردا للحسد وكأنهم بذلك يبطلون تأثير عدد « الخمسة » بها ٠

وقد يتحايلون على الآخرين ٠٠ منعا لذكر رقم خمسة ـ خاصة لو سئل أحدهم عن عدد أولاده أجاب بأنهم أربعة وواحد منعا للحسد ٠

وربما يعود هذا التشاؤم من الرقم « خمســة » للفواسق الخمسة التى أباح الاسـلام قتلهـا وهى فأرة البيت والحية والعقرب والحدأة والغراب وسميت كذلك بالفواسق على الاستعارة لخبثهن وقيل لخروجهن عن الحرمة فى الحل والحرام ٠

الرقـــم ٧

٣٣١ ـ السبعة مسبوعة :

مثل شعبى يردده الأهل فى فلسطين للتعبير عن تشاؤمهم منه خاصة وأنه رقم فرد فيستبدلون لفظه بكلمة « سمحة » خاصة عند العد ٠ فيأخذ الفلاح الفلسطينى وهو يكيل محصوله من القمح أو الشعير بالصاع أو عندما يقيس القماش ثوبا من القماش تجده يعد كالتالى :

الله واحد ـ مالوش ثانى ، بركة الله « ثلاثة » ، تربيح من الله « أربعة » ثم يشير بكفه بدلا من القول « خمسة » ثم ستر الله (ستة) ، سمحة أو عبة الله (سبعة) لرب الأمانة « ثمانية » صلى ع النبى « تسعة » عشرة وحتى اليوم تجد سكان اليمن يذكرون « سمحة » بدلا من الرقم سبعة ليؤكد الجذور العربية الواحدة (٢) ، ويشابه الشعب الجزائرى الشعب الفلسطينى فى العد (٤) ٠

ولعل مرد هذا التشاؤم من الرقـــم ٧ هو ما يذكرهم بالموبقات السبعة (*) ٠ وغالبية الشعب ما يتفائل بهذا الرقم لارتباطه بالعديد من الآيات القرآنية فقد جاء فى سورة البقرة رقم ٧ فى آيتين :

« ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات » (٢٩ البقرة) ٠

---

(٢) المرجع السابق ص ١٦ ٠

(٣) مجلة التراث الشعبى ـ العدد ٦ السنة الثانية ـ المرجع السابق ص ١٥ ٠

(★) وهى الشرك بالله ـ والسحر وقتل النفس وأكل مال اليتيم وأكل الربا والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات ٠

« كمثل حبة أنبتت ســبع ســنابل فى كل سنبلة مائة حبة (٢٦١ م البقرة) ٠

كما ان سورة الفاتحة تتألف من سبع آيات ٠

وقد ورد رقــم ٧ فى ســـورة يوسف فى ثمان آيات منهـا :

وقال الملك انى أرى سبع بقرات سمان » (٤٣ ك يوسف) ٠

« سبع سنبلات خضر وآخر يابسات » (٤٣ ك يوسف) ٠

« تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن » (٤٤ ك الاسراء) ٠

كذلك جاء ذكر نفس الرقم فى سور الطلاق والملك ونوح والحجر والكهف ٠

ولقد جاء فى العديد من التفســيرات ان الرقــم ٧ يقصد به فى الآيات الكريمة الكثرة والمبالغة وكذلك التضعيف ٠

كما ينسب الرقم ٧ للعديد من الأحاديث النبوية فيقولون :

٣٣٢ ـ النبى وصى ع سابع جار ٠

كما لاننسى الاحتفال باليوم السابع لمولد الطفل (الاسبوع) ٠ وكذا اليوم السابع للعروسة والاحتفال به ٠

ولعل فى ترديد هذا الرقم واستخداماته لدى الطرق الصوفيــة ما يوحى بدلالته واتصـــاله بالأذكار الدينيــة وما لها من أصـول سبعة سبق ذكرها عندما يرددها « المريد » للدخول فيها (١٥) ٠

وللرقم ٧ اســـتخداماته فى الطب الشعبى الفلسطينى فتجدهم يصفون المرأة التى تريد الانجاب بالذهاب للبحر واعتراض سبع موجات كما ذكرنا كما توصف أحيانا بجمع ٧ ورقات خضراء من أشجار مختلفة لتضعها فى اناء ماء وتغمس فيها جميعا بما يسمى « مكبســـات (*) » ثم ترشها على رأسها ٠ وهناك وصفة أخرى توصى بجمع سبع كميات من مياه مختلفة (مياه حمام ـ صائغ ـ حداد ـ سبيل ـ بحر ٠٠ الخ) ثم تسخن بعد خلطها جميعا وتغتسل بها المرأة التى تريد الانجـاب ٠

---

(٥) الشيخ أحمد بسيسو ـ فوائد وقواعد وضوابط من عدة نوادر غريبة وتحائف عجيبة ـ مخطوط ٠

(★) مكبسات : عبارة عن مجموعة من الخرز الصغيرة مشبوكة بخيط ومعها قطعة من النقود الفضية أو النحاسية أو الذهبية عليها صورة يطلق عليها « مشخصة » ٠

هذا بالاضافة « للمستقرضات » التى تتألف من سبعة أيام يوضحها المثل الشعبى القائل وعلى لسان شهر شباط :

٣٣٣ ـ اخويا يا آذار اربعة منك وثلاثة منى ، خلى وادى العجوزة الحزين يغنى ·

ويردد أبناء الجليل الفلسطينى نفس المثل بأسلوب آخر قائلين :

٣٣٤ ـ آذار يا ابن عمى اربعة منك وثلاثة منى لنوقد للعجوز دولابها والصبية قبابها ·

هذه سبعة الأيام التى تتميز بهطول الأمطار الغزيرة فى أواخر شباط وأوائل مارس (آذار) يسمونها « المستقرضات » ·

وهذه الأيام نفسها يطلق عليها أبناء الشمال الفلسطينى « الحسوم » ويرون فى خصائص كل يوم منها المناخية ، عنوانا لطقس كل شهر من شهور الصيف السبعة المقبلة (٦) ·

ولو تناولنا أخيرا العديد من الأمثال الشعبية الفلسطينية والتى للرقم ٧ فيها نصيب ، نجد أن معظمها لا ينم عن التفاؤل مثل :

٣٣٥ ـ عمل السبعة وذمتها

٣٣٦ ـ سبع صنعات فى ايدى والبين جاير على ·

٣٣٧ ـ سبع كارات بايديهم والبين جاير عليهم ·

٣٣٨ ـ دوق العارف سبع مغارف واللى مش عارف الطبخة كلها ·

٣٣٩ ـ سبع صنايع والعقل ضايع ·

٣٤٠ ـ بده من اللواق سبع اواق ·

٣٤١ ـ عيلة السبعة ما الهاش شبعة ·

٣٤٢ ـ سبع طبول فى اسطنبول فى عرسك يا دبانة ·

٣٤٣ ـ ستة سبعة فى خلمة القرعة ·

٣٤٤ ـ سبع مغازل بتغزل والشكر لصاحب الدار (٧) ·

---

(٦) شكرى عراف ـ الأرض الانسان الجهد ـ عكا القديمة ـ ١٩٩٢ ص ٢٣٤ ·

(٧) انظر للمقال الجيد فى مجلة التراث والمجتمع ـ العدد ٤ المجلد الأول ـ كانون الثانى ١٩٩٥ ، البيرة ـ ص ٦٦ ـ ٦٧ ·

٣٤٥ ـ فتش بيتك سبع مرات قبل ما تخون جارك ·

ويبقى الرقم ٧ ومضاعفاته خاصة رقم ٧٧ له مغزاه ومرماه المغلفة بالمسحة الدينية ، فمن أنواع القسم ان سكان البادية الفلسطينية عندما يريدون ان يتأكدوا من صدق أحدهم سألوه قائلين بما يشبه المثل :

« أنا مخاصمك بسبعة وسبعين نبى ·· وحاطها فى عيالك ومالك من الكماية » (٨)(*) ·

كما جاء رقم ٧٠ (سبعون) فى سورتين كريمتين :

« ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه » صدق الله العظيم « الحاقة » ·

وفى سورة الاعراف قال جل جلاله « واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا » « الأعراف » ·

كذلك جاء فى سورة التوبة « ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم » · « ٨٠ ـ التوبة ٩ » ·

وهناك اعتقاد شعبى فلسطينى بأن فى طور زيتا بالقدس مات سبعون الف نبى قتلهم الجوع كما جاء ذكر ذلك على لسان النابلسى عند زيارته لنفس المكان (٩) ·

---

(٨) عارف العارف ـ القضاء بين البدو ـ المرجع السابق ص ٧٤ ·

(★) الكماية : أى الستر والخفاء ·

(٩) الشيخ عبد الغنى النابلسى ـ الحقيقة والمجاز فى رحلة الشام ومصر والحجاز ـ مخطوط ·

أيام الاسبوع

وما دمنا بصدد الحديث عن الرقم سبعة نجد من المناسب أن نتحدث عن أيام الاسبوع وتأثيرها على الفكر الروحي لدى الشعب الفلسطيني ومعتقداته حيالها حيث يرى أن لكل يوم من أيام الاسبوع أشياء يجب اجتنابها وأخرى يتفاءل من الاتيان بها أو فعلها .

ووفقا لما ورد على لسان أجدادنا في منتصف القرن التاسع عشر بأن زيارة المريض يوم السبت مكروه . وعدم تخطي الملابس المغسولة أو ان يدوسوا على نجارة الأقلام أو أن يغزلوا ويخيطوا يوم الجمعة (١٠) . ويردد الشعب الفلسطيني أمثاله الشعبية من معظم أيام الاسبوع فعن يوم الأحد يقولون مثلهم :

٣٤٦ ـ الأحد بيحد الشر .

أي ان للشر نهايته بمجيء يوم الأحد لو كان حدوثه قد وقع قبل ذلك ، وفي فصل الشتاء اذا ما أمطرت يقولون :

٣٤٧ ـ الحد (الأحد) يا بتحد يا بتمد .

أي أن الأمطار في يوم الأحد اما أن تكف عن الهطول أو انها ستواصل وتمتد في سقوطها .

أما يوم الاثنين فيعتقدون بأن تفصيل الثياب فيه أمر محبب ويدعو للتفاؤل مرددين مثلهم :

(١٠) الشيخ أحمد بسيسو ـ مجموع مشتمل على فوائد وقواعد وضوابط ـ مخطوط غزة ـ ١٢٨٩ هـ .

٣٤٨ ـ يوم لتنين [الاثنين] بيزيد مترين .

أي أن تفصيل الملابس في هذا اليوم تزيد مترين كناية عما يحل بها من البركة والفال الحسن .

وفي نفس هذا اليوم الاثنين لم يحبذوا غسل الملابس قائلين :

٣٤٩ ـ ان كان عليك الفين لا تغسل يوم لتنين [الاثنين] .

كما رفضوا العمل في هذا اليوم ايضا بقولهم :

٣٥٠ ـ كول خبزك بالدين ولا تشتغل يوم لتنين .

وبنفس المعنى والمضمون قالوا :

٣٥١ ـ لا تشتغل يوم لتنين لو كانت عليلك الفين

لاعتقادهم سابقا أن العمل في هذا اليوم غير محمود وغير ناجح خاصة أيام الحصاد ويتشاءمون من القص والخياطة يوم الثلاثاء كما جاء في مثلهم القائل :

٣٥٢ ـ يوم الثلاثا [الثلاثاء] يا حرق يا وراته .

أي ان الملابس اما أن تحرق أو يموت صاحبها وتؤول للورثة (*) .

ويرى الشيخ الفلسطيني أحمد بسيسو بعد تتبعه لآثار الصحابة وأهل البيت بأن ما كان يشاع ويعتقد به أفراد شعبنا في هذه الأيام بأنه مسند فيقول بان منع الزيارة يوم السبت قد نهى عنه الامام علي رضي الله عنه واما عدم تخطي الثياب المغسولة فعن فاطمة رضي الله عنها وأما عدم الدوس على براة الاقلام فعن ابن عباس ، وعدم غسل الملابس فعن فاطمة (١١) .

أما عن يوم الأربعاء فيجدون أن السفر فيه أمر مرغوب ومحبب خاصة اذا صادفت اليوم العاشر من الشهر وكذا الغزو عند أهل البادية الفلسطينية في حين نجدهم يتشاءمون من آخر يوم أربعاء من كل شهر ويطلقون عليها تعبيرا شائعا :

(★) هذه الأمثال لم يعد لها تاثير اليوم ولا يعملوا بموجبها .

(١١) الشيخ أحمد بسيسو / مشتمل على فوائد وقواعد وضوابط من عدة فنون من نوادر غريبة وتحاقف عجيبة ـ ١٢٨٩هـ غزة ـ مخطوط .

٣٥٣ ـ اربعـــا لاتدور ·

كما يتشاءمون من اليوم قبل الأخير من كل شهر ويسمونه ·

٣٥٤ ـ يـــوم الخلف (*) ·

كما كانوا يفضلون تفصل ملابس يوم الخميس يؤكد ذلك مثلهم الشعبي القائل :

٣٥٥ ـ يوم الخميس فصل لحبيبك قميص ·

كان البعض لايفضل العمل منه . وقد اطلقوا عليه وفق تعبيرهم الشـائع ·

٣٥٦ ـ الخميس لخمس ·

اى فى يوم الخميس المصادف للخامس والعشرين من الشهر الأخير للسـنه ويقولون عنه أيضا مثلهم الشعبى (١٢) :

٣٥٧ ـ خمس ولمس وطمس ·

اما يوم الجمعة فهو يوم الراحة ويوم صلاة الجمعة جماعة فى مسجد القرية او المدينة ففى هذا اليوم كما يرددون :

٣٥٨ ـ الجمعة جامعة والدواعى فيها سامعة ·

والمعنى هنا واضح ويؤكد ذلك ان بها ساعة اجابة يستجيب بها العلى القدير لدعاء المؤمنين الصادقين ·

كما يتفاءل أهل البادية الفلسطينية بالسفر فى هذا اليوم وكذا الغزو خاصة يوم الجمعة الذى يصادف اليوم الثانى من الشهر العربى ·

وهناك البعض من الذين يتشـاءمون وبلا مبرر من كثرة الحركة والتنقل او السفر يوم الجمعة بدعوى ان بهـا على حد تعبيرهم الشعبى القائل « فيها ســاعة نحسة » · كما ان للشعب الفلسطينى فى يوم الجمعة خاصة عند صلاة الجمعة ممارسات شعبية عديدة بالنسبة لشفاء

(★) بالنسبة لهذه التعابير الشعبية السائرة والخاصة بايام الأربعاء ـ ويوم الخلف لم يعد لها قيمة تذكر الآن ·

(١٢) عارف العارف ـ القضاء بين البدو ـ القدس ١٩٣٤ ص ٢٥٢ ـ ٢٥٤ ·

بعض الأطفـال من الأمراض وحرق البخور وتقـديم النذور ·· الخ ما يستحق الدراسة ·

الأرقام ٦ ، ١٠

وعودة للأرقام نجد أحيـانا يقسـم العربى الفلسطينى بالأرقام لا لكونهـا رقما مجـردا بل لما يحمله الرقـم من معـان ودلالات دينيـة وروحية فتجدهم يطلبون من الله النصر وقت الشـدة بدعائهم السائر على ألسـنتهم :

٣٥٩ ـ يا ناصر الستة ع الستين ·

لارتبـاط ذلك بنصر المسلمين فى العديد من غزواتهـم ايام رسول الله صلى الله عليه وسلم على الكفار بالرغم من قلة عددهم وكثرة أعدائهـم ·

وهناك من يقسمون بالرقم ١٠ (عشرة) فيقولون :

٣٦٠ ـ وحياة ها العشرة عشرة رسول الله ·

وربما يتعدى هذا القسـم من مجـرد عدد أصابع اليدين ليتعداه للعشرة المدفونين بمدينة القدس والمبشرين بالجنة كما جاء فى حديث النبى صـــلى الله عليه وســـلم تظلهم خرنوبة ويطلقون على هذا المكان « خرنوبة العشرة » وقد ذكرها النابلسى أثناء زيارته للمدينة ·

الرقـم ٤٠

للرقم ٤٠ فى التراث الشعبى الفلسطينى مزيته التى لاتخرج عن مجال التفاؤل لما له من ذكريات تاريخية دينية ينبعث منها أريج الذكريات المجيدة الطاهرة للعديد من الأنبياء والشهداء واولياء الله الصالحين ·

فقرية « يعبد » الفلسطينية يترجم أبناؤها معنـاها بتعبد أبينـا ابراهيم عليه السلام أربعين عاما بها ·

وأهل مدينـــة الناصرة يفتخرون بمقـام الأربعين على ذرا بعض جبالهـا · وبمدينة الخليل فى جنوب فلسطين توجد « مغارة الأربعين » وكذلك فى قرية « كفر بريك » غار يقال مدفون به اربعون نبيا ومقام

عليهم جامع به قبر النبى لوط عليه السلام ابن اخى أبينا ابراهيم ابى الأنبياء (١٣) ٠

وبحى الشجاعية الجديدة بمدينة غزة « جامع المغازين » حيث يعتقد أبناء الحى بانه سمى كذلك لوجود أربعين شهيدا استشهدوا أيام الحروب الصليبية ٠ وقد جاء فى حديث للرسول عليه أفضل الصلاة والسلام أن المدة الزمنية بين بناء البيت الحرام والمسجد الأقصى اربعون سنة كما سبق ان أوضحنا ٠ وعنه قال « من أخلص لله اربعين صباحا ظهرت ينابيع من قلبه على لسانه » (١٤) ٠

وقد خص الله تعالى الأربعين بالذكر فى قصة موسى عليه السلام « واوعدنا موسى ثلاثين ليلة واتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة » سورة الأعراف ١٤٢ ك ٠ أما تعيين الرقم أربعين فى كتاب الله وسنة رسوله فالتحديد والتقييد بهذا الرقم لحكمة فيه ولا يطلع أحد على حقيقته الا الأنبياء ومن يخصه الله من عباده الصالحين وذلك أن الله جل جلاله لما اراد تكوين آدم من تراب قدر له التخمير بالعدد أربعين كما ورد « خمر طينة آدم بيده أربعين صباحا » ٠

كما أن من لم يظفر بالحكمة بعد الأربعين تبين انه أخل بالشروط ولم يخلص لله تعالى (١٥) ٠

وعليه قيل بأن سن الأربعين هو سن الزهد والحكمة ويقال عنه ايضا « سن الأنبياء » وقد أكد المثل الشعبى ذلك بقوله :

٣٦١ ـ ابن الأربعين من الكاملين ٠

ليعنى بذلك كمال التعقل والاتزان فى التصرف والسلوك ٠

كما سبق أن بينا بأن الفلاح الفلسطينى قسم سنته الزراعية لأربعة اقسام كل قسم يضم أربعين يوما ٠

كما اختار لأيام الشتاء القارصة البرد رقما هو أربعين يوما تبدأ من ٢٢ كانون أول وحتى ٣١ كانون ثانى أسماها « اربعينية الشتاء »

---

(١٣) وردت جميعها على لسان الشيخ عبد الغنى النابلسى ـ الحقيقة والمجاز ـ مخطوط ٠

(١٤) الامام ابى حامد الغزالى ـ احياء علوم الدين ـ المجلد الخامس ـ المرجع السابق ص ١٢٢ ٠

(١٥) الامام ابى حامد الغزالى ـ احياء علوم الدين ٠

بالمثل هنـــاك أربعون يـوما تمثل قمة ارتفـــاع الحرارة ســـماها « أربعينية الصيف » لهذا وصفها بمثله الشعبى القائل (١٦) :

٣٦٢ ـ الأربعينية يا شمس تحرق يامطر تغرق .

ومن الأمثال الشعبية الفلسطينية التى حفلت بالرقم ٤٠ تلك التى تصف الانسان قائلة :

٣٦٣ ـ بعد الأربعين يا رب تعين .

وربما يعنى ذلك من الناحيـــة الجسمانية حيث يصـل الانســـان الفلسطينى لهذا السن بعد ان يكون قد قطع شوطا كبيرا فى الكد وبذل الجهد فى الفلاحة أو الأسفار والتنقل مع ما يلازمها من هموم ومشاكل يشعر خلالها مع وصوله لسن الأربعين أنه فى حاجة لمن يعينه .

وترى التجربة المثلية الشعبية الفلسطينية فى النساء شىء آخـر فتقول :

٣٦٤ ـ احذر النسا قبل العشرين واتركهم بعد الأربعين .

وربما كان هذا المثـل من وجهة نظر من أبدعه هو الترك الناجم عن مظاهر ضعفها الجسمانى بعد العنـاء الشـــديد التى تبذله المرأة الفلسطينية بملازمتها لزوجها فى جميع مراحـل الفلاحة هذا بالاضافة لتربيتها لأولادها وتدبير شئون منزلها واذا ما استراحت قامت بالعمل فى التطريز .

ويحاكى هذا المثل مثل شعبى آخر يقول :

٣٦٥ ـ بنت الأربعين ذات بنات وبنين .

أى أن قدرتها على الانجاب مازالت مستمرة وهى فى هذا السن .
وتحذر فى الوقت نفســـه التجربة الشعبية من كره المرأة حيث تقول :

٣٦٦ ـ المرأة بتحب يوم وبتكره أربعين يوم (١٧) .

وللرقم أربعين معاييره فى التراث الشعبى الفلسطينى فاحيـــانا يعتبرونه مقدارا كافيا للمعاشرة ومن ثم يصبح جزءا ممن يعاشرهم :

---

(١٦) سليم المبيض ـ الجغرافيا الفلكلورية ـ المرجع السابق ص ٨٦ .

(١٧) اسطفان اسطفان ـ العدد أربعون فى التراث الشعبى الفلسطينى ـ ترجمة سهير عبد الهادى مجلة التراث والمجتمع ـ العدد ٤ المجلد الأول ـ كانون الثانى ١٩٨٥ ـ البيرة ص ١١٨ .

٣٦٧ ـ من عاشر القوم اربعين يوم صار منهم ·

وان لم يكن كذلك يقولون :

٣٦٨ ـ اللى يعاشر القوم اربعين يوم بصير منهم يا برحل عنهم ·

واتخذوا للرقم ٤٠ مقياسا وحدا للشبع فقالوا :

٣٦٩ ـ عيار الشبعان اربعين لقمة ·

وذلك لاغراء الضيف الممتنع عن الاكل معهم لانه سبق له الاكل ، بأن ياكل ايضا اربعين لقمة كعيار للشبعانين متخذين من المثل هذا حافزا له على مشاركتهم ·

واعتبروا أربعين سنة مدة قصيرة يستعجل بها الانسان اذا ما حاول اخذ ثارة فقالوا :

٣٧٠ ـ البدوى اخذ ثاره بعد اربعين سنة وقالوا له استعجلت !!

وعن احترام الجار قالوا :

٣٧١ ـ عليك بالجار وجار الجار لاربعين يوم ولو جار ·

وقالوا أيضا :

٣٧٢ ـ يخلق من الشبه اربعين ·

وفى الأفراح سخروا الرقم ٤٠ بقولهم :

٣٧٣ ـ الهنا لسنه والنفسا للاربعين ·

كما اتخذوا من « الأربعين » ميقاتا لاحياء ذكرى المتوفى ·

التشاؤم من نجمة أم ذنب

كان هذا النجم ومنذ العصر الفرعونى والعربى الكنعانى يعتبرونه من الأجسام العلوية التى تأتى لتنذر سكان الأرض بكارثة محققة ·

وقد بقيت هذه الظاهرة الخرافية متمكنة فى نفوس ملوك وقياصرة اوربا فى القرون الوسطى بأن هذا النجم المذنب ويدعى Comet نذير شؤم عليهم كما تخيل الملك هارولد عند ظهوره له سنة ١٠٦٦ م أمام خصمه وليام (١٨) وبقيت هذه النظرة شائعة بين اهلنا فى فلسطين فتجدهم يرددون مثلهم القائل لمن يأتيهم بغتة ودون سابق انذار بقولهم :

٣٧٤ ـ زى نجمه ذنب بتيجى فى غير اوان :

ويعبرون عن نظرتهم التشاؤمية منها بقولهم :

٣٧٥ ـ زى بشارة ام ذنب يا محل يا جراد ·

فمن خلال المثل كانوا يعتقدون بأن ظهور هذا المذنب يعنى اما حدوث محل يصيب الأرض والزرع واما انتشـــار الجراد المهلك لكل اخضر على الأرض ·

وكان البعض من يعتبرها ايذانا ببدء حرب مدمرة ·

التفاؤل والتشاؤم من طنة الأذن ومواقف اخرى ·

بمجرد أن تحدث « طنة » فى الأذن لأى سبب ـ لايعنينا الخوض فيه الآن ـ نجد الانسان الشعبى الفلسطينى يبدأ فى التنبه بحذر مرددا مثله القائل :

(١٨) جيرالد هوكنز ـ بدائع السماء ـ ترجمة د· عبد الرحيم بدر ـ المكتبة العصرية ـ صيدا ـ بيروت ١٩٦٧ ص ٣٧١ ـ ٣٧٣ ·

٣٧٦ ـ يا ودن طنى كل ساعة بخبر ·

ليجد بعدها أى فى تفسير هذه الطنة ، فان كانت صادرة عن الأذن اليمنى تفاءل وقال قولته السائرة ·

٣٧٧ ـ حبيب يسأل ·

أى حبيب يسأل عنه أو يتحدث بما فيه الخير له · وان كانت الأذن اليمنى تفاءل وقال قولته السائرة :

٣٧٨ ـ الشمال عدو يسأل ·

أى هنا من يكرهه يتحدث عنه باخبار سيئة ، ويبدو ان شعوب أوربا الشمالية يشاركون الشعب الفلسطينى فى هذه الافكار حيث يجدون فى طنين الأذن اليمنى بشير فال طيب تماما كما هو الحال فى التراث الهندوكى (١٩) ومن مصادر التفاؤل عند الشعب الفلسطينى ـ رفة العين اليسرى ـ وانكسار اناء سواء أكان زجاجيا أم فخاريا يبادرون بالقول السائر :

٣٧٩ ـ انكسر الشر ·

تخفيفا لوقع الحدث من ناحية وتفاؤلا من ناحية أخرى ·

كذلك لو رأوا « رغوة » سميكة على سطح فنجان من القهوة أو فقاقيع هوائية فى الشاى اعتبروا أن هناك « قبضة » أو نقودا ستأتى وكذلك · هرشهم لليد (راحة اليد) · وكذلك رؤيتهم فى الصباح وهم يخرجون مبكرين لأعمالهم انسانا سواء أكان ذكرا أم أنثى يحمل فى يديه أوراقا نباتية خضراء أو اناء مملوءا بالماء ·

ويتشاءمون لو حدث العكس وشاهدوا امرأة تحمل جرة فارغة كما يتشاءمون من رؤية القط الأسود ، وعواء الكلب بشكل متقطع بما يسمونه « بيجوح » ·· أو اذا أتى لهم شخص بخبر غير سار ومفاجىء بادروه بقولهم المأثور :

٣٨٠ ـ فال الله ولا فالك ·

أو اذا ما انتظروه ليسمعوا منه خبرا ، تجدهم يبادرونه بسؤالهم الشعبى المأثور :

٣٨١ ـ بشر ولا تنفر ·

---

(١٩) د· محمد الجوهرى ـ علم الفلكلور ـ الجزء الثانى ـ دار المعارف ـ ١٩٨٠ ص ٥٨٤ ·

الفصل الثالث عشر

أمثال
النباتات فى المعتقد الشعبى

● النخيل ★ القمح ★ الشعير ★ الأرز ★ الخروب ★ البلوط ★ الجميز ★ الرمان ★ السدر ·

النباتات فى المعتقد الشعبى وأمثالهـا

تدور العديد من المعتقدات الشعبية الفلسطينية حول بعض الأشجار والنباتات ، ونعنى بداية ، بالمعتقد الشعبى تلك التى تتمحور حول العديد من الغيبيات وبعض العادات والتقاليد الغريبة والمثيرة ، ليس فقط للخيال بل وللفكر ، ولا نعنى البتة المعنى الدينى للتقديس .

فالشعب الفلسطينى كشعب فلاح منذ نشـــــأته الأولى اندمج مع الأرض ، وجبل عرقة بطينها ورملها فأخرجت له الأشجار والأعشاب ، حلوها ومرها ، فلم يتركها وشأنها ، بل تجاوب معها ، وأمسك بها ، فعرف خصائصها ، واستثمرها ، وقدرها حتى عبدها أجدادنا الكنعانيون ربما عندما احتاروا فى تفسير عطائها الجزيل أو ضررها المخيف ، فانطلقت أفكاره من عقالها تسرح فى تكوين العديد من الاعتقادات والغيبيات نبتت معها الكثير من الخرافات وازدهرت الخزعبلات وترعرعت العديد من المعتقدات الشعبية .

ثم حبـا الله الانســـان بكتبه المقدسة ورسله وأنبيائه من خلال الديانات السماوية فخص بها العديد من الأشجار والنباتات بالكثير من الوصف والصفات مما مكنها فى الوجدان الشعبى .

وقد كانت فلسطين مسرحا لكثير من الأنبياء والصالحين والشـــــهداء والقديسين الذين اقترنت بهم الحياة النباتيـــة ، لم لا ، « وما من نبى الا ورعى الغنم » كما اقترنت العديد من الأشجار بمقاماتهم وأضرحتهم ومن ثم نسج الخيال الشعبى عنها الكثير من المقولات والصفات فقد عبد العرب من كفار قريش بعض الأشجار ومن ضمنها شجرة سموها « ذات الأنواط » يقصدونها كل عام فيعلقون عليهم أسلحتهم ويعظمونها ويذبحون

عندها الذبائح ، كما عبدوا - كما ذكر السهيل - نخلات مجتمعة سموها العزى » (١) ·

وقد تغلغلت النباتات فى النسيج الفكرى الفلسطينى بصورة سيطرت على العديد من مناحى حياته الزراعية والطبية الشعبية وطقوسه السحرية فاطلق اسماها على العديد من مناطق عمرانه المتمثلة فى قراه ومدنه . كما زاوج بينها وبين تربة ارضه . فصاغ لذلك تجاربه هذه فى مثله الشعبى ·

وسنذكر بالدراسة تلك الأمثال الشعبية التى تناولت العديد من المعتقدات الشعبية الخاصة بالنباتات ومدى تأثيرها على كثير من مجالات الحياة الشعبية المتعددة ·

١ - النخيل

ان تاريخ شجرة النخيل فى بلادنا فلسطين موغل فى القدم ، قدم أجدادنا الأوائل بمدينة اريحا اول مدينة فى العالم حتى انها سميت « مدينة النخيل » تماما كما أطلق أجدادنا على مدينة عين جدى على ساحل البحر الميت « حصون تامار » ومعناها « رملة النخيل » · فكان للنخيل قدسية لديهم ، وعليه فقد وضعها أجدادنا الفينيقيون على مسكوكاتهم النقدية (٢) · التى عثر على العديد منها فى مدننا الفلسطينية (٣) ورسموها على آنيتهم وأدواتهم الفخارية وكذلك على أختامهم من «الجعارين» العربية الكنعانية التى عثر عليها فى « تل العجول » جنوب مدينة غزة (٤) ·

وكانت « النخلة » احدى الشعارات الدينية الأربعة التى قدسها العرب الآشوريون فى أرض الرافدين [المحراث - الثور - الشجرة المقدسة] · كما تم العثور على هذا الشعار على تاج يرجع لعصر اسرحدون ٦٨٠ - ٦٦٩ قبل الميلاد ، ورسموها على خرائطهم المجسمة وفى داخل

---

(١) سعد الخادم - الفن الشعبى والمعتقدات السحرية - الألف كتاب ٤٨٨ - القاهرة بدون تاريخ ص ٢٩ - ٣٠ ·

(٢) أحمد رفيق - بيوك تاريخ عمومى - استانبول - ١٣٢٨هـ ص .

(٣) سليم اليقى - النقود العربية الفلسطينية وسكتها الدنية الأجنبية - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - ١٩٨٨ ص .

(٤) M. A. Murray, Some Canaanite Scarabs, p. E.Q. 1040, pp. 93-99.

قصورهم كرمز للنصر تعود للفترة السومرية البابلية كشجرة مقدسة يقدمون ثمارها لآلهتهم (٥) ·

وهناك اعتقاد سائد بان آدم عليه السلام قد خلق وشجرة النخيل من طينة واحدة ، وعليه أصبح فانيا بعد خطيئته . لذا أصبح سائدا بان عصارة الحياة فى شجرة النخيل هى نفس العصارة الموجودة فى الانسان ومن ثم اطلق عليها ومازال « شجرة الحياة » ·

ومن ثم يرى العديد من ابناء الشعب الفلسطينى تشابها بين حياة الشجرة (النخيل) وحياة الانسان سواء أكان فى مظهر قامتها المنتصبة أم اسباب وفاتها التى تبدأ من رأسها كسبب لفنائها ·

ومما مكن الاعتقاد بهذه الشجرة ظهور ثمارها من التمر على المائدة التى ارسلها الله لسيدنا عيسى عليه السلام والتى تألفت فيما تألفت « من خمسة ارغفة على كل واحد منها خمس تمرات » (٦) · ومن ذلك نشا الاعتقاد بأن من أسباب حب المسيح لأمه هو البلح الذى استخدمته غذاء ·

وهناك العديد من النساء الفلسطينيات يسقين اطفالهن الصغار منقوع البلح لاعتقادهم بانه سيكسبه موهبة الحديث الجذاب · كما ان الكثير من النساء المسيحيات التابعات للكنيسة الارثوذكسية الفلسطينية يعتقدن بتناول بعض البلح من نخيل « مارسابا » وذلك لعلاجهن من العقم (٧) ومنهن أيضا من استمد من جمال سعفها الوارف وثمرها الطيب رسوماتهن لكى يطرزنها على ملابسهن كما يبدو ذلك واضحا على ملابس نساء مدينة بيت لحم ورام الله ·

وعزز الاسلام مكانة هذه الشجرة فى الفكر والوجدان الشعبى فقد جاء ذكرها فى عديد من السور فى القرآن الكريم [النحل - الرعد - الشعراء - الرحمن - الاسراء - المؤمنون - يس - مريم] ·

وبين الرسول عليه الصلاة والسلام فوائدها « من تصبح كل يوم

---

(٥) أحمد سوسة - تاريخ حضارة وادى الرافدين - الجزء الأول - بغداد - ١٩٨٣ ص ٤٧٩ ·

(٦) مجير الدين الحنبلى - الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل - الجزء الأول - عمان - ١٩٧٣ ص ١٦٣ ·

(٧) التراث والمجتمع - العدد ٥ المجلد الثانى - كانون الثانى ١٩٧٦ ص ٦٩ - ٧١ ·

صبح تمرات عجوة لم يضره فى ذلك اليوم سم ولا سحر » (٨) .

وهناك اعتقاد بأن الصخرة المشرفة بالقدس الشريف تجثم على شجرة نخيل نامية بالقرب من أحد جدران الجنة تشرب من ماء الحياة ، فقد جاء عن خالد بن معدان عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الصخرة صخرة بيت المقدس على نخلة والنخلة على نهر من أنهار الجنة وتحت النخلة آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران ينظمان سموط الجنة الى يوم القيامة » (٩) .

لذا أصبح لهذه الشجرة تأثيرها العميق على مناحى الحياة الشعبية الفلسطينية فاستخدموا من سعفها صناعة الحصر التى ترمز أحيانا للسحر فقالوا :

٣٨٢ ـ طول ما هو ع الحصيرة لا يشوف طويله ولا قصيره .

لما ينتاب النائم عليها من تراخ كما تعتقد بعض النساء .

كما استخدموا من سعفها اطباقا جميلة ومن جذوعها واليافها وقودا هذا بالاضافة لثمارها كغذاء من بلح وتمر ورطب وعجوة وعليه قالوا :

٣٨٣ ـ البلح شجرة البدوى .

كما قالوا :

٣٨٤ ـ البلح حلاوة بلا نار .

واستعاروا من لون البلح العديد من صفاتهم التى جرت على السنتهم بأقوال سائرة مأثورة كقولهم :

٣٨٥ ـ لونه بلحى .

وعند تحليلهم للجوانب النفسية والمظهرية لشخص اتصف بحسن النية على الرغم من مظهره قالوا :

---

(٨) مصطفى محمد عمارة ـ جواهر البخارى وشرح القسطلانى ـ بدون تاريخ ومكان ـ ص ٤٥٤ .

(٩) اتحاف الأخصا بفضائل المسجد الاقصى ـ تحقيق د. أحمد رمضان أحمد ـ القسم ـ الأول الهيئة العامة للكتاب ـ القاهرة ـ ١٩٨٢ ص ١٥٧ .

٣٨٦ ـ فلان زى البلحة تناه ابيض وجهه احمر .

اما اذا ما أرادوا وصف ليونته ورقته قالوا :

٣٨٧ ـ فلان زى العجوة .

كما يصفون الرجل اذا ما اشتد به الهزال والضعف قالوا :

٣٨٨ ـ فلان مثل الجريدة .

ولما كان طول القامة الفارع فى الوجدان الشعبى العربى عامة يتميز بالهبل ، نجد أن المثل الشعبى استعار من النخلة طولها فقالوا مثلهم :

٣٨٩ ـ الطول طول النخلة والعقل عقل سخلة .

ومن الذ ثمار شجرة النخيل «الرطب» وقد سجل الفلاح الفلسطينى مثله الذى دون فيه ميقات ظهور الرطب بنجم سهيل وظهوره فقال :

٣٩٠ ـ فى سهيل بهيل الرطب هيل .

٢ ـ القمح

القمح من أقدم الحبوب التى تعامل معها أجداد العربى الفلسطينى . فمن مدينة أريحا (*) صاحبة الملامح التاريخية العريقة والمتميزة بسماتها الرمزية الخاصة بها عن غيرها من مدن العالم قاطبة ، لم لا وهى أقدمها جميعا ، فقد امتزج الله بالقمح فى أرضها فبدأ منها الانسان حضارته الزراعية وزراعة القمح بصفة خاصة منذ الألف التاسع قبل الميلاد (١٠) .

وكانت منذ ذلك الحين للقمح مكانته فى كل منزل بكل قرية ومدينة عربية كنعانية على أرض فلسطين . فأرسلته مدنها لمصر أيام رمسيس الثالث (١١٩٨ ـ ١١٦٧ قبل الميلاد) كهبة وقربان للاله بتاح بمدينة هليوبوليس (١١) . لتوضح مكانة القمح فى أفئدتهم ووجدانهم . حتى خلدوا سنابلها بعد ذلك على نقودهم العربية الفينيقية الكنعانية التى مازال يعثر على العديد منها فى المدينة الفلسطينية الداخلية منها خاصة والساحلية بوجه عام . تماما كما قدسها أخوتهم العرب السومريون والبابليون حيث ازدانت بها ملابس الكهنة ممسكين بها بأيديهم يقدمونها للاله فى أثناء تأدية طقوسهم الدينية الخاصة .

وقد ساد الاعتقاد عند الشرقيين بأن القمح شجرة معرفة الخير والشر وانها كانت وسط جنة عدن حيث قطفها الثعبان وقدمها لحواء وهى فى حجم

(*) قامت بعثة الآثار البريطانية « كاتلين كينيون » بعدة حفريات بالمدينة وعثر مكتشفها .

(١٠) ج. برونوفسكى ـ ارتقاء الحضارة ـ ترجمة د. موفق شخاشيرو ـ عالم المعرفة الكويت ـ مارس ١٩٨١ ص ٢٣ ـ ٢٤ .

(١١) أحمد سوسة ـ تاريخ حضارة وادى الرافدين ـ المرجع السابق ص ٤٦٥ .

« الخيارة » ثم زرعتها حواء ثانية فأنبتت لها سنابل وقمحا بحجمه الذى نعرفه الآن (١٢) .

وجاء الاسلام وذكر القمح وسنابله فى آياته الكريمة ، وعليه انصب اهتمام العربى الفلسطينى نحو تقدير القمح بغلاف فيه رهبة الايمان ، فتراه لو عثر على فتات أو كسرة خبز ملقاة على الأرض رفعها باهتمام بالغ ومسحها وقبلها ثم وضعها فى مكان قصى بعيدا عن المارة ، فهى فى نظره « نعمة » ما بعدها ولا أفضل منها نعمة ، فلا عجب أن تسمعه يقول قولته السائرة :

٣٩١ ـ الخبز مصحف الله .

وبنفس المعنى والمضمون يقول أبناء الجنوب الفلسطينى :

٣٩٢ ـ الخبز ختمة .

وفى كثير من الأحايين تجدهم يحملون رغيفا من العيش ليقسموه الى من أنكر شيئا ما ليقسم عليه ان كان صادقا ، لما له من مكانة فى نفوسهم .

كما لم تحظ أية غلة بالتبريك والبسملة بمثل ما حظى القمح ودقيقه حيث يحرص العربى الفلسطينى بالبسملة عند بذرها ودرسها وكيلها وعند طبخها وعجنها ثم أكله .

وكما سبق لنا القول يقدم من قمحه بعد حصاده « صاع الخليل » للفقراء بركة على روح أبينا ابراهيم الخليل عليه السلام ، ومن خبزه يقدم « سماط الخليل » للفقراء وابن السبيل كما أوضحنا واقترن القمح وخبزه وكذا الخميرة بكثير من العادات والطقوس فى فلسطين .

فعندما يصل الطفل لمرحلة التسنين يقومون بعمل « البليلة » (*) له ويوزعوها على أطفال الحى أو القرية فرحين ومحتفلين بظهور أول سن من أسنانه وغالبا ما يتفرون لوجه الله توزيع « الجريشة » على الفقراء وهى مصنوعة من القمح المجروش المطبوخ باللحم .

وعند الأفراح يقومون بكسر رغيف من العيش فى وجه العروسة

---

(١٢) مجير الدين الحنبلى ـ الانس الجليل ـ الجزء الأول ـ المرجع السابق ٢٢٠ .

(*) البليلة : قمح مسلوق يرشون عليه أنواعا عديدة من الحلوى والسكر .

عند دخولها لبيت زوجها أول مرة حتى تعيش عيشتهم وتأكل من أكلهم كما يضعون في القرى الفلسطينية عجينة وريحانة على باب غرفة العروسة وبعضهم يضع « خميرة حديثة » كفال حسن للاخصاب والانجاب .

وتخريجا من قيمة « الخميرة » قالوا مثلهم الشعبي :

٣٩٣ ـ وجهك بقطع الخميرة من اللقان .

اى وجهه نذير شؤم يقطع « الخميرة » دليل التخمر وصلاح العيش والاكثار من « اللقان » اى الوعاء الفخاري الذي تعجن فيه المرأة الفلسطينية عجينها للخبز . ويرى البعض أن ذلك من التقاليد السحرية المتصلة بصناعة الخبز (١٣) .

فدور الخميرة أصبح واضحا وله مغزاه الذي استعاروه قائلين مثلهم :

٣٩٤ ـ اللي مالوش خميرة مايخمرلوش عجين

كناية عن وجوب المبـادرة بعمل الخير والصلاح حتى يتسنى له استقبال مردودها .

وصنع كبار الملاك من الفلاحين اختاما خشبية حفروا عليها آيات قرآنية او عبارات ذات دلالة دينية ، قاموا بختم حواف صليبة القمح في الجرن او البيدر وذلك منعا من محاولة سرقتهـا اي سرقة القمح من الصليبة ، ويرى البعض ان الأصل في ذلك يعود لختم الحبوب بأختـام الآلهة قديما او الأرواح المتصلة بها اى « آلهة الحبوب » فلا تتسرب لها ارواح أخرى (١٤) .

كما أن للقمح والشعير مدلولا آخر في التراث الشعبي صاغوه على هيئة سؤال تفاؤلي وأصبح دارجا كالمثل الشعبي قائلين :

٣٩٥ ـ قمحة والا شعيرة ؟

فان كان الجواب « قمحة » فهذا يعني التفـاؤل والعكس لو كان الجواب بـ « شعيرة » فالشعير ليس له أهمية القمح كغلة غذائية فيقولون :

٣٩٦ ـ الشعير ماكول ومذموم

لأنه وفق مثلهم الشعبي :

---

(١٣) سعد الخادم ـ الفن الشعبي والمعتقدات السحرية ـ المرجع السابق ص ٤٢ .

(١٤) سعد الخادم ـ الفن الشعبي والمعتقدات السحرية ـ المرجع السابق ص ٤٥ .

٣٩٧ ـ الشعير للبعير

وصنعوا من القمح « البرغل » الذي نافسه ظهور الأرز الذي يفوقه ثمنا وغالبا ما استخدمته الطبقات الغنية والميسورة حتى انهم رأوا أن :

٣٩٨ ـ رز الفقير برغل .

ونظرا لقيمة دقيق القمح كرمز للخير والنعمة قالوا :

٣٩٩ ـ اللي بتبعتر [يتبعثر] طحينه في الشوك يصعب عليه لمه .

كناية لمن يعمل المعروف مع غير أهله فمن العسير عليه تلقى مردوده .

واخيرا ياخذ البعض من اهلنـا مجموعة مكونة من سبعة أنواع من الحبوب [القمح ـ الشعير ـ الكرسنة ـ ذرة ـ عدس ـ فول ـ فاصوليا] ينثرونها امام بيوتهم يوم عيد الفطر لاعتقادهم بأن الانس والجن الذين طردوا من البيوت خلال شهر رمضان المبارك سوف لا يعودون ثانية (١٥).

---

(١٥) التراث والمجتمع ـ العدد ٣ المجلد الأول ـ تشرين أول ١٩٧٤ ص ١٢٠ ـ ١٢١ .

٣ ـ شجرة الخروب

يصل الظن بالانسان الشعبى الفلسطينى بأن المكان المفضل لنوم « الجن » هو تحت شجرة الخروب موضحين ذلك بمثلهم الشعبى القائل :

٤٠٠ ـ النوم تحت الخروب غير مرغوب .

وبنفس المعنى والمضمون والاعتقاد يقول أبنـاء الشمال الفلسطينى مثلهم :

٤٠١ ـ النوم تحت الخروب غير ممدوح .

ونفس الاعتقاد هذا ينسحب بالنســبة للنوم تحت شجرة التين الأسود من هنا يأتى التشاؤم والحيطة بل محاولة الامتناع عن النوم تحت ظلال هذه الشجرة ذات الظلال الوارفة والأوراق الدائمة الخضرة .

ويعزز هذا الاعتقاد الشعبى السلبى عنها أنهم يقرنوها بملـكية الكوكب « زحل » وهذا الكوكب يمثل الفال الشعبى السىء ، والذى لا يمت اليه شىء من الأشياء الا كرهوه ، فيكفى أن يصفوا أية شىء بأنه « زحل » سواء أكان انسانا أم جمادا أم حتى مجرد الحظ أم البخت ليدل على النظرة التشاؤمية ، حتى كاد اسم « زحل » يمثل مثلا شعبيا أو تعبيرا شعبيا دارجا فيقولون :

٤٠٢ ـ بخت زحل .

٤٠٣ ـ وجهه زحل .

وذات الحيطة يتخذونها عند أكل ثمار شجرة الخروب بقولهم :

٤٠٤ ـ مش الأصل أكل الخروب الأصل تصريفه .

لأن أكل « قرونه » أى ثمرته السوداء المعقوفة الناشفة والاكثار منها تسبب الامساك .

كما يكفى أن يوصف رجل بانه :

٤٠٥ ـ زى قرن الخروب

للدلالة على ضعفه ونحولته .

وعلى الرغم من هذه النظرة ، نجد أن شجرة الخروب (الخرنوب) فى بلادنا كثيرا ما اقترنت وظللت أولياء الله وأضرحة الصحابة والشهداء ، فكما سبق وأن ذكرنا « خرنوبة العشرة » بمنطقة القدس والذى أبدى مجير الدين الحنبلى عدم معرفته لأسباب هذه التسمية (١٦) فى حين فسرها الشيخ النابلسى بأنهم العشرة المبشرون بالجنة كما أسلفنا . تماما كما ذكر الرحالة ناصرو خسرو المتوفى سنة ١٠٦١ ميلادية عن زيارته لقبر هود بقرية عبلين بمنطقة حيفا التى تظلله شجرة خرنوب (١٧) .

---

(١٦) مجير الدين الحنبلى ـ الانس الجليل ـ الجزء الثانى ـ المرجع السابق ص ٦١ .

(١٧) مصطفى الدباغ ـ القبائل العربية وسلائلها فى بلادنا فلسطين ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٨٦ ص ١٧ .

٤ ـ شجرة البلوط

يسود الاعتقاد الشعبى لدى العديد من أبناء القرى الجبلية الفلسطينية حيث تنمو هذه الشجرة بأنها قرينة « الجن » ومن ثم فان قطعها مذموم فيقولون :

٤٠٦ ـ لا تقطع البلوط لانه مسكن الجلوط .

والجلوط أو الجلوت تعنى الشياطين وفى المفهوم الشعبى تعنى اسم جن عملاق (١٨) ومما هو جدير ذكره « بلوطه ممرا » بمدينة الخليل وما لها من ذكريات حيث يطلق عليها « بلوطة أبينا ابراهيم الخليل » عليه السلام .

(١٨) مجلة التراث والمجتمع ـ العدد ٥ المجلد الثانى ـ كانون الثانى ١٩٧٦ ص ٨٨ .

٤٠٧ ـ كول جميز واشرب ميه (ماء) وايش ما جرالك على .

واصبحت معلما جغرافيا وحدا فاصلا يحددون بواسطتها ملكياتهم الزراعية لأنها من الأشجار المعمرة .

وكثيرا ما تثير هذه الشجرة شجون أبناء مدينة غزة وقراها الشمالية عندما يقولون قولتهم المأثورة والتى تخرج من افواههم بحنان ملؤه الذكريات :

٤٠٨ ـ جميزة صالحة يا مفرقة الخلان .

وجميزة صالحة تلك الجميزة الواقعة على الطريق بين غزة والمجدل وبالقرب من قرية هربيا على الطريق الرئيسى ، فكانت لهم بمثابة الحد الذى يعودون لبيوتهم عندها بعد أن يودعوا أولادهم المطلوبين للجندية ايام الفترة العثمانية .

ومن ضخامة جذع هذه الشجرة وامتداد فروعها استمدوا مثلهم الشعبى القائل :

٤٠٩ ـ التخن ع الجميز .

وكأنهم بذلك يهزأون على السمنة التى لا مبرر لها حيث لم تعد لهذه الشجرة مكانتها التى سبقت .

٥ ـ شجرة الجميز

هذه الشجرة من الأشجار الرئيسية التى عبدها أجدادنا الكنعانيون ، ثم دارت حولها الكثير من المعتقدات بعد ذلك ، فقد قال ابن الكاتب الشاعر ان بمدينة غزة وفى أيام أحد الأنبياء كان الجنود يحملون سلاحهم ألف شهر حتى عدوا من العباد ، فانزل فيهم ليلة القدر التى هى خير من ألف شهر أى تلك الشهور التى كانوا يحملون فيها السلاح ، وقد كانوا يقتاتون من جميز غزة الذى يطرح كل سنة مرة واحدة ، فدعا نبى الله ربه أن يحمل كل سنة سبع مرات (١٩) ٠

وقد تغزل بهذه الشجرة كثير من الرحالة من أمثال ياقوت الحموى وابن بطوطة والجغرافى المقدسى الذى يذكر أن جده صنع من أخشاب الجميز أجزاء من ميناء عكا الفلسطينى أيام أحمد بن طولون (٢٠) ٠

كما وصف « ابن بطوطة » سطر الجميز الممتد بين مدينتى رفح وغزة والبالغعددها وفقا لرأيه حوالى ألف شجرة (٢١) ولعل ما تبقى منها للآن من « سطر الجميز » ما أضفى للمنطقة الواقعة الى الشمال من مدينة خانيونس الآن اسم « السطر » ٠

ومازالت هذه الشجرة تزرع بكثرة فى شتى أنحاء مدينة غزة وقراها لملاءمة الظروف المناخية لها فهم يقولون (٢٢) :

---

(١٩) الشيخ احمد بسيسو ـ كشف النقاب فى بيان أحوال سكان غزة وبعض نواحيها من الاعراب ـ مخطوط ـ غزة ١٣١٥هـ ص ٤٢ ٠

(٢٠) د٠ السيد عبد العزيز سالم وزميله ـ تاريخ التجربة الاسلامية ـ ج ١ ـ مؤسسة شباب الجامعة ـ الاسكندرية ١٩٧١ ص ٤٩ ٠

(٢١) رحلة ابن بطوطة ـ مهذب رحلة ابن بطوطة ـ تهذيب وضبط أحمد العوامى وزميله ـ القاهرة ١٩٣٤ ٠

(٢٢) سليم المبيض ـ الجغرافيا الفلكلورية ـ المرجع السابق ص ٢٢٤ ٠

٦ ـ شجرة الرمان

شجرة قديمة زرعها أجدادنا الكنعانيون فى الأرض الفلسطينية منذ آلاف السنين واتخذوا من عصاراتها نوعا من الخمور ، كما استخرجوا من قشورها مادة يلونون بها معابدهم (٢٣) ٠ وحتى فترة زمنية وجيزة كان الصباغون يصبغون ملابسهم بها ٠

ويرى البعض أن الهكسوس نقلوها من فلسطين لمصر خاصة وان الفراعنة كانوا يسمونها « رمن » فى لغتهم (٢٤) ٠

ومازال العديد من أبناء القرى الفلسطينية يرون أن هذه الشجرة مباركة وان بكل « حبة رمان » بذرة من بذور الجنة ، وهى أيضا من ضمن الفواكه التى ظهرت على المائدة التى نزلت على سيدنا عيسى ٠

من هنا جاء الحرص الشعبى الفلسطينى على عدم التفريط فى أية بذرة من بذورها كما يسقون أطفالهم من عصيرها تمشيا مع المثل القائل :

٤١٠ ـ الرمان بيملى القلب ايمان ٠

وقد ذكر ابن سينا خصائص ثمرة هذه الشجرة نقلا عن على ابن أبى طالب رضى الله عنه قوله « انه ما من حبة منه (الرمان) تقوم فى جوف رجل الا انارت قلبه وأخرست شيطان الوسوسة أربعين يوما » (٢٥) ٠

---

(٢٣) سليم المبيض ـ الجغرافيا الفلكلورية ـ المرجع السابق ص ٢٣٩ ٠

(٢٤) وليم نظير ـ الزراعة فى مصر الاسلامية ـ مراقبة التحرير والنشر ـ القاهرة ١٩٦١ ص ٦٦ ـ ٦٧ ٠

(٢٥) الدميرى ـ حياة الحيوان ـ الجزء الثانى ـ المرجع السابق ص ١٦ ٠

وكان لامتلاء حبة الرمان ببذورها بشكل هندسى بديع وخلاب أبدعها الخالق ما لفت انتباه الفكر الشعبى فاتخذوا منه مثلا للبيوت الكثيرة الأولاد فقالوا مثلهم :

٤١١ ـ البيت متلان زى حب الرمان ٠

ومن وحى الامتلاء هذا استعاروا مثلهم الشعبى :

٤١٢ ـ الحكاية مش حكاية رمانة هادى قلوب مليانة ٠

رمزا ودلالة على من يتمحكون للمشاكل لأتفه الأسباب ٠

٧ ـ شجرة السدر

هذه الشجرة لها مكانتها ، حتى ان معظم الناس يحرمون قطعها وكثيرا ما دارت حول ذلك العديد من القصص الشعبية لذا نراها كثيرا ما تظلل أضرحة أولياء الله الصالحين فى مدينة غزة [سدرة الخرونى فى غزة ـ سدرة المفزا بقرية الدميشة وسدرة أم عامر بقرية عبسان] وقد نسجوا عنها العديد من الحكايات والقصص التى لا تخرج عن أهميتها ودلالتها الروحية والدينية ٠

ويتخذ أبناء فلسطين (فى غزة) من أوراقها مخدة يضعونها تحت رأس المتوفى ، كما يعلق على أغصانها المرتفعة بعض « الحجب » خاصة تلك التى تدعو للوفاق بين الزوجين ٠

وهكذا ترسخت النباتات فى النسيج الفكرى الشعبى الفلسطينى فاصبح ينظر اليها كآية من آيات الخالق المبدع ، ويفكر مليا قبل قطعها ايمانا منه بأنها « تسبح خالقها » ٠ ألم ينه أجدادنا من الخلفاء الراشدين حتى جيوشهم عن قطع الأشجار ؟! حتى تجد الفلسطينى يقسم أحيانا بها تلقائيا قسما أصبح شائعا شيوع المثل بقوله :

٤١٣ ـ وحياة ها العود والرب المعبود ٠

وامتد هذا التأثير فى أفئدة الشعب فأطلقوا على العديد من قراهم ومدنهم بفلسطين أسماء هذه النباتات من أقصاها شمالا حتى أبعد أجزائها جنوبا (*) ٠

(*) منها على سبيل المثال لا الحصر : سمسمة البرانية ـ الصفصاف ـ لوبيا ـ الخروبية ـ رمانة وكفر رمان ـ أم التوت ـ دالية الكرمل ـ قرية العنب ـ بير عدس ـ خربة العدس ـ تمرة ـ دير الحطب ـ دير الغصون ـ تل الترمس ـ دير البلح ٠

ولقد بلغت هذه النباتات حدها فى التأثير على نسيج الأمثال الشعبية فاستعار الانسان الفلسطينى من لونها وطعمها وشكلها ومميزاتها العديد من أمثاله الشعبية التى توضح كثيرا من قيمه الاجتمــاعية وخصائصه النفسية وتكوينه الاقتصادى ماليس بالهين سرده ، ولكننا سنردها جميعا ونورده كلا فى مجالها .

الفصل الرابع عشر

أمثـــال
الطقوس السحرية والقصص الخرافية

● السحر ★ الرقى ★ الحسد ★ البخت ★ النميمة ...

أمثال الطقوس السحرية والقصص الخرافية

لقد كان اجدادنا العرب الكنعانيون يمارسون السحر والعرافة وكذا التنبؤ بالغيب بشكل تقليدى اعتادوا عليه وألفوه ، وقد دلت العديد من الحفريات الأثرية على الكثير من التمائم فى مناطق فلسطينية عدة تعود للفترة الزمنية الواقعة ما بين ١٦٠٠ ـ ١٢٠٠ قبل الميلاد ، فتمائم مدينة « مجدو » الفلسطينية كانت معظمها مصنوعة من القيشانى بينما تميزت تمائم منطقة « تل العجول » جنوب مدينة غزة بأنها من الفضة وعلى هيئة كبش أو ضفدع من العقيق الأحمر (١) . ويعتقد الكثيرون ممن أرخوا للسحر بأن البابليين والآشوريين وفراعنة مصر هم أول من قاموا بهذه الأعمال .

وقد ارتبط السحر فى مجالات عديدة عن بعض العادات والصناعات الشعبية الفلسطينية متسلسل عن معتقدات دينية منذ آلاف السنين ، فهى نتاج لتراكمات تاريخية ، واحترافه ومزاولته لشتى فروع أنواع الحرف الزراعية والصناعية والمعدنية وكذا الأسرية فاستمر على صلته ـ ولو بقدر ـ مع هذه الجذور القديمة المديدة .

فمازلنا حتى اليوم نجد فى قرانا ومدننا تلازما واضحا بين القديم والحديث فالأطباء نجد معهم الطب الشعبى تماما كما نرى الفصل فى المشاكل عن طريق المخاطيط والمخاتير والوجهاء جنبا لجنب مع القوانين الوضعية الحديثة .

---

(١) مصطفى الدباغ ـ بلادنا فلسطين ـ الجزء الأول القسم الأول ـ المرجع السابق ص ٤٩٣ .

وتقودنا العديد من الأمثلة الشعبية التى يرددها الشعب الفلسطينى على العديد من مجـــالات السحر التى تغلغلت الى حـــد داخل المجتمع الفلسطينى فى فترات التسيب الادارى والضعف السلطوى وتفشى الفقر والأمراض · مع ما يلازم ذلك من انتشار الخرافات والخزعبلات واللجـوء للسحرة ·

ففى مجال الصناعات المحلية هناك من يرى ـ وكما سبق ذكره ـ بأن صناعة « الحصر » وترديد المثل السابق « طول ما هو ع الحصـــيرة لا بشوف طويلة ولا قصيرة » دلالة على ما ارتبط بهذه الحصر من سـحر حيث ترى المرأة أنه ما دام زوجها ينام عليها فلن يتزوج ، كذلك صنعوا « الضبة والمفتاح » لضمان غلقه وأمنه ، واتخذوا منهما كناية عن الذكر « المفتاح » والانثى « الضبة » خاصة عند حالة الولادة فيسألون سؤالهم المثلى الدارج :

٤١٤ ـ ضبة والا مفتاح ؟ ·

ومن الغريب أن بعض القبائل الافريقية [الدوجان] التى تعيش فى غرب افريقيا ترى أن الضبة والمفتاح رمزان للانثى والرجل الأوليين فى الخليقة (٢) ·

وهناك طقوس خاصة بالحيوانات فيما هو المثل الشـــعبى المعروف والقائل بأن :

٤١٥ ـ الغزالة الشاطرة بتغزل برجل حمار ·

فيرى البعض أن لعظمة الحمار خاصة عظمة ساقه تأثيرها السحرى كثيرا ما تستخدم لتحول دون وفاة الأطفال عند ولادتهم ، لذا بات فى الاعتقاد الشعبى بأن الغزالة لو استعانت بهذه العظمة ستنجز ما تريد لخبرتها بالعزائم ·

وفى الوجـــه القبلى بمصر كان قديمـــا يرمز الى الاله الفرعونى « ســت » (٣) ·

كما قامت بعض القبائل البدوية بغسل الأطفال ببول الماعز طلبـا واعتقادا منهم بتقوية أعضائهم الجسمية ، وان بعض النساء كن يشربن الماء

---

(٢) سعد الخادم ـ الفن الشعبى ـ المرجع السابق ص ٤-٦ ·

(٣) سعد الخادم ـ الفن الشعبى ـ المرجع السابق ص ٥٣ ـ ٥٤ ·

المتخلف بعـــد شرب الفرس الأصـيلة منهن بأنهن سيحملن اطفـــالا أقوياء (٤) ·

كما دارت العديد من قصص الخرافات عن الحيوانات ، منها ما دار حول « الكلب » الذى يقوم بحراسة الأغنام فيقول :

٤١٦ ـ الله يكتر اولاد اهلى لقمة لقمة ملوا بطنى ·

وأما عن القطط التى غالبا ما تكره اللعب مع الأطفال ، جاء على لسانها :

٤١٧ ـ الله يقطع أولاد أهلى دبة دبة قطعوا ظهرى (٥) ·

كما لا يجرؤ على قتل القطط أحد لاعتقادهم بأن الله سينتقم من قاتلهـــا ·

٤١٨ ـ خطية القط ما بتنط ·

وان القطط :

٤١٩ ـ البسة بسبع ترواح ·

وهكذا تدور العديد من الحكايات والخرافات القديمة التى يتناولها أبناء الشعب من قبيل التسلية من الخراف والماعز والفار والخلد والخنزير أما عن الغزال اذا ما طارده صـــياد ، فيرون أن بمقدور المرأة أن توقفه لو صرخت بما يشبه المثل الشعبى عليه قائله :

٤٢٠ ـ يا غزال ريم ريم ما وراك الا الحريم ·

عندها يقف وكأنه يريد بذلك التحقق من المنادى ، ثم لا يلبث أن يواصل العدو هربا ، لكن اذا ناداه رجل قائلا :

٤٢١ ـ يا غزال حاصى حاصى (*) ما وراك الا الرصاص ·

فانه لا يتوقف ويواصل الفرار للنجاة (٦) ·

أما عن الأفعى فهناك مثل شعبى يقول :

---

(٤) Jaussen. A. Causlumes de; Arabes au pays he Maab, Paris, Gabalda, pp. 23.

(٥) اسطفان اسطفان ـ الحيوانات فى الخرافة الفلسطينية ـ ترجمة سعيد العطارى ـ مجلة التراث والمجتمع ـ العدد ٤ المجلد الأول كانون الثانى ١٩٧٥ ص ١٠٣ ـ ١٠٤ ·

(٦) حاصى : بمعنى احذر او انتبه ·

٤٢٢ ـ زى الحية لا تحفر بيت ولا بتنام في العرا ·

وهذا ناتج عن حوار كالتالى :

قيل للحية انت بتقرصى وبتموتى ولا بتقرصى وبتموتى ؟

أجابت : لا ·· بقرص وبموت ·

عندها قال الله : روحى مسكنك الخراب وماكلك التراب ، ومن هنا جاء المثل الشعبى عنها (٧) ·

وهناك طقوس شعبية بالنسبة للمعـــادن فقد اعتقــد أجدادنا الكنعانيون منهم والفينيقيون باله أسموه « حدادا » وهو اله الرعد معتقدين بأنه هو الذى يضرب بمطرقته على السنديان ليحــدث الرعد وهو فى السماء ، كما عرف العصر الحديدى على أيدى الفلسطينيين الذين اشتهروا بصناعته ·

مما أورث للحدود والحدادة بوجه عام لدى العديد من المجتمعات منذ القدم مكانة تصل به لدرجة الكاهن كما فى غرب السودان وشمال أفريقيا والتبت (٨) ·

كما أوضح الكتاب الكريم أهمية الحديد فى العديد من الآيات فقد جاء فى قصة النبى داود « وألناله الحديد » وجاء فى آية أخرى « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد » صدق الله العظيم ·· فتأثر المثل الشــعبى بذلك قائلا :

٤٢٣ ـ الحديد بالحديد يفلح

وكذلك :

٤٢٤ ـ لا يفل الحديد الا الحديد ·

كما شبه الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام جليس السوء بالجالس قرب الحداد فاتخذ المثل الشعبى على أثر ذلك قولته المأثورة الدارجة :

٤٢٥ ـ من جاور الحداد انكوى بناره ·

وقال المثل الشعبى الذى يفوه به أبناء البادية الفلسطينية بوجــه خاص على هيئة قسم :

(٧) التراث والمجتمع ـ العدد ٤ المجلد الأول ـ كانون الثانى ١٩٧٥ ص ١٠٦ ·
(٨) سعد الخادم ـ الفن الشعبى ـ المرجع السابق ص ٧٦ ·

٤٢٦ ـ وحياة حميد فكاك العبيد من الحديد ·

وحميد هذا له مزار على شاطىء البحر الأحمر بأرض الحجاز « مرسى الشيخ حميد » ، حيث يقال عنــه والرواية على ذمة قبــائل الحويطات والاحيوات بأنه هجم على سجن العقبة وحرر مسجونيها بعد أن فك قيدهم الحديدى أو كسره (١٠) فأصبح لهم فيه اعتقاد ·

ولا ننسى استخدام « طاسة الرجبة » النحاسية لليوم بالنسبة لمن يتعرضون لمفاجآت غير سارة ·

ومازال البعض يستخدمون « الرصاص » لعلاج من يعانون من أزمات نفسية وأحيانا لمن يدعوه أبناء الشعب « المربوط » وذلك باحضار سبع رصاصات يشترونها من العطار ويقومون بوضعها على النار حتى تنصهر ثم يصببونها فوق صينية مملوءة بالماء وموضوعة فى « منخل أو غربال » وهم جميعا فوق رأس المريض لتحدث صوتا ، وبعد أن تتجمد تأخذ شكلا معينا يفسره المعالج [وهو غالبا من المشعوذين] اعتقادا منهم أنه سيشفى بعد ذلك ، لكن التجربة الشعبية ممثلة فى مثلها تقول :

٤٢٧ ـ القراية ع الراس أفضل من الرصاص ·

أى أنهم يفضلون قراءة بعض آيات من القرآن أو ما يسمى « الرقى » عن عملية الرصاص وفرقعتها بأسلوب الشعوذة ، قائلين :

٤٢٨ ـ القراية ع الراس زى السحر ·

ويمارس هذه العادة غالبا كبار السن من الرجال والنســاء ممن يتمتعون بسمعة طيبــة وأهل تقوى وصلاح حيث يلقبونهم « بالصلاح » وأحيانا « مبروك » أى يتباركون بهم ، وهؤلاء لا يتقاضون أجرا البتة ، لذا زادت محبتهم واقتربت منهم النــاس وفضلوهم عمن ســواهم من المشعوذين المحترفين ·

وأغلب النساء اللواتى يمارسن الرقى هم من العجائز الفاضلات فيصفوهن بمثلهم :

٤٢٩ ـ قاطعة الحيض والبيض ·

أى عجوز كبيرة ونقية طاهرة · وفى العادة أيا كان الاختلاف فى الاستعانة بالرقى فان غالبية الشعب يجيزه ولا أدل على ذلك مما روى أن

(٩) عارف العارف ـ القضاء بين البدو ـ المرجع السابق ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣ ·

الرسول صلى الله عليه وسلم اشتكى فرقاه جبريل عليه السلام فقـــال « بسم الله أرقيك ، من كل شيء يؤذيك ، والله يشفيك » (١٠) .

وقيل عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وســـلم يعود الحسن والحسين ويقول : « أعيذكما بكلمـات الله التـامة من كل شيطان وهامة (*) ومن كل عين لامة (**) » ويقول :

« هكذا كان أبى ابراهيم يعوذ ابنيه اسماعيل واسحق » (١١) .

وهناك من يدحض الرقى ويناقضـــه كما روى جابر حيث قال : قال الرسول عليه الصلاة والسلام « ان لله عبادا لا يكتوون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون » .

ويرى الرازى أن هذا النهى عن الرقى المجهولة التى لا تعرف حقائقها جائز ومحتمل أما ما كان له أصل موثوق فلا نهى عنه (١٢) .

وعندما يقوم احد الكبار سواء أكان رجلا أم امرأة بالرقى لشخص ما يقوم بوضع يده اليمنى على رأسه قائلا :

٤٣٠ ـ أولها بسم الله .
وثانيها بسم الله .
وثالثها بسم الله .
ورابعها بسم الله .
وخامسها باسم الله
وسادسها باسم الله .
وسابعها بسم الله .
وثامنها بسم الله .
وتاسعها بسم الله .
وعاشرها ألف ألف لا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم .
رقيتك واسترقيتك
من عين أمك وابوك .
ومن عين الى حسدوك

(١٠) الامام محمد الرازى فخر الدين ـ قصة السحر والسحرة فى القرآن الكريم ـ مكتبة القرآن ـ القاهرة ١٩٨٥ ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣ .
(١١) نفس المرجع السابق .
(★) هامة : أى الأفعى .
(★★) عين لامه : أى حاسدة والمصيبة بالسوء .
(١٢) الامام محمد الرازى فخر الدين ـ المرجع لسابق ٢٠٤ .

حطيت ايدى
واتوكلت على ربى
من عين شافتك وما صلت ع محمد .
اللهم صل على سيدنا محمد
وعلى أحباب سيدنا محمد .
عين الحاسود فيها عود .

ولو أمعنا النظر نجد أن هذه الرقى من حيث كلماتها ومعانيهـــا ونظمها شبيهة بتلك التى تدور فى الاقليم العربى المصرى (١٣) كما أنها من حيث المعنى والوزن تطابق ما رقى به الرسول الكريم دليل التقيد بسنته والتشبه بها ومحاكاتها . وأخيرا أعربت المراة الفلسطينية عن تجربتها بالرقى مع زوجها بمثلها الدال على عدم قناعتها :

٤٣١ ـ لو انى برقى جوزى ما طلع من عرقى .

ما الذى يدفع العديد من الناس خاصة النسوة منهن عند دخولهن لبعض الأماكن أو رشقهن الماء الساخن خاصـة والمياه العادية عامة عند عتب الباب أو فناء الدار أن يقولن :

٤٣٢ ـ دستور يا أهل ها المكان وكل مكان .

أو :

٤٣٣ ـ دستوركوا يا مباركين .

وكأنهن بذلك يستأذن أو يطلبن الاستئذان والأمان من قوى خفية على الانسان ، وكأنما تربطهن بهم دساتير وأعراف تتضمن قواعد سلوكية معينة عليهن اتباعها قبل اتيانهن بأى عمل .

حتى اننا نجد البعض يفسرون المثل الشعبى القائل :

٤٣٤ ـ الحيطان الهـــا ودان .

والمثل الآخر :

٤٣٥ ـ لا تحك بامان الحيطة الها ودان .

بأن معناه أصلا أن الجدران أرواح تسكنها ممن يكرهون سماع مثل هذه الأقاويل [الأرض الحيطان مسكونة] فيحذرون الناس أو يخيفوهم

(١٣) احمد رشدى صالح ـ الأدب الشعبى ـ المرجع السابق ص ١٧٣ .

من التحدث عن الآخرين بما يكرهون · وربما كان مرد ذلك ارتباطه بفكرة سيادة القوى الخفية على الانسان مما يدفع العديد من أفراد الشعب لليوم أن يذبح الذبائح أو النذور على عتب المنازل اذا ما سكنوها أول مرة ثم يلطخون أكفهم بدمائها ويطبعونها (الكف أو الخمسة) على جدران الحائط منعا للحسد أو سكنى الأرواح الشريرة ، وربما يذكرنا هذا بأجدادنا الذين كانوا يذبحون القرابين لآلهتهم والتى انتهت بمقدم أبينا ابراهيم عليه السلام عندما بدأ يذبح الفدية « وفديناه بذبح عظيم » ·

صدق الله الظيم ·

وهكذا أصبحت للأرض وتربتها مكانة فى النفس العربية الفلسطينية تعددت استخداماتها حتى وصلت لتطهير آنيته أحيانا من الدنس بطينها ، حتى غدت فى وجدانه بأنها كالحنة التى يعتز بتخضيب بدنه بها فيقول :

٤٣٦ ـ من طين بلادك حنى خدادك ·

وكثيرة هى الأمثال الشعبية الفلسطينية التى تغزل بها شعبنا بالأرض وتربتها من حيث ملكيتها وأنواعها وأوصافها حتى خصائصها الجيولوجية ومدى ارتباط كل نوع منها بأنواع النباتات (١٤) ·

(١٤) لمعرفة هذه الأمثال ارجع لكتب المؤلف ـ الجغرافيا الفلكلورية للأمثال الشعبية الفلسطينية ـ باب الأرض ص ٢٤٣ ـ ٢٥٧ ·

العين والحسد

الحسد ما تمنى الانسان زواله عن أخيه الانسان من نعم سواء أكانت مادية أم معنوية ، ووسيلته من وجهة النظر الشعبية فى ذلك هى « العين » الحاسدة المتميزة اما بصفارها « أبو عين صفره » أو حدتها واتساع حدقتها أحيانا « كالعيون الجاحظة » مع ما يلازمها من شهيق عند تركيز الحاسد على الشخص الذى يظن بأنه محسود ، وعليه يقولون :

٤٣٧ ـ عيون لكبار خراب ديار ·

فهل هى عيون كبار السن ؟ أم العيون الكبيرة الجاحظة الحاسدة ، أيا كانت الاجابة تبقى العين هى وسيلة الحسد وعليه حكموا على العين الحاسدة بمثلهم القائل :

٤٣٨ ـ العين اللى بتصيب قلعها حلال ·

أو :

٤٣٩ ـ عين الحاسود فيها عود ·

وفى كلتا الحكمتين يؤكدون بغضهم واشمئزازهم من الحاسد وشره فهى اذن مكروهة وقد استعاذ بها رسول الله كما سبق وأوضحنا ، كما جاء فى كتاب الله « ومن شر حاسد اذا حسد » صدق الله العظيم ·

ويصنف المجتمع الشعبى الناس ومن مثلهم الشعبى بأنهم :

٤٤٠ ـ الناس يا فسد يا حسد ·

فالبعض اما حساد يتمنون زوال النعم عن الآخرين واما فسدة يبذرون الضغائن والفتن بينهم ، وكلاهما ممجوج ويلفظه الشعب ، وفى

الوقت نفسه يشجعون الغيرة الفاضلة الحافزة والمحبة لتقليد الغير عن الحسد فقالوا :

٤٤١ ـ الغيرة أحسن من الحسد ٠

ويهزاون بالحاسد عندما تصل به الدناءة لحسد أشياء ضئيلة ونعمة متواضعة لشخص بسيط فيرجمونه بمثلهم الشعبى الذى ينم عن الاستغراب والاستهجان بقولهم :

٢٤٢ ـ حاسد القط ع كبر ديله ٠

وعليه حكموا عليه بمثلهم القائل :

٤٤٣ ـ الحسود لا يسود ٠

وبايمانهم العميق بربهم واهب الأرزاق وحده ، ومقسم النعم على عباده يسألون الحاسد بتهكم ومن خلال مثلهم الشعبى المعبر :

٤٤٤ ـ ايش بده يعمل الحاسد مع الرازق ؟! ٠

وعليه كانت هناك عدة طرق شعبية لمقاومة الحسد والحاسد اذا ما اكتشفوه من خلال نظراته بأن يردوا عليه فورا وفى قلوبهم بكلمة « اخص » أو « خمسة فى عين الشيطان » وأحيانا « خمسة وخميسة » ٠

وأحيانا يردون بصوت مرتفع وبأسلوب مغلف بالطيبة المشفوعة بابتسامة خفيفة قائلين « اليوم الخميس » ظنا منهم أنها تعابير وأقوال شعبية دارجة تمنع الحسد وترده ٠

وهناك طرائق أخرى كان يضعوا على طاقية الطفل أو على كتفه « خمسة وخميسة » أى كف مصنوع من المعدن ومعه خرزة زرقاء وقطعة من الشبة ٠

أما أبناء البادية الفلسطينية فيضعون على كتفهم ما يسمونه « جلدة اللجاة » من سلحفاة البحر ، وهناك فى البادية من تخصصوا فى عمل التعاويذ والحجب ويسمونهم باسم « الخطباء » ٠

وأحيانا يضعون على مساكنهم الجديدة منعا لحسدها اما عروسة من القماش » أو « صحن فارغ » أو « جمجمة راس جمل » أو صرة من الملح والصوان » منعا لحسدها ٠

ولما بدأ الشعب ينظر لهذه التعاويذ والحجب والوصفات نظرة غير واقعية لحد كبير أخذ يستخف بواضعيها بل أصبحت مجرد فكاهة يتندرون بها على أولئك الذين يصيبهم الغرور ويثمنون أنفسهم بأكثر مما يستحقون ، عندها يقولون لهم قولتهم المأثورة :

٤٤٥ ـ بدك شبة وخرزة زرقا ٠

استخفافا بهم ، لكى يفيقوا ويكفوا عن الخيلاء والتفاخر بما ليس فيهم ٠

البخت

لسنا فى مجال احصاء الوسائل أو الطرق وما يتبعها من ممارسات وطقوس وتحليلها بالنسبة لمعرفة البخت سواء بالمندل أو الفنجان أو الكف أو بمجرد النظر . لكننا بصدد المردود الشعبى حيال هذه الممارسات من خلال المثل الشعبى وموقفه من « الحظ » أو البخت بالمنطوق الشعبى . فالمثل الشعبى يرى أن :

٤٤٦ ـ الدنيـا بخـوت .

يقولها وكأنه المتنفس الوحيد لعملية الاسـقاط المفرغة لشحنات الاحباط التى تملأ ما أصاب هذا الانسان من مشاكل وتحديات جعلته ينطق بهذا المثل وكأنه يرفض مجال الاجتهاد أو قام به ولم ينجح . حتى نطق بمثله الشعبى الآخر :

٤٤٧ ـ اللى ما لو بخت لا يتعب ولا يشقى .

وهناك تجربة شعبية أخرى أقل وطأة من سابقتها وأكثر واقعية لحد ما تقول :

٤٤٨ ـ السـعد وعـد .

هكذا ترى بأن السعادة هى وعد من الله يؤتيها لمن يشاء من عباده فهناك العديد من الأمثال الشعبية التى تعالج « الحظ » والمحظوظين وكذا التعاسة والمتعوسين نجد أنها تضغط على الفئة الأخيرة وتركز عليها ولا تكاد الفئة الأولى تحظى بأى نصيب من الأمثال الشعبية ويعود لذلك لعدم ايمان غالبية الشعب الذين مارسوا الزراعة والصناعة والتجارة منذ آلاف السنين ورأوا ولمسوا حصيلة مجهوداتهم ، فلم يجدوا تبريرا للحظ أو البخت ولم يقتنعوا به وتركوه تعلة للمتقاعسين الذين يرددون أمثالهم :

٤٤٩ ـ البخت الحزين من أوله .

٤٥٠ ـ اجت الحزينة تفرح ما لقت لها مطرح .

٤٥١ ـ على بخت الحزينة سكرت المدينة .

٤٥٢ ـ الطوبة وقعت فى راس المعطوبة .

٤٥٣ ـ جابوا السمك الفايت للحزانة تقشروا .

٤٥٤ ـ بيعطى الحلق للى مالهاش ودان .

ويعطى الفول للى مالوش سنان .

وأخيرا يقولون :

٤٥٥ ـ المتعوس متعوس لو حطوا فى (قفاه) فانوس .

أمثلة تؤكد باصرار حتمية التعاسة لفئة الحزانى والتى لم تخرج هذه الأمثلة الا منهم ومن خلال معاناتهم واكتوائهم بنار بطالتهم المتعمدة أو المقنعة وهم فى الغالب من أصحاب الحرف أو المهن المعرضة للكساد فلا مجال أمامهم لتبرير موقفهم الا بالحظ والبخت فتراهم يتساءلون بأقوالهم المأثورة .

٤٥٦ ـ هوا بخت والا تخت ؟! .

بل ويقيمون البخت بأغلى الأثمان ، امعانا لرفضهم المثابرة فيقولون :

٤٥٧ ـ أصبع بخت ولا خزاين مال .

ويصل بهم التشبيه هذا لحد المثل القائل :

٤٥٨ ـ لما السعد بيآتى بخلى الأعمى ساعاتى .

هكذا بلغ بهم الحد لكى يجعلوا من فاقد البصر يلعب بأدق الآلات صنعا ودقة وحساسية ، فهاهو واحد منهم ربما عصرته الأيام فاقترب من زوجته يبث فيها لوعته ويؤكد لها بأن الحظ ليس قدرا محتوما ولا كل الليالى والأيام بخوت بل هى موزعة :

٤٥٩ –

قال بالله لا تزعل يا أم غانم — ولا تحسبى كل الليالى بخوت
فيهم من اللى نام على جردل الوطا* — وفيهم من اللى نام فوق تخوت
وفيهم من اللى يشرب لبن رايب — وفيهم من اللى يشرب لبن مكحوت**
وفيهم من اللى يعطيه خير بنعمة — وفيهم من اللى يعطيه قوت بقوت
وفيهم من اللى يعطيه بيضة غريرة*** — تضوى فى بيته كما الياقوت
وفيهم من اللى يعطيه بلوة مصبرة — وتضل فى وجهه لما يموت

وتبقى كلمة الشعب لها الحكم والفصل فى موضوع الحظ والبخت وممتهنوها من الفتاحين والمبصرين والمشعوذين فيبت فيها المثل الشعبى بوضوح قاطع :

٤٦٠ – بصرت لمبصرين صدقوا الحوت والمجانين ٠

هكذا لم يعد يصدهم فى نظر التجربة الشعبية سوى « الحوت والمجانين » وبصورة لا تقبل التأويل قالوا :

٤٦١ – كل حزار كذاب ٠

فالحزار هو الرجل الذى فى مصاف ضارب البخت والذى يبلغ الناس ما سوف يحدث لهم بالتخمين والظن وهو فى نظر عامة الشعب « كذاب » ٠ متمسكين بمبادئهم الدينية المستوحاة من كتاب الله فقد قال عز من قائل « وما كان الله ليطلعهم على الغيب » صدق الله العظيم ٠ وقوله سبحانه وتعالى « قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء ان أنا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون » صدق الله العظيم (الأعراف ١٨٨) ٠

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من ذهب الى كاهن أو عراف فقد برأت منه ذمة الله ورسوله » ٠

لهذا قالوا :

(★) جردل الوطا : جردل الأرض ٠

(★★) : أى لبن مخضوض بلا زبدة ٠

(★★★) غريرة : حلوة ٠ – سجلتها من الحاج هاشم التتر – ٧٥ سنة من مواليد غزة ٠

٤٦٢ – كذب المنجمون ولو صدقوا ٠

وعليه أصبحت عادة قراءة البخت وممارستها قرينة النساء من قبيل التسلى عند شربهن لفناجيل القهوة ليس الا ٠ فلم تعد لها قيمتها ولا المترددين عليها فى المجتمع الفلسطينى ٠

اما عن السحر فقد قالوا :

٤٦٣ – تعلم السحر ولا تعمل به ٠

فلا مانع من تعلمه كوسيلة فقط لدحضه والتغلب عليه وليس لممارسته والعمل به ٠

النميمة

تمسك الشعب الفلسطينى بالقيم الأخلاقية الدينية المستوحاة من كتاب الله وسنة رسوله ، فاقتدى بها ورفض ما يناقضها من صفات ذميمة يمكن أن تلحق بالانسان ومنها « النميمة » والذى اعتبر البعض من رجال الدين أن السعى بها والتضريب (*) نوع من أنواع السحر (١٥) ٠

فالحديث بما يكرهه الآخرون وهم يغفلون هى النميمة التى يأباها الجميع ويرون فيها وفى ممارسها الجبن لارتكابه اياها فى غياب صاحبها أى فى « قفاه » والقفا فى رأيهم هش جدا بقولهم :

٤٦٤ ـ القفا هيشة (**) ٠

بالتالى ليس من الرجولة بمكان أو المهارة التحدث عن الناس فى غيابهم وذلك لقدرة الجميع على مزاولتها بسهولة ٠

وقد وصف المثل الشعبى هذه الفئة من الناس بأخس الأوصاف فاعتبروهم فئران قارضة بقولهم :

٤٦٥ ـ ابن الفار حفار ٠

وأمعن المثل الشعبى فى وصف هذا النوع من الناس ذى الوجهين قائلين :

(★) التضريب : من ضرب اى أوقع وافسد بين الناس حتى يوقع فى نفوسهم الرعب والوسوسة لحد المرض ٠

(١٥) الامام محمد الرازى فخر الدين ـ السحر والسحرة فى القرآن الكريم ـ مكتبة القرآن ١٩٨٥ ص ٤٦ ٠

(★★) الهيشة : جزء صغير من سيقان القمح أو الشعير بعد درسه ٠

٤٦٦ ـ فى الوش (الوجه) مرايا وفى القفا سلاية (***) ٠

فهو صاف وناعم عند مواجهته للناس ، وما ان ينفض عنهم حتى يأخذ فيهم طعنا ووخزا كوخز السلاية ٠

وعليه تحدوا النمام اذا ما حاول تبرير ما ينم به بقولهم المثل المتحدى :

٤٦٧ ـ اذا بدكاش تغشه قولو فى وشه (وجهه) ٠

فتلك هى الرجولة فى المواجهة والمفاتحة فى النقاش مع الآخرين ٠

كذلك حذروا هذه الشريحة المريضة عبر مثلهم قائلين :

٤٦٨ ـ من غربل الناس نخلوه ٠

فمن حاول من النمامين غربلة الناس ، فان الناس تمتلك « مناخل » ذات فتحات ضيقة أكثر من الغربال يستطيعون بواسطتها فرزه وتصنيفه بأكثر دقة وفعالية ٠

ولم يترك الشعب هؤلاء دون أن يقدم لهم النصح بتجربتهم المثلية قائلين :

٤٦٩ ـ اللى بيسكر تمه بيضب عيبه وعيب امه ٠

وللتجربة الشعبية وجهة نظر أخرى تمنع من خلالها النمام من الحديث وذلك بعد اتاحة الفرصة له للتحدث عن طريق التزام الآخرين بالعمل الطيب والجاد والاستقامة ، فقالوا :

٤٧٠ ـ الله يلعن اللى بيحكى ع الناس ٠٠ قال لا الله يلعن اللى بيخلى الناس تحكى عليه ٠

ومن يتصرف بتصرفات سلوكية شاذة فما عليه الا أن يتحمل ما يمكن أن يقال عنه ٠

وقد سجل الشعب هذه الحالة بمثل تشبيهى بليغ قائلا :

(★★★) السلاية : كالابرة لكنها اكبر منها حجما يستخدمها المنجد خاصة أو من يصنعون برادع الحمير « البرادعى » أو السراجين ٠

٤٧١ ــ اللى بيعمل حاله نخاله بدو جاج (دجاج) تنقر فيه .

وعليه كانت من وصاياهم المثلية لكى يصون الانسان نفسه :

٤٧٢ ــ ابعد عن الناس أحسن لك واخير لك ، بينصان عرضك ويتوفر عليك مالك .

ومن وصاياهم ان يحفظ كل انسان لسانه :

٤٧٣ ــ لسانك سبع ان رفصته افترسك وان ربطته حرسك .

وبمعنى آخر :

٤٧٤ ــ اسكت يا لسانى بتظلك حصانى .

ونستعرض لهذا الموضوع عند دراستنا للقضاة العرفيين وكيف تصدوا وبقسوة للنمامين واعتبروهم من مقترفى ما أسموه « التسويد » .

الفصل الخامس عشر

أمثال

● الزمان والنظرة المستقبلية وطلب العلم

الـزمان

ان اعترفنا بأن الحياة مكان وزمان وما بينهما الانسان الذى هو فى الحقيقة صانع زمانه فى المقام الأول بما يتبناه من أفكار ومعتقدات زودته بها خبراته وتجاربه سواء تلك التى ورثهـا عن أجداده أو التى استنبطهـا من واقعه فكانت نعيمـا عليه أو شقـاء له ولغيره تمثلت فى اعتداءاته وطمعه وقسوته وتسلطه على أخيه الانسان مما يجعله يضـيق ذرعا ويمتلىء حقدا ، وعندما لا يملك الا أن يفسح لنفسه مسربا أو مخرجا يعلق عليه آلامه فلا يجد غير « الزمان » ملاذا ومهربا ، ذلك الملاذ الذى يلعنه فى غالب الأحيان ويستأثر جام غضبه نصيب الأسد عليه وبلادنا فلسطين مفعمة بالأحداث بـل هى مسرح وموقع لهـا فلم يبق قائد ولا امبراطور ذكره التاريخ الا ومر من بلادنا ورآه شعبنا واشتبك معه ، حتى ليقال بأننا كفلسطينيين ان لم نكن قد تجولنا ورأينا العالم فقد أتى العالم لنا برجاله ، وسـطروا جميعا على صفحات أيامنا التى هى زماننا سجلهم الأسود الدامى خاصة أولئك القادمين من الغرب · ألم نقل :

٤٧٥ ـ ما بييجى من الغرب الى بيسر القلب ·

وكذلك قال :

لا تلغوا الزمان بل العنوا الحكام ، زمانكم حكامكم · ان فسد حكامكم فسد زمانكم ·

أما العنصر الثانى وهو « المكان » ونقصد المكان الفلسطينى بعناصره الجغرافية الطبيعية فلها دورها فى تسطير ذكرياتها على صفحات الزمان الفلسطينى فان كانت مسرحا لأحداث الانسان فهى أيضا متحف لوقائع

المكان جمعت وبشكل فريد جبالا ووهادا بوعورتها وســهولا ووديانا بليونتها كما افاضت بأمطارها المغرقة حينـا ، وبجدبها وقحطها أحايين أخرى ، وكما نعمت بالهدوء والاستقرار فقد نكبت بالزلازل والدمار ، وقائع متنافرة سطرت نعمها ونقمها على الزمان فدونها شعبنا الفلسطينى فى خلده افراحا يتغنى بها اياما واتراحا يقاسى آلامها أياما .

هكذا وكان الزمان أيام بل هو بالفعل أيام بيض تتواتر بانتظام يسجل عليها الانسان والمكان فعـاله فتطبع فى ذاكرته كمـا خبرها ووعاها :

٤٧٦ ـ الزمن غـدار .

لأنها قد تفاجئه بغدرها فتاتيه النوائب بغتة فلا غرو أن يصـفها ايضـا بأن :

٤٧٧ ـ الدهـر خوان .

يخونه ويفتك به أحيانا ويخيب آماله ، فحذر منه ومن غدره .

٤٧٨ ـ من أمن زمانه خانه .

ولاندرى لماذا اقحم النساء وحشرهم مع الزمان فى هذه الخاصية :

٤٧٩ ـ الزمان والنسوان ما الهم أمان .

ومن أراد أن يتخذ من الزمان غطاء له وسـتارا يحتمى به فانه لا محال ـ وفقا للتجربة الشعبية ـ سيجد نفسه عاريا :

٤٨٠ ـ المتغطى بالزمن عريان .

نظرا لتقلبه وعدم استقراره على حال تماما كالدولاب الدائر .

٤٨١ ـ الدنيـا دولاب .

لما يعتريه من تبدل وتغير وعدم الثبات على حال .

٤٨٢ ـ زى الزمن كل ساعة فى حال .

وربما نجم عن تقلبه هذا وتبدله أن رفع وضيعهم وخفض رفيعهم فلا يلبثوا أن يطلقوا لعناتهم عليه :

٤٨٣ ـ الله يخونك من دهر ميال صار الحصينى يطارد الخيال .

وكما يقول شاعرنا الشعبى :

الله يلعنك يـا زمان ما اردى فعايلك
اللى خليت اصـل الكريم ينذل

وغنائهم من خلال أهازيجهم ومواويلهم الشعبية حين يرددون :

٤٨٤ ـ يا دنيـا يا غرورة　　مـا اكتـر مغـادرك
يـا اللى جعلتـى　　أكابـرك اسـافلك
يهـون عـلى الموت　　واسـكن مقـابرك
ولا ابـن الهفيـة　　على اهل البيت يتامر

ومن وسائل غدر الزمن وخداعه أن يقلب لهم أعاليها بأسافلها أن يبدل الطيب بالغث والقمح بالزوان :

٤٨٥ ـ انقلب الزمان وأصبح القمح زوان .

والزمن أحيـانا وكما يرى الوجدان الشعبى مخادع ويعاكس الانسان ولا يختار له الا ما لا يلائمه :

٤٨٦ ـ اللى بتحبش تشوف وشه (وجهه) الزمان بفرجيك قفاه :

لذا فان الزمان لايدوم لأحد :

٤٨٧ ـ الدنيـا فانية .

فأنشدوا قائلين :

٤٨٨ ـ كذاب يا اللى تقول الدهر دام لى
ويا مسكين هى دامت لمين ؟

جبـال الكحل تفنيها المراود
وكثـر المال تفنيه السنين

وأحيانا يسدى الزمن بمحاذيره للانسان ويوجهه كما أبانوا ذلك فى مواويلهم :

٤٨٩ ـ حــــرج على الزمان وقال لى مالك ثمن
انا من قلة السعد ياناس ما عاد لى ثمن
اوصيك يا صاحبى لا تعاشر رخيص الثمن
انا بالروح لم بعتهم وهم بالبلاش باعونى

ويلتجئون احيانا بالزمان هروبا من عدم قدرتهم على تفسير غوامض الأمور التى يتعرضون لهـا ، أو عدم تقبلهم اياها خاصـة لو خالفت ما اعتادوا عليه تبعا لعاداتهم وتقاليدهم .

فاذا ما وصل الحد برجل أن يغضب من زوجته ويترك بيته لتذهب هى وترده اليـه ، كان ذلك خرقا للنـواميس ، فلا مناص من أن يلعنوا الزمان :

٤٩٠ ـ زمان الله يهده الراجل بيحرد والمره بترده .

حتى أضحت كلمة « زمن !! » لو نطق بها انسان من عامة الناس وبمفردها تعنى أداة للتعجب والاستهجان لما سمعه أو يسمعه من أشياء لم يألف سماعها .

ويرون فى « الزمان » مادة كشافه لما قد يتستر به الانسان من أقنعة الزيف والخداع والكذب . فالزمان بطوله وقدرته على التعرية كفيل بأن يكشف ما خباه الانسان :

٤٩١ ـ الزمن كشــاف .

فتبدو له الأمور واضحة مكشوفة فتستبين ملامحها الحقيقية ، لذا تسلح الانسان بالزمان وسيلة للوصول للحقائق فسأل ربه أن يطيل من عمره ليمكنه من رؤية الأمور .

٤٩٢ ـ الله يحيينا ويورينا .

والزمان بالمفهوم الشعبى أيام حلوها ومرها كما أدرك ذلك من توالى الأيـام .

٤٩٣ ـ يوم عسل ويوم بصل .

وكذلك :

٤٩٤ ـ يوم الك ويوم عليك دير بالك فتح عينيك .

أما من أسعده زمانه فهذه فى نظرهم أمنية الأمنيات .

٤٩٥ ـ اللى بيعطيه زمانه بيرقص باكمامه .

وقد يهملون بعض أحداث الزمان الغابر اما لقسوتهـا أو لما تثيره فى نفوسـهم من ذكريات اليمة فلا يلبثون عنـد ذكرها أن يطردوها من ذاكرتهم بقولهم :

٤٩٦ ـ زمان اول حـول .

أول قول مثلهم :

٤٩٧ ـ اللى فات مات .

كما أنهم يدركون قيمة الوقت مؤكدين أن على الانســان التاقلم والمواءمة مع زمانه :

٤٩٨ ـ كل وقت واعطيه وقته .

وان لكل زمان مميزاته التى قد ينفرد بها من هناء أو شقاء .

٤٩٩ ـ كل وقت وله أوان .

وهم على يقين بأن كل شىء يظهر فى ميقاته وميعاده كمــا حددته له الظروف الطبيعية رافضين بذلك تعجيـل الأمور واستعجالهـا فقد ادركوا أن :

٥٠٠ ـ كل شىء باوانه .

مفسرين ذلك وبكل تاكيد بقولهم :

٥٠١ ـ فش اشى بآستحى من أوانه .

وهكذا يبقى « الزمان » قادرا على كشف التناقضات وزيف الادعاءات فى الذاكرة الشعبية الفلسطينية مؤكدا به بزوغ فجر الحقائق مهما ازداد سمك الأقنعة أو المياه الآسنة والسباحة فيها قائلين :

٥٠٢ ـ بكره بتنشف البركة وبتبين الضفادع .

واذا أنكر صــديق جميل صـديق له أصالة للزمان وسيلة مثلى لتصفية الحسابات .

٥٠٣ ـ ناكر فضلى بيجيك يوم تشهد لى .

النظرة المستقبلية

لقد بينا آنفا بان « الزمان » الفلسطيني شهد ويشهد العديد من مآسي الانسان لأخيه الانسان من ظلم وقهر وجبروت بحكم استراتيجية الموقع الجغرافي تارة وقيمته الدينية طورا · وما جرته طبيعية ظروفها الغير هينة أحيانا ·

مما جعل العربي الفلسطيني بعامة والطبقة الفلاحية العريضة بخاصة أن تؤمن ايمانا عقلانيا عميقا بوضع جميع التدابير في مخيلتهم وأن يحسب الفرد منهم للأمور حساباتها وبكل دقة ضمانا لمستقبله ·

هذه النظرة المستقبلية الواعية ضد عاديات الزمن تجذرت في وعيه كما ورثها عن أجداده الأقدمين الذين تركوا له من آثارهم الخالدة مما يدعمها ويقويها في ذاكرتهم ، فها هي الآبار بنوعيها لاتخلو منها قرية فلسطينية أو مدينة ولا حتى البيوت [آبار جمع المياه وآبار خزن الغلال] وحتى مدة ليست بالقصيرة كما خلفوا وراءهم السدود والقنوات في مدننا الأثرية في الجنوب الفلسطيني والتي تؤكد حرصهم على الحفاظ بكل قطرة من الماء وكان على رأسهم العرب الانباط الذين عرفوا كيف يستنبطون الماء من قاع الأرض · كما قدروا المستقبل حق قدره فحفروا « المطمورة » بالاضافة للبئر لخزن الغلال وبنوا في المنزل « البايكة » للغرض نفسه ألم يقولوا « خزين الصيف بينفع في الشتا » كما ذكرنا وذلك تحسبا للمستقبل ، ومن وحي الزراعة وممارستهم لها قالوا :

٥٠٤ ـ احنا بنزرع وأولادنا بيحصدوا ·

وكذلك :

٥٠٥ ـ اللي بتزرعه بتلاقيه ·

وادراكا منهم لقيمة المستقبل قالوا :

٥٠٦ ـ اللي ما بيحرث في الأجرد عند الصليبة بيحرد ·

أي أن الفلاح الذي يغفل حرث أرضه وبذرها في شهر الأجرد [كانون الأول واد] سيجد نفسه عند الحصاد وقد تملكه الغضب عندما ينظر الى « الصليبة » أي مكان جمع الغلال « الجرن » ، وشرحوا ذلك بمثلهم القائل :

٥٠٧ ـ اللي ما بيكونن ما بيجورن ·

وبصورة أوضح قالوا وبنفس المعنى :

٥٠٨ ـ اللي ما بيحرث في الشتا بستعطى في الصيف ·

كذلك أكدت المرأة وجهة نظرها المستقبلية هذه واحترامها لها بالحرص على التدبير حسابا للزمن فقالت :

٥٠٩ ـ من رقعت ما عريت ومن دبرت ما جاعت ·

ايمانا منهم بأن :

٥١٠ ـ التدبير نص المعيشة ·

حتى وهي تتزين بالحلي والأساور تنظر اليها نظرة مستقبلية بالاضافة لكونها أدوات للزينة ، بأنها :

٥١٠ ـ جمدة للزمن ·

أي أنها مجمدة في يديها تحسبا للزمن والمستقبل اذا ما طرأ طارىء قامت بخلعها جميعا وتقديمها لزوجها أو لأبنائها لبناء بيت أو شراء أرض ٠٠ الخ ·

كما ادخروا الفلوس تحسبا للمستقبل بسرائه وضرائه مؤكدين أن :

٥١١ ـ قرش الصبا وابن الصبا بتعوضوش ·

فالقرش الذي يدخره الفرد في شبابه تماما كالابن الذي يأتيه وهو في صباه لايمكن تعويضهما وفقا للناموس والتجربة الشعبية وذلك لقيمتهما الجزيلة في شيخوخته · وكذلك ايمانهم بأن :

٥١٢ ـ القرش الأبيض بينفع فى اليوم الأسود .

ولتأكيد مستقبل مشرق لهم ولأولادهم تراهم يجدون فى البناء والأعمار كما يهتمون بفلاحة الأرض ويعتبرون فى ذلك سعادة لهم يفتخرون بها بين الناس كما يعتز الآخرون بمثل هذه الفئة المحظوظة بقولهم :

٥١٣ ـ يا بخت من بنى وعلى وراح وخلى .

وقد دعموا وجهة نظرهم المستقبلية حبا وايمانا ، تحسبا ووقاية بعديد من الأمثلة الشعبية الحافزة لهذا التوجه والدالة عليه كقولهم :

٥١٤ ـ مد عينك قبل ما تمد رجلك .

وكذلك :

٥١٥ ـ قبل ما تفصل قيس .

ويتبنى البحريون هذه النظرة بقولهم :

٥١٦ ـ قبل ما تغيص قيس .

وقولهم :

٥١٧ ـ من سلف السبت لاقى الحد (الأحد) قدامه .

والى بيخدم الناس بيلاقى الناس خدامه .

ومثلهم القائل :

٥١٨ ـ ساقية دايمة ولا نهر مقطوع .

مفضلين بذلك الردىء الدائم الذى يحفظ لهم مستقبلهم على الجيد الذى لايدوم مدركين بذلك قيمة التخطيط والدراسة بالعقل الواعى والمنطق السليم قائلين :

٥١٩ ـ التحضير فى الراس مش فى الكراس .

هذا الحرص الشديد للاهتمام بالمستقبل كان دافعه وكما سبق ان ذكرنا الزمان الذى لا يمكن لأحد ادراك ما يخبؤه فهو كما سجله فى وعيه وذاكرته « خائن وغدار ودوار وميال » وكذلك وصفه بانه « لايدوم وفانى » ومتقلب يوم لك ويوم عليك » . لذا كان الشعب

الفلسطينى دائم الثورة والتمرد ضد البطش البشرى كما لم يستكن لظروفه البيئية القاسية فزرع الجبال وجعل لها مصاطب وحفر الآبار وبنى السدود وشق القنوات ، ليؤكد أنه شعب مستقبلى ولديه الميل التقدمى الذى يدعم آماله وأحلامه المستقبلية مؤمنا بقول الله عز وجل « واتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد » صدق الله العظيم . ومتخذا من رسوله الكريم قدوة وأسوة القائل « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لأخراك كأنك تموت غدا » .

رافضا بذلك اسلوب العرافين والمشعوذين القائمة على حض الناس على التواكل وعدم الاجتهاد والكفاح من أجل العيش .

فالايمان بالمستقبل والتحسب له باسم الله هو مواز مع الكد والعرق من أجل الرزق وعليه فهم مدركون أن :

٥٢٠ ـ من تعب ارتاح .

وربما أتى على البعض حين من الزمان يرى فيه المستقبل أو التحدث عنه وحتى التفكير فيه دربا من المحال ان لم يكن خيالا ومحرما الحديث عنه لو أدركنا بان لقمة العيش فى تلك الأوقات أضحت شغلهم الشاغل والصراع اليومى من أجلها كان أمرا ملحا يعيشون على أثرها يومهم فقالوا :

٥٢١ ـ عيشنى اليوم وموتنى بكره .

حتى غدا لديهم مجرد التفكير فى « العشاء » هو درب من الحرام :

٥٢٢ ـ اللى بيفكر فى عشاه بيموت كافر .

وكأنه يسعى لقوت يومه فقط تمشيا مع قوله :

٥٢٣ ـ من ايده لتمه .

أو قوله :

٥٢٤ ـ قوتوا ولا تموتوا .

هو يطلب قوت يومه ، ليسد به رمقه ويبقيه حيا فقط ، وربما كان عدم الانشغال بالمستقبل والتفكير فيه ، سلوكا للظروف القهرية التى تعرض لها سواء آكانت ناجمة عن حروب قامت بجور كل الرجال

وتجريدهم من منازلهم وأسرهم أم ما تسببه الحروب من غلاء وبطالة أم ظروف بيئية وعلى رأسها القحط والجدب وانتشار الأوبئة والجراد وكثيرا ما تعرضت له فلسطين ، جعلته فى خضم هذه الظروف يختطف قوت يومه من فم غول الغلاء والبطالة المدقعة • وامتصاص رجال السلطة لجميع مقدراته وطاقاته خاصة فى فترات التسيب ، قادته جميعا تبنى افكار وأمثال تنم عن الحياة المعيشة ليومه فقط •

وربما كان من الأسباب سيطرة العالم الروحى الدينى على تفكيره وحسه ، وايمانه المطلق بالقضاء والقدر •

٥٢٥ ـ ربنا بيرزق الهاجم والناجم •

أى يرزق الذى يعمل جاهدا هاجما للتغلب على قوت يومه وكذا الجالس الذى ينجم للآخرين •

وفى يقينهم أن :

٥٢٦ ـ ربنا بيقطعش رزق حد •

وكذلك :

٥٢٧ ـ ربنا بنساش حد من رزقه •

كذلك ايمانه بالقسمة والنصيب :

٥٢٨ ـ الى من نصيبك يصيبك •

هذا الايمان يعكس ايمان الفطرة السليمة ولا يمكننا أن نفسره كما يدعى البعض بالقدرية المطلقة والتأثر بالمشعوذين واللجوء للراحة والاتكالية وعدم البذل والعطاء •

فالفلسطينى وهو يواجه صعاب بيئته وتقلبها وتذبذب أمطارها أدرك ادراكا عميقا بايمانه بالله الذى بمشيئته قد تمحل بلاده مع غزارة أمطارها وقد تخصب على قلتها (١) فلخصها بمثله القائل :

---

(١) سليم المبيض ـ الجغرافيا الفلكلورية ، المرجع السابق ـ ارجع لفصل المحل والخصاب ص ٢١٣ •

٥٢٩ ـ تمحل على نهر وتخصب على جمر •

وبقوله :

٥٣٠ ـ ان كان الله راد بيخصبها على جمر

وان كان الله راد بيمحلهـا على نهر

آمن بذلك بعد الحرث والبذر والزرع وحفر الآبار وبناء السدود ومارس التجارة فأنتج الكروم والزيتون والقمح والشعير الى دول أوربا منذ قرون خلت وعرفتها دول العالم المتمدن •

طلب العلم

كان اقبال هذا الشعب على العلم لا تحده حدود ، فاندفع أبناؤه الى اقطار العالم ينهلون من علومهم وآدابهم ، كما برع العديد منهم فكتبوا العديد من الكتب ولهم الكثير من المخطوطات التى تفاخروا بها ، فكانوا يرددون :

٥٣١ ـ فخر الغنى بكيسه وفخر العالم بكراريسه .

فان كان الغنى يفتخر بما فى كيسه من أموال فان العالم يفتخر بعدد كراريسه أى كتبه .

ولم يقف السن والشيخوخة حائلا دون طلب العلم فقالوا :

٥٣٢ ـ علمنى لما أكبر قاله لا علمنى لما أشيب .

مناقضين بذلك من يرددون بتهكم المثل القائل :

٥٣٣ ـ بعد ما شاب ودوه الكتاب .

فقناعتهم بطلب العلم والاستزادة منه ليس لها حدود وفقا لما أملته عليهم تجربتهم المثلية القائلة :

٥٣٤ ـ الدرس والنار ما الهم معيار .

لايمانهم بأن المتعلم لايحتاج الى مزيد التوصسية ، فهو يدرك الأمور ويعالجها باتقان :

٥٣٥ ـ الفهيم وديه ولا توصيه .

مرددين دوما وبوحى من أقوال رسولهم صلى الله عليه وسلم :

٥٣٦ ـ أطلب العلم ولو فى الصين .

الفصل السادس عشر

أمثـــال

● الملامح التاريخية والسياسية

لقد فرض موقع فلسطين الجغراسى (*) الحدى كجسر ضـيق يربط بين حضارات تليدة وعريقة من الشمال « الحيثية » ومن الشرق حضارة الرافدين والفرعونية من الجنوب ، عليها بان تكون « موقعة » وميدان تطاحن ، حددت مصـير العديد من الامبراطوريات بمواقعها الفاصلة والحاسمة ، فعلى أرضها أقام أجدادنا العرب الكنعانيون دول مدنهم ، وبدأوا من بعدها تلقى الضربات على أرضهم فعليها انتهت لغير رجعة قوة الهكسوس فى موقعة « شاروحين » جنوب شرق مدينة غزة سنة ١٥٧٠ قبل الميلاد ·

وبعد انتصار تحتمس الثالث فى موقعة « مجدو » [تل المتسلم] على أرض فلسطين أصبح صاحب أول امبراطورية فى التاريخ باندفاعه نحو العراق سنة ١٤٧٩ قبل الميلاد ·

وقد أوقفت غزة الاسكندر الأكبر على أسوارها مكرها ثلاثة شهور ليستولى عليها بعد اصابته ويتوجه لمصر سنة ٣٣٢ قبل الميلاد · كذلك حددت مدينة رفح الفلسطينية فيما بعد لمن الغلبة والسيطرة على كل من مصر والشام بين البطالمة والسلوقيين أتباع الاسكندر ·

وكان للرومان والبيزنطيين جولاتهم وكانت هزائمهم الأولى والمصيرية عنـد وادى عربة واليرموك ودائن [الدميثـة] جنـوب شرق غزة لتكسر شوكتهم للأبد ويأتى المسلمون ، ثم ليهزم بعدها الصـليبيون فى « حطين » ١١٨٧ ميلادية على يد صلاح الدين الأيوبى بمؤازرة عرب فلسطين (١) ، ولتتحطم قوة المغول الهمجية فى عين جالوت· الفلسطينية ليتنفس من بعدها العرب الصعداء ليأتى بعد ذلك صليبى آخر يدعى « نابليـون بونابرت » فدمره الشعب العربى الفلسطينى ودفن آماله تحت أسوار عكا · وقتل قائده « دوماس » عند مدخل « وادى الشعير »

(*) الجغراسى : أى الجغرافيا السياسية ·

(١) خالد محمود طرابية ـ آل طرابية عبر التاريخ ـ القدس ١٩٧٦ ص ١١ ·

وهو فى طريقه لمدينة نابلس على أيدى أبنائهـا · وهاهو الشيخ « يوسف » ابن مدينة نابلس يستنهض همم الرجال وفتوة مدينة نابلس والقرى المحيطة بها للحشد ومقاومة نابليون :

٥٣٧ ـ

على مايقول المجاهد اللى فاض مابو   بدمع جرى منى على الوجنـات

ولا يخلق الرحمن أفضل من النبى   النبى الهاشمى سيد السادات

يا غاديا منى على صيد حية (٢)   تجـد السرى لا تامن السروات

رباعيـة لاضـمها مايل العبـا   تسبق هبوب الريح بالفلوات

تهدى هداك الله خذ لى رسـالتى   مرقومة بالخط من العبرات

اقطع بها مرج بن عامر (٣) وقبل   تلفى على بـلاد بهـا نخـوات

تلفى على جنين (٤) مع رايق الضحى   تلقى بها علالى وقصـور مبنيـات

طق الها بالسرع لا تامن الونـا   قبل على صانور (٥) فيها وبات

تلقى بهـا سـبع الفلاسـيد الملا   لسنين الغلا (٦) صيطو علينا فات

قل له لاتحفظ الزلات (٧) ياطالب الثنا   مضى الذى مضى زمـانه وفـات

وايش نخبرك على علمها نحصى عدادها   نصـارى ترى ملبوسها اسكفات

اجتنا الفرنساوى شبه الجراد والحصى   سلاطين سبعة مع سبع كرات (٨)

يهـدوا جوامعنـا ويبنوا كنايس   ويدعوا قناديل الاسـلام مطفيات

بريـد منـك فزعه (٩) عامريه   يوم الوغا ماتهاب من شـوفات

تنطح كراديس الافرنج في جموعكم   تـلى عيـون الكفر مطفيـات

ومن يومها قالوا عن نابلس مفتخرين :

٥٣٨ ـ نابلس الهرمة ، مبيدة الظلمة ، ماؤها لايغور ، والظلم فيهـا لايدوم ومن أراد بها سوء أذابه الله ذوبان الثلوج ·

وقيل عنها وهى تقاوم الانجليز :

---

(٢) صيد حية : الفرس السبوق ·

(٣) مرج بن عامر : أرض سهلية خصبة بين حيفا وطبرية ·

(٤) مدينة شمال فلسطين ·

(٥) صانور : قرية بها قلعة حصينة بالقرب من نابلس ·

(٦) أصيبت فلسطين بقحط وجدب سنة ١٧٨٩ ميلادية وكان للشيخ يوسف دوره فى التخفيف عن طريق التبرع ·

(٧) وقع شجار بين سكان نابلس واحمد باشا الجزار قبل قدوم نابليون ·

(٨) سبع كرات ، الكرة مائة ألف جندى ·

(٩) فزعة : أى النجدة ·

احسان النمر ـ تاريخ جبل نابلس والبلقاء ج ٢ المرجع السابق ص ٢٧ ـ ٢٨ ·

٥٣٩ ـ جبل النار ·

وبعد هزيمة نابليون أمام عكا الباسلة قالوا :

٥٤٠ ـ شو بال عكا من هدير البحر !!

وبصورة تعبيرية شعبية قالوا أيضا مثلهم :

٥٤١ ـ لو كانت عكا خايفة من هدير البحر ماوقفتش ع الشط ·

ويقولون رمزا على جبروتها وانفتها أمام الأعداء :

٥٤٢ ـ بيقولوا عكا وخمة ·

ثم أثبت الشعب العربى الفلسطينى بجنده أيـام الامبراطورية العثمانية جدارتهم ومقدرتهم الفائقة وتفوقهم الملموس فى جميع الحروب فقـد اشـترك آلاى نابلس فى الحروب الروسـية بقيـادة الأمير اسماعيل بن عمر أغا اليوسفى النابلسى كما اظهرت جند فلسطين أيام الدولة التركيـة بسالة وقوة فى بلاد البلقان والقوقاز وألبانيا (١٠) · كما تفوق العديد من أبناء فلسطين فنالوا الرتب العالية وحكموا البلاد فعليا بمراكزهم العالية سواء منها الادارية (الولاة) فى الفترة المملوكية تماما كما فى العثمانية · فقد اصبح أحمد أغـا النمر الفلسطينى ميرالا لأربعة ألوية هى القدس ونابلس وغزة واللجون [جنين] وكانت لهم خططهم العسكرية فى الدفاع معتمدين على صعوبة التضاريس والجبال التى استمدوا منهم منعتهم وشموخهم واستغلوها لصالحهم مدركين أن :

٥٤٣ ـ الأرض بتقاتل مع أهلها ·

ويقولون :

٥٤٤ ـ يا جبل مايهزك ريح ·

وقد حكمت العديد من الأسر العربيـة الفلسطينية كامل التراب الفلسطينى فى فترات عدة [آل رضـوان ـ آل فروخ ـ طرابيـة ـ مكى ـ الخ] وقامت الأسرة الفلسطينية بتربية أبنائها على « الفتوة » كنواة عسكرية للزود عن حمى الأوطان ، فدربت الأمهـات أبناءهم على المجالدة والصبر وتحمل المشاق والتخشن ومساعدة العجزة والمحتاجين ،

---

(١٠) احسان النمر ـ تاريخ جبل نابلس والبلقاء ج ٢ المرجع السابق ص ٥٥٢ ·

وكانت لهؤلاء الفتوة منتديات يطلق عليها « مجمع الخلان » تقبل الشباب الذين يتقنون أمور الفروسية كركوب الخيل والرماية والسباحة وقول الموال الأحمر ومدركا لقصص الأبطال فمن مواويلهم الفروسية :

٥٤٥ ـ **واحنا أولاد الفتوة من سريع انكاد**
يا سعد يوم نلتقى على ظهر الخيول انكاد
احنا اللى نحمى حمانا بادرا رماحنا الجردا

ويقولون مفتخرين ومتحدين عند الحصار والحرب (١١) :

٥٤٦ ـ **خيال باب النصر ما يختفى خيالها .**
تشهد لك الخيل يا راعى الناموس خيالها
قرنوبة الخيل ما ضنت غير خيالها
بيض المحاسن حلو شعور الخبا
والحور من أجلهن كشفوا ستار الخبا
مالاقت العين فالبحر لجاها والخبا
حمامة الباز ماشدها غير خيالها

فرد عليه منافسه مفتخرا ومبكتا عليه :

عن ظهر الفرس لاصطاد راعيها
المهرة ما ضنت غير راعيها
عيب على طولك ليش راعيها
من عقب المودة تحاكينى بروس الحرب
لاخوف يا ندل ولا نخشاك يوم الحرب
لى عزوة ياناس تشهد لى بيوم الحرب

فاصبحت الفروسية تسرى فى دمائهم يفتخرون بها ويتندرون بأحاديث البطولة ووقائعها حتى أضحت مضربا للأمثال فها هم يقولون :

٥٤٧ ـ **الزرقا علق على أربعين خيال .**

والزرقا رجل يسكن ضاحية « الزرقا » شمال مدينة غزة قبل انه قام باكرام أربعين خيالا وتقديم « العليق » لخيولهم . فأضحى فى نظر شعبه مضربا للكرم والفروسية وبالتالى حكم الشعب الفلسطينى نفسه

---

(١١) احسان النمر ج ٢ ص ٩٠ ـ ٩١ .

سواء بقياداته السياسية او العسكرية ساندتهم فى عديد من الظروف القيادات الاجتماعية بأعرافها الشعبية .

لذا فقد أيقن قادة هذا الشعب أن :

٥٤٨ ـ **السياسة ما الها دين .**

فالسياسى كما يعرفه الكثيرون هو الرجل الذى يلعب بوجهين متناقضين ويملك القدرة على اثبات كلا وجهيه . ومن ثم يصبح انسانا يحتاج التعامل معه لمزيد من الحذر والحنكة لأنه فى الغالب يتذرع بكل الوسائل والحجج فى سبيل الوصول لمآربه حتى قيل بتعريف أوضح على محترفى السياسة بالتعريف الشعبى الفلسطينى .

٥٤٩ ـ **السياسة تياسة .**

وللأعراف الشعبية الفلسطينية قواعدها فى التعامل والتفاوض مع الآخرين فيقولون :

٥٥٠ ـ **من طلبه كله فاته كله .**

وكأنهم بذلك يقولون « خود وطالب » ولا يحاولون الوصول للقطيعة مع الآخرين بقولهم :

٥٥١ ـ **خلى للصلح مطرح .**

وبنفس المعنى يقولون :

٥٥٢ ـ **اللى مابييجى معاك تعال معاه .**

وعليه فهم لا يصلون لحد القطيعة والعدمية لمن يحاورونه فيقولون :

٥٥٣ ـ **من عدم عدوه عدم صاحبه .**

لهذا طالبوا بمزيد من الحوار والنقاش والتعامل معه قائلين :

٥٥٤ ـ **طاول صاحبك ولا تعدمه .**

ويفضلون أحيانا بالتلويح والتهديد دون الضرب اذا كانت وسيلة ناجعة للوصول لمآربهم فيقولون :

٥٥٥ ـ هت (هد) بعصا العز ولا تضرب بيها ·

ويرون اتخاذ الأساليب الناجحة عند الفوز والغلبة فيقولون :

٥٥٦ ـ اللى تغلب به العب به ·

كما أنهم يعتبرون الظلم على الجميع عدلا :

٥٥٧ ـ الظلم بالسوية عدل على الرعية ·

وفى الوقت نفسه يؤكدون أن العدل والاستقامة هو أساس الملك وانه الموصل لطريق السلامة وباقل الخطوات والزمن :

٥٥٨ ـ امشى عدل توصل بدرى ·

كما ويحسبون للأمور حسابها قبل اتخاذ أى قرار متخذين لذلك عدة طرق منها :

٥٥٩ ـ قبل ما تفصل قيس ·

وكذلك :

٥٦٠ ـ مد عينك قبل ما تمد رجلك ·

ولأجل الوصول للطرق السوية لا مانع من البطء والدراسة ·

٥٦١ ـ ابطى ولا تخطى ·

مؤكدين على ذلك بقولهم :

٥٦٢ ـ المستعجل ما يسوق جمال ·

لايمانهم بأن العجلة فى اتخاذ القرارات هى محل للنـدامة دافعها الشيطان :

٥٦٣ ـ العجلة من الشيطان ·

٥٦٤ ـ زيادة قدم ولا تقع فى الندم ·

لذا يفضلون اتخاذ القرارات بوحى مما تمليـه عليه ظروفهـم واحوالهم هم لذا يرون فى صياغتها وتنفيذها من عقولهم هم :

٥٦٥ ـ عقلى فى راسى باعرف خلاصى ·

فالتحضير لأمورهم من الأمور الهامة القائمة على الدراسة فيقولون·

٥٦٦ ـ التحضير فى الراس مش فى الكراس ·

واضعين فى اعتبارهم كل الاحتمالات السلبية منها قبل الايجابية :

٥٦٧ ـ احسب العاطلة قبل المليحة ·

وللقائد أيا كان موقعـه ونوع ادارته كلمتـه التى يجب احترامها وهى محك لمصداقيته وحسن ادارته ، لذا فان ـ الكلمة ـ أصبحت شرفا فاحترسوا أشد الاحتراس عند نطقها وبذلوا الجهد والعرق عند تنفيذها لايمانهم المثل القائل بأن :

٥٦٨ ـ ابرك ايامك تنفيذ كلامك ·

مفضلين عدم الاكثـار من الحديث والدخول للمواضيع وتنفيذها باقل الكلمات :

٥٦٩ ـ كلمة بت ولا عشرة لت ·

فالكلمة الواحدة الباتة أفضل من عشرات الكلمات الثرثارة المتميزة وكما يقولون « باللت والعجن » بلا فائدة ·

من هنا قدروا الاسلوب الجيد المتمثلة فى حـلاوة اللسان بأنهـا عز وعزوة تمنح صاحبها القوة والرهبة والاحترام حتى ولو لم تكن له عزوة من حوله ·

٥٧٠ ـ حلاوة اللسان عز بلا رجال ·

محذرين لذلك بأن :

٥٧١ ـ طاعة اللســان ندامة ·

مفضلين زلة القدم وتعثرتها على زلة اللسان :

٥٧٢ ـ زلة القدم ولا زلة اللسان ·

محذرين كل انسان وخاصـة أولئك الذين لهم مكانتهـم بعدم

الاسراع فى الثناء والشكر دون المرور بفترة زمنية كافية تؤكد لهم صدق ما هو أهل له ·

٥٧٣ ـ لا تذم ولا تشكر الا بعد سنة وست تشهر ·

مؤكدين أن المسئول أو الرئيس المحنك هو القادر على تيسير الأمور فى أصعب الظروف :

الريس الشاطر بيجيب الريح من قرونه ·

معترفين بأن الرجال مع بداية تحملها المسئولية يميلون فى الغالب للجدية التى تميل للقسوة والشدة محذرين بذلك وبأسلوب الكناية :

٥٧٤ ـ الغربال الجديد الو شدة ·

أو ٥٧٥ ـ كل غربال جديد والو شدة ·

وان الرجال بأعمالهم لا بأقوالهم وبما ينتجون لا بما يعدون فيقولون :

٥٧٦ ـ عفش الرجال ثمرها ·

كما ويفضلون الوسطية وعدم التطرف فى تصرفاتهم معترفين بأن الفضيلة وسط بين الافراط والتفريط أى بين رذيلتين فيقولون :

٥٧٧ ـ الزايد أخو الناقص ·

و ٥٧٨ ـ خير الأمور الوسط ·

ويعبرون عن ذلك بقولهم :

٥٧٩ ـ لايموت الديب ولا تفنى الغنم ·

ويقولون أيضا فى هذا الصدد :

٥٨٠ ـ هوا فى الحافر وهوا فى النافر

أو

٥٨١ ـ هوا فى الراس وهوا فى الحافر ·

وقد عانى الشعب الفلسطينى من الاقتتال فى فترات الخلل

السياسى والانحلال الادارى فتتنازعه المشاحنات فيقسمون فيما بينهم تحت شعار ·

٥٨٢ ـ قيس ويمن ·

والتى تعود بجذورها الى ما قبل الاسلام وانتشرت فى جميع الأراضى العربية بعناوين مختلفة (١٢) ، وقد استشرت بفلسطين فى فترات عدة كان آخرها فى نهاية القرن التاسع عشر فمزقتهم الى قبائل وأحزاب ، حتى المدينة الواحدة كانت تنقسم على نفسها بين قيسى ويمنى، ففى الشام كانوا بين :

٥٨٣ ـ الجدام والحرام ·

وبمدينة الخليل الفلسطينية ينقسمون الى :

٥٨٤ ـ الدارى والمجاور ·

وقد قضى على آخر هذا الاقتتال فى فلسطين محمد بك أبو نيوت بعد الحملة الفرنسية مباشرة (١٣) · فلم يعد لها قائمة منذ ذلك الحين ·

وقد وصف أبو الطيب المتنبى هذا الاقتتال من قبل بقوله :

كأن رقاب الناس قالت لسيفه

رفيقك قيس وانت يمانى

أما علاقة الشعب الفلسطينى بأعدائه فلا يجد ما يبررها اطلاقا فالاعداء قوم اما استعماريون أو متسلطون على مقدراته وأهمها مقدساته وموقعة الوسيط ومعظمهم أتوا من الغرب ابتداء من الاسكندر ومرورا بالرومان والبيزنطيين وانتهاء بالصليبيين والصهاينة فقالوا ·

٥٨٥ ـ ما بيبجى من الغرب اللى ييسر القلب ·

حيث لاقى الشعب العربى الفلسطينى منهم الأمرين :

(١٢) أطلق عليها العدنانية والقحطانية والحجازية واليمنية فى الجزيرة العربية والقيسية واليمانية فى جميع الممالك الاسلامية عدا تركيا · وفى مصر كان يطلق عليها الفقارية والقاسمية وفى لبنان كانت تدور بين اليزبكية والجنبلاطية ·

(١٣) عمر البرغوثى ـ تاريخ فلسطين ـ مطبعة بيت المقدس ـ القدس ١٩٢٣ ص ٢٦٣ ـ ٢٦٨ ·

Palestine Exploration Fund, 1908, pp. 33-34.

٥٨٦ ـ ما وصلنا لهون الا بعد ما ذقنا عذاب الهون ·

ويقصدون « بالهون » القبائل الجرمانية وما جرته من بعدها من اوربيين على اختلاف مواطن سكناهم او دولهم وتميزت هذه القبيلة ببطشها وقسوتها ، مؤكدين بأن « العدو » هو العدو لا فكاك من ذلك مهما طال الزمن او قصر ·

٥٨٧ ـ عدو جدك عدوك ·

وان هذا العدو لن يصل به الحال لمرحلة المحبة او كسب مودته فالعداوة والحقد متأصلة فى نفوسهم ، هكذا اقرها الشعب بممارسته الفعلية فاعداء أجدادنا من رومان وبيزنطيين هم انفسهم أعداء من خلفوهم أجدادنا لكى يجابهوا الصليبيين ومن أتى من بعدهم حتى الانجليز ·

٥٨٨ ـ عدو جدك ما بودك لو عبدته مثل ربك ·

معتقدين وباصرار أن :

٥٨٩ ـ عمر العدو ما يصير حبيب ولا فرخ الحية بيخط فى العب ·

حتى ولو اطعمته ألذ وأحلى ما عندك فانه يبقى عدو :

٥٩٠ ـ العدو عدو لو اطعميه حلاوة ·

بهذا الايمان العميق بعداوة العدو وعدوانه كان اصرارهم على مقاومته بكل عناد وعدم التهاون معه متخذين من الهجوم عليه وسيلة للدفاع عن أنفسهم قبل مباغتته هو :

٥٩١ ـ افطر بعدوك قبل ما يتغدى ابك ·

مؤمنين بان بالكفاح والصمود والصبر سيزول العدوان ويندحر الغريب لا محالة :

٥٩٢ ـ الغريب بيروح بس بده طولت روح ·

وأحيانا يقولون بنفس المعنى :

٥٩٣ ـ الكل بيروح بس بدها طولت روح ·

ومهما اشتد الكرب بهم وعم بلاء الأعداء زاد ايمانهم بأن الفرج آت لا ريب فيه ·

٥٩٤ ـ اذا اشتد الكرب هان ·

وان مع العسر يسرا ، يغمرهم الأمل ويحدوهم التفاؤل بأن :

٥٩٥ ـ دوام الحال من المحال ·

هذا الايمان العميق بزوال الغريب المعتدى نابع من تجاربه معه والتى أكدت له حتمية زوال القوى الباغية الدخيلة وقد اختزل هذه التجارب بقوله :

٥٩٦ ـ كل متعدى خسران ·

وبقوله :

٥٩٧ ـ يا متعدى شرك عليك ·

فالاستعمار دائما يحمل بذور فنائه معه ·

٥٩٨ ـ قاصد الشر مغلوب ·

ولم يكتفوا بالصبر والمجالدة بل تحدوا أعداءهم بالكفاح والنضال مفضلين الموت ولا العيش الدنىء :

٥٩٩ ـ المنايا ولا الدنايا ·

متصدين لهم بشجاعة وجراة دون خوف أو وجل لايمانهم بأن :

٦٠٠ ـ من هاب خاب ·

صامدين فى وجه الأعداء صمود جبالهم التى لاتهزها الرياح العاتية

٦٠١ ـ يا جبل ما يهزك ريح ·

مستعدون للقيام بكل المحاولات لقلب أعدائهم مرة تلو المرة على ألا يغلبوا :

٦٠٢ ـ ألف قلبه ولا غلبه ·

مؤكدين بألا يصبر على الضيم والذلة سوى الحيوانات ·

٦٠٣ ـ ما يصبر ع الجور غير التـود ·

واذا استنفد صبرهم فالموت هو الحق الذى لا محيد عنه ·

٦٠٤ ـ ما بعد هيك صبر الا القبر ·

وعليه فضلوا مقاومة أعدائهم ولو بالطوب دون أن يتركوا له الساحة يسرح ويمرح بها وهكذا أخذ حقدتهم هذه السياسة فى أيامنا هذه فاثبتوا أن بالحجارة وحربها يمكن الوصول لأسمى الغايات قائلين ·

٦٠٥ ـ الرجم بالطوب ولا الهروب ·

فالمقاومة بالحجارة هى آخر سلاحهم ولا الهروب عن ثرى الأرض الطاهرة وعطنها الخصيبة مؤكدين تمسكهم بها لادراكهم العميق بأن :

٦٠٦ ـ اللى ما الو عطن ما الو وطن ·

لادراكهم المتجدد فى نفوسهم بأن من لا وطن له يبقى حائرا متجولا لا مستقر ولا أمن له :

٦٠٧ ـ اللى ما الو وطن فى الدنيا دوار ·

وتناوب القوى الامبريالية الدخيلة بشتى أغراضها على تراب الأرض الفلسطينية أكسبت هذا الشعب خبرة ودراية فى مواقيت وفترات التخلخل السياسى والضياع القانونى والتحلل الأمنى وتسيبه خاصة فى المراحل الانتقالية بين هذه القوى التى تنتشر فيها الفوضى والاضطرابات وتصفية الحسابات وعليه حذروا أنفسهم بصون أنفسهم وحمايتها عند هذه الفترات بقولهم :

٦٠٨ ـ احمى راسك عند تغيير الدول ·

لأن فى هذه الفترة يشتد الخطر وتكون ذروة الاقتتال على أشدها وينسحب عليها المثل القائل :

٦٠٩ ـ الطايح رايح ·

أو بمثل آخر :

٦١٠ ـ من طاح راح ·

وذلك وفقا لمثلهم الشعبى القائل :

٦١١ ـ الطاسة ضايعة ·

أى ما يحمى الرأس ، الطاسة ، مفقودة وربما يرمزون بذلك لضياع السلطة العسكرية أو لفقدان الحماية مما يعزز احتمال الخطر على حياة الشعب وعندها يفضل الاحتماء بالبيوت وعدم التجوال بحيث يفضل أن ينطبق عليهم قول المثل :

٦١٢ ـ لا شايح ولا رايح ·

والا تعرض المتجولون لخطر الموت لأنه كما يقولون الحجر الداير ايسبدله (لابد له) من لطه لأن فى هذا الوقت يكون :

٦١٣ ـ قوسها فالت ·

حيث يكون الضرب بالقوس والنشاب أو الرمى بالنار أمر لا ضابط له ولا رابط ، فالت ، وأحيانا يقولون :

٦١٤ ـ رسنها فالت ·

وفى هذه الفترة ينصحون بأن يلتزم كل فرد الحيطة والحذر لأن الأمور لم تستتب بعد ومن ثم لابد من اتباع نصيحة المثل الشعبى القائل :

٦١٥ ـ امسك أصبعك صحيح لا يمصى ولا يقيح ·

ويعنون بذلك محاولة اتخاذ أساليب الوقاية لما قد يحدث من اضطرابات عند فترات التحول والتبدل السياسية أو حتى الادارية لما يعتريها من أخطار ، ولا يعنون بذلك السلبية والانطواء بقدر ما يعنون تحلل مثل هذه الفترات وسيادة انتشار الاشاعات المضللة فيها لعدم وضوح الرؤية ومن ثم الانقياد لها فيقولون ·

٦١٦ ـ كذابها ربح ·

أى أن الكذابين يجدون فى هذا الوقت مرتعا خصيبا لهم فيربعون فيه ويصولون ويجولون ·

فهم يرون تبدل الانسان بتبدل ظروفه فيقولون :

٦١٧ ـ ان صرت دقماق دق وان صرت مسمار اصبر ع الدق ·

ورفضوا فى الوقت نفسه المبالغة فى الزهو والتفاخر حتى عند التغلب على الأعداء مؤمنين بأن :

٦١٨ ـ كتر الترفرف بكسر الجنحان ·

وهم فى الوقت نفسه يملكون طاقة طموحة للرقى والوصول لأعلى الرتب والمناصب دون المبالاة بما قد يحدث :

٦١٩ ـ اركب العالى ولا تبالى ·

لكنهم فى الوقت نفسه يحذرون من الوقوع فى الأخطاء خاصة لأصحاب الأسماء العالية والا وقعوا فريسة السخرية الشعبية ، يوم لاتتوافق أسماؤهم مع فعالهم فيتعرضون لمثلهم الشعبى القائل :

٦٢٠ ـ الاسم عالى والجسم بالى ·

السلطان

تمكنت هيبة السلطان ومكانته فى نفوس الناس ومن لف ملفه من أمراء وولاة والمتنفذين من أهل السلطة ومن تبعهم ، خاصة فى الفترتين المملوكية والعثمانية الاسلاميتين ، ومن وحى العقيدة الاسلامية ، كانت طاعتهم أمرا واجبا ومحتما على المسلمين جميعا ، والتمرد والعصيان عليهم يقابل بالنفور والادانة من قبل البعض باعتبار ذلك خروجا على الدين وطاعة ولاة الأمر · وطيلة الفترتين بل ومنذ الفتح الاسلامى وأرض الاسلام للاسلام بلا حدود ولا فواصل وكانت أرض فلسطين بأجنادها وسناجقها وولاياتها كتقسيمات ادارية قلب هذه الأمة الاسلامية وجزءا لايتجزأ منها، فكان منهم من ينادى بمثله الشعبى القائل :

٦٢١ ـ اللى بياكل من مال السلطان يضرب بسيفه ·

تأكيدا لطاعته والذود عن حماه مادام هو فرد من الرعية ينتفع من قوت الأرض ومال السلطان · مدللين على ذلك بقولهم :

٦٢٢ ـ اللى بيجوز امى باقوله يا عمى ·

اعتقادا منهم بأن الحاكم بأمره فى البلاد هو صاحب السلطة والنفوذ على رعاياه :

٦٢٣ ـ اللى حاكمك عاكمك ·

وكذلك ·

٦٢٤ ـ الناس مع الواقف ·

ولان السلطان بعسكره لا يستطيع أحد مغالبته :

٦٢٥ ـ الغلبان ما بناطح السلطان ·

معللين ذلك بقولهم المثل :

٦٢٦ ـ كف ما بيعاند مخرز ·

ولعلهم بذلك وقد ورثوا حكمة جدهم أحيقار كاتب سنحاريب ٧٠٤ ـ ٦٨١ ق·م عندما أوصى ولده بقوله : « فى حضرة الملك اذا أمرت بشىء فهو نار مشتعلة فاسرع وافعله ، لا تضع مسحا عليك ولا تغط كفيك ، لأن كلمة الملك (ممزوجة) بغضب القلب ، كيف يصارع الخشب النار ، واللحم السكين ، والانسان الملك » (١٤) ·

لهذا وتمشيا مع طاعة أصحاب السلطة قالوا :

٦٢٧ ـ اربط القرد مطرح ما يقولك صاحبه ·

وبنفس المعنى والمدلول قالوا :

٦٢٨ ـ ان لقيت ناس بتعبد العجل حش وارمى له ·

وكذلك :

٦٢٩ ـ مطرح ما بترسى دق الها ·

ولكن لا يستدل من ذلك بأنها الطاعة الخنوعية الذليلة ، فاذا ما حل غضب السلطان وجوره كانت طاعتهم الحذرة المستغلة لأنسب الظروف للرد عليه وصده ، ولهم فى ذلك تجربتهم المثلية القائلة :

٦٣٠ ـ الله ينصر السلطان واللى فى القلب فى القلب ·

وهم فى ذلك يضمرون فى قلوبهم بعكس ما يجرى على ألسنتهم لمعرفتهم بأن :

---

(١٤) بتينو موسكاتى ـ الحضارات السامية القديمة · ص (١٨٥) ·

٦٣١ ـ الايد (اليد) اللى ما بتقدر تعضها بوسها وادعى عليها بالكسر.

ومحاولة تمثيل المسكنة حتى يتمكنوا :

٦٣٢ ـ اتمسكنوا لما تتمكنوا .

مدعين مدارتهم وتمسكنهم ومحاولة دفن مآسيهم الى حين بقولهم :

٦٣٣ ـ اللى ايده فى الميه مش زى اللى ايده فى النار .

وكذلك :

٦٣٤ ـ اللى بياكل الضرب مش زى اللى بيعده .

فاذا ما اشتط السلطان ورجاله فى غلوائه واستبداد ظلمه استعاذوا بالله منه بمثلهم !

٦٣٥ ـ اعوذ بالله من ثلاث عناد الرهبان وكيد النسوان وظلم السلطان.

مخذرين بأن لا أمان للسلطان تماما كما لا للبحر والزمان بقولهم :

٦٣٦ ـ ثلاث ما الهم أمان البحر والسلطان والزمان .

لذا فقد انتفض الشعب العربى الفلسطينى فى العديد من حقبه التاريخية ضد أولئك المتسلطين بجبروتهم وتعسفهم من أدوات السلطة كالولاة الذين كثيرا ما كانوا يعتمدون على جنود الانكشارية لاكراه الشعب على دفع الضرائب الباهظة محذريهم ومنذريهم :

٦٣٧ ـ يا والى لا تجور الولاية لاتدوم .

مدركين تمام الإدراك بحسهم القومى والوطنى بأن هؤلاء الولاة هم أساس الانهيار بجميع مجالاته وفق تجربتهم المثلية القائلة :

٦٣٨ ـ ليش ها الخيمة بتنود قال من العمود .

فالبلاد كالخيمة يثبتها ويقويها عمودها الأوسط فاذا ما مالت أو اهتزت [بتنود] كان السبب عمودها الأوسط أو رئيسها وولاة أمرها. وبالتالى ينذرونهم من عاقبة الأمور :

٦٣٩ ـ ظلم الظالم ما بخليه سالم .

وكان الباشاوات من ركائز السلطة والذين لعبوا دورا رئيسيا فى طحن العديد من أبناء الطبقات الكادحة بل كثيرا ما كانوا يقودون

حملات (*) عسكرية لقهر الشعب . فهاهو على سبيل التمثيل لا الحصر ابراهيم باشا الجزاوى يقود حملة ضد مدينة نابلس وقلعتها « صانور » سنة ١٢٤٦ هـ فيتصدى لهم أهل المدينة داخل القلعة ويكشفون ألاعيبه العسكرية ويهزمونه ، ليغنوا بعدها مستهزئين به وبجنده :

٦٤٠ ـ ابراهيم باشا يا مغرور لبست الحجر طرطور (١٥)
كل القرايا طاعت ما عدا قرية صانور
صانور يا صانور لن فيها اسبوعه ونمود

كما دونوا هذا الاستهزاء والسخرية بهم عبر مثلهم الشعبى بعد أن اهتزت صورهم فى أعين الناس معبرين عن ذلك أصدق تعبير عبر مثلهم الشعبى القائل :

٦٤١ ـ بحساب الباشا باشا واتارى الباشا زلمه .

ومن رجالات السلطة الأمراء وكان للشعب تجاربه معهم التى تفيد بأن :

٦٤٢ ـ الأمير اللى ما بيعرف الأمير .

أى يحضون على الابتعاد عنهم وعدم التقرب اليهم ، لادراكهم بأن منهم ما كانوا يقترون على الشعب حتى رأو فيما يقدمونه مهما قل مغنما لهم :

٦٤٣ ـ دهما اجا من الأمير كتير .

وعبروا عن تسلطهم بأسلوب خفى لايخلو من الدلالات السياسية أو الاجتماعية بقولهم :

٦٤٤ ـ حمار الأمير أمير الحمير .

فلم يكن غريبا وحالتهم هذه أن يهب الشعب الفلسطينى فى وجه الأمراء بالغراضات أى المظاهرات صارخين (١٦) :

(*) مما فعله هذا الباشا وهو يحاصر قلعة صانور ان قام بتلبيس الحجارة المحيطة بالقلعة بطرابيش كى يطلق عليها المحاصرون رصاصهم ليستنفدها الا أنهم كشفوا حيلته وردوه على عقبيه . وقاوموا أيضا عثمان باشا الكرجى وهزموه أمام نفس القلعة .

(١٥) انظر احسان النمر ـ تاريخ جبل نابلس والبلقاء ـ جـ٢ المرجع السابق ص ٥٥١ عمر البرغانى وآخرون ـ تاريخ فلسطين ـ القدس ١٩٢٣ ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤ .

(١٦) احسان النمر ـ جـ ٢ المرجع السابق ص ٥٥١ .

٦٤٥ ـ قوم ارحل يا امير الشـــام
قوم ارحـــل وامشى قدام
هـونا مـا عدنك مقـــام

وللنقيب ممارساته الشعبية فى فض النزاعات والمشاكل بين الحارة أو الطائفة فكان يبدو تحيزه أحيانا لأبناء طائفته أو أقربائه على حساب الآخرين ، فقام الشعب بتعرية هذا التحيز وكشفه بمثله الشعبى القائل :

٦٤٦ ـ يا بخت من كان النقيب خاله !!

كذلك كان لبعض القضاة فى أوقات التسيب الادارى دورهم السلبى فى التمييز والتحيز بين الناس فتجدهم يسألون بمثلهم الشعبى متعجبين :

٦٤٧ ـ ان كان غريمك القاضى تشتكى لمين ؟!

ويحسدون ابنه صاحب الامتيازات المفضلة بقولهم بتعجب :

٦٤٨ ـ تشتكى لمين يا اللى ابوك القاضى ؟!

وقد ازداد عسف بعض القضاة وتحيزهم عند نهاية القرن التاسع عشر بفلسطين مما حدا ببعض القضاة الشرفاء أن يشهروا فى وجوههم سيف العدالة ويقاومونهم بكل عناد وتحد ويفضحونهم حتى عند السلطان نفسه فقال أحدهم شعرا يفضح أمرهم قائلا فى سنة ١٨٨٠ ميلادية (١٧) :

٦٤٩ ـ لله نشكو قاضيا   هو فى القضا سوء القضا
ما فيه من حسن سوى   بسط الأكف ليقبضا
وبكل زور باطل   قول الأيمة عارضا
ومجاهر بالارتشا   ومصرحا ومعرضا

وقال بعض شعراء أبناء مدينة غزة فى نفس الفترة يصف ولاة أمورها وبعض ولاتها بقوله :

(١٧) سليم المبيض ـ غزة وقطاعها ـ الهيئة العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٨٧

٦٥٠ ـ احذر نكاية من بغزة انها   بلد يغص بها الضعيف ويقعقع
ما بين قاضيها ووالى امرها   حق يضيع والف زور يطلع

صورة قائمة لسوء الأحوال الادارية والسياسية فرضتها عليها تكالب الدولة الأوربية الاستعمارية بالدس والخديعة والتحريض ضد الدولة العثمانية وانهاكها بحروب جانبية أتاحت لبعض المرضى فرصة السباحة فى المياه الآسنة العكرة ومحاولة ابتزاز الناس وتقبل الرشاوى والذى يطلق عليها أبناء الشعب « البراطيل » التى استنكروها استنكارا عنيفا كما علمهم بذلك دينهم الحنيف وسجلوا مثلا شعبيا ليسهل الاقتداء بها قائلين :

٦٥١ ـ البراطيل بتنصر الأباطيل ٠

لأن هذا الاسلوب لايستخدمه الا الضعاف وعديمو الثقة فى أنفسهم لعدم أهليتهم لما يبتغونه ، من هنا تأتى أباطيلهم لو وصلوا لما يريدون وبنفس الاسلوب ٠٠ ففى نظر الشعب أن :

٦٥٢ ـ البراطيل بيتحل شاشة القاضى !

بل ولها الفعالية فى نفوس الضعفاء لدرجة أنها :

٦٥٣ ـ البراطيل بيتحل السراويل !!

حتى وصلوا بتعريفهم « للبراطيل » ومدى تأثيرها على النفوس الضعيفة بقولهم :

٦٥٤ ـ البراطيل شيخ كبير ٠

وعلى ذكر الشيخ والمشايخ فقد كان لهم دورهم فى جباية الضرائب عن مناطقهم لكى يقدموها للأمير أو الوالى وما زاد على ذلك يأخذونه لهم ومنهم شيخ الطائفة الحرفية الذى هو بمثابة حلقة الوصل بين أبناء الطائفة الحرفية أو أبناء الحارة « شيخ الحارة » وبين السلطة سواء الإدارية أو السياسية لمعرفته بكل أبناء طائفته أو سكان منطقته ، ولشدة سطوة البعض منهم يقولون عنهم شعبيا :

٦٥٥ ـ كلب الشيخ شيخ ٠

ازدراء بكل العناصر التى كانت تدور حول فلك هؤلاء المشايخ ومساعدتهم لأنهم فى رأيهم أشد خطرا منهم موضحين ذلك بمثلهم القائل :

٦٥٦ ـ نفس العبد من نفس سيده .

بل هناك من يعتقد بأن « العبد » كثيرا ما يتصرف لاثبات اخلاصه وحسن نواياه لسيده بأنه أشد منه تطرفا فيقولون :

٦٥٧ ـ نفس العبد احمى من نفس سيده .

ومن رجالات السلطة الضاغطة بل والمتصصة لطاقات الشعب وانتاجهم خاصة الفلاحين « المحتسب » أو « الجابى » ويطلقون عليه احيانا أسم « المخمن » أى الذى يقوم بفرض ضرائب عينية ، أو مالية على محاصيل الفلاحين وذلك عن طريق « التخمين » الجزافى والمبالغ فيه عمدا لكى يأخذ ما يزيد دون الالتفات الى اعتراضاتهم أو شكواهم ، فاكد الشعب هذه العلاقة السلطوية الجائرة بينهم وبين سلطة السرايا ممثلة فى شخص « المخمن » بقولهم :

٦٥٨ ـ حساب القرايا ما بزبط ع حساب السرايا .

وغالبا ما يقوم بهذه المهمة أيضا « الملتزم » الذى يبذل قصارى جهده فى ابتزاز الفلاحين بكرباجه المسلط على أجسادهم تحرسه عسكر السلطة مما يدفع العديد منهم الى التنازل عن أملاكهم ليضيفها الملتزم على أملاكه فاصبحت لهم الأبعديات والأملاك الشاسعة ولسان حال الفلاح يردد مثله الشعبى :

٦٥٩ ـ خود من فقرهم وحطوا على غناهم .

وكذلك :

٦٦٠ ـ ناس بتاكل جاج (دجاج) وناس بتقع فى السياج .

لتزداد الهوة الطبقية بين الناس اتساعا وعمقا فيصبح منهم كما يقول المثل .

٦٦١ ـ ناس عزة وناس معزة .

فلا عجب أن يصنف الشعب مثل هذه الفئة بأنهم « أولاد حرام » ومن تعبيرهم المثلى الشعبى القائل :

٦٦٢ ـ ابن الحرام يا قواس يا مكاس .

فالقواس بالتعبير الشعبى هو الجندى ضارب النار أما « المكاس » فهو الجابى أو « المخمن » وكلاهما متلازمان .

فالعساكر هم كرباج السلطة التى تشد أزرها وتنفذ جبروتها ، فالشعب يؤكد بأن السلطان بلا عسكر موته أفضل :

٦٦٣ ـ سلطان بلا عسكر موته استر .

وهؤلاء العسكر خاصه « الانكشارية » كانوا على جانب من سوء الخلق لطبيعة نشأتهم فى الثكنات ولكونهم مجلوبين من فئات وعناصر شتى [مغاربة ـ مماليك والغز والتتر] ولا يتحلون بالالتزام أو الانتماء لعشائر أو قبائل ومن ثم فهم فى حل عن أية مسؤولية . يبرهن على ذلك ما ذكره عنهم المحبى والمرادى وكذلك ابراهيم العورا فى كتابه « تاريخ ولاية سليمان باشا العادل » وكذلك فى كتاب تاريخ لبنان للشهابى . وردد شعبنا هذه الصفات كما دونها فى نواميسه المثلية الشعبية بقوله :

٦٦٤ ـ زى غز التتر لا يوحشه من غاب ولا يونسه من حضر .

أى انسان بلا انتماء لأهل أو أصدقاء . كما لايتصفون بالوفاء ورد الجميل الا بنقيضه :

٦٦٥ ـ آخر خدمة الغز علقة .

وكثيرا ما كان هؤلاء العسكر يمتصون دماء السكان والفلاحين خاصة بطلباتهم العديدة سواء لهم أو حتى لخيولهم وبالاكراه كما سجل ذلك أبناء الشعب الفلسطينى بقولهم السائر الذى جاء على لسان أحد العساكر بقوله :

٦٦٦ ـ عن طبخة عدس ما بتنازل .

وذلك بعد مفاوضات عدة ومتكررة مع أحد الفلاحين الفقراء الذى لم يكن لديه ما يقدمه حتى وصل بالعسكرى ان يطلب « طبخة عدس » ولن يتنازل عن ذلك .

لذا كان هؤلاء العسكر مصدر شؤم واستياء من قبل الفلاحين حتى بمجرد رؤيتهم لهم يقولون :

٦٦٧ ـ جاى من غزة والدولة وراه !!

بمجرد قدوم الجابى أو الملتزم أو أى فرد يتبعه أو يرافقه عسكرى فهذا يعنى ان هناك مصيبة سوف تحل بسكان المنطقة .

حتى أضحت خيولهم مضرب الأمثال لدى الشعب لأنها هي نفسها مصدر ابتزاز وعنوان البطالة ، فقد كانت السلطة تفرض على الشعب أن يقدموا علفا لها كما جاء في احدى الوثائق التي تعود لنهاية القرن السادس عشر الميلادي يطلبون فيها تقديم علف للخيل من قاضي غزة وذلك بتكليف كل خمسة عشر رب أسرة علفا لحصان واحد » (١٨) وعليه سجل الشعب مثل هذه الوقائع بسجله الشعبي القائل :

٦٦٨ ـ معلوف موقوف مثل خيل الدولة ٠

رمزا للانسان الخامل الذي لايعمل ويعيش عالة على الآخرين ٠

حتى انهم رأوا في حصان الدولة هذا ـ والذي أحبوه شعبيا وقدروه ـ شعارا للقهر حتى ولو كان أعرج :

٦٦٩ ـ حصان الدولة أعرج وبسابق الغزلان ٠

ليدلوا بذلك على أن موظف الحكومة يستمد قوته وجبروته من السلطة على الناس على الرغم من ضعفه ٠

وعليه كان هؤلاء العسكر يتخذون كل وسائل القهر في انتزاع ما يريدون بوسائلهم التي يفضحها المثل الشعبي :

٦٧٠ ـ أضرب اللي في البور بيخاف اللي في العمار ٠

لذا كثر عدد المساجين ظلما :

٦٧١ ـ ياما في السجن مظاليم ٠

وعلى الرغم من ذلك كانت للشعب العربي الفلسطيني ارادته في رفض أي رجل من رجال الدولة مهما كان منصبه سواء أكان واليا أم قاضيا، فكان قضاتها الشرفاء ومعهم المفتون وكذا النقيب والميرالاي يساندهم العلماء والتجار يختارون من يرون فيهم الكفاءة ويخرجون حجة بذلك من مجلس الشرع بل وكثيرا ما شكلوا آلايات السباهية من أبناء مدنهم وقراهم وعشائرهم واستطاعوا أن يخلصوا البلاد من شر الانكشارية والمماليك بالتدريج كما فعل آل النمر بنابلس (١٩) وآل رضوان

---

(١٨) سليم المبيض ـ غزة وقطاعها ـ المرجع السابق ص ٢٦٦ ٠

(١٩) احسان النمر ـ تاريخ جبل نابلس والبلقاء ـ ج ٢ المرجع السابق ص

بمدينة غزة الذي انحدر منهم أكثر من عشرة باشاوات وصدور عظام (٢٠) منذ نهاية الفترة المملوكية وحتى منتصف القرن السابع عشر الميلادي وكذلك آل فروخ وطرابية في الشمال (٢١) ٠

الشورى والديمقراطية

وكان هؤلاء الأمراء العرب الفلسطينيون قد سيطروا في القرنين السادس عشر والسابع عشر على معظم مساحة الأرض الفلسطينية وقادوا مدنها وقراها ومضاربها مقتدين بالشريعة والعرف ويحترمون الشورى ويقدرونها سواء وهم داخل الحكم والادارة أو خارجه ، فكانوا يقربون اهل العلم وعلى رأسهم القاضي والمفتي والشيوخ كما يستمعون لمشورة شيوخ العشائر ويحترمون أحكامهم العرفية بل ويستطيع أي شخص من أفراد الشعب مقاضاتهم عند الضرورة ، يحدوهم في ذلك مثلهم الشعبي :

٦٧٢ ـ الشور من اهل الشور بسوى قبيلة والشور من غير اهله راح دمارا ٠

هكذا يحترمون أهل المشورة حيث كانت دواوين الأمراء تكتظ بالشيوخ والقضاة والتجار ومن أراد مشورة أو ليرفع لهم مظلمة ٠

وهم لا يأبهون بأخذ مشورة الصغير المتعلم أو الكبير صاحب الخبرة والتجربة كما أوصتهم تجارب أجدادهم القائلة :

٦٧٣ ـ شاور اللي أكبر منك واللي اصغر منك وارجع لعقلك ٠

كما لا يرون في المشورة منقصه أو معيبه لهم :

٦٧٤ ـ اللي بيشاور ما بيعيب ٠

كذلك فانهم قد فطنوا لنتيجة المشورة وأدركوا نتائجها القيمة الناجحه ٠

---

(٢٠) عمر البرغوثي وآرخون ـ تاريخ فلسطين ـ القدس ١٩٢٣ المرجع السابق ص ٢٣٧ ٠

(٢١) خالد محمود طرابية ـ آل طربية عبر التاريخ ـ القدس ـ ١٩٧٦ ٠

٦٧٥ ـ ما خاب من استشار وما ندم من استخار .

وهم يحترمون صاحب المشورة الاصوب مهما دنت مكانتة الاجتماعية بين الناس فهـا هى احدى القبائل العربية الفلسطينية « الوحيـدى » تختلف مع أهل قرية المسمية على قطعة أرض فى منطقـة « المخيزن » فشار كبير أهل المسمية باخذ الأرض وضمها لقريتهم ولو بالقـوة ، عنـدها قام رجل بسـيط يدعى « كراز » فاشـار عليهم بقسـمة الأرض مناصـفة حيث تضم الأرض القريبـة من قرية المسمية للقرية والأخرى القريبة من « المخيزن » التابعة للوحيدى لهم فاقر الجميع رأى كراز ومشورته حتى ذهبت مثلا بينهم يقول :

٦٧٦ ـ اللى عقب شورى واللى قلط شور كراز .

من هنـا نظر الشعب الفلسطينى بازدراء لتلك « الحمولة » أو القبيلة التى ليس لها كبير تتبع مشورته قائلين :

٦٧٧ ـ خيبة حمولة ما الها شوار .

ويقولون :

ها العيلة زى قاع الكيلة ما الها رأس ولا قاع .

رافضين بالتالى وبعنف التعنت والتمسك بالرأى والتعصب له واصفين صاحبه بمثلهم القائل :

٦٧٨ ـ شورو من زورو .

٦٧٩ ـ كل واحد بزرع حقله ع عقله .

وبمثلهم القائل بنفس المعنى :

٦٨٠ ـ كل واحد بيركب حمارته ببصارته .

كذلك يكرهون أسلوب :

٦٨١ ـ يخرب بشورى ولا يعمر بشورك .

هذا المثل الذى لا يخرج الا عند اشـتداد الغضب والشجار بين البعض . أو كما يقولون أحيانا :

٦٨٢ ـ الشور لتنين (اثنين) وضرابين السيف الفين .

كذلك فان الشورى واتباع الصدق فى القول علمتهم الجراة فى الفصل وبشجاعة فى البت فى قضاياهم ما داموا على الشرع والأعراف الفاضلة يتبعون وفى خلدهم مثلهم الشعبى :

٦٨٣ ـ افضح الشرع يسترك .

فاعلان الشرع واتباعه هو لهم ستر من كل العيوب ، متبعين أسلوب الصراحة لأن كما يقول المثل :

٦٨٤ ـ الصراحة راحة .

ولو أن هناك من يخافها معلنا بذلك بقوله :

٦٨٥ ـ الصراحة مرة .

متبعين اسلوب الحوار الحر دون ما اعتراض أو احراج بقولهم :

٦٨٦ ـ رد الجواب مش عداوة .

لكن رد الجواب باسلوب فظ أو للمماطلة فانه غير محبب فيقولون:

٦٨٧ ـ رد الجواب عداوة ولو بالهداوة .

لذا فلا مانع لديهم من كثرة الأسئلة بل ويفضلونها عن أسلوب المراوغة والدوران بلا طائل :

٦٨٨ ـ كتر من السؤال وقلل الدوارة .

لأن فى نظرهم حلاوة الكلام كلمة واحدة مختصرة ومفيدة :

٦٨٩ ـ حلاوة الكلام كلمة .

ويفضلون الحديث مواجهة أفضل من اسلوب النميمة المبتذل :

٦٩٠ ـ قوله فى وشه ولا تغشه .

ومن اتصف بذلك يقولون عنه :

٦٩١ ـ **ما عندوش دقن مشطة .**

وكذلك :

٦٩٢ ـ **بيقول للاعور اعور فى عينه .**

ويكرهون فى الوقت نفسه المنافقين الذين يتلونون كالحرباء ويتجهون كدوارة الرياح فى كل اتجاه متبعين كما وصفهم المثل الشعبى :

٦٩٣ ـ **معاكوا معاكوا عليكوا عليكوا .**

وكثيرا ما كان الشعب يسخر من بعض الفئات المتسلقة شيطانيا فى مناخ التلوث السياسى والضعف الادارى فتجد البعض يمتطون مراكز هم ليسوا أهلا لها لكنهم الأكثر ملائمة لخدمة السلطة لضعف شخصياتهم وسهولة انقيادهم فتأخذهم العزة بالاثم ويحيط بهم فئات منتفعة تسبغ عليهم من الصفات ـ تملقا وضحكا ـ بما ليس فيهم وصولا لمآربهم فيقولون عنهم :

٦٩٤ ـ **من قلة الرجال سموا الديك أبا القاسم .**

ومثل شعبى آخر يقول :

٦٩٥ ـ **بعد ما كان أبو بككرة صار أبو بكار .**

وبنفس المعنى :

٦٩٦ ـ **بعد ما كان أبو هريرة صار أبو الهدار .**

واختصارا لك بالاسلوب الشعبى المفعم بالتورية الساخرة يقولون :

٦٩٧ ـ **تبدلت غزلانها بقرودها .**

مفرغين شحنة غضبهم فى الزمان وتبدلاته العسيرة قائلين :

٦٩٨ ـ **الله يلعن ها الزمان اللى انخلط فيه القمح بالزوان .**

معبرين عن ذلك بأسلوبهم الشعبى فى التورية قائلين :

٦٩٩ ـ **اسلطن البوم والجعران لبس أطلس ، والنـدل قال للسبع صحت النوم .**

وقولهم :

٧٠٠ ـ **ركب الفار فوق القط وآتنمر .**
وجماعة الفار اشى طبل واشى زمر
والجعــران لبس اطلس .

هذه التحولات الفجائيــة الشاذة وليدة الظروف الاستثنائيــة المتحللة التى غالبا ما تكون نتاج وأعراض لشيخوخة السلطة المترهله مع ما يلازمها من فساد وافســاد على أيدى طغمة مريضة تسعى جاهدة للتسلق فى أدغال الفوضى ، دفع أبناء فلسطين من شعراء غزة أن يصف مثل هذه الحالة سنة ١٣٠١ هـ قائلا :

دع ما ترى فى غزة من ظلمه　　واضـح الى نيـل العلا بالهمة
قد ساد سافلها وحط رفيعها　　وتظاهرت فيها جيوش القلة
وتسابقت عرج الحمير بها الى　　نيل المعالى ثم سامى الرتبـة

هذه الصورة من التردى كان يكرهها الشعب ، لكنه على مايبدو هو قدر كل دولة المحتوم وعرض من أعراضها التى لا فكاك عنه لتأخذ دورها ثم تزول ، وقد وعى الشعب الفلسطينى وأدرك هذه الحقيقـة الحتميـة فدونها عبر أمثاله الشعبية قائلا :

٧٠١ ـ **كل وقت وله دولة ورجال .**

وبقوله :

٧٠٢ ـ **كل قوم والهم يوم .**

كما لم يألو الكثيرون من أبنـاء هذا الشعب جهدا فى سـبيل التوسط أو محاولة خلاص العديد من أبنـاء شعبهم عند محاكمة البعض منهم بالشنق حتى الموت الصادرة عن جمال باشـا ابان الحرب العالمية الأولى وأثنائها فمنهم من نجح وآخرون فشلوا ومنهم « ابن مهنا » الذى وصل من فلسطين لمدينة دمشق ، وعندها أسـمعه الأتراك أن « يهرب بجلده » والا فان حكم الاعدام سيصله ومن معـه ، فعاد خائبا مما دفع أبناء قريته أن يتخذوا من موقفه هذا مثلا شعبيا قائلين :

٧٠٣ ـ **كتر غلبة ابن مهنا ودتو ع الشام .**

وأمر جمال باشا أثناء الحرب العالمية الأولى أبناء مدينة غزة باخلاء منازلهم والنزوح عن المدينـــة ـ ولو زحفـا على البطون ـ ومن يتخلف

سيحرق في منزله ، أملا في الدفاع عن مدينة بلا سكان وذلك لصد هجوم الانجليز وحلفائهم القادمين من مصر ، فأمتثل السكان وهجروا المدينة الى مدن الشمال والشرق الفلسطيني ومعظمهم اتجه نحو النقب ، ذاقوا خلالها الأهوال ولمدة تزيد قليلا على العامين - فاضحى هذا الرحيل تاريخا لهم محفورا في اذهانهم بقولهم :

٧٠٤ ـ سنة رحيل غزة ·

وقد صور هذا الرحيل الذى يعتبر من أخطر ما تعرض له ابناء المدينة في تاريخهم ، الشاعر الشعبي الفلسطيني قائلا :

٧٠٥ ـ ترحل غزة واطرافينا ... ويبقى الوش ما يحمى عجوزته
ويبقى العز في ظهور الجمال ... واللى عنده بنت عمه حليلته
يديلها الركاب وتشيل ... واللى عنده حرمه أجنبية
يخيرها ما بينه وبين أهلها

هكذا كاد الرحيل والفقر أن يفرق بين الزوج وزوجته ويمزق كيان الأسرة الواحدة ·

وانتصرت بريطانيا الامبراطورية ومن معها ودخلوا غزة بعد أن قتل منهم الآلاف قبروا جميعا في أرض غزة التى تبرع سكانها بالأرض للامبراطورية أملا في نيل الاستقلال كما وعدوا العرب بقيادة الشريف حسين ذلك الوعد الموهوم من امبراطورية أثبتت بالوقائع بأنها خائنة وغادرة للأمة العربية الاسلامية عامة وللفلسطينيين خاصة ، لتؤكد بأنها أول امبراطورية ارهابية تخريبية كما بدا من اتفاقية سايكس بيكو ١٩١٦ ، ووعد بلفور المشئوم ٢/١١/١٩١٧ ثم تفصيل الحدود الصناعية الممزقة لجسد الأمة العربية الواحدة ولأول مرة في تاريخها في العشرينات الأولى ، لا لشيء ـ الا تمهيدا لزرع دولة صهيونية على حساب تشريد شعب بأكمله ، كأبشع جريمة بربرية اقترفتها بريطانيا مع فاتحة القرن العشرين ، فكان انتدابها احتلالا ثنائى الجريمة بدأت معه تضع جذور الدولة الصهيونية ، وذلك بوسائل أجملها من مذكرات مخطوطة لرجل دين فلسطينى عاصر المحنة فسجلها سنة ١٣٢٠ هـ تحت عنوان ويلات عهد الانتداب :

ـ كثرة الغرامات ·

ـ فحش الضرائب ·

ـ تسهيل المعاملات لليهود ومنحهم الوظائف العالية والتعهدات الكبيرة والقروض الفخمة والمشاريع المهمة ·

ـ كثرة السماسرة على بيوع الأرض ·

ـ ارهاب الشعب الفلسطينى وحملة على بيع الأرض [الا انه لم يفرط في شبر من أرضه] ·

ـ محاربة الحكومة للأهالى وشدة الأحكام ضدهم بالطرد والتعذيب والاعدام لأتفه الأسباب وعلى العكس مع اليهود ·

ـ افساد الاخلاق وظلم الراعى للرعية ·

مضافا لكل هذا غيبوبة الوعى العربى وجهله بما يدور حوله حتى وصل ببعض الدبلوماسيين العرب آنذاك للاشتراك في احتفال اليهود بافتتاح مؤسساتهم على الأرض الفلسطينية ومنها (الجامعة العبرية بالقدس) · وهكذا انطبع في الذاكرة الفلسطينية قولهم المأثور ·

٧٠٦ ـ الاحتلال انحلال ·

وانتكست العلاقة بين العربى الفلسطينى المسلم والمسيحى مع الأقلية اليهودية التى كانت تعيش في كنفهم ، هادئة البال تمارس شعائرها بحرية وحماية يوم لم يجدوا هذا الحب والاخاء في انجلترا وفرنسا وألمانيا واسبانيا كل مكان حلوا فيه ، طردوهم وشردوهم باستثناء الصدر العربى المسلم من الخليج حتى المحيط الذى احتضنهم ، فالبتهم الحركة الصهيونية ممن جمعتهم من الأوروبيين المتهودين واليهود المتأوربين وزجت بهم الى الأرض الفلسطينية بعد عام ١٨٩٧ م بوجه خاص · فبدأوا يوغرون بخناجرهم هذا الصدر الحنون مما أعاد للذاكرة الفلسطينية المسلمة قصصهم القديمة والمجملة بقولهم :

زى يهود خيبر ·

وبدأ الصهيونى من اليهود في اصطياد كل الفرص لقهر العربى الفلسطينى ممتلكا السند العسكرى البريطانى الذى خان انتدابه ، والمال الصهيونى فقاومها الفلسطينى بكل ما يملك ولسان حاله يردد مثله الشعبى ·

٧٠٧ ـ في ملكى وبيعركنى ·

وتركت بريطانيا الأمراض تفتك بالانسان والزرع والضرع دون أدنى عناية أو رعاية فانتشرت في العقد الأول من الاحتلال البريطانى

من ١٩١٧ وحتى ١٩٢٧ مرض الحمرة للزرع وحمى التيفوئيد ثم القحط والغلاء وقلة الأمطـار وشـدة الحر التى أضرت بالمزروعات وشدة البرد وهلاك المواشى ثم الجراد وفيران الأرض وأخيرا زلزال ١٩٢٧ وخـراب العديـد من المدن ودمارها خاصـــة نابلس والرملة واللد وغزة ٠

ومعهم جميعا كساد الأسواق وبريطانيا الامبراطورية تنظر وتشاهد لمآسى هذا الشعب الاقتصادية والسياسية والاجتماعية فى حين تعترف للطرف الآخـر ببناء المؤسسات والشركات والجامعات وتعترف أيضا باللغـــة العبرية كلغـة رسـمية بعد ان انتشلتهـا من حفائر التاريخ وعليه كان الويل كل الويل لمن يحتاج اليهودى :

٧٠٨ ـ احتاجوا اليهودى قال اليوم عيدى ٠

لما انطبع عليه من الخبث والمكر الناجم عن عقدة الخوف المتأصلة فى بنيتهم النفسية ٠

وصنع الانجليز ـ وكما سـبق ذكره ـ صنيعتهم النكراء بوضـع أول حدود صناعية فاصلة ودون استشارة أبناء البلد تقسم فلسطين عن الأردن وسوريا ولبنان مع بداية العشرينـات وسبقته بأن فصلت فلسطين عن مصر بحدود سنة ١٩٠٦ م وبذا أصبح الفلسطينى يردد قولته السائرة :

٧٠٩ ـ من النهر للبحر ٠

كحدود لوطنه تمتد من نهر الاردن شرقا والبحر المتوسـط غربا وبدأت بريطانيا والصهيونية تتسلل داخل الأرض الفلسطينية ، ومعها بدأت المقاومة الفلسطينية الشعبية بكل ما يمتلكون من قوى كللهـا الشعب باضرابه الذى لم يسبقه به شعب دام ستة شهور فى عام ١٩٣٦ أصبح تأريخا فى الوجدان الشعبى يرددونه باستمرار بقولهم ٠

٧١٠ ـ فى ضراب الست تشهر « اضراب الستة شهور » ٠

وقد كسر هذا الاضراب ملوك ورؤســاء الدول العربيــة آنذاك ، فاستجاب لهم الشعب الفلسطينى ولوساطتهم التى أثبتت فشلها ٠

وقاوم العرب الفلسطينيون بكل الوسائل فكانوا يبيعون ما بأيدى نسائهم من ذهب لشراء الأسلحة المتخلفة فى الغالب من الحرب العالمية الأولى والثانية ليقاوموا بها الانجليز والصهيونية ، كما قاوموا المؤامرات

التى كانت تدفع مبالغ باهظة لمن يقوم ببيع الأرض التى قام ببيعها بعض العرب من اللبنانيين والسوريين فى الشمال الفلسطينى خاصة بعد رسم الحدود فشعروا وكأنهم أصبحوا فى بلد غير بلدهم ٠

وعندها رفع الشعب الفلسطينى أمثاله التى كانت وما زالت بمثابة سهام تقذفها فى وجود أولئك القلة (*) :

٧١١ ـ بياع أرضه بياع عرضه ٠

٧١٢ ـ الأرض عرض ٠

٧١٣ ـ اللى ما الو عطن ما الو وطن ٠

وقامت حرب ١٩٤٨ بعد اعلان قيـام اسرائيـل كدولة ، فدخلت الجيوش العربيـــة ـ التى قامت أول ما قامت به ـ بتجريد الشعب الفلسطينى من سلاحه لتقاوم هى بنفسها ـ والله أعلم ـ ثم انسحبت ، ولا ندرى كيف انسحبت ! جميعها ودون استثناء ٠ فكان لذلك رد فعل سلبى على سكان القرى والمدن فهاجروا تحت وابل الرصاص وضرب الطائرات الاسرائيلية والمجازر والتقتيل واتجهوا لمدن وقرى غزة والمدن الجبلية الوسطى (الضفة الغربية) ٠ ولسان حالهم يردد مثلهم :

٧١٤ ـ الدار دار أبونا واجو من الغرب يطردونا ٠

واستقبلهم اخوانهم من أبناء المدن والقرى هذه فأسكنوا بعضهم فى بيوتهم وآخرون استوطنوا البيارات والحقول وفئة أخرى سكنت الخيام التى لم تكن تقيهم برد الشتاء ولا حر الصيف تذروها الرياح وتمزقهـا بين الحين والآخر ٠ وجلس العرب بعد ذلك وفى عام ١٩٤٩ مع اليهود فى رودس ليضعوا خطوط وقف اطلاق النار وبمقتضاها ظهر على الخريطة

(★) باع آل سرسق الأغراب عن البلاد « لبنانيون » ما بين عامى ١٩٢١ و ١٩٢٥ أكثر من ٢٠٠ ألف دونم تشمل على ٢٢ قرية فى سهل مرج بن عامر ٠ كما باع آل التيان وهم ايضا غرباء عن فلسطين فى عام ١٩٢٩ ما مساحته ٣١ ألف دونم فى منطقة وادى الحوارث ٠ كما باع السوريون الغير مقيمن فى البلاد الفلسطينية ما مساحته ٦٥ ألف دونم فى منطقة سهل الحولة ٠

ارجع الى د٠ يوسف هيكل ـ القضية الفلسطينية ـ يافا ـ مطبعة الفجر ـ بدون تاريخ ص ١٤٦ ـ ١٤٧ ٠

الفلسطينية ما اسموه « قطاع غزة » (*) « والضفة الغربية » (**) فاصبح شعبنا فى القطاع يردد مقولته وتعبيره السياسى الشائع :

٧١٥ ـ من الشط للخط ٠

أى من شاطىء البحر المتوسط غربا لخط وقف اطلاق النار شرقا وبعدها أخذ الشعب الفلسطينى يعيش على أمل العودة ، ينشد صباح مساء نشيده الوحيد « عائدون ٠٠ عائدون ٠٠ اننا لعائدون » ٠ ويرفع شعارات عدة بعد كل ضربة يتلقاها من خلف خطوط وقف اطلاق النار ، صائحا « نريد التجنيد الاجبارى » يصرخ بها دوما فى مظاهراته الشعبية التى لم تكن تدوم طويلا ! رافضا الخيمة ـ وكرت التموين ـ وسياسة التوطين مرددا « يسقط مشروع التوطين » ٠ وأسقطه هذا الشعب المكافح بالفعل فى الخمسينيات الأولى ٠

وما كان الجوع والتشريد وسياسة الضرب بالحديد الصهيونى ضد هذا الشعب الا وزادته ايمانا بقضيته وانتفاضا ضد البغى ، فكان الاعتداء على محطة غزة لتدمير آبار المياه الوحيدة (*) التى تروى أبناءها فى عام ١٩٥٥ م بمثابة نقطة انطلاق فنهض أبناء مدينة غزة بمظاهرات صاخبة حولت مجرى التاريخ للمنطقة ٠٠ أجل دفعت برجال الثورة المصرية للتوجه ولأول مرة نحو الكتلة الشرقية تطلب منها المدد والعون « صفقة الأسلحة التشيكية » وعززت خطوط وقف اطلاق النار بقوات مصرية مدافعة ٠

ولم تخب جذوة الحماس والطموح نحو العودة ، فالكل يعيش عيدا وراء عيد مرددين :

٧١٦ ـ عيدنا عودتنا ٠

معتبرين أنفسهم « أغراب » حتى وهم على ثرى وطنهم الكبير

(*) اصبح قطاع غزة ومساحته ٣٦١ كيلومترا مربعا يقع تحت الادارة المصرية ويضم معسكرات « جباليا ـ الشاطىء بغزة ـ البريج ـ النصيرات ـ المغازى ـ دير البلح ومعسكر خانيونس ومعسكر رفح » ٠

(**) الضفة الغربية وضعت تحت ادارة المملكة الاردنية الهاشمية ثم ضمت اليه سنة ١٩٥٠ « اتفاق أريحا » ثم أعلن الملك حسين فك ارتباطه بها سنة ١٩٨٨ ٠ ومساحة الضفة ٥٥٠٠ كيلومتر مربع ٠

(*) أغارت القوات الاسرائيلية على بئر الصفا بمدينة غزة ليلا قتل على أثرها العديد من أبناء فلسطين المجندين ٠

فلسطين ، يريدون العودة لقراهم ومدنهم ٠ فهاهو شاعرهم الشعبى وقد صهرت قلبه الغربة وأذابه الحنين ينفث بكلماته الجياشة علها تخفف عنه منشدا :

٧١٧ ـ قول قضيت فى غربتى عيد ورا عيد
وأنا عن بلادى وأهلى بعيد

وكل ما اذكر حالة وطنى   يصير فؤادى لهيبه يزيد
قضيت فى غربتى عيد ورا عيد

قضيت فى وطنى الغالى زمان   جميل ما بين أهل وخلان
وكان سرورى أشكال الوان   ساعات جميلة ودهر امان
عاود غراى صار انتقام   واذا الحرامى رمانى كمان
قضيت فى غربتى عيد ورا عيد

مسكينة يافا مضا الها زمان   ماتقولش الا باريس تمام
على طول حكمها بحكم اعدام   صار القنابل فوق الحمام
تقول زلازل زايدة رعيد
قضيت فى غربتى عيد ورا عيد

انزلت أجرى وسبت الدار   بعفشها يلهب نار
شفت الأكابر والتجار تقول   حمام رفرف طار
سابوا البضايع للى يريد
قضيت فى غربتى عيد ورا عيد

روحت ناحية المينا أشوف   لقيت هناك ميات وألوف
اجيت أنا بمركب محذوف   وين رايح بى مش معروف
وقولت روحى فى البحر سوحى   يا حسرة ايش طالع بالايد
قضيت فى غربتى عيد ورا عيد(*)

وفى عام ١٩٥٦ وقع العدوان الثلاثى [بريطانيا ـ فرنسا ـ اسرائيل] على مصر فاجتاحت القوات الاسرائيلية قطاع غزة واستولت عليه يوم الجمعة ٢/١١/١٩٥٦ وقاوم الشعب الاحتلال التى لم يستمر سوى أربعة شهور ، انسحبت بعدها اسرائيل فى ٧/ مارس / ١٩٥٧ م بعد

(*) هذه أشعار المواطن الفلسطينى الحاج فهمى حرب (٧٠ سنة) بحى الشجاعية الجديدة ٠ كان يشدو باشعاره هذه فى العديد من المناسبات ٠

املاء شروطهم ومنها عدم عودة الادارة المصرية لقطاع غزة وكذا الفدائيين ثم تدويلها ·

فهب الشعب الفلسطيني في القطـــاع كعـادته وقد قابل قوات الطوارئ الدولية المكونة من قوات رمزية لاحدى عشرة دولة اجنبية معلنا في وجهم بمظاهرات عارمة استمرت اكثر من اسبوع ليل نهار وعلى الرغم من هطول الأمطار معلنين شعاراتهم الخالدة :

٧١٨ ـ غزة عربية لا دولية ·

مؤكدين لقوات الطوارئ بأن دورهم ليس أكثر من ضيوف وليست قوات احتلال ·

٧١٩ ـ نرحب بكم ضيوفا لا محتلين ·

طالبين بعودة الادارة المصرية فورا بعـــد أن انقضوا على السراى الرئيسية بالمدينة لانزال العلم الدولى (هيئة الأمم) واستبداله بالعلم الفلسطيني مقدمين بذلك شهيدا هو « شهيد العلم » (*) مرددين :

٧٢٠ ـ مصر ·· ولا غير مصر ·

وقد كانوا يرددونها بالانجليزية :

Egypt ... Egypt ... non but Egypt

وعادت الادارة المصرية (**) بفضل الشعب الفلسطيني بعد اسبوع من المظاهرات في يوم ١٤ / مارس / ١٩٥٧ فهو بحق يوم عيد لارادة الشعب وصلابته ورفضه للتدويل ·

٧٢١ ـ وقابل الشعب حاكمه المصرى بهتافات شعبية مرددة :

٧٢١ ـ يالطيف يالطيف بدنـــا حكمك هـــا اللطيف
يا حاكمنـا يا حسن احـــكم علينـــــا بالحسن
يا حاكمنـا يا لطيف احـــكم علينـــــا باللطيف

وتميز بعدها العقد الممتد ما بين مارس ١٩٥٧ وحتى يونيه ١٩٦٧م

(★) كان شهيد العلم هذا هو « محمد على الشرف » ·

(★★) كان على رأس هذه الادارة « اللواء أحمد حسن عبد اللطيف » ·

بتنظيم الشعب الفلسطيني نفسه معلنا ميلاد منظمة التحرير الفلسطينية بقيادتها « فتح » في ١/١/١٩٦٥ م ، والتى حاصرها العرب لحد كبير ، ثم جاءت هزيمـــة يونيه ١٩٦٧ النكراء فاحتلت اسرائيل قطـــاع غزة والضفة الغربية لتصبح كامل الأرض الفلسطينية تحت سيطرتهم ·

فكانت فرصة اتخذ منها الشعب الفلسطيني ممثلا في منظمته زمام المبادرة في المقاومة والكفاح المسلح ضد المحتل والتى تجلت في « موقعة الكرامة » في مارس ١٩٦٨ والتى انتشلت الكرامة العربيـة لأول مرة بعد هزيمتها وذلك بهزيمة القوات الاسرائيلية مما حدا بالرئيس المصرى جمال عبد الناصر يشيد بالمنظمة كانبـل ظاهرة تشرق وتطل على الأمة العربية في عتمة الهزيمة الحالكة · كمـــا بدأ الشعب الفلسطيني في مقاومته للاحتلال حتى أسمع صوته للعالم أجمع في ذروته مقاومته في ٩/ ديسمبر ١٩٨٧ بانتفاضتـه الثورية المباركة والتى انفجر بركانها من صدور الفتيان والفتيات من غزة والرجال والنساء متخذين من « الحجر » وسيلة المقاومة تساندهم الاضرابات والتمرد الشعبى الواسع ، فأصبحت ثورة عارمة وظاهرة تحررية فريدة من نوعها ولم تماثلهـــا أية حركة تحررية في العالم ·· حتى أصبحت « الانتفاضة » مصطلحا ثوريا تحرريا يتناقله الجميع في العالم بلفظه العربي دون ترجمة ·

ولم يكن « الحجر » وســـيلة الدفاع والهجـوم في أيدى العرب الفلسطينيين حديثا فبالحجر نفسه شجوا رأس الاسكندر الأكبر وهو يحاصر غزة عام ٣٣٢ قبل الميلاد · متخذين من شعار أجدادهم القدماء شعارا لهم :

٧٢٢ ـ الرمى بالطوب ولا الهروب ·

معلنين بأن سلاحهم الوحيـد والمنافس لأحدث الآليات صنعا من مدرعات ومجنزرات حتى أنهم استحدثوا راجمـــات للحجارة كوسـيلة مضادة الا أنها فشلت جميعا فاستبدلوها بالرصاص القاتل أمام سلاح الانتفاضة وهو « الحجر » يرجمونهم به وهم يحثون الآخرين للاشتراك معهم دون خوف ·

٧٢٣ ـ ليش الخوف ليش الخوف الحجر ضد كلاشنكوف ·

متوعدين اليهود بأن جيش محمد عليه السلام قادم :

٧٢٤ ـ خيبر خيبر يا يهود جيش محمد سيعود ٠

متحدين كل وسائل القهر والاذلال والموت وتكسير العظام والنفى والسجن واغلاق المدارس والمساجد ٠

٧٢٥ ـ لن نركع مادام فينا طفل يرضع ٠

وبايمان عميق يصرخون فى وجوههم :

٥٣٦ ـ الموت ولا المذلة ٠

مودعين شهداءهم بالزغاريد مرددين :

٧٢٧ ـ لا اله الا الله الشهيد حبيب الله ٠

وعلى أثر الانتفاضة الشعبية تنادى ملوك ورؤساء العرب للاجتماع بعد ستة شهور !! أجل بعد شهور ستة !! مما أثار التشاؤم فى نفوس الشعب الثائر بعامة وقد تذكروا اضراب آبائهم فى عام ١٩٣٦ « اضراب الست تشهر » الذى دام ستة شهور فاجتمع العرب ليخذلوهم بوساطتهم المشئومة ٠٠ وانفض اجتماعهم فى عام ١٩٨٨ هذا دون أن يقدموا شيئا للشعب المنتفض لا ماديا ولا حتى معنويا ، وهم القادرون على فعل ذلك ، لكنه المرض العربى المزمن فى رؤســـائهم الذين يقولون عنهم مقولتهم المشهورة :

٧٢٨ ـ يتفقوا على أن لا يتفقوا ٠

واستعرت نار الانتفاضة وامتد لهيبها ليغطى العالم بأسره فجعلت من عام ١٩٨٨ عام فلسطين وعلى أثرها تم اعلان قيام الدولة الفلسطينية بالجزائر ١٥/ نوفمبر / ١٩٨٨ لتعترف بهـــا معظم دول العـــالم ٠ ومازالت تقدم الشهداء بمعدل شـــهيد كل يوم حتى يكتب النصر لها ويرفرف علمها فوق قدسها باذن الله ، فان لله عبادا اذا أرادوا أراد ٠

٧٢٩ ـ وما بعد الضيق الا الفرج ٠

الفصل السابع عشر

أمثال البحر

أمثال البحر

تطل الأرض الفلسطينية على ساحل البحر المتوسط بطول يمتد لمسافة ٢٣٠ كيلومترا تبدأ من رفح جنوبا وحتى راس الناقورة شمالا ، هذا البحر الذى كان يطلق عليه بالبحر العظيم الواصل بين جميع الأمم المتحضرة قديما .

وقد عرف أجدادنا من العرب الكنعانيين والفينيقيين كيفية الابحار فيه واستثمار خيراته والوصول من خلاله لقارات عديدة حتى اخترقوا مضيق جبل طارق يوم أطلقوا عليه « أعمدة ملكارت » وملكارت هذا معناه « ملك المدينة » ويمثل اله الغلات الزراعية وعبده معهم الفلسطينيون وكان على هيئة راس وأيدى انسان وجسم سمكة مغطاة بالزعانف ودعوه بالعربية الكنعانية « داج » Dag بمعنى السمكة الكبيرة (١) ، ليعكس بذلك مدى ارتباطهم بالبحر وتقيدهم به .

والى الشرق من فلسطين يقع « البحر الميت » فان كان ميتا من وجود الحياة فيه ، الا أن أجدادنا العرب الكنعانيين استخرجوا منه « الزفت والقار وصدروه لمصر الفرعونية لاستغلاله فى عمليات التحنيط وعليه أطلق عليه اسم « بحيرة الزفت » كما استفادوا من أملاحه المتعددة الأنواع والفوائد فأسموه « بحر الملح » وكذا « البحيرة النتنة » لشدة ما يفوح منه روائح كريهة نتيجة تفاعلات أملاحه المتنوعة كأكبر رصيد عالمى للأملاح

---

(١) مصطفى الدباغ - بلادنا فلسطين الجزء الأول - القسم الأول - المرجع السابق ص ٤٩٠ - ٤٩٣ .

المعدنية · ومن أسمائه الشهيرة « بحيرة لوط » (*) · نسبة لسيدنا لوط عليه السلام ·

والى الشمال من البحر الميت هذا تقع بحيرة طبرية العذبة وكانت الى الشمال منها بحيرة « الحولة » وردمت ·

وفي جنوب فلسطين يطل ساحلها على خليج العقبة بشقه تمتد لنحو عشرة كيلومترات ونصف ، استغلهـا العرب القدماء ببناء الموانىء فيها « ايلة » وام المرشوش ومن أرض فلسطين وموانئها خاصـة عكا اندفع العرب المسلمون ولأول مرة لفتح الأراضي الواقعة لما ورائه ، فانتشرت الموانىء من عكا شمالا حتى غزة جنوبا وقد عززوها بالرباطات والمناظير ·

وعليه لم يتركوا البحر صيدا أيام السلم ، وعسكريا ، اوقات الحرب وسيلة للمواصلات أيام التجارة حتى غدت الموانىء الفلسطينية ومنـذ ما قبل التاريخ موانىء ومستودعات ومخازن وموانىء مرور [ترانزيت] لجميع الدول المتحضرة وصادراتها القادمة من بلاد الهند شرقا حتى جنوب أوربا غربا ·

ولعلاقتهم بالبحر وأنوائه المتقلبة ، وأمواجه الهـادرة ، وموارده المتنوعة صاغوا تجاربهم هذه وسجلوها في ذاكرتهم أمثالا وحكما شعبية بلغت حدا من الشمول غطت معها العديد من مجالات حياته ليس فقط الاقتصادية بل والاجتماعية والنفسية وما تنطوى عليه من حكم وتجارب مقطرة ومبلورة تشير لعمق الحضور والتجذر فوق هذه الأرض ·

فادرك العربي الفلسطيني منذ البداية بأن البحر مصـدر للرزق الوفير ، والعطاء الجزيل اللامحدود فقال :

٧٣٠ ـ رزق البحر بحر ·

وبتشبيه بليغ يوضح قيمته وقيمة ثرواته يقولون :

٧٣١ ـ مال الميه ميه ·

اى أن المال الموجود بالمياه [مياه البحر] هو أشبه بقيمته بقيمة الماء · ولكي يؤكد ذلك قالوا :

(*) وقد اطلق عليه أيضا « بحر القربة » و « بحيرة ذغر » ويصـل طوله لمسافة تصل لـ ١٠٥٠ كيلومترا مربعا ، وينخفض عن مستوى سطح بحوالى ٣٩٨ مترا ·

٧٣٢ ـ يا بيجاور ملك يا بحر ·

فكلاهما قد يورث الانسان الغنى والمال الوفير ·

وقد أيد ذلك الصياد عندما سالوه :

٧٣٣ ـ قالوا للصياد عد سمكاتك قال : البحر اولى بالسؤال ·

اجابة مثلية محنكة يمكن الافصاح عنها لمواقف متباينـة ، فربما كانت تدل على كثرة ما اصطاده وقد تستغل للاجابة المعاكسة ·

ولكي يبقى البحر في الوجدان الشعبي بسمكه على وجه الخصوص مصدرا لا يمكن احصاؤه أو جمعه · فهاهم يقولون قولهم السائر الذى يلفه التعجب ·

٧٣٤ ـ راح يجيب سمك البحر !!

للتعبير عن استحالة هذا المطلب · تماما كالذى يريد حرث البحر ، فماذا تكون النتيجة ؟

٧٣٥ ـ اللى بيحرث البحر بيحصد الريح ·

ولقناعتهم الأكيدة من ثروات البحر الهائلة ، أوصوا بمثلهم الحافز قائلين :

٧٣٦ ـ ان هجرك البحر دوم تهجروش يوم ·

ايمان لا يزعزعه حتى المستحيل ، فهو متأكد بأن في كل يوم قد يأتيه الرزق ·

وعلى الرغم من هذه الايجابيات التى للبحر ، الا أن له سلبياته التى أدركها وهو يغالب امواجه وعمق مياهه ، وقد أوجزها بخبرته بالقول :

٧٣٧ ـ البحر غول ·

يلتهم كل شيء وبدون حد للاشباع ، حتى ولو كانت أمه ·

٧٣٨ ـ البحر ان ضحك تمه بلع امه ·

ومن صفاته أيضا :

٧٣٩ـ البحر غـدار ٠

وعليه حذروا من سكون امواجه وهدوء مياهه قائلين :

٧٤٠ ــ الميه الهادية خاف منها ٠

لماذا ؟! لأن فى نظرهم !

٧٤١ ــ بحر ساكت وراه عقرات ٠

وأوجزوها بمثلهم الأكثر صراحة :

٧٤٢ ــ امرق عن بحر هدار ولا تمرق عن بحر ساكت ٠

فالبحر الهادر يمكن معرفة حدود هديره ومن ثم الابتعاد عنه ، لكن الساكت ربما ينطوى على أخطار لا يعرف عقباها الا الله ٠

لذلك حذروا بوضوح :

٧٤٣ ــ البحر ما عليه شطارة ٠

وذلك لأن :

٧٤٤ ــ الميه والنار ما الهم أمان ٠

حتى وان طمأنك البحر بالأمان فلا داعى لمطاوعته :

٧٤٥ ــ ان قالك البحر مبحر اوعى تطاوعه ٠

وعليه فضلوا أن يحسب الانسان كل حساب قبل الغوص فى البحر قائلين :

٧٤٦ ــ قبل ما تغيص قيس ٠

ومن وحى البحر وتقلباته استعاروا العديد من أمثالهم وحكمهم التى تنسحب على نواح عديدة فى حياتهم الاجتماعية فقالوا :

٧٤٧ ــ بتهدى يا بحر وبيبان قرارك ٠

وكأنهم بذلك يقولون بأن لكل شىء حدودا ومصير الأمور تظهر على حقيقتها مهما اعتراها الغموض وسط الغليان الفوار ٠

ويفسرون هذا الموقف بقولهم السائر والمستمد من أحوال البحر :

٧٤٨ ــ ان ما عكرت ما صفيت ٠

أى لن يأتى الصفاء الا بعد أحوال الفوضى والاضطراب فى المياه ٠

ويوضحون هذا المثل بمثل بحرى مباور يدل على عمق الدراية والخبرة البحرية ٠

٧٤٩ ــ ما فى طياب من غير عناصل ٠

والعناصل اسم نوه تهب فيها رياح جنوبيـــة غربية عنـد بداية شهر آب لمدة ثلاثة أيام يعقبها ثلاثة أيام أخرى رياح شمالية غربية يقل فيها الصيد لهياج البحر ثم يتلوها أيام من الهدوء حتى يصبح فيه البحر ساكنا (٢) ٠

وعليه يعنى مثله هذا « ما بعد الضيق الا الفرج » ٠

وهو بالتالى يرفض الاستكانة حتى فى أصـــعب الظروف والأنواء البحرية فيرى ووفق مثله وقوله الشعبى بأن :

٧٥٠ ــ سمكة من بحر هايج كسبه ٠

وازاء هذه الصفات والنعوت التى اتصف بها البحر ، كان لابد من مجابهته بالوسائل الجيدة والمتينة من قوارب وشباك وكذلك بالوحـــدة والتماسك والتعاون بين جماعة الصيادين وكذلك بمعرفة أنوائه البحرية والتحايل عليها أو الابتعاد عنها :

ففى مجال التآزر والتعاضد كوسيلة لمجابهة البحر قالوا :

٧٥١ ــ الصيد شركة ٠

مقتنعين بأن فى هذه الشراكة الخير والبركة :

٧٥٢ ــ تشاركو بتتباركو ٠

لأن فى المشاركة قوة تقهر موج البحر وتنيمه ٠

---

(٢) للاستزادة ارجع لكتاب المؤلف ــ الجغرافيا الفلكلورية ــ المرجع السابق ص ٢٧٣ ٠

٧٥٣ ـ كتر الأيادى بتنيم الموج .

وتشجعهم على مغالبته :

٧٥٤ ـ ايد على ايد البحر ما هو بعيد .

وشجعوا لذلك مصاحبة الأقوياء الشجعان من الصيادين :

٧٥٥ ـ اركب اللى بيقطع البحر وما بيتعب .

فالبحر يحتاج الأقوياء الذين لا يعرفون الكلل ولا الملل ، فهم على يقين بأن :

٧٥٦ ـ البحر بدو بحر قباله .

فهم ما داموا يقتاتون من وراء البحر فلا مانع من مغالبة الصعاب وتذليل العقبات من أجلها فيقولون :

٧٥٧ ـ اللى بياكل الفتة بيطلع الصارى .

وبأدوات الصيد الجيدة يمكنه الحصـــول على موارد مجزية وكذلك مصارعة البحر بنجاح وعليه أكدوا على اقتناء المركب بداية :

٧٥٨ ـ اللى مالوش في البحر لوح مالوش روح .

فبدون المركب أو اللوح فى البحر فهذا يعنى أن روحه وحياته تصبح فى خطر أو بمعنى ادق ، من ليس له مركب ليس له حياة داخل البحر .

وكذلك اوصى بأدوات وشباك جيدة ومتينة للصيد :

٧٥٩ ـ عدة مقطعة أكلها السمك .

وعليه أصر وأكد على ركوب مركبه :

٧٦٠ ـ هادا مركبك يا تركبو يا يركبك .

فان لم تتقن ركوبه وتمخر به البحر فانه لا محالة راكبك وعليه فضل وبكل قوة ركوبه :

٧٦١ ـ غيرها المركب ما بركب .

كما تسلح البحار الفلسطيني والصيادون بمعارف عدة اكتسبها من

متابعة الأنواء فى جميع الفصول فخبرها وادرك خصائصها وميقاتها (*) : فقالوا :

٧٦٢ ـ القمر غاطس شدوا الملاطش .

والملاطش أو « شبكة الملطش » هى نوع من انواع الشباك المستخدمة للصيد والتى يطرحونها فى البحر بمجرد مغيب القمر .

ويقولون فى فصل الشتاء :

٧٦٣ ـ عند الرهام افرش ونام .

والرهام نـوة تحـدث فى فصـــل الشتاء فيهـا درجة البرودة بدرجة يتعذر معها الصيد فينصحون بعضهم بعدم الصيد فيها (٣) .

كما يتفادون الصيد بحرا عند هطول الأمطار وتكاثر البرق والرعد قائلين :

٧٦٤ ـ كل برقة بغرقه .

وذلك خوفا من الغرق خاصة وان الأمطار قد تكون مصحوبة بهبوب رياح شديدة .

وقالوا أيضا قولا ينم عن عمق درايتهم بالأنواء البحرية :

٧٦٥ ـ ان شلقت بلقت .

أى اذا هبت رياح شرقية (شلوق) بمعنى « شـــلقت » بالمفهوم الشعبى فهذا يعنى هروب الأسماك خاصة « السردين » لداخل البحر كما يثير الطحالب والطين نتيجة الحركة الدوامية الشاطئية مما لا يتيح للصياد فرصة الصيد (٤) .

وهكذا يتسلح الصياد والبحار الفلســـطينى بايمانه بربه فوق كل وسائل الصيد فيقول :

(*) لدراسة جميع هذه الأنواء البحرية الفلسطينية ارجع لكتاب المؤلف ـ الجغرافيا الفلكلورية للأمثال الشعبية الفلسطينية ـ المرجع السابق ص ٢٧٧ ـ ٢٨٠ .

(٣) سليم المبيض ـ الجغرافيا الفلكلورية ـ المرجع السابق ص ٢٧١ ص ٣٨٢ ـ ٣٨٣ .

(٤) سليم المبيض ـ الجغرافيا الفلكلورية ـ المرجع السابق ص ٢٧٤ .

٧٦٦ ـ **بحر واسع ورب مانع .**

فعلى الرغم من اتساع البحر وغدره وأهواله فان له ربا يحميه ويمنع عنه كل المخاطر اذا صفت نية الصياد :

٧٦٧ ـ **ابو نية سار وأبو نيتين رسا .**

واذا كانت أموله حلالا يزكيها باستمرار فعندها لا يصيبه التلف او الغرق فتراه لا يخشى المخاطر قائلا :

٧٦٨ ـ **مال مزكى لا بيحرق ولا بيغرق .**

وكذلك :

٧٦٩ ـ **المركب اللى ما فيها لله تغرق .**

فايمانه بالله يمنحه القوة :

٧٧٠ ـ **اعطينى عمر وارمينى فى البحر .**

ويبدو أن للصياد البحرى الفرد نصيبه الذى لا يحسد عليه ، سواء فى كمية ما يصطاده أو نوعيته ، فهو صيد معاشى بالكاد كما يعبر عنه بنفسه من خلال أمثاله وأقواله الشعبية ، فهاهم يسألونه :

٧٧١ ـ **قالوا للصياد وين صيدك ؟ قال : اللى فى الشبكة راح .**

ويصور الصياد هذا الشح قائلا :

٧٧٢ ـ **زى السمك لا يشبع اللى بياكلو ولا يغنى اللى بصيدو .**

هكذا .. ! لا يشبعه من جوع ولا يغنيه من فقر ، لقلة ما يصطاده . ويعبر عن هذا القلق الذى ينتابه بقوله :

٧٧٣ ـ **صياد الأرواح عمره ما يارتاح .**

لما يحتاج اليه صيد الأحياء من صبر وتحمل شديدين .

وكدليل على الاصرار وتمسك الصياد بشبكته مصـــدر رزقه تراهم يقولون :

٧٧٤ ـ **بيموت الصياد وشبكته ع كتافه .**

وصورة أخرى مثلية حزينة لنهاية الصياد الفرد يقولون :

٧٧٥ ـ **عمر ما صياد مات ولقوا له لباس .**

هكذا يخرج من الدنيا عريانا .

فهل هذا يعود الكون لبعض الصيادين ينطبق عليهم قول المثل :

٧٧٦ ـ **زى الصياد بيعرفش ربه الا عند الغرق .**

ويوضح ايمانه هذا ويكشف عن نواياه مخلاته وما تحويه من صيد فقالوا :

٧٧٧ ـ **نية الصياد فى مخلاته .**

أم ان الصيد حظ :

٧٧٨ ـ **الحظ صيد والكتابة قيد**

فان كان كذلك فهو يتلقاه بقوله :

٧٧٩ ـ **هادا بختك يا حوت يا بترضى يا بتموت .**

أما عن زوجة الصياد فيبدو أنها تعيش فى قلق مستمر سواء عن مصير زوجها مع البحر الغدار أو بالنسبة لما يحمله معه من صيد ، وتعبر عن هذا بالمثل القائل :

٧٨٠ ـ **مرت (امرأة) الصياد ممغوصة من طلعة الشبكة وعبرت البوصة**

وتكشف أخرى من أقرباء زوجة الصياد عن جوانبه السلوكية لزوجته قائلة مثلها الشعبى الشاكى :

٧٨١ ـ **يا خالتى ، جوزك بحرى ، ونص الليل بيجى يردح لى .**

ومنهم من تكشف سلوكه الأنانية عندما يردد مثله القائل :

٧٨٢ ـ **بكل المراكب ولا تنبل سفينتى .**

ويكشف آخر عن هذه النظرة السلبية بقوله :

٧٨٣ ـ **خوض البحر بغيرك ٠**

وعلى النقيض من ذلك نجد الصياد الجرىء الذى يتحدى حتى الأمواج العاتية فيقول :

٧٨٤ ـ **ان على عليك الموج لا توطى له ٠**

مدللا على هذا التحدى بقوله الشعبى السائر الذى يرمز على ذلك ٠

٧٨٥ ـ **زى السمك كل واحد شوكته فى ضهره (ظهره) ٠**

وقولهم :

٧٨٦ ـ **سمك غزة بيخلاش من الشوك ٠**

تماما كما يقولون قولتهم المأثورة عن مدينتهم الصامدة الخالدة :

٧٨٧ ـ **عكا ما بيهمها موج البحر ٠**

وقولهم :

٧٨٨ ـ **لو عكا خايفة من هدير البحر ماوقفتش ع الشط ٠**

وبهذه الجرأة والتحدى وركوب الأهوال يخرج منتصرا وضاحكا بقوله السائر :

٧٨٩ ـ **يضحك ع الموج من كان مركبه عايم ٠**

منسحبا هذا القول على كل ناجح أو منتصر على الصعاب ٠
وأخيرا لا ينطلى عليهم كل من خاض البحر بأنه بحار ماهر قائلين :

٧٩٠ ـ **مش كل من شق البحر قال أنا بحرى ٠**

البحر والغرقان

ان الغرق من أشد الأهوال التى تنتاب الصياد وكذا البحار الفلسطينى فهو يعنى الموت شبه المحقق ، وعليه كثيرا ما تكتنف الغريق مظاهر وأحوال أهمها التشبث بالحياة ومحاولة انقاذ نفسه بكل الطرق

والوسائل المتاحة ، فاتخذوا من هذا الموقف أمثالا وتعابير شعبية تصور موقف الغريق فقالوا :

٧٩١ ـ **الغرقان بتعلق فى الحية ٠ او بالقشة ٠**

٧٩٢ ـ **الغرقان بتعلق فى حبال الهوا ٠**

٧٩٣ ـ **الغرقان بترتح بموج البحر ٠**

أما العلاقة بين الغريق والبحر فهى علاقة تناقضية مهما اشتد صراخه وبكاؤه :

٧٩٤ ـ **ايش يهم البحر من عياط الغرقانين !. ٠**

وفى الوقت نفسه :

٧٩٥ ـ **الغرقان ما بسمع الندا ٠**

أما اذا نجـا الغريق من الغرق فيكون قد اكتسب نوعا من المناعة فلم يعد يخيفه الماء أو رشقه :

٧٩٦ ـ **الغرقان ما بيخاف من رشق الميه ٠**

أما اذا كان الغرق محققا فهذا يعنى ترديد المثل الذى هو بمثـابة مواساة للغريق بقولهم :

٧٩٧ ـ **عند الغرق يسلم راسك ٠**

أما اذا انتاب الغرق سفينة الصياد فما عليه الا أن يتبـع مثله القـائل :

٧٩٨ ـ **المركب الغرقان الحقو رجلك ٠**

فلا داعى للندم ٠

وأخيرا أوصى المثل الشعبى وصية مثلية على جانب كبير من التفهم السيكولوجى للانسان تؤكد بأن الخوف مسبقا هو المدخل الحقيقى للفشل قائلا :

٧٩٩ ـ خاف من الغرق يتغرق •

كما انهـــم لا يخفون تهكمهم من أولئك الذين لا يتقنون السباحة او حسن التصرف فيقولون له :

٨٠٠ ـ بيغرق فى شبر ميه •

واتخذ الفلسطينى من صفات الأسماك وخصائصـــها العديد من الأمثال والأقوال والتعابير الشعبية فقالوا :

٨٠١ ـ زى السمك الكبير بياكل الصغير •

دلالة على ما ينتاب المجتمع أحيانا من فوضى ، لا يرحم فيها الكبير الصغير وأحيانا يعبرون عن هذه الحالة بقولهم :

٨٠٢ ـ سمك بياكل سمك والسمال بياكل الكل •

تعبيرا عن تكالب السلطة الفوقية ممثلة فى الكبار الذين يبتلعون الكل أحيانا •

واستخلصوا من ذلك عبرتهم وحكمتهم المثليـــة التى ترجع فساد الأشياء من الرأس نفسه :

٨٠٣ ـ السمكة بتفسد من راسها •

معبرين عن شدة الفساد والتخلل اذا ما أصـــاب البعض بقولهم التشبيهى السائر :

٨٠٤ ـ زى السمكة الفايتة •

وعن الذين اعتادوا العيش فى مجال وظيفى أو اجتماعى مخصـص بحيث أصبحوا أسرى له لا يستطيعون الفـــكاك عنه قالوا قولهم المأثور المستمد من عيشة الأسماك :

٨٠٥ ـ زى السمك بس يطلع من البحر بيموت •

ومن الخلق وعدم النوم المتمخض عنه قالوا :

٨٠٦ ـ اذا السمك نام أنا نمت •

ولما كان البحر يقذف كل ميت ، فقد استعاروا هذه الخاصـية بتعبيرهم الشعبى القائل :

٨٠٧ ـ زى البحر ما بيقذف الا الميت •

كناية عن البخل اذا ما وصفوا به رجلا • كما اتخذوا من عدم قيمة الزلف التى يلفظه البحر عند الشاطىء قولا مأثورا :

٨٠٨ ـ هدية الخلف زلف •

دليلا على البخل أيضا أو تعبيرا عن انعدام ما يخلفه الخلف للسلف أحيانا ومن أمواج البحر وديمومة حركتها اللامعدودة اتخذوا منها وسيلة للتحدى فقالوا :

٨٠٩ ـ أقعد ع البحر وعد موجه •

معتبرين ذلك من الأمور المستحيلة •

تماما كما ينعتون أولئك الذين لا فائدة مما يبذلون من جهد فى غير موضعه وحاجته بقولهم لهم :

٨١٠ ـ بيحرث فى البحر •

وبصورة كاريكاتيرية مضحكة على أمثال هؤلاء قالوا :

٨١١ ـ بنزح البحر بطاقيته •

وبقولهم أيضا :

٨١٢ ـ بيعمل من البحر مقاتى •

ويحثون أحيانا الآخرين على المسايرة وتســهيل الأمور فيقـولون قولهم السائر :

٨١٣ ـ خلى المركب ساير •

الفصل الثامن عشر

أمثـال

المأكولات الشعبية

المأكولات وأمثالها الشعبية

المأكولات الشعبية هي بحق موضوع جدير بالدراسة الوافية ، لكن اتخاذنا للمثل الشعبي عنوانا يظل يحاصرنا ويحصرنا في أطره الخاصة ، فيدفعنا لاستعراض ما نطق به منهـــا ، وعليه فلا مانع من ان نتطرق لعناوينها دون شرحها المسهب وطرائق اعدادها او صناعتها .

فالعربي الفلسطيني عرف الزراعة منذ نشأتها وقد ورثها عن أجداده الكنعانيين ، فأدرك بوعي عميق تقلب الفصول وتذبذب الأمطار وتنوع التربة وخصائصها ، فتحايل عليها وتعامل معها بحنكة ودراية وطيبة ، فحفر الآبار وزرع الأشجار من التين والزيتون والكروم والرمان والنخيل .

كما زرع الحبوب ، القمح والشعير والعدس والفول كما اعتنى بزراعة الخضار وتربية النحل وكذا الثروة الحيوانية منذ آلاف السنين .

وبذا ضمن موفور غذائه واستقرار عائلته ، بل تخطاه فصدر من فائض انتاجه في كل مراحل العصور التاريخية كما بين ذلك العديد من الرحالة والباحثين العرب منهم والأجانب .

وبنظرة مستقبلية واعية ، وادراكا منه بتبدل الفصول ومنتوجاتها تفنن في حفظ مأكولاته وتخزينها بطرائق مختلفة لاستخدامها في أوقات غير ميقاتها ولسد حاجاته وقت الشدة مؤملا ومتبعا ناموسه القائل بأن :

٨١٤ ـ خزين الصيف بينفع في الشتا .

فحفروا الآبار وسط منازلهم لخزن القمح والحبوب ودفنوه في الأرض فيما أسموه « المطمورة » وضعوا فيه « البرغل » كأهم غلة غذائية زرعها

اجدادنا الكنعانيون قبل العراق بألف سنة كما قال « روبرت برادوود » وكما دلت على ذلك العديد من حفرياتها .

ويبدأ حصاد القمح بفلسطين فى شهر آيار (مايو) من كل عام :

٨١٥ ـ فى آيار احمل منجلك وغـار .

وبعد حصاده يقومون بدرسه وتذريته بأدواتهم المعروفة « المنجل ولوح الدراس والمدراة » وقبل الحصاد بوقت قليل يقومون بعمل «الفريكة» وذلك بشواء مجموعة من سنابل القمح على النار قليلا ثم فركها باليدين وأكلها تماما كما كان يفعل أجدادنا العرب الكنعانيون ، ومن القمح أيضا يعملون « القلية » فيقولون عنها :

٨١٦ ـ كول قليه واشرب ميه (ماء) وان جعت حقك على .

و « القلية » هى القمح الناشف الصلب بعد تحميره وتسخينه على النـــار .

ثم قاموا بسلق القمح بالماء الساخن وجففوه بعد ذلك ثم دقوه لعمل « البرغل » فيما بعد تماما كما يؤكل الأرز اليوم وقد أضافوا له العدس كأكلة محببة تدعى « المجدرة » ، وقد وصفها من قبل الأجداد حتى ليقال بأنها كانت الطبخة المحببة ليعقوب عليه السلام (١) وعند ظهور الأرز كسلعة بديلة منافسة قالوا :

٨١٧ ـ العز للرز والبرغل شنق حاله .

ومن القمح قدم أجدادنا لعابرى السبيل والمسافرين والفقراء ما أسموه « سماط الخليل » الذى اشتهرت به مدينة الخليل وأصبح مضرب الأمثال فى لذة طعمــه وازدياد بركته وكان يقدم ثلاث مرات يوميا ، وقد ذكره بتوسع القاضى الفلسطينى مجير الدين الحنبلى فى أواخر القرن السادس عشر الميلادى وهى شبيهة بما يسميه أبناء مدينة غزة « الجريشة » التى تصنع من القمح المجروش باضـافة اللحم والماء وتقديمها فى أوان وفاء لنذورهم فى الغالب ولايمانهم ببركتها بالاضافة لكونها غذاء جيدا ومفيدا وفقا لتعبير المثل القائل :

---

(١) مصطفى الدباغ ـ بلادنا فلسطين ـ ج ١ قسم ١ ـ المرجع السابق ص ٤٨٢ .

٨١٨ ـ ادوم معيشه من تلبيس الجريشه .

ومن عجينـة دقيق القمح تقـوم النسـاء بفتل المفتـول بأيديهم « الكسكسون » وتعرضه للشمس بعد ذلك لتجفيفه ثم تخزينه لطهيه فى فصل الشتاء ، وكذلك عمل « الشعرية » التى غالبا ما تجمع العديد من نساء القرية أو الحى لمساعدة بعضهن البعض .

ومن القمح الصلب الجاف صنعوا « الدقة » وهى خليط من القمح المطحون والسماق بصفة خاصة وهى أكلة شعبية على هيئة مسحوق تغمس بالخبز أو ترش بداخله للأطفال مع اضافة الزيت لها ، لذلك تعتبر « الدقة » غذاء ثانويا وقيمتها الغذائية متدنية وترمز للفقر والبساطة . ولهـــذا فضلت احداهن قائلة :

٨١٩ ـ بآكل خبزه ودقه ولا بيات حزقه .

والقمح هو الغلة الغذائية الأساسية فى صناعة الخبز منه (رغيف العيش) بفلسطين بعد طحنه على الطاحونة أو « الجاروشة » المعروفة بعد احضار القمح من « الجرن » أو البئر أو المطمورة . ثم وضعه فى « الفرن » أو « الطابون » الذى استخدمه أجدادنا وما زال فى العديد من القرى ، لهذا كان هناك ركائز ثلاث رئيسية لعماد البيت الفلسطينى تبلورت فى مثله الشعبى القائل :

٨٢٠ ـ فرن وطاحونه وجرن .

ثلاثة هى رمز الاكتفاء الذاتى للبيت الفلسطينى . ويأكلون الخبز أحيانا (حاف) أى بدون غموس ويعتبرون ذلك أحيانا دليل الفقر الا أنهم وكعملية اسقاط قالوا :

٨٢١ ـ الخبز الحاف بيكبر لكتاف .

وربما كان ذلك تشجيعا لهم وبعدا عن الاحراج ، أو فى ظروف صحية يرون معها عدم حشو المعدة بالمتناقضات الكثيرة فقالوا :

٨٢٢ ـ خبز وماء أكل العلماء .

حتى غدا وجـود الخبز فى البيت الفلسطينى هو المطلب المعيشى الرئيسى كحد أدنى يوفر لهم الأمن الغذائى والاستقرار العائلى فقالت ربة البيت مثلها الشعبى :

٨٢٣ ـ ان كان الخبز فى البيت فرحت انا وغنيت ٠

ويقومون بتسخين الخبز خاصة فى فصل الشتاء والبائت منه مما يعمل على فتح شهيتهم عند غموسه ببعض « الطبخات » الشعبية المتميزة ببرودتها وجمودها [الفقعيه ـ السماقيه ـ الرمانيه ـ الملوخية وفول البسارة ٠٠ الخ] ٠ وهذا بدوره يعمل على زيادة استهلاكه فقالوا :

٨٢٤ ـ ان كان بدك خبزك يقل حمص وبل ٠

كما يعتبر « الزيتون » من أهم ما تخزنه المرأة الفلسطينية فى بيتها لأكله مع الخبز عندما لا يوجد ما يطهونه فقالوا :

٨٢٥ ـ خبز وزيتون احسن ما يكون ٠

واتخذوا من زيت الزيتون مادة أساسية للعديد من الاستخدامات سواء للطهى أو مادة للعلاج وكذا للوقود ٠ حتى اعتبروا « زيت الزيتون » عمادا هاما لا يضاهيه الا الخبز فقالوا :

٨٢٦ ـ عمارة البيت خبز وزيت ٠

بل واعتبروهما أكثر من ذلك بقولهم :

٨٢٧ ـ القمح والزيت سبعين فى البيت ٠

يحرسانه من الفاقة والفقر والجوع ويمنحه الأمن والطمأنينة ٠

وللزيت قيمة غذائية عالية جدا استخدموها في طهى الطعام وأدخلوها فى العديد من وجباتهم وكذا عند صناعة حلوياتهم الشعبية وكذا اعتادوا شربه فقالوا :

٨٢٨ ـ كول زيت وانطح الحيط ٠

بل واعتبروه شفاء للعديد من الأمراض العصبية عند تسخينه تسخينا هينا ثم دهن الجسم المصاب به وتدليكه فقالوا :

٨٢٩ ـ الزيت مسامير المعصب ٠

ويأتى الشعير بعد القمح كغلة غذائية الا انه من وجهة النظر الشعبية قليل الفائدة والقيمة فقالوا :

٨٣٠ ـ مثل خبز الشعير ماكول ومذموم ٠

ويفسرون ذلك بقولهم :

٨٣١ ـ ما شفت يوم أبكى على أيامه الا خبز الشعير وقلة ادامه ٠

دلالة على عدم جدواه الغذائية وقلة دسامته (قلة ادامه) ٠ وعليه استعاروه ـ أى الشعير ـ للدلالة لمن يتفاخر متباهيا ومزهوا بنفسه وهو غير ذلك قائلين :

٨٣٢ ـ الاسم كبير والفت شعير :

وعليه قدموه علفا لحيواناتهم فقالوا :

٨٣٣ ـ الشعير للبعير ٠

وفى فترات القحط والجدب وكانت ما أكثرها ، يضطر الفلاح الفلسطينى اما لأكل خبز الشعير أو مخلوطا بالقمح وأحيانا يخلط دقيق القمح بدقيق الذرة البيضاء (أم سنان) وان اشتدت عليهم الأيام خبزوا الذرة على الرغم من سرعة تفتتها وعدم تماسك خبزها فيضعونها قائلين « ما الهاش عرق » لذا اتخذوا من هذه الخاصية مثلا شعبيا لأولئك الذين لا عروق لهم قائلين :

٨٣٤ ـ الله يلعن الدره اللى ما الهاش عرق ٠

ملمحين أحيانا للذين لا يحفظون الود والجميل وانهم لا ينتمون بفعالهم لأصول طيبة ٠

ومن البقوليات التى دخلت العديد من الطبخات الشعبية الفلسطينية منذ آلاف السنين « العدس » فاحتفظوا به وخزنوه اما حب أو مجروش مدركين قيمته الغذائية الفائقة ٠

٨٣٥ ـ ان غاب عنك الضانى عليك بالقضانى ٠

التى تفوق فى نظرهم لحم الضأن أو تنافسه مؤكدين ذلك بمثلهم الشعبى :

٨٣٦ ـ كول العدس تفوت الفرس ٠

وقولهم عند سرعة انجاز الطبخ فى الأوقات الضيقة زمنا واقتصادا :

٨٣٧ ـ اعـدس وابصـل ٠

أى وضع العدس مع قليل من البصل فى وعاء وطهيه بالماء على هيئة « شوربة » ٠

وكذلك استخدموا الفول فاكلوه وطبخوه أخضر وقاموا بتجفيفه وخزنه لطهيه فى أوقات الصيف مدللين على قيمته الغذائية بمثلهم القائل :

٨٣٨ ـ كول فول والحق القفول ٠

والقفول هنا تعنى جمع « القافلة » للدلالة على ما يكسب الجسم من قيمة غذائية ٠

واشـتهر الشعب الفلسطينى بشـواء الفول الأخضر فى الأفـران ويسمونه « مشيوى العرب » ٠

كما اعتادت النساء فى القرى وهوامش المدن الفلسطينية وفي الحقول من الخروج مبكرين لجمع بعض البقوليات والخضروات البرية لطهيها ومن أهمها « الخبيزة » فنصحوهن بمثلهم الشعبى بعدم التحرك سريعا والتجوال عند جمعها قائلين :

٨٣٩ ـ من نقلت ما بقلت ٠

فالجمع يحتاج بعض الاستقرار فى موضع الجمع حتى يتسنى لهن جمع أكبر كمية ممكنة خاصة من أوراق الخبيزة الخضراء والتى تنمو فى فصل الشتاء فتكون الوحيدة من الخضار الشتوية التى يمكن طبخها ، وعليه امتدحوها قائلين :

٨٤٠ ـ ادلعى يا خبيزة ما فى الخضار الا انت ٠

ونظرا لانتشارها وجمعها من الحقول بدون مقابل وعدم تكلفة طبخها لانها لا تحتاج الى لحوم ، اعتبرت من الأكلات الرخيصة والشعبية فاتخذوا منها شعارا مثليا يقول لأدعياء الأنفة والكبر :

٨٤١ ـ الفشر والنشر والعشا خبيزة :

وطبخوا الملوخية الخضراء واستغلوا حركتهـا الرجراجة وسيولتها الكثيفة فقالوا :

٨٤٢ ـ ادلدقى يا ملوخية فى الزبادى العوج ٠

تهكما على الذين لا يعجبهم العجب وهم فى حد ذاتهـم عوج ومثار للعجب شكلا ومضمونا ٠

والملوخية من « الطبخات » ذات الشهرة الذائعـة فى طعمها ولذتها ولا ينافسها فى فصل الصيف بفلسطين سوى « السمك » الذى تفننوا فى طهيه مشويا ومقليا خاصة وان بلادنا تطل على سواحل بحرية مثل البحر المتوسط غربا وبحيرة طبرية « والحولة شرقا التى تم ردمها » والبحر الأحمر (أم المرشرش) جنوبا فقالوا :

٨٤٣ ـ الملوخية والسمك مخلوش فى البيت ولا حنك ٠

وقاموا بتنشيف أوراق الملوخية الخضراء وفركها لتخزينها للشتاء وعمل « البسارة » ٠

وهناك العديد من المأكولات الشعبية الفلسـطينية والتى منها « الحصرمية » المطبوخة من العنب قبل نضجه « الحصرم » مضافا اليه قليل من العدس والفقوس وتتميز بحموضتها وهى تشـبه لحد كبير بالطبخة الشعبية المعروفة باسم « الرمانية » فيقولون :

٨٤٤ ـ عجوز فى الشتا بتطلب حصرمية ٠

ويقال هذا المثل تندرا بأولئك الذين يطلبون الأشياء فى غير ميقاتها فالحصرمية تطبخ فى الصيف ٠

وللنساء نصائحهم المثلية فى عملية الطهى ، فها هى احداهن تقول لزميلتها :

٨٤٥ ـ لا تورى جوزك طبيخ الخضر ولا لحم البقر ٠

نظرا لأن الخضار مثل (الملوخية ـ السلق ـ السبانخ ٠٠ الخ) مهما كبرت كميتها فعند الطبخ يصيبها الضمور وتبدو قليلة فى نظر الزوج مما يدعوه للتساؤل باستغراب وكذلك لحم البقر يصيبه التقلص عنـد الطهى على عكس لحم الضأن وعليه قالوا :

٨٤٦ ـ لحم الهرش(*) ما بسوى قرش ٠

فلحوم الحيوانات الكبيرة السن لا تنضج بسرعة لكثرة أليافها ،

(*) اللحم الخاص بالحيوانات كبيرة السن ٠

لذا نصحوا بعدم شرائها حتى ولو كانت رخيصة وفقا لمثلهم القائل :

٨٤٧ ـ يا مسترخص فى اللحم عند المرق تندم .

فى حين يرون فى الطيور والدواجن خاصة الدجاج الكبير السن فرصة للحصول على المزيد من الدهون فينصحون بشرائها قائلين :

٨٤٨ ـ الدهن فى العتاقى .

وقد استفادوا من منتجات الثروة الحيوانية بالاضافة للحومها اتخذوا من ألبانها أشكالا وأصنافا عديدة للطهى والمآكل فشربوا حليبها وكثيرا ما وصفوا ألبان نوقها (ناقة) مادة للعلاج للصغار والكبار .

ومن الحليب والأرز مع السكر صنعوا العديد من أصناف حلوياتهم فقالوا :

٨٤٩ ـ رز ولبن عافية ع البدن .

وصنعوا من الحليب « الجبن » بوساطة خضه فى « السعن » وتفننوا فى صناعة العديد من « العفيق » أو « الجبجب » ، أى اللبن المجفف على هيئة قوالب مستديرة صغيرة اشتهرت بها بوجه خاص مدينة الخليل وقراها كما اشتقوا من اللبن أنواعا عدة من المشروبات الكثيفة باضافة بعض الأعشاب الحارة لها « الحويرى » .

ومن طبخاتهم الشعبية من اللبن الجاف « اللبنية ـ الشكرية والششبرك » .

ولعل فى المثل الشعبى ما يذكرنا بمشتقات الألبان عند قولهم :

٨٥٠ ـ الرايب للحبايب ، والزبدة للنسايب ، والميص للمتاعيس .

فالرايب هو « لبن الزبادى » أما الزبدة فهى معروفة أو الميص فهى المياه الصفراء المالحة التى تفيض بعد عمل الجبن وهى لا فائدة منها .

وهناك مثل آخر لا يخلو من الدعابة اللطيفة يوزع منتجات الحليب على النحو التالى :

٨٥١ ـ الرايب للشايب والزبدة للحبايب .

ومن أشهر الفواكه الصيفية الفلسطينية « العنب » والتى بلغت شهرته وبالذات « أعناب غزة » التى صنع منه أجدادنا الكنعانيون

الخمور والخل وبلغت ذروة تصديره وشهرته فى العصور اليونانية والرومانية كما وصلت خمور غزة الجزيرة العربية فى العصر الجاهلى وتغزلوا بها . ومن المدن الشهيرة بأعنابها الخليل وقراها وقد دلت العديد من الدراسات الأثرية على وجود أحواض رخامية كبيرة وصغيرة لعصر الكروم حول هاتين المدينتين يطلقون عليها أحيانا « المدبسة » نسبة لصناعة « الدبس » من عصير العنب وهى كلمة عربية كنعانية قديمة « دبشو » ويصنعون منه كما فى الخليل « العنطبيخ » أى العنب المطبوخ وقد عالجه سكان الخليل أى عصير العنب بمادة صخرية فخلية تسمى « الحور » وذلك للتخلص من حموضته وتكرير مادته السكرية ثم غليه لصناعة « الدبس » وبعدها صناعة العديد من المربيات حيث يسهل تخزينها وحفظها حتى الموسم القادم ، وفى العادة يقطفون العنب فى شهر آب حيث يطيب أكله :

٨٥٢ ـ آب كول العنب ولا تهاب .

وبفطنة فائقة أدركوا قيمته الغذائية قائلين :

٨٥٣ ـ الجلد للجلد واللحم للحم والبذر للعظم .

وكأنهم يريدون القول بأن قشرة العنب الرقيقة (الجلد) تفيد جلد الانسان واما مادته العصارية (اللحم) فتفيد لحم الانسان فى حين تفيد بذوره عظام الانسان .

وغنى عن القول ما يحويه العنب من نسبة مرتفعة من سكر الجيلكوز ومدى أهميتها فى توليد الطاقة وكذلك احتواء العنب على نسبة عالية من الكالسيوم والحديد وفيتامين (د) المسئول عن تكوين العظام وكذلك فيتامين (ج) وأهميته بالنسبة للدم ومقاومة الأنسجة لنزلات البرد (٢) .

وصنعوا من عصير العنب مضافا اليه « السميد » ما يسمى « الملبن » والتى تشتهر به مدينة الخليل والمتميز بليونته وطراوته ولذة طعمه الحلو فاتخذوا من صفاته هذه قولهم المأثور :

٨٥٤ ـ زى الملبن .

يصفون به كل شىء لين وجميل ولندرته اتخذوا منه جائزة للحفز والنشاط فقالوا قولتهم المشهورة :

---

(٢) سليم المبيض ـ الجغرافيا الفلكلورية ـ المرجع السابق ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣ .

٨٥٥ ـ فتح عينك تاكل ملبن .

ومن وسائل حفظ العنب عمل « الزبيب » وذلك بقطف عناقيده عند تمام نضجها فى أوائل الخريف كما أوصتهم التجربة المثلية القائلة :

٨٥٦ ـ لا تقطع العنب للزبيب يتمر الصليب .

اى بعد يوم ٩/٢٧ وهو يوم « مطرة الصليب » فيقومون بتنظيف قطوفه وتنقيتها من الحبوب المعابة ويعالجونه بالزيت المخلوط بمادة كربونات الصوديوم ثم يجففونه تحت أشعة الشمس ليكون بعدها جاهزا للأكل سواء بمفرده أو بادخاله فى العديد من حلوياتهم متميزا بحلاوته ولذة طعمه حتى استعاروا هذه الصفات قائلين :

٨٥٧ ـ ضرب الحبيب زى آكل الزبيب .

وأحيانا يضيفون على المثل « القطين » أى التين المجفف بقولهم :

٨٥٨ ـ ضرب الحبيب زبيب وحجارة من قطين .

فالمزاوجة بين العنب والفاكهة الطيبة الثانية وهى « التين » قائمة عند العربى الفلسطينى لنضجهما فى موسم واحد وأهميتهما الغذائية العالية فنصحوا قائلين :

٨٥٩ ـ كول أول العنب وآخر التين .

ونظرا لتناولهما كثيرا فى فصل الصيف خاصة وان معظم السكان يهجرون بيوتهم ويذهبون لحقولهم للمبيت بها طيلة موسم الصيف « القيض » يقولون :

٨٦٠ ـ طلع العنب والتين بطلوا العجين .

لأن من يأكل العنب والتين غالبا ما يصل لحد الاشباع وتقل شهيته للطعام والأكل خاصة الخبز .

ونظرا لأنه فاكهة لذيذة يتمنى الفلاح العربى الفلسطينى استمراره على مدار السنة فيعبرون عن ذلك من خلال مثلهم القائل :

٨٦١ ـ ياريت التين ١١ شهر وشهر قراره .

واقتصاديا يرون ان فى استغلال التين عند بداية نضجه قيمة نقدية عالية لندرته ومن ثم التحكم فى سعره فيقولون :

٨٦٢ ـ التين أوله نقود وآخره آفوض .

اى عند نهايته ربما يدخله الدود ويصبح غير مغريا للأكل . والتين بفلسطين أنواع منه « البياضى أو البحرى » الذى ينمو فى الغالب فى المناطق الشاطئية بالقرب من البحر وهناك « السمارى ـ الأسمر ـ والموازى والحمارى .. » .

وأبدعوا فى تجفيف التين بأشكال مختلفة وعندما يسمونه « قطين » فهناك « القطين المدحول » اى يجفف على هيئته وأحيانا يخزنونه كل حبة على انفراد بعد فردها وأحيانا يقومون بوضعها على هيئة عناقيد «مشكاك» يربطها خيط تعلق بعضها على الجدران ، ومن القطين ما قد يكبس مع بعضه البعض على هيئة كرة بحجم قبضة اليد يسمونها فى الخليل «الكموس» .

ويجفف التين فى مكان يدعى « المسطاح » حيث يتم فرده ومحاولة حفظه من الأتربة والغبار التى تحملها الرياح ، فأوصوا بذلك قائلين :

٨٦٣ ـ داروا المساطيح من الريح .

ولقيمته نصحوا اقتصاديا الحفاظ بالقطين لحين بيعه بأسعار مجزية قائلين :

٨٦٤ ـ خل القطين فى خوابيه تيجى مشتريه .

ويستخدمون هذا المثل أحيانا بما يفيد الاحتفاظ بالشئ أيا كان وعدم التفريط به وسيأتى الوقت الذى تعرف فيه قيمته .

وقالوا أيضا :

٨٦٥ ـ اللى فى جيبه قطين بياكل بايديه التنتين .

كناية عن أن الذى يملك شيئا من حقه أن يفعل به ما يشاء .

وبالاضافة لذلك هناك « قطين الجميز » حيث يجففون ثمار الجميز خاصة ما يطلق عليه « البوطى » لكبر حجمه أما النوع الثانى فهو لذيذ الطعم والرائحة ويدعى « بلمى » ويتميز بصغر حجمه وقيل فيه :

٨٦٦ ـ كول جميز واشرب ميه وايش ما جرى لك على .

ونظرا لانتشار أشجار الجميز فى أنحاء فلسطين وشهرتها به وقد

ذكرها المقدسي فى كتابه (٣) وتحدث عن جميز عسقلان وكذلك العديد من الرحالة العرب (٤) فان شيوعها هذا جعلها رخيصة الثمن حتى لا تكاد توجد مزرعة أو بيت فى الجنوب الفلسطينى خاصة الا وبها شجرة جميز ٠ ولهذا تحدث احداهن صديقتها قائلة :

٨٦٧ ــ كولى جميزة وتينه واسرحى ع المدينة ، ولا تاكلى لحمة سمينة وتنامى عليها حزينة ٠

كناية عن استعدادها تحمل شظف العيش بأكل الجميز والتين فقط وهى سعيدة على ان تأكل اللحم وتنام حزينة ٠

ومع العنب والتين ينضج « الصبر » الذى اعتاد الفلاح الفلسطينى أن يسور به حقله كما سبق ذكره وهى فاكهة لذيذة لكن كثيرا ما تسبب الامساك اذا بالغ الفرد فى أكل العديد من كيزانها لكثرة ما تحتوى ثمرتها من بذور فقالوا :

٨٦٨ ــ فى تموز اقطف الكوز ٠

ومن الفواكه « المشمش » الذى صنعوا منه « قمر الدين » ذا الشهرة الفائقة خاصة فى شهر رمضان المبارك وأدخلوه فى العديد من طبخاتهم وحلوياتهم ونظرا لانتشاره فى مواقيت محددة سرعان ما ينتهى منها لشدة الطلب عليه قالوا :

٨٦٩ ــ جمعة مشمشية :

يسخر هذا المثل الشعبى أحيانا للدلالة على سرعة الانجاز واستغلال الفرص ٠

وهناك « الخيار » المتميز بصغر حجمه وطراوته ورائحته الطيبة وهو من فواكه الصيف يزرعونه فى أراض يطلقون عليها عند زراعته ومعه الفقوس « مقاتى » [مقثاة] ٠ فقالوا فيه مثلهم :

٨٧٠ ــ الخيار بيطفى ع القلب النار ٠

وميزوا بينه وبين « الخيار » عند نهاية الموسم حيث يكبر حجمه

---

(٣) المقدسى ــ أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ــ طبعة ليدن ــ ١٩٧٧ ص ١٧٤ ٠

(٤) سليم المبيض ، الجغرافيا الفلكلورية للأمثال الشعبية الفلسطينية ــ المرجع السابق ص ٠

ويشتد قوامه وتكبر بذوره ولا يصلح للاكل خاصة فى شهر تشرين فقالوا عنه :

٨٧١ ــ خيار تشرينى شمنى وارمينى ٠

حيث لا يستفاد منه الا برائحته الذكية فقط ٠

ونظرا لزراعة الخيار والفقوس فى موسم واحد وغالبا على أرض واحدة وتباينهما عن بعضهما البعض شكلا ومضمونا لذا اتخذهما الفلاح الفلسطينى مثلا شعبيا له للدلالة على رفضه للتمييز بين الآخرين فقالوا :

٨٧٢ ــ ماعندناش خيار وفقوس ٠

تماما كما يحضون الآخرين باعطاء كل ذى حق حقه وعدم خلط الأشياء والأمور بشكل تعسفى بقولهم :

٨٧٣ ــ لا تقيس البيض ع الباذنجان (١) :

وقد اشتهرت مدينة غزة فى عيد « باب الدارون » بتلوين البيض بألوان جميلة وخروج الأطفال ومع كل فرد منهم عدد منها يتبارون بمحاولة كل واحد كسر بيض الآخر عن طريق ضرب الواحدة بالأخرى وهو قابض عليها بحيث لا يبدو منها غير جزئها العلوى ٠ وبالاضافة الى استخدامه فى الأكل فقد استخدموا « صفار البيض » فى صناعة بعض العجائن ولصقها على جسم الانسان لازالة الألم ٠

كما اشتهرت بعض المدن الفلسطينية « بالمحاشى » خاصة الباذنجان مثل القدس وعمل « سلطة الباذنجان » خاصة بمدينة غزة ٠٠

ومن الفواكه التى اشتهرت بها فلسطين فى العصر الحديث البرتقال الذى ينضج فى فصل الشتاء ٠

ووصلت شهرة البرتقال اليافاوى (نسبة لمدينة يافا) خاصة من

---

(١) يحكى أن رجلا عاد الى بيته عند الظهر ومعه باذنجان فوجد امرأته قد خرجت وأغلقت الباب فعاد الى عمله ومعه الباذنجان وفى المساء عاد الى بيته وقال لزوجته لو كنت فى البيت لأقلتك أن تطبخى دون تاخير تهاهو الباذنجان قومى بطبخه فودت الزوجة كان يحسن بك أن تلقى بالباذنجان من فوق الباب وعند عودتى أجده وأطبخه ٠ وبعد أيام رجع الى بيته فى الظهيرة وكان معه بيض فلم يجد الزوجة وتذكر قولها فألقى بالبيض من فوق الباب وذهب الى عمله ٠

نوع « الشموطى » لجميع أنحاء العالم الأوروبى خاصة مع بداية القرن العشرين وقد قالوا عنه :

٨٧٤ ـ شتى ع البرتقال وصيف ع العنب .

حتى أصبح البرتقال فى المدن الساحلية الفلسطينية خاصة عماد اقتصادها الأول .

هذا بالاضافة لوجود العديد من أشجار الفواكه الفلسطينية التى استغلتها المرأة الفلسطينية فى عمل « المربيات » وأهمها « القراصية » .

أما شجرة الرمان فلهـا قيمتها وشهرتها فى الشمال الفلسطينى خاصة « منطقة شفا عمرو » بالجليل ولهم فيهـا العديد من الاعتقـادات فقالوا :

٨٧٥ ـ الرمان بيملى القلب ايمان .

ومنه الحلو ، وهناك الحامض الذى تفرد النساء الفلسطينيات حباته بعد فرطها على ألواح خشبية لتعرضها للشمس تمهيدا لخزنها للشتاء لطبخها بالطبخة الغزية الشعبية وهى « الرمانية » .

وهكذا يكون فصل الصيف بفلسطين هو « موسم القيض » التى تنشر فيـه وتفيض الفواكه حيث يغادر الأهـل بيـوتهم متجهين لمزارعهم « الحواكير » ينامون فيها داخل « أخصاصهم » المؤقتة لكى يجنوا الثمار ويسوقونها وهى لهم بمثابة أشهر التغذية الوافية فحضوا على الاستفادة منها جميعا قائلين :

٨٧٦ ـ القيض كول القيض والحقه بالبيض .

أى أن فى أكل القيض (العنب ـ التين ـ الصبر ـ الخوخ ـ الرمان ... الخ) ما يغذى الانسان بجميع الفيتامينات التى تؤهله للانجاب (البيض) .

ولعل فى هذا الحشد اللذيذ من الفواكه ما يغرى العديد من الناس خاصة العناصر الطفيلية من التردد على حقول الآخرين بكثرة للأكل من هذه الفواكه فى حين لا يرونهم عند الشدائد أو الحاجة ، ما دفع الفلاح الفلسطينى أن يخرج من هذه التجربة بمثله الشعبى قائلا :

٨٧٧ ـ أيام عنبك وتينك تكتر محبينك ، وايام قشله ونشله ما حد يعنيبك .

أى أنهم يحبونك أيام العنب والتين لكن فى أيام الجدب والقحط (القشل) والبطالة أو انتشار النشل (السرقات) لا أحد يعتنى بك .

وكان لسان حالهم يكرر المثل الشعبى :

٨٧٨ ـ طول ما الكيس مليان يكترو الخلان .

وقد أطلق الناس على مثل هؤلاء الضيوف « ضيف لشوم » أى ضيوف الشؤم والنحاسة الذين لا يسعون الا لملأ بطونهم فقط فقالوا عنهم :

٨٧٩ ـ الضيف المشوم بعد الأكل يقوم .

وليس لمثل هؤلاء مكانة بين الناس كما ليس لهم حقوق الضيافة قائلين :

٨٨٠ ـ يا جاى من غير عزومه قاعد من غير فراش .

ومع نهاية موسم « القيض » الصيفى يبدأ النخيل بطرح ثماره من « البلح » بأنواعه العديدة والتى اشتهرت به المدن الفلسطينية الجنوبية حيث الحرارة العالية حتى سميت باسمه وهى مدينة « دير البلح » حيث غابات النخيل الممتدة على طول شاطئها البحرى الجميل ، وكذلك المدن الغورية الفلسطينية وفى مقدمتها مدينة « أريحا » والتى سميت بمدينة النخيل والى الجنوب منها « عين جدى » والتى أطلق عليها أجدادنا العرب الكنعانيون اسم « حصون تمار » وتعنى بلغتنا الساميـة القديمة « رملة النخيل » حيث أجلوها وقدسوها فأكلوا ثمارها طازجة ثم قاموا بتجفيفها « التمر » وصنعوا من رطبها « العجول » .

٨٨١ ـ فى سهيل بهيل الرطب هيل .

وقد حشو بها (العجوة) المعمول المصنوع من السميد خاصة فى المواسم وعلى رأسها « موسم المظار » واستفاد الشعب الفلسطينى ليس فقط من ثمارها بل وسعفها وليفها واتخذوا من نقيعها شرابا ينقطون به أفواه الأطفـال وهم فى شـهورهم الأولى تبركا وكثيرا ما اتخـذ أجدادنا الكنعانيون من سعفها رمزا لهم على جدرانهم وجعارينهم كما اتخذ العرب

المسلمون من شجرتها شعارا رسموه على نقودهم خاصة تلك التى ضربت بمدينة الرملة الفلسطينية فى العصر الأموى (٥) .

كما استخلصوا من « البلح » بعد طبخه على النار ما يشبه «الدبس» فاطلقوا عليه اسـم « الرب » لتحلية مأكولاتهم ، وادخلوه أحيـانا لعلاج الأطفـال .

واعتنى الشعب الفلسطينى منذ آلاف السنين بتربية النحل خاصة فى المناطق الجبلية حيث كان يعيش أحيانا بين الصخور وعند قمم الجبال كما اهتم كل فلاح فلسطينى بتربيته فى حقله يوم لم يكن للسكر أثر يذكر وغير معروف وقد بدا فى الدفاتر العثمانية لسنة ١٥٩٦ والتى ورد بها سجل واف لجميع الضرائب التى كانت تجبى من القرى والمدن الفلسطينية على قمحها وشعيرها وحيواناتها وفواكهها فقد ظهر بجانب ذلك وعند كل قرية « ضريبة العسل » مرتبطة بالماعز والاغنام وكأنها بحق وبعرق الفلاح العربى الفلسطينى بلد الحليب والعسل به يحلون مأكولاتهم وشرابهم ومنه كما أوصاهم ربهم فى كتابه الكريم « فيه شفاء للناس » (صـدق الله العظيـم) .

وعليه أصـبح العسل بالنسبة للشعب الفلسطينى شـعارا ورمزا لا يضاهى للقيمة الغذائية والدوائية ونموذجا فى حلاوته حتى غدا مثلا شعبيا للتعبير عن الصفاء والهناء فقالوا :

٨٨٢ ـ يـوم عسل ويـوم بصل .

واعتبروا الناس خفيفى الظل والطيبين الذين يتحلون بمكارم الأخلاق « عسـل » فقالوا :

٨٨٣ ـ قربوا تبقوا بصل بعدوا تبقوا عسل .

وقد استخدموا العسل خاصة فى فصل الشتاء بعد لقيمته كطاقة حرارية ومادة للتحلية .

ومن حلوياتهم الشهيرة فى فصل الشتاء « الزلابية » فقالوا مثلهم :

٨٨٤ ـ مش كل يـوم زلابية .

دلالة بأن الأيام ليست كلها حلوة ولذيذة فيوم لك ويوم عليك أو كما قالوا « يوم عسل ويوم بصل » .

---

(٥) سليم المبيض ـ النقود العربية الفلسطينية وسكتها المدنية الأجنبية ـ الهيئة العامة للكتاب ـ القاهرة ـ تحت الطبع .

ومما يصنعونه من حلويات الشتاء الشعبية « العوامة ـ وحـلاوة السميد ـ العصيدة ـ والمسفن ـ النموره ـ الكنافة ـ القطايف ـ المعمول ـ الرز والحليب ـ الحلبة ـ المطبق » ومنهـا ما يحشـوه بالجوز واللوز والبندق . ولا ندرى لماذا لعنوا الجوز وأوصوا بأكل البندق قائلين :

٨٨٥ ـ كول البندق والعن الجوز .

أم أن المثل تورية ضد « الزوج » ؟!!

وعلى رائحة المأكولات والطبيخ كثيرا ما اتخذوا منه أمثالهم الشعبية ومن أدوات الطبخ أيضا للتعبير وبأسلوب التورية والتلميح على العديد من مشاكلهم الاجتماعية وبعض عاداتهم وتصرفاتهم السلوكية فقالوا مثلا :

٨٨٦ ـ المغرفة عايرت الدست قال كلنا ولاد طبيخ .

للتأكيد بأن على أبناء الجنس الواحد أو المهنة الواحدة أن لا يتعالى بعضهم على البعض . ونظرا لوضع « الدست » أى الحلة الكبيرة عند الطهى على ثلاثة حجارة ليوقدون أسفلها النار قالوا :

٨٨٧ ـ الدست بيقعد ع تلات رجلين .

يغمزون أحيانا بهذا المثل للرجل المزواج الذى لا يكتفى باثنتين فيطلب الثالثة وأحيانا يقولون :

٨٨٨ ـ اللى فى قاع الطنجرة بيطوله المغرفة .

أى بمعنى أن كل اناء بما فيه يمكن الحصول عليه .

وقالوا :

٨٨٩ ـ اللى بيستكتر غموسه بياكل حاف .

يحثون بذلك على حسن التدبير والاقتصاد وكذا المواءمة بين ما هو موجود وكيفيّة استخدامه أو الانفاق منه بصورة يستطيع معها الانسان أن يعيش موفور الكرامة .

الفصل التاسع عشر

امثـــال

الطب والوصايا الصحية الشعبية

الطب والوصايا الصحية

المثلية الشعبية

لقد عرف الشعب العربى الفلسطينى منذ أقدم العصور كيف يعالج نفسه بما حباه الله من تشكيلة فريدة ومتنوعة من النباتات الطبيعية البرية لتنوع مناخ بلاده فى منطقة على مساحة محدودة ، أدرك كنهها فداوى بها أمراضه . وبعدها انتشرت « البيمارستانات » أو المستشفيات بلغة اليوم فى المدن الفلسطينية من أقصى جنوبها فى غزة حتى الشمال فى عكا وكذا القدس ، وصفد ، وقيسارية ، ونابلس ، برع بهـــا العديد من الأطباء الفلسطينيين (١) .

وفى تلك الفترات وما بعدها خاصة تلك الحقب التى كان يسودها الضعف السياسى والغزو يلجأ العديدون للتداوى والعلاج الشعبى .

وحديثنا عن هذه الممارسات فى الطب الشعبى سيكون مقصورا على ما نطقت به وأوصت عليه الأمثال الشعبية سواء أكان بقصد الوقاية من الأمراض والتى حرص الشعب على حفظها وادخالها دور الممارسة الفعلية بالنصح والارشاد والتوجيه خدمة للصحة الشعبية وكان على رأس هؤلاء المشايخ ورجال الدين والصلاح والعجائز من النساء الطيبات ذوات السمعة العطرة فاتخذوا من آيات القرآن الكريم بلسما لهم يستهلون بها كلامهم عند دخولهم على المرضى بالتكبير والتهليل ليعرضوا بعدها وصفاتهم الطبية الشعبية المتعددة منها : الأعشاب ـ الحجب ـ الحجامة ـ الكى ـ اطلاق البخور خاصة للحالات النفسية وكاسات الهوا واللصقات ـ الحمام

---

(١) د. أحمد عيسى بك ـ تاريخ البيمارستانات فى الاسلام ـ دمشق ـ ١٩٣٩ ص ٢٣٢ ـ ٢٣٤ و ٢٤٧ ـ ٢٥٤ .

والاستحمام فى البحر والتنزه فى الحدائق والخزرات ... الخ . يساندهم « العطار » داخل القرية أو المدينة بدكانه المتواضعة والذى هو فى الحقيقة يلعب دور الطبيب الصيدلى اليوم وغالبا ما يقوم هو بدور الطبيب الذى يرى المريض فيقدم له من الأعشاب والمراهم ما يلائمه وبجواره فى الغالب ولده الذى يدربه فالمثل الشعبى يدلل على ذلك بقوله :

٨٩٠ ــ العطار بيقول لابنه شوف الزبون واعطيه على شكله .

ومما لاحظته من وسائل اشاعة الوصفات الطبية الشعبية وتعميمها على النـاس ما كان يخطه بعض رجال الدين والعلمـاء والفلسطينيين على حواشى بعض مخطوطاتهم العلمية أو الأدبية وحث الآخرين على اعادة كتابتها طلبا للثواب .

وهكذا كان الناس يقبلون على هؤلاء جميعا يحدوهم الأمل بالشفاء والايمان بالفطرة السليمة بأن :

٨٩١ ــ خود من عبد الله واتوكل على الله .

وكذلك بأن :

٨٩٢ ــ الصحة من الله .

وهم بداية يؤمنون بالنظـافة سواء نظـافة البدن أو البيت الذى يسكنونه قائلين :

٨٩٣ ــ النظافة من الايمان والوساخة من الشيطان .

وهم شديدو الحرص على نظـافة بيوتهم باستمرار لكى تبدو أمام الضيوف نظيفة ومنعـا لانتشـار الذباب والحشرات ومن ثم الأمـراض فيقولون :

٨٩٤ ــ نضف بيتك وقشه ما بتعرف مين بيخشه .

وأكدوا ذلك أيضا بقولهم :

٨٩٥ ــ نضف بيتك ما بتعرف مين بيدوسه ونضف خدك ما بتعرف مين بيبوسه .

أما بالنسبة للأكل فقد قدمت الأمثـال الشعبية نصائحها الوقائية

الداعية الى الاقلال لأن الابتلاء من الامتلاء ، مؤكدين بأن المعدة بيت الداء وكما قال رسـولنا الكريم « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع واذا أكلنـا لا نشبع » . وعليه استخلصوا حكمتهم المثلة القائلة :

٨٩٦ ــ لا تاكل الا وانت جعـان ولا تشرب الا وانت عطشان ولا تنام الا وانت نعسان .

لذا نصح مثلهم قائلا :

٨٩٧ ــ نص البطن احسن من ملوها .

وذلك لأن :

٨٩٨ ــ البطنة تذهب الفطنة .

لان فى البطنة امتلاء المعدة مما يسبب الكثير من الآلام والتى منهـا المغص الشـديد وعنـدها يصفون لهم شرب المرمية والبابونج والجعدة والحذقون والشيح واليانسون وذلك بغليها ثم شربها .

أما فى حالات الانتفاخ فيعالجونه بالكمـون والزعتر وقشر الرمان والكسبر .

وفى الاسهال يعالج شعبيا بالسماق والزعتر والليمون والثوم والرمان وكذلك بشرب القهوة المرة (السادة) باضافة عصير الليمون لها .

وعند الامساك فيستخدمون البابونج والسنامكى والحنظل وكذا الحلبة وعسل الخروب الأسود (الرب) .

كما يتناولون زيت الخروع وبذر القـرع كوسيلة لطـرد الديدان وتنظيف المعدة .

ومن جراء ذلك كله أمرهم مثلهم الشعبى بقوله :

٨٩٩ ــ خفف طعامك تحمد منامك وتأمن سقامك .

من هنا اعتبروا أن :

٩٠٠ ــ الأكل فى الشبعان خسارة .

ومن ثم اتخذوا من الأكل والرغبة فيه علامة على تمام الصحة فقالوا :

٩٠١ ـ اللى بياكل رغيفاً مش ضعيف ·

وكذلك قالوا :

٩٠٢ ـ اللى بياكل قد الزبيبة ما فيه ولا مصيبة (مرض) ·

وهذا يذكرنا بأن المريض نزيل البيمارستان فى أيام الدولة الاسلامية عندما يؤكد الطبيب شفاءه يقدم له رغيفا لياكله فاذا ما أكله صرح له بالخروج ·

لهذا سخروا من كل مريض عندما يرونه يأكل بنهم مؤكدين بأنه متمارض قائلين :

٩٠٣ ـ مريضنا بيعن وبياكل مثل الجن ·

لذا كانت التحمية وتجنب الاكثار من تناول المأكولات وسيلة لعلاج المصابين بالتخمة فقالوا :

٩٠٤ ـ الخبزة المبلولة دوا المعلولة ·

وقالوا :

٩٠٥ ـ ان أوجعك راسك اكرمه وان أوجعك بطنك احرمه ·

فكانوا عندما يشكون من آلام الرأس والصداع حيث تبدو عليه علامات الزغللة فى العينين والدوخة مع رعشة فى الجسم [آلام الضغط حاليا] يحضرون « الحلاق » الذى بدوره يقوم بجرح المريض خلف أذنه فيسيل دمه ويتلقفه فى طبق (الحجامة) فيشعر بعدها بالارتياح ·

وأحيانا كانوا يأتون بديدان من المستنقعات تدعى «العلق» ويثبتونها خلف الأذن فتأخذ فى امتصاص دم المريض حتى تنتفخ كثيرا فتسقط وعندها يشعر المريض بالارتياح قائلا مثله :

٩٠٦ ـ نقطة دم بتفرج الهم ·

وبهذه المناسبة قالوا ساخرين على الرجل الذى يقوم بالحجامة هذه :

٩٠٧ ـ بيتعلم الحجامة فى راس اليتامى ·

ويعنون بالمثل أحيانا الامتعاض من أولئك الذين يستغلون الفقراء والمساكين استغلالا سيئا ·

ويعالجون الذين يشكون آلام ضربة الشمس بأن يضعوا فى آذانهم نقطا من ماء مملح يشعر بعدها بالراحة ·

وعليه أوصوا بمحاولة اتعاب الساقين اذا ما أحس المريض بألم بهما فى حين اراحة الرأس عند الصداع قائلين :

٩٠٨ ـ اوجع رجليك ولا توجع راسك ·

وخوفا من انتقال الأمراض عن طريق الأظافر نصحوا قائلين :

٩٠٩ ـ كول مع الكافر ولا تاكل مع طويل الاظافر ·

واعتبروا الاقبال بشهية على الأكل والرغبة فيه فرصة يجب على الانسان اغتنامها فقالوا :

٩١٠ ـ ان طاب لك زادك كلو كله بيجيك يوم ما تقدر تشمه ·

كما نظموا طريقة أكلهم وابتعدوا عن الخلط بين الحامض والحلو منها :

٩١١ ـ كول الحلو واشرب عليه وكول الحامض واصبر عليه :

منعا لحدوث التفاعلات التى قد تؤدى للعديد من آلام المعدة وعند تناول وجبتى الغداء والعشاء قالوا :

٩١٣ ـ اتغدى واتمدى واتعشى واتمشى ·

فبعد تناول الغداء نصحوا بالاستراحة والاستلقاء ولو قليلا فى حين طلبوا المشى ولو قليلا بعد العشاء حفاظا على صحة أبدانهم ·

كما أوصوا بأكل البصل الطارد للعديد من « الأوخام » فى نظرهم خاصة عند السفر قائلين :

٩١٣ ـ البلد اللى بيتخاف من وخمها كول من بصلها ·

وبنفس المعنى قالوا :

٩١٤ ـ قبل ما تصلها كول بصلها ·

وكذلك :

٩١٥ ـ التوم قتال السموم .

اما فى حالة بكاء الطفل فقد قاموا بتوجيه امه لذلك قائلين :

٩١٦ ـ الطفل ان بكى يا من جوع يا موجوع .

وعند تعرض الانسان لحالات البرد والرشح فقد وصفوا علاجا بمثلهم قائلين له :

٩١٧ ـ أول الرشح افرش ونام وفى آخره روح ع الحمام .

فعلاج «الرشح» يتم بالاكثار من تناول عصير الليمون وغسل الراس بالماء الساخن قبل النوم ، واخيرا الذهاب للحمام التركى الذى انتشر فى العديد من المدن الفلسطينية حيث يستلقى الفرد على ظهره فوق « بيت النار » مدة طويلة او الاستحمام فى حوض داخل الحمام يدعى «المغطس» خاصة لمن يعانون من الأمراض العصبية « الروماتيزم » وعندها يستخدمون مزيجا من مسحوق « سن الفيل » مع بعض الكحول وهو شديد الحرقان حيث يدهن المصاب به فوق الموضع الذى يعانى منه .

ويصفون أحيانا المصابين بدفن أجسامهم أو سيقانهم المصابة فى الرمل الناعم الساخن صيفا .

فالبرد من وجهة النظر الشعبية هو أساس معظم الأمراض :

٩١٨ ـ البرد أساس كل علة .

ومن وسائل علاج البرد وآلامه « كاسات الهوا » وهى وصفة طبية شعبية ناجحة يؤكدها مثلهم القائل :

٩١٩ ـ كاسات الهوا بتشيل العلة من غير دوا .

وتفاديا للبرد وما يسببه من علل عديدة كالاسهال واللفحة والنزلات الصدرية اتقوا شره بعديد من الوصايا المثلية الشعبية القائلة :

٩٢٠ ـ برد الصيف أحد من السيف .

أى أنهم أوصوا بالحذر من الانخداع لحرارة الصيف ومحاولة التخفيف أو التخلص أحيانا من الملابس الخارجية أو عند النوم مما يسبب البرد لهم ، كذلك حذروا من برد الربيع :

٩٢١ ـ برد الربيع يقطع الاصابع .

لذلك لا عجب أن يوصوا بارتداء الملابس وتجنب التخلى عنها خاصة فى الصيف وعند اشتداد الحرارة (الشوب) قائلين :

٩٢٢ ـ منه الشوب البس التوب .

كما حذروا الأم ان تخدعها شمس الربيع ظنا منها بأنها غير مؤذية وحرارتها منخفضة على طفلها الرضيع وهى تحمله بين يديها تحذروها قائلين :

٩٢٣ ـ شمس الربيع بتؤذى الرضيع .

لهذا نصحوا بارتداء الملابس الثقيلة اتقاء لشر البرد ولو بملابس غير ملائمة حتى ولو كانت بالية قائلين :

٩٢٤ ـ اتق البرد بالجرد .

أو :

٩٢٥ ـ اتق البرد ولو بخلقه جرد .

من هنا جاء مثلهم القائل :

٩٢٦ ـ الدفا عفا ولو كان فى الصيف .

وتفاديا لما قد يحدث نتيجة التقلبات الجوية عند الانقلابين الصيفى والشتوى وتحاشيا لآلام البرد نصحوا عند النوم :

٩٢٧ ـ فى الشتا تقل فراشك وخفف غطاك .

وفى الصيف تقل غطاك وخفف فراشك .

وأكدوا محذرين من ضربة شمس الصيف القاسية لأنها تفوق فى ضررها برودة الشتاء :

٩٢٨ ـ شمس الصيف أقسى من برد الشتا .

ولم يأمروا بتخفيف الملابس الا بعد الاحتفال بعيد الفطاس عند الاخوة المسيحيين قائلين :

٩٢٩ ـ ان غطس النصرانى اشلح توبك الفوقانى ·

وعيد الغطاس فى يوم ١٩ كانون الثانى (يناير) فى حين يرى أحمد أمين انه يصادف ١١ طوبة (فبراير) (٢) ·

وخوفا من البرد أوصوا الفرد بتحاشى النوم فى مجرى هوائى بالقرب من النوافذ قائلين :

٩٣٠ ـ نام فى البرية ولا تنام عند طاقة هوية ·

وما دمنا بصدد النوم فللشعب العربى الفلسطينى وصاياه المثلية فيه فكان من أهمها الامتناع عن السهر والمبالغة فيه لاعتقادهم بأنه ينهك الصحة قائلين :

٩٣١ ـ السهر سوس العظام ·

خاصة وقد اعتادوا النهوض مبكرين لحقولهم وأعمالهم وراوا فى ذلك عظيم الفوائد قائلين :

٩٣٢ ـ نام بكير وقوم بكير (مبكرا) وشوف الصحة كيف بتصير ·

مؤكدين أن الاستمرار فى النوم عند الصباح تؤدى للمزيد من الكسل والخمول قائلين :

٩٣٣ ـ يا نايم نومة الضحى يا شارب عكرها ·

حيث يصحو بعدها الانسان وهو فى حالة منهكة لا تؤهله حتى على الحركة السليمة كما أنهم لم يفضلوا النوم بعد العصر خاصة لأن فيها ذات الصفات السابقة فقالوا :

٩٣٤ ـ نوم العصور كسور ·

أى يصحو وكأن عظامهم متكسرة ·

أما بالنسبة لبعض الأمراض التى قد تصيب الانسان ومنها «الفالج» أى الشلل فقد رأوا بأنه مرض عديم العلاج قائلين :

---

(١) أحمد أمين ـ قاموس العادات والمصطلحات ص ٢٥٣ ـ ٢٥٤ ·

٩٣٥ ـ فالج لا تعالج ·

وهذا هو حادث حتى اليوم رغما عن كل الوسائل المتقدمة فى العلاج والتقدم الطبى ·

ووقاية من الأمراض الجلدية خاصة ، الجرب ، امروا بالابتعاد عن المصاب قائلين :

٩٣٦ ـ الجرب ما بينقرب ·

وكانوا يعالجونه بالكبريت الأصفر والاستحمام بالبحر خاصة ايام أربعاء أيوب ·

وكان لهم مع أمراض العيون العديد من الوصفات الطبية الشعبية ، لأنها من الأمراض التى اهتموا بها وأدركوا آلمها قائلين :

٩٣٧ ـ ما هم الا هم الدين ولا وجع الا وجع العين ·

معتبرين بذلك آلام العين من الهموم والأوجاع التى لا يدانيها ألم ·

ورأى البعض منهم أن فى تركها خاصة لو دخلها بعض الأتربة وسيلة للعلاج قائلين :

٩٣٨ ـ ترك العين دواها ·

أى الامتناع عن دعكها وتدليكها باليد فى حالة اصابتها ببعض الغبار أما اذا ما أصيبت بالرمد الشديد فكانوا يحكونها بورق التين الخشن لعدة مرات · لذا رأى البعض بأن :

٩٣٩ ـ ترك العين عماها ·

أى يجب مداواتها وعلاجها فأحيانا يضعون الكحل سواء للرجال أو النساء كما يستخدمون الشاى المغلى بدون سكر لغسلها أو بمحلول البوريك · أو وضع عدة قطرات من حليب الأم المرضعة فى عين الطفل خاصة عندما تكون « مطروفة » ·

ومما يستخدمونه للعين تعليق « خرزة » يسمونها « خرزة العين » ويطلقون عليها أيضا فى القرى الفلسطينية « بزله » ولونها أحمر مع بياض ·

والبزلة فى العرف الشعبى احتقان العين بشكل يجعل لونها أحمر

وتعالج احيانا بتقطيرها بدبس الخروب ، او ما يطلق عليه شعبيا «الرب» وصفار البيض ويعلقون فوق العين الحرزة بحيث تتدلى من طاقية الطفل التي على رأسه ·

وللخرزات هـذه مذاهب ومعتقدات خاصـة سواء بالنسبة لبعض الأمراض او تلك الخاصة بالحالات النفسية مثل الحسد أو العشق كما كان عند العرب منـذ القـدم مثـل خرز « السلوانة والهيمنـة وخرزة العطفة » (٣) ·

ولأبناء الشعب الفلسطيني ونسائه ممارساتهم مع هـذه الخرزات تفصح عنها بعض النساء ويبدو أنها من غزة قائلة :

٩٤٠ ـ لولا خرزة ابو مكى كان حالى ببكى ·

ولا ندرى أى خرزة كانت تقصد فهن عديدات ولكن مما لا شك فيه أن « أبو مكى » هو الطبيب الشعبي الفلسطيني أحمد بن على أغامكي وقد اخذ الطب عن والده الذى مارسها حتى وفاته سنة ١٨٤٨ م فدرس تذكرة داود الأنطاكي فى العقاقير الطبية والقانون فى الطب لابن سينا وتوفى سنة ١٨٨٩ م وكانت له شهرته الذائعة فى غزة وفلسطين فى تشخيص الداء ·

ويبدو من ضمن وصفاته « الخرزات » التى أشادت بفضلها المرأة الفلسطينية ومن هذه الخرزات :

خرزة للأذن وتدعى « ودنية » ويميل لونهـا للبياض كلون زلف البحر وهى مثقوبة ·

خرزة الدمامل وتسمى « خرزة دمامل » ولونها أسمر على بياض بالاضافة للون الأخضر ·

خرزة لألم الرأس ويطلقون عليها « خرزة شقه » أى لمن يعانى من ألم نصفى فى رأسه · ويميل لونها للاسمرار المشرب باللون الأبيض ·

خرزة الدرة : وتستخدمها النساء اعتقادا منهن بكثرة ادرار الحليب ·

وهناك خرزات توضع فى أثناء الحمل منعا للحسد ·

ومن الأمراض الشـائعة ما يسمى « بالطربه » أو « الخـوفه » أو « الخضه » وأحيانا يطلقون عليها « الرجة » وهى ناجمة عن فزع مفاجىء

(٣) السيد محمود الألوسى البغدادى ـ بلوغ الارب فى معرفة أحوال العرب ـ الطبعة الثانية ـ المطبعة الرحمانية ـ مصر ـ ١٩٢٥ ص ٦ ـ ٧ ·

يتلقاه الشخص نتيجة رؤيته لمنظر بشع او مفزع او سماعه خبرا مؤلما بدون مقدمات ·

وغالبا ما تنتاب الصغار وهم يلعبون فى الشوارع مما يؤدى الى اضطراب فى جسده ، وعلاجها وفق مثلهم الشعبى القائل :

٩٤١ ـ طربه بترد طربه ·

أى احداث « طربة » مفاجئة للشخص المصاب « بالطربة » نفسها بسبب ضياعها مفسرين ذلك بمثلهم القائل :

٩٤٣ ـ شدة الفزع بتطير الوجع ·

فالاضطراب المفاجىء المفتعل للشخص قد يزيل المه خاصة الذى يصيب اعصاب الطفل عند فزعه · وغالبا ما يعالجونه بواسـطة التدليك بين الفخذين بزيت الزيتون الدافىء وتقوم بهـا امراة خبيرة بالأطفال ورجل للرجال مرتين فى اليـوم صباحا ومساء لمدة ثلاثة أيام وأحيانا تعالج بما يسمى « حوايج الطربة » يشترونها من العطار ويصنعون منها مرهما يدهنون به جسم المريض ·

ويستخدمون لها أيضا ما يسمى « طاسـة الرجة » وهى طاسة نحاسية منقوش بداخلها آيات قرآنية مثـل سـورة الاخلاص والآية « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين » ويعلق على محيطها قطع نحاسية صغيرة مكتوب عليها أسماء الله الحسنى ، يضعون فيها الماء بشرط أن تبيت فى الندى وبعيدة عن أشعة الشمس ليشرب المريض منها بعد ذلك ·

أما اذا أعياهم داء أو مرض استخدموا الكى ، خاصة لمن يشكون من أمراض عصبية أو أوجاع مزمنة قائلين :

٩٤٣ ـ آخر الطب الكى ·

وذلك باحماء حديدة أو مسمار بحيث يضعونها على أجزاء من الجسم لهم فيه دراية وخبرة وفقـا للمرض ويشـجعون المريض عندها لشـدة ما يتعرض له من آلام قائلين :

٩٤٤ ـ وجع ساعة ولا كل ساعة ·

ويطلبون منه الاحتمال والصبر على الشدة والآلام قائلين له :

٩٤٥ ـ هون وعون ·

كما يتخذون من التنزه احيانا بين الحدائق والبيارات أو الذهاب لشاطىء البحر فرصة للشفاء « تغيير هوا » مدللين على ذلك بمثلهم القائل :

٩٤٦ ـ تغيير الهوا أحسن من الطب والدوا ·

كما اعتبروا بفطنة وادراك سليم بان الضحك والانشراح والترفيه عن النفس وسيلة مثلى للشفاء من عديد من الأمراض النفسية والروحية فقالوا :

٩٤٧ ـ ضحك وانشراح احسن دوا للأرواح ·

مؤكدين قيمة الضحك بانها غذاء للجسم تماما كالسماد بالنسبة للتربة قائلين :

٩٤٨ ـ الضحك للانسان زى السماد للبستان ·

وما زال العديد من العلماء والدارسين لليوم يؤكدون قيمة الضحك السيكلوجية والفسيولوجية على الانسان ·

وهناك مثل شعبى يجمع العديد من الأوجاع قائلا :

٩٤٩ ـ ما هم الا هم العرس ولا وجع الا وجع الضرس ، قال العرس بترفعه والضرس بنقلعه ·

وكانوا يعالجون ألم الأسنان بالمضمضة بالماء والملح أو تدخين سيجارة مخلوطة « بعين جرادة » ناشفة ، مستخدمين أحيانا « الطحينة الحمراء » لعلاج تشقق الفم والشفاه ، أو قلعه والتخلص منه عن طريق حلاق القرية أو المدينة ·

وكما اشتكوا من الم الضرس كانت آلامهم من « الفلس » أشد وأقوى قائلين :

٩٥٠ ـ وجع الضرس ولا وجع الفلس ·

ويقصدون بذلك الآلام الشرجية وخاصة « البواصير » فهى آلام مزدوجة نفسية جسدية مع أناس لهم عاداتهم وتقاليدهم وتمسكهم بها · ولهم وصفاتهم الطبية الشعبية التى يعالجون بها مثل هذه الأمراض ·

وقد عالجوا الكسور عند « المجبر الشعبى » الذى له خبرة فائقة قد يستعين بها العديد من الأطباء المحدثين اليوم ·

وأحيانا يقولون :

٩٥١ ـ العلة الخبيثة ما الهاش الا الدوا البخس ·

خاصة اذا استعصت عليهم علاجها بالأدوية والمراهم الشعبية النباتية ·

كما أنهم يرون فى علاج الشباب خاصة أمرا ميسورا لسرعة شفائهم بما حباهم الله من صحة وعافية فيقولون :

٩٥٢ ـ عافية الشباب ورا الباب ·

وهكذا فاننا لسنا بصدد احصاء جميع الأمراض ووصفاتها الشعبية التى هى فى حاجة ماسة للدراسة الخاصة ، ولكننا بازاء ما تعرضت له الأمثال الشعبية وبهذه الخبرة والدراية فى العلاج والتطبيب استطاع شعبنا أن يهون على نفسه الآلام العديدة وذلك باستيعابه العقلانى لأعشابه ونباتاته الطبية تماما كما وعى أمثاله الشعبية التى كانت بمثابة وصفات طبية وقائية وعلاجية ، فها هو العالم المتمدن اليوم ومع كل ما أحرزه من تفوق وتقدم تكنولوجى يرفع شعار «العودة للطبيعة Back to the Nature» فى التطبيب والعلاج بعد أن تأكد له أن أدويته الكيمائية المتفاعلة فى جسد الانسان قد أزالت بعض أمراضه فى الوقت الذى زرعت أمراضا جديدة أخرى بمضاعفاتها ·

وأخيرا يجملون صحة الانسان ومدى قابليتها للعافية اذا ما تعرضت لظروف مرضية على النحو التالى ووفقا للأعمار :

٩٥٣ ـ صحة الصغير على قب السرير ، وصحة الصبية فى الزبدية ، وصحة الكبير فى قاع البير ·

وببلاغة مثلية شعبية فذة يوضحون بأن لا علاقة بالضرورة بين عمر الانسان وصحته ، فليس بالضرورة أن يكون كل فتى قويا أو كل كبير السن ضعيفا ، واستخلصوا هذه العبرة وصاغوها فى قولهم السائر :

٩٥٤ ـ قال قديش عمرك ؟! قال الصحة عال ·

وهكذا ليس المعيار هو السن أو الزمن انما هى الصحة الجيدة ·

الفصل العشرون

أمثـــال

- كرم الضيافة
- البخـــل

كرم الضيافة

الضيافة وليدة الكرم ، وكرم الضيافة عادة متأصلة فى النفس العربية بعامة خلقتها الظروف البيئية الجغرافية القاسية فى الجزيرة العربية المقفرة .

وفى فلسطين الامتداد الطبيعى لها والبشرى والتى تدرجت فيها قساوة العيش من جنوبها الصحراوى لشمالها الممطر المتذبذب . مما جلب الاحساس فى النفس الفلسطينية بالقلق المعيشى فالتذبذب يعنى الندرة أحيانا التى تأتى بالقحط والجدب فيتبعهما الغلاء .

واذا أينع الزرع خاصة القمح والشعير فقد يداهمهما مرض « الحمرة » فى الحر الشديد اللافح تماما كما يهلك المواشى البرد الشديد برياحه الشديدة وزمهريره القارص ، والذى قد يصاحبه أمطار عزيزة حتى الطوفان بما تجره السيول من زرع وضرع ... وهكذا فعاهات الزمن فى فلسطين طبيعية وبشرية لا تحصى .

كلها جميعا شحنت الشخصية الفلسطينية بالقلق المتحفز والصبر العميق المتأمل ، والايمان الشديد المتلمس للفرج . فتحصن بعديد من العادات التى تيسر له قساوة العيش وتصدى لها بالتكافل والتكامل الأسرى « الحمولة » ماديا ومعنويا بوسائلهم الشريفة كالنقوط ـ والقود ـ والطبق ـ ومساندتهم الوجدانية فى أفراحهم وأتراحهم والوقوف بجانبهم عند المرض وبأيديهم « المطلة » .

حياة اشتراكية ـ قبل أن تخلق الاشتراكية بمفهومها الأيدولوجى الحديث ونظرياتها الاقتصادية .

يقاومون بها التحديات الطبيعية والبشرية الصعبة رافضين لمآسيها لتحقيق حياة أفضل فأبدعوا « المنوحة » تلك الغنمة التى تقدم لمن لا يملك اغنام ليقوم بحلبها ويستفيد من لبنها له ولأسرته .

« والقيظة » وهى شجرة التين أو العنب أو « خريف صبر » يقدمونها لمن بخلت عليه الأيام بالأشجار المثمرة والفاكهة يسد بها حاجة أولاده صيفيا والجميع فى حقولهم وكرومهم « يتقيظون » بأشجار الفواكه .

ومن وسائل تأمينهم لغذائهم وغذاء من أصابهم الشح « العونة » أى تقديم العون من قبل شباب الحى أو القربة للفلاح الذى يعجز بمفرده حرث أرضهأو حصادها أو للجار الذى لا يملك قدرة البناء هبوا جميعا لنجدته ، كذلك لو مرض أحد الرعاة أخذوا أغنامه ومواشيه وخلطوها بأغنامهم وقاموا برعيها حتى يمن الله عليه بالشفاء .

يقدمونها وهم مدركون بدورة الأيام التى تدور دورتها على الجميع وفى خلدهم يدور مثلهم :

٩٥٥ ـ هى على الأجواد دين وعلى الأندال صدقة .

فلا غرو أن نجد الكرم قد عنون حياتهم وأضحت « المضافة » مسرحه وميدانه الذى يستقبل فيه الضيف ، الذى ما ان يحل بها حتى يتنادى جميع الأهل لاستقباله والاحتفاء به مستفزين الهمم والذمم بكامل قدراتها، فيحسب كل انسان على نفسه حركاتها وتصرفاتها حتى لا تبدو على سماتهم دلائل الغضب ولا على قسماتهم شارات العنف بل يعلوها البشر والفرح مترسمين خطا مثلهم القائل :

٩٥٦ ـ البشاشة خير من القرى .

فالضيف لو اشتم مؤشرات تلوح منهم بالغضب أو تفوح بالنكد كعلو أصواتهم وعصبية تصرفاتهم سواء على أولادهم أو خدامهم ، خرج غاضبا وفقا لما يمليه عليه مثله القائل :

٩٥٧ ـ الكشرة طرد للضيف .

وهذا ما يتناوله الضيف ويبتعد عنه لما سيلحقه من اساءات بين الناس .

وما ان يحل الضيف ويأخذ مجلسه بين الناس حتى يقابل بتظاهرة من مستقبليه يطالب فيها كل فرد من كبيرهم أخذ عشاة ان وافق حضوره

بعد الظهر أو العصر ، أما إذا صادف قدوم الضيف بعد صلاة العشاء فقد حق عليه قول المثل الشعبى القائل :

٩٥٨ ـ ضيف المسا ما الو عشا .

ويتزايد الاصرار على اكرام الضيف من كل فرد جالس مهما كان عددهم مما يدخل البهجة والزهو فى نفسية الضيف ، ورفع معنوياته ، متبعين شعارهم المثل :

٩٥٩ ـ لاقينى ولا تغدينى .

هذه التظاهرة الاحتفالية المعنوية الكريمة ينبرى من بينها من يصر على اكرام الضيف اما حبا وتقديرا وكرما أو ردا لجميل سابق للضيف عليه يدعم اصراره هذا عديد من قوانينه المثلية القائلة :

٩٦٠ ـ أكل الرجال ع الرجال دين وأكل الرجال ع الأندال صدقة .

فيا هى الفرصة قد حانت للسداد خاصة وان :

٩٦١ ـ الدنيا سداد ودين .

و

٩٦٢ ـ البادى بالكرم أكرم .

ويعلل تأكيده على اكرام الضيف تأدبا وتواضعا بقوله المثل الذى هو أقرب ما يكون للشعر قائلا :

٩٦٣ ـ جادوا علينا الخيرين بمالهم واحنا بمال الخيرين بنجود .

هذه الأمثال يقدمها الرجل تبريرا لموقفه واقناعا لكبير المضافة والضيف لأخذ « عشاة أو غداة » وملتمسا منهم القبول بديباجة نثرية شعبية عله ينال الموافقة فيقول :

٩٦٤ ـ مسيك بالخير يا قاضى الخير .

ايش قولك فى ضيوف حياك وحياهم الله
ومن ممشاهم تلفاهم ، والعين ترعاهم ، والقلب يهواهم
وضيوف عزاز واصحاب ، ومن الثلاثة اللوازم

الى بيطيحو القدر ع النار ، وشاتي مربوطة ، ورزاتي في القوطة
وداخل عليك يا قاضي ماتفوتني عشاهم
ويحيي لحيتك ولحاهم ، ولحية القاضي اللى يعطيني عشاهم .

فلا يجد القاضي الذي هو كبير المضافة مناصا من أن يرد عليه قائلا « الله يخلف عليك » ايذانا بالقبول .

فيخرج المضيف تملؤه الفرحة ليذبح ذبيحته بينما تقوم النساء بفتل المفتول « الكسكسون » وهي الأكلة الشعبية في فلسطين أو طهي الأرز غير عابىء بالتكاليف لثقته بأمثلته القائلة :

٩٦٥ ـ الضيف ضيف الله .

وكذلك :

٩٦٦ ـ الضيف زوادتو معه .

فالله سبحانه وتعالى يحب اكرام الضيف وييسر لضيفه أسباب النعم، ويهيىء لهوييسر عليه نفقات اكرامه ، وكان الضيف يأتي ومعه رزقه .

وفي هذا المقام لهم مذاهب مثلية يختلفون فيها بما يقدمونه من ذبائح واكل في كمها وكيفها ، ومدى استعدادهم وتضحياتهم لها ، فمنهم من هذا بقوله السائر :

٩٦٧ ـ الجود في الموجود .

أي يجود في حدود امكانياته المتاحة والموجودة لديه فعلا ، معللا موقفه هذا بقوله السائر :

٩٦٨ ـ اللى في القدرة بتطوله المغرفة .

وأن :

٩٦٩ ـ بصلة المحب للمحب خروف .

وكذلك :

٩٧٠ ـ اللى بعزني بعظمة أنا عنده عظيم .

وان حاول بعضهم أن يحثه على زيادة كمية الأكل خشية نقصه وعدم كفايته للضيوف رد عليه بمثله :

٩٧١ ـ لقمة هنية بتكفي مية .

واذا ما الحوا عليه قال :

٩٧٢ ـ بين عذرك ولا تبين بخلك .

فما يقدمه هو عذر كاف لما تجود به امكاناته ، وان الله لا يكلف نفسا الا وسعها .

اما الفريق الآخر فيرى للجود معنى ومفهوما آخر وفق مثلهم القائل:

٩٧٣ ـ الجود جهود .

والجهد بالمفهوم الشعبي ما تفيض به النفس الكريمة المحبة بغض النظر عما تمتلكه فعلا ، فيتقدم بما يفوق طاقته المادية حبا في اكرام ضيفه والظهور بالمظهر المشرف أمام الناس ، وصاحب هذا الجهد يصفه الناس بقولهم .

٩٧٤ ـ فلان جهده كبير .

أي أنه كريم ولا يأبه بالغالي والنفيس لاكرام ضيفه وتقديره مؤمنا بتشجيع أمثاله الشعبية له والقائلة :

٩٧٥ ـ الكريم لا يضام .

٩٧٦ ـ الخير مرزوق .

وقولهم :

٩٧٧ ـ الفلاح مغرق .

أي أن الكرم غير قاصر على أحد أو فرد بعينه ، كما أن الكريم لن يضام وكذلك فهو مرزوق من الله سبحانه وتعالى .

وتحفزه الأمثال وتلهب حماسته لذلك بقولها :

٩٧٨ ـ الكريم بيكرم بعباتو .

وعباته ـ هي رمز رجولته وعنوان ملبسه وبدونها يشعر وكأنه عار حتى لو ارتدى جميع الملابس ، وبرغم ذلك فالكريم على استعداد لخلعها وتقديمها لغيره قربانا لكرمه وكرامته .

ويعزز كرمه وجزيل عطائه ايضا مثله القائل :

٩٧٩ ـ اذا ضربت اوجع واذا اطعمت اشبع .

ومما يحفز المرء على الكرم مكافأة المجتمع الشعبى لكل كريم فى حاضره ومستقبله بقولهم عنه :

٩٨٠ ـ من حسن قراكو بنجرى وراكو .

وكذلك :

٩٨١ ـ الكرم يغطى كل عيب .

وعلى الرغم من ادراكهم الواعى ووفق قواعد سلوكهم الشعبية القائلة بأن .

٩٨٢ ـ الضيف أسير المحل .

الا أنهم يحسبون له بما يقدمونه من ذبائح فى المقام الأول الف حساب وذلك لأن الضيف فى نظرهم يمر بثلاث مراحل صوروها بمثلهم وهى :

٩٨٣ ـ الضيف لما يلفى امير ، ولما يقعد يبكون اسير ، ولما يروح يبكون شاعر .

ويهمهم الصورة الأخيرة وهى صورة الشاعر فى مجتمع له فيه الباع الاعلامية الطويلة والشائعة والوحيدة . يزيدهم تأكيدا على كرمهم هذا قول أمثالهم أيضا :

٩٨٤ ـ زادك ان أكلته راح وان اطعمته فاح .

٩٨٥ ـ ان لقيت زادك متاكل رحب به .

٩٨٦ ـ ان كان مالك رايح زيده ملايح .

وتحسبا للأقوال ومنعا للقيل والقال يرون فى اكرام الآخرين فرصة لتخجيلهم اذا ما احتاجوا لهم قائلين :

٩٨٧ ـ اطعم التم تستحى العين .

وربما يكون ذلك أقرب للرشوة منه للكرم .

بهذه الجيئيات الثلية الكامنة فى عوسهم تنطلق الأسرة بما يشبه الفرح فى اعداد الطعام للمدعوين تتجمع نساء الحى او القرية جميعا يشاركن بجهدهن فى تجهيز الأكل . بينما ينطلق الضيف واولاده واقاربه فى شوارع الحى أو ازقة القرية يدعون الناس شفاهة لتناول الطعام « العزومة » ، وعلى السنتهم تدور أمثلتهم فيما لو كان لدى بعضهم اعتذار ربما تحول دون تلبية الدعوة فيردون عليهم قائلين ومسترشدين بمثلهم .

٩٨٨ ـ اعزم واكرم والأكل نصيب .

وغالبا ما يلحون فى توجيه الدعوة فهناك نوعان منها وهما :

٩٨٩ ـ عزومة من ورا الباب وعزومة بتقطع التياب .

ويقولون لهم :

٩٩٠ ـ أكل الزاد نصيب .

وبعدما يلبى الجميع الدعوة بالذهاب لتناول الطعام على سرف الضيف ، وهم من الحساسية بدرجة لا تسمح لأحد مهما بلغت قرابته أو معرفته بالمضيف أن يذهب دون دعوة حتى ولو كان من قبيل السهو أو النسيان خوفا من طائلة المثل الشعبى القائل :

٩٩١ ـ يا جاى بلا عزيمة يا قليل القيمة .

وعندما يصلون المضافة يجلسون أرضا على هيئة مجموعات صغيرة لتوزع عليهم آنية الأرز المجللة باللحم « المناسف » أو المفتول مبتدئين بتوزيعها أولا أمام الضيف الذى يجلسون غالبا بجواره أكبرهم سنا وأعلاهم مكانة متبعين بذلك مثلهم الذى سبق ذكره والقائل « المناسف خص والقهوة قص » .

فيبدأ الجميع بالأكل حافظين آدابه حيث يأكل كل شخص من قبالته ومن حاول مد يده أمام غيره نهروه بأن ضربوا على يده بخفة .

وفى هذه الاثناء يحوم المضيف وأنجاله وبعض من أقربائه يراقبون الجميع خشية أن ينقصهم شيئا ما ليقدموا لهم ما يحتاجون من ماء أو طعام ويشجعونهم على الأكل دون خجل قائلين :

٩٩٣ ـ المايدة ميدان وعيب على اللى يقوم جعان ٠

وهم بدورهم لا يأكلون حتى ينتهى الجميع من الأكل ، وان دعوهم ردوا عليهم بقولهم السائر :

٩٩٣ ـ المعزب ربـاح ٠

ان أن أهل البيت هم الرابحون سواء أكل الضيوف أم اعتذر البعض. بعد أن يدعوهم قائلين :

٩٩٤ ـ اللى هواه الزاد بجانبه (بجانبه) ٠

وبعد انتهاء الجميع من الأكل توزع عليهم القهوة السادة ، ليقف احدهم سائلا المضيف أن يمنحه فرصـــة اكرام الضيف « أخذ غداه » فاما أن يلبى طلبه ويستمر الحال او يضع الضيف نفســه حدا لذلك لعودته السريعــة من حيث أتى ، وقد حــدد العرف الاجتماعى للضيف ثلاثة أيام فقط بقوله :

٩٩٥ ـ كرامة الضيف تلات أيام ٠

ليبدأ بعدها الضيف بالرحيل معلنا من شكره وامتنانه بما لاقاه من حفاوة وتكريم بكلمات مألوفة تكاد تذهب مذهب الأمثال قائلا :

٩٩٦ ـ وحياة مطعم الضيفان رز ولحماى ٠

انكم ـ اجاويد وانكم للطنيب حماى ٠

وهكذا يحرص الضيف كل الحرص أن يكون خفيفا لكى لا يكون عرضة للنقد وخارجا على الأعراف والتقاليد والا قدحته الناس بأمثالهـا الشعبية القائلة :

٩٩٧ ـ حسبناه ضيف خفيف أتاريه مشتى ومصيف ٠

ويصفون الضيف الثقيل أحيانا بمثل تهكمى لا يخلو من السخرية اللاذعة بقولهم ٠

٩٩٨ ـ ضيف المودة ما بيروح تيهرى اللحاف والمخدة ٠

وكما سبق القول أن للضيف سلوكه التى حددها له المثل الشعبى

بدوره « الأسير » فى هدوئه وسكينته وعدم تعديه على الآخرين قولا وفعلا مادام فى ضيافة الآخرين والا اسمعوه امثلتهم التانيبية القائلة :

٩٩٩ ـ ضيف وفى ايدو سيف ٠

ويقولون :

١٠٠٠ ـ ضيف بيكره ضيف والمحل بيكره الكل ٠

اذا ما اعتدى ضيف على ضيف آخر بالقول ٠

ومن ثم فهم يفضلون الزيارات الخفيفة سواء بالنسبة للزيارات المنزلية أو عند ضيافتهم مترسمين خطا أمثالهم الشعبية القائلة :

١٠٠١ ـ خف تعوم ٠

١٠٠٢ ـ الزيارة غارة ٠

١٠٠٣ ـ وبارك الله فيمن زار وخفف ٠

لذلك ينصحون من عاقبة التردد باستمرار وكثرة الزيارات دون مبرر معقول بقولهم المثلى :

١٠٠٤ ـ من كتر الهف بتنهف ولو كنت غالى ٠

ويقولون :

١٠٠٥ ـ كتر اللف بتنهف وتصبح فى قول قايل ٠

ويخلصون بنتيجة مثلية شعبية فذة تبين عدم تكالبهم على الأكل لمجرد الأكل انما هو وسيلة فقط للاحتفاء بالآخرين واظهار مودتهم وعلو قدرهم وليس غاية لملأ البطون أو مدعاة للشهرة فيقولون :

١٠٠٦ ـ شغل البطن ما بقيم رايات ٠

أى ليس لانسان أن يقيم لنفسه مجدا ورفعـــة بينهم بمـلا بطون الآخـرين ٠

أما اذا اصطدم الضيف بنكران الجميل وعدم الوفاء لكرمه المسبق على الآخرين فلا يملك الا زفرات يخرجها من صدره علها تروح عن نفسه وتفرج عن كربه ٠

منشدا بل نائحا يقول :

١٠٠٧ ـ
ياما بمالي في الضيقات ســـديت   وياما لعثرات الزمان نخوني
واليوم كالهدم ع الدار ظليت   يمروا عنى كانهم ما يعرفوني .

وينشد لمن خذلوه :

١٠٠٨ ـ بقيت اجيـــكو تقولوا مرحبـــا يا جـــاى
تقلوالي سبع بيضات في صحن فضه ، واربع ترغفه سخنات
ملقيت بجيـــكو تقـــولوا كل ســـاعة جـــاى
القرن حنو الجمل ، وجاجنا قطعت ، واللى مضا لك فات .

فيواسونه بحكمهم وأمثالهم علهم يخففون عنه بقولهم :

١٠٠٩ ـ البير الحلو ناژح .

ويطلبون منه أن يكون دوما غابة يحتطب منها النــاس دون مقابل بقولهم المثلى :

١٠١٠ ـ الله يجعلنا غابة والناس فينا حطابة .

ويذكرونه بأن من خيبوا ظنه ورجاه ربما كانوا ممن أسعدتهم واغنتهم الأيام بعد جوع وفقر وهؤلاء لا حرج عليهم بعكس الذين أتعستهم الأيام بعد عز وغنى ، وهاتان الفئتان سجلتهما التجربة الشعبية المثليـة فقالت ناصحة :

١٠١١ ـ كول من ايد كانت مليـانة وفضيت ولا تاكل من ايد كانت فاضية وانتلت .

واحيانا يختزلونها بقولهم :

١٠١٢ ـ خاف من ايد كانت فاضية وانتلت .

واحيانا يرغمون البخيل على تأدية ما عليه من واجب بأن يقوم الضيـف بنفسه يأخذ ذبيحة له من قطعانه عنوة وذبحهـا متهكما عليه بمثله الساخر .

١٠١٣ ـ قراها من لحاها .

يشبه فى ذلك قولهم المثلى القائل :

١٠١٤ ـ خود من دقن عبيد وافتل له قيد .

والشعب العـــربى الفلسطينى لا يخلط بين الحق والكرم ، بل ويحددون مفهوم كليهما بمثلهم القائل :

١٠١٥ ـ الحق بالدرهم والكرم بالقنطار .

١٠١٦ ـ كونوا اخوة وتحاسبوا .

فحقوقهـم يزنوهـا ويقدرونهـا بالدرهم ، أما اذا دعا داعى الكرم فيقدمونه بالقنطار ومن ثم فلا مجـال لمستغل ان يتفذ من خلال كرمهم لهضم حقوقهم أو سلبها . وأحيانا يكرمون الضيف كرامة لأبيه او اخيه او كبير عائلته أو لمجرد قدومه من قبل شـــخص له مكانته الاجتمـاعية او الدينية ، وعندها يقولون :

١٠١٧ ـ علشان عين تكرم مرج عيون .

وهم يمتدحون دوما الكريم الذى هو محط آمالهـــم ورصـــيدهم وقت الشدائد واحتياطيهم المنشود اذا عزت الأقوات ، ينشـــدون كرمه وبذله مادحيه بمثلهم القائل :

١٠١٨ ـ بيت السبع مابخلاش من العظم .

وجزاؤه عند الله كبير كما لن ينسى له أهله ذلك قائلين :

١٠١٩ ـ مـن قدم السبت لاقى الحـد قدامه .
ومن خدم الناس لاقى الناس خدامه

البخـــل

ونبذوا البخل وكرهوا البخيـل لتنافيـه مع الفطرة الطبيعيـة للسلوك الانسانى داخل بيئته المتقلبه ، ولتناقضـه مع الكرم المتساوق مع اسلوب التكامل والتعاضد والباعث على الألفة والحب فيما بين الناس، عقارهم الوحيد ضد أمراض البيئة الطبيعية والبشرية .. وما أكثرها ..

ولما كان محك الكرم هو العطاء بلا حدود وعنوانه « كرم الضيافة » كان البخل ميزانه « الامساك » والامساك الخانق عن العطاء فكان تعريف البخيل بأنه :

١٠٢٠ ـ بيكره الضيف وزوادتو معه .

اذا فهو الانسان الذى يكره الضيف حتى ولو كان متزودا بزاده ،

بل ويصل الأمر بالبخيل الى ما هو أبعد من ذلك فيرفض الضيف ومعه ذبيحته فيقول له مثله زاجرا :

١٠٢١ ـ خود صوفك وخروفك وعيني ما تشوفك (*) .

بل ويعتبر هدية الضيف له « بليه » أى بلاء سيحمله من جرائها السداد وهذا ما لايطيقه أبدا فيأمره بمثله القائل :

١٠٢٢ ـ خود هديتك وكفيني بليتك .

ويتميز البخيل عن غيره بانه ووفقا لتعبير المثل الشعبى :

١٠٢٣ ـ البخيل بيدور وبيته معمور .

فلا يبالى ببيته حتى ولو كان معمورا سواء بالضيوف أو بالأكل .

اما اذا أجبرته الظروف وعمل شيئا ما تكريما لضيف له تميز بالبطء والتأخير فى تقديمه للطعام فيسخرون منه قائلين :

١٠٢٤ ـ طعامك ما جاني ودخانك عماني .

ويرمزون بذلك أحيانا بكثرة أقواله وما يثيره من تقولات دون تنفيذ. حتى اذا جاء الأكل الذى لا يتوام فى كمه ونوعه مع طول الانتظار قالوا له :

١٠٢٥ ـ عبده وجاريتين على قلية بيضتين .

وها هو بخيل آخر من البادية يضرب لنا مثلا شعبيا على بخله قائلا لضيفه .

١٠٢٦ ـ عرقهى بيفك مرقهى .

وها هو نموذج آخر لرجل بخيل يأمر زوجته بعدم العجن وصناعة الخبز بقوله :

(*) وقد يقال فى حالة الملل والازعاج .

١٠٢٧ ـ يامره يامره كتر الطحين مضرة ، انت عشاك من طنباك (*) وانا عشاى من بره .

وهناك صورة أخرى يوضحها المثل :

١٠٢٨ ـ مجيف (**) طبق ع مجيف قدرة والبيت سنحيف .

وذلك عند تقديمه له كوبا من لبن المعزة وقد وضعه « بالعرق » اى عرق المعزة عوضا وتحايلا وتحللا من ذبحها وتقديم لحمها ومرقها له بيفك مرقهى » .

نكتة مثلية شعبية يحاول البخيل بها فك أزمة بخله . وحتى لو قهرته الظروف بذبحها فلا يجود للآخرين الا بأذنها قائلين :

١٠٢٩ ـ من الشاه ودنها .

لأن البخيل هو الرجل الذى لا يعطى الا بمقدار ما يحدد هو ويشبق الأنفس قائلين عنه :

١٠٣٠ ـ بيقطع الحلاوة على قد سنانه .

لذا أحل المجتمع الشعبى أخذ أى شىء مهما قلت كميتها ودنت جودتها منه اذا ما حاول تقديمها للبعض ودون تردد معتبرين أن :

١٠٣١ ـ شعرة من دقن الخنزير كسبه .

وكذلك :

١٠٣٢ ـ اللى منه أحسن منه .

ويتهكمون على البخيل فى منطقة الجليل الفلسطينى بقولهم له اذا ما أضافه ضيف وحاول المبيت قائلين :

١٠٣٣ ـ سد ليلتك سد .

وكأنهم بذلك يدعون الله له بأن يقدره على سد الليلة التى لا يكاد يسدها الا بجهد جهيد لبخله .

(*) طنباك : اى الطنب أو الجار .

(**) مجيف : من الجيفة .

ونظرا لفقدان البخيل مصداقية كرمه لدى عامة الشعب لذا تجدهم يهزأون اذا ما قدم لهم شيئا ما فغمزوا له بمثلهم المبطن قائلين !

١٠٣٤ ـ عيشك بحلال يا خال من سواد بختى يابن أختى .

اى لا يحلو الاكل ويطيب الا من عيشك !! اسلوب للسخرية التى يثير فيه الغيظ او يدفعه كارها لبسط الكف ولو قليلا . لأنهم على يقين بأنه لا يجود الا بما يكره فقالوا :

١٠٣٥ ـ لو كان فيها خير ما رماها الطير .

ولكن ماذا لو استضاف بخيل بخيلا آخر ، عندها يضحك الجميع متندرين بمثلهم القائل :

١٠٣٦ ـ دبور هدى على مسن .

فأحدهما وصفوه « بالدبور » الذى لا يعرف الا اللسع وليس فيه خير وقد حل على زميله « المسن » وهو قطعة الحديد اللامعة النظيفة .

حتى ليقال شعبيا فى وصف البخيل بأنه « دبور » أى لاعسل فيه بل الوخز .

ومهما بلغ حرص البخيل على ماله وشدة قبضته على عنقه ـ بأن التجربة الشعبية أثبتت بمثلها بأن شدة الحرص هذه كثيرا ما تورث له المرض أو الخراب مما يدفعه على انفاق الكثير والكثير جدا لكى يصلح ما أفسده واستنزفه بخله فيقولون عندها بل ويذكرونه بمثلهم :

١٠٣٧ ـ البخيل بياكل من جلده .

ويستغربون أحيانا من سؤال البعض اذا ما حاول طلب شىء ما من بخيل أو تأمل فى عطائه فيجيبونه بمثلهم بأسلوب الاستفهام الاستنكارى قائلين :

١٠٣٨ ـ ودك من جزار كلبه صوف !!

يسالونه وهل تريد (ودك) أو تود صـوفا ممن يذبح كلبه ليأكله ؟!!

هذا ان كان الكلب يذبح أو له صوف للتعبير عن استحالة عطائه .

وهكذا نرى تأثير الضـيافة وتحكمها فى الوجدان الشعبى كمعيار بل وورقة عباد الشمس التى يلصقونها على الآخرين لاختبار كرمهم أو بخلهم كما بدت فى تجاربهم المثلية الشعبية السابقة .

اما المعيار الآخر فهو النقود او الفلوس التى يختبرونه من خلالها بأمثلتهم الاختبارية قائلين :

١٠٣٩ ـ بدك تعرف عيبه دير ايدك على جيبه .

وعندها ستجد البخيل يرد على هذا الاختبار بما يثير الضحك قائلا :

١٠٤٠ ـ حبيبى وعيونى وعند الجيب لاتقربونى .

وليس هذا بمستغرب عليه اذا ما قالوا عنه :

١٠٤١ ـ اقلع ضرسه ولا تاخد قرشه .

واذا ما بالغ فى بخله قالوا له بتهكم لا يخلو من الاحتقار :

١٤٠٢ ـ اقطع ايدك واشحت عليها .

كاسلوب لردعه وتوبيخه لوضع حد لهذا البخل .

ولايترك المجتمع الشعبى مثل هذه النماذج دون توصياته ونصائحه لها قائلا :

١٠٤٣ ـ اخبط ع القرش يرفعك وامسك ع القرش يسخطك .

أى بمعنى مثلى آخر :

١٠٤٤ ـ هين قرشك ولا تهين نفسك .

ويتحقق ذلك لو أخذنا أيضا بالقول الشعبى السائر :

١٠٤٥ ـ المصارى وسخ ايدين .

بذا يمكن للانسان أن يسمو بشخصه ويرتفع بذاته بتسخير الماديات لخدماته لا أن تسخره هى ويصبح عبدا لها وحارسا عليها .. لا ، بل وقد تقتل حارسها .

هذا ·· الم يقل عز من قائل « يا ايها الذين آمنوا ان من ازواجكم واولادكم عدوا لكم فاحذروهم وان تعفوا وتصفحوا وتغفروا فان الله غفور رحيم ، انما اموالكم واولادكم فتنة والله عنده اجر عظيم » « صدق الله العظيم سورة التغابن ، ١٤ ، ١٥ · فالبخل والتقتير والاملاق هو عدو الانسان الأول ووسيلته المال · ان لم يكن الأولاد أنفسهم الذين ينسحب عليهم عندها قول المثل :

١٠٤٦ ـ مال الكنزى للنزهى ·

فابناء البخيل هم بطبعهم وكرد فعل للشح الذى عانوا منه سيهجمون على مال ابيهم نهبا واسرافا اذا ما وافته المنية وبعد قليل من الوقت ··

الفصل الحادى والعشرون

● أمثال

الطمع والأنانية

الطمع والأنانية

استهجنوا الطمع واستنكروه تماما كما لعنوا البخل ، فان كان البخل امساكا عن العطاء بشدة فالطمع تمسك بالأخذ بشراهة . وكلاهما يمثل شرخا وتشققا فى البنية الاجتماعية الشعبية الحريصة كل الحرص على التلاحم كقاعدة أساسية بل حياتية لأمنها وأمانها المعيشى .

لذلك كان تفسيرهم الأول للطمع بأنه وسيلة خطرة من وسائل الفرقة والتمزق فقالوا عنه :

١٠٤٧ ـ الطمع فرق ما جمع .

وأحيانا يقولون :

١٠٤٨ ـ الطمع غير ما جمع .

فحرص الطماع وجشعه على الأخذ بلا قياس يعنى الأنانيـة المفرطة لذاتيته مما يؤدى معه لكراهية الطرف الآخـر فسجلوا هذا الموقف بمثلهم الشعبى القائل :

١٠٤٩ ـ من حب نفسه كرهتوا جماعته .

وعن مثـل هؤلاء الطماعين ومن خـلال ممارساتهم رصـدوا هذه الظاهرة عنهم وقيدوها فى ذاكرتهم مثلا شعبيا يرددونه قائلين :

١٠٥٠ ـ باعوا البقرة ولحقوها بالطوس (*) .

كما صـــوروا الطماع صـــورة مثلية أخرى من واقع بيئتهم قائلين عنه :

١٠٥١ ـ زى الجدى اليتيم يرضع كل الغنمات وبيبات يطرق .

شراهة ابتزازية بلا حدود فهم يبيعون البقرة ولا يتورعون فى لحاقها حاملين آنيتهم لحلبهـا . تماما كالجدى الذى فقد أمه وأخذ يلاحـق الأخريات من « الغنمات » لكى يرضع منهن ، ولا يكتفى بذلك بل يأخذ فى القفز بحركات شيطانية وكأنه يريد المزيد .

وبناء عليه واستنادا لهذا الطمع اللامحدود قالوا عن الطماع :

١٠٥٢ ـ زى البريه ما يرد ميت .

أخذا بلا هوادة ، عرض من أعراض الطماع المرضـية والتى منها الانتهازية التى تستحوذ على سلوكيات الطماع لمحاولته دوما السبق فى الأخذ حتى ولو لم يكن فى حينه فقالوا على لسانه :

١٠٥٣ ـ استكبرها ولو كانت عجرة .

ويفسر هذا المثل الشعبى « الطماع » نفسه كما جاء على لسانه :

١٠٥٤ ـ كولها نيه قبل غيرك ما ياكلها مستويه .

ويتصف الطماع بأنه رجل ناكر للجميل بقولهم :

١٠٥٥ ـ بياكلوا وبينكروا .

أو :

١٠٥٦ ـ آكالين نكارين .

وكذلك فهو أنانى بطبعه ، وهى صـــفة منبوذة ومنفرة فى نفوس الطبقة الشعبية الفلاحيـة التى يعنونها الجد والاجتهاد يدا واحدة تحت شعارهم الشعبى « العونة » فلا عجب أن خصـــوا هذه الفئة النـادرة باصطلاحهم الشعبى القائل :

(*) الطوس : إناء لجمع الحليب يشبه « السطل » .

١٠٥٧ ـ ابو عين فارغة .

وكان هو المعنى بقولهم السائر وبنفس المعنى :

١٠٥٨ ـ الانسان عينه فارغة بدبهاش اللا التراب .

وعليه سألوه مستنكرين بمثلهم الشعبى قائلين :

١٠٥٩ ـ عندك عيش وعندى عيش وفراغة العين ليش ؟!

وأحيانا يقولونه بصيغة أخرى :

١٠٦٠ ـ عندك عيش وعندى عيش ودناوة النفس ليش ؟!

وكأنهم بذلك يضيفون له تعريفا شعبيا آخر هو « دناوة نفس » أى بأن نفسه دنيئة . وبكلمة شعبية أخـرى بل هى فى الحقيقة صفة من صفات الطماع يقولون « سقيطى » وهى تصغير كلمة « ساقط » وهى بالمفهوم الشعبى تعنى الرجل الذى ما يكاد يقع بصره على شىء يؤكل فى الغالب الا ويبادر مسرعا لطلب الأكل منـــه دون مراعاة لكرامة أو عزة نفسية ، وكأنه بالتالى يفسر المثل الشعبى القائل :

١٠٦١ ـ عند البطون بتغيب الذهون .

فمثل هذا « الطماع » أو الشره ، تفقده دناءته اتزانه العقلى عنـد الأكل لأنه لا يوفر غثا ولا سمينا ، فيزيل بجشعه وشراهته عـــنده كل « بركة » ، كما يقولون فى :

١٠٦٢ ـ عند البواطى بتترح البركات .

ويصل الطمع مداه حينما يقدم لنـا المثل الشعبى صورة مضحكة « للطماع » تختزل معها الطمع الشديد والبخل المدقع عندما يقـال على لسانه :

١٠٦٣ ـ شربة من بره بتوفر الجره .

وبأنانيتهم المفرطة تجدهم يديرون ظهورهم للآخـرين مبتعدين بأنفسهم عن مساعدة الآخرين فهم يقولون ووفق تجربتهم مثلهم :

١٠٦٤ ـ اردب ما هو الك ما تحضر كيله ، تصـــفر دقنك وتتعب فى شــيله ·

وعلى لسانهم جاء مثل شعبى آخر بنفس المعنى والمضمون قائلين :

١٠٦٥ ـ وله مش من شهرك كل ما انجن افرح له ·

هكذا ... ! تصل روح الانفرادية والأنانية ، والعزلة الشخصية لحد الفرح للولد الذى يجن أو يفقد عقله ما دام هو غير ابنه !! لا عجب ما دام هذا الأنانى يقول بل ويرفع مثله القائل :

١٠٦٦ ـ يا روح ما بعدك روح ·

فلم يعد له فى هذه الدنيـــا غير روحه ، غير مكترث حتى بأرواح الآخرين ·· !

اليست هذه الأنانية مردها فشله فى لحظة معينة من التوافق مع الآخرين ؟! أو تعرضه لحقوق البعض ونكران جميل له عندهم ، أو هى لحظة من لحظات اليأس والاحباط التى قد تداهم النفس البشرية قام بتسجيلها وخرج من خلالها بتوصية مثلية قائلة :

١٠٦٧ ـ العب وحدك ترجع راضى ·

علها تريحه من مخالطة الآخرين الذين لا تجدى معهم المساعدة أو العون ·

وعلى أية حال ، ومهما كانت بواعث هذه الأنانية والطمع ، يبقى المثل الشعبى نفسه بوظيفته الرائعة التى لا تترك ظاهرة مرضـية دون علاج ، مرشدا وموجها لأبناء شعبه ينصحهم وصيته ومبادراته العلاجية ، ولا يتركهم وشأنهم ترتع فيهم بواعث الشر ·

فاتجه نحو ظاهرة الطمع والطماعين فأوصـــاهم بالابتعاد عنه والتقليل منه قائلا :

١٠٦٨ ـ الطمع فضاح قله بترتاح ·

كما توجهوا للطماع بالكف عن الجشع وتخفيفه أيضا لكى يبقى على صداقة الآخرين له فقالوا له :

١٠٦٩ ـ ان كان صاحبك عسل تلحسوش كله ·

وحسما للمشاكل ، وحلا لهـا ، نصحوا أولئك الذين يتعرضون لجشع الطماعين وحساباتهم قائلين مثلهم الناصح :

١٠٧٠ ـ ان كان صاحبك طماع كون قليل حساب ·

واخيرا قدمت لهم التجربة الشعبية المثلية وصيتها الجامعة المانعة قائلة :

١٠٧١ ـ الطمع فى الدين ·

فان كان الطمع فى النفوس فليتجه نحو الدين وليطمع الطامعون من منهل كتاب الله وسنة رسوله الكريم كما شاءوا وبمقدار ما يستطيعون، فذاك هو الطمع المحمـــود والخير الذى ســــيوصلهم للقنـــاعة والرضى وعزة النفس ·

وبالمثل اتجهت الممارسـة الشعبية الخالدة لمن غلفت نفوســـهم الأنانية وحب الذات والأنا موجهة نصيحتها المثلية القائلة :

١٠٧٢ ـ كل واحد بيقول انا بوقع فى العنا ·

واحيانا يقولون :

من قال انا وانا بشوف العنـــا ·

فالأنانية تورث العنـاء والمشقة فى نفس صاحبهـا وتقوده لا محالة للعزلة والانطواء وعدم تقدير واحترام الغير له وتدفعهم للابتعـاد عنه يؤازرهم مثلهم القائل :

١٠٧٣ ـ الوحدانى مش من الناس ··

بل ويلفظونه جملة وتفصيلا محذرين ومنذرين بقولهم المثلى :

١٠٧٤ ـ اللى مش من الناس مش ابن ناس ·

أى لم يعد له بعد ذلك بين الناس مكان ســـواء أكانـوا « ناس » المجتمع الشعبى الكبير أم « ناس » الأهل والأقارب · هكذا يقطعــون اوصاله المجتمعية لو تمادى فى أنانيته ·

القناعة والواقعية

واتخذوا من القناعة عقارا ضد الطمع ، يقنعون بما يكسبون .. لا من قبيل الكفاية السلبية عن العمل والانتاج ، بقدر ما تدل عن الرضى بما تنتجه سواعدهم بتوافق واتفاق مع النفس ورضاها مدركين بأن :

١٠٧٥ ـ اللى فيها بكفيها ٠

معترفين بالواقع الموضوعى المبنى على القناعة والاقتناع فيقـــولون بواقعية :

١٠٧٦ ـ على قد لحافك مدد رجليك ٠

ويرفضونه كأسلوب للحد من الطموح أو الرضى بالقليـــل الذى يفرض عليهم فبرضاهم يقنعون وعلى حد تعبيرهم المثل :

١٠٧٧ ـ قطعة من الدنب ولا السقط كله ٠

كما يرفضون اضاعة المعقـــول المتاح ـ اذا ما لاحت الفرصة ـ باللاملموس والغائب المستحيل معبرين عن ذلك بمثلهم :

١٠٧٨ ـ عصفور فى الايد (اليد) ولا عشره على الشجره ٠

ويكتفون بالقليل الواقعى كخطوة أولى ومرحلية للوصول لما هـو أفضل بقولهم المثل :

(★) السقط : بقايا الذبيحة من الراس والأرجل والامعاء ٠ وهى أكلة شعبية ٠

١٠٧٩ ـ العب بالمقصوص لما يجيلك الطيار ٠

وعلى نفس النهج والايمان بالواقعية يفضلون :

١٠٨٠ ـ نص العمى ولا العمى كله ٠

ان كان الاختيار قائما بين السيىء وما هو أسوأ ٠ لكن هذه القناعة والواقعية لا تعنى مطلقا ـ وكما أوضحنا من قبـــل ـ الرضى بالقليل كأسلوب حياتى فهو يلعن ويحقر أولئك الذين يتصفون بذلك ويرجمونهم بقولهم الشعبى السائر والقائل :

١٠٨١ ـ فلان ٠٠ بيرضى بالقل والراحه ٠

وهذه لعنة يرفضها كل من يرجم بها ، وعليه أصبح الجد والكفاح مطمحهم فهو ان اقتنع بما جاد به عرقه ، كانت القنـــاعة الراضيـة ، مشمرا بعدها عن ساعده طلبا للمزيد ، بطريقة مرحلية لايمانه بأن :

١٠٨٢ ـ الرزق على الله ٠

وكذلك

١٠٨٣ ـ من طلبه كله فاته كله ٠

وعلى العكس فهم أولئك الذين يضحون بما فى أيديهم مقابل عرض زائل ، فيسخر المجتمع منهم لسوء تصرفهم وضحالة تفكيرهم ونفاذ بصيرتهم فيقولون عنهم :

١٠٨٤ ـ كب قربته على هوا السحاب ٠

لذا تجده واقعيا فى تصرفاته ويبتعد بقدر الامكان عن أســـلوب التبرير الأجوف وللدلالة على ذلك يصوغون أمثلتهم على لسان حيواناتهم امعانا فى البلاغة وحسن الكناية فيقول :

١٠٨٥ ـ الديب قال للخروف : ديلك عجبج قال له : كلنى ولا تتحجج

أى لا داعى للتذرع بالحجج الضعيفة ومحاولة الامساك بأتفه الأسباب هروبا من أخطائه أو تنصلا من أداء واجباته ، فمن ينطبق عليه هذا الحال قاموا بردعه بمثلهم الساخر واصفينه ٠

١٠٨٦ ـ زى الجمل اللى يبعرج من ودنه (اذنه) أو شفته .

وعليه فانه يؤكد منطقه العقلاني وفلسفته في احترام واقعه وقيمة وقته ورفض اهدارها فيما لا طائل منه فهو يقول :

١٠٨٧ ـ البصل ما منه عسل .

وكأنه يقول علام المكابرة ؟! وتبديد الوقت ، واضاعة الجهد ، حتى على الرغم من التغزل بالبصل فيقولون :

١٠٨٨ ـ يا بصل احلى من العسل .

قال : الباين أبين .

هكذا لا تغره المظاهر ، ولا ينطلي عليه بريق الألفاظ المعسولة ، فعنده البائن التجريبي المحسوس أبين وأوقع للنفس والمنطق يؤكده بقوله :

١٠٨٩ ـ ما بينعمل من البوص رماح .

تأكيدا لقيمة الوقت ، واحترام عقلانيته وقدراته وتحقيقا لهذا كثيرا ما يدفعه لاغتنام الفرص المواتية فيقولون :

١٠٩٠ ـ ان هبت ريحك اغتنمها .

وبذات المضمون يقولون :

١٠٩١ ـ اطرق ع الحديد وهو حامى .

وعلى النقيض من ذلك يوبخون من واتتهم الفرص ولم يستثمروها واضاعوا وقتهم عبثا ، عندما يسألون هؤلاء بأسئلتهم الاستنكارية اللاذعة قائلين :

١٠٩٢ ـ وين كنت أيام الحصايد : كنت أغنى قصايد .

حتى اذا ما أفاقوا من غنائهم هرولوا باستحياء لكى يقدموا العون بعد انتهاء أهلهم من العمل ، فيصفونهم بأمثلتهم قائلين :

١٠٩٣ ـ اللى قبع قبع واللى ربع ربع .

أى من ذهب فقد ذهب ومن عمل فقد عمل وانتهى ، فلم يعد حاجة لخدماتكم .

واغتنام الفرص الطيبة لا تعنى الانتهازية السلبية التى تستأسد عند ضعف الآخرين أو كبوة المتفوقين ، فهؤلاء الانتهازيون يرفضهم ويشمئز منهم المجتمع الشعبى بعفويته وسليقته الطيبة فيصفونهم قائلين :

١٠٩٤ ـ لما تقع البقرة بتكتر السكاكين .

وهناك نوع آخر من الانتهازيين الذين اذا ما تهاونوا معهم واكرموهم ازدادوا طمعا فيحق عليهم المثل القائل :

١٠٩٥ ـ دسترناله عدى بخرجه وحماره .

انتهازية بغيضة يأنفها المجتمع ولا يتهاون مع مرتكبيها . وهناك نوع آخر يقال فيه :

١٩٠٦ ـ اجا يطل فات الكل .

ويبقى مقتنعا بأقل القليل مما تركته الأحداث أو الخسائر الطارئة التى تحل به أحيانا فيها هو يقول :

١٠٩٧ ـ صوص من تحت امه بعوض البيض كله .

الفصل الثانى والعشرون

- الأسرة ـ السعى للزواج ـ تفضيل الزواج المبكر .
- المعايير الشعبية المتحكمة فى زواج البنت .
- المفاهيم الشعبية المتحكمة فى اختيار الزوجة .
- بنت العم ـ بنت البلد ـ السن .

الملامح الاجتماعية « الأسرة »

ما من شك أن الأسرة هي النـــواة الأساسية في بنيـــة المجتمع الفلسطيني ونسيجه الاجتماعي تأتلف مع بعضـــها وتتحد تحت اسم « الحمولة » وهي بالتعبير الشعبي « العائلة أو الدار أو البيت » ســـواء داخل أحياء المدينة أو في القرية الزراعية يرادفها « العشيرة » في البادية والتي ان اتحدت العديد منها أصبحت « قبيلة » .

هذه الاضمومة البشرية في داخل الثالوث العمراني الفلسطيني في البادية الرعوية والقرية الزراعية والمدينة بوظائفها [التجارية أو الصناعية أو السياحية في العموم] هم غطاء الساحة الفلسطينية سكنا وسكانا . عملا وانتاجا .

ولا نجافي الحقيقة بقولنـــا ان الأسرة أو العشـــيرة وكذا القبيلة الفلسطينية من أكثر المجتمعات اعتزازا وتمسكا بالكيان الأسري ، كنتاج طبيعي ورد فعل تلقائي لموقع الأرض الفلسطينية التي يعيشون على ثراها ، فهي جسر ضيق يربط بين حضارات قديمة وتليدة كان المرور عليه اجباريا فجعل العراك فوقه قدرا محتوما في فترات زمنيـــة عدة ، وكان ســـوقا تجارية يوم يسودها زمان الوئام والسلام .

وتعرضت هذه الأرض لأحوال مناخية اعصارية متذبذبة جعلت من ماء سمائها لا ضابط ولا رابط لكمها وميقاتها مما جعل الخصاب تارة والمحل تارة من ســـمات الحيـــاة الفلسطينية التي اورثتها السنين الســـمان والأخرى العجاف ، غلفتها القيم الروحية المقدسة التي حملها أبو الأنبياء وولد بها السيد المسيح وأسرى اليها خاتم الأنبيـــاء ارض أولى القبلتين

وثالث الحرمين ومستقر الشهداء . هذه الوظائف والسمات بحكم الموقع الجغرافى حدا بالأسرة والعشيرة ان تتخذ لنفسها كيانا شبه مستقل للقدرة على مقاومة عاديات الزمن البشرية منها والطبيعية لتحقيق أمنها وأمانها متخذة من الاهتمام بأبنائها وسيلة لذلك وهى عنصر الهيبة والقوة والاستقرار لها ، والقوى الانتاجية الفاعلة التى تحقق للأب والأم ومن ثم العائلة حتى القبيلة مكانتها وسلطتها .

والمتامل فى تاريخنا العميق بجذوره المديدة يرى ما لكلمة « الدار والبيت والعائلة » من تأثيرات فى تراثنا القديم والحديث شعارا لجمع الشمل وعنوانا للعناية الوقاية ورمزا للفخر والاعتزاز .

فالسؤال الأول الذى يكشف عن هوية الشخص – أى شخص – فى فلسطين هو الرد على السؤال التقليدى الذى يدور على السنة الناس جميعا وعلى اختلاف مستوياتهم :

انت من دار مين ؟ أو انت من بيت مين ؟ وأحيانا يسألون انت من عيلة مين ؟

وكان السائل يعنى ما الاسم كاملا ، فالبيت والدار تعنى اسم العائلة للكشف من بعد ذلك عن سمعتها ومكانتها وقدرها ، وعليه أصبح رمزا يحافظ عليه ويستمد منه كل فرد ذاته ومكانته رسخها فى وجدانه مثله الشعبى القائل :

١٠٩٨ – مقدارك من دارك .

متخذا بذلك معايير الرجولة والشهامة من « الدار » أى العائلة والحمولة ليصبح لزاما عليه الحفاظ عليها من خلال سلوكه ومعاملته مع الآخرين والا حكم عليه المجتمع بقولهم :

١٠٩٩ – من ترك داره انقل مقداره .

فالبيت والدار أصبح بيت قصيده ، وعنوان أغانيه ، ومحور مواويله ، ومصدر الهامه وحنينه ، فأصبح له مدلول المعنى أكثر منه قيمة المبنى .

فما قصة هذا البيت ؟ وما المعايير المتحكمة فى اختيار لبناته وركائزه البشرية ؟ وعلى أى القيم والمثل يشب أبناؤه ؟ وما يعتورها من مشاكل وقضايا ؟ هذا ما سوف نستعرضه من خلال الأطر المثلية الشعبية التى أورثها لنا الأجداد .

السعى للزواج

السعى لزواج الابن من أعظم الأمنيات التى تتوق الأسرة الفلسطينية ، ممثلة فى المقام الأول بالأب والأم نحو تحقيقها فى حياتهم ، فهما لا يريان أن مسئوليتهما حيال أولادهما تنتهى ببلوغهم سن الرشد أو حتى مرحلة الانتاج بل تتعداهما للمساهمة – ان لم تكن المساهمة كاملة – فى زواجهم وخاصة « الابن » لأن البنت فى نظرهما ووفق العرف المثلى الشعبى :

١١٠٠ – البنت ما الهاش فرحه .

كتلك الفرحة التى تغمر قلوبهم عند زواج الولد لمفاهيم أوضحها أن الابن لا يترك منزل الأب مما يضفى عليه اضافة بشرية عكس البنت فهى عند الزواج تمثل طرحا من مجموع الأسرة .

ولا ينتهى هذا الطموح الفرحى عند زواج الولد بل يتعداه للمشاركة والمساهمة فى تزويج ولد الولد . اذا أمد الله بأعمارهم – وتلك هى فرحة الأفراح غير مبالين أو مبالغين فى اجهاد النفس عما لديهم من أموال ليقينهم المثلى بأن :

١١٠١ – الجيزة معيون عليها .

وخير معين رب العالمين .

وتنطلق الأم مختالة فخورة تجوب الأحياء بشوارعها وأزقتها الضيقة المعوجة تبحث عن عروسة لابنها مستندة على مشورة العديد من الصديقات والمعارف ولكثرة ما تقطعه الأم من مسافات يوميا ينعتونها بمثلهم الشعبى القائل :

١١٠٢ – جبناها من عارة وعرعرة وبربرة وبربر (*) .

ويقولون :

(*) عارة وعرعرة قريتان فلسطينيتان تقعان فى الشمال الفلسطينى اما قريتا بربرة وبربر تقعان فى الجنوب الفلسطينى .

١١٠٣ ـ حفيت قدامها من كتر المشى .

وتختلف استجابة الوسطاء والمعارف فى مدى اسهامهم بالمشورة والرأى حيال عملية الزواج هذه وفقا لتجاربهم السابقة فمنهم من يتطوع جاهدا للتوفيق والنصح متسلحين بثواب المثل الشعبى القائل :

١١٠٤ ـ يا بخت من وفق راسين ع مخدة .

فهو يسعى بذلك للخير والتوفيق باسهامه فى فتح بيت جديد .

وهناك فريق آخر من الناس يفضلون البعد وعدم التجارب ربما لتجربة مريرة ألمت بهم من جراء ذلك يحدوهم ويؤكد موقفهم مثلهم الشعبى :

١١٠٥ ـ امشى فى جنازه ولا تمشى فى جوازه .

لأنهم سيكونون من أول المدعوين لفض النزاع والخصومات التى قد تنشأ عند الاختلاف بين الزوجين ومن ورائهما الأهل حتى اذا ما احتدم النقاش والخلاف ترى العديد يتفوهون بالمثل الشعبى :

١١٠٦ ـ هى جنازه والا جوازه .

مما جعل عملية التوسط فى الزواج عملية ليست بالهينة والميسورة فى الفكر الشعبى ان لم يكن فاعلها متسلحا بالثقة التامة والدراية والمعرفة الأكيدة بمن يريد التوفيق بينهما .

من أولويات القيم المسيطرة على المفاهيم الأسرية الشعبية عند زواج الابن هى تفضيلهم زواجه وهو فى سن مبكرة تتراوح غالبا ما بين ١٥ ـ ٢٠ سنة . تغريهم التجربة المثلية القائلة :

١١٠٧ ـ ولد الصبا وقرش الصبا بتعوضوش .

ويقولون :

١١٠٨ ـ ولد الصبا وقرش الخبا .

فزواج الابن فى صباه يعنى الانجاب المبكر حتى اذا ما وصل الأب لقمة شبابه وفتوته وهو فى الثلاثينيات من عمره ، يجد بجواره شابا يافعا يقف سندا له فى العشرينات من عمره وكأنه أخوه مما يهىء له الفرصة لتكوين أسرة كبيرة قادرة على الانتاج المبكر ومن ثم الادخار المبكر مختصرين الزمن للوصول الى ما يصبون اليه والأب مازال فى سن الشباب وهذه فرصة نادرة يرى المثل الشعبى والواقع الفعلى بأنها لا يمكن تعويضها ان فاتت ووصل لمرحلة الكهولة أو الشيخوخة .

مدعمين موقفهم هذا بتشبيه بليغ استمدوه من واقع بيئتهم الزراعية وصاغوه بمثل شعبى يقول :

١١٠٩ ـ الولد البدرى زى الزرع البدرى .

فالزرع البدرى يطرح الثمر المبكر فيجلب الرزق الجزيل الذى يعرف الفلاح مدى قيمته وهو يسوقه متمسكا بالثمن الذى يبتغيه لندرة ما يعرضه تماما كالولد الذى يولد لوالده وهو فى سن مبكرة .

وعليه لم يحبذوا تأخير زواج الابن أو الشاب لأنهم يرون فى ذلك منقصة بين أهل القرية وكذا المدينة . تنم اما عن أسباب مادية أو معنوية أو كليهما أمر مشين فى أعين الناس يؤيدهم المعيار المثلى القائل :

١١١٠ ـ اولاد الشيبة للخيبة وان عاش بتربى يتيم .

ويقولون :

١١١١ ـ ابن الشيبة للخيبة وابن الصبا ما بلتحق

وذلك لنفاد الفرصة أمام الرجل (الشايب) اى العجوز من تمام تادية واجبه التربوى حيال أطفاله ولعدم قدرته على الانفاق فى مجتمع زراعى مما يترك الطفل عالة فى الغالب على مجتمعه وعائلته . أما ابن الصبا والزواج المبكر فعلى العكس لا يبارى ولا يجارى . كما ان طبيعة المجتمع الفلاحى الفلسطينى تتندر دائما بالسؤال عن الأسباب التى منعت هذا الانسان من الزواج مبكرا ، ذلكم السؤال الذى يطارده كالسهام المسمومة والتى يرى فى الاجابة عنها حرجا وعيبا يجب تفاديه بكل الطرق .

وترى النساء غالبا ما يمازحن هذه الفئة بسخرية سائلات :

الهرش لما كبر هاتو الرسن منه   ياخاييات الرجا وايش تاملن منو ؟

ويقولون :

يا بدران شيبك لاح !!

فيرد عليهن مكابرا :

ان شيبنا لاح   اخذنا الصبايا الملاح
وان شيبكم لاح   لهز السراير ملاح

تلك هى الأفكار التى تتحكم فى باكورة التفكير الشعبى عند زواج الابن .

فما هى فى المقابل القواعد أو الأسس المثلية الشعبية التى تتحكم فى التفكير والاعتقاد داخل المجتمع الفلسطينى بالنسبة للبنت وزواجها ؟ .

المعايير الشعبية المتحكمة فى زواج البنت

من الاعتقاد الشعبى الراسخ فى أفئدة الناس جميعا يرددونه دون ملل عند اول بادرة فى الحديث عن الزواج خاصـــة زواج البنت قولهم المثلى :

١١١٢ ـ العرض بنحماش بالسيف ·

كانهم بقولهم هذا المثل يؤكدون بل ويأمرون بطرف خفى بعملية الاسراع والقبول بزواج البنت اذا ما لاحت الفرصة الكفوة · ويبرهنون على صدق المثل بعديد من الحكايات الشعبية الدالة فى مغزاها بأنه مهما بلغ جبروت الأب أو الأم فى اتباع الطرق والوســـائل التربوية حتى ولو دفعهم الأمر لحمل السيف حماية لعرضـــــهم فانه لابد أن يحدث لو عرضهم مصمم على فعل ما يريد ، وعلى الرغم من أن مثل هذه الحالات أندر من الندرة الا أن المثل الشعبى يبقى كالتاريخ حيا فى أذهان الناس ·

فالعرض فى يقين الشعب العربى الفلسطينى يســاوى الحياة بل ويقدم روحه فداء له ، عمقها الاسلام بمبادئه ـ من مات دون عرضـــه فهو شهيد ـ وكرسها رسول الله عندما قال من أحسن تربيـــة ثلاث بنات أو حتى بنتين دخل الجنة ·

من هنا كانت تربية البنات من وجهة النظر الشعبية تكتنفها العديد من الهموم والتى يرون ألا نهاية لها منذ ولادتها وحتى موتها :

١١١٣ ـ هم البنات للممات ·

وترى الأم تعبر بسجيتها عما يجيش فى صدرها حيال بناتها وهى ترعاهن بتربيتها وحمايتها بترديدها المثل القائل :

١١١٤ ـ همتونى بدرى والحى ما يدرى ·

فهى تعانى هم بناتها فى كمد دون أن يدرى أحد من الأحياء بذلك ويزداد همهـــا بازدياد مرور الزمن عليهن فيتحقق عندها قول المثـــل الشعبى :

١١١٥ ـ تندبل بدرى والحى ما يدرى ·

ان يذهب رونق شبابهن ويذبلن دون أن يدرى أحد بهن وهو عبء ثقيل وهم كبير على نفسية الأم الرءوم ·

ويصل هذا الهم مداه عندما تعبر عنه الأم الفلسطينية بمثلهـــا الشعبى :

١١١٦ ـ بنتى فى طبرية وهمها واصل لى ·

والمعروف أن مدينة طبرية الفلسطينية الواقعة على بحيرتها (بحيرة طبرية) تقع فى أقصى الطرف الشمالى الشرقى من فلسطين والله أعلم أين كانت تسكن الأم الفلســـطينية صاحبة هذا المثل الشـــعبى من المدن الفلسطينية ، علها كانت فى أقصى الطرف الجنوبى الغربى من البـــلاد أى فى غزة أو قراها !! :

ومهما بلغ الانسان من درجة فى المعاشرة والصـــداقة مع الآخرين الا أن لذلك حدودا يقف ثابتا · عندما يصل لحدود العرض، يحذره وينذره بذلك المثل الشعبى القائل :

١١١٧ ـ العب وعاشر والعرض مش داشر ·

١١١٨ ـ طريق البنات شوك ·

نتيجة لهذه التبعات الجسام التى يحملها الأب والأم حيال تربيتـــه لبناته وما يلاقونه من نظرات المجتمع لو ظهرت أية بادرة قد تشين له ، وهو يعلم علم اليقين بمغزى ومرمى القول الشعبى السائر :

١١١٩ ـ العرض زى القزاز ·

لو خدش فلا التئام له ، تجد لذلك ، ونتيجـــة لكل ما سبق ، مقتنعين بالمثل الشعبى القائل :

١١٢٠ ـ دور لبنتك قبل ما تدور لابنك .

ايمانا منهم بكل ما سبق قوله فلا مانع من القبول بالزوج ان كان ملائما . ولا يؤخذ معنى المثل الشعبى هنا حرفيا ففى المجتمع الفلسطينى لن تجد رجلا يسعى بين الرجال لكى يزوج او يختار لها زوجا ولكن القصد من المثل عدم تفويت الفرصة اذا سنحت للزواج . وذلك تفاديا لفوات الفرصة فهم يرون ووفقا لمشورة المثل الشعبى :

١١٢١ ـ جوز عود ولا القعود .

ويعبرون عن ذلك بصورة أوضح ووفق مثلهم الشعبى القائل :

١١٢٢ ـ ظل الرجل ولا ظل الحيط .

فالقعود فى البيت أو تحت ظل الحيط بالنسبة للبنت مشكلة تحتاج لعناية فائقة .

ويوضح المثل الشعبى مثل هذه المشاكل بقوله :

١١٢٣ ـ خلق باب برد الكلاب .

« وخلق الباب » بالمفهوم الشعبى كناية عن اى رجل حتى لو كان « خلق » اى عجوز مهترئ فهو رجل يمكن أن يحمى زوجته من نهش الكلاب الآدمية المسعورة أحيانا وفى المثل هذا بلاغة واضحة وكناية عظيمة تحض على تفضيل الزوج للبنت يدعم ذلك المثل الشعبى القائل :

١١٢٤ ـ الجوز رحمة ولو انه ما يجيب الا فحمه .

١١٢٥ ـ الجوز رحمة ولو كان فحمه .

توضيح بليغ ، وتواضع جم لقبول الزوج الذى يعتبره المنطق الشعبى رحمة حتى لو أتى كل يوم بفحمة ، بالمعنى اللفظى ، وان كان المراد « بان يجيب فحمة » اى نسلا او ولدا اسود بأسلوب الكناية فان لذلك معناه الواضح فى الدلالة على تفضيل زواج البنت ، وتصل هذه الرغبة مداها حين يصل المثل بنصحه لقمة مداه بقوله :

١١٢٦ ـ ريحة الجوز ولا عدمه .

فعدمه يعنى تراكم المشاكل كلها لأب وأم يعيشان وسط مجتمع فلاحى محافظ حتى تراه خلص لنتيجة ربما كانت تعسفية لحد كبير ، لكنها

وربما نجمت ليس فقط لوجهة نظر المجتمع تجاه البنت وتربيتها كما ذكرنا بل وربما لظروف سياسية عديدة مرت بهذا الشعب سادها الغموض والتحلل الأمنى والتسيب الادارى فى فترات الاحتلال أو ضعف السلطات المحلية عند شيخوختها بما يجعل الحرص على العرض أمرا بالغ الصعوبة دفع التجربة المثلية الشعبية بالقول :

١١٢٧ ـ البنت يا جبرها يا قبرها .

١١٢٨ ـ البنت اذا كبرت يا الجبر يا القبر .

هكذا .. ! اما زواج البنت أى جبرها بالمفهوم الشعبى والا كان الموت أفضل من الجلوس فى البيت بدونه .

وكما ذكرنا يبقى هذا المثل وليد ظروف قهرية كما اسلفنا والا لما ناقضه مثل شعبى آخر بقوله :

١١٢٩ ـ البوار ولا الجيزة العار .

فالجواز ليس هدفا يجب تحقيقه بكل الوسائل والطرق لذاته .. لا . فالأنفة والكبرياء الشعبى يأبى ذلك ويدلل على ذلك المثل الشعبى السابق الذى يفضل للبنت البوار ولا اقترانها بزواج يسبب العار . ليسقط هذا المثل كل دلالات المثل السابق ..

وان كانت تلك هى المعايير الشعبية التى تدور فى خلد الأهل عند زواج البنت فهل هذا يعنى بأنها مسلوبة الرأى عند الزواج ولا دخل لها ولو بابداء الرأى ؟ هذا ما يجيب عليه المثل الشعبى القائل :

١١٣٠ ـ ان بدك تصون العرض وتلمه جوز بنتك لل عينها منه .

صراحة واضحة ومشورة مثلية شعبية بائنة تؤكد على عنصرين اجتماعيين بارزين وعلاقتهما المتلازمة وهما ارادة الحرص على العرض منوطة بمنح البنت حرية اختيار الزوج خاصة لو كان لديها معرفة وفكرة مسبقة عنه !! .

ولكن هل هى حرية الاختيار المطلقة ، يمنحها الشعب لبناته عند الزواج ؟

هذا ما يجيب عليه المثل الشعبى ناصحا :

١١٣١ ـ ان دشروا البنت على خاطرها يا بتاخد طبال يا زمار ·

اى أنها ستنخدع بالمظهر دون الجوهر لأن كلا الطبال والزمار غالبا ما يهتمون بمظهرهما الخارجى وهذا الانخداع الذى تقع فيه مرده عدم الاختلاط فى المجتمع المحافظ لكى تتبين خصاله وطباعه ·

وهذا يعنى ان التدخل الأسرى فى انتقاء الزوج أمر ضرورى ولو بقدر لصالح مستقبل البنت ·

لو تفحصنا جميع الأمثلة الشعبية السابقة لنستشف من خلالها دوافع ظاهرة الزواج المبكر بالنسبة للأبناء وأسباب تفضيل زواج البنت السريع فى مجتمعنا العربى الفلسطينى ، فاننا نجد انفسنا بازاء كلمات لها دلالتها وردت وشكلت فى الوقت نفسه عمودها الفقرى فى بناء هذه الأمثلة منها :

ولد الصبا ـ قرش الصبا ـ قرش الحيا ـ الزرع البدرى · ثم كلمات : القعود ـ العرض ـ الزوج ـ الهم ـ السترة ـ الكلاب (كناية عن الذين يحاولون المس بالعرض) · ومنهـا جميعا يمكننا أن ننسج الأسباب والعوامل التالية :

اولا ـ العوامل الاقتصادية :

فالأولاد هم السواعد العاملة والمساعدة للأسرة فى مجتمع فـلاحى زراعى تتعدد أعماله وتتنوع فالفلاح الفلسطينى يستثمر كل يوم من أيام السنة فى فلاحة أرضه صيفا وخريفا ، شتاء وربيعا ، فيجد فى تعدد الأبناء وكثرتهم قيمة اقتصادية لا تقدر تلبى احتياجاته من زراعة وتسويق وتأمين ، كما توفر له فى الوقت ذاته نوعا من الاكتفاء الذاتى والاستغناء عن جلب الأيدى العاملة الأخرى · وليس معنى ذلك استخدام جميع أولاده للعمل الزراعى بل ان الكثرة هذه تهيىء له الفرصة لتوجيه البعض منهم نحو التعليم والمهن الأخرى وفقا لقدراتهم ورغباتهم ·

ثانيا ـ العوامل الاجتماعية :

فى أجواء يسودها عبق الفلاحة داخل القرى والخرب المنتشرة فى بقاع فلسطين سهلها وجبلها · ونقبها وغورها ، يعنونها التنافس الشريف سواء فى المساحة الأرضية المتملكة أو فى كمية الانتاج المنتجة ، هـذا التنافس الذى يرون فى الأولاد وكثرتهم مصدره الوحيد ، فالأبناء لهم « عزوتهم » أى مصدر الهيبة والقوة بالاضافة لذلك ـ وهم مجال التفاخر

والاعتزاز يضعون للعائلة وسط القرية أو البادية وكذا المدينة كيانهـا ومركزها · حيث يرون فى الزواج المبكر مصدر جميع هذه المزايا ·

ومما يحفزهم بشغف وشـوق على الزواج المبكر لهف الوالدين للفرحة وهى عزيزة داخل قرانا التى تعودت الكد اليومى شبه المستمر ، ففرحة الزواج هى تاج الأفراح جميعها « العرس » وبهـا يغرقون القرية بكاملها بكرمهم وفرحتهم وفى ذلك مفخرة لهم وبرهان على المقدرة المادية وهما مجال الزهو بين الناس ·

ويشجعهم على الزواج المبكر سـواء أكان للذكر أم الانثى ايمانهم بأنها حصن للعرض وتحصين للشرف والملمة لمشاكل يتجنبون وقوعهـا مبكرا وهم فى سن الشباب والمراهقة ·

وخير ما تتضح ظاهرة الزواج المبكر فى مجتمعنا لتلك الأسرة التى لها ولد وحيد وغالبا ما يطلقون عليه « ابن العازة » والتى تعددت الأمثال الشعبية وصفا له فيبادرون بزواجه لمجرد وصوله سن البلوغ ليعوضوا وحدانيتـه وأملا فى رؤيته أولاده ليخرج هو أيضـا من عزلته كوحيد لأبويه ·

وأخيرا فهم يؤمنون بأن مصير البنت هو الزواج مهما منحوها الحب والحنان وقدموا لها العطاء والدلال ، فها هى نفسها تقول بمثلها الشعبى القائل :

١١٣٢ ـ هننونى وربونى ومصيرى للى يتجوزونى ·

١١٣٣ ـ سيبى قوم ربوك واتبعى قوم أخدوك ·

مادام الأمر هكذا فاسراع فى زواجها مع أول فرصة طيبة واجب اغتنامهـا ·

العامل السياسى :

كما سبق وأن ذكرنا فقـد تعرضت بلادنا فلسطين لفترات عديدة للهيمنة الأجنبية الدخيلة المتناقضة دينا وعرفا وتقاليد معنا وبما يتنافر مع ما فطر عليه الشعب العربى الفلسطينى المسـلم بكل ما كان يصاحب الدخيل من هزات اقتصادية عنيفة ومجاعات وخلخلة الأمن وتسيبه وأخذ الرجال عنوة اما للجندية أو السخرة ، مما جعل الحفاظ على العرض أمرا بالغ القهر والانهماك نفسيا واقتصاديا ، لذا كان الزواج وتزويج البنت خاصة من المخارج الرئيسية من هذه المآزق والأزمات فى تلك الأحايين ·

العامل الدينى :

حث الاسلام الحنيف الذى يعمر قلوب المؤمنين من أبناء فلسطين على الزواج وقد ورد ذلك فى كتاب الله عز وجل وسنة رسوله الكريم فبين أن الزواج سكن ورحمة « ومن آياته ان خلق لكل من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة » سورة الروم ٢١ . وزينة للحياة « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » سورة الكهف ٤٦ . وتكاثر وتفاخر كما جاء فى الحديث النبوى « تناكحوا وتكاثروا فانى مباه بكم الأمم يوم القيامة » وفى الزواج ايضا كمال لدين المتزوج « من تزوج فقد ملك نصف دينه » كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فليتق الله فى النصف الآخر .

ففى الزواج اذا كسب لرضا الله وتقرب اليه ومحبة فى طاعته . وهى جميعا مغانم ومكاسب يتمنى المسلم تحقيقها وبالتالى كان له الاسلام دعما وعونا ورزقا تكفلهم الله بعطائه « ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم ان قتلهم كان خطأ كبيرا » « سورة الاسراء ٣١ » . وعليه لم يخش العربى الفلسطينى على رزقهم فتجده دوما يردد قوله السائر المستمد من ايمانه وكتابه ، « الله اللى برزقهم مش احنا » او « رزقهم على الله مش على العبد » اذا ما حاول أحدهم أن يثنيه أو ينقده على كثرة عياله ، ومتمسكا بقول رسوله الكريم « أكثروا من العيال فانه لا تدرون بمن ترزقون » .

(★) والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخيرا املا .

المفاهيم الشعبية المتحكمة فى اختيار الزوجة

عودة للدرب التى تسلكه الأسرة الفلسطينية ممثلة فى الأم على وجه التركيز والأب بدرجة أخف . بحثا عن زوجة للابن وفى وجدانهم نواميس اشبه بقوانين ممثلة « بأمثالنا الشعبية » هى لهم نبراس وموجه ومعين على اختيار أنسب الملامح والصفات لزوجة الابن .

فها هو المثل الشعبى نفسه يحذرهم قبل الخطو نحو البحث والتفتيش محذرا :

١١٣٤ ـ قبل ما تناسب حاسب .

فما هى هذه الحسابات المراد اتخاذها فى الحسبان الشعبى قبل الاختيار ؟ والاجابة ستكون فى جعبة الأمثال الشعبية ، ويمكن تصنيفها وفق المعايير التالية :

اولا ـ معايير صلة الدم :

وأولها وأفضلها فى وجهة نظر الأبوين « بنت العم » او هكذا فرضها الشعب وفقا لمثله القائل :

١١٣٥ ـ خود بنت العم ولو بارت .

ويقولون :

١١٣٦ ـ عليك بالطريق لو دارت وبنت العم ولو بارت .

بالقطع وبما يشبه الأمر الحازم يجزم المثل الشعبى بل العرف الشعبى على تفضيل « بنت العم » حتى ولو وصل بها الحد « البوار » . علها عصبية الدم وحب الستر على أقرب الأقربين ومن وحى :

١١٣٧ ـ خلي زيتنا فى دقيقنا ·

وربما كانت الأسباب المادية عنصرا حيويا فى تفضيـــــل بنت العم منها المحافظة على الملكية لا تفتيتها وتجنبا للغلو فى المهر ، مضافا لذلك ما يورده المثل من خصائص الزواج من بنت العم فيقول :

١١٣٨ ـ بنت العم بتصبر ع الحفا والجفا ·

وهى مزية كبرى فى مجتمع القرية والمدينة الفلسطينية التى كثيرا ما تهزها المحن كما ذكرنا فتكون « بنت العم » اشد حرصا واكثر جلدا وصبرا على « الحفا » كناية الفقر « والجفا » دليل الخلف والاختلاف فهى أحرى بان تكظم غيظها وتصفح عن هفوات ابن عمها وتتحمل مشاق الفقر من أجله ·

من هنا جاء الحرص الشديد من ابن العم لرصد ابنة عمه واعطاه المجتمع باعرافه ومثله الشعبى الحق فى افضلية الزواج من ابنة عمه عن دونه من الشباب :

١١٣٩ ـ اللى بتحراها ابن عمها تحرم ع الغريب ·

بل ويستطيع ابن العم بأحقية الدم والقربى أن يتزوج منها وهى فى اشد الظروف حرجا :

١١٤٠ ـ ابن العم بنزل عن الفرس ·

أى وهى تزف على ظهر الفرس لعريسها الغريب يستطيع ابن العم ان يوقف ركبها بل وتتعدى أحقيته التى منحتها له العصـــــبية العائلية حدودا أبعد من ذلك فتخول له سلطة اخذها والزواج منها فى ليلة عرسها وهى جالسة بجوار عريسها :

١١٤١ ـ ابن العم بياخدها من جلوتها ·

وقد تبادل بنت العم ابن عمها الحب والتقدير متأثرة بما تشربته منذ طفولتها وكاستجابة ثابتة وطبيعية للمفـــاهيم والقيم الأسرية التى شبت عليها فتؤكد ذلك من خلال أغنيتها الشعبية ·

يا ابن العم يا شـــعرى ع ظهرى
ان جاك الموت لارده ع عمـــرى

يا ابن العـــم يا ثـوبى عـلى
ان جاك المـــوت لارده بيـــدى
يا ابن العـــم يا ثـوب حرير
لحطـــك بين جنحـــاتى واطير ·

وبالمقابل يعيرون ابن العم اذا لم يتزوج ابنة عمــــه ويرى المجتمع الشعبى فى ذلك عيبا يعيبون عليه متهمينه بالعديد من التهم التى أخصها الفقر أو قلة ما لديه ويوضح ذلك الأغنية الشعبية :

اخدنا بنت عمك يا قليل الدراهم
اخـــدناها وخلينـــاك تقاسى نارها

فابن العم هو الشخصية الاولى فى العرف الشعبى وصاحب الاولوية والافضلية عمن سواه فى أحقيــة الزواج من ابنة عمـــه عمن سواه من الاقارب كابن الخال أو الخالة مسترشدين بالمثل القائل :

١١٤٢ ـ ابن الخال متخلى وابن العم متولى ·

ويختتم المثل الشعبى حقوق ابن العم تجاه ابنة عمه وفقا لأعرافه وتقاليده العائلية بما يشبه الالزام الذى لا فكاك من قيودها وعلى الرغم مما تتصف به من مواصفات فيقول :

١١٤٣ ـ المليحة لابن العم والردية لابن عمها ·

ولكن الى أى حد بقيت تتحكم هذه الأعراف المثلية الشعبية بجدتها وجديتها الملقاة على عاتق ابن العم وبنت العم داخل الأسرة الفلسطينية ومن ثم مجتمعها الكبير ؟ كانت الى مدى بعيد فى الماضى واستمرت حتى الماضى القريب تطبق ، أو بالمعنى الأدق يتقبلها وينفذها فى أغلب الحالات وذلك للتكافؤ الاجتماعى والاقتصادى وحتى النفسى المتماثل داخل مجتمع القرية أو الخربة وحتى بين حارات المدينة ومضارب البدو ·

وبعد الانطلاقة التعليمية ودخول عناصر حضـــارية عـــديدة مادية وثقافية نهل منها الجنسان وعلى الأخص الفتاة التى دخلت ميادين عدة ، بدأت هذه المعايير المثلية الشعبية تأخذ مسارا معـــدلا متأثرة بمجريات التحولات الثقافية مع مطلع القرن العشرين · بحيث أصبحا الآن بازاء ردود فعل متباينة بازاء التعامل مع هذه الأمثال ·

فاذا كانت بنت العم على قدر من الجمال والتعليم ولها ابن عم متكافىء

معها علميا وأراد الاقتران بها استخدمت هذه الأمثال الســـابقة وطالب الجميع بتطبيقها .

اما لو حدث العكس وكان ابن العم غير كفء مظهرا وجوهرا نجد أن هذه الأمثال تستثمر أكثر ويحاولون جاهدين التذرع بها وتطبيقها مما ينجم عنه فى الغالب العديد من المشاكل الأسرية لمحاولة الرفض من قبل بنت العم ووقوف البعض بجانبها على الرغم من تعنت من يلوكون بهذه الأمثلة !.

ويتضح الجور الاجتماعى لو اتصف ابن العم بكل الصفات والخصائص التعليمية والشخصية والمكانة الاجتماعية وعنـــدها يمنحه الجميع مطلق الحرية فى اختيار ما يريد ولا يلزمه الآخرون ـ حتى لو كانت له ابنة عم وجميلة ـ أن يتزوج منها بالقوة التى تتعرض لها لو كان الأمر معكوسا ، وعندها يكتفون بالتذرع فقط بالمثل الشعبى الذى يرون فيه حلا قائلين :

١١٤٤ ـ بنت العم عورة .

أو :

١١٤٥ ـ شاة الدار دورة وبنت العم عورة .

أسلوب تبريرى يبين أن بنت العم فى نظر ابن عمها الذى اعتـــاد رؤيتها وربما ـ بل غالبا ـ ما تربى معها فى بيت واحد تحت ظل الأسرة الفلسطينية المركبة الممتدة مما أفقـــده عنصر الاثارة والاعجاب بهـــا فيصورها المثل الشعبى وكأنها « عورة » أى بعين واحـــدة وغير جميلة كاسلوب مريح للحل .

ثانيا ـ معايير المواطنة « بنت البلد » :

لا يفضل « بنت العم » سواها ولا مجال للمنافسة والتنافس على غيرها داخل المجتمع القروى أو المدنى ، فان لم توجد بنت العم اتجهـــوا لبقية بنات العائلة أو لسواها من العائلات الأخرى التى تعتبر التقاليد والمفاهيم الاجتماعية الشعبية « غريبة » .

وعندها يباركون الزواج منها بدفعهم مثلهم الشعبى القائل :

١١٤٦ ـ بارك الله فى المرة الغريبة والفلحة القريبة .

مزاح فلاحى متأصل يقارن الزوجة الغريبة كالفلحة القريبة لما تجلبه

من راحة له فى غدوه ورواحه ، عندزرعها وحرثها وحراستها . فالموقع القريب لحقله مجلبة للرزق الوفير أيضا فلا يجد أحدا أفضل من الزوجة الغريبة لكى يشبهها بها . ويرى أن الله بارك فيها مستمدا ذلك من نبيه الكريم الذى فضل الاغتراب حرصا على سلامة النسل .

ولكن ما بالنا فى المثل الشعبى المناقض لما سبق والقائل :

١١٤٧ ـ الغريبة بدها توب يجر والخابية تهر وزلمة مر .

فالرفض هنا نابع من دوافع اقتصادية وســـيكولوجية المعاملة اذا ما قورنت الغريبة « بابنة العم » فالغريبة هنا تتعسف فى طلباتها فتريد ثوبا طويلا يجر على الأرض وخابية مملوءة بالقمح تنزح منها للأكل مضافا لهذا فهى تحتاج لرجل مر فى معاملته على العـــكس من مزايا بنت العم السابقة الذكر والتى تصبر على الحفا والجفا .

أما اذا اقتضت الأحوال للنظر لاختيار زوجة غريبة بالمعنى الحقيقى للكلمة أى من خارج البلاد فهذا ما يرفضه مجتمعنا رفضا باتا لأنهم يرون فى « بنت البلد » مزية فائقة سجلوها مثلا شعبيا يقول :

١١٤٨ ـ بنت لبلاد بتردوا ع البلاد .

أجل تجذره فى أرضه ، وتعيده لها اذا ما اغترب عنها ، انها مهمة مقدسة تقوم بها المرأة الفلسطينية حيال زوجها حبا فى وطنها ، وعليه كرس المجتمع الفلسطينى اختيار بنت البلد عمن سواها مؤكدين بصورة مثلية بليغة :

١١٤٩ ـ من طين بلادك حنى خدادك .

فها هى بنت البلد كتربة الأرض الطيبة المعطـاءة حبيبـة الفـلاح الفلسطينى المرتبط بها ارتباطا أزليا .

ويعزز مقولته هذه ومن وحى بيئته الطبيعية الخلابة قائلا :

١١٥٠ ـ ارعى من ربيع بلدك ولو انه اقحوان .

مفضلا بذلك وبكناية جميلة أن يتزوج من بلدة (ارعى من ربيع بلدك) حتى ولو كانت (اقحوان) غير حلوة فالاقحوان نبات مر لا ترعاه الماشية .

ويشرح ذلك بصورة أوضح وبتشبيه جميل مســـتمد من عناصر انتاجه التى أهمها القمح قائلا :

١١٥١ – زوان بلدنا ولا قمح الغريب ·

فالتضحية فى اختيار بنت بلدنا حتى ولو كانت « زوان » أفضل من الغريبة حتى ولو قمحا ، ويفسر التراث الشعبى الفلسطينى هذه الافضلية بصورة أوضح ولا تقبل للتاويل بمثله الشعبى :

١١٥٢ – زوان بلدنا أفضل من الصليبى ·

والقصد هنا اما قمح الصليبة ، واما الصليبيات اللاتى يتمتعن بجمال غريب وفتان · فبنت البلد أفضل منها مهما بلغت لما تتميز به ، كما بينت الخبرة المثلية السابقة · توضحها أغانى شعبنا بمطلعها :

١١٥٣ – يا ابن العم ما تاخد غريبة

قراقرنا (*) ولا قمح الصليبة

ويصل حب الاقتران بابنة البلد أوجه بالدعوة المباشرة وبصيغة المثل الشعبى الأمرة على ذلك عشقا للوطن وأهله فيأمر قائلا :

١١٥٤ – خود من جنسك ومن غير جنسك لا ·

تلك هى المعايير القاعدية الجوهرية التى يحاول المجتمع الفلسطينى بناء أسرته على أساسها والقائمة على صلة الدم والمواطنة ·

وتبقى بعد ذلك مواصفات جسدية تختلف باختلاف الأمزجة الشخصية المتباينة · واذا أخذوا الغريبة قالوا :

١١٥٥ – يا خسارة سابوا السبل وحصدوا الهلوك ·

١١٥٦ – يا خسارة تركوا القمح وحملوا الزوان ·

ثالثا – اختيار السن :

يتجه الفكر الشعبى فى عملية انتقائه « للعروسة » نحو « صغيرة السن » وخير من يشجع وينفذ ذلك « الأم الخاطبة » وفى ذهنها نصيحة زميلاتها المثلية الشعبية القائلة لها :

(★) قراقر : ما يتبقى من حصى صغيرة بعد غربلة القمح كالزوان ·

١١٥٧ – جيبى على جهل وربى على مهل ·

والجهل هنا بالمفهوم الشعبى تلك الفتاة الصغيرة السن (١٢ – ١٤ سنة فى الغالب) التى لم تعركها الحياة بعد وليست على دراية بظروفها وقضاياها بما يتسنى لأهل بيتها الجديد وخاصة « الحماة » فرصة تربيتها كيف تشاء وعلى مهل ولا مناص للعروسة الطفلة الا أن تسمع وتطيع · ويغريها أى « الحماة » المثل الشعبى النسوى القائل :

١١٥٨ – الصغيرة بتربيها على ايدك ·

لعدم اتاحة الفرصة لأهلها بعد من تمام تربيتها لعدم تعديها مرحلة الطفولة بعد ولعل فى استعراضنا لوثائق غزة الشريعة المتضمنة لحالات الزواج بها فى الفترة الواقعة بين عامى ١٨٥٧ – ١٨٦١ ميلادية أى قبل قرن وربع تقريبا · ما يوضح هذه الظاهرة الاجتماعية ·

ففى الأربع سنوات هذه سجلت ٥١ حالة زواج بمدينة غزة الفلسطينية (١) · من مجموع عدد سكانها البالغ فى هذه الفترة ١٨ الف نسمة تقريبا (٢)· ومن حالات الزواج هناك ٣٣ حالة كانت فيها «العروس» قد وصلت لمرحلة البلوغ والحالات الباقية وعددها ١٨ زيجة لم تكن العروس فيها قد وصلت لسن البلوغ بما يشكل قرابة ٣٠٪ من حالات الزواج كلها وهى نسبة مرتفعة جدا لمثل هذه الحالات المرفوضة الآن فى مجتمعنا الفلسطينى (٣) · ولعل فيما استعرضناه سابقا من اسباب تفضيل الاسراع فى زواج البنت ومنها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وكذا النظرة التربوية لها وهى فى هذه السن ما يفسر مثل هذه الظاهرة ·

وقد حدثتنى احداهن (٨٨ سنة) ان أباها قد زوجها وهى فى سن الطفولة (١٢ سنة) وهى وحيدته ورغما عن رغبة أمها لا لشىء الا لمجرد استجابة طلب أخيه القادم من قرى شرق غزة للمدينة عندما لم يجد بنتا

(١) د· عبد الكريم رافق – غزة دراسة عمرانية واجتماعية واقتصادية من خلال الوثائق الشرعية ١٢٧٣ – ١٢٧٧هـ / ١٨٥٧ – ١٨٦١م – بحث اعد بمناسبة المؤتمر الدولى الثالث لتاريخ بلاد الشام (فلسطين) – عمان ١٩٨٠ ص ٤٤ – ٤٦ ·

(٢) سليم المبيض – غزة وقطاعها – الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة ١٩٨٧ ص ٤١٥ ·

(٣) سليم عرفات المبيض – غزة وقطاعها – دراسة خلود المكان وحضارة السكان – الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة ١٩٨٧ ص ٣٩٣ – ٣٩٤ ·

مناسبة لابنه فطلب ابنة أخيه الصغيرة فابت شهامته وكرمه أن يرد أخاه مكسوفا فكان الزواج بحكم العصبية والشهامة !! .

وربما دفعت نتائج التجربة المعيشية داخل الأسرة لمثل هذه الزيجات من الصغيرات خروج النساء بمثلهم القائل :

١١٥٩ ـ يا ماخد الصغار يا غالب التجار .

ومن غالب التجار فى نظرهم ؟! لابد أن يكون على مقدرة فائقة وذكاء خارق وشجاعة وجرأة نادرة خاصة وأن رسولنا الحبيب صلى الله عليه وسلم يقول « تسعة أعشار الرزق فى التجارة » وترك « التسع » المتبقى لجميع فئات المجتمع على اختلاف وظائفهم وتباين حرفهم ومهنهم ..

وعليه أصبح الزواج من الصغيرات من وجهة النظر الشعبية لا تتاتى الا لأصحاب الحظوة والمقدرة التى تتفوق على التجار !

ويبلغ الحث من زواج الصغيرات مداه المضحك عندما يطلب من أولئك الذين لم تخدمهم ظروفهم من الزواج منهن أن يتزوجوا قصيرات القامة علها بقصرها تكون دافعا للايحاء بأنها صغيرة السن فيقولون :

١١٦٠ ـ تجوز قصيرة تحسبها صغيرة .

وصفة سيكولوجية ظريفة من « المثل الشعبى » بل التجربة الشعبية ، يعالج بها من لم تسعفهم المقدرة والقدرة على الزواج من صغيرات على طريقة التلازم الشرطى . التى يطلقون عليها علماء النفس « نظرية بافلوف » قبل أن يولد بافلوف نفسه .

فلم يكن من الغريب والحالة هذه أن ينفر المجتمع الشعبى من الاقتران بكبيرات السن لكثرة ما يسببه من هموم ومشاكل فها هم يقولون :

١١٦١ ـ يا همو يا همو ماخد واحده قد امه .

ويفسرون ذلك بشىء من التوضيح بمثلهم قائلين :

١١٦٢ ـ اللى بتجوز اكبر منه بيكتر همه .

ومن هذه الهموم ضلوعها بمعرفة مشاكل الحياة بصورة تفوق تلك التجارب التى لزوجها مما يجعلها تبدو وكأنها المسيطرة على شئون الحياة

العائلية وتدبيرها وهذا ما ينفر منه ويستهزىء به المجتمع الشعبى على الزوج .

كما أن فارق السن وقبول الزوج به يجعله عرضة للتساؤلات التى تجلب الكثير من الحرج والهم له . والتى ربما يكون هو ضحية لها لخضوعه لأفكار علوية ورجعية قديمة لا قدرة له من الفكاك منها خاصة لو كانت ابنة عمه ولا يرغبون فى تفتيت ملكيتهم وأبعادياتهم لكى يمتلكها الاخرون من غير العائلة .

وعليه قام المثل الشعبى بالتحذير من « سن النساء » ولو انه تحذير ـ لا نغالى ان قلنا جائر » الى حد ما ـ لكنها المعايير والمقاييس الشعبية وليدة التجارب الفردية والجمعية المتباينة زمانا ومكانا فقالوا :

١١٦٣ ـ احذر النسا قبل الأربعين واتركهم بعد الأربعين .

وربما كان الحذر هنا عند الزواج منهن لما يتميز به هذا السن من المراهقة والتقلب والتبدل السريع ، أما الشق الثانى من المثل فيعنى ترك الزواج منهن بعد تخطى سن الأربعين لأنها تصبح فى عداد كبيرات السن والتى حكمت عليها الأمثال السابقة بكثرة همومها كما ذكرنا .

أما اذا تعدت البنت هذه السن ووصلت الى الستين من عمرها فنجد عندها حكم المثل الشعبى قد صدر مجازيا عليها بقوله :

١١٦٤ ـ بنت الستين خرج السكين .

لأنها فى الغالب وداخل الأسرة المركبة قد فعلت فعالها مع زوجات اخوتها فهى بينهن تلعب دور « الحماة » ويتضاعف دورها لو كانت أمها على قيد الحياة لما تناله منها من عطف وتأييد وتشجيع لكل تصرفاتها مما يؤجج نار المشاكل ويزيدها ضراوة ، فكان المثل الشعبى افرازا طبيعيا بحكمه هذا .

الفصل الثالث والعشرون

- المقاييس الجمالية
لون البشرة ـ الطول والقصر ـ جمال الوجه
- المعايير الخلقية والأصالة .
- الغنى والفقر .
- العصبية فى الزواج .

رابعا – المقاييس الجمالية :

الجمال عند الذوق الشعبى الفلسطينى له مقاييسه ومعاييره ومفاهيمه المتنوعة والمتعددة بتنوع وتعدد الأمزجة المستوحاة فى الغالب من واقعنا البيئى الجغرافى بما أنبتته الأرض الفلسطينية من زهور وفواكه وخضار وأشجار وما دب بينها من حيوانات ، وحلق فى سمائها من طيـــور ، متخذين من ألوانها وطيبها ، تغريدها وحنوها ، صـــفات أسبغوها على جسم الانسان بمظهره ومخبره ·

فاذا ما اقدموا على طلب فتاة جلسوا بجوارها وقبلوها « قبـــلة اختبارية » – اذا جاز التعبير – مستخدمين فى أثنائها حاسة شمهم بدقة ليكتشفوا ما لا يخفى على القارىء من مكتشفات – ليبادلوها الحديث بعد ذلك لكي يتفقدوا مخـــارج الألفاظ وســـلامتها ليصلوا من خلالهـــا الى قدراتها العقلية وما وعت لينظروا بعد ذلك نظرة أولية ليقدروا جمالها وفى سريرتهم :

١١٦٥ – خود المليح واستريح ·

فالمليح فى المفهوم الشعبى « الجميل » سواء فى الشكل أو الطبع وفى كليهما راحة لهم · وهم يعشقون الجمال ويسعون جاهدين للوصول اليه يقودهم مثلهم القائل :

١١٦٦ – خود الحلو واقعد قباله وان جعت شاهد جماله ·

لهذا الحد يعتبرون الجمال والجلوس أمامه غذاء للروح اذا ما اشتد حال الدنيا · وشبهوا الجميلة بالبدر وجعلوها منافسة له فقالوا :

١١٦٧ ـ بتقول للقمر قوم تاقعد بمالك ٠

دلالة على جمالها الفائق والمتفوق على القمر وضيائه ٠ وبدافع عشقهم للجمال وصفوه بقولهم :

١١٦٨ ـ زى النقطة فى المصحف ٠

لكي يربطوا بين الجمال والكمال الذى أبدعه العلى القدير فى كتابه الكريم ٠٠

ولما كان الضد يظهر حسنه الضد فقد أكدوا على جمال الجميل وبشاعة البشع من خلال هذا التنافر بمثلهم القائل :

١١٦٩ ـ البشع بشع لو غسل كل يوم والحلو حلو لو فاق من النوم ٠

وبنظرتهم الطيبة لا يتركون التى لم تحظ بقسط وافر من الجمال دون أن يقدموا لها وصفة مثلية علها تخفف عنها قائلين :

١١٧٠ ـ يا وحشة كونى نقشة ٠

ونقشة هنا تعنى لياقة الحديث والظرف فيه علها تعوضها وتضفى عليها مسحة من جمال الروح وحسن المعشر فتسهل ألفتها ٠

٢ ـ لون البشرة :

أما عن لون البشرة فى المفاهيم الجمالية فالشعب الفلسطينى وبحكم الجغرافيا السلالية ساميون اقحاح من جنس البحر المتوسط المتميزة بلون البشرة السمراء والشعر الأسود الناعم أو المسترسل والقامة المعتدلة والطويلة ـ وكعملية اسقاط تجد أنهم يفضلون الفتاة البيضاء أو السمراء المشرب فى كليهما بالحمرة دليل الجمال والصحة والعافية ٠

من هنا كانت المفاضلة بينهما قائمة والمنافسة محتدمة كما بينتها الأمثال والأغانى والأزجال الشعبية ٠

وتقدم الخبرة الشعبية على لسان المثل الشعبى نصيحة فى صورة تحذير من الحمرة الطارئة على وجنتى الفتاة بقوله :

١١٧١ ـ لا تخطبها من تحت عقدة ولا من باب طابون ٠

أى اياك من خطوبة البنت على حمرة وجنتيها وهى تحمل على رأسها حزمة (عقدة) الحطب عائدة بعد يوم من التحطيب المضنى أو تلك التى

تكون جالسة امام الفرن (الطابون) وناره الملتهبة تلفح وجهها وهى تخبز ، ففى الحالتين حمرة وجنتيها عارضة زائلة ٠

فالبياض اذا مقبول وعليه تتمنى الفتاة ان تكون كذلك ولو على حساب تضحيتها بأشياء أخرى مفزعة فتقول مثلها وعلى لسانها ٠

١١٧٢ ـ ياريتنى بيضة واللى بربور والبياض عند الرجال مقبول ٠

بل ويبالغ المثل الشعبى فى طلبه وحبه للبيضاء عندما يصرح قائلا :

١١٧٣ ـ خدها بيضة ولو انها مجنونة !! ٠

هكذا !! يفضلونها بيضاء حتى ولو كانت مجنونة ! فان كانت هناك فئة تفضل اللون على العقل فعلى النقيض هناك آخرون يستهزئون منهم ويناقضونهم بمثلهم قائلين :

١١٧٤ ـ بيضة وحمره يا قماش ، بيضة وحمره وعقل ماش (*) ٠

فلا يغرنك البياض والحمرة يا بائع القماش اذا لم يزينه العقل ٠

أما اذا دار الخلاف على اللونين الأبيض والأسمر من قبيل العريس وآخرون قالوا له :

١١٧٥ ـ ان كانت بيضة من بختك وان كان سمره زى امك واختك ٠

ليؤكد هذا المثل أفضلية « البيضاء » عمن سواها ، فى اطار الذوق الشعبى العام فيقولون :

١١٧٦ ـ بيضة القصف وسمره اوصف ٠

فالبيضاء للقصف ، كناية عن الرغبة للاقتران بها ، ويكفى السمرة وصف جمالها واذا دعت الحاجة للاقتران بها فلا مانع ان كانت :

١١٧٧ ـ سمره ونغشه ولا بيضا ودفشه :

فاذا تحلت السمراء بالفطنة ولباقة الحديث (نغشة) فهى تفضل بهذا على تلك البيضاء صاحبة الظل الثقيل والمنطق السقيم (دنشة) ٠

(*) عقل ماش :

ومن الطريف فى تراثنا الشعبى أن المحاورة بين البيضاء والسمراء تصل ذروتها فى دفاع كل منهما عن خصائصها وجمال ملامحها ، نقتطف بعضها من أغانينا الشعبية (٤) :

السمراء : واحنا الهرايس واحنا المحارم بيد العرايس
روحى يا بيضة يا لبن مايص دبان العرب عليك يحوما

البيضاء : احنا من السكر والل يهوانا يظل يتفكر
روحى يا سمره يا دقة وزعتر ماكول الغنم باول كانونا .

السمراء : أنا السمرة والسمورة بخفة دمى مشهورة
روحى يا بيضة يا مقهورة باليمونة مهرية .

البيضاء : والله مانى ليمونة يا سمرا يا مجنونة
يا بتنجانة بساس (*) الطابون .

وهكذا يستمر الجدال والمحاورة كل يحاول ليس نقد الآخر بل ونقضه تماما فها أغنية شعبية تحرض ضد السمراء بقولها :

يا ماخد السمرا وايش بدك فيها	**رمـل البحـر ما بيجليهـا**
يا ماخد السمرا واصحا تلبسها	**ان مشيت فى الحارة تكبر مناقسها**

ويبقى الحوار سجالا ومن الصعب الحكم بينهما والوصول لنتيجة نهائية ، فالنظرة لتلك الملامح تبقى نسبية تختلف باختلاف الانسان نفسه فى كل زمان ومكان .

وأخيرا فانهم لا يرغبون اللون « الأصفر » ويترجمونه بالمكر والحقد فيكفوا أن يقولوا « صفرا » للدلالة على كل المعانى السابقة فقالوا :

١١٧٨ ـ صحن المشمش لا تكبش ودور ع القمحية (*) .

او « الحنطاوية » أى تلك السمراء المشرب لونها بالحمرة ..

وأخيرا وان كان البياض هو المفضل فالأفضل منه هو بياض الشرف والعرض والأصل . معبرين عن ذلك بمثلهم القائل :

(★) ساس : المكان الملئ برماد النار فى الطابون (الفرن) .

(٤) عائشة عبد العزيز ـ التناقض فى الأغنية الشعبية النسائية الفلسطينية ـ مقال فى مجلة التراث والمجتمع ـ العدد ٧ المجلد ٢ آيار ١٩٧٧ البيرة ص ٥٦ ـ ٥٧ .

(★) ويقولون سكان الجبل الفلسطينى « صحن المشمش لا تكبش ودور ع اللوزية » . مجلة التراث والمجتمع .

١١٧٩ ـ ما بياض الا بياض الثنى (*) .

وهنا يفند الشعب « البياض » ان كان طبيعيا أو مزيفا وبالتالى يقدم خبرته ونصيحته المثلية الشعبية فيقول :

١١٨٠ ـ ان كان بياضك من الصابون هادا حال بيطول .

وان كان بياضك من الليفة هادا تانيفة .

أما اذا كان البياض ليس طبيعيا فيقول المثل :

١١٨١ ـ اللى بياضه ما هو من ربه يا تعب قلبه :

ويوضحون ذلك بمثلهم الشعبى الموجه لزوج المراة السمراء متعاطفين معه على ما يبذله من جهد ومال لجلب المساحيق لزوجته وبالكاد يكفيها .

١١٨٢ ـ مهما اشتغل جوز السمرا بيكفهاش بودره وحمره .

٣ ـ الطول والقصر :

لا خلاف ولا اختلاف بين اثنين أو اثنتين على أن « الطول » للانثى مظهر من مظاهر جمالها المحبب لدى كافة الناس فيقولون :

١١٨٣ ـ الطويلة طالت التينة والقصيرة ظلت حزينة .

فيمتدحون « الطول » بالقدرة على التقاط التينة من فوق أغصان شجرتها الباسقة فى حين تبقى القصيرة حزينة لعدم استطاعتها تحقيق ذلك ، متخذين بذلك شجرة التين هذه اختبارا للطول والقصر .

ويظل التأثير البيئى والفلاحى جوهر الروح الفلسطينية الشعبية فاستعاروا من شجرة النخيل طولها فقالوا :

١١٨٤ ـ الطول طول النخلة .

مدحا لطول الانثى ورمزا لرشاقتها واعتدال قامتها .

أما اذا أصرت بعض الأسر ـ وهذا شائع فى المجتمع الفلسطينى ـ على عدم زواج البنت الصغيرة قبل أختها الكبيرة والتى هى محل طلب العريس عندها يرتد خائبا ومذعنا لطلبهم وفى خلده يقول المثل الشعبى :

(★) الثنى أو الثنى : أى الأصل والشرف .

١١٨٥ ـ **بدلنا النخلة بسخلة .**

١١٨٦ ـ **راح النوار وفضل القوار .**

ثم زاوجوا بين رشاقة الطول للأنثى وجماله وبين رجاحة عقلها واتزانه فقالوا :

١١٨٧ ـ **ان وقفت بتبين وان نطقت بتزين .**

وكأنهم بذلك يدحضون المقولة المثلية الشعبية الشائعة التى تزاوج بين « الطول والهبل » والقائلة « الطول طول النخلة والعقل عقل سخلة » كما هو سائد بل قالوا أيضا :

١١٨٨ ـ **زى النخلة بتمشى وبتتمايل .**

وقالوا مفاضلين بين الطويلة والقصيرة خاصة عند شراء الملابس :

١١٨٩ ـ **جوز الطويلة بيقطع وبيتباهى وجوز القصيرة ايش ما كان بكفاها .**

٤ ـ **جمال الوجه :**

الوجه من أكثر الملامح البشرية جذبا وتركيزا للاهتمام وتفضيلا عمن سواه في عينى الأم الخاطبة وفكرها فحصوا تقاسيمه بالعزيز من تشبيهاتهم فاعتبروا فى مثلهم الشعبى أن :

١١٩٠ ـ **زينة الزين الحاجب والعين .**

١١٩١ ـ **من ملك عينه وسنه ملك الحسن كله .**

وأكدوا دلالة قيمتى الحاجب والعين كمعيارين للجمال قائلين :

١١٩٢ ـ **العينين والحواجب قاموا بالواجب .**

وتغزلوا بأمثالهم الشعبية فى « العين » ووصفوها وأحبوا اتساعها فقالوا :

١١٩٣ ـ **عينيها زى عينين الغزلان .**

١١٩٤ ـ **و عينيها زى الحوار .**

١١٩٥ ـ **وعينيها زى عينين المغاربة .**

وجميع الأمثلة واضحة فى معنى تشبيهاتهم سواء ، أكانت كعيون الغزلان أم الحوار التى تتميز باتساعها وجمالها او كعيون المغاربة الذين كانوا يفدون لفلسطين لتقديس حجتهم أو تجارا فى أسواقها متميزين تساؤهم بجمال عيونهن واتساعها .

واعتبروا أن ما يزيد العين جمالا كحلها الربانى فعبر مثلهم بذلك قائلا :

١١٩٦ ـ **مكحلين من غير كحل .**

كما اعتبروا نقاء العين وزرقتها من سمات جمالها وجاذبيتها فقالوا :

١١٩٧ ـ **زى عينين الديك .**

١١٩٨ ـ **و عيونها زى الهندبه .**

حيث تتصف عينا الديك بصفائها ونقائهـــا أما الهندية فتتميز بزرقتها وصفائها .

أما الأنف فمنهم من يرى فى صغره مقياسا للجمال فيصـــفونه بقولهم السائر بأنه « زى اللوزة » أما اذا كان كبيرا فيرون ووفقا لمثلهم الشعبى القائل بأن :

١١٩٩ ـ **كبر المناخر ع الوش الفاخر .**

أما الفم فأعجبوا بصغره بوجه عام قائلين .

١٢٠٠ ـ **تمها خاتم سليمان .**

أما الاسنان فأعجبوا بنصاعة بياضها وتناسقها .

١٢٠١ ـ **سنانها زى اللولو .**

فى حين رأوا فى رقة الشفايف دليلا لجمالها فشبهوها بقولهم .

١٢٠٢ ـ **شفايف رق الفنجان** (*) .

ولم يتركوا الرقبة فميزوا الجميل منها بالطول والشفافية فقالوا :

(*) الفنجان خاصة فنجان القهوة السادة المتميز بصغره ورقة حوافه .

١٢٠٣ ـ عنقها زى عنق الغزال ٠

تلك زينة الوجه كما يراها شعبنا حتى تجد النساء بصفة خاصة قد حفظن صفاتها عن ظهر قلب وأصبحت تدور على ألسنتهن كأنشودة يتغنون بها عند عودة احداهن من خطبة فتاة قائلة :

١٢٠٤ ـ وجهها مثل القمر ٠

يا عيونها عيون الغزلان ٠
يا تمها خاتم سليمان ٠
ونهودها زى الرمان ٠
ودرعانها زى الكعكبان ٠
وخصرها ولا عود البان ٠

٥ ـ معايير جسدية :

تبقى هناك مواصفات جمالية جسدية يصفها المثل الشعبى الفلسطينى بحيث يرافق فيها بين الأصالة والجمال كمعايير تتنافس بها النساء مع بعضهن البعض وهى فى الغالب أمثلة شعبية نسوية نرى فيها التناقض وفى مقاييسها وفقا لأهوائهن المتبدلة فها هى احداهن تقول للأخرى :

١٢٠٥ ـ لا انت أحمر منى خد ولا أحسن مني جد ٠

متخذة بذلك « حمرة الخد » وسمعة الجد ٠٠ معيارين للمباهاة ٠ فى حين تنظر أخرى للمعيار الجمالى نظرة صرفة غير عابئة بالجدود ٠

١٢٠٦ ـ اللى بزينهاش خدها بزينهاش جدها ٠

وأخرى تناقضها فى مثلها هذا لأنها ترى فى زنود (سواعد) الانثى قوة للعطاء والانتاج وعنوانا للمرأة الفلاحة وربة البيت الكادحة ، ولا مقياس لزينتها غير ذلك فلا زينة للخد ولا حتى أصالة الجد تفوق زينة السواعد فتقول :

١٢٠٧ ـ اللى ما بزينهاش زنودها ما بتزينها خدودها ولا جدودها ٠

واذا كان هناك نوع من الرجال يعجبه « البدانة » ويرى فى الضخامة الجسدية للانثى دليل الجمال فطمأنوه بمثلهم قائلين :

١٢٠٨ ـ يا رجال لا تخاف بز مخده وبز لحاف ٠

فى حين هناك ما يرفض هذه المواصفات الجمالية ولا يخفى نفوره وتهكمه مشبها بقوله السائر وكما سبق ذكره قائلا « التخن ع الجميز » لما تتصف به هذه الشجرة بضخامة جذعها وطول فروعها ٠

ويؤيد هذا الفريق ويعضده المثل الشعبى القائل :

١٢٠٩ ـ ان كنت عايز قصب مص (*) قصه من الوسط وان كنت عايز تخطب خود رفيعة الوسط ٠

وأفاضوا بعد ذلك بالعديد من التشبيهات متغزلين بجسد المرأة وأوصافها فشبهوا صدرها « ببلاط الحمام » لبياضه ونظافته ورأوا فى أصابع الانثى بأنها « زى الخيار » لنعومته وطراوته واتساقه ٠ فقالوا :

١٢١٠ ـ يا طاهر ويا بيطار يادياتها لب خيار ٠

ومن الطبيعى رفض الخاطبة سواء أكانت الأم أم من يشاركها العيوب الجسدية التى قد تلحق بالأنثى سواء أكانت خلقية أم مرضية وأهمها التى يذكره المثل الشعبى بقوله :

١٢١١ ـ لا تاخد القرعة ولا بنت بنتها بتعديك ع طول الزمان قرعان ٠

لكن هذه الدقة فى الاختيار تنكمش وتضعف موقف الخاطبين وتقلل من قوة التدقيق لديهم ان كان « العريس » المنوى زواجه تنقصه المؤهلات الجسدية أو العقلية وان كان فى بعض الأحيان ميسورا ، فيضطرون على التغاضى عن بعض عيوب الانثى مؤمنين بتكافؤ الند للند وكما يقول مثلهم الشعبى :

١٢١٢ ـ كل فوله والها كيال ٠

بل ويوضحونها أكثر فى الحالات السابق ذكرها فيقولها مثلهم الشعبى :

١٢١٣ ـ كل فولة مسوسة والها كيال اعور ٠

(*) قصب مص ـ اى عود قصب السكر الذى غالبا ما تزيد حلاوته فى المقل الوسطى منه ٠

خامسا ـ المعايير الأخلاقية والأصالة :

ورغما عن بريق كل السمات الجمالية لم يثن عامة الشعب ويلويهم عن التفتيش تنقيبا وراء ذات الأدب والخلق وأصالة المحتد متنازلين عن مظاهر الجمال وكثرة المال ليعلوها فى ميثاقهم الشعبى صفات الخلق الحميدة فأصبحت « بنت الأصول » غاية مرادهم وقصد مرامهم لايمانهم بأن :

١٢١٤ ـ الأصل بونس .

فالأصل المبنى على دعائم الخلق القويم والتربية النبيلة وحسن السلوك والتصرف يجعل أهل البنت يستأنسون بهذه الخصال ويفخرون بها فلا غرو أن ميزوا « بنت الأصول » وفضلوها على معايير الجمال والزينة . فسجلها مثلهم غير مكترث للزينة قائلا :

١٢١٥ ـ زينة البنات لا توخد ، خود الأصيلة :

وبصميم المعنى أشاد المثل الشعبى مفضلا :

١٢١٦ ـ الأدب واللطف احسن من الجمال والظرف .

كذلك استثنوا الفقر ولم يحسبوا له حساب وقبلوه ان كان مزدانا بالرزانة والاتزان الخلقى للانثى متأثرين بخبرتهم الشعبية القائلة :

١٢١٧ ـ خود الأصيلة لو كانت ع الحصيرة .

أى لو كانت على قمة الفقر ولا تملك من حطام الدنيا غير الحصيرة تنام فوقها من هنا قالوا :

١٢١٨ ـ بنت الأصول احسن من بنت القصور .

ذات الرياش والأثاثات الجميلة البراقة والتى تنزوى وتندثر امام الأصول والجذور الحميدة التى فطر عليها الشعب ورضعها فكان السعى للوصول « لبنت الاصول » و « بنت الرجال » تهون دونهما كل الأموال مهما بلغت كما حض على ذلك مثلهم الشعبى :

١٢١٩ ـ خود الأصايل لا تهابوا الفصايل لانهن هزايل :

أى اقترنوا وتزوجوا بنات الأصل ولا تخشوا غلاء مهورهن والفصل فيها (الفصايل) حتى ولو كن هزيلات وضعيفات ومن لم يملك ذلك اخبره المثل :

١٢٢٠ ـ اللى ما بيقدر ع الحره وعليقها يروح من طريقها .

وعليه حبذت التجربة الشعبية بذات العقل حتى ولو كانت مجنونة لكنها من أم عاقلة فقال :

١٢٢١ ـ خود المجنونة بنت العاقلة ولا تاخد العاقلة بنت المجنونة .

لماذا ؟ لايمانهم بالأصول لا بالفروع فغالبا ما تطفح الصفات الوراثية المختزنة والمستترة من الأصول المديدة وقد دونوا هذه النظرية السلالية بمثلهم قائلين :

١٢٢٢ ـ عليك بخال الخال يا طالب العلا .

١٢٢٣ ـ الصبى لخاله والبنت لعمتها .

١٢٢٤ ـ العرق بيمد لسابع جد .

ولأنه أيضا وفى يقينهم الشعبى ان :

١٢٢٥ ـ بنت الخواضة خواضة (*) .

لذلك مهما كثرت البنات وتضاعفت أعدادهن فلا مناص من أخذ « بنت الأصول » وعليه حث المثل الشعبى :

(*) يقال ان رجلا قتل زوجته وفر بابنته وفى طريق عودته كان عليه ان يقطع واديا جاريا فلم يستطع وكانت معه ناقة صغيرة ، فأشارت عليه ابنته ان يستخدمها فى قطع الماء قائلة له « بنت الحايضة خواضة » وفعلا تمكنا من عبور الواد ، لكن الأب راح فى التفكير الى مصير ابنته وقد خانته أمها فقتلها مرددا المثل .

١٢٢٦ ـ خيار تشرينى ع اول الوسم(*) والبنات كتيرة والدورة ع الأصل.

فهى أى « بنت الأصول » ومن وجهة نظر الشعب الشمولية المثلية يصفونها قائلين :

١٢٢٧ ـ بنت الساس (**) والراس .

١٢٢٨ ـ بنت الحسب والنسب .

أى من اساسها وجذورها أصيلة وحتى حاضرها التى تعيش فيـه .

فلماذا هذا الاصرار على « بنت الأصول » ؟ وما هى خصالها من وجهة نظر الممارسة الشعبية الملخصة بعصارة مثلها الشعبى ؟ والاجابة تقولها الأمثال موضحة جرأتها فتقول :

١٢٢٩ ـ بنت الرجال ما بتستحى من الرجال .

فهى اذا جريئة وقوية الشخصية لا تخشى الرجال بل ويوضح ذلك أكثر بقوله :

١٢٣٠ ـ البنت الزين بتمشى بين صفين .

أى مادامت حسنة الأخلاق (زينة) ففى مقدورها أن تسير بين صفين من الرجال ومن مميزاتها أيضا وفقا لمقولة المثل الشعبى :

١٢٣١ ـ البنت المربية دهب مخبية .

أى حسنة التربية هى فى الحقيقة ذهب مخزون وكرر المثل نفس الصفات بقوله :

١٢٣٢ ـ البنت الحرة زى الدهب فى الصرة .

فهى رصيد مخزون تنفع أيام الشدة والضيق لأصالتها وخلقهـا وحسن تدبيرها .

(*) الوسم : هناك الوسم البدرى ، والوسم الوخرى ويبـــدأ الأول بعد ٩/٢٧ ولمدة ٣٥ يوم والوخرى يستمر بعده لاسبوع .

(**) الساس : أى الأساس .

لهذا نجد أن من تمتح من الرجال بالأصالة وبما تحمله من خصال ومزايا طيبة سبق أن أوضحناها ينعكس مردودها على بناته خاصـــة فقالوا :

١٢٣٣ ـ على صيتكم تنفق حريمكم .

وما عدا ذلك فقد نفر منهم المجتمع الشعبى ومن الاقتران بهم خاصة لو فقدوا عنصرى الأصالة والعقل ويزدادون ســوءا وحزنا عليهم لو لم يحظوا بقسط من الجمال عندها يقرعهم المثل قائلا :

١٢٣٤ ـ لا أصل شريف ولا وجه ظريف .

وقالوا :

١٢٣٥ ـ العقل زينة واللى بلاه حزينة .

وقد نهوا بشدة البنت من محاولة الضحك وهى تسير فى الشارع والا حق عليها قول المثل الشعبى :

١٢٣٦ ـ ان ضحكت وبينت نابها الحقها .. أو « العنها » ولا تهابها .

مفضلين العقل بذلك ، أما اذا قيل فيها :

١٢٣٧ ـ لا زين فيها ولا عقل مواريها .

فتلك حزينة النساء والفتيات ، فهى بلا جمال ـ وقد يكون الأمر لهذا الحد هينا حيث يمكن مداراته بالعقل المتزن والمرن ـ لكن حرمانها منه يعنى فقدانها كل شىء .

وكما قيل سابقا أن للرجال بحكمتهم وأصالتهم دورا هاما وحيويا يرتد على بناتهم والزواج منهن ، فيما لو اتصفوا بالخصال الحميدة وان حدث العكس قضى عليهم ، المثـل الشعبى وعلى بناتهـم وأنجالهم بقوله المثل القاطع .

١٢٣٨ ـ النذل لا تاخد منه ولا تديه .

فالاقتران به مغرمة وأى مغرمة ، فنظرة المجتمع للنسب «والنسيب» ليست هينة فقد فضلوه عن الأقرباء واعتبروه ألصق منهم فى أفراحهم وأتراحهم فقالوا :

١٢٣٩ ـ صهرك سند ضهرك .

وقولهم :

١٢٤٠ ـ كون نسيب ولا تكون قريب .

وهو بذلك يصبح فردا وجزءا من العائلة تفتخر به وتستند عليه فى العديد من المناسبات وعليه يصبح انتقاؤه ليس بالأمر الهين .

فالنسب والمصاهرة عندهم قيمة فى حد ذاتها يحرصون كل الحرص على الاحتفاظ بها لأنها وفق مثلهم الشعبى :

١٢٤١ ـ النسب عند الفاهمين كنوز .

هكذا .. كنز ثمين ليس من السهل تبديده أو الاستغناء عنه يحافظون عليه بكل ما يملكون ، مهما عصفت به الاختلافات أحيانا مؤكدين ذلك بقولهم السائر :

١٢٤٢ ـ النسب ستر وغطا .

أجل انه ستر وغطاء على أعراضهم وأسرارهم لا يمكن كشفه أو تعريته بسهولة مهما اشتد الخلاف فيما بينهم . وللدلالة على ذلك يرددون قولهم المأثور فى صورة استفهام يغلفه التعجب والاستنكار :

١٢٤٣ ـ ما يصير نسب وقشب (*) !!

(*) قشب : أى المشاكل والاختلافات .

سادسا ـ الغنى والفقر :

المجتمع الفلاحي الذى تستأثر الطبقة الكادحة من عمال ومزارعين أكثرية سكانه المنتشرين فى القرى الخرب والبادية وهوامش المدن ، تغلف حياتهم المعيشية الكفاف أى الفقر الشريف النظيف الذى لا يرهبونه ويرون فيه قوة مادام يعمرهم الايمان وتزكيهم الأخلاق والآداب الكريمة كما أبانت لنا قواعد حياتهم المثلية الشعبية السابقة .

فالاقتران بالفقيرة أمر غير مخيف لهم بل يتقربون اليه ويطلبونه راضين بحكم التجانس والتماثل المعيشى اقتصاديا واجتماعيا يقويهم مثلهم الشعبى الحافز القائل :

١٢٤٤ ـ خدوهم فقرا يغنيكم الله .

ولعل المثل مشتق برمته من قرآننا الكريم مثلنا الأعلى وتراثنا الأقوى حيث يقول جل من قائل « ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم » (٥) .

بل ويحذروا أولئك الذين يغريهم المال المصرف حتى ولو على حساب الجمال ، بالابتعاد عن هذا السلوك متخذين من تجربتهم المثلية القائلة :

١٢٤٥ ـ يا ماخد القرد على ماله يروح المال ويبقى القرد على حاله .

وسيلة اقناع لزوال المال مهما طال الزمن ويبقى له القبح فى صورة « قرد » ثابتا ومقيما عقابا لفكره المادى المحض .

ومن هؤلاء من يتجهون بنظرهم لبنات التجار وحث الزواج منهن ولو كن من الجوارى بقولهم المثلى :

(٥) سورة النور ٣٢ .

١٢٤٦ ـ بنت التجار بتتاقل بالمال ولو كانت من اجوار • (جوارى)

فهل هذا الالحاح يعود لمكانة التجار فى أفئدة المجتمع الشعبى الفلسطينى والذين كانوا يصحون مبكرين لصلاة الصبح فى المسجد ليتوجهوا بعد ذلك لمحالهم لفتحها ومفتتحين يومهم بقراءة القرآن الكريم ولا يعرفون للغش طريقا ولا يتخذون من القسم بالله وسيلة لرواج بضاعتهم وبيعها • تلك هى صورة التاجر فى أفئدة شعبنا منذ مدة زمنية قليلة ، فهل يعنى المثل بنت هؤلاء التجار ؟! •

أم يقصدون تجارا يملكون المال الوفير بصرف النظر عن سلوكهم ؟

ففى المجتمع كلاهما ويبقى الاختيار فى صدر الطالب الخاطب .

ومنهم من تدفعه الظروف سواء أكانت المادية أم الخلقية للاقتران بالغنى أو الغنية ولو كانت أرملة مفضلين بذلك الزواج بها عن تلك المقترنة بعائلة مهترئة ، بقولهم :

١٢٤٧ ـ ارملة غنية أحسن من حمولة مهرية •

فالمعروف فى مجتمعنا الابتعاد وعدم القبول المشفوع فى الغالب بالنفور من زواج الابن الشاب الأعزب من أرملة ، ويعبرون عن ذلك بحس مرهف ـ عبر مثلهم الشعبى ـ المبتعد عن أذى الأحاسيس أو خدشها قائلين بكناية جميلة بليغة :

١٢٤٨ ـ ان رعيت ارعى النوار والمرعى لا ترعى فيه (*) •

مشبهين بذلك الانثى البكر بالنوار أى شقائق النعمان الرقيقة الحمراء التى تنمو فى الربيع وسط المراعى الخضراء والحث على رعيها ورعايتها أما المناطق المرعية (الأرملة) فلا داعى للرعى فيها بمعنى رعايتها •

ويختتم المثل الشعبى صاحب المعاناة التجريبية والمعايشة الصادقة جدل الاختيار وحيرة التفضيل بين الغنى والفقر بقولهم الجازم :

١٢٤٩ ـ القرش عمره ما غطى الشرش •

أجل فان القروش مهما كثرت فلن تقوى على تغطية « الشرش » أى الجذر والأصل والأصول سواء أكانت خلقية كريمة أصيلة أم عكس ذلك

(*) وقالوا بنفس المعنى : بيت المرعى لا ترعى •• ما ترعى الا النوار •

رديئة فاسدة • فالجذور تبقى على ما هى متجذرة فى النفوس لا يحييها الفلوس والقروش ان كانت ميتة ، ولا تميتها ان كانت حية نامية •

وقد تسللت هذه المساوىء المادية الى مجتمعنا بحكم ما تعرض له من احتكاكات وتدخلات أجنبية غريبة بشتى طرائقها الملتوية سنتعرض لها ولتاثيرها فيما بعد •

هذه الهبة النوئية الصفراء الغربية الفاسدة عكرت صفو هذا المجتمع العربى الفلسطينى منذ قرون ، فانعكست على فئة منه ما سمى « بالمودة Model بمساحيقها التى لم تخلق الا لتغطية العيوب • فاستنكرها القطاع العريض من الشعب واستقبح الذين يدورون فى فلكها وبمدار المظاهر مبتعدين عن الجوهر فسجلوها مثلا شعبيا يقول :

١٢٥٠ ـ كانوا الناس يدوروا ع الجدود صاروا يدوروا ع الخدود •

انقلبت الأحوال عند تلك الفئة الضعيفة التى بهرتها الألوان فاصبحت تنشدها غير مكترثة بتراث الجدود ، لكن أصحاب « المودة » هؤلاء ما قيمتهم فى ميزان المجتمع ؟ •

هذا ما يكشف عنه المثل الشعبى القائل :

١٢٥١ ـ بنات الموضة [المودة] كل عشرة بيضة •

لأنها فى الغالب لا تتقن شئون بيتها فيما لو تزوجت وغير قادرة على حمل أعبائه •

وبلغ ضمور الفكر والطموح عند فئة المودة حدا وصلت معه نظرتهم للفردية المطلقة فهم لا يبتغون أكثر من « البنت » التى يريدون الاقتران بها ولا داعى للتمسك بعد ذلك بالأصل والأصالة ولا حتى بالراس والندالة ، فكان حالهم حال المثل الشعبى القائل :

١٢٥٢ ـ خود من ها الحزمة عود والباقى تاخده القرود •

هكذا •• كفايتهم عود ، أما باقى العيدان من الأسرة فلتجرفه السيول أو حتى لتاخذه القرود •• !! • واذا كانت تغويهم الأحوال المادية دون النظر لأى اعتبار قالوا لهم :

١٢٥٣ ـ ان كان بدكم من ها الابرة لمخرمة عنا منها كوام مكومة •

وأخيرا تجدهم يتهكمون بمثلهم الشعبى عندما لا يعجبهم خطوبة البنتين سواء الصغير أو الكبير بقولهم :

١٢٥٤ ـ الصغيرة مرة والكبيرة مندرة •

سابعا ـ العصبية فى الزواج :

عملت الظروف الجغرافية الطبيعية للبنيـة الفلسطينية والبنـاء التضاريسى الى حد ما ومنذ ان سكنها اجدادنا الكنعانيون الرواد الأوائل قبـل آلاف السنين على وجود ظاهرة ـ التباعد السكنى ـ فكانت مدن الجبال فوق قممها وعلى سفوحها وتلك المدن والقرى الغورية بالاضـافة للمدن والقرى السهلية الساحلية وأخيرا المضارب البدوية المنتشرة بصحراء النقب [نقب أى الطرق التى تخترق الجبال] هذا التنافر التضاريسى باعد الى حد ما بين المواضع السكنية بأنواعهـا وكرس هذا التباعد صعوبة المواصلات مما صهر كل موضع سكنى فى بوتقته الخاصة به فأورثها فيما بعد وعلى مدى قرون من الزمن ظاهرة « المدينة الدولة City state » مما زادها تمسكا بأعرافها وتقاليدها الخاصة بها وكذا نظامها الاقتصادى والمالى بها حتى غدا لكل مدينة نقدها الخاص بها (٦) .

ثم جاء الاسلام فوحدها بقرآنه ولغته العربيـة فأذاب الكثير من جمودها الموضعى وقرب منهـا . واستمرت كل منهـا تمارس دورتهـا الحياتية فالبادية الصحراوية على هوامش فلسطين الجنوبيـة خاصة والشرقية عامة ظلت تمارس حرفة الرعى متمسكة بأصالتهـا العربيـة ومتعصبة لها وهى تستند على مصدرها وجوهرها فى الجزيرة العربيـة اللصيقة بها .

وواصلت القرية الزراعة والاحتكاك بهم وبسكان المدينة لذا كانت أقل عصبية بعادتها أما سكان المدينة فواصلوا التجارة والصناعة فكانوا أكثر انفتاحا وأقل عصبية وبهذا التسلسل كانت الأنفة والعصـبية بوجه عام .

---

(٦) سليم المبيض ـ النقود العربية الفلسطينية وسكتها المدنية الأجنبية ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب .

فلا البدوى يقبل الزواج من أهل القرية ولا حتى المدينة فهم جميعا ومن وجهة نظره « فلاحين » لأنه يأنف الزراعة والصناعة . وكذلك ابن القرية وأهلها لا يميلون للزواج من بنت المدينة لعدم قدرته على مجاراتها اقتصاديا ومسلكيا .

ولا ابن « فوق المدينة » يرغب وبنظرته الفوقية الهبوط لبنت القرية والبادية .

الكل معتز بنفسه ، راض بحاله ، قانع بما له وما عليه ، وكان لسان حالهم جميعا يردد مثله الشعبى :

١٢٥٥ ـ لا تاخذوا منا ولا تعطونا .

ويفصحون عن ذلك بوضوح أكثر ووفقا لمعاييرهم التراثية الخاصة بمثلهم الشعبى .

١٢٥٦ ـ اللى ما بياخد من سبره دق البين صدره .

ويعنون بكلمة « سبر » بالمفهوم الشعبى كل الأعراف والعـادات والتقاليد التى رضعها الفرد فى باديته أو قريته أو المدينة . فمن لم يتزوج من محيطه السكنى المحلى هذا دفع بنفسه لعذاب التأقلم والتكيف لأشياء لم يألفها ولا يستطيع هضمها مما تسبب له الهم الذى سيضرب صدره .

وهذا ينسحب على الفلسطينى من جميع الفئات السكنية لو تزوج من خارج وطنه . هذا على مستوى العصبية الاجتماعية السكنية الحرفية والتى يمكن أن نصفها بالأفقيـة على الخريطة الفلسطينية التى انشطرت فيما بعد كل منها راسيا فأصبح فى كل مجتمع منها ما هو غنى وآخر فقير ، أفرزتها الملكية الاقطاعية للأرض لدى بعض أفرادها فأصبحت هناك قبائل وعشائر غنية وأخرى فقيرة كذلك داخـل القرية والمدينة من هم ملاك وآخرون أجراء كونت الأولى رأس مال كبير يستثمر ويستغل طبقة الأجراء والمزارعين داخل المدينة والقرية ، وعليه أصبح الرأسمال عنصرا للمباعدة الاجتماعية مكونا حاجزا طبقيا كانت ضحيته « بنات الأغنياء » اذا لم يكن لهن حظ من مسـحة جمـال . فأصبحت تأخذهم عزة الغنى بإثم الرفض من الزواج بالفقراء حتى لو كانوا من نفس المدينة أو حتى العائلة ، فى الوقت الذى يرفض أبناء الأغنياء الاقتران بهن لاحساسهم أنهم يملكون القدرة والحرية فى طلب من يشاؤون جمالا وغنى » .

وعندها ينطبق عليهم قول المثل الشعبى الرائع :

١٢٥٧ ـ الفقير خايف والغنى مش شايف .

فالفقير بطبعه يخشى الاقتراب منهم اقتصاديا واجتماعيا ، والغنى لا يرى فى تلك ما يلائمه .. من هنا تكثر ظاهرة « العنوسة » بين هذه الطبقات الاقطاعية أو ذات الأملاك . ومما يزيد الطين بلة ، أن هناك بعض الأسر تصر على رفض زواج البنت من خارج حدود العائلة أو الحمولة خوفا من تفتت ملكيتهم ونقلها للآخرين . وهناك العديد من القصص التى تروى فى مثل هذه الحالات التى وصل بعضها لحد انتظار بنت العم البالغ لابن عمها المولود .

هذه الطبقة الغنية دفعت العديد من أبنائها للتعليم فى مدارس القدس واسطنبول وخاصة الأزهر بمصر فعادوا بعد تخرجهم يلبسون « الجبة والعمة » ، ويحتلون مراكز وظيفية مرموقة فى البلاد كمدرسين ووعاظ وائمة مساجد وقضاة ومفتين .. الخ مما خلق معه وجود فئة متعلمة مثقفة داخل المجتمع الفلسطينى قائمة بذاتها ، لها طموحاتها ومتطلباتها . لازمها فيما بعد دخول المرأة سلك التعليم مما أضاف لها بعدا جديدا عند طلبها للزواج .

ومع هذه الفئة الجديدة سجل المثل الشعبى واقعا يبلور مشكلة جديدة تقول :

١٢٥٨ ـ أبو جبة بيجيش وابو فروة بنعطيش .

فالمتعلم « أبو جبة » لا يذهب ولا يطلب منهم (متعلمات الأغنياء ذات الجمال المتواضع) واذا تقدم « أبو فروة » أى الأمى فى الغالب والفقير الذى مازال يضع على كتفيه الفروة أو « الجاعد » يرفضونه من قبلهم فورا .

وكثرة تردد الخطاب المرفوضين كثيرا ما يعمق ظاهرة « البوار » بالمفهوم الشعبى أى « العنوسة » داخل المجتمع فيحذر المثل الشعبى قائلا :

١٢٥٩ ـ من كترت خطابها بارت .

كما أنذر المثل الشعبى بتجربته المغلقة على هيئة نصيحة قائلا لهم :

١٢٦٠ ـ جيبوا بنات ولا تقعدوا بطالات .

اى يفضلن الزواج حتى ولو نسلوا بناتا . وهذا ما لا يرغبه المجتمع الشعبى ـ ولا الجلوس فى البيت دون زواج . كما يحثهم المجتمع من خلال نصائحه المثلية الشعبية بقوله :

١٢٦١ ـ جالها جوز قالت عنه أعور .

أى لا داعى على الاطلاق تصنيف الناس واظهار مساوئهم من قبل الفتيات لمجرد قدوم أى عريس والا سيلحق بهن الندم وباهلها الذين من ورائها وعندها سينطبق عليها قول المثل :

١٢٦٢ ـ خطبوها تعززت ، فاتوها تنلمت ، راحت لابوها وشيعت .

حتى اذا ما بلغت سن الياس والقنوط رضوا بمن يأتى ولو كان ارمل قد فقد زوجته فاتاح الحظ العاثر لهذه « الرعناء » بالزواج كما يقول المثل :

١٢٦٣ ـ لولا الموتى بتموت ما فرحت الرعنا ببيوت .

وان لم يكن كذلك فربما يكون المتقدم رجلا أخذ منه السن ماخذه وهو عازب ليصحو متأخرا على الزواج فيلقى القبول من هؤلاء فيكون مسك الختام على حد رأى المثل :

١٢٦٤ ـ آخر النهار اختيار (*) .

هذه نتائج الحرص المفرط عند بعض القبائل والأسر فى انتقاء واختيار الصهر الناجمة عن التمايز الطبقى وريث الملكية والاقليمية المحلية الضيقة التى أفرزت رأس المال ومردوده فى ظاهرة اجتماعية واحدة وهى الزواج .

أما بالنسبة للدين فالاسلام هو دين الغالبية الساحقة بفلسطين العربية (٧) . ولا يمانع الاسلام من الزواج من أهل الكتاب ، لكن لكثرة

(*) اختيار : بالمفهوم الشعبى الفلسطينى الرجل العجوز .

(٧) بلغ عدد سكان فلسطين وفقا لاحصاء ١٩٣١/١١/١٨م (١٫٠٥٣٫١٥٤ نسمة) منهم ٧٥٩٫٩٥٢ مسلمون بنسبة ٧٣٪ أما العرب المسيحيون فبلغوا ٩٠٫٦٠٧ نسمة بنسبة ٨٪ من عدد السكان ، أما اليهود فقد بلغوا (١٧٥ الف نسمة) بالرغم من كل الهجرات غير المشروعة التى تدفقت لفلسطين بمساعدة بريطانيا ـ ارجع لكتاب :
Statesman's Year Book 1932, Sixty ninth Annual publication, London, 1932; p. 189.

عدد المسلمين ولأسباب تراثية يمكن استنتاجها مما سبق لا توجد نسبة تذكر من المسلمين المتزوجين من ديانات أخرى .

أما العرب الفلسطينيون المسيحيون فهم ينتمون لعدة طوائف مسيحية داخل البلاد والتمايز بينهما والتفاضل واضح يعبر عن ذلك المثل الشعبى القائل :

١٢٦٥ ـ اللى بوخد روميه ما بنام نومة هنية .

وهذا المثل يأتى على لسان طائفة اللاتين الذين يسكنون فى الغالب السهل الساحلى الفلسطينى حيث يحرضون على تجنب الزواج من الرومية أى تلك التى تنتمى للروم الأرثوذكس (٨) حتى قيل لو حدث الزواج فيما بينهم تجد منهم ما يقوم بالأفراح وآخرين يقيمون « جناز » وكان هناك مأتما :

ولا ندرى ان كان أهل غزة قد اشتقوا مثلهم من هذا المثل اللاتينى أم العكس حينما يقولون :

١٢٦٦ ـ اللى ما بتجوز مصرية ما بنام ليلة هنية .

فالتواصل المصرى الفلسطينى قديم قدم التاريخ ووشائج القربى والدم موجودة فهناك العديد من الأسر المصرية سكنت فلسطين واتخذت منها مقاما أبديا وكذلك الكثير من الأسر الفلسطينية ما عاشت وبقيت على أرض مصر يوم كانت أرض الاسلام للمسلمين (٩) ، دون حدود وفواصل صناعية خلقها أعداء الدين دون استشارة العرب والعرب بها متمسكون !!! .

---

(٨) ومما هو معلوم ان نصارى جنوب بلاد الشام يعودون باصولهم للقبائل العربية قضاعة وكلب وبهراء وجذام جميعا من اتباع المذهب الارثوذوكسى اى الروم الشرقيين .

(٩) سليم عرفات المبيض ـ غزة وقطاعها ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٨٧ ص ٢٤٣ .

ثامنا ـ القسمة والنصيب والحظ :

بالرغم من كل الاحتياطات والمحاذير التى تتخذها النساء الخاطبات وما يحفظن من مواصفات وسمات فى أذهانهن سبق ذكرها عبر أمثالنا ، الا انهن أخيرا وبعد « توثيق الخطبة » تجدهم يحسبون « للقسمة والنصيب » حسابا بقولهن خاصة ـ لو اكتشف سوء اختيارهن ـ :

١٢٦٧ ـ لما يقع النصيب من السما بنصاب الخطاب بالعمى .

أسلوب تبريرى لفشلهن ومخرج للايمان بالقسمة والنصيب بعد بذله الجهد ، لذا فهم على ثقة بأن للمهارة فى حسن الانتقاء والاختيار حدودا مهما وصلت اليها « الخاطبة » والخطاب . وبعملية اسقاط واضحة تجدهم يقولون :

١٢٦٨ ـ بخت الرمايم قايم وبخت الزينات نايم .

ويقولون بذات المعنى :

١٢٦٩ ـ بخت العفنة (*) بالحفنة وبخت الشاطرة خاطرة .

فهل تعنى بذلك التجربة المثلية الشعبية بأن الجميلات على حظ عاثر وردىء فى حياتهن الزوجية ، وما دون ذلك من الجمال المتواضع يتميزن بالحظ السعيد الجيد فى حياتهن الأسرية : وان كان الأمر كذلك فما الأسباب ؟ مع الأخذ فى الاعتبار مسبقا انها ليست قضية مطلقة .

فهل يعود ذلك لثقة الجميلات المفرط بجمالهن مما يدعونهن للخيلاء

(★) العفنة : يقصد احيانا بالمرأة التى لا تهتم بشئون بيتها ونظافته بوجه خاص .

وعدم التجاوب مع الزوج بشكل يرضيه على عكس تلك اللواتى يحاولن تعويض جمالهن المتواضـع باللباقة وحسن التصرف والتدبير كما سبق للمثل الشعبى وان فضل « السمرا النغشة على البيضا الدفشة » .

أم لأن مجتمعنا كثيرا ما يربط بين الجمال الفتان بخوف الاقتران به مقتنعين بقولهم ومنطقهم الشعبى السائر :

١٢٧٠ ـ الحلو كتير بعف عليه الدبان :

بمعنى أن الجميلة مجلبة لجذب النظر اليها باستمرار ومن ثم يكثر الحديث عليها مدحا كان أو قدحا مما يجعل العديد يصرف النظر عنها خشية وتحسبا .

أم لكثرة من يتقدمون لها ويتم رفضـــــهم حتى يصل بهم المقام ـ أى بأهلها ـ قبول من هو أكثر مالا لا خلقا لتفشل الحياة الزوجية بعد عشرة قصرت أو طالت . وعندها ينطبق عليها المثل القائل .

١٢٧١ ـ بخت لمنيحة فضيحة .

أم يعود للقواعد والمطالب المتحكمة فى عقلية الخاطبة أو الخاطب من ورائها . فهناك من تدفعه النظرة الجمالية المحضة مجازفا بما دون ذلك من أدب وخلق ، وآخر من له النظرة المادية « النقدية » الصرفة حتى لو كان بيد الجميلة وعندها يصرف جل اهتمامه على المال صرفا وانفاقا لاشباع ما ينقصه مهملا مصدره .

وأخيرا ربما هو أسلوب تبريرى لفشل من قاموا بخطبتها خاصة لو علمنا أن معايير الجمال نسبية تختلف من انسان لآخر بل ومن زمان لزمان آخر .

أخيرا ومن وحى الايمان والتجارب تجد الأسرة الفلسطينية تحض بناتها خاصة على الحد من الخروج كثيرا وأن يقرن فى بيوتهن ويلفظوا تبرجها بل ويحرمونه على البنت خاصة حتى زمن قريب ، قائلين مثلهم :

١٢٧٢ ـ أقعدي فى عشك تيجي جدي ينشك .

مؤمنين بأن لكل شىء قسمة ونصيبا فى هذه الحياة ، حتى التسمية وخطبة البنت بمجرد ولادتها فيما يسمونه « مسمى عليها » أو « عطيـة

الجودة » (١٠) التى كانت أشبه بالقسمة الملزمة فى العرف الشعبى وبحكم عصبية الدم والقربى ، أصبحت الآن فى نظر السواد الشعبى الكبير من الأمور المرفوضة وغير المرغوب فيها ، خاصة لم يعد هناك فارق بين الذكر والأنثى وفتح مجال التعليم أمامهن فتفاوتت قدراتهن واحتلت البنت مكانة مرموقة أصبحت معها تملك قدرة التمييز والرفض . فدفعهم لقول مثلهم وتجربتهم الشعبية القائلة والذى سبق ذكره « مش لمين سمى لمين قسم » أى ليست القسمة بمجرد التسمية والقول فقط .

(١٠) مجلة شئون فلسطين ـ العدد ١٩٧٢/٥/٩ ـ م.ت.ف. ص ١٨٢ .

الفصل الرابع والعشرون

- فصل الحق ـ مواعيد العرس
- يوم الحنة ـ الحمام ـ الزفة ـ الجلوة

فصل الحق [المهر أو الصداق]

اذا رات الأم الخاطبـة ما يلائمهـا ويطابق مواصفاتهـا فى زوجة المستقبل لابنها وتمت الموافقـة من قبـل أهل العروس ، اتفق الطرفان [النساء] على تحديد ميقات تلاقى الرجال عند بيت أهل العروس وذلك للاتفاق على ما يسمونه شعبيا « فصل الحق » (*) أى التحدث فى « المهر » .

« ومهر » كلمة عربيـة أطلقها اجدادنا الكنعانيون القـدماء باسـم « موهار » للمبلغ الذى يقـدمه الرجل لكى يشترى امرأته سـواء أكان لوالدها أم لرأس القبيلة (١) .

ومازالت بعض سكان القرى الفلسطينية يمارسون هذه العادة ربما من واقع ترسبات الماضى السحيقة عندما يقولون بمثلهم الشعبى .

١٢٧٣ ـ العرايس بلايص .

وذلك بأن يأخذ والد العروس « مهر » ابنته كاملا للتصرف به كما يشـاء طالبين من « العريس أن يقوم « بملأ القفة » تعبيرا عن كساء العروسة وأهلها وأقاربها بعد ذلك .

أما فى المدن الفلسطينية فنجد وبعد اجتماع الرجال من الطرفين (العريس والعروس) . يطلب والد العريس من والد العروس بعـد ديباجة من الأول يقوم فيها بالتعبير عن محبته واحترامه للتقرب منهـم

(*) فصل الحق / تعنى وباسلوب مهذب ويوحى من المعنى للكلمة ان يفصل اب العروسة فى حق ابنته الشرعى من المهر .

(١) أحمد رشدى صالح ـ الأدب الشعبى ـ المرجع السابق ص ٢٢٧ .

وتشرفه بمصاهرتهم ان « يفصل فى حق ابنته فيحاول فى تلك اللحظة احد الجالسين فى التدخل السريع مذكرا بالمثل الشعبى القائل :

١٢٧٤ ـ ما حق الا حق المعيشة .

وكأنه بذلك يحاول سلفا حث أهل العروس ووالدها بالذات ان يخفف من مهر ابنته مذكرا اياه ومن خلال مفهوم المثل أن الحياة والحق هو حق المعيشة فى أن تعيش ابنته حياة هادئة وادعة وليست حق المال الزائل .

يقوم بعد ذلك والد العروس بتفصيل حق ابنته (مهرها) تحت ثلاث بنود رئيسية وهى « المتقدم » أى المعجل وهو المبلغ الذى يدفع فورا ثم « المتأخر » أى المؤجل دفعه عند الخلاف ثم « عفش البيت » أى أثاث المنزل وهنا اما أن يقوموا بتحديد أنواعه ومواصفاته وتسجيلها أو ذكر قيمة هذا الأثاث نقدا . ففى الماضى القريب كان يتبع تسجيل وحدات الأثاث أما الآن ففى الغالب الأعم ما يسجل قيمته النقدية فقط .

وهناك من يضيفون لهذه البنود الثلاثة بندا أساسيا رابعا وهو أن يسجل العريس « قطعة أرض » باسم « العروس زيادة » على ما سبق وهذا التقليد متبع عند أهالى قرية جباليا شمال مدينة غزة . حيث تتفاوت مساحة الأرض هذه بتفاوت الحالة الاجتماعية والاقتصادية لكليهما كوسيلة عندهم ناجعة لتجذير حالة الزوجية بالأرض وتثبيتها وصعوبة الفكاك منها .

ويتركز نقاش الطرفين بعد ذكر المهر على « المتقدم » الذى سيدفع فورا وكتقليد متبع يطلب والد العروس مبلغا مضاعفا عما ينوى أخذه بالفعل وعن المألوف عادة . فيتقبله الجميع بصدر رحب مؤيدينه ومؤكدين له بأسلوب ينم عن المجاملة ورفعة شأن البنت بأن ما يطلبه هذا قليل وهى أغلى من ذلك ومن كل الأموال .

وهنا ينبرى احد الجالسين ليطلب من والد العروس أن يخصم من هذا المبلغ قدرا لله فيستجيب له فورا بانقاصه ثم يستدرجه بالخصم من أجل رسول الله وهكذا للصحابة ثم للشيخ فلان .. وأخيرا للضيوف الجالسين حتى يستقر لمبلغ ان رأوه كبيرا طلبوا المزيد ، وان أصر على طلبه ، قاموا بتذكيره بمثلهم القائل :

١٢٧٥ ـ اللى بدو يصاهر ما بقاهر .

فلا داعى لقهر الناس بطلب الكثير ان كانت النية صادقة فى مصاهرتهم . انه العرف والتقليد المثل الشعبى الأصيل الطيب ، ويفسرونه باسلوب أكثر توضيحا وبوساطة المثل التحذيرى وليضعوه موضع الحرج قائلين :

١٢٧٦ ـ بدك تطرد صهرك غلى مهرك .

فاذا ما أصر على موقفه متعللا بالظروف المادية السائدة وبمثله الشعبى المساند والقائل :

١٢٧٧ ـ اللى بحط فلوسه بنت السلطان عروسه .

عندها يحتدم النقاش وينبرى كل فرد بحشد طاقته وقوته فى سبيل اقناع والد العروس بتعديل مطلبه وموقفه ، فاذا ما فشلوا ، اختتم الرجل الحديث بمثله الشعبى .

١٢٧٨ ـ خلى السمن فى جراره تيجى أسعاره .

تلميحا لهم بأن كل شىء يبقى على حاله حتى تأتيه الفرصة المواتية .

أما اذا حدث العكس ووافق والد العروس بعد المحاورات العديدة ، عندها يتوجه لوالد العريس قائلا :

١٢٧٩ ـ مقدمه الك هدية ما من وراها جزية .

ليبارك الجميع فرحين بما حدث ، وليقدم بعدها والد العريس المهر (المتقدم) الذى يوضع فى منديل معطر ويسلمه لوالد العروس الذى يقوم بدوره بتسليمه لزوجته كاملا حتى يتسنى لها أن تشترى بمشاركة أهل العريس ما تحتاج اليه العروسة من كساء وأدوات للزينة وأهمها الذهب الذى يستأثر فى الغالب بنصيب الأسد من جملة المهر تحسبا فى يقينهم للزمن .

ويبدأ أهل العريس لهذه المناسبة باقامة الأفراح ثلاثة أيام متوالية ، ليبدأوا بعدها بشراء جهاز العروسة فيما يسمونه شعبيا « قطع الشروط» بمصاحبة أهل العروس ، فيقضون أياما عديدة يتحولون فى الأسواق ، عائدين الى البيت وقد تجمعت حولهن النسوة لمشاهدة ما يشترونه

متحدثات عن أثمانها ونوعيتها وجودتها وأكثر ما يدور على السنتهن متلهن الشعبى :

١٢٨٠ ـ يا محلى العرس ويا مصعب طقاطيقه ·

ليدللوا بذلك على غلاء الأسعار وكثرة ما اشترين من أشياء لم يدر فى خلدهم لها حساب ، وما أن ينتهوا من ذلك حتى يقوموا بتحديد موعد الزواج الذى غالبا ما يسبقه « عقد القران » والذى يطلق عليه الشعب الفلسطينى « الملاك » حيث يقوم الشيخ بكتب الكتاب وتحرير عقد الزواج الذى يطلق عليه شعبيا « اذن النعمة » ·

هكذا تكون « أم العروس » قد بلغت حدا من « التعب والانشغال فى احضار وتحضير وتجهيز ما يلزم ابنتها العروسة حتى تراها كالفراشة الطائرة فى حركة دائبة ذهابا وايابا تريد أن تجلب كل ماعز وغلا من الأسواق لابنتها حتى أضحت مضربا للمثل الشعبى القائل :

١٢٨١ ـ زى ام العروس فاضية مشتغله ·

وأكثر ما يقال يوم حفل الزواج ، فجميع الأعمال تكون منوطة بأهل العريس وأم العروس مشغولة بل وغارقة بفكرها قلقة على ابنتها وعلى الترتيبات فهى لا تعمل شيئا لكنها مشغولة ·

١٢٨٢ ـ زواج البدل ·

هذا النوع من الزواج كان شائعا فى فترات الفقر المدقع فيتزوج العريسان كل شقيقة الآخر، وذلك بأن يقوم كل فرد بكساء أخته ، وأحيانا يقدمون مهرا رمزيا وفق قدراتهم المادية ولمثل هذه النوع من الزواج قالوا :

١٢٨٣ ـ البدل قلة عدل ·

أى قلة بخت ، نظرا لاضطراب الحالة الزوجية باستمرار ، فبمجرد الاختلاف مع احداهما يعنى الاختلاف مع الأخرى حتى ولو كانت فى عيشة رضية ·

مواعيد العرس

تحدد البيئة الجغرافية الطبيعية مواعيد الأفراح عند الشعب الفلسطينى الذى يمارس معظمه فلاحة الأرض أو يزاولون حرفا أخرى داخل مدنه ·

فأيام أفراحهم خاصة « الأعراس » تصل ذروتها كما وكيفا فى شهرى تموز وآب [يوليه ـ أغسطس] · حيث يكون موسم الحصاد قد انتهى واستفاد الفلاح من فلحته وبدأ موسم الفواكه ·

فالصيف والحالة هذه · راحة من العناء والكد وثمرة نقدية يجنيها من فلاحته السنوية · بالاضافة لميزات طقس الصيف ولياليه المنعشة الرحبة للأفراح وانطلاقاتها واصفين أيامه بمثلهم :

١٢٨٤ ـ بساط الصيف واسع ·

ويتهكمون مستهزئين بمن يحاول جعل أيام عرسه فى فصل الشتاء متهميه بالجنون على حد تعبير مثلهم :

١٢٨٥ ـ عرس المجانين فى الكوانين ·

لأن هذين الشهرين (كانون أول وكانون ثانى) أى ديسمبر ويناير من العام يمثلان أوج الشتاء مطرا وبرودة (١) ·

فكثيرا ما يعد الفلاح ولده بالزواج اذا ما آتاه الله بمحصول مجز كما يقول أهل الجنوب الفلسطينى من سكان جنوب غزة وخان يونس ورفح :

---

(١) سليم المبيض ـ الجغرافيا الفلكلورية للأمثال الشعبية الفلسطينية ـ المرجع السابق ص ١٤٥ ـ ١٥٢ ·

١٢٨٦ ـ ان لوزت جوزت .

لسـيادة مزارع فى أراضيهم ، مستغلين موسـم جنيهـا اذا اتت بلوز وفير (لوزت) فى شهر تموز (يوليو) ، لاقامة أفراحهم وأعراسهم . فهى الغلة النقدية شبه الوحيدة فى هذه المناطق منذ زمن غير بعيـد .

وعند تحديد أيام « العرس » يحاولون الاسراع وبقدر الامكان فى تقريب موعده خوفا من المفاجآت المباغتـــة التى قد تصيب أى فرد من العائلة أو القرية فيحثون على التعجيل بقولهم :

١٢٨٧ ـ الفرح خطف .

حفاظا وتعبيرا عما يسود أهل القرية والمدينة من وئام وقربى ، فكثير مـن قرانا ما تتالف من أسر يعـودون لحمولة أو لثـلاث حمائـل يربطها النسب .

أما اذا داهم احداها ضر أو مكروه بعد اعلان موعد العرس تجدهم هبوا مسرعين لأهل العرس قائلين :

١٢٨٨ ـ عرسكم سابق .

أى استمروا فى أفراحكم لأنكم سباقون فى تحديد موعد عرسكم .

فان استمروا تجدهم أما ابتعدوا عن منزل المصاب لاقامة أفراحهم فى مكان قصى لايسمعهم أحـــد ، وان بقوا لأســـباب قاهرة وخففوا من مظاهر البهجة والفرح ، مشاركة وجدانية منهم للآخرين ومتبعين القاعدة المثلية الشعبية .

١٢٨٩ ـ العتب دوم والفرح يوم .

فعدم المشاركة فى المآسى لاينسى ويبقى الانسان المقصر فى نظر المجتمع الشعبى الفلسطينى محلا للعتب والمعاتبة المستمرة والدائمة فى حين لا يقع عليه مثل هذا اللوم الدائم لو لم يحضر أو يشارك فى الأفراح الا ليوم واحد فقط هو : يوم الفرح .

يوم الحنة « النقش »

قبل العرس بيومين يرسل اهل العريس « الحنة » والصابون لمنزل العروسة . فتقوم سيدة تدعى « النقاشة » وأحيانا يسمونها « الماشطة » حيث يتم نقش العروسة « وذلك باحضار بوتقة » صغيرة يذاب بها قليل من الشمع على النار الهادئة يوضع بها « مرود » أو عود رأســه حاد تقوم بغمسه فى البوتقة وتخط بها على يدى العروسة ثم تخضبها بالحناء وتلفان بقطعة قماش لفترة زمنيـة ، لتفك وتغسـل فتبدوان حمراوين بعد ذلك .

ولكى تزداد الأكف جمالا تقوم « النقاشة » بغمس كفيهـا بالشيد « الجير المطفأ » لتزداد حمرة حتى تصل لدرجة السواد نوعا ما ، وعندها يفتخرون بها قائلين :

١٢٩٠ ـ أصابعها زى الرطب .

تشبها بلون هذه الفاكهة اللذيذة . تحيطهـا العديد من أهلهـا وأقاربها من البنات والسيدات يتغنون بأهازيج فرش ونقش الحنة بأيدى العروسة وشعرها وقدميها فيطلقون أغانيهم وأهازيجهم :

مـن ويـن جبت الحنـه يـا عـريس يـا جـدع
من كل عطـار شـويه تفرينـا (١) السـبع (٣)

---

(٢) تفرينا : أى حتى .. فان حرف ت اذا افتتح بفعل فيعنى باللهجـــة الدارجـة ـ حتى ـ .

(٣) السبع : مدينة بئر السبع عاصمة النقب الفلسطينى .

من وين جبت الحنه   يا عريس يا امير
من كل عطار شويه   تفرينا الخليل (٤)

من وين جبت الحنه   يا عريس يا بهلول .
من كل عطار شويه   تفرينا اسطنبول .

حول قومى يا عروسه   فرشه مرقومه تحتيكى
حول هزى يا عروسه   فرشه من غزة تحتيكى .

ومن أهازيج ليلة الحناء يغنون :

حناك هيلة بهيلة   وانقوشك هادا كله
والى اخدك يا سعد   والى دشر يا دله

حناك هيله بهيله   وانقوشك ملاه الفنجان
والى اخدك يا سعد   والى دشر يا ندمان

قومى تنحطب يا عروس   قومى تنحطب يا هى
حناك مرطب فى ايديك   حناك مرطب (٥) يا هى

قومى تنملى يا عروس   قومى تنملى يا هى
حناك محلى فى ايديك   حناك محلى يا هى

تظهر هذه الأهزوجة مقدار ما بذله العريس من جهد متجولا فى أسواق المدن الفلسطينية وحتى مدينة أسطنبول العاصمة العثمانية كناية عن اخلاصه وتقديره لعروسه .

فى الوقت الذى تتغزل الأهزوجة الثانية بلون الحنة فى أيدى « العروسة » التى تشبه « الرطب » كما قال المثل الشعبى السابق ، ويحثونها على الخروج معهم للتحطيب وجلب الماء ليرى الأهل جمال كفيها وحلاوتهما .

(٤) الخليل : مدينة أبينا ابراهيم الخليل .
(٥) مرطب : اى يشبه الرطب المتميز باللون الأحمر المشرب بالسمرة .

الحمام والزفة

وبعد يوم « النقوش » بيوم واحد يقوم الجميع بحجز « الحمام » لأهل العروس والعريس للاستحمام ، ليبدأ أهل العروس وأصدقاؤها بالاستحمام ، ليتلوهم أهل العريس وأصدقاؤه .

وداخل الحمام تزغرد النساء وتغنى للعروس كيوم من أيام العرس المشهودة وقد جلبن معهن الأكل والشراب . وجميع النساء مهتمات بالعروس حتى يصفوها بمثلهم الشعبى القائل :

١٢٩١ ـ صيدرك بلاط حمام .

مدحا لنظافتها ، وأحيانا يأخذونها للبحر للاستحمام وذلك بقصد ازالة ما يعتقدون بأن آخرين قد عملوا لها « عمل » فيزول بمجرد إستحمامها فيه ، وان تعذر ذهابها أحضروا لها كمية من ماء البحر ورشوها عليها .

كذلك العريس يخرج « بزفة » من الحمام وقد التف حوله أهله وأصدقاؤه .

وبعد ذلك يأتى يوم الزفاف .

بالنسبة للعريس تبدأ « الزفة » من جامع القرية أو المدينة بعد صلاة العشاء (فى غزة) ، أو من بيت أحد الأقارب وذلك بعد قراءة قصة المولد النبوى الشريف وبعدها يقدم لهم شراب الليمون .

وتأخذ الزفة طريقها الى بيت العريس وفى أثنائها يقاطعه بعض الأصدقاء والأهل ليقولوا بعض المواويل والأهازيج منها عند الوقوف وأخرى عند السير ، كل يؤدى وفق وقع الخطوات .

وعند وصوله للبيت يقوم أحد أقاربه بحمله ويدخل به البيت فى حين يلوح العريس بكلتا يديه لاصـدقائه والذين شاركوا فى « زفته » تعبيرا عن شكره وامتنانه وكذا وداعه لهم فى الوقت الذى تكون فيه النساء قد خرجن بالقرب من الباب ينثرون الملح فوق الناس منعا للحسد اما بالنسبة للعروسة ، فقد كانت تخرج من بيت والدها بعد دفع مبلغ من المال يطلقون عليه شعبيا « الاستفكاك » .

وبعض العرائس كانت تزف تحت مظلة يطلق عليها « الجبلك » ، عبارة عن قطعة من القماش تأخذ شـكل المربع أو المستطيل تتـدلى من جنباتها بشاكير ملونة ، يقوم برفعها بوساطة أربعة أعمدة شباب أهلها أو من أهل العريس .

وأحيانا تسـير زفة العروس وهى تسير أسفل سيفين متقاطعين تحمله امرأتان وهما تسيران عن يمينها ويسارها . وسط حشـد من النساء يغنون بأهازيجهن التى تصف العروسة وتشيد بأهلهـا ونسبها وحسبها ، تحرسهن رجال من أهل العريس وكذا العروس والاهتمام بخروج الرجال أمر ضرورى تفرضه الأعراف والعادات العائلية فيقال :

١٢٩٢ ــ الل ما بيطلع مع العروسة ما بلحقهاش .

فالخروج معها رمز للمباهاة وتقدير لمكانة الأسرة ومظهر من مظاهر هيبتها وعليه كان الامتناع عن الخروج مع العروسة لا يعوضه اللحاق بها بعد ذلك .

وعندما يصل ركب العروسة لباب عريسها تستقبلها أقارب العريس وعلى رأسهن أمه وهناك اما يفلقون فى وجههـا رغيفا ويطعمونها كسرة منه ، أو وضع بيضة أسفل قدميها لتدوسها ، وأحيانا يرشون أسفل قدميها بالماء ويواصلون ذلك حتى تصل لغرفتها داخل البيت بعد أن تكون قد شربت منها قليلا .

أما فى القرى فيقدمون لها عند دخولهـا البيت عجينة وباقة من الريحان الأخضر لتقوم العروسة بلصقها على باب غرفتها عند وصولها لها ، حتى يتفاءلوا بها وتظل على حد تعبير قولهم السائر :

١٢٩٣ ــ كعبها اخضر .

فهم يؤمنـون بالمثل القائل والذى سـبق ذكره (كعـاب وأعتاب ونواصى » . ومنعا للحسد يقومون أيضا بنثر الملح فوق رؤوس المدعوات

من النساء تمـاما كما كان الحال عند زفة العريس ، وفى كل وقت تشتد فيه الفرحة أو البهجة وكذا عند اطلالة العريس أو العروس منعا للحسد وعليه كان للملح مكانة خاصة عند الشعب الفلسطينى ، تظهر فى مثلهم الشعبى القائل .

١٢٩٤ ــ كب القمح ولا تكب الملح .

لقيمة الملح الفائقة عندهم ، وقد لاحظ الدارسون الفلكلوريون قيمة هذه المادة وخصوها بدراسـتهم ، وقد أثبت العلم الذى عضد اعتقاد العامة أن الملح خامس مادة بين مائة وخمسين مادة أساسية تدخل الصناعة بعد الماء والهواء والفحم والكبريت (٦) .

---

(٦) أحمد رشدى صالح ــ الأدب الشعبى ، المرجع السابق ص ١٨٥ .

الجلـوة

يصل الفرح ذروته ليلة « الجلوة » حيث كان يجلس العريس والعروسة تفصل بينهما مسافة ليست بالقليلة • وسط حشد من النساء يتجمعن من كل صوب وحدب سواء من أحياء المدينة أو القرية •

وتحاول كل واحدة أن تشارك أهل العروسة وخاصة أهل العريس فرحتهم اما بالزغاريد أو « المهاهاة » • وهنـا تظهر كل امرأة مقدرتها الابداعية التى كثيرا ما ترتجل هذه « المهاهاة » التى هى أشبه بالمواويل عند الرجال •

وتبدأ الجلوة عادة بما يسمى « التبريزة » (*) • وبعدها تبدأ « الجلوة » التى تتألف فى العادة من سبعة فصول ، كل فصل يسمى شعبيا « خلعه » فى كل « خلعة » (**) تقوم العروس بتبديل ثيابها لتلبس ثوبا آخر بلون جديد ولكل « خلعة » أو ثوب جديد أغنية مناسبة له •

فأولها البدلة البيضاء (الخلعة البيضاء) ثم الخلعة الثانية بالبدلة الزهر فالثالثة بالبدلة الصفراء والرابعة بالزرقاء والخامسة تظهر بالبدلة الليلكى والسادسة البدوية المطرزة « البدوى » بالبدلة السمراء وأخيرا السابعة بالبدلة البيضاء •

ويرافق كل « خلعة » طقوسها الخاصة بها •

وفى أثناء الجلوة هذه وفى خضم تبديل الملابس بألوانها الجذابة

(*) التبريزة : من برز اى ظهر لاول مرة حيث يضربون الدفوف فوق رأسها • وهم ينشدون ما يشبه التواشيح ••

(**) خلعة : من خلع الثوب •

واسلوب حياكتها كثيرا ما تتعرض « العروسة » للنقد حيث هى الشغل الشاغل لجميع النساء فمنهن من ترى العروسة فى كامل جمالها وأبهتها وكأنها لم تـرها من قبل أو هكذا تدعى فمن عاداتهم ألا تأخذ البنت زينتها الا عند الزواج ، فلا عجب ان تبدو فى أعين الجميع بفتنتها الأخاذة ولأول مرة غير تلك التى اعتادوا رؤيتها ••

ولا يؤرق أهل العريس والعروس فى ليلة زفافها الا — ابن العم — ان سبق له طلبها ورفض ، فيرددون عندها المثل القائل :

١٢٩٥ — البنت فى مجلاها ما بتعرف مين بتولاها •

ومن أوضح ملامح « الجلوة » من النساء تلك « العجائز » اللواتى يملكن اصرارا غريبا على الحضور رغم تهكم الصغيرات من النساء والفتيات وقد ميزهن المثل الشعبى فى هذه الليلة بخاصيتين قائلا :

١٢٩٦ — زى عجايز الفرح أكل ونقورة •

فالأكل بالنسبة لهن معروف ، أما « النقورة » فتتمثل فى الحديث اللاذع والنقد الصارخ ، وعقد المقارنات بينهن وبين « بنـات اليوم » فى نظرهن فتبدأن نقدهن الذى قد يصل حد السخرية بالعروسة ، وحتى أقرب الجالسات بجوارهن • فاحداهن تنظر للعروسة قائلة :

١٢٩٧ — زوق البوصة بتصير عروسة •

وكأن « الزواق » فى نظرهم مسئول عن اضفاء الجمال عليها • أما اذا كانت رفيعة القد وهذا مالا يعشقه ولا يقبله الذوق الشعبى العام من النساء خاصة « العجائز » منهن فيقولون :

١٢٩٨ — لبس البوصة بتصير عروسة •

١٢٩٩ — لبس المكنسا بتصير ست النسا •

وكأن الملابس قد سترت ضعفها ونحولتها وكسـتها بحـلة أبانت جمالها •

وفى غمرة النقد الموجهة للعروسة سـواء من جانب العجائز أو الأخريات من النساء يتصدى لهن بعض الأقارب من أهل العروسـة

مما يضطر الطرف الناقد لمحاولة انهاء النقاش بمثل شعبى يرون فيه حجة لاثبات دعواهم واسكاتا للآخرين فيقولون :

١٣٠٠ ـ مين يشهد مع العروسة امها وخالتها وعشرة من جارتها ؟!!

وفى معمعة « الجلوة » تجد أم العروس جالسة فى الغالب بجوارها يلفها السكون والهدوء فليس لها من دور سوى النظر بعين فاحصة مدققة تجاه ابنتها يغلفهـا العطف والحب ، متمنية لها كل توفيق وسعادة ، وعلى العكس من ذلك فام العريس التى تفيض فرحا وحركة بصـورة لا تهدأ على حال ، متنقلة كالفراشة من ركن لآخر لسبب وغير سـبب أما شباب « الحارة » فى تلك الليلة فهم بدورهم وبعـد الزفة لا يهدأون على حال خاصة لو كانت « العروسة » جميلة ، فيغنى الجميع ببيت هو أشبه ما يكون بالمثل الشعبى الدارج يرددونه فى مثل هذه المناسـبة قائلين :

١٣٠١ ـ ليلتك يا سارة باتوا الشباب فى الحارة .

فرحا وابتهاجا على صوت الأغانى والزغاريد وحمـاية لما قد يحدث من مفاجآت لأهل الفرح وتضامنا معهم .

وما أن تنتهى « الجلوة » حتى تنفض النســاء وقد أفضين بما اختزنته صدورهن طيلة ليليتهن من مدح أو قدح فى العروس وغالبا ما يسود سلبياتها فى نظرهن حتى لو فاضت العروس جمـالا قلن قولتهن السـائرة :

١٣٠٢ ـ كتف أعلى من كتف .

وتستمر أصواتهن تملأ شوارع الحارات والأزقة بعد منتصف الليل حتى تصل كل أنثى لبيتها . لتنتهى ليلة جميلة من ليالى أفراح المدينة وقد أنهينها صائحات لبعضهن بمثل شعبى تهكمى فكاهى :

١٣٠٣ ـ العروسة للعريس والفرجة للمتاعيس .

١٣٠٤ ـ العريس أخد العروس روحوا يا امات لفـ ٠٠٠٠ !

وهكذا ينتهى يـوم من العمر فى حيـاة العروسـين ، لا تنتهى أحداثه المسجلة فى خلديهما ، كما لا تغيب عن بالهما ذكراه ، ولم يبق

(*) باتوا : هنا بمعنى ناموا فى الحارة ..

لهما فى عرف الأفراح الا مناسبتان تعيد لهما ذكريات العرس ، الأولى هى ما يطلق عليه « الأسـبوع » حيث يقام لها « فرح » بعد أسبوع من ليلة الجلوة ، والثانية عند « الافراد » أى تنفرد العروسة مدة أيام محدودة فى بيت والدها بعيدة عن عريسها . ويتفاوت زمن الافراد ، بعد ليلة الجلوة وفقا لرغبة العريس وأهله والتى قد تبدأ بعد بضعة شـهور ، والبعض كان لايسمح لها « بالافراد » الا بعد انجابهـا المولود الاول . واذا حل العرس قبل العيدين (عيد الفطر وعيد الأضحى) وجب على العروس أن تأخذ كامل زينتها فى هذين العيدين لاستقبال اهالى الحى والأقارب للتفرج عليها . والكل يتمنى لها الأمنية التى تجرى على السنتهم وكانها مثل شعبى أو قول سائر لايتبدل بدعائهم قائلين :

١٣٠٥ ـ يسبقك بالمال وتسبقيه بالعيال .

لتنخرط بعدها فى جو الأسرة المركبـة ، وتأخذ دورها فى تدبير شئون المنزل كعضو فاعل آخذة فى حسبانها مكانة حميها اب زوجهـا (عمها) وأمه « الحماة » وزوجها فى المقام الأول من التقدير والاحترام وكسب مودتهم ، تليهم علاقتها مع اخوته واخواته وزوجاتهم « السلفات » ومحورها فى الغالب قائم على توزيع العمل المنزلى كما وكيفا . ومن هنا تبدأ المشاكل مع السلفـات تارة ، ومع « الحماة » تارة أخـرى ولا تنسى أن الجميع من الأهل والأصدقاء يتوافدون لبيت العروسـين لتقديم التهانى لهما ومن تأخر عنهما قال :

١٣٠٦ ـ الهنا لسنه .

وقد أجملوا بأقوالهم المأثورة عدة مناسبات مع بعضها فيقولون :

١٣٠٧ ـ الهنا لسنه والنفسا (*) للاربعين .

ويحـاول الجميع أن يأخذوا معهـم « النقوط » لتقديمه للعروسين خاصـة لو كان أهل العريس أو العروس قد سـبقوا بالتقديم ، لأن فى نظرهم :

١٣٠٨ ـ رد الجبا غالى .

(*) النفسا : هى المرأة بعد الولادة لمدة اربعين يوما .

الفصل الخامس والعشرون

- الأسرة الممتـدة .
- الحماة ـ الكنة ـ السلفات .
- الحردانة « المعول » .
- الحمل والولادة .
- المرضعة والتربية .
- الطـلاق .
- تعدد الزوجات .

الأسرة الممتدة « المركبة »

تعيش الأسرة الفلسطينية على امتداد رقعتها الجغرافية مساحة واختلاف نمط حياتها المدنى منها والقروى ومعهما البادية تركيبتها القبلية والأبوية فى غالبيتهم الساحقة حتى فترة وجيزة من الزمن ٠ حيث الأب والأم وأبناؤهم المتزوجون وربما أبناء أبنائهم وزوجاتهم ٠ توحدهم طاعة الوالدين وتقديرهم ومحبتهم لها ورثوها عن أجدادهم الكنعانيين الذين كان للأب عندهم سلطة قوية ومكانة رفيعة يعتقدون بتأثير رضاء وغضبه عليهم ويملك الحق فى أن يزوج أولاده أم لا (١) ٠

وقد عزز الاسلام ورسخ طاعة الوالدين واعتبرها من طاعة الله ٠ وترجمها الشعب بمثله الشعبى القائل :

١٣٠٩ ــ رضا الأب من رضا الرب ٠

وأكد التراث الشعبى بمثله وقيمه على احترام الأب وتقديره مهما بلغت مكانته الاجتماعية قائلا :

١٣١٠ ــ احترم أبوك لو كان صعلوك ٠

بل ودفعه لافتداء والديه لو ضاقت بهم الحياة بما يعتورها من مشاكل وأمراض ربما يتعرضون لها ، فحضتهم التجربة المثلية المعطاة على التضحية بالمال وبكل ما يملكون ، قائلا :

---

(١) مصطفى الدباغ ــ بلادنا فلسطين ــ ج ١ ، المرجع السابق ص ٤٩٣ ٠

١٣١١ – حط فلوسك فى تمك واشترى أبوك وامك .

وقد بلغ حب الوالدين والسعى لرضاهم لدى الأسرة الفلسطينية مبلغا فى أفئدتهم وصـل معـه طلب الأبناء رضاءهم وهم فى القبور بين يدى الله ، قائلين :

١٣١٢ – يا الله ارضاهم فى بلاهم .

فما بالك والآباء يعيشـون على وجه الأرض وهم أحيـاء !!

ويترك بعد ذلك المثـل الشعبى فسـحة لظروف شـاذة لأولئك البعض من ذوى العقول ليدلل عليها بطرف ادب خفى جاعلا للبخت فى حبهم نصيبا قائلا :

١٣١٣ – محبة الوالدين بخوت .

بهذه المـبادىء المثلية ذات العطاء القولى النبيل وليدة التراث الاسلامى الأجل بكتابه الكريم تاصل حب الوالدين فى قلوب أبناء الأسرة الفلسطينية فمنحتهم السلطة الأبوية المطاعة التى أمسكت وأدارت أبناء هذه الأسرة المركبـة والمتعددة على اختـلاف أعمارهم وفئاتهم ومن ثم مشاكلهم وظروفهم النفسية . الا أن هذه المشـاكل تتمحـور وتتركز حول « الأم » الكبيرة وفقا لمفاهيم التراث الشعبى وهى « الحماة » وبين زوجة الابن « الكنه » أو زوجات الأبناء ، وكذا المشاكل والمشاحنـات التى تحدث بين زوجات الأخوة فيما بينهن « السلفات » وهن جميعا مع « حماتهن » أم أزواجهن .

تلك المشادات التى غالبـا ما تفور محليـا وتزمجر داخليا بين جنبات البيت الكبير . ولسنا الآن بازاء دراستها دراسة تحليلية علمية بقدر ما ترشدنا اليه وتشير به علينا تجاربنا الشعبية ممثلة بأمثالنا .

فهناك قاعدة شعبية تؤكد الى حد كبير صورة الخلاف شبه المحتدم بين « الحماة » وزوجات أبنائها تقول من خلال مثلها الشعبى :

١٣١٤ – مكتوب على ورق الجنه عمر حماة ما حبت كنه .

ويكشف المثل الشعبى صاحب الخبرة والتجربة الطويلة بأن :

١٣١٥ – اردى الحموات العمات والخالات .

وربما كان مرد ذلك يعود لشدة القربى وصلة الدم التى تمنحها قدرة وجراة أكثر من الحماة العمة على معاملة ابنة أخيها التى هى زوجة ابنها وكذا الحماة الخالة ، ولشدة الاحتكاك بينهما ودراية الحماة العمة أو الخالة بمعظم شئون بنت أخيها أو اختها مما يمنحها ليونة التصرف والجراة فى تقويم سلوك وتصرفات زوجة ابنها مما يدفع ذلك لنوع من الخلاف شبه المستمر الذى أفرز هذه التجربة المثلية .

وعلى أية حـال تبقى قضية « الحماة » محاطة داخل هالة غير محببة وسط الأسرة المركبة ولكن لا يعنى هذا بصفة مطلقة لكنها تستحوذ على أفئدة الغالبية الشعبية . ولعل الأحكام المثلية الشعبية المسبقة مسئولة الى حد ما عن تكوين مثل هذه العلاقة النفسية القائمة التى توردها هذه المحاورة بين العروسة وحماتهـا منذ اللحظة الأولى التى تطأ فيها قدماها عتبة باب الزوجية فتستقبلها الحماة قائلة :

الله

فترد العروسة :

الله جارك حية زعره عبرت دارك .

أخذت ماربيتى وأطلعتك من بيتك

وقالتلك هآدا بيتى .

وعلى الرغم من هذا التطاول من قبل العروسة فانها اشتكت فورا لعريسها من أمه قائلة :

وحياة شواربك والمقصوص (*)

كلمة امك فى قلبى بتحوس

فرد عليها العريس :

وحياة حنتك وسوارك .

ما أخلى أمى تنام فى دارك .

(*) المقصوص : شعرها المجدول « الجدايل » والذى يطلق عليها الشعب الفلسطينى « عقوص » .

محاورة جدليـة ساخنة تكشف عن سوء النيات المبيتة بين الحماة والكنة أظهر فيها العريس تحيزه التام لعروسته ، وهذا النوع يزدريه ويحط من قدره ، عامة الشعب ويكون موضـع استهزاء وتهكم فيلقبونه باسم زوجته « جوز فلانة » وينعتونه بألفاظ تنم عن تحكم امرأته وفرض سيطرتها عليه ·

وبيقى السؤال ملحا لماذا هذه العلاقة المشحونة التى يشوبها التوتر والمشاحنة الغاضبة بين الحماة والكنه ؟

ودعنا نسمع الاجابة من وجهة نظر الحماة التى تفضى بما يعتمل فى صدرها حيال هذه التجربة عبر المثل الشعبى التى يجىء على لسانها قائلة وبحنق :

١٣١٦ ـ بطنى حمل وايدى ربين وبنات الكلبات عنى تبدن ·

اذن هذه أول الأسباب ، تكشف عنها الأم الحماة ، فقد حملت ابنها فى بطنها شهورا تسعة ، وربته على يديها سنين طوالا ، لتأتى بعد ذلك « البنت » زوجة ابنها لتخطفه منها وتتبدى عنها ، !! انه أمر لايطاق على حد تعبيرها ومثار حنقها وغيظها ، تؤكده ثانية بمثلها القائل :

١٣١٧ ـ ربى يا تاعس للرقد الناعس ·

فالأم تصف نفسها بالتعاسـة عندما قامت بتربية ولدها لهذه الناعسة الراقدة ولهذه الأسباب تنهال الأم الحماة على « الكنه » تقريعا لأقل الهفوات تذكرها فيها الفرق بين ما كانت عليه حالها عند أهلها وما هو عليه حالها فى بيت زوجها قائلة :

١٣١٨ ـ بعد القفه والقفير (*) صار لك طبق وحضير

أى بعد الفقر واستخدامك الأدوات البسيطة أصـبح لك الآن « طبق » من الصينى وبيت له « حضـيرة » أى دور ثان وله « عريشه » رمزا للغنى ·

وتزيدها تقريعا بوضوح لايخرج عن المعنى السابق قائلة :

(*) القفة : وعاء مصنوع من سعف النخيل لها أذنان توضع بها العديد من حاجيات السكان ·

١٣١٩ ـ جبناهم فيران وصاروا تيران ·

فبعد أن كانوا ضعافا كالفئران أصبحوا فى بيتنا ما يشبه الثيران · ويصـل تسلط « الحماة » مداه من الجبروت على « كنتهـا » عنـدما تعاملها معاملة قاسية ، يصوره لنا هذا المثل الشعبى وعلى لسان « الحماة » نفسها قائلة :

١٣٢٠ ـ صحيح ما تكسرى ومكسور ما تاكلى وكولى لما تشبعى ·

انها معادلة مثلية لا يمكن فك رموزها أو حتى فهمها وتطبيقها ، تلك أوامر الحماة التى تأمر فيها « كنتهـا » بألا تكسر رغيفـا سليما ولا تأكل قطعة من الخبز المكسـور وبعدها تأكل كمـا تشـاء وحتى تشبع ... !!! وبذات المعنى تقول لها :

١٣٢١ ـ لوز ما تقشرى وجوز ما تكسرى وكولى لما تشبعى ·

هذا عن الأكل ·· وماذا عن الشرب ؟ وبطبيعة الحال لا يوجد غير الماء شرابا فى البيت · فتبدو المعاملة غير مختلفة حين تأمرها بالقول الشعبى السائر :

١٣٢٢ ـ اشربى من رشح لبريق ·

هكذا ·· ! فالشرب غير مباح من مياه الابريق الفخاري المثلج ، بل مما يفيضه من عملية الرشح الزائدة ·· !!

وتواصل « الحماة » قدحا فى كنتها وكأنها حرب ضروس لا هوادة فيها ، لم لا وقد انتزعت منها أعز ما تملك وهو ابنها قائلة :

١٣٢٣ ـ الوجه وجه حنه والقفا قفا كنه ·

فالكنه وأن كانت ناعمة الملمس والمظهر كالحنة الا أنها غير ذلك جوهرا فقفاها كالكنـة ، وتظـل هذه وجهـة نظر الحمـاة · نوعا من الحموات ·· !! هذا على الرغم من التوصيات المثلية الشعبية التى تحث هذه « الحماة » على اللطف واللين وسعة الصدر تجاه « كنائنها » اللواتى ربما لم تعركهن الحياة بمشاكلها بعد ، قائلة :

١٣٢٤ ـ الكنه بدها كنه (*) ·

أى تحتاج الى الهدوء والصبر من قبل « الحماة » · بل ويستمر

(*) كنه : أى الاستكنان والهدوء والصبر ·

المثل الشعبى ناصحا « للحموات » مذكرا اياهن بان لهن بناتا وربما يعاملن مستقبلا بالمثل قائلا :

١٣٢٥ ـ حبكوا كناينكم تتعيش بنيتكم .

فبمقدار حبكم « لكناينكم » سيحب الآخـرون بناتكم مستقبـلا . فتذكروا أن المعاملة ستكون بالمثل .

وعلى الرغم من ذلك يبدو كان الخلاف متاصـل ولا فكاك منه ، عندما يسال المثل الشعبى « الحماة » قائلا :

١٣٢٦ ـ قالوا يا حماة ماكنتيش كنه ؟! قالت كنت ونسيت .

اصرار من « الحماة » على مواقفها فهى تقر بأنها كانت « كنه » وليست على استعداد ان تتذكر ما كانت تفعله ..

وماذا عن دور « الكنه » نفسها تجاه « حماتها » ؟ يبدو أن الجزاء من نفس العمل ولكل فعل رد فعل ولكنا لا ندرى من هو البادىء . فهاهى « الكنه » تعلنها صريحة بمثلها الشعبى الجارى على لسانها قائلة :

١٣٢٧ ـ الكى بالنار ولا حماتى فى الدار .

بل وتشنها حربا ليست على حماتها فقط بل وعلى بناتها وبنات بناتهـا ، وبذا تكون الكنـة قد وضعت أصابعها على طرف من أسباب المشكلة القائمة بينها وبين حماتهـا ممثلة فى تكوين الأسرة المركبـة ومن ضمنها بناتها اللواتى ربما كن فى سنها فتتضاعف المشاكل لما يحدث بينهن من حساسيات مردها تقارب الآلام والآمال فى السن مع الفارق ، وتعبر عن ذلك بمثلها الشعبى القائل :

١٣٢٨ ـ الحماة حمة وبنتها الحية لسمه وبنت بنتها اللى ما بتتسمى .

وبذات المعنى يقولون :

١٣٢٩ ـ الحماية الحمه وبنتهـا الحيـة اللى ما بتتسمى وبنت بنتهـا العقربة لسمه .

١٣٣٠ ـ الحما ما بتحب الكنه ولو كانت من حور الجنة .

وعليه تفضـح « الكنـه » نياتها بصراحة مع زوجها عندما تحرضه ضد أمه وأخواته لتكشف عن نقـاط ضعفها المتولدة عن الشجار القائم بينها وبين أخواته من خلال المثل الشعبى القائل :

١٣٣١ ـ امك زلومة كمك ، اقطعها وارميهـا ، واختـك الحبيبـة كل الكلام والخيبة فيها ، ومرتك خاتم سليمان تقولك شبيك لبيك طلباتك بين ايديك .

وهكذا فالغيرة أحيانا تمثل الطاقة الكامنة التى تفجرها المقارنة بالآخرين فها هى «الكنه» تذهب مدعوة لأحد الأفراح فتسالها زميلاتها : أين حماتك وسلفاتك ؟! فترد عليهن بأسلوب مغموس بأشياء عدة قائلة :

١٣٣٢ ـ انا زى عود القرفة بسد عن الحماة والسلفة .

ويبقى للمصلح مكان بل وعظـه تطرح على هذه « الكنـه » علهـا تخفف من حدة تعاملها مع « حماتهـا » ، فتذكرها المثل الشعبى ، تماما كما سبق أن لفت انتباه الحماة بقوله :

١٣٣٣ ـ مصيرك يا كنه تصيرى حماة ويحاسبك ربك عما تفعلى .

انذار واضح « للكنه » بأنها ستلقى ذات المعاملة ، وسيحاسبها الله على فعالهـا .

تلك هى قصة الخصام بين « الحماة » والكنة . كما دونتها ورويتها الأمثـال الشعبية لكن القصة لم تنته داخل الأسرة الفلسطينية المركبة . فهناك الاحتكاك المستمر الذى يخلق ومضـات وشرارات بين زوجات الأخوة ويطلق عليهن « السلفات » أى « الكناين » تخلقها ظروف التباين بين الأخوة سواء أكان منها الاقتصادى أم السلوكى مما يخلق واقعا من « الغيرة » التى قد تصل لحد التنافس الداعى أحيانا للخلاف والشجار المتفوق فى حدته لخلاف « الضراير » وأحيانا ، يؤكد ذلك المثل القائل :

١٣٣٤ ـ مركب الضراير سار ومركب السلفات غار .

أى أن حدة الخلاف بين « السلفات » يتفوق على خلاف « الضراير » الذى يرى المثل بأن سفينتهن قد غارت لخلافهن وغرقت وذلك لغيـاب الوفاق والحب فيما بينهن . على حد تعبير المثل القائل :

١٣٣٥ ـ حب السلفة للسلفة زى الطبيخ من غير كلفة .

ويبقى الخلاف بينهن جميعا مضربا للأمثـال فى الوجدان الشعبى الفلسطينى كثيرا ما تستشهد به النساء عند خصامهن بعضهن مع البعض

بعيدا عن جو الأسرة المركبة ، فهاهى امرأة تختلف مع زميلتها ويشتد الخلاف حتى تصرح بمثلها الشعبى القائل :

١٣٣٦ ـ لا حماة ولا سلفة الا داهية مختلفة ٠

ويقال :

١٣٣٧ ـ لا حما ولا ضرة الا سخطه من الله ٠

أى أن عداءها يفوق عداء الحماة والسلفة وحتى الضرر اللواتى يمثلن حد العداء الأقصى داخل المجتمع ٠

أما اذا تفوقت احدى « السلفات » بجمالها وكمال أعمالها وانضباطها وحسن خلقها وآدائها داخل البيت تجد الجميع يمتدحونها بمثلهم الشعبى قائلين :

١٣٣٨ ـ فلانة بورت سلفتها ٠

أى لم يعد لهن فرصة الظهور والتفوق عليها فأضحى حالهن حال البوار داخل البيت ٠٠

الحردانة

قد يتفاقم سوء الخلاف بين الحماة وكناتها بدرجة يعجز الزوج معه لوضع حد لفض المشاكل وقد يتوصل لحل لا ترضى به زوجته ، هذا ان لم يكن هو طرفا فى الخلاف فتقوم الزوجة الشابة عندما بجمع بعض من ملابسها لتضعها داخل ربطة من القماش تحملها فوق رأسها أو تتدلى من يدها « صرة الحردانة » بشكل لا يعجز على أحد من اهل القرية أو الحارة من ادراكها ، ومحاولة حثها واقناعها عن العدول والعودة لبيتها ، الا أنها تصر على مواصلة الذهاب لبيت أبيها مدعية باعتزاز وبسلاحها المثل الشعبى الذى يزيدها قناعة بموقفها قائلة ٠

١٣٣٩ ـ بيت ربانى ما راح وخلانى ٠

وعند وصولها للبيت تقابلها أمها التى غالبا ما تساندها وتناصرها على موقفها وتعضد موقفها بذات معنى ومضمون المثل السابق قائلة لها :

١٣٤٠ ـ بيت رباك ما هرب وخلاك ٠

وتؤجج الأم الموقف فى كثير من الأحوال مبرهنة لابنتها بأنها ليست عبئا فى مكوثها على الأسرة قائلة :

١٣٤١ ـ بحجتك يا بنتى باكل أنا وانت ٠

وتولول الأم تندب حظ ابنتها وفى فمها مثلها القائل :

١٣٤٢ ـ جوزتها تستغنى حالها الشوم ما تغير ٠

واذا صحت الأم لنفسها بعد طول نقاش ومعاتبة مع ابنتها تجدها تهمس فى أذنها وعلى انفراد وعندما يصل بها الغضب مأخذه قائلة :

١٣٤٣ ـ حظك ردى لا تحردى .

فى حين تدافع الزوجة الحردانة « عن نفسها بأنها لا تترك صغيرة ولا كبيرة الا وتقوم بواجبها خير قيام داخل منزل زوجها وأنها صنعت له كل شيء مرددة المثل المدعم لموقفها قائلة :

١٣٤٤ ـ عملت الو (له) بيت وبريق زيت .

فابريق الزيت رمز وعماد البيت الشعبى الفلسطينى فالزيت طعام ودواء واضاءة . وتواصل ادعاءاتها بتقديم له ما لذ وطاب من الطعام الا أن حظها معه عاثر وهذا مالا تستطيع التنبوء به ولا تدرى كيف تقاومه قائلة :

١٣٤٥ ـ حامض وحلو طبخت الك وبرا وجوا فرشت الك ، لكن درب التبانة ما حسبت الك .

وتبقى الزوجة وأمها يجتران الأحداث وتتضاءل الآمال كلما طال اصيال الزوجلهم وهم ينتظرون أو يترقبون وسطاه حتى الليل عندما يوقظهم من أحلام يقظتهم صوت الديك والذى يلقبه عامة الشعب ب « ديك الحردانة » . والذى يصيح غالبا قبيل آذان العشاء معلنا « للحردانة » بأن لا أمل فى حضور أحد سواء زوجها أو غيره لردها . فتقول لها أمها « نامى يا بنيتى » .

أما موقف الزوج ففى الغالب يتخذ جانب الصلابة وعدم الرضوخ اذا ما كان مقتنعا بموقفه ومن سوء تصرف زوجته متحديا بمثله الشعبى :

١٣٤٦ ـ ان طرتى أو هديتى غربال اسكندر وراكى .

واسكندر هذا صانع غرابيل بمدينة غزة ، ومهما علت المرأة فمردها للغربال الذى ينتظرها فى البيت على حد تعبير المثل الشعبى .

ويبدو هذا التحدى واضحا من قصة الزوج الغزى المتزوج من مدينة يافا فأرسل لزوجته « الحردانة » قائلا :

انت فى بلاد النعمه — واحنا فى بلاد البوطى
لما انكى ترضى علينا — دبى فردتكى شموطى

وهكذا يستمر العناد حتى يتدخل ذو القربى والأصدقاء لجمع الشمل واعادة الأمور لنصابها . وهنا يتطرق للذهن سؤال أين الأب

وما دوره ؟ فى الغالب يقف والد الزوجة الحردانة موقف المضاد فيكرم ابنته عند وصولها لفترة وجيزة ليأمرها بعد ذلك بالعودة كما أتت ، أو ينتظر زوجها فيأمرها بمصاحبته بمجرد حضوره والعودة لمنزلها حتى لايمنحها فرصة التعود على مثل هذه المواقف ، واذ لزم حث الزوج ووعظه أخذه على انفراد وتحدث معه . وقد أقنعتها النساء الحكيمات اللواتى لا يعدمهن المجتمع بوساطة مثلهم الشعبى القائل :

١٣٤٧ ـ قعدتى فى اعتابى ولا جميلة احبابى .

فتعود « الحردانة » لبيت زوجها يعتريها شيء من الضمور النفسى ، خاضعة للعرف الشعبى ومنطبقا عليها التجربة المثلية الشعبية القائلة :

١٣٤٨ ـ الحردانة بتطلع قملة وبترجع صبانة .

اما وقد اختلف الزمان الآن عن زمان الآباء والأجداد ، وتطورت الأحوال وتبدلت العلائق الاجتماعية بين الزوج والزوجة فتدخلت بينهما الوسائط المادية فاحتلت مكانة الصدارة وبها أصبح للزوجة قوة مضاعفة ربما دفعت الزوج نفسه لأن يحمل بعضا من ملابسه ويحرد فتبادر الزوجة باقناعه بالعدول عن موقفه .

وهنا يصرخ آباؤنا وقليل من الأجداد الذين منحهم الله عمرا وعايشوا هذه الظروف قائلين :

١٣٤٩ ـ زمان الله يهده الراجل بيحرد والمره بترده .

ومن عاداتنا أن الحردانة لو كانت « حامل » ورزقها الله بمولود « ذكر » فانه يعيدها لأهل بيتها فورا . أما لو مات جنينها لسبب ما فان مسئولية وفاته تتحملها أسرتها كاملة وقد يصل لدفع الدية .

وتخرج التجربة الشعبية بحكمة مثلية من خلال الخلاف القائم داخل الأسرة بقولها :

١٣٥٠ ـ لا تسكن فى دار أهلها فيها ولا تاخد بنت أهلها محاذيها .

فربما سكناك فى بيت أهل زوجتك يزيد الأمور اشتعالا ، وكذا لو كانت الزوجة تسكن بجوار منزل أهلها مما يعمق هوة الخلاف لاطلاعهم فى هذه الأحوال على صغائر الأمور ، وتزداد فرص التدخلات بما يوقظ الشر ويشعله . وعليه كان تنفيذ هذه الحكمة أو الوصفة الشعبية مجلبة للراحة والوئام بين الزوجين .

الحمل والولادة

لا يكاد ينتهى الشهر الأول من الزواج حتى يبـدأ جميع الأهل بالتحرى عن « الحمل » فهى فى حد ذاتها راحة وطمأنينة لأهل الزوجة خاصة وأهل الزوج بصفة أخص فالزوجة ومن ورائها الأهل يرون فيه وفى انجاب الأولاد تمكينا لمكانة ابنتهم وحافزا لتقديرها عند زوجهـا وتقييده بها ، وكان الانجاب أو التكاثر أضحى لها بقاء فى المقام الأول داخل بيتها ووسط المجتمع ثم حفاظا للنوع · على الرغم مما يدعيه المثل الشعبى القائل :

١٣٥١ ـ لولا الغيرة ما حبلت النسوان ·

فاعلان الحمل عند شعبنا له مراسيمه والاحتفاء به شهرا بشهر ولكل أهازيجه وعلى الرغم من هذا الاهتمام الاحصـائى الا أنهم كثيرا ما يفشل عدهم وتعداداتهم فينصحهم المثل الشعبى قائلا :

١٣٥٢ ـ عد البيض فى المقل ولا تعد شهود الحبلى ·

لأن الله وحده يعلم ما بالأرحام ومتى تضع كل والدة ولدها · ويرى المثل أن عد البيض وهو يتلظى فى المقلى أهون من حساب شهور الحمل · حيث تقوم المرأة الحامل بالاستعداد وتفصيل الملابس لمولودها ومن شدة تشوقها للولادة يقولون :

١٣٥٣ ـ قبل ما تحبل حضرت الكمون وقبل ما تلد سمته مأمون ·

وترى بعض النساء فى مناسبة الحمل هذه فرصة لتبيان قوة المرأة البدنية ومدى حفاظها على لياقتها وجمالها · فتقول النساء :

١٣٥٤ ـ لاتشوفها عروسة مجلية شوفها حبلى بكرية ·

وكان الحمل يظهرها على حقيقتهـا فى نظر المثل الشعبى والفكر الشعبى الذى يوضح ذلك أكثر بقوله أيضا :

١٣٥٥ ـ بتبينش لبضاعة الا بعد الحبل والرضاعة ·

لما يعتور البعض من النسـاء بعض ظواهر الحمـل على وجهها وما يصيبها من هزال · وبعدها ينتاب « الحامل » ظاهرة « الوحـم » التى لها العديد من الظاهرات وأخصها أنها تطلب أكل بعض « الحوامض » خاصة فيسجل المثل الشعبى هذه الظاهرة قائلا :

١٣٥٦ ـ وحمانه وبدها رمانه ·

والرمانة هى الحامضة منها لا الحلوة ، ويوظف هذا المثل الشعبى لعديد من المناسبات والمواقف خاصـة لأولئك الانتهازيين الذين يغتنمون الفرص المفتعلة للوصول لما يبغون ·

ومن طريف ما يعتقده به العديد هو الا تحاول الحامل التدقيق فى النظر لبعض الأشياء أو الأشكال أو حتى بعض الأفراد ذوى العيوب البارزة لاعتقادهم بأنها ستنقل للجنين وتظهر عليه ، كذلك محـاولة تلبية كل ما تطلبه المرأة الحامل من أشياء لأكلها خشية أن تظهر على جسم المولود فيما لو تعذر تحقيق رغبتها · وقد كثرت مثل هذه الظاهرات التى تحتاج لدراسة ·

ويأتى يوم الميلاد ، ذلك اليوم المشهود فى حياة كل أفراد العائلة انتظارا لقدوم مولود جديد وبالطبع فافضلية « الولد » تفوق وتتفوق فيما لو كانت المولودة أنثى ، ولا حاجة لنا لذكر الأسباب فقد اتضحت فى الأمثال الشعبية السابقة وستتضح فيما هو لاحق منها ·

أما فى حالة الميلاد فان بشرى قدوم « ولد » يعنى الفرحة التامة للجميع فها هى أم المولود تقول :

لمـا قالو لى ولـد ... اشـتد ضهرى وانسند
ولمـا قالو لى بنيـة ... مالت الحيطة على (٢)

(٢) انظر للمقارنة ـ د· محمد رشدى صالح ـ الأدب الشعبى ـ المرجع السابق ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩ ·

وتؤكد هذه الفرحة الام أكثر بمثلها الشعبى القائل :

١٣٥٧ ـ الولد الو فرحة لو كان قد القمحة ·

فى حين لو كانت المولودة أنثى تقول :

١٣٥٨ ـ البنت الها خمدة لو كانت قد لمخدة ·

وعلى لسان البنت عند ميلادها تقول :

احكى لكم من همى وغمى
يـــوم ولدتنـــى أمـى
حطونـى ع الصينيـــة
والكل صـار يدعى عل

كما أن « الولد » يمنح أمه مزيدا من الاستقرار النفسى والتثبت بقولهم :

١٣٥٩ ـ حطت عجلها ومدت رجلها ·

هكذا تبدو الفرحة الغامرة والمفاضلة الواضـحة للولد عن البنت حتى لو كانت « الوالدة بكرية » أى تلد مولودها الأول · ويكشف المثل الشعبى ذلك بوضوح عندما يفصح قائلا :

١٣٦٠ ـ أم الولد بخير وام البنت بويل ·

١٣٦١ ـ الولد يا حراير شوشته بأربع ضفاير ·

والأسوأ من ذلك لو كان نصيب الأم من الاحترام والتقدير والحب من أهل البيت ضئيلا ، عندئذ تعم الشماتة وتصبح مضربا للمثل الشعبى القائل :

١٣٦٢ ـ مبغوضة وجابت بنت ·

وعلى العكس لو كانت « مبغوضة » ورزقها الله « بولد » ربما يكون ذلك مدعاة فى ـ العرف الشعبى ـ لأن يخفف المولود الجديد من هذه البغضاء ولو لحد أو لحين ما ، فالولد وعلى حد تعبير المثل :

١٣٦٣ ـ ان لعب فى خراه فى خير من وراه (٣) ·· !!

ويقولون :

(٣) لقد ذكر توفيق كنعان العديد من ذلك فى مقاله « قوانين غير مكتوبة تتحكم فى مكانة المراة الفلسطينية » ـ القدس ١٩٣١ وكما ورد فى مجلة التراث والمجتمع ـ العدد ١ ـ المرجع السابق ـ البيرة ـ ص ٦٣ ـ ٦٤ ·
Journal of the Palestine Oriental Society, Vol. vii No 3-4; Jourusalem 1931.

١٣٦٤ ـ الف ولد مجنون ولا بنت خاتون !!

تلك هى وجهة البعض من أهلنا فى حين نجد البعض الآخر من عامة الشعب يسجلون بخبرتهم المثلية الشعبية تجارب ووجهات نظر مغايرة فهاهم يقولون :

١٣٦٥ ـ نيال البكرية ان بكرت ببنية ·

١٣٦٦ ـ بنت المليحة ولا صبى الفضيحة (*) ·

وكانهم بالتالى يحسدونها على حظها السعيد ويرون فى انجاب طفلة مع بداية ميلادها فرصة جميلة لها مستقبلا فتكون لها عونا وسندا فى أعمال البيت ، ومساعدتها فى تربية اخوتها ، وتشب صديقة لها وهى مازالت فى سن الشباب ، كما تبـدو البنت أشد عطفا وولاء لوالديها من الولد عند شيخوختهما ، وعليه يقولون بمثلهم :

١٣٦٧ ـ اللى ماعندوش بنية غدرات الزمن قويه ·

فالبنت بهذا المفهوم المثل الشعبى رصيد متين ضد غدرات الزمن وأى غدرات القوية منها ، والتى تظهر فى أواخر سنى العمر تجد البنت ملتصقة بأهلها ومرتبطة بهم برباط أقوى وأمتن من الولد ولو على صعيد الخدمات البيتية التى لاتتقنها الولد فى الغالب · الم تقف البنت وهى زوجة على باب بيت زوجها وتقول :

١٣٦٨ ـ بتوقف على الباب وبتقول خال جاب ·

هذا عن الخال فما بالك بأبيها وأمها !!

ألم يكن ذلك أيضا اشتقاقا مما قاله رسـول الله عليه الصلاة والسلام فى حديثه « خيركم من بكر بأنثى » ·

وهناك من يمسكون العصا من الوسط فيرون أن :

١٣٦٩ ـ البنات أولهم شماته وآخرهم حسد ·

ويقولون :

(*) أى بنت جميلة أفضل من ولد كثير المشاكل ·

١٣٧٠ – البنات غلبات :

ففى بداية ميلادهن وحياتهن شماتة كما أوضحت الأمثال السابقة فى حين ما ان يشببن ويكبرن خاصـة مع بداية سن المراهقة حتى يصبحن عرضة لجذب الأنظار اليهن ومجالا لحسد الآخرين لجمالهن وفتنتهن ·

وتواكب عملية الانجاب مشاكل عدة من خلال هذا المنظور التفاضلى بين الذكر والأنثى خاصة لو كانت جميع أبناء الأسرة من البنات فلو علمنا ومن خلال المثل الشعبى الذى سبق ذكره والقائل بأن « هم البنات للممات » وتلك المماثلة لهـا عندما تحدثنا عن تفضيل زواج البنت مبكرا نجد ما يعانيه الأب وكذا الأم من حالات نفسية تكرسها فى الغالب الاحاسيس والمشاعر الجياشة والمبالغ فيها من أفراد المجتمع المحيطين بالأبوين أكثر مما تضمره أحاسيس الأبوين نفسيهما فتعذبهم نظرة المجتمع لهما بهذا الشكل التعاطفى الأعمى لاعتقادهم المثل القائل :

١٣٧١ – بيت البنات خال ·

اذ بعد زواجهن لا يبقى فى البيت أحد ، ولكن ما بالك فى المثل القائل :

١٣٧٢ – البنات ولا البطالات ·

وكذلك قولهم :

١٣٧٣ – بيت الشباب عذاب وبيت البنات خراب ·

ففى تربية الشباب يرى الآباء فيها العذاب سواء فى متابعة سلوكهم وتصرفاتهم الخلقية أو الانفاق عليهم والذى قد يصـل الحد زواجهم كما بينا آنفا · وربما كان هذا المثل تجربة مثلية تمثل ظروفا محددة لواقع معين ، ندرك ذلك عندما يخبرنا مثل شعبى آخر بقوله :

١٣٧٤ – بيت رجال ولا بيت مال ·

فبالرجال وبكدهم وعرقهم وتقدمهم تأتى الأموال ، وعليه فضلوا البيوت التى يعمرها الشباب على البيوت التى تملؤها الأموال جميعا ·

كما تؤكد تجربة مثلية شعبية مؤمنة بأن البيت الذى تزينه البنات جميعا يرزقه الله قائلا :

١٣٧٥ – ابو البنات مرزوق ·

لأنه انسان يرى الشعب فيه الطيبة ، وفى قدرته على تربية البنات تربية حسنة يرعاه الله ويرزقه ، مستمدين هذه التجربة من رسولهم الأمين عليه السلام الذى بشر من أحسن تربية ثلاث بنـات أو حتى بنتين وقام بتزويجهن دخـل الجنة ويبقى للمثل الشعبى عظته واستخلاص عبرة من خلال عملية الانجاب ومشاكلها فيذكر النساء :

١٣٧٦ – مش كل السنين بنين ولا كل الدهر بجيزان ·

فالله سبحانه يهب الذكور لمن يشاء والاناث لمن اراد ويجعل من يشاء عقيما · تلك المعانى الواردة فى كتابه العزيز ·

وللمجتمع الشعبى الفلسطينى يعشق ويحكم بنيته الفلاحية ، وعقيدته الايمانيـة الراسـخة ، كثرة الأولاد ، يستمد منهم « العزوة » والعزة والجاه ، فلا غرو أن يضـع أولويـات النساء فيمن تتصف بقول مثله :

١٣٧٧ – خير النساء الودودة الولودة ·

ويصل مدى حبه لكثرة العيال حدا يرى فيه أن ثمانيـة أولاد تنجبهم الأم ، ليس بالرقم الكثير ولا المؤثر على صـحة أمهم فيقول مثله الشعبى :

١٣٨٧ – ام ثمانية عروسة ثانية ·

تشجيعا لها ، وحثها على المزيد ، وللدلالة على حب الأم للانجاب وللمزيد منه سجل المثل الشعبى صورة رائعة تمثل لوحة جميلة ودقيقة الملامح لتلك الأم التى لا تستكن سعيا وراء الحمل بقوله :

١٣٧٩ – حبلى ومرضعة ، وقدامها اربعة ، وطالعة ع الجبل ، تجيب دوا للحبل ·

هذا على الرغم من التحذير المثلى الشعبى الذى ينم عن تجربة لها دلالتها الاجتماعية والاقتصادية والقائل :

١٣٨٠ – عيلة السبعة ما الهاش شبعة ·

وكأنه يضـع المنسـوب العددى الأمثل لأفراد الأسرة الواحـدة بحيث لا يتعدى الرقم سـبعة ، وربما كان ذلك تحت ظروف اجتماعية

واقتصادية معينة . لان فى ذلك عبئا يبدو ثقيلا على الأم وهى تقوم بانجاز ما يلزمهم ولخدمتهم بشكل يوضحه المثل القائل .

١٣٨١ ـ من كترت ولاده قل زاده .

١٣٨٢ ـ من يوم شفتكم يا أولادى ما هنا لى زادى .

لم يتركوا لها مجالا أو فسحة من وقت لتهنىء بأكلها ، وهى تتحرك جاهدة لخدمتهم يملؤها الفخر والاعتزاز بهم وتقول مثلها هذا بشعور يغمره الحب والهناء .

الا أن ذلك يبدو جليا فى اعترافهم بعبء المسئولية الاقتصادية للفقير عندما يرزق بولد :

١٣٨٣ ـ اجا للفقير ابن زى الخرية فى التبن .

الا ان هناك ما يناقضه ويحث على المزيد من الانجاب حذر الموت بقولهم :

١٣٨٤ ـ لا تستكتر مالك على طول السنين ولا تستكتر ولادك على عزرين .

المرضعة والتربية

وبعد الميلاد تحتضن الأم وليدها لارضاعه وتغذيته من صدرها ، هذه الفترة التى يطلقون عليها « المرضعة » والتى تتميز بها بصفات فسيولوجية واضحة تبدو فى اقبالها بنهم على الأكل ، وخفتها وسرعتها لنجدة طفلها عند ارضاعه .

وعليه سجل المثل الشعبى هذه الظاهرات بقوله :

١٣٨٥ ـ كول مع المرضعة ولا تماشيها .

فالأكل مع المرضعة أمر محبب لكثرة ما تأكله كما وكيفا ، فى حين يحذر المثل من مرافقتها فى المشى لخفة حركتها وسرعة جريها اذا ما سمعت طفلها يصرخ طلبا للرضاعة . ويوضح المثل الشعبى هذه الظاهرة بتفصيل أدق قائلا :

١٣٨٦ ـ المرضعة بتاكل قد أربعة وان جاعت بتاكل لحمار والبردعة .

لكنها وعلى الرغم مما أضفت عليها الأمثلة الشعبية من صفات وخصائص تفصح عن ميلها الشديد للأكل الا أنها كثيرا ما تضحى من أجل وليدها فتنسى أو تضحى بأكلها من أجله فتقول :

١٣٨٧ ـ اللى وراه الزق ما بنزق .

يشبهها المثل هنا بالعصفورة التى تزق فرخها فالتى تقوم بهذا الدور قليلا ما تجد من يغذيها وبنفس المعنى يقول المثل :

١٣٨٨ ـ ما يشبع طير وراه فراخ .

ومن معاناة التربية والطفل بين مهده وصدر أمه تنقله وتنتقل به

تجد بعضهن تضيق ذرعا من صراخه تارة وأنينه مرات ، فتتلفظ بمثلها عله يفرج قليلا عن معاناتها قائلة :

١٣٨٩ ـ فى البطن ولا فى الحضن .

ولا يمنع من أن نجد أما أخرى تعاكس هذا القول بل هذه التجربة ، فتحنو على رضيعها وتستقبل بكاءه وصراخه بحنان ، فتحمله وتلاطفه ، وتهز له بكلتا يديها فرحة سعيدة معبرة بذلك بمثلها الشعبى القائل :

١٣٩٠ ـ المربى ولا المخبى .

وتعلنها صراحة أقوى ، ووضوح أكيد ، مضحية بكل آلام الحمل وتبعاته أمام وليدها وهو يحبو خلفها قائلة :

١٣٩١ ـ صوص ورا امه بسوى البطن كله .

ومن غير الأم فى هذه الفترة مربيا يفيض على الطفل بالحنان والحنو يمنحه العطف وتشدو اليه بالحنين عند منامه بصوتها الدافىء الرخيم ليذهب فى سبات عميق وعليه قالوا :

١٣٩٢ ـ جناح الصغير امه .

وتواصل آلام مشوارها الطويل فى تربية النشء ، تنمو مع وليدها بنموه وبكل أحاسيسها ووجدانها ترقب تصرفاته فتقومها ، وصحته وما يكتنفها من وعكات فهب لنجدته وعليه قالوا :

١٣٩٣ ـ قلب الأم شقى .

أى لا يهدأ على حال ، ولا يهنأ لها بال ، فهو يسعد بتربية الأولاد . وتواصل الأم مسئولياتها التربوية فى تنشئة الأبناء كما نصت بذلك التجربة الشعبية المدعمة بالعرف الاجتماعى والتقاليد الشعبية فيغرسون فى النشىء القيم والمبادىء الخلقية والدينية السامية . وعليه كان اعتقاد الأم وكذا الأب راسخا فى مثلهم الشعبى القائل :

١٣٩٤ ـ لولا المربى ما عرفت ربى .

من هنا نشأ دورهما التربوى داخل الأسرة ، وقد تبلور دور الأم واتضح عبر التجربة المثلية القائلة :

١٣٩٥ ـ اللى امه فى البيت بياكل خبز وزيت .

وتأكيدا لدور الأم ومكانتها هذه وإمعانا فى علو شأنها التربوى قيل :

١٣٩٦ ـ اللى بلا ام حاله يغم .

وحرصا على سمعة الأبوين ، وحفاظا على مكانتهما داخل المجتمع الشعبى ، الذى لا يرحمهما فيما لو أساءا تربية أولادهم . وخشية أن ينطبق عليهم قول المثل الشعبى :

١٣٩٧ ـ اللى ما رباه امه وابوه ياناس لا تعاتبوه .

لكن كيف يقسم ويقيم المجتمع الشعبى دور كل من الأب والأم فى تربية النشء فى المجتمع الفلسطينى ؟! هناك من يقولون :

١٣٩٨ ـ الأم بتعشش والأب بطفش .

ويقولون :

١٣٩٩ ـ ريحة الأم بتلم وريحة الأب بتخم .

فالأم بطبيعتها الأنثوية تملك القلب العطوف والحنان الذى يخيم على الأطفال ويداوى عليهم كثيرا ، فى حين يعاكسها الأب بقوته وتصرفه المتجرد لحد ما من العطف فتبدو عليه القسوة :

لكن العرف الاجتماعى الشعبى يرى فى حنو الأم الزائد تبريرا وسببا لعجزها عن تربية الأولاد خاصة (الذكور) ويهمزون للمحيل بذلك بمثلهم الشعبى :

١٤٠٠ ـ عمر بقرة ما ربت تور .

ومعلنين ذلك صراحة بمثلهم القائل :

١٤٠١ ـ حط ولدك فى كمك ولا تخليه عند امك .

معتقدين بأن الأم لاتستطيع تربية الذكور خاصة ، فهم فى حاجة لحنكة الأب وقسوته .

من هنا خص المجتمع الشعبى الأم بتربية « البنت » فقط وحملها مسئولية تنشئتها بل واعتبرها صورة منها . عندما قال :

١٤٠٢ ـ اقلب الجرة على تمها بتطلع البنت لأمها .

وبالغوا بل واثقلوا كاهل الأم فى تحملها أعباء تربيتها لابنتها بصورة ربما تطرد مع حرصهم على « الشرف » وتتلازم معه تلازما طرديا فرصدوا البنت وتصرفاتها بشكل يدفعهم لتأنيب الأم لأية بادرة تخرج عن البنت ، فهاهم يقولون :

١٤٠٣ ـ لا البنت واعية ولا أمها بتردها .

وعليه كثيرا ما تضطر الأم على نهر ابنتها ومعاقبتها على أقل الهفوات لاحساسها بثقل مسئوليتها نحوها والتى قد تهدد كيانها داخل الأسرة فتقول :

١٤٠٤ ـ انا فيك بداوى وانت بتقلعى أوتادى .

لذا تبنوا جانب الجزم الواضح تجاه البنت وتربيتها فقالوا :

١٤٠٥ ـ قيدها بقيد حديد وجوزها فى بيت سعيد .

١٤٠٦ ـ البنت ان طلع الها قرن اكسر قرنين .

يؤرقهم الخوف من « العار » وما يجلبه فهم يعتبرون : العار أطول من العمر . هذا من ناحيـــة ومن ناحية أخرى نصحوا عبر مثلهم الشعبى تجنب الاختلاط مع الجنس الآخر فقالوا :

١٤٠٧ ـ بدك فخر النسا ابعد الذكر عن الأنثى .

كما أوعزت الخبرة المثليـة الشعبية بالتمييز الواضح بين تربية البنت والولد بقولها .

١٤٠٨ ـ دلل ابنك يغنيك دلل بنتك تخزيك .

وعلى الرغم من هذا التفضيل الصريح يرى الآخرون ووفق المعايير المثلية تقدير البنت وتدليلها ـ فأعلنوا ذلك بقولهم :

١٤٠٩ ـ البنت بلا أخلاق دالية بلا وراق .

والمحوا على مدى حب أمها لهـا بأسلوب الاستعارة المكنية قائلين :

١٤١٠ ـ الخنفسة شافت بنتها ع الحيط قالت يا لوليه فى خيط .

تماما كما يقولون بالنسبة للولد .

١٤١١ ـ القرد فى عين أمه غزال .

واحترموا بل وفضلوا تلبية رغبـات البنت اذا ما اشتهت شيئا عن طلب المرأة الحامل ذات الميل الغريزى للأشياء فقالوا :

١٤١٢ ـ نجى العذرا قبل الحبلى .

ويلى الأم فى المسئولية تجـــاه تربية البنت كما يرى التراث الشعبى « العمة » اذا ما ماتت الأم او تعرضت لأشياء من نوائب الدهر فيقولون :

١٤١٣ ـ البنات فى صدور العمات .

ويقولون أيضا بالمعنى نفسه :

١٤١٤ ـ ان غابت الامات عليكو بالعمات .

ويبدو ذات التحيز واضـحا فى ابن الابن وابن البنت وتربيتهما فيقولون :

١٤١٥ ـ ربى ابن ابنك وابن بنتك لا .

وربما يفسر هذا المثل بصورة أوضح المثل القائل :

١٤١٦ ـ ابن ابنك ابنك وابن بنتك ابن الغريب .

خاصة لو كان ابن البنت المتزوجة من خارج الأسرة ، فالعصبية العائلية تدفعهم لاعتباره غريب ليسوا مسئولين عن تربيتـة ، ويختلف الحال لو كان ابن البنت من ذات العائلة فتدفعهم قرابة الدم والعائلية على تحمل مسئولية تربيته . هذا رغما عن قولهم :

١٤١٧ ـ ما أحب من الولد الا ولد الولد .

لكنهم وكما يبدو وفقا لتجربتهم المثلية هذه أنهم يقصدون الولد دون البنت وهذا ما يدفعنا للحديث عن تربية الولد ومكانته عبر الأمثال الشعبية فيقولون :

١٤١٨ ـ اطعم ابنك واكرمه ما بتعرف مين بحرمه .

فيامرون هنا باكرامه واطعامه لان غدرات الزمن كثيرة . لكنهم على نطاق التربية يؤمنون بالضرب والعقاب وسيلة للتربية فيقولون .

١٤١٩ ـ اضرب ابنك واحسن ادبه ما بيموت الا لما يقصر أجله .

وعلى الرغم من قولهم المثل :

١٤٢٠ ـ ابن بطنى وبيعرف رطنى .

وكذلك بذات المعنى :

١٤٢١ ـ ابن ليلته بيعرف شيلته .

الا أنهم قد لا يجدون المردود المقابل من الولد فتراهم يقولون :

١٤٢٢ ـ قلبى ع ولدى وقلب ولدى ع الحجر .

١٤٢٣ ـ قلبى ع ولدى انفطر وقلب ولدى على حجر .

ولا شك أن حرص الأم على ولدها يفوق حرصها على ابنتها وفق المعايير الشعبية فكثيرا ما تناشد زوجها على المزيد من الحمل والانجاب اذا كان عدد الأولاد يقل عن عدد البنات كما أنها تستمر فى الانجاب لو رزقت بنات فقط ولو وصل عددهم لعشرة أملا فى انجاب « الولد » .

لذا فهى قد « تدعو عليه » فى بعض الحالات لكن وكما يقولون « ليس من قلبها » وعليه تقول :

١٤٢٤ ـ بدعى ع ولدى وبقتل اللى بيقول آمين .

ومن معايير التفضيل القائمة على تمييز الولد على البنت ما يتضح فى مثلهم القائل :

١٤٢٥ ـ عليك بالأولاد ما أقل همهم لو داروا مشلحين ما استحت امهم .

أما اذا كبر الولد فالعلاقة والنظرة اليه تختلف فيوصون بأن :

١٤٢٦ ـ ان كبر ابنك خاويه .

ورتبوا مراحل العمر عند الابن وعلاقة الأبوين وخاصة الأم بكل مرحلة وكيفية التعامل معه بقولهم المثل :

١٤٢٧ ـ ابنك وهو صغير وردة بتشميه ولما يكبر خى بتداريه وبعدما يتجوز جار بتزوريه .

ونتيجة لكل هذا يرون ان :

١٤٢٨ ـ ابنك ع ماربتيه وجوزك ع ما عودتيه .

فان اتقنت تربيته وخلصت فى تنشئته فلا شك أن يصبح الولد مصدر سعادة لأبويه تماما كما يقول المثل :

١٤٢٩ ـ ولدك سعدك .

ولا يمنع ذلك من أن تخيب تربيتهم ويجدوا فى بعضهم ما يخيب آمالهم ويتنافر بسلوكاته معهم فتتمثل صورة بعضهم التناقضية فى قولهم :

١٤٣٠ ـ انا بحلف وابنى بشلف « بيخطف » .

فالاب أو الأم يقسمون والابن يسرق ، وتجدهم احيانا يبررون فشلهم باسناده وردة على خئولته قائلين :

١٤٣١ ـ ان اجا الولد ردى الفعال يبقى الرك على خال الخال .

وبتجربتهم يفضلون تربية الجمال الهزيلة على أولئك الرجال الضعاف وفقا لما يقوله المثل :

١٤٣٢ ـ بتربى هزيل الجمال بينفعك وبتربى هزيل الرجال بيقلعك .

أما اذا بلغ عقوق الأولاد مداه لوالديهم تجد الأم يفيض بها قائلة :

١٤٣٣ ـ لفؤادى ولا لولادى .

لذا كانت تربية الأولاد ليست بالأمر الهين سواء أكان ذلك معنويا أم ماديا فعلى المقياس المعنوى والتربوى قالوا :

١٤٣٤ ـ ترباية الصبيان زى قرش الصوان .

ولذا فضلوا شراء العبد على تربيته فقالوا :

١٤٣٥ ـ شراية العبد ولا تربايته .

أما على النطاق الاقتصادى فيرون فى تربيتهم الكثير من النفقات ، فقالوا :

١٤٣٦ ـ العيال سوس المال .

الذى ينخره ويقضى عليه ، تماما كما يقضون حتى على بقايا الخبز المفتتة لكثرتهم فيقولون :

١٤٣٧ ـ اللى عنده صغار بيضعلوش كسار .

وهكذا أصبح لهذه القيم والمثل مردودها الوظيفى انعكست واتضحت آثارها فى حياة الشعب الفلسطينى وسلوكه الاجتماعى فاورثته قواعد سلوكية دونها وحفظها أمثالا شعبية بحيث لايمكن للفرد أو حتى الجماعة التخلى عنها أو التخلص من فكاكها ومن هذه القواعد التربوية المثلية :

١٤٣٨ ـ كتر الشد بيرخى .

اى زيادة الضغط والقسوة على الأطفال تؤدى الى عكسها فورا فى فساد خلقهم وانحراف سلوكهم وكما يقولون شدة الضغط تولد الانفجار .

وفضلوا الأدب والتربية الخلقية الطيبة على المال كله فقالوا :

١٤٣٩ ـ درهم ناموس ولا قنطار فلوس .

وقالوا مؤكدين :

١٤٤٠ ـ بيت مال بربيش رجال .

فالرجال تربيهم الأخلاق القويمة وحسن التصرف فصدقوا حين قالوا :

١٤٤١ ـ الأدب مال واستعماله كمال .

فالخلق القويم والأدب الجم لايكفى فاستعماله وتوظيفه فى خدمة الأبناء هو الكمال بعينه ومن قواعدهم الشعبية فى التربية يقولون :

١٤٤٢ ـ ارموهم تلقوهم .

يحضون بذلك على تجنب المبالغة فى الليونة وتدليل الأولاد داخل البيوت فالسماح لهم بالخروج للشارع ربما كان فيه الاحتكاك بالآخرين وتعويدهم على الخشونة والقدرة على المعاملة والتعامل مع الآخرين على اختلاف طباعهم وسلوكهم فهم يقولون :

١٤٤٣ ـ الأرض بترمى قمح وشعير .

وربما بمثلهم الشعبى هذا يرمزون للأم بانها تلد أو تربى الطيب أو ما هو دونه كالقمح والشعير . كذلك لديهم قاعدة تفيد بأن ماتزرعه تحصده .

١٤٤٤ ـ ربى ابنك صغير بتلاقيه كبير .

١٤٤٥ ـ اطعم ابنك واكرمه تلاقى مين يحترمه .

فان قمت بتربيته صغيرا تربية فاضلة ستعود عليك بالخير والمنفعة وهو كبير ايمانا بمثلهم القائل :

١٤٤٦ ـ طبع اللبن بيهدوش غير الكفن .

اى ما يجبل عليه الطفل وهو رضيع لن يهده أو يدمره الا كفن الموت . ويعززونه بموال شعبى يقول :

نهيتك ما انتهيت والطبع فيك غالب
ديل الكلب أعوج لو حطوا فيه ميت قالب

وكما يقولون :

١٤٤٧ ـ الطبع غلب التطبع .

وقالوا بذات المعنى .

١٤٤٨ ـ اغسل الدست وصفيه ما بينضح غير اللى فيه .

بمعنى المثل العربى الشائع « كل اناء بما فيه ينضح » .

ومن قواعدهم الشعبية والتى على هديها ربما يبالغون فى الحزم مع أولادهم اعتقادهم أنهم ربما يجبلون عليهم الدمار والهلاك فى بعض الأحيان فيقولون :

١٤٤٩ ـ تدعيش ع الشجرة الا بفرع منها .

وأحيانا يقولون :

١٤٥٠ ـ ما بيقطع الشجرة الا فرع منها ميت .

اى لا تدعى على الأسرة بكاملها « الشجرة » أو شجرة العائلة بل ادع على فرع منها فقط بالقطع أو الموت لأن بهذا الفرع تضع يد الفاس او البلطة التى تقطعها بكاملها ..

أما لو رزقت الأم بولد واحد لظروف ما ، ففى هذه الحالة تبدو العناية الفائقة نحوه بشكل مكثف ويدعو للقلق باستمرار عليه اذا ما بدا عليه اى تغير ويطلقون على مثل هذا « الولد الوحيد » « ابن العازة » فيصفونه وفق خبرتهم المثلية قائلين :

١٤٥١ ـ ابن العازة قزازة .

اى يشبه الزجاجة القابلة للكسر السريع ، بل ويشبهونه بالبيضة الوحيدة والغير جيدة :

١٤٥٢ ـ بيضة والبيضة مدرة .

أما اذا رزقوا بمولود جديد يعمل على تخفيف حدة الدلال لأخيه قالوا :

١٤٥٣ ـ ان اجا بدالك راح دلالك .

ظاهرة الطلاق

من الظاهرات غير المحببة التى ينفر منها المجتمع الشعبى الفلسطينى حتى حد التشاؤم من سماع خبرها ، ويهب الجميع فى غالب الأحايين تطوعا لاصلاح ذات البين وعودة الأمور الى طبيعتها فيصيبون أحيانا ويفشلون فى أحيان أخرى .

ولو استعرضنا أسباب هذه الظاهرة من وحى الأمثال الشعبية نفسها نجد أنها تركز بصفة أساسية على الجانب المادى بقولها :

١٤٥٤ ـ من جوز بلاش طلق بلاش .

وكان المثل يغمز هنا عن « تدنى المهور » كسبب من أسباب الطلاق وكثيرا ما يستغل هذا المثل لأغراض أخرى للدلالة على الانسان الذى لا يتعب فى جلب الأشياء فمن السهل عليه التضحية بها أو عدم الاكتراث لها .

ويدلنا المثل الشعبى ، أيضا على سبب آخر من أسباب الطلاق ربما كان تفسيرا وشرحا للمثل السابق يقول :

١٤٥٥ ـ اللى يجوزه أبوه الطلاق عليه هين .

وكأنه بالتالى يشير لظاهرة اجتماعية سبق أن أثرناها داخل الأسرة الفلسطينية الممتدة حيث يحاول الأب تزويج ولده من ماله الخاص دون ان يكون للابن دور مادى فى ذلك . فتهون عليه حياته الأسرية اذا ما دب أدنى خلاف مما لايمنحه مكانة أو قدرا من الاحترام والتقدير فى أعين من حوله داخل مجتمعه فيتهكمون عليه ساخرين فيما لو اختلف مع زوجته وأقسم عليها بالطلاق قائلين :

بالطلاق .

١٤٥٦ - صار للخرة مره ويحلف عليها بالطلاق .

فهذا النوع من الرجال الذى يتزوج من عرق والده لا يحظى فى الغالب الأعم على الحد الأدنى من تقـــدير عامة الشعب لانه فى نظرهم لم يتزوج من عرقه ..

وتكون الطامة كبرى على أم المطلقة التى تنـدب فى الغـالب حظ ابنتها العاثر لتفصح عن مكنوناتها ونظرتها حيال ابنتها عند قولها :

١٤٥٧ - جوزت بنتى لارتاح من بلاها اجتنى وأربعة وراها .

تنظر لابنتها نظرتها للبلاء كعملية اسقاط مردها « العار » والشرف اللصيق دوما بسمعة البنت بل وبالبنت نفسها .

وهذه أم اخرى رأت فى زواج ابنتهــا غير ما رأته الســـابقة . من قولها المثل وهى تستقبلها :

١٤٥٨ - جوزتك أتفاخر اجتينى وجبتى واحد آخر .

ونظرا لرهبـة الطلاق ووقعه السيئ على النفس الشعبية وتحسبهم لمردوداته السيئة على سمعتهم وتعرضهم للقيل والقال . يفضلون عدم الاقدام عليه بسرعة والتمهل كاظمين غضبهم وحزنهـــم علهـم يهتدون لما هو أفضل فيقولون :

١٤٥٩ - بزيادة جمعة ولا تطلع السمعة .

ومن أسباب الطلاق خروج المرأة عمـا هو مألوف داخـل المجتمع الشعبى وأعرافه الاجتماعية كأن تكثر من الشـكوى ضـده سواء أكان للجيران أم الأهل حيث يرون فى ذلك معارة للرجـــل فيجعله عرضـة للنقد اللاذع والمهين .

ويمكن استنباط ذلك من خـلال ما ورد فى هذه الأهزوجـة التى يتنبأ فيها صاحبها عما سوف يكون للمرأة من شأن ، يراه العرف الشعبى تعديا على المألوف ، ومن ثم يطلق حكمه بالطلاق على مثل هذه الزوجة :

مـن وســيع البـــال طلت زواله
بعـــرف معنـــاها وســــؤالها
بلادنا ان أخصبت مال الزمان ومالهـــا
وان امحلت حليب كلبتـــه ما يقضى عيالها

بكره بتجيكو ليال وزمان ، الحرمة بتشتكى على رجالها ، وبدوس المحكمة بنعالها .
وبتكلم ابو لحية وابو شنب وما بتستحى من احوالها .
وبتقدم عرض حال والكل بيطلع فيها وبنصت لاقوالها .
والله انا بقول فى شرع الاسلام الحرمة اللى بتشتكى على رجالها .
الطلاق أوتالها .. وأبو الهمات يجيب بدالها .
ويركب حمرة سداسية ترعى عشب الخلا بعقالها .
واختم كلامى بالصلاة ع محمد اللى ما بعده نبيا (٤) .

ومن أهم أســـباب الطلاق فى مجتمعنا عدم الانجاب ، أو ســوء الطباع .. وعدم التوافق والانســجام فى التصرفات والســلوك الذى مرده فى معظم الحالات الزواج المبكر وفقـدان المؤاومة والأهلية للحيـاة الزوجيـــة .

وفى الغالب وعند الطلاق يميلون لرد الأسباب للبخت فيقولون للمطلقة :

١٤٦٠ - جيزة وجوزتك وبخت من وين أجيبلك ؟!

ويوبخون الزوج بقولهم :

١٤٦١ - أكلها لحمة ورماها عظمة .

أما ظاهرة الطـلاق عند الأخوة المسيحيين بفلسطين فيوضـــحها المثل الشعبى القائل :

١٤٦٢ - جيزة نصرانية ما فيها فراق الا بالخناق .

أى لا يفصـــل بين الزوجين ســـوى الموت « الخناق » فقط . وعليه فان الناس عندما يصفون بعض الأزواج بالارتباط الجيد أو الدائم فيما بينهم ، اما لكثرة الأولاد ، أو لشدة ما يربطهم من حب واخلاص ، فانهم فى هذه الحالة يصفونهم بمثلهم أو قولهم المأثور :

---

(٤) الحاج سالم خاطر (٦٠ سنة) . حفظها عن جده .

١٤٦٣ ـ جيزة نصرانية ٠

اى لا فكاك منها ٠

كما يرفض المجتمع الفلسطينى الظاهرة التى يوضحها المثل القائل:

١٤٦٤ ـ لا هى معلقة ولا هى مطلقة ٠

وتعبيرا عما يعتمل فى صدر الزوج التى تزوجت مطلقته ، فانه يطلق مثله الشعبى الذى ينم على الانفعال بالغيظ :

١٤٦٥ ـ الفرس اللى بتنزل عنها تركبها القرود ٠

تعدد الزوجات

تتعدد الدوافع الكامنة والمحرضة على تعدد الزيجات عند الرجال داخل المجتمع الشعبى الفلسطينى ، ففى القديم ونخص به القديم القريب لمدى لايقل عن نصف قرن خلت ، كانت الحياة الفلاحية وعمادها الطاقة البشرية كأيد عاملة زراعية تأتى على رأس الأسباب وأول الاهتمامات خاصة لو رزق بعدد قليل من الأولاد ، تليها مباشرة بل وتكاد تلازمها وتنافسها على الأولوية طلبهم « العزوة » أى كثرة الأولاد كسواعد دفاعية وقوى أمنية ، حتى نجد بعض القرى الفلسطينية عندما يطرح على الأب منهم سؤال يستفسر عن عدد أولاده يستبدلون السؤال بالرمز سائلين كم عدد النبابيت ؟! أو كم نبوت عنده ؟ ليكون الجواب بعدد النبابيت اما مثار الهيبة والقوة والاعتزاز عند الأب أو عكس ذلك ، وقد أوضحنا ذلك عند تعرضنا لأسباب الزواج المبكر ، لذا لا نريد الاستطراد عن بقية الأسباب لنفسح المجال للمثل الشعبى ليدلنا على بقيتها ٠

فهناك زواج سببه كما جاء على لسان العامة « البطر » أى الناجم عن كثرة المال لدى صاحبه الذى لا يجيد انفاقه أو يحسن حفظه والتصرف به كما لايملك الأسباب الوجيهة الداعية لزواجه اللهم الا عشقه للمتعة فقط لينتهى به الحال أخيرا للندم والحسرة فيصبح بمثله الشعبى عله يفرج عنه كربه قائلا :

١٤٦٦ ـ بقيت مرتاح قال البطر اتجوز ٠

هذا المثل يوبخ الناس مثل هؤلاء المتزوجين من أخرى وقد أعطاهم الله الذرية والمرأة الطيبة من قبل ٠٠

وهذا الصنف من الرجال يتمنطق فى الغالب بالمثل الشعبى القائل والحافز على تعدد الزوجات بقوله :

١٤٦٧ ـ الخير ابو تنتين وتلاته .

كحجة وتبرير لتصرفاته ودعواه فى الزواج من أخرى ما دام يملك المال والقدرة على الانفاق « خير » على اثنتين وحتى ثلاث من النساء .

وقد أغراه المثل الشعبى . أيضا مفصلا مزايا كل امرأة فيما لو تزوج أكثر من امرأة قائلا :

١٤٦٨ ـ أول مرة سكره وثانى مره عنبره وثالث مره مرمره ورابع مره بتودى المقبرة .

وهناك سبب آخر للزواج يعود لوفاة الزوجة يدونه المثل بقوله :

١٤٦٩ ـ موته المره تجديد العرس .

ويقول أوضح يقول :

١٤٧٠ ـ اللى بتموت مرتو بتجدد فرشتو .

هكذا .. ! لا ندرى هل المثل يعبر فى هذه الحالة عن تجديد هموم العرس أم أفراحه ! فبمجرد وفاة الزوجة ينبرى العديد فى الحديث عمن سيتزوج بعدها ولا مانع من أن يطرحوا العديد من البدائل سواء وهم فى موكب الجنازة أو بعد أيام قبل الأربعين فيحق عليهم قول المثل الشعبى :

١٤٧١ ـ ناس فى جنازة وناس فى جوازة .

يعزون دعواهم وتسرعهم هذا بقولهم :

عزب دهر ولا أرمل شهر .

وهناك سبب ثالث يعود لغيرة المرأة البغيضة على زوجها والمبالغ فيها بشكل يؤدى للعديد من المشاكل والتى ترى فيها التجربة الشعبية سم عزاف يفوق سم الأفاعى بقوله :

١٤٧٢ ـ سم الحية ولا غيرة لمريه (تصغيرة المرأة) .

ولهذا يحذرها المثل من الانقياد وراء الغيرة العمياء التى قد تجلب لها « الضرة » بقوله : ..

١٤٧٣ ـ الغيرة مره وبتجيبلك الضرة .

ومما توردة الأمثال الشعبية من أسباب كثرة الخلافات الزوجية والمشاكل وصعوبة التفاهم وكيد النساء ، فيدلون الزوج على وصفه شعبية علها تخفف من مشاكل الزوجة جاءت على لسان المثل الشعبى القائل :

١٤٧٤ ـ كيد النسا بالنسا ولا تكيدهم بالعصا .

ولكن الى أى حد ينجح هذا الكيد أو التحدى المثلى الشعبى هذا خاصة لو تحدته الزوجة بكيدها المعروف قائلة

١٤٧٥ ـ جرب غيرى بتعرف خيرى .

خاصة عند تبلغها النساء بقولهن المثل :

طار طيرك لواحدة غيرك .

ويدخل الزوج التجربة وقد ينجح عندما يتزوج باخرى ويسحب عليها المثل القائل :

١٤٧٦ ـ اجت من البرية وأخدت الأولية .

أى على الرغم من قدومها من وسط بيئى دون وسط الزوجة الأولى الا أنها تغلبت عليها وأخذت المرتبة الأولى .

ولكن كثيرا ما يفشل ويفوز تحدى الزوجة الأولى ، بل وتاتى الزوجة الجديدة لتضع حظا سعيدا للأولى محققة لها صدق تحديها المثلى السابق ، ومفصحة عن ذلك عندما يسألونها السؤال المثلى :

١٤٧٧ ـ وين رايحة يا جديدة .. رايحة أجيب للعتيقة بخت .

١٤٧٨ ـ القديمة تحلى ولو كانت وحلة .

بل ويهنئون النسوة « المرأة القديمة » ـ كما ينعتونها شعبيا ـ على ضرتها التى علت من شأنها بقولهم المثلى الفصيح والبليغ :

١٤٧٩ ـ عليتنى على ما ابتليتنى .

أى أعلى الله شأنك وعلى مقامك بما ابتليت به من « ضرة » أو زوجة أخرى أبانت مقامك الرفيع فالضد يظهر حسنه الضد .

فلم يعد بالضرورة الزواج وسيلة للكيد ، وسواء صدق ذلك أو لم يصدق يبقى المثل متميزا بشموليته وتغطيته لجميع الحالات الاجتماعية.

١٤٨٠ ـ لو بحبك يا بخرة ماخدت عليك وحده أخرى .

ويبقى سبب آخر فى جعبة الأمثال الشعبية تبينه فى حالة عدم انجاب الزوجة بناتا وأحيانا لو كانت خلفتهم بناتا فقط أو كانوا قليلى العدد فيصفه المثل الشعبى بوصفته قائلا :

١٤٨١ ـ خود الهلفة للخلفة :

وأحيانا يصرحون اكثر بقولهم المثل :

١٤٨٢ ـ ان بدك تجوز للخلفة خود الهلفة :

والهلفة بالتفسير والمفهوم الشعبى المرأة أو البنت التى لايهمها الا أن تلد باستمرار تلك هى الأسباب التى أوردتها الأمثال الشعبية فى تعدد الزوجات ، هذا على الرغم من التحذيرات المتشائمة والصادرة عن ذات الأمثال الشعبية التى تندد بتعدد الزوجات قائلة :

١٤٨٣ ـ اذا كان بدك غراب البين تجوز تنتين .

وتوجهت للرجل المزواج بتجربتها قائلة له :

١٤٨٤ ـ أبو الضراير يا قادر يا فاجر .

فهو اما أن يكون قادرا ، ومعيار القدرة هنا المادية منها وكذا المعنوية والسلوكية بحيث يعدل بين الاثنتين ، وهذا أمر مضى عليه بالفشل مسبقا وقد أخبرنا جل جلاله بقوله : « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » صدق الله العظيم سورة النساء ١٢٩ .

أو يكون فاجرا وهذا ما يلفظه عامة الشعب :

ويشرح له المثل الشعبى مساوىء تعدد الزوجات تماما كما أغراه المثل السابق بتجربته على الزواج . ليؤكد المثل الشعبى بالتالى قدرته على مواكبة ومسايرة جميع التجارب التى يخوضها الشعب فى كل زمان ومكان . فينفره قائلا :

١٤٨٥ ـ أول بختك كرسى تحتك وثانى بختك دارى وقتك وثالث بختك لا فوقك ولا تحتك .

وغالبا ما يختار هؤلاء عند زواجهم أرملة سواء أكان « للخلفة » حتى يكون على بينة من أمرها أم لقبولها منه وهو لديه العديد من الأولاد بحالة لا تغرى ولا ترضى ان يجوزوه ببنت ، وعندها يسالون الأرملة للزواج من مثل هؤلاء فتجيب على مضض قائلة :

١٤٨٦ ـ الزوج الهامل أحسن من الرملة .

فالحاجة الملحة والقاهرة ، وخوفا وتحسبا لجميع الأعراف والتقاليد الاجتماعية التى تحاصر الأرملة ـ داخل المجتمع الشعبى هى التى تدفعها فى الغالب للاقتران بمثل هذا النوع من الرجال والزواج منهم .

وننتقل بعد هذا لداخل البيت الذى يضم بين جنباته زوجات عدة لنرى وكما يصور المثل الشعبى نفسه العلاقة القائمة بين الزوجات « الضراير » وهى علاقة الضرر الحتمية وفى التسمية ما يفسر ذلك وفى الأمثال ما يشرح ذلك وهى جميعا أمثال شعبية نسائية فتقول احداهن .

١٤٨٧ ـ الضرة مره .

وبتأكيد أشد على هذا العداء بين الزوجات الضراير . تقول احداهن :

١٤٨٨ ـ الضرة مرة ولو انها حلق جره .' أو « لو كانت جرة » .

أما عن العيشة ووصفها فتقول :

١٤٨٩ ـ عيشة الضرة مرة ولو انها عسل فى جرة لأكبها وأرميها بره .

هكذا تبدو استحالة الوفاق فيما بين النساء فى هذه الحالة وعندها يجمعهن بيت واحد أو زوج واحد حتى لو كانت المرأة الضرة عسلا . لا بل وترفض أية امرأة هذا العيش حتى داخل قصر فتقول :

١٤٩٠ ـ الضرة تغور لو كانت فى قصور .

حتى لو طلب من احداهن مجرد مداراة ضرتها فانها ترفض ولا تطيق مهما اشتد بها الضرر أو حتى الضرب على رأسها وشجه فتقول :

١٤٩١ ـ السبع فشخات فى راسى بداويها ، ولا اقعد مع بنت الندل واداريهـا .

تحد صارخ وعنيف تستطيع معـه أن تداوى رأسـها لو شج بسبع ضربات على الا تجلس وتدارى ضرتهـا ، فكيف الحال لو طلب منها أن تخدم ضرتها ؟!!

عندها تقول وبحدة :

١٤٩٢ ـ فى السهل بفرد رمتى (٥) ولا بخدم ضرتى .

وتظل « الضرة » داخل البيت وفى الوجدان الشعبى مثار العداء والريبـة والشك من نياتهـا حتى فى أسـوأ الظروف ، فهاهم يهزأون منها بمرارة قائلين :

١٤٩٣ ـ امه ساكته ومرات أبوه معصبة راسها .

فهم يشكون حتى عند مواساتها لضرتها لو وقع بها مكروه فى ابنها كما تبدو فى المبالغة التى تظهرها الضرة .

ويبدو هذا الصراع واضحا لو كانت الزوجات فى سن الشباب « صبايا » وعندها يتنبأ لهن المثل الشعبى بقوله :

١٤٩٤ ـ صبية على صبية يا دهوة يا رزية .

وكلاهما مر سـواء أكانت « الدهوة » أى الداهيـة أم الرزية على الزوج نفسه وهناك مناغمة تشدو بهـا الضراير لزوجهما لو كانت احداهما قد تزوجهـا وهى أرملة والأخرى بنت ، عندها تبدأ المنافسة والشـجار أمامه لتدافع كل واحدة عن مزاياها وأفضليتهـا تريـد كسب وده .

الزوجة البكر :

ان رعيت ارعى النـوار والمرعى لا تـرعى فيـه
وان اركبت اركب لمهـار على قد ايديـك بتربيـه

(٥) الرمه : هى الحبل الذى تقوم المرأة بربط حطبها بها عندما تنتهى من التحطيب لتضعها فوق رأسها « عقدة » .

فترد الزوجة الأرملة :

ان اركبت اركب فـارح ولهـا ركاب على الجنب يلوح
وان صارت عركة زى امبارح راعى المهـره ويـن يروح

تلك هى العلاقة بين الضراير ، ولكن كيف الحال بين زوجة الأب وابنـائه :

تكشفها زوجة الأب نفسها بقولها :

١٤٩٥ ـ ابن الجوز زى البربور على الرغيف .

تشبيه مقذع تراه زوجة الأب فى ابن زوجها الذى يقزز ويكدر حياتها مع أبيه وعليه أمدتها التجربة المثلية بقاعدة خرجت على لسان امرأة بقولها :

١٤٩٦ ـ أقعدى على الضر ولا تقعدى ع شروشه .

١٤٩٧ ـ سافرى لعكا ورواد (*) ولا تاخدى راجل عنده ولاد .

والشروش بالمعنى الشعبى رمز للأولاد مفضلة الزواج على زوجة مثلها ولا الزواج برجل له أولاد . لأنهم سيبادلونها الأحاسيس نفسها من الكره والعداء ويعبرون عنها بمثلهم القائل :

١٤٩٨ ـ مرات الأب نقمة من الرب لا بتحب ولا بتنحب .

قاعدة مطلقة المعنى والمرمى توصلوا اليهـا فزوجـة الأب نقمـة كما أنها لا تحب أحدا ولا أحد يحبها .

وها هى صورة مضـحكة يصورها الابن ليكشف بها عن لؤم زوجة أبيه وسوء معاملتها واهمالها له فيقول :

١٤٩٩ ـ من يوم اللى أبويا معها ، راسها بيجعها ، وكل ما قلت لها عن غرض بتومى باصبعها .

فها هى زوجة الأب وعلى حد تعبير المثل ـ تدعى ألم رأسها بدء من أول يوم تزوجت فيه ولا تسـمح لنفسـها مؤونة الرد اذا ما طلب منها غرضا الا باشارة خفيفة بأصبعها تفيد الرفض .

(★) عكا : ميناء فلسطينى يقع فى شمالها اما مدينة رواد فهى ســورية وتقع للشمال منها .

وتبقى لنا صورة الأم فيما لو تزوجت لسبب أو لآخر واكتشفت فيما بعد أن زوجها الجديد اسوا حالا من الأول ، وعندها لا سوى الام تتلقفها نادبة حظها قائلة :

١٥٠٠ ــ جوزك غيرتى وبختك ما غيرتى .

كما أن زوج الأم لايقل فى تصرفاته وكرهه لابن زوجته عما تكنه زوجة الأب تجـــاه ابن زوجهــا ، يكشف هذه الظواهر السيكلوجيـة المثل القائل :

١٥٠١ ــ حاجة ما تهمك وصى عليها جوز امك .

لأنه بطبيعة الحال سوف لايلبى هذا المطلب .

حتى اذا بلغت الهموم والمشاكل أشدها على عاتق الزوجة المغلوبة على أمرها مبلغا يؤرق أباها وشاء القدر وتوفاها الله قبل لابيها .

١٥٠٢ ــ موت وليتك من صفاوة نيتك .

الفصل السادس والعشرون

- وجهة نظر المرأة فى الرجل بعد الزواج .
- وجهة نظر الرجل فى المرأة .
- مكانة المرأة الفلسطينية .
- أصناف النســـاء .
- الرغناء ــ الفرارة ــ الحزينة ــ الفاجرة

وجهة نظر المرأة فى الرجل بعد الزواج

وسط غمرة الحياة الأسرية بما تمور به من هناء وشقاء تتقلب مع الأيام والسنين يتعايش معها الزوجان ، فيتفقان على قسمتها او يختلفان ، تقسية تحددها مدى توافقهما النفسى ، وتراثهما الثقافى ، وتكوينتهما الاجتماعى وما فطرا عليه • فان كانا على حد قول الزوجة او الانثى عامة :

١٥٠٣ ـ ما تجاورنا الا لما تشاورنا •

مبتدئين حياتهما بالحب والتشاور المسبق • كان التفاهم والحياة السعيدة ، أما اذا حدث ما هو نقيض ذلك ينطبق عليه قول العروسة القائل :

١٥٠٤ ـ عريس الهنا من ليلته قال احملى فراشك وابعدى عنى •

ليكشف الخلاف منذ اللحظات الأولى من بدء الحياة المشتركة •

هذه التجارب جميعا حلوها ومرها تنعكس بتجربتها على وجدان المرأة لتتجمع محصلتها فى صورة أفكار وآراء ومبادىء اعتصرتها جميعا بخلاصة ممثلة بأمثالها الشعبية عن تجربتها الزوجية لتوضح وجهة نظرها فى اختيار الرجل المناسب والمؤهل للحياة معها •

فهى تفضل المعايشة مع عجوز يئن وصاحب خلق يحسن معاملتها ويتقن مجاملتها على شاب يقلل من شأنها ويهينها قائلة :

١٥٠٥ ـ اختيار بنين ولا شاب بهين •

وتطلبه انسانا لين العريكة ولو عجوزا وترفضه شابا فظا غليظا ومذللا بقولهـا :

١٥٠٦ ـ اختيار يدلل ولا شاب يذلل .

ومن اعتزازها بنفسها وكبريائها تفضل العيش مع رجل ذى اصول متينة وفاضلة ولو نامت معه على « قصل الجرن » فى العراء .

١٥٠٧ ـ خدى الأصيل ونام على القصيل .

وتنصح بالاقتران بالرجل صاحب الحيلة والذكاء وتفضله على المنتفخ بذخيرة المال .

١٥٠٨ ـ خدى ابو حيلة ولا تاخدى أبو دخيرة .

ويصل رفضها لصاحب المال هذا حتى لو دعتها الضرورة الضاغطة بالزواج من رجل تأخذه من السوق عشوائيا .

١٥٠٩ ـ تجوزى من السوق ولا تتجوزى مال فى الصندوق .

وعليه تنصح الفتيات بأن يأخذن من يقدرهن ويحترمهن قائلة :

١٥١٠ ـ خدى اللى يشيل خرقتك ولا اللى تشيل عباته .

ولعلها اشتطت بعزتها بنفسها وبطلبها باختيار من يرفع خرقها البالية وأكاد القول والمبلوله على ألا ترفع هى له عباته رمز وجاهته .

تلك هى وصاياها المثلية لغيرها ، وعندما تجد نفاذها قد دنى ، تترك الأمور والزوج للحظ والبخت قائلة :

١٥١١ ـ الشراوى لقاوى والجيزان بخوت .

مؤكدة للرجل على حسن معاملته :

١٥١٢ ـ حسنك لمرتك بجوزك جارتك .

وان ليس للمرأة الا زوجها الذى تستمد منه مكانتها :

١٥١٣ ـ الفرس بخيالها والمرة برجالها .

وللنساء فيما بينهن نصائح مثلية تعبر عن فلسفة خاصة تشير الى محاولة متابعة الزوج وارهاقه ماديا أولا بأول كوسيلة لعدم التفكير فى الزواج على حد تفكيرهن فيقلن لبعضهن :

١٥١٤ ـ قصصى طيرك قبل ما يلوف على غيرك .

ويشرحونه بشكل أكثر وضوحا ودقة بمثلهم الشعبى :

١٥١٥ ـ قصصى ريش طيرك يضل حواليك طوليه يروح لغيرك .

وقص الريش هذا كناية واضحة عن استنزافه ماديا .

كما أن للنساء أسلوبهم المثلى الخاص فى محاولة لفت نظر بعضهن اذا ما حاولت احداهن النظر لرجل آخر قائلة بلباقة :

١٥١٦ ـ يا اللى عينك عليه غيرك ماسكو بايديه .

وجهة نظر الرجل فى المرأة بعد الزواج

وبالمقابل فالزوج له معطياته المثليـــة الشعبية رصدها من واقع حياته الأسرية مع زوجته ويعبر بها عن وجهة نظره حيال المرأة كزوجة ..

ففى البداية يقر بضرورة الحياة الزوجية ووجود الزوجة كشريكة للرجل فيقول :

١٥١٧ ـ اللى ما عندوش عيلة يشترى له كحيلة .

فان لم يكن وجود الزوجـة متيسرا فلا بد له من شراء « كحيلة » أى حصان عله يلهيه ويواسيه ويشغل وحدته .

ورأى أن السعادة هى فى وجود امرأة مطيعة وتمثل ركنا من أركانها التى سجلها بمثله القائل :

١٥١٨ ـ السعـــادة فى ثلاثة الدار الوسـيعة والمره المطيعة والفرس السريعة .

وعليه كرس وجوب الطاعة وفضلها فى الزوجة على كل الخصال الأخرى قائلا :

١٥١٩ ـ قرد موالف ولا غزال مخالف .

وقد قدرها وحث الآخرين على الرفق بها وحسن معاملتها ومن فعل غير ذلك وأهانهـــا فقد فتح المجال للآخرين بســوء معاملتهـا والتهكم عليها . فقال :

١٥٢٠ ـ اللى بيقول لمرته يا عورة الناس بيلعبوبها الكورة .

ولعل تلك ايجابيات المرأة ، ومن سلبياتها التى حذر منهـا وقدم نصائحه المثلية عليها فقد ذكرها بقوله :

١٥٢١ ـ لا تاخذ الأنانة ولا المنانة ولا الحنانة ولا الحداقة .

وبهـذا يرفض الزواج من المراة . « الأنانة » أى كثيرة الأنين والشكوى وكذا « المنانة » التى يحلو لها الحديث عما تقدمه أو تجلبه من بيت أبيها ، وتلك « الحنانة » شديدة الحنو بأهلها وكثيرة الزيارات لهم . وأخيرا نصح بعـدم الاقتران « بالحداقة » أو كثيرة التذوق بالاكل وطلب النادر منه .

وقد اضاف لتلك الصفات صفات أخرى ذميمة قائلا :

١٥٢٢ ـ الجاجة الفرارة والمرة الفرارة بنقنيوش .

فالمراة « الفرارة » كثيرة التجوال والتنقل بين البيوت لا يستحق ان تقتنى فى البيت تماما كالدجاجة التى لا تلزم بيتها . وقد أكد ذلك بمثله القائل :

١٥٢٣ ـ المرة اللى بتدور ما عليهاش نور .

ومن خصـــال المرأة السيئة التى كشف عنها بمثله الشعبى كثرة الكلام فقال :

١٥٢٤ ـ الناقة الرغاية والطاحونة الداوية والمرة الرغاية بنقنيوش .

وأخيرا ينصـح تفاديا للمشاكل والخلافات وتجنبا لوقوع الخصام مع اسرة الزوجة هو الابتعاد بالسكنى عن بيت أهلها ، فاتخذ لمثله الشعبى الاستعارة فغمز به قائلا :

١٥٢٥ ـ لا تشترى حمارة وأهلها فى الحارة .

تماما كما يقولون :

١٥٢٦ ـ لا تصفر لحمارك ولا تجاور صهارك .

كما أن كثيرا من تهامس النساء فيما بينهن بالقيل والقال ما يسبب العديد من المشاكل كما يوضحه المثل القائل :

١٥٢٧ ـ خراف تنتين خرب بيتين .

مكانة الرجل عند المرأة

لايمكن وصف علاقة او مكانة الرجل فى الوجدان والوعى النسوى عند شعبنا بانها علاقة « خنوعية » له كما يحلو وصفها للبعض وهو ينظر لهذه العلاقة بمنظار نهاية القرن العشرين ، متناسيا النظر والحكم اليها من وحى المجتمع التى كانت تعايشه منذ ما لا يقل عن قرن مضى على أقل تقدير . كانت فيه وشائج القربى والتكافل الاجتماعى الأسرى والقروى ونظرة المجتمع للمرأة وسط خضم الحروب وتسيب الأمن وخروج الرجال للقتال ، وكسب لقمة العيش بمرارة ، والكفاح المستميت من أجل استنباتها من الأرض بلا معين أو مرشد غير الله وساعده وساعد زوجته وأولاده ، يكدح معها سويا جنبا لجنب وكتفا بكتف طيلة يومهم بل وعامهم .

فلم لا ترى الزوجة فى الدنيا كلها غير زوجها معيلا لعيالها وقوة لأمنها وأمانها وجاعلا لها مكانتها وهيبتها بين الأهل والجيران ، وهو بالتالى حاضرها ومستقبلها فلا مفر من أن تضعه فى بؤرة اهتمامها وعلى مكانة تتفوق – ولو بحذر ولباقة – على مكانة أبيها ، ولعل ما يفصح عن ذلك جوابها على السؤال المثلى الشعبى المطروح اليها سائلا :

١٥٢٨ – يا بنت مين علاك أبوك والا حماك ؟

فتجيب عن السؤال بمثل أشبه ما يكون تمهيديا للاجابة الحقيقية بقولهـــا :

١٥٢٩ – يا أبويا جوزنى ويا جوز كبرنى .

وكأنها تنشد الكبرياء عند زوجها ! وعندما تتزوج فعلا تقول :

١٥٣٠ – أبويا باعنى الله يسهل عليه وجوزى اشترانى الله يرضى عليه .

وكأنها بذلك تسترضى زوجها على حســاب والدها ولكن باجابة نصفها اليوم « بالدبلوماسية » وتشرح هذه المكانة التى لزوجها بوضوح اكثر قائلة :

١٥٣١ – عند ابويا بلبس كتان وعند جوزى بلبس ستان .

وكثيرا ما يأتى هذا الجواب المثــلى على لسـان الزوجة لو كان السؤال ناتجا عن استفهام استنكارى لواقعها القديم عند والدها ودنو مرتبته عنه عند بيت زوجها ، عندما تجيب بمثل هذا القول المثلى بافتخار وتكرره بنفس المضمون قائلة :

١٥٣٢ – أبويا بعرنى وجوزى كبرنى .

فان كان الزوج يحترم فعلا واجباته حيال زوجته ويمنحها تقديره ويقدم لها كل ما تحتاجه فلا عجب أن تقول :

١٥٣٣ – نار جوزى ولا جنة أهلى .

وما دامت الزوجة تبادله التقدير والطاعة وتسخر له كافة الامكانات لتهيئة الجو الحافز على العمل ، وخلق الوئام مع الأبناء داخل البيت ، فانها تكون على يقين بأن زوجهـا سيبادلها ذات الأحاسيس والشاعر ، ومن هذه التجربة تطرح الزوجة نصيحتها المثلية القائلة :

١٥٣٤ – حطى جوزك فوق السطوح ان كان فيه خير ما بروح .

وكأنها ترمز « بفوق السطوح » أن تضعيه بمكانة علوية من التقدير فانه سوف لا يتركك . وسيبقى معك دوما سندا وعندها ينسحب عليك المثل القائل :

١٥٣٥ – اللى جوزها معها بدور الدنيا باصبعها .

وان كانت الزوجـة على ادراك منها بأن زوجها كثيرا ما يتعرض لهموم ومشاكل الحياة العملية اليومية ليعود لبيته فيفرغ أحيانا شحنات غضبه على زوجته قائلة :

١٥٣٦ ـ الزلة اللى بتضيق حيلته بتفشش فى حليلته .

ويكون رد فعلها متعقلا وماصا لصدماته ، مقدرا لظروفه النفسية ، متسلحة بتجربتها المثلية القائلة :

١٥٣٧ ـ ان كان الرجل نمر تكون المرة جسر .

ان توفر هذا القدر من الانسجام والتناغم الأسرى الشجى ، تضحى الزوجة عندها لزوجها بكل شيء فى سبيل الحفاظ على هذا التوافق . حتى لو تدخل رفقاء السوء بضغينة فانها تردهم على أعقابهم بقولها :

١٥٣٨ ـ مقطع موصل اسمه قميص أعوج الوق اسمه عريس .

لنقطع بالتالى دابرهم .

ويصل حب الزوجة لزوجها مداه متمنية الموت قبله معبرة عن ذلك بمثلها القائل :

١٥٣٩ ـ اللى ربنا بتمم سعادتها بيطلع جوزها فى جنازتها .

فلا عجب أن تتبنى المرأة الفلسطينية من واقع تجربتها الأسرية قوانين مثلية شعبية ترسخت فى وعيها وتقدمها للآخرين عن يقين قائلة :

١٥٤٠ ـ جوزك بعليك وجوزك بوطيك وجوزك على المزبلة برميك .

وكأنها بذلك تريد وضع حد لغطرسة المرأة أو تمردها لو سولت لها نفسها أو أمرتها بأشياء تحول دون الوئام والصفاء مع زوجها .

اذا فمشاطرة الحياة حلوها ومرها بين الزوجين لا يترك مجالا لفكرة تبعية المرأة أو علاقتها الخنوعية للرجل مثار جدل بل ويلغى عنهما مقاييس المفاضلة .

مكانة المرأة الفلسطينية

للمرأة الفلسطينية منذ أمد بعيد مكانتها البناءة المرموقة ودورها القيادى الفاعل ومن بين تلك المنارات « داليدة » أول شهيدة فلسطينية دافعت عن ثرى وطنها المقدس ضد شمشون (١) ، ثم أتت من بعدها كل من زبيبة وشمس اللتين ورد اسمهما ليعبرا عن نظام سلطة الأم Matyiaychy فى الجنوب الفلسطينى وعلى وجه التحديد فى مدينة غزة عندما استولى عليها تفلات فلاسر الثالث ٧٤٥ ـ ٧٢٧ قبل الميلاد فقدمتا للقائد فروض الولاء بما كانت لهما من سلطة على سكان المنطقة (٢) .

وهاهى السيدة العذراء مريم الفلسطينية التى جذرت ورسخت فى النفوس والأفئدة الأمومة الطاهرة وحبها فأضحت مثالا ورمزا للنقاء والتضحية وقد افتخر العرب والعديد من قبائلهم بانتسابهم لأمهاتهم مثل « كندة وجهينة وربيعة وبنو زهرة وكنانة » فى العصر الجاهلى . وفى الفترة الاسلامية الفاطميون والزينبيون نسبة لسيدات آل البيت رضوان الله عليهم » .

وفى المجتمع الفلسطينى العديد من الأسر التى تنتمى لأسماء أمهاتهم (*) حبا واعتزازا بهن ، فمنحوا المرأة بالتالى تقديرهم ونعتوها بأجل الألفاظ والصفات كما ظهر وسجل فى وثائقهم الشرعية صفة « الحرمة » كاصطلاح عرفى يعنى محرمة على الغرباء واشتقاق من الاسم الشرعى « محرم » أى أولئك الذين يحرم عليهم الزواج منها . كما

---

(١) الكتاب المقدس « التوراة » .

(٢) موسكاتى ـ الحضارات السامية القديمة .

(★) على سبيل التمثيل لا الحصر (أبو زبيبة ـ أبو عيشة ـ أبو رحمة ـ أمان ـ أبو خضرة .... الخ) .

أطلقوا عليها « الست المصونة » ، كما كرمها العرف الشعبى بصفات عبر أمثاله وحكمه ، منها الحرة – الأصيلة – المليحة مستنكرين المس بكرامتها وعفتها . فاعتبروا المرأة أمانة ووديعة لمن يتصفون بالجواد والكرامة والشهامة من الرجال فقالوا :

١٥٤١ – النسوان وداعة الأجاويد وفراسة الأندال .

ولا تكن فريسة الا للانذال من الرجال ، لذا شددوا هذا التوجه الخلقى الكريم بقولهم محذرين ومنذرين :

١٥٤٢ – اكسر جاه مية (مائة) ولا جاه ولية .

فيمكنك الاعتداء ولو على مائة رجل وكسرهم ولا الاعتداء على « ولية » أى حرمه لأن :

١٥٤٣ – النساء يغلبن كل كريم ولا يغلبهن الا لئيم .

مقتدين بذلك برسولهم الكريم القائل « ما أكرمهن الا كريم وما أهانهن الا لئيم » .

فاضفى المجتمع الشعبى الفلسطينى بالتالى هالة من التكريم على المرأة والتى تحول دون المساس بها والتعرض لها بالمهانة أو الايذاء فهى وفقا لتقاليدهم الشعبية « مكسورة الجناح » فى حاجة لرفقهم ومن ثم « الها خطية » أى لا يفلت أحد يعاقبها أو يضربها من عقاب الله ، وأكدوا ذلك بمثلهم القائل :

١٥٤٤ – دعى (دعاء) الولايا بيهد الزوايا .

فلا غرابة أن تعترض غاضبة لمن يحاول الاجتراء عليها وضربها بقولها المثل :

١٥٤٥ – عليش تقتلنى يا ابن الخاطية وأنا وانت تربينا ع الباطية ؟!

فما دمنا نحن أولاد الذين يخطئون وقد تربينا جميعا على مائدة واحدة فلماذا تقتلنى وتتعرض الى ؟ استفسار تستنكر خلاله المرأة على كل معتد عليها .

من هنا منحها المجتمع الشعبى قوة الردع واهانة كل من تسول له نفسه لحاق الأذى بها فشجعوها قائلين :

١٥٤٦ – الحرة سبع والراجل كلب .

فما دامت حرة ومصونة تحافظ على عفتها وكرامتها فهى أسد أمام اولئك الذين لا يحفظون ويحافظون على الحرمات والأعراض فهم من وجهة النظر الشعبية « كلاب » لا يخشى منهم ولا يعتد بهم . بل لقد وصلت المرأة مكانة أصبحت تحتل مرتبة « الشيخ » ومثال على ذلك « أم بكير » فى البادية الفلسطينية . وكانوا يصفون مثل هذه المرأة بقولهم الشعبى المأثور :

١٥٤٧ – زين نسا وعقل رجال .

وقد اضفى الشعب الفلسطينى على المرأة « حصانة » يحرم على كل رجل مهما بلغ وتحت كل الظروف أن يتعرض لها بأية اهانة ومن حاول نهره المجتمع ونفر منه وحط من قدره وأوصله لأحط المستويات .

فأبقوا المرأة بعيدة عن الظنون والشكوك واحسنوا الظن بها فقالوا :

١٥٤٨ – حرة الزين تمشى بين صفين وبنت الرجال ما تخاف من الرجال .

واعتبروا المرأة المليحة والحرة بوصفهم الشعبى خليقة ببث النخوة والحمية فى صدور الرجال وحتى المتقاعسين ومن يطلق عليه « الهامل » منهم اذ تخلق منه رجلا شهما ونبيلا فقالوا :

١٥٤٩ – المرة المليحة بتعمل من الهامل زلمة .

فلم يكتفوا بذلك بقول القائل « ما عظيم الا ووراءه امرأة » ليؤكدوا أن دورها يفوق ذلك ويدفعها بأن تخلق حتى من « الهامل » رجلا نشيطا له مكانته وقدره . فحثوا بالتالى وحضوا على تعليم المرأة ، مقدرين مردود تعليمها قائلين :

١٥٥٠ – لولاك قريت عروس ما لاقيت .

هذا عن مكانتها الكامنة فى نفوسهم ووفق مفاهيمهم الراسخة فى وعيهم الشعبى .

ولكن ماذا عن دور المرأة الوظيفى الذى سجله لها المجتمع الشعبى ؟

والمثل الشعبى هو المجيب مسجلا لنا دورها بل وصنف العديد منهن بمزاياهن وسجاياهن ، بنقائضهن ونقائصهن دون جرح أو محاباة .

فهي في المقام الأول ربة بيت تشرف عليه كمملكة لها تمنحها ذاتيتها وتوطد كيانها واستقلالها فهي تعبر عن ذلك بقولها :

١٥٥١ ـ أنا في داري باعرف مقداري ·

وكما ان البيت يمنحها القدر فهو أيضا وقاية وحماية وستر نتقول :

١٥٥٢ ـ يابيتي يا بطباطي يا مخبي عيباتي ·

وتتجلى وظيفتها في البيت كما بينها لنا المثل قائلا :

١٥٥٣ ـ الراجل جلاب والمرة دولاب ·

فهي كالدولاب تدور عجلته باستمرار لانتاج ما يجلبه الرجل الجلاب وبتعبير مثل آخر يبين دورها قائلا :

١٥٥٤ ـ الراجل جني والمرة بنا ·

فهي تبني في بيتها تأسيسا وتنظيفا وتربيــة بفضل ما يجنيه الرجل من كده وعرق جبينه فهي ان جلست وهدأت تحمل بيدها المغزل لتسد حاجتها ان كانت فقيرة أما وان كانت غنية فتغزل أيضا للمحتاجين طلبا للثواب لايمانهن بأن المغزل في يد المرأة كالرمح في يد المجاهد .

كما أن المرأة الفلسطينية أنتجت بل وأبدعت أناملها أروع الثياب تطريزا بشــكل جعل لكل قرية وضربة وكذا كل مدينة وبادية ثوبا خاصــا بهـا تفخر كل امرأة بارتدائه كجزء من التدبير والتوفير لهــا ولزوجها وعلى لسانها مثلها :

١٥٥٥ ـ من رقعت ما عريت ومن دبرت ما جاعت ·

وتهتم بزينة بيتها وتأسيسه اهتماما بالغا حتى ولو أدى لبيع جزء من قوتها على حد تعبير المثل القائل :

١٥٥٦ ـ بيعوا من قوتكم وأسرجوا بيوتكم ·

فتصنع لأولادها وسائل تسليتهم فكانت تبني له سريرا من اللبن ينام فيه وتمتعه بعمل أشكال عديدة من الطيور من الورق وكذا الطائرات « القبع » والعربات من الكراكير الخشبية وتستغل أحيــانا بقــايا جماجم

الخراف والماعز بعد ذبحها خاصــــة « الفك » لصنع ما يشبه المسدس لتكشف عن قدرتها على الابتكار المدعم بالذوق والحس المرهف لكيفيــة قضــاء وقت فراغ أطفالهــا ، فلم يكن بالكثير عليهــا ان يصفها المثــل الشعبي بانها :

١٥٥٧ ـ زي الحبه في المقلى ·

لكثرة حركتها وتنقلها تماما كالحبة الصغيرة في المقلى شديد الحرارة لاتهدا ولا تستكين لها حركة ، وعليه كان ما يزعجها ويقلق بالها ويقيد حركتها هذه وجود زوجها جالسا في المنزل فيحول دون تأدية واجبهــا حيال بيتها فهان لها العذاب عن بقائه قائلة :

١٥٥٨ ـ الندب بالطار ولا قعدة الزلة في الدار

ويقال أيضا بذات المعنى :

١٥٥٩ ـ طش المرة بالمسمار ولا قعدة الزلة في الدار ·

وتزهو المرأة لهذا فخرا بزوجها وهو قادم محمل بما يحتاجه البيت غذاء كان أو كســاء وأثاثا ، وتتهكم عليه بسخرية لاذعة مقنعة لو أتى فارغ اليدين بقولها له :

١٥٦٠ ـ حبيبي ما أخفه خاشش لا في يده ولا في طرفه ·

ويجير هذا المثل أحيــانا لتقوله الأم أو الأخت عندما يأتيهــا ابنها أو أخوها بدون ما يطلق عليه شعبنا « مطلة » أو هدية فلابد له من حمــل شيء ما يقدمه عند دخوله البيت (فواكه ـ سكر ـ بن ـ شاي ٠٠ الخ) مهما بلغ قدرها أو غناها ، وان حــاول تبرير موقفـه بفناها أجابته بل أجابه العرف المثلي :

١٥٦١ ـ أنا غنية وباحب الهدية ·

وبهذه المنافسة فهناك العديد من نســاء المجتمع الفلسطيني من أقمن المستشفيات بأموالهن الخاصة وأوقفن الأراضي لأعمال البر وأنشان الأسبلة (*) وعمرن الزوايا (١) ·

---

(١) سليم عرفات المبيض ـ غزة وقطاعها ـ الهيئة العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٨٧ ·

(★) جمع سبيل وتعني توفير الماء لابن السبيل ·

ورغم انجازاتها هذه فهناك من يصر على تكبيلها فى مطبخها كمفهوم طبيعى وثابت عن المرأة بقوله المثل الذى يحمل بين جوانحه نوعا من الاصرار العنيف :

١٥٦٢ ـ **لو وصلت المريخ مصيرها للطبيخ .**

ولا يمنحها الا شهادة واحدة هى شهادة المطبخ فقط قائلا :

١٥٦٣ ـ **شهادة البنت مطبخها .**

مروة الشاب ورا الباب ومروة البنت ورا الدست .

ولكن اذا قدر لها ولم تتقن الطهى ، أجابوا فورا بمثلهم قائلين :

١٥٦٤ ـ **حلو من حلوتها وعفن من عفانتها .**

هكذا .. !! التزام شرطى ان كان حلوا فلأنها حلوة وان كان عفنا فيعود لعفونتها تبقى وجهة نظر لفئة شعبية من شعبنا . وهذه الشريحة نفسها التى تعتمد على مرتكزات خاصة بها وأكاد القول خاطئة بها والخاص بمفهوم الطبيعة الأنثوية الثابتة للمرأة فكريا والقائمة على سيطرة الرجل البطريكية كردود فعل نفسية ونفعية فى آن واحد بما تؤديه وتقوم به فى بيتها له فيصرون على تحجيمها بهذا الحجم قائلين :

١٥٦٥ ـ **الناقة ناقة لو هدرت .**

مستعيرا وبحكم فلاحته بالتشبيه ببعض حيواناته المسخرة لمهماته الزراعية بما يريد البوح به ، وبحتمية قاطعة يؤكد بأن الأنثى هى الأنثى ، فمهما هدرت ورغت الناقة تبقى كذلك وان حاولت تقليد الجمل .

وبهذه الفرضية ينكرون على المرأة الخروج للعمل والكد من أجله لاعتقادهم بأن :

١٥٦٦ ـ **عرق الزلام تجارة وعرق النسوان خسارة .**

ولنؤكد أنها وجهة نظر فئة محددة فى مواضع ومواقع فلسطينية فان هناك العديد من نساء قرانا ومدننا تميزن بخروجهن للعمل بل والتجارة داخل أسواق القرى والمدن ليس فقط فى الفواكه والخضار

بل وفى نسج وتجارة المنسوجات والذهب على نطاق واسع ومألوف ومميز خاصة مدينة المجدل .

وعلى الرغم من ذلك فهناك من يشككون فى قدرات المرأة العقلية بمثلهم القائل :

١٥٦٧ ـ **طويلات شعور قصيرات عقول .**

بل والأكثر من ذلك بأنهن :

١٥٦٨ ـ **ناقصات عقل ودين (*) .**

فلم تعد بناء عليه قيمة تذكر لاستشارتهن والأخذ بآرائهن قائلين :

١٥٦٩ ـ **لا تاخد رأى مرة ولا تتبع الحمار من ورا .**

ربط تعسفى يشير لمصير من يأخذ برأى المرأة هو الركل أو « الرفس » وهناك من خفف هذه الوصية المثلية بقوله :

١٥٧٠ ـ **شاورهم وخالف شورهم .**

لماذا ؟ لأنهن لايؤتمنن على سر من الأسرار شاتمين بمثلهم :

١٥٧١ ـ **مره ابن مره اللى بيعطى سره لمره .**

وعبر عن ذلك أهلنا فى الجنوب الفلسطينى وبوحى من موقعهم الساحلى البحرى قائلين :

١٥٧٢ ـ **سرك عند الحريم على قوز .**

والقوز عند أهل « خانيونس » هو الكثيب الرملى الناعم سريع الحركة والتنقل بفعل الرياح الغربية وكأنهم يشيرون بأن السر ستذروه الرياح النسوية وسرعان ما يتنقل من مكان لآخر .

وخلصت فئة شعبية بناء على تلك الأفكار المثلية بعدم الأمان للنساء وفقا لتجاربهم قائلين :

(*) النساء ناقصات عقل ودين حديث شريف وتفسيره ان شهادة المرأة تعادل نصف شهادة الرجل وأن النساء لا يصمن رمضان كاملا ولا يؤدين الصلاة متواصلة نظرا لأسباب مسيولوجيه

١٥٧٣ ـ الزمان والنسوان ما الهم امان ٠

واشتطوا مبالغين بمثلهم قائلين :

١٥٧٤ ـ لا تامن للمره ان صلت ولا للخيل ان طلت ولا للشمس ان ولت ٠

فلا مفر والحالة التجريبية لهؤلاء قد بلغت منتهاها أن يروا فى النساء ركنا من أركان الخراب كعملية اسقاط ورد فعل يكشفون بها عن هويتهم ويفضحها المثل القائل ٠

١٥٧٥ ـ الكباية والانثاية والقمار بيجيبوا البلى وخراب الديار ٠

فان كان هذا هو مسلكهم ودرب من يحذو حذوهم فى مقارعة الخمر (الكباية) والساقطات ولعب الميسر فان البلاء والخراب مصيرهم المحتوم الذى توعدهم به الله ٠

وبذات المنظور الأسود ترى هذه الفئة الشعبية بأن :

١٥٧٦ ـ الدنيا بلاها ملاها واكثر بلاها من نساها ٠

تجربتهم التى لا ينكرها عليهم أحد ومنها ينهلون فى النهاية مرارة العيش حتى تستحيل معهم الحياة بلاء ٠

وتجمل التجربة الشعبية مكانة المرأة بقولها :

١٥٧٧ ـ يا مره يامرمرة يا شوكة فى الحنجرة ٠

ويقولون :

١٥٧٨ ـ يا مره يا مرمره يامسمار فى العنترة ٠

فهى اما امرأة بكل صفاتها أو مرمرة ثمينة تتلألأ واما هى مسمار يدق كالوتد فى (العنترة) ٠

وهناك من يقيم عملها ويشجعه ويقدره كمعيار من معايير السعادة فيقول :

١٥٧٩ ـ لا هى بتشتغل ولا جوزها بعطيها ومن وين السعادة تجيبها ؟!

وعلى الرغم من ذلك تبقى المرأة الفلسطينية عنوانا للهمة والنشاط

فى منزلها تنظفه وتكنسه مع بزوغ أول شعاع للنهار ، معتدة بنفسها واثقة بكل ما تفعله ٠

١٥٨٠ ـ اكنس له وامسح له وكل وش وما يصلح له ٠

ثم تقوم بخبز خبزها وطهى طعامها لتقديمه لزوجها واولادها ولسان حالها يردد ٠

١٥٨١ ـ خبز مخبوز ومية فى الكوز ٠

وقد آثرت الزوجة الفلسطينية راحة البال وهدوء الحال عن الحياة المترفة بفاخر الثياب وأشهى المأكولات الممزوجة بالمشاكل والأسى مفضلة ووفق مثلها الشعبى :

١٥٨٢ ـ كولى جميزة وتينة واسرحى ع المدينة

ولا تاكلى لحمة سمينة وتناهى عليها حزينة

مفضلة أيضا :

١٥٨٣ ـ باكل خبزه ودقة ولا ببات حزقه ٠

واثقة من نفسها مهما كانت ملابسها متواضعة :

١٥٨٤ ـ ان لبست خيشة انا عيشة ٠

مهتمة ببيتها اهتمامها بجسدها لأنه عنوانها وهى عماد عمارته ، واهماله يعنى بالضرورة وقوعها تحت طائلة المثل القائل والمهدد :

١٥٨٥ ـ بيت لمهتلين خرب قبل بيت الظالمين ٠

و « المهتلين » باللفظ والمفهوم الشعبى يعنى المهملون الذين يهملون بيوتهم كسلا فيصيبها الخراب كما ينذرهم المثل الشعبى قبل بيوت الظالمين ٠

من هنا لم تفرط المرأة بأقل الأشياء قيمة فى منزلها ، حريصة كل الحرص على الاهتمام بها والحفاظ عليها مؤمنة بمثلها القائل :

١٥٨٦ ـ بالسرار بتبنى دار ٠

والسرار بالمعنى الشعبى هى الحصى والحجارة الصغيرة اذا ما رصت مع بعضها البعض ارتفع بنيانها وأصبحت جدارا ثم دارا ٠

وفى يقين المراة دوما مثلهــا الشعبى الذى تتمنى تحقيقه فهو من أعز أمنياتهـا .

١٥٨٧ ـ الجوز وانا قوية والأهل وأنا غنيــة والجيران وانا سخية هادى احسن أمنية .

وهكذا يحدد المثل علاقة الزوجة بزوجها وأهلها وجيرانها ولو ان الزوج والأهل يأتيان على راس الأفضلية يوضحها المثل الشعبى القائل ولكن بصورة أخرى قائلا :

١٥٨٨ ـ المره خيرها لجوزها وشرها لاهلها .

ولكن كثيرا ما يحول بكاء الأطفال فى البيت دون اتمام الزوجة لواجباتهـا المنزليـة أو اعاقتهـا ولو قليلا عن ميقاتهـا المحـدد ، حتى اذا ما فاجأها زوجها وقدمت له المعاذير متعللة بالأطفال ، عندها لا يجد مناص من ترديد المثل الشعبى اللطيف :

١٥٨٩ ـ الله يخليك يا بك بك (*) خلى امك تتحجج بك .

(*) بك بك : لفظة تطلق على الطفل كثير البكاء .

المراة الرعنا (*)

واكب المثــل الشعبى المراة الفلسطينية متوغلا فى مكنوناتهـا ، سابرا اغوارها النفســية بخاصــيته الشمولية الجامعة ، راصدا جميع أنماطها السلوكية ، وتصرفاتها الشخصية ، مشخصا اياها ، ومحللا تحليلا سيكلوجيا فذا ينم عن فراسة قوية وبصيرة فريدة ، فافرز منهم وعلى حد التعبيرات الشعبية الرعنا والفرارة والحزينة وأم لسان « الرغاية » والعفنة والعجقة والهايفة .. الخ . استخلصها جميعا من واقع التزامها ببيتها وارتباطها بزوجها وأولادها .

فكانت منهن المراة الرعناء التى يمكن استشفاف واستدراك مفهوم هذه الصفة من تصرفاتها التى نعتها بها المثل الشعبى الذى يقول :

١٥٩٠ ـ العيد يوم والرعنا قتلت حالها .

فيحكى أن هذه المراة « الرعنا » اخذت قبل أيام العيد تحشد فى بيتها كل ما يقع تحت يدها من مأكولات وتشترى العديد من الثيـــاب استقبالا وابتهاجا بالعيد الذى أفاض خيالها فى تصويره ، وبقدوم يوم العيد أحست بأنه يوم كسائر الأيام وقد انقضى كما تنقضى الأيام من قبل ، وتبقى الأكل وما اشترته كما هو ، فتملكتها الدهشة التى جلبت لها سخرية الآخرين وهم يرددون هذا المثل .

ويمكننا أن نســتدل على مفهوم آخر « للرعنا » من واقع المثل الشعبى القائل :

١٥٩١ ـ الخى خى مراته والرعنا بتحلف بحياته .

فها هى تحلف وتقسم معتزة بأخيهــا فى حين لا يعيرها اخوها اهتمامه ولا يمنحها حبه كما يفعل مع زوجته .

(*) الرعنا فى اللغة الحمقاء .

ليدل على سوء تقدير الأمور ووضعها فى نصابها الحقيقى عند المرأة الرعناء ·

وتفسير آخر يوضحه لنا المثل القائل :

١٥٩٢ ـ تخانقت البت وأمها ، هزت الرعنا كمها ·

وذات التفسير السابق نلاحظ هنا أن الرعنا تهتز طربا رافعة يداها فرحا عندما يقع خلاف بين ابنة وأمها ، ليعبر عن سذاجتها وتفكيرها السطحى فى تقويم الأمور متناسية المثل القائل وعلى لسان الأم « بادعى على ابنى وبكره اللى بيقول أمين » ·

ولا ننسى « مطرة الرعنا » التى يطلقها الشعب الفلسطينى على أول قطرات ماء تسقط فى الخريف (٩/٢٧) لتنذر المرأة التى نسيت فى غمرة عملها أن تقوم بالاستعداد لموسم الشتاء بتجهز خيمتها المصنوعة من الشعر والوبر (فى البادية) (١) ·

وينسحب على « الرعنا » العديد من الصفات كتلك الواردة فى المثل القائل :

١٥٩٣ ـ القرعة بتتباهى بشعر بنت اختها ·

وهى أيضا المتميزة بالخيلاء والمظاهر الجوفاء فينعتونها بمثلهم القائل :

١٥٩٤ ـ على الوجه دهان والبطن جوعان ·

فهى تهتم بمظهرها دون النظر لواقع جوهرها ·

وهى أيضا لا تنتبه لأعمالها البكتية وتنتهز أوهى الفرص لكى تهرب منها ·

١٥٩٥ ـ ايدها فى الطبق وعينها ع اللى مرق ·

وبذات المعنى والمضمون ولكن بصورة أخرى يقولون :

---

(١) سليم عرفات المبيض ـ الجغرافيا الفلكورية للأمثال الشعبية الفلسطينية ـ الهيئة العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٨٦ ·

١٥٩٦ ـ قاعدة فى الخص وعينها بتلص ·

فالتزامها بأمور بيتها تنتزعه منها أبسط الأحداث ، فهى بجسدها فى بيتها المصنوع من أغصان الأشجار والبوص (الخص) لكن عينها ووجدانها تنظر لخارجه تتذرع بفرصة تلوح لتركه · وان خرجت وسألوها الى أين ؟ أجابت :

١٥٩٧ ـ رايحة وين يا هايلة ؟ رايحة أعدل المايلة !!

وحتى فى الأفراح لانجدها مؤهلة للمشاركة فيها متعللة بكل المعاذير الواهية ·

١٥٩٨ ـ قالوا زغرتى يا جفجفة (ضفدعة) قالت شرقانة ·

الفرارة

ويقدم لنا المثل الشعبى نموذجا آخر للمرأة « الفرارة » التى لا يهدا لها حال فى بيتها ولا تستقر فيه ، وتقضى معظم يومها تدور فى البيوت سواء المجاورة منها أو البعيدة بمجرد خروج زوجها وغيابه عنها فيقولون :

١٥٩٩ ـ الراجل بغيب والمره بتسيب ٠

وهذه « الفرارة » تعوض ما فاتها وتركته من عمل فى بيتها بالعمل ليلا ، فيسخرون منها قائلين :

١٦٠٠ ـ فى النهار بتسكر بيتها وفى الليل بتحرق زيتها ٠

ويفسرونه بمثل آخر يقول :

١٦٠١ ـ فى النهار بتطوف وفى الليل بتغزل صوف ٠

وكثيرا ما يأتيها الضيوف ولا يجدونها فى البيت فيرددون مثلهم بسخرية قائلين :

١٦٠٢ ـ البيت معمور وصاحبة الدار بتدور ٠

وتصل بها اللامبالاة باهمال زوجها وتركه فى البيت والخروج منه فيدمغها المثل بقوله :

١٦٠٣ ـ دشرت جوزها فى الدار ممدود وراحت تنعى أبو عبود ٠

وهناك نموذج آخر :

١٦٠٤ ـ خلت عجينها فى الطور (*) وراحت تضرب ع الطنبور (**) ٠

بل ويصل بها الحد لقول المثل القائل :

١٦٠٥ ـ الضيوف فى دارك والمفتاح فى زنارك ٠

متخذة من تقديم التعازى فى أبو عبود ذريعة لترك زوجها ٠

ويقال فى الجليل الفلسطينى للديك عندما يصبح عند منتصف الليل « ديك الفرارة » ليعلن منذرا تلك المرأة الفرارة بالعودة لبيتها (١) ٠

وها هى تخرج من بيتها مسرعة فتسألها زميلة لها بسؤالها المثلى :

١٦٠٦ ـ مالك بتمشى مشتطة ؟ جوز بنت اختى عليه الطقه ٠

تهرول لأن زوج بنت أختها سيقيم وليمة أو مادبة لأحد الناس !! هذا النوع من النساء نقمة على الزوج ومجلبة لضعف مكانته بين أفراد المجتمع الشعبى فيندبون حظه قائلين :

مسكين من كان علته مرته

شرالها توب جديد — من كتر نط الحيطان هرته
والله ان ضربها — بقولوا الناس ضرب مرته
وان ما ضربها — بقولوا عليه عرص واشترته

وهكذا يبقى حائرا ، ومسلوب الارادة تجاه زوجته الفرارة ٠ هذا على الرغم من التوصية المثلية القائلة :

١٦٠٧ ـ لا عجينك شايط ولا ابنك عايط ولا جوزك يحلف عليك بالطلاق ٠

(*) الطور أى الكهف ٠
(**) الطنبور : آلة شعبية وترية ٠
(١) مجلة صدى التربية ـ العدد الخامس المجلد ٣٣ حزيران ١٩٨٥ ٠ ص ١٦ ٠

العفنة والحزينة

صفة أخرى اتصفت بها بعض النساء ، قضت بها عليهن ممارساتهن اليومية الخاملة داخل بيوتهن فوثقها المجتمع الشعبى بمثله واصفا اياها « بالعفنة » ، وعلها من كلمة « العفن والعفونة » ملمحا بذلك لعدم اهتمامها بنظافة بيتها ونفسها داخلة ومن يكشف أمرها غير ضيوف يأتون اليها فجأة فيقول المثل :

١٦٠٨ ـ عفنة وجاها ضيوف على غفلة .

ليتضح لهم قمة عفونتها ببيتها ، ونعتوها بصـفات مقذعة لسوء اهتمامها بنظافتها وخمولها قائلين :

١٦٠٩ ـ راح النهار وول وام القمل بتتفلى .

وغالبا ما تجد مثل هذا النوع منهن يبالغن فى الاهتمام بمظهرهن عند خروجهن فيهزأ المجتمع منهن بسخرية مقززة ، قائلين مثلهم :

١٦١٠ ـ بدال خطوطك والحمرة امسحى عماصك يا زعرة .

ويتهكمون بذات المعنى بمثلهم القائل :

١٦١١ ـ بره وردة وجوا قردة .

وهى أيضا توصف بأنها « هاملة » ويكشف عن ذلك خيطها الطويل عندما تريد أن تخيط ملابسها فيقولون :

١٦١٢ ـ خيط الهاملة باع وخيط الشاطرة دراع .

وهى بطبيعتها كسولة وخاملة حتى بالاهتمام ببعض لوازمهـــا

الضرورية فى الوقت الذى تعكس فيـه بتصرفاتهم مظاهر الأبهـة الجوفاء فيصورها المثل الشعبى بهذه الصورة المثلية قائلا ومتسائلا باستغراب :

١٦١٣ ـ بدال ما تمشى وتهزى كتفك رقعى فردة خفك .

ويتندرون عليها بمثلهم :

١٦١٤ ـ رجلين عوج وبدهم بيوج .

ومن مظاهر الكسل وسوء تربيتها لأولادها يقولون :

١٦١٥ ـ نامت نومها كله وقامت لابنها تغله .

ويفتضح امرها بقولهم المثل الكشاف :

١٦١٦ ـ فى النهار بتعشى وفى الليل بتلضم خرز !!

فهى تتمارض بالعشى وسـوء النظر نهارا لكى لاتقوم بواجبها . فى حين تجدها فى الليـــل تؤدى أدق الأشـــياء التى يتطلب أداؤها حدة البصر .

ويستعجبون من أمر مثل هذا النوع من النساء بقولهم .

١٦١٧ ـ اللى بيتها ما بتقشه بتروح للجامع ترشه .

١٦١٨ ـ زرينة ما نفضت بيتها دارت تكنس الجوامع .

مظهر من مظاهر الاسقاط والمراءاة لتلك النسوة التى غالبا ما تكون مقترنة بزوج يصفه عامة الشعب بـ « الهامل » فيستغيثون احتقارا لها وله بالأرامل والبنـات لنجدتهـا وتنظيف وترتيب منزلهـا بمثلهم الشعبى القائل :

١٦١٩ ـ يا أرامل .. يا بنات .. عينوا المتجوزات !!

ونوع آخر من النساء أطلقوا عليه « الحزينة » وعلنا نصل من خلال الأمثال الشعبية لمعنى يغاير المعنى الحقيقى للكلمة بقولهم :

١٦٢٠ ـ حزينة ما الها بيت اشترت مكنسة وزيت .

فهل هى حزينة العقل والتفكير بهذا المعنى بشكل يدفعها لشراء المكنسة للتنظيف والزيت للاضاءة وهى لا تملك بيتا ؟!!

وربما نصل لمعنى أدق أو لتثبيت المفهوم السابق بقولهم :

١٦٢١ ـ حزينة ما الها عينين اشترت مراية بدرهمين .

هل يقودنا هذا المثل لمفهوم الخيلاء والمظاهر الجوفاء أم لما يسمى بنظرية التعويض ومركبات النقص ؟!

وهناك صورة ثالثة لمثل هذه الحزينة ربما تكشف بوضوح أكثر للمفهوم الشعبي لهذه المرأة بقولهم :

١٦٢٢ ـ حزينة ما الها مملوك سمت الهر خوشكلدم .

فيبدو من هذا المثل مفهوم التباهي الأجوف وظهورها بمظهر ليست هي منه بشيء . فيهزأون منها قائلين :

١٦٢٣ ـ عورة وبتغامز القمر .

١٦٢٤ ـ رجليها في النقرة وبتطلب راس الشجرة .

١٦٢٥ ـ هرهر وعينك ع أبو زر .

« الرغاية » والفاجرة

هناك لون من النساء يتميزن بالفجور يملأ صوتها أرجاء الحارة **هديرا بالتهديد والوعيد لكل من يقترب ويحتك بأنجالها** وكثيرا ما تصفها النساء من جيرانها بأنها « تشتري الشر » .

١٦٢٦ ـ بتشتري الشر شراية .

وكذلك تنضج بالمشاكل وعلى استعداد لتصديرها للآخرين وبيعه ، لذا يتفاداها الجميع من النسوة ويتحاشين شرها وفجرها ويتملقونها مداراة . فيتملكها الغرور فتبدو وكأنها سيطرت على الحي فيذكرونها بمثلهم الشعبي القائل .

١٦٢٧ ـ الفاجرة بنتها وست جيرانها وابنها سيد الصبيان .

وهذا النوع من النساء وعلى الرغم من فجورهن فهن جبانات ، **اذا ما قارعوهم بالحجة واشتكوا عليهن وعلى تعنتهن هذا ، فلا** يجدن سوى الدموع تبريرا وندما عما يقترفن فيقولون فيهن مثلهم :

١٦٢٨ ـ دموع الفاجرات على الخدود حاضرات .

وسرعان ما تبدين حججهن الواهية ، فاتصفن بهذه الخاصية ووصفهم المثل بقول :

١٦٢٩ ـ بتضرب المره على ركبتها بتطلع حجتها .

وينعتونها لشدة صراخها قائلين :

١٦٣٠ ـ القد قد الفارة والحس ملى الحارة .

وعليه فهي كثيرة الكلام والصراخ قليلة الفعال والتي كثيرا ما تتغلب بصوتها المرتفع على زميلتها التي تعمل في صمت ولا تتقن الصراخ أو حتى الكلام الأجوف فيقولون :

١٦٣١ ـ أم لسان غلبت أم فعال .

أو

١٦٣٢ ـ خدوهم بالصوت ولا يغلبوكوا .

وأخيرا تميز بعضهن بالمكائد ونصب شراكها ربما عوضا عما يعانينه من ضغوط اجتماعية هائلة وكبت شديد وقيود عديدة ومتابعة متلاحقة في طفولتهن ومرحلة المراهقة الحساسة ، فيطفح هذا كيدا يمارسنه في الخفاء تنفيسا لهن فقيل :

١٦٣٣ ـ كيد الرهبان ولا كيد النسوان .

ويقولون أيضا :

١٦٣٤ ـ كيد النسوان غلب كيد الرجال .

ولا مفر أخيرا من الاعتراف وبموضوعية وواقعية معقولة ومنطقية بأن .

١٦٣٥ ـ النسا جواهر وقواهر .

ففيهن الجواهر النفيسة الجميلة والنادرة ومنهن « القواهر » اللواتي يتميزن بقهر الآخرين وغلبتهن المستمرة عليهم .

ويلخص أهل البادية الفلسطينية بعض النساء بمثلهم الجامع لسلبياتهن بقولهم :

١٦٣٦ ـ شخاخة الأمراح ، ورغاية الصباح ، وجيابة الفم لن فاح ، ماحدا يقناها .

ويصفون المرأة الرغاية الفرارة التى لا تحترم أنوثتها ولا تقر فى بيتها بصفات عديدة منها :

سرداحة ومصوه ـ مطوه ـ كعوه ـ كعيبة ـ قمطه .

ويصفون بعض النساء بقولهم المثل :

١٦٣٧ ـ تطهى عل صاجهى وتسرح دجاجهى .

سرداحه / أى كثيرة السير والتردد عى العربان .
مطوه / بنفس المعنى السابق .
مصوه / خايبه أو أصابها التلف .
كعوه / قصيرة القامة وبنفس المعنى كلمة قمطه .
كعيبه / ارجع الى المؤلف ص ٥٨٢ .

الفصل السابع والعشرون

- اصنـاف الرجـال .
- الفئـات العمرية .
- العصبية العائليـة .

أصناف الرجال

ومع الرجال كما للنساء ، للأمثال الشعبية ممارساتها وخواطرها ، استخلصتها ودونتها العقلية العربية الفلسطينية بعد أن تغلغلت فى أعطافها ، متحسسة نبضهم الملتفظ بخصالهم والناطق بسجاياهم ، متلمسة مزاياهم ومساوئهم بحيدة بالغة ، تماما كما وشمتها بيئتهم الجغرافية التاريخية الفياضة بوقائعها المحورية ، وقيمها العقائدية ، وتراثها التليد ، فتفاوتت استجابات الرجال بتفاوت استيعابهم لهذه الوقائع والقيم ، واختلفت باختلاف قدراتهم وطاقاتهم ومواهبهم ، فكشفتها لنا ذخيرة الأمثال الشعبية بسجلها الغزير فأدرجتهم فى مدارجهم وقدرتهم ومجتمعهم كل وفق قدره وحجمه ٠ فمنحتهم سلطة فوقية على الجنس الآخر بما أوتى بعضهم من رجاحة عقلية وقوة جسدية ، وتحمل للمسئولية العائلية سواء بالانفاق أو التربية ، فلم يكبله المجتمع كما قيد المرأة بقيوده الثقيلة ، بل ومنحه حرية مطلقة تحت شعارهم المثل :

١٦٣٨ ـ الراجل بيعبوش اشى ٠

هذه الأفضلية فى كون الرجل لا يعيبه شيء ، ليست مطلقة فى حكمها وتميزها لكنها تنطبق على من تتوافر فيهم المزايا الحميدة من الرجال الذين عرفهم المثل بقوله :

١٦٣٩ ـ الرجال مخابر مش عنابر ٠

فالرجل بمخبره واختباره ، بسلوكه وفعاله ، بخلقه واقتداره لا بمنظره وعطره ، أو طوله وقصره ٠

وشرحوا هذا المفهوم بمثلهم القائل :

١٦٤٠ ــ الرجال محاضر مش مناظر .

أى بمحضره وحضوره الفعال ، لا بمنظره وصورته ، وأجادوا تعبيرا وتعريفا بقولهم السائر :

١٦٤١ ــ الرجال بتتكيلش بالصاع .

أجل فان الرجال لا تكال بالصـاع ، فهم لا يقـدرون بمقدار ، ولا يكالون بمكيال فقيمتهم وتقييمهم هى بفعالهـم وانتاجهم ، حتى ان المعايير الشعبية وازنت بين أكل الرجال ومنافعها والا فلا . فقالوا :

١٦٤٢ ــ أكل الرجال على قد منافعها .

وامتدحوا فى الرجل رزانته ورجاحة عقله فقالوا :

١٦٤٣ ــ أصحاب لعقول فى راحة .

وقالوا أيضا :

١٦٤٤ ــ العقل فى الراس بسوى محكمة قاضى .

لذا نجدهم يسخرون ممن تنقصه العقلانية فى تفكيره فقالوا :

١٦٤٥ ــ راس بلا فهم مثل قرعه وادى الحوارث (*) .

وخصوا بمثلهم الشعبى على استخدام العقل حتى لا يقع الانسان فى حيرة معتبرين ذلك مقدمة لادراك كثير من الحكم كقولهم .

١٦٤٦ ــ دور عقلك لاتحتار السرارة فى مخلها قنطار .

فاستخدم الشق الثانى من المثل الشعبى ليلعب دورا تحفيفيا فى الحث على عدم التنقل فى ما لا طائل منه أى التسكع لأنه منقصة فى حق الرجل .

واعتبروا قول الرجل فى حد ذاته « عمل » فكلمته ان نطق بها وعد عليه يجب نفاذه فقالوا :

(★) نزل الأمراء الحارثيون فى السهل الساحلى الشمالى الفلسطينى ، وكان قبل وصولهم يدعى سهيل بن صعب ثم سمى باسمهم ، وادى الحوارث حيث اقاموا فيه والذى اقيمت عليه مستعمرة نتانيا الصهونية .

١٦٤٧ ــ الراجل برتبط من لسانه .

فالكلمة رباط شرعى يرتبط به مع الآخـرين كميثـاق عليـه تنفيذه ، وقالوا :

١٦٤٨ ــ الراجل عند قوله

واعتبروا نكوثه وارتداده عن كلمته معابة يستحق عليها الازدراء والتحقير وعدم المبالاة ثانية لما يقوله أو يتعهد به ، فانهالوا على مثل ذلك من الرجال قدحا بقوارص الأمثلة الشعبية التى استوحاها الفكر الشعبى من واقع بيئته الطبيعية فقالوا :

١٦٤٩ ــ كلامك زى بول الجمال بيرجع لورا .

وقالوا أيضا :

١٦٥٠ ــ قولك زى بولك .

وبنفس المفهوم كالوا عليه قائلين :

١٦٥١ ــ كلامك زى حرات الجمال اللى بحرته بدبكه .

واتخذوا من موازين تجار قرية الفالوجا حيث تميز البعض منهم بعدم الوزن بالميزان المستقيم فقالوا :

١٦٥٢ ــ كلامك زى ميزان الفوالجى بخس النص .

واستعاروا من شهر شـباط تقلبـاته النوئية المستمرة وعدم ثباته على ظاهرة فقالوا :

١٦٥٣ ــ كلامك زى شباط ما عليه رباط .

واستنكروا على الرجـــال الثرثرة فيمـا لا يجـدى ، واتخـذوا مثلهم قائلين :

١٦٥٤ ــ كلامك زى بابور كدنا بيجرش ع الفاضى .

وهذا « البـابور » كان يملكه يهـودى أقامه فى قرية « كدنا » التابعة لقضاء الخليل لطحن الغلال لينافس البـابور المحلى الذى تملكه

اسرة عربيـة فلسطينية من عائلة (الجعبرى) بمدينة الخليل فاستمر السكان وكذلك أهل القرى فى طحن غلالهم بمدينة الخليل وقاطعوا تماما « بابور اليهودى » الذى ما كان منه الا أن أدار بابوره طيلة النهار بصوته المرتفع دون طحن ليوهم الناس بانه يطحن وان الاقبـال عليه شديد ، الا أن ذلك الخبث لم ينطلى على السـكان ، فاتخذوا من جرش مطحنته التمويهى الزائف مثلهم .

ونبذوا التناقض بين ما يظهر وما يخفيـه الرجـل بين جوانحه واعتبروا ذلك مخالفـا للفطرة الطيبة للانسان العربى الفلسطينى فقالوا عن ذلكم الزمرة :

١٦٥٥ ـ يعطيك بالعين والقلب كداب .

واحتقروا من ذات الفئة أولئك الذين ينطبق عليهم المثل القائل :

١٦٥٦ ـ لسان ملس وقلب نجس .

ومن نوعه أيضا :

١٦٥٧ ـ حلو اللسان قليل الاحسان .

وأصبح هذا النوع من الرجـال المتلونين الذين أطلق عليهـم « بالكذابين » موضع ازدراء ومداره لهم فقالوا :

١٦٥٨ ـ طاوع الكداب لباب داره .

وأحيانا يقولون :

١٦٥٩ ـ طاوع العيار لباب داره .

واعتبروا من يمتدح نفسه دون ترك الآخرين لمدحه وتقييمه نوعا من الكذب فقالوا :

١٦٦٠ ـ مادح نفسه كداب .

ووصفوا الكذاب بقولهم السائر :

١٦٦١ ـ الكذاب خرب بيت الطماع .

ونظرا لتقلب الكذاب المستمر بصورة يمسخ معها ملامحه الشخصية وصفوة بقولهم :

١٦٦٢ ـ زى حبة العدس ما حدا (أحدا) بيعرف بطنها من ظهرها .

وقالوا :

١٦٦٣ ـ مثل رغيف الصاج .

نظرا لتقليب رغيف الصاج على كلتا وجهيه فوق النار من يصعب تحديد ملامح مميزة لكلا وجهيه .

وقالوا عن هؤلاء المتناقضين مع أنفسهم :

١٦٦٤ ـ القول قول علما والفعل فعل شياطين .

واعتقدوا بأن الانسـان لايمكن له اختزان أكثر من فكرة أو نيـة واحدة فى عقله ووجدانه فى لحظة معينة ، وأن التركيز على واحدة منها سبيل لحلها فقالوا :

١٦٦٥ ـ ابو نية سار وأبو نيتين احتار .

وعليه حكموا باسلوب جازم على من يحاول الجمع بين فكرتين فى رأسه فى آن واحد بأنه « كذاب » فقالوا :

١٦٦٦ ـ أبو بالين كداب .

وهناك فئة أخرى أفرزها الشعب اتصفت بالثرثرة الصاخبـة وعلو الصوت فاطلقوا عليهم صفة « الفاجر » فقالوا عنهم :

١٦٦٧ ـ الفاجر أكل مال التاجر .

واعتبروه انسانا أجوف لا مجـال لاحترامه وتقديره فعملوا على مداراتهم كفئة سفيهه ووصفوهم بقولهم السائر :

١٦٦٨ ـ الطشط الفاضى بيجعجع كتير .

ويتميز هؤلاء بضعف شخصيتهم فيستعيضـوا عـن هذا الضعف بعلو الصوت كمنفذ لجلب الآخرين واحتشادهم حولهم علهم يتوسطون لفض النزاع الذى غالبـا ما يكون لصالحهم ، لرغبة الناس بفطرتهم الطبيعية للميل والاتجاه نحو الطيبين لحسم الخلاف ولو على حسـابهم لأنهم أكثر تحملا وسعة على استيعاب المشاكل . فقالوا عن هؤلاء :

١٦٦٩ ـ خدوهم بالصوت ولا يغلبوكوا .

وتستثمر هذه الفئة الباغية ذات الصـــوت العـــالى هذه الخصلة احيانا لتمرير ما يريدون فيقال عنهم :

١٦٧٠ ـ أبو كلام غلب أبو فعال .

وهؤلاء غالبا ما يفخمون الأشياء ويضعونها بحجم أكبر مما تستحق فيضعوا على حد تعبير المثل :

١٦٧١ ـ بيعمل من الحبة قبة .

ومن هؤلاء من يطلق عليه صـــفة « الفشار » لكثرة حديثه فيما لا طائل منه وتفخيمه لسفاسف الأمـور ، ومن خـلال التجربة الشعبية صنفوه بمثلهم الشعبى الذى كشف عن خصائصه بقوله :

١٦٧٢ ـ الفشار وعده كتير ودراعه قصير .

ويسخرون من هؤلاء قائلين :

١٦٧٣ ـ جخوا ولا تموتوا حزانه .

وبالمفهوم الشعبى اعتبروا مثل هؤلاء من « التنابله » الذين لايجيدون سوى الكلام والتشدق بالفارغ منه فعبروا عن ذلك بقولهم :

١٦٧٤ ـ قال يـابا (يـا أبى) علمنى ع التنبـل قال له تعـال للفارغة واتصدد .

ومنهم اللحوح عند حاجتـه ، يراوغ فى طلبها برعونة فقالوا عنه :

١٦٧٥ ـ صاحب الحاجة ارعن .

١٦٧٦ ـ العايز أهبل .

وغالبا ما يتصف هؤلاء بالمالقـة عند حصولهـم على حاجاتهم فينطبق عليهم المثل القائل :

١٦٧٧ ـ أنا ما بضحكلك (بضحك لك) جبى رغيفك فى عبى .

بذات الأسلوب النفعى الانتهازى يكشفهم المثل الشعبى بقوله :

١٦٧٨ ـ برقص لكيش حبى شخاتيرك صمتو عبى .

وقد دحض العرف الشعبى هـذه الخصال الذميمة فى الرجل واستنكرها وحذر من التمادى فيها ومن عواقبها الوخيمة محذرا بمثله الشعبى بأن :

١٦٧٩ ـ حبل الكذب قصير .

١٦٨٠ ـ الكذب مالوش رجلين .

حتى ولو أتيحت للكذاب فرصة من التخلخل الاجتماعى والسياسى أو حتى النفسى على مستوى الفرد الذى يكذب عليه لكى يجد مرتعا خصيبا لأكاذيبه ، الا أن عامة الشعب بتجربتهم له بالمرصاد ، وعندها يسمعونه مثلهم الشعبى التحذيرى القائل :

١٦٨١ ـ كذابها ربع .

فمهما ساعدته ظروف الخصاب الموقوتة التى تساعده على التوبيخ الا أنهم يحذرونه بالنهاية المؤسفة قائلين :

١٦٨٢ ـ بيدوب التلج وبيبان اللى تحته .

ويندرونه أيضا قائلين :

١٦٨٣ ـ الشمس ما بتتغطى بغربال .

حتى ولو احتـال مستخدما بذكائه كذبا مصففا على حد تعبير المثل القائل :

١٦٨٤ ـ كذب مصفف ولا صدق مبعتر .

الا انهم يتحدونه بمثلهم القائل :

١٦٨٥ ـ المية بتكدب الغطاس .

ويضعونه فى المحك أكثر لكشفه قائلين .

١٦٨٦ ـ هادا الجمل وهادا الجمال .

ويحقرونه أحيانا بقولهم السائر .

١٦٨٧ ـ اللى استحوا ماتوا .

بل ويصفونه بمثلهم الشعبي الدعائي القائل :

١٦٨٨ ـ الله يلعن الندرة اللى ما لهاش عرق .

وهناك نموذج آخر من الرجال يتسم لنا بخصاله صورة كاريكاتيرية المضحك المبكي الملتق عليه بالمفهوم الشعبي الفلسطيني « الاقرع » لا يعني القرع بمفهومه المرضي ، بل ليدلل على سلوكه المعروف بالاتكالية والكسولة ، فقالوا عنه .

١٦٨٩ ـ جيت الاقرع يونسني ، كشف قرعته وخوفني .

فاعتبر الشعب هذه الفئة من الرجال من سقط المتاع التي لا يرتجى منها شيئا فقالوا مستهزئين :

١٦٩٠ ـ عشى رجالك عشى ، اللى اقرع واللى مصدى .

ومثل هؤلاء الأخير في كثير من نجواهم فوصفوهم بمثلهم القائل :

١٦٩١ ـ البطيخة القرعة لبها كتير .

ومن هذه الزمرة اولئك الذين يدعوهم للمساعدة فلا يستجيبون فيمتحنوهم قائلين :

١٦٩٢ ـ جيتك ياعبد المعين تعين لاقيتك بدك معين .

ومنهم الولد العاق الذى يضرب به المثل فى عقوقه فينددوه بمثلهم :

١٦٩٣ ـ اجو يعاتوه فى قبر ابوه اخذ الفاس وشرد .

ويشبهون هؤلاء بكلاب قرية السوافير الفلسطينية الهاربة عند اوقات « الرحمة » اى فى الولائم فقالوا :

١٦٩٤ ـ فلان زى كلاب السوافير عند الرحمة بتغيب .

ويعتبرونهم نكرة فى المجتمع ورقم ساقط من حساباتهم يصفوهم بمثلهم القائل :

١٦٩٥ ـ زى عرب البرارة لا بتعوا فى عده ولا فى غارة .

وهؤلاء العرب « البدو » لاينتسبون لقبيلة معينة (برارة) وبعيدين عن العادات والأعراف والتقاليد البدوية العربية الأصيلة وغالبا ما يمارسون المدح والبحث فقط بين القبائل وليس لهم فى الغزو او المساعدة ساعة - أى أنهم بتعبير المثل :

١٦٩٦ ـ لا فى العير ولا فى النفير .

ويشبهونه بمثلهم النفريطى اللاذع :

١٦٩٧ ـ زى ابو جراب اللى لا ودا ولا جاب .

ونوعا آخر من الرجال افرزتها التجربة الشعبية تميزت بالتفاهة والخيلاء فهى كالطبول الجوفاء فجلتها الأمثال الشعبية وعلى السنتهم قائلة .

١٦٩٨ ـ انا طشت وابريق وزيحو لى من الطريق .

وأحيانا يقولون :

١٦٩٩ ـ يا ارض اشتدى ما عليك قدى .

وحذر المجتمع الشعبي مثل هؤلاء المختالين بقولهم المثل :

١٧٠٠ ـ لا تمشى لا بالطول ولا بالعرض ما على الدنيا فالح .

وكشفوا عن زيفهم قائلين :

١٧٠١ ـ بنهج (يلهث) وهو فى الظل وخايف من شمس بكره .

وعرفوهم بمثلهم :

١٧٠٢ ـ يا شايف الزول يا خايب الرجا .

فهم فى الغالب مناظر فقط لا جوهر لها ولا مخبر ، ولا تنطلى ألوانهم البراقة على أبناء مجتمعهم فهى ألوان غالبا ما يبهت لونها بسرعة وتزول بمجرد تعرضها لأضواء وأشعة الاختبارات الشعبية ، فيكشفونهم بأمثلتهم التوبيخية قائلين :

١٠٧٣ — اللى ما هو ابيض خلقه ، ما بيبيضه من الصابون ميت (مائة) فلقـة .

وبنفس المعنى :

١٧٠٤ — مش كل من ركب الخيل خيال .

١٧٠٥ — مش كل أسمر عنتر .

ويقولون لهم أيضا :

١٧٠٦ — لا كل من حمل الربابة قال ، ولا كل من ركب الفرس خيال .

وقالوا للدنىء الشامخ منهم :

١٧٠٧ — كبر المنافس ع الخنافس .

وسخروا منهم قائلين :

١٧٠٨ — أقرع وعلى رسه ريشة .

١٧٠٩ — عامل لمونة (ليمونة) فى بلد قرفانه .

وأجاد المثل الشعبى حين وصفهم وعرفهم بالصفات التالية :

١٧١٠ — زى فقوس البرك كبير ع الفاضى .

وقالوا فيهم :

١٧١١ — مزوق زى جمال عقيل لا بتنفع فى شيلة ولا فى حطه .

وقالوا :

١٧١٢ — جختك زى طربوش عقل (*) شرابته اطول منه .

وبنفس المعنى قالوا :

١٧١٣ — زى السيف يلمع ولا يقطع ..

وقيل فيهم :

(*) عقل : رجل بمدينة يافا .

١٧١٤ — أعمص وبيجعمص .

١٧١٥ — زى فروة أبو الحصينى كل يوم جاعد .

ومنهم من يسرف على مظهره الخادع فيذكره المثل الشعبى بقوله :

١٧١٦ — اللى على البـدن بيكدش (لايكيـد) حدن واللى فى الايدين بقلع العينين .

على عكس المثل الداعى للتظاهر والقائل :

١٧١٧ — أمرق على عدوك معرش ولا تمرق عليه مكرش .

ومنهم من ينفق على بطنه غير مكترث بمظهره فيحذرونه قائلين :

١٧١٨ — بدل اللحمة والباذنجان هات لك قميص يا عريان .

وقالوا له يوم كان الطربوش غطاء للراس بين العديد من الناس فى المجتمع الفلسطينى .

١٧١٩ — بدال لحمتك وقلقاسك هات لك طربوش على راسك .

ويقال فيهم :

١٧٢٠ — معهمش (ما معهم) يتعشوا جابوا الفجل يدشوا .

وتأسر المظاهر مثل أولئك الأشخاص وتستأثر على معظم تصرفاتهم وفعالهم لكي يعوضوا مظاهر الضعف الكامنة فى نفوسهم ، فيكونوا كرماء وأصـحاب نخوة وشـهامة لمن لا يعرفهم وعلى العكس من ذلك للأقربين وخاصة الأم التى تنعى حظها قائلة :

١٧٢١ — فى السخرة زى المهرة ، وفى شغيلى بيهد حيل .

ويلمحون بمثلهم ساخرين :

١٧٢٢ — بيت القرع بيمد لـ بره .

ويقولون :

١٧٢٣ – فلان زى الشعير أكبر من أبوه .

ويركبهم الغرور والخيلاء كعملية تعويض ورد فعل لماض تعس ومعاناة نفسية رهيبة ، لاتنطلى على أفراد الشعب فيذكرونهم بما فيهم ساخرين :

١٧٢٤ – كبر البصل وا دور ونسى زمانه الأول .

ويرددون لهم أيضا :

١٧٢٥ – كبر البالأنجان واتدندنت اجراسه ونسى قفة الزبالة اللى كانت تنكب على راسه .

ويكشفونهم بوضوح وبمثلهم البليغ القائل :

١٧٢٦ – لا يغرك البردون حين طلوعه يرجع للجدات حين يفرحى .

أى لايغرك الجحش الصغير (البردون) ابن الحمار الجميل عند ولادته فمآلاة العودة بتصرفاته لأجداده عندما يكبر .

وتكشف لنا الأمثال الشعبية عن الجوانب السيكولوجية الخفية لمثل هذه المجموعة من الناس بشكل تحليلى ينم عن دراية فائقة وبصيرة نافذة فقالوا :

١٧٢٧ – اللى شاف حاله انشغل باله .

فالمبالغة باعجاب الانسان بنفسه وبحاله يشغله عن التعقل والادراك السليم للأمور وتشتيت فكره .

ويعتبر هذا المثال الشعبى فى حد ذاته تلخيصا وتقطيرا لما يسمى « بالنرجسية » ، ويعبر أهلنا بسخرية لاذعة على أولئك بقولهم .

١٧٢٨ – هريت توبك يا هبيل من كتر المرمطة والغسيل .

وربما يكون هو الثوب الوحيد لمثل هذا الشاب وفقا لما يقره المثل القائل :

١٧٢٩ – حيلة الشاب يارب .

وباستنتاج بليغ تؤكد لنا التجربة الشعبية بخبرتها الواسعة أن مثل هذه الفئة المهتمة بمظهرها اهتماما يدعو للالتفات وبشكل يلهيهم

فى الغالب عن الاهتمام بسواهم فنجد العلاقة عكسية بين مظهرهم ومظهر زوجاتهم وأولادهم ، فيعريهم المثل الشعبى وذلك بدعوته للآخرين لزيارة بيوت هؤلاء فيقول :

١٧٣٠ – يا شايف الشاب وغندرته ، روح ع الدار وشوف مرنه .

ولا يتورع هؤلاء الشباب من دعوة بعضهن لبيته مكابرا وهو يقف فى قارعة الطريق قائلا :

١٧٣١ – آه يا حلوة لو تيجى دارنا .

فترد عليه وقد كشفت زيفه قائلة :

اجيت داركـــو
وشـــفت حالكو
طبختولى الحـــرير
بقش الحصـــير
مالقتوش ســـريج
عصرتوا لفتيـــل

وعلى الرغم من اهمالهم لبيوتهم على هذا النحو يوضح لنا المثل الشعبى هذه الخاصية عنهم بقوله :

١٧٣٢ – أبو جعران فى بيته سلطان .

ويشبهونهم « بالجعارين » التى تشغل نفسها كثيرا بالأوساخ ثم لا تلبث بعدها أن تطير عاليا فى الفضاء ، فيقولون عنهم قولتهم السائرة .

١٧٣٣ – زى الجعران بياكل خـ ... وبطير فى العالى .

ولانشغال هؤلاء الشباب بأنفسهم تجدهم لا يمارسون أية حرفة أو مهنة فهم من وجهة نظر المعرفة الشعبية « مفلسون » ولكشف عيوبهم هذه يدعونا المثل قائلا :

١٧٣٤ – ان بدك تكشف عيبه دير ايديك على جيبه .

وتستمر الأمثال الشعبية فى عطاءها التجريبى الخلاق فتزيح لنا الستار عن مجموعة من الرجال الأمعات الذين فقدوا القدرة على اتخاذ

مواقف ثابتة لأنفسهم تجاه ما يصادفهم من مشاكل وقضايا ، فهم دوما مع من يحدثهم أيا كان موقفه أو لونه ، فكان المثل الشعبى خير من يصفهم بقوله :

١٧٣٥ ـ ان شالوا العرب شلنا وان حطوا العرب حطينا .

سلوك « حرباوى » يتلون بتلون الظروف والأشخاص أشبه بدوارة الرياح تتجه ومن ما يوجهها الرياح وفى كل الجهات ، وقد أتقن شاعرنا معرفة نهاية المتلونين عندما قال :

ثق بالذى تلقاه لونا واحدا — حرا لأرباب المودة يضبط
قولوا لمن تلاعب فى الودا اما — ترى ورق الغصون فى تلون يسقط

ـ فيمجهم المجتمع ويصيحون فيه أشباح لا حياة فيها وحالهم حال المثل القائل :

١٧٣٦ ـ زى النصرانى اللى أسلم فى الليل لا عيسى شطبه ولا محمد كتبه

ومن الرجال من لا حيلة ولا حول له ويصفونه بمثلهم قائلين .

١٧٣٧ ـ بيغرق فى شبر مية .

ومنهم من لا ادارة له ولا حكمة فى تصرفاته فينعتونه بمثلهم قائلين :

١٧٣٨ ـ يبنى قصر ويهدم مصر .

أى يبنى القليل ويهدم الكثير والكثير جدا .

وهناك المتزمت الصلب الذى غالبا لايملك حنكة المماتنه والتأقلم دائما :

١٧٣٩ ـ حامل السلم بالعرض .

ومنهم وفق التعبير الشعبى « الحر » أى الذى لايقبل الضيم ويعرف كيفية التعامل مع الناس باسلوب طيب ونبيل فيصفوه بمثلهم قائلين :

١٧٤٠ ـ الحر مركب الجدين عم وخال .

فهو اذن طيب وحر بالوراثة فلا عجب فى ذلك بقولهم :

١٧٤١ ـ من شابه أباه ما ظلم .

ويقولون فيه :

١٧٤٢ ـ الشيء من معدنه لايستغرب .

ومنهم سليم النويه لايضمر سوءا لأحد وعليه يطلق الحديث على عواهنه فيبررون موقفه بمثلهم القائل :

١٧٤٣ ـ اللى فى قلبه على لسانه .

ولدى عامة الشعب اعتقاد بأن هؤلاء الطيبين عندما يتحدث عنهم الناس غالبا ما يظهرون عليهم فجأة فيشار عليهم بالبنان قائلين :

١٧٤٤ ـ ابن الحلال عند سيرته يبان .

ولهم مع أولئك الهادئين من الرجال والذى تغلفهم السكينة المفرطة « السواهى » خبرة وتجربة بأنهم يكتمون على أشياء غامضة ومريبة فيكشفون أمرهم بتجربتهم المثلية قائلين :

١٧٤٥ ـ ياما تحت السواهى دواهى .

ومن ضعاف الشخصية رجال يلتصقون دوما بآبائهم يتبعونهم فى كل خطاويهم وهذا ما يستنكره عامة الشعب ، ويرون فى ذلك معابة وعدم نضج فى شخصيتهم وانهم لم يكتملوا فى رجولتهم بعد ، فيرجمونهم بمثلهم قائلين :

١٧٤٦ ـ فلان زى أولاد الخيل دايما فى رجلين أبوه .

ومهما اختلفت تصرفات الرجال وتنوعت ـ وهذا فى العرف الشعبى ـ أمر مفروغ منه وطبيعى أن يختلفون وفقا لما فطروا عليه فيجدون المبرر المريح فى مثلهم القائل :

١٧٤٧ ـ اللى فى البدن ما بيقلعها الا الكفن .

وقد قدمت لنا الأمثال الشعبية نصيحتها ازاء من يتصفون باللؤم من الرجال قائلة :

١٧٤٨ ـ ترك اللئيم فقى مرارة .

فأسلوب « الترك » أى الاهمال لمثل هذا العنصر البشرى سيؤدى الى ايذائه « فقى مرارته » .

الفئات العمرية

وأخيرا قسم الوعى الشعبى بحنكتــه عمر الرجال الى فئات عمرية متميزة خص كلا منها بسماتها النفسية الفارقة ، وقسماتها السـلوكية الوضاحة بأسلوب مثلى شعبى ذكى .

فاطلقوا على الأطفـال دون سن العاشرة اسم « فرفور » واعتبروه فوق مستوى القياس والمساءلة على فعـالة وتصرفاته التى قد تضر عن غير عمد ـ الآخرين وبرأوه فى أحكامهم العرفيـة تحت البند المثلى الشعبى القائل :

١٧٤٩ ـ فرفور ذنبه مغفور .

أما الأولاد فى سن العاشرة فما فوق ، فهم أبرياء أيضا متميزون بالنضارة والعود الغض فوصفوهم قائلين بمثلهم :

١٧٥٠ ـ ابن عشرة ذى الخيارة لقشرة .

وشخصوا ابن العشرين عاما قلبـا وقالبا لما يتميز به فى هذا السن بالتأنق والاهتمام بحسن هندامه لاثبـات رجولتـه وذاتيتـه فقالوا عنه .

١٧٥١ ـ ابن عشرين زهور البساتين .

ومنهم فى هذا السن ، الذى هو ذروة المراهقة من ياتى بتصرفات سلوكية رعناء من الصعب كبح جماحها ناجمة عن انفعالات ربما اكتسبها من رفقاء السوء أو عدم متابعـة الأهل له فى هذا السن متابعـة دقيقـة بشكل مدروس عندها يقولون :

١٧٥٢ ـ ابن عشرين بيعاشر المجانين .

وعليه فلا غرابة ان اندمج معهم أن يطلقوا عليه مثلهم :

١٧٥٣ ـ ابن عشرين مثل المجانين .

حتى اذا ما وصل الشاب لسن الثلاثين عاما اعتبروه انسانا وصل لمرحلة الاتزان والرجاحة العقلية فى تصرفاته وأحكامه فقالوا عنه .

١٧٥٤ ـ ابن الثلاثين أبو العقل الرزين .

وفى سن الأربعين يكون الرجل قد وصـل ـ بالقياس الشعبى ـ لكمال رجولته قلبا وقالبا فخصوه بالتكريم المثلى الشعبى القائل :

١٧٥٥ ـ ابن الأربعين من الكاملين .

وما أن يصل العمر بالرجـل لسن الخمسين فما فوق حتى يربعه مجتمعه الشعبى على سـدة حكمة العرفى الشعبى بأسلوب ديمقراطى شعبى أيضـا ، وبالانتخاب والاختيـار الفطرى ، الم يطلقوا عليـه « اختيار » ؟! ليستلهموا منه الموعظة والحكمة الحسنة ، متخذينه رمزا وقدوة ، ويلقبونه أحيـانا بـ « الشايب » و « الكبير » القابا تستمد جوهرها من الاختيار أى خيرة الرجال وصفوتهم المختارة بينهم جوهرا ، يقدمونه أمامهم قولا وفعلا ووصفا مؤمنين بأن :

١٧٥٦ ـ الدهن فى العتاقى .

لأنهم يبغون دائما الخير للجميع تعنونهم الأثرة وحب الخير لاجله والعمل الصالح والتضحية بما تجود به أيديهم وقرائحهم خدمة للآخرين ، حتى اذا ما فكر أحدهم فى ارتداء ثوب الناصـح لهم بالراحة سـعيا وراء أمور دنيوية ، رفضوا ذلك باجابتهم :

١٧٥٧ ـ بدنا ناخد ايامنا وايام غيرنا !!!

يا الله حسن الختام .

١٧٥٨ ـ يا الله خير وخاتمة خير .

فيهب الجميع داعين له بطول العمر بقولهم الدعائى السائر :

١٧٥٩ ـ الله يحسن ختامك ٠

اما اذا لم يحترم هذا « الشايب » ثقة الناس فيه ، ويقدر الامور العرفية والمجتمعية حق قدرها وبما يتناسب مع سنه الذى يبدو من كساء الشيب لرأسه وخرج عن هالة الوقار ، فلا جرم على مجتمعه ان يبدا بالغمز الهين أحيانا أو اللمز الشديد فى أحيان أخرى بتحذيره المتمثل :

١٧٦٠ ـ شيبنا وشابت لحانا والعقل لمنيح ما جانا !

ولمظهر « الشايب » دوره ، فلابد له من أن يحسن اختيار هندامه الشعبى بما يتناسب مع شيخوخته وكذا انتقاء الالوان ، والبعد عن الصارخ أو الفاقع منها والا استنكروا قائلين :

١٧٦١ ـ ع المكبر لبسوه توب احمر ٠

أو يقولون :

١٧٦٢ ـ يا شايب الدهر فاتك ، امعط من دقنك وخيط عباتك ٠

ويصل الزهد مداه ـ من وجهة النظر الشعبية ـ للرجل الشايب حتى فى طلب العلم لو أراد أن ينهل منه فيقولون :

١٧٦٣ ـ بعد ما شاب ودوه الكتاب !! ٠

وربما تعود قصة هذا الشاب أراد التخلص من أبيه وذلك بارساله الى الجامع ليقيم فيه ، ولما كان الجامع مكانا للدراسة أيضا « الكتاب » ٠ فقد قام بتبرير موقفه بحجة ارساله للتعليم ، فكان الرد عليه بهذا المثل الشعبى مستهجنين هذا الأمر وكأن دنياه قد انتهت . هذا على الرغم من المثل العربى القائل :

١٧٦٤ ـ أطلبوا العلم من المهد الى اللحد ٠

متخطين بذلك حدود الزمان وحتى آخر نفس فى حياة الانسان ٠ كما حثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم اجتياز حاجز المكان طلبا للعلم بقوله « اطلبوا العلم ولو فى الصين » ٠

ويبقى الرجل الكبير نبراسا فى مجتمعنا الشعبى ومشرعا للأعراف وقاضيا لها وهذا ما سنتحدث عنه فى موضع آخر ٠

العصبية العائلية

هكذا تتبنى الأسرة العربية الفلسطينية بلبنات قائمة فى معظمها على عصوبة الحق الأبوى مبتداة بهذا الحق منذ ما قبل التاريخ مع أيام أجدادنا العرب الكنعانيين الذين امتلكوا سلطة التشريع والتنفيذ فى توجيه أولادهم لاختيار زوجاتهم ٠

ويذكرنا ذلك بالكثير من ذوى التخصص بدراسة المجتمعات وتطورها حول هذه الأحقية الأبوية وأفضيلتها الى عهود المجتمع العبودى عند بدء التاريخ (١) ٠

وما انا الا من غزية ان غوت غويت وان ترشد غزية ارشد ٠

وهكذا تأصلت روح العصبية فى الأسرة الفلسطينية كما اتضحت سابقا فى التشديد والتفضيل على الاقتران بابنة العم وابنة العائلة حفاظا على ديمومة العائلية وصلة الدم ، يستنفرها ويظهرها على حقيقتها عادة الثار والشرف والخصومات وسنوضحه بجلاء عند تعرضنا للقضاء العرفى الشعبى فى فلسطين ٠

فالعائلية والقبلية عنوانا ورمزا يتمحور حولها جميع أفرادها عرفا وتقليدا محتوما ، والخروج عنها أو محاولة التنصل منها ، أمرا فاضحا للفرد يعرضه للاحتقار ويصبح معه هدفا للاعتداء عليه بسهولة وعرضة لتأثير القوة الضاغطة المتمثلة فى المثل الشعبى التهديدى القائل :

١٧٦٥ ـ اهلك ولا تهلك :

فمن يقف معه فى السراء والضراء ان لم يقف معه أهله المتعاطفون فيما بينهم ظالمين مؤكدين بمثلهم القائل :

(١) احمد رشدى صالح ـ الأدب الشعبى ـ المرجع السابق ص ٢٠٣ ٠

١٧٦٦ ـ ما يحمل همك غير اللى من دمك :

١٧٦٧ ـ انا واخوى على ابن عمى وانا وابن عمى ع الغريب :

ومذكرين من يند عن المجموعة ويشذ عن دربها بأنه ليس منهم فقالوا :

١٧٦٨ ـ الوحدانى مش من الناس :

رافضين بذلك العزلة والفردية وان اقترف هذا السلوك بعضهم ، الزموه بالوحدة والارتباط بالعائلة لأن :

١٧٦٩ ـ الدم بيصرش ميه (ماء) :

بل وان الدم على حد تعبير قولهم السائر :

١٧٧٠ ـ سيف الأهل من خشب :

١٧٧١ ـ الدم بيحن :

وقالوا أيضا :

١٧٧٢ ـ الدم قتال :

فتشابه أبناء الأسرة الذى اكتسبوه بحكم الوراثة سواء أكان فى لون بشرتهم أم بعض المميزات الجسدية المميزة لهم ، غالبا ما تترك عليهم ملامح وقسمات خاصة بالعائلة نفسها يسهل على الآخرين ممن لهم خبرة وفراسة تمييزهم دون سؤال أو استفسار مما يسهل الاعتداء عليهم وأخذ الثأر منهم بسرعة ـ فيما لو كان عليهم ثأر مسبق ـ وعليه قالوا ـ مثلهم الدم قتال .

ولا يعنى ذلك عدم وجود التنافس بين أفراد العائلة الواحدة الذى قد يصل لحد التباغض والتحاسد فيرى البعض وفق تجاربهم بأن :

١٧٧٣ ـ دمك سمك

١٧٧٤ ـ الأقارب عقارب

وآخرون دفعتهم التجربة للقول :

١٧٧٥ ـ البغض فى الأهل والحسد فى الجيران :

ومن خلال ممارساتهم اليومية فضلوا الغريب على القريب عندما ينطبق عليهم المثل القائل :

١٧٧٦ ـ غريب يهديك احسن من قريب يرديك .

مما يفيد عدم التجانس فى الأمزجة والثقافة العامة ومدى التمسك بالعديد من القيم والمثل عند بعض الأفراد فى العائلة الواحدة فاعترفوا بهذا التباين والاختلاف فى اطار الوحدة العائلية فسجلوها بمثلهم منعا لاصدار الأحكام المطلقة عليهم فقالوا :

١٧٧٧ ـ كل عيلة والها هبيلة :

وقالوا :

١٧٧٨ ـ كل قبيلة والها هبيلة .

وكذلك :

١٧٧٩ ـ كل قرية والها خربة .

وحفاظا على تماسك العائلة وتكاتفها ، وتوطيدا لتكافل أبنائها اختاروا لكل عائلة « اختيار » داعين له بمثلهم الشعبى الدعائى :

١٧٨٠ ـ الله يجعل خيارنا منا وفينا :

وهو فى الغالب أكبرهم سنا لاعتقادهم الأكيد بأنه من أفاضلهم ويقولون أحيانا للدلالة على الغضب عندما يكبر الانسان :

١٧٨١ ـ الكبر عبر .

وقد سبق لنا القول بأن « الخير فى العتاقى » كما أنه أكثرهم خبرة وتجربة وهما قيمتان يقدرهما الشعب الفلسطينى بل ويقدرون قيمة كل يوم من أيام العمر فيقولون :

١٧٨٢ ـ أكبر منك بيوم أوعى منك بسنة .

ومن حيث التجربة ، فهم ينشدون صاحبها دوما ويقدرونه قائلين :

١٨٧٣ ـ اسال مجرب ولا تسال طبيب :

ومتأثرين باختيارهم « كبير العائلة ، أو شيخها » بما يتحلى به من مكارم الخلق ورجاحة العقل والهيبة والوقار ولسان حالهم يردد :

١٧٨٤ ـ اعط خبزك للخباز ولو أكل نصه (نصفه) .

عندما يقلدونه طواعية سـلطة قيادتهم العرفية ليصبح لهم وجها وعينا يلتفون حوله ، فيأتمرون بأمره فى أفراحهـم وأتراحهـم ، فهو المشرع لقضاياهم وما عليهم الا التنفيذ والاقتداء عن ايمان واقتدار بعمق خبرته ونزاهة تصرفاته .

وكبير العائلة أو شيخها يتخذ من « الديوان » أو « المضافة » مقرا له والتى غالبا ما يحتل غرفة كبيرة من منزله أو تقيمه العائلة جميعا بمالها الخاص فى مكان ما على أراضيها يكون معلوما للجميع موقعه وموضحة فيكون لهم بمثابة المحكمة للفصل فى القضايا المحلية للأسرة مع بعضها او مع أسر أخرى ، وهو أيضا « مضافة » يستقبلون فيهـا الناس ، ومنامة لمن قطعته الطريق ، ومنتدى للنقـاش والتسلية ، يجمعهم كبيرهم عندما يدعوهم داعى المستجدات من الأحداث والطوارىء .

ليغدوا « كبير العائلة » أو شيخها « مصدر قوة واعتزاز لهم يلم شمل العائلة ويعضد مكانتها ويحفظ هيبتها من بقية الأسر حتى أضحى وجوده أمرا حتميا وملحا لكل عائلة والا حق عليهم القول المثل :

١٧٨٥ ـ اللى مالوش شيخ شيخه الشيطان .

فيفسد حالهم ويتشتت شملهم وتذهب ريحهـم ، وعندها يامرهم المثل الشعبى :

١٧٨٦ ـ اللى مالوش كبير يشتريلو كبير .

ويعللون هذه الحتمية لوجود رأس العائلة بمثلهم :

١٧٨٧ ـ اللى مالوش كبير مالوش تدبير .

لسوء التدبير هذا سيكون مصيرهم :

١٧٨٨ ـ اللى مالوش كبير بيقع فى البير .

فكبيرهم هو راعيهم وعضدهم القوى وبدونه ينسحب عليهم القول :

١٧٨٩ ـ اللى مالوش ايد [يد] مالوش لكمية .

ليصبح هذا « الكبير » يلعب دور الخادم الأمين لمثل هذه العائلة فيقولون :

١٧٩٠ ـ كبير القوم خادمهم .

حيث لا يأنف عن تقـديم الخدمات صغيرها وكبيرها ولا يتردد فى خدمة قومه .

الفصل الثامن والعشرون

● الديوان (المضافة) القهوة ـ المقهى ـ الدخان

الديوان « المضافة »

ما دمنا بصدد الحديث عن « كبير العائلة » أو شيخها ، فلابد لنا من وقفة للحديث عن « الديوان » الذى يتصدر الجلسة فيه أمام أفراد عائلته خاصة وأبناء الحى أو القرية أو حتى فى البادية داخل « الشق » .

فالديوان أو المضافة وأحيانا يطلقون عليه « المقعد » وفى البادية « الشق » هو فى الحقيقة مدرسة يتلقى فيها الرجال العديد من الآداب الاجتماعية والسلوكية والقيم الأخلاقية وكذا الأعراف والتقاليد التى توارثوها أبا عن جد يتعلمون من خلاله آداب الدخول للديوان وكذا الجلوس فيه والخروج منه وآداب الحديث والمعاملة مع الغير .

فمن المبادىء المثلية الأولى التى يتلقونها داخل الديوان بل وفى مجالسهم أيا كانت :

١٧٩١ ــ المجالس مقامات .

فلكل موضع ومكان داخل الديوان مقام وقيمة معينة ومخصصة لمن تليق به ، فلا يجلس فى صدره الا كبيرهم ، وان حضر ذو مقام أو مكانة دينية أجلسوه بجوار كبيرهم وربما يترك مكانة له ، وهكذا يستمر القادمون فى الجلوس عن يمينهم ويسارهم .

فكما أن للمجالس مقامات يصبح فى أعرافهم كما يقولون :

١٧٩٢ ــ للناس مقامات .

١٧٩٣ ــ الصدر للصدر .

حيث يجلس كبارهم فى صدر الديوان وكلمة أو لقب صدر تعتبر من الألقاب فى العصر التركى « الصدر الأعظم » .

فلكل انسان مقامه سواء أكان لمكانته ووقاره أم لعلمه وتقواه ، أو لشيخوخته فهم جميعا يحفظونها ويمارسونها طبقا لمثلهم القائل :

١٧٩٤ ـ صغيرنا لايكبر وكبيرنا لا يصغر .

فالخصال الحميدة هى على رأس ما يقدرونه ولا يقيمون وزنا لمن كثر ماله وقل أدبه يؤكدون ذلك بمثلهم :

١٧٩٥ ـ الكلب كلب ولو طوقوه بالذهب .

ويعززونه بقولهم :

١٧٩٦ ـ ان سمن الكلب ما بيحل دبحه .

فالرجل الطيب النبيل مهما أعياه الفقر فلا ينقصون من منزلته بل ويبجلونه قائلين :

١٧٩٧ ـ الفرس الأصيلة ما بيعيبها اجلالها والسيف بنصله لابجرابه .

كما لايتركون فرصة للنمام اذا ما تطاول بلسانه على غيره ، فيحذرونه بقولهم السائر :

١٧٩٨ ـ الكلام عليه درك .

أى عليه رقيب وحارس واذا ما تمادى فى غيه قاطعوه .

واذا اقتضت الحاجة للحديث عن غائب ، قالوا وكأنهم يستبيحونه لأنفسهم عذرا قائلين:

١٧٩٩ ـ هوا غايب وملايكته حاضرة .

وعند تجاذبهم أطراف الحديث يترك الصغير دائما فرصة الحديث للكبير وأجادوا الاصغاء له ، اذا دعت الحاجة لمقاطعة أحدهم للآخر للضرورة اعتذر بلطف بجملة سائرة مسار المثل قائلا :

١٨٠٠ ـ ما اقطع حديثك الا على راسى .

فكأنه قدم بذلك عذره واستأذن بلطف بمقاطعة غيره فيرد عليه الآخر « تفضل » .

ويستخدم الجميع كلمة مأثورة يذيلها بحديثه اذ اما احتملت كلمته أكثر من معنى يساء فهمها أو فيها من التورية ، فيدحض بها الشك قائلا بعد لفظها « بلا قافية » .

ويشتد حرصهم عند الحديث على اختيار الفاظ والقاب ملائمة لمن يحدثونه وفقا لمكانته وسنه مثل « يا أخى ـ يا ابن والدى ـ يا والدى ـ ياعمى ـ يا خالى ـ يا شيخ ـ يا اختيار ـ يا سيدى .. الخ » احتراما له وتأكيدا لصدق نياته وتودده بشكل يثق فيه السامع .

كما لهم مصطلحاتهم الشائعة الدالة على رقة الاحساس واللطف المشفوع باللين يستخدمونها عند حديثهم لمنع الحرج والكدر او الشؤم فيقولون مثلا عن الموت اذا ما توفى أحد « فلان تهنا » ، واذا ما أصاب أحدهم شلل قالوا « أصابه لطف » أو نزل عليه لطف » ويطلقون على المقبرة ابتعادا عن الشؤم اسم « برية » أما اذا مرض أحدهم قالوا عنه « مش مبسوط » وأطلقوا على الرجل الفقير تجنبا للحرج لفظ « انجبارى » وأطلقوا على من فقد احدى عينيه « فرد ناظر أو مكرم أو فرد كريمه » .

وتشاءموا من الزلازل التى كثيرا ما أصابت فلسطين بضرباتها التى دمرت العديد من المبانى والمؤسسات (١) فاطلقوا عليها « مباركة » تخفيفا لما تحدثه من رعب .

القهوة والدخان

وفى غمرة الحديث والنقاش تدار عليهم القهوة السادة (المرة) بفناجيلها الرقيقة وبكمية قليلة تلتصق فى قعره ، لأنهم يتشاءمون من ملء الفنجان ويتهمون من يملؤه لهم ـ مداعبين ـ بسوء نيته ، ولا تقدم القهوة المرة هذه فى العادة للنساء فهم يرون أن :

١٨٠١ ـ السادة للسادات .
والحلوة للستات

واذا قدمت القهوة السادة للنساء قاموا بملء الفنجان لهن لاعتقادهن عدم قناعة المرأة بالقليل (١) .

(١) سليم المبيض ـ غزة وقطاعها ـ الهيئة العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٨٧ ص ٣٥ .
(٢) عارف المعارف ـ القضاء بين البدو ـ القدس ١٩٣٣ ص ٢٠٥ .

وللقهوة طقوسها الخاصة بها داخل الديوان سواء عند تحميصها او دقها وطحنها او غليها وكذا عند توزيعها على الحاضرين . ولكل مرحلة من هذه المراحل ادواتها المستخدمة لهـا ما يحتاج لدراسة خاصة بها ، لكننا نظل هنا مقيدين فقط بما قالته عنها الأمثال .

وقبل الحديث عن أمثال القهوة الشعبية نذكر بأن القهوة خرجت من الحبشة من منطقة تدعى « كاف » ومنها لليمن ثم مكة ، لتصل الى مصر بين عامى ٩٠٩ هـ و ٩١٧ هـ (١٥١١ م) (٣) . أى فى أواخـر العهد المملوكى ومنها نقلت لفلسطين وبقية منطقة الشام على يد اثنين من أبنائها التجار هما حاكم وشمس ، وكأى شراب جديد لاقت نقاشا وحوارا حادا عن مدى قبولها واستخدامها من الوجهة الدينية الاسلامية ، وأخيرا أقر الصوفية استخدامها وشرابها فى القرن السادس عشر الميلادى كعامل مساعد لهم على السهر واقامة الأذكار والأوراد ، ويقال ان أول من أشاعها باليمن هو على بن عمر الشاذلى وهنـاك قول بانه أبو بكر بن عبد الله الشاذلى ، لذا سميت بالشاذلية (٤) كما جاء فى كتاب « شذرات الذهب فى أخبار من ذهب » لابن عماد .

لذا نجد بعض القبائل العربيـة الفلسطينية فى النقب تطلق على « البكرج » الذى يصب منه القهوة اسم « الشاذلى » .

وعادة ما يقوم باعداد القهوة رجل مختص بذلك أو كبير الديوان نفسه ويلخص أدوار اعدادها المثل القائل :

١٨٠٢ ـ القهوة حماصها لطيف ودقاقها خفيف ، وشرابها كييف .

فحماصها هو الرجـل الذى يضع البن فى « المحماس » فوق النار يقلبها بيده بلطف يمنة ويسرة ثم لأعلى وأسفل بحركات تدل على خبرة فائقة وخفة ورشـاقة حتى تنال منها حرارة النار جميعا بالتساوى حتى يميل لونها للاحمرار المائل للسواد .

ثم يفردها بعد ذلك على الأرض قليلا ثم يضعها فى « المهباش » الخشبى الذى يستخدم فى شمال ووسط فلسطين وفى مدن غزة يطلقون عليه « الهون » ويصنع من الفخار وفى البادية يسمونه « نجر » و « جرن » ،

(٣) انظر المرجع السابق لعارف العارف ص ٢٠١ ـ ٢٠٢ وانظر مجلة الهلال ـ عدد أكتوبر ـ ١٩٨٦ ص ٩٧ .

انظر عارف العارف ـ القضاء بين البدو ـ المرجع السابق ص ٢٠١ وكذلك مجلة الفيصل ـ العدد الرابع ـ المرجع السابق ص ١٢٠ .

وكذلك « المهباج » يدق فيه البن بعصـا طويلة وغليظة من الخشب الصلب يسمونها « ايد الهون » يتميز من يمسكها بيده بخفته لما يحدثه من دقات ذات ايقاع جميل وهو يطحنها مصطحبة أحيانا بنغمات اهازيجه العذبة . ويتحكم فى درجة طحنها فاما أن يجعلها « خشنة » وهذا ما يلائم القهوة السادة أو ناعمة كالمسحوق . ليضعها بعد ذلك فى « البكرج » الكبير الموضوع فى « الكانون » أو « المنقل » المملوء برماد النار الساخن لتظل القهوة محتفظة بسخونتها ، وعليه يقولون :

١٨٠٣ ـ القهوة بالرميش والنار بالحرفيش .

اى أن القهوة وهى بالبكرج تحتـاج الى « الرميش » أى الرماد الساخن المتخلف من نار الحطب السريع الاتقاد والمسمى « حرفيش » .

أما شرابها كييف فهذا ما يتميز به العربى الفلسطينى سواء أكان فى البـادية أم فى القرية والمدينـة فهو ذواقة وذو مزاج فى تنـاوله لها ويقدر تماما مذاقها وينصح قائلا عند طبخها :

١٨٠٤ ـ أجرشها جرش واطبخها هرش .

أى يكون بنها مجروشا وطبخها على النار بشكل يقدمها للنـار تارة ويرفعها تارة أخرى وهو ممسك بالبكرج ، بحيث تغلى على النار لفترة طويلة (هرش) بمعنى كبير جدا .

وما أن ينتهى من اعدادها حتى يقوم كبير الديوان برشـف أول فنجان منها حتى ولو كان بين الجالسين من أهو أكبر منه سنا أو قدرا . وذلك للاطمئنان على سلامة طبخها ومذاقها ومنعا للنقد من جانب الآخرين ثم لطمأنة الجالسين والضيوف ودحضا لأية شـكوك . ففى نظرهم العرفى المثل :

١٨٠٥ ـ القهوة سمرة لكن بتبيض الوجه .

فان كان لون القهوة أسمر الا أنها ترفع من شأن صاحبها ومكانته وتبيض وجهه بالمفهوم الشعبى أمام ناظريه وضيوفه .

وبعدها يصدر كبير الديوان تعليماته للرجل الذى يقوم بتوزيع القهوة على الجالسين بعبارات وكلمات محسوبة ومألوفة ولهـا دلالتها الشعبية المعروفة فيقول :

صب القهوة : اذا كان الجلوس من الأهل والجيران ممن اعتادوا ارتياد الديوان يوميا .

قدم القهوة : اذا كانوا ضيوفا لهم قدرهم أو قادمين من مكان بعيد . فتقدم لهم القهوة على صينية دلالة على تقديرهم .

ارفع قهوة : عندما يكونون ضيوفا من الوجهاء والأعيان من خارج المدينة او القرية فتقدم لهم فناجين القهوة بداخل أقداح خاصة فوق الصينية .

اما من أين يبدأ توزيع القهوة ؟ فهذا يعود لما ورثه من مبادىء شعبية تقول :

١٨٠٦ ــ دور القائمين من اليمين .

أى يبدأ من يمينه مباشرة ان كان جميع الضيوف متجانسين فى أعمارهم وقدرهم من الأهل .

أما اذا كانوا مختلفين سنا ومكانة وبينهم ضيوف من أماكن متفرقة فانه يتبع الارشادات المثلية الشعبية القائلة :

١٨٠٧ ــ القهوة خص والشاى قص .

أو

١٨٠٨ ــ القهوة نص والشاى قص .

أن يبدأ بتوزيع القهوة للخاصة ، وهم كبار السن ليتلوهم الأصغر فالأصغر حتى يشرب الجميع . أما الشاى فلا خصوصية فيه ، فيتبع الدور من اليمين لأنه فى نظرهم أقل قيمة وقدرا من القهوة التى وضعوها على رأس المشروبات قائلين عنها :

١٨٠٩ ــ القهوة زعيمة .

ولابد لمن يشرب القهوة أن يرد الفنجان يدا بيد لمن سقاه ، وألا يتركه أمامه على الأرض ، وفى البادية ينادى على ساقيه ويسلمه الفنجان قائلا « هاك الراجع » .

وفى العادة يعاد توزيع القهوة على الجالسين ثلاث مرات فى فترات متقطعة يعللون ذلك وفقا لمثلهم القائل :

١٨١٠ ــ اول فنجان للضيف والثانى للسيف والثالث للكيف .

وبعدها يكف عن التوزيع واضعا « صباب القهوة » على المنقل أو الكانون ولا يصب لأحد الا عند طلبه بنفسه .

أما اذا فاجأ الديوان رجل له مهابته ومكانته وهم يشربون القهوة أمر كبير الديوان بعمل القهوة له من جديد تكريما له ، الا اذا أقسم الضيف أو أصر على غير ذلك واكتفى بشرب القهوة الموجودة .

وهناك حالة واحدة يتحول فيها دور القهوة الزعيمة من مكانتها الأولى الى مكانة تالية أمام « مناسف الأكل » التى تقدم للضيوف عند الولائم والأفراح والتى تتألف عادة من الأرز المجلل باللحوم ، فيتبعون عندها مثلهم القائل :

١٨١١ ــ القهوة قص والمناسف نص .

فيخصون أولا مناسف الأرز هذه لذى المكانة أو السن وبعد انتهاء الأكل تدار عليهم القهوة متبعين الدور من اليمين دون النظر للمكانة الاجتماعية أو أى اعتبار حتى ولو كان أبو زيد الهلالى ــ على حد تعبيرهم الشعبى ــ يجلس أقصى اليسار .

كما أنهم يفضلون القهوة المتبقية فى « البكرج » عند آخر النهار عن تلك التى تصب للضيوف أو الجالسين فى البداية قائلين :

١٨١٢ ــ آخره احسن من اوله .

بيت القهوة « المقهى »

ليس لدينا ما يؤكد انتشار المقاهى فى فلسطين لأبعد من الفترة العثمانية ، حيث بدأت فى استانبول زمن السلطان مراد الرابع [١٦٢٣ ـ ١٦٤٠ م] ثم قاوم وجودها وأمر باغلاقها بعد أن تبين له تجمع رجال السياسة الساخطين والجنود المتمردين يحيكون ضده خططهم ومؤامراتهم للعصيان والانقلاب (١) .

ثم أبيح فتحها والتردد عليها وفى القرن الثامن عشر الميلادى وبالتحديد زمن السلطان أحمد الثالث زار الشيخ النابلسى الدمشقى قرية العيزرية المقدسية بفلسطين ومر بسوقها حيث رأى « بيت القهوة » وقد اكتظت بالرواد الذين كانوا يغنون بأنواع الأغانى والألحان المختلفة ، وكان ذلك فى عام ١٧٣٠م (٢) .

كما ذكر الجبرتى مقاهى مدينة غزة سنة ١٧٩٩م فى أثناء الاجتياح الفرنسى البونابرتى لها موضحا ذهاب الناس لها بعد الافطار لسماع النقول عن الراوى فى « القهاوى » (٣) واستمر الحال بالمقاهى تلعب دورها الاجتماعى الترفيهى والثقافى الى حد ما حتى نهاية الأربعينات وبداية الخمسينات من هذا القرن حيث يتفق صاحب المقهى مع راوى خاصة فى ليالى الصيف فيعتلى منصة مرتفعة وبيده الربابة ليقص على الناس سيرة عنترة بن شداد و « أبوزيد الهلالى » فيندمج الناس معه بهذه البطولات

(١) احسان النمر ـ تاريخ جبل نابلس والبلقاء ـ الجزء الثانى ـ المرجع السابق ص ٣٠٤ وانظر أيضا مجلة لهلال ـ عدد أكتوبر سنة ١٩٨٦ ص ١٠٦ .

(٢) المختار فى كتاب الحضرة الأنسية فى الرحلية القدسية ـ الشيخ عبد الغنى النابلسى المقدسى شرح وتعليق احسان النمر ـ نابلس ـ ١٩٧٢ ص ٥٢ ـ ٥٣ .

(٣) المختار من تاريخ الجبرتى ـ اختيار محمد قنديل البقل ـ كتاب الشعب ٣١ ـ الجزء الثالث ـ القاهرة ١٩٥٨ ص ٣٠٠ .

بل وينقسمون على أنفسهم فمنهم من يشايع « أبوزيد » وآخرون يتعصبون ويناصرون « دياب » ويحضرنى فى هذا المقام صورة المرحوم « أبو الراعى » ذلك الصياد الغزى صاحب الشارب الطويل الكث الذى لا يتلاءم مع جسمه النحيل القصير وعلى كتفه بندقية الصيد اللصيقة بظهره فى غدوه ورواحه ، وهو جالس فى منتصف المشاهدين بالمقهى يسمع الراوى الذى ما يكاد يذكر بأن أبوزيد الهلالى وقع من على حصانه ، حتى ينهض مصوبا بندقيته على رأس الراوى صائحا فى وجهه : أبوزيد لا يقع عن حصانه .. غير وبدل » فيسرع الراوى بالقول : « ونهض أبوزيد كلمح البصر فامتطى صهوة جواده » .. عندها تنفرج أسارير « أبو الراعى » فرحا ويهتز شاربه طربا وسط التصفيق من مؤيدى « أبو زيد » ومحبيه ، فيخفض عندها بندقيته ويجلس مرتاحا . وهكذا يكون موقف الطرف الآخر فيما بعد لو انهزم دياب .

وفى هذه الأثناء تقدم القهوة والشاى يشربونها وهم يدخنون سواء سجائرهم أو « الشيشة » أى الأرجيلة ، وقد دخل الدخان لفلسطين من الغرب ومن أمريكا بالتحديد . وقد ذكر لنا النابلسى أنه فى عام ١٧٣٠م تحاور مع الشيخ الفلسطينى « موسى المغربى » فسأله « اباحة الدخان وما كان يخرج من تلك النار الدخان » ويقول ثم رد علينا ـ ولا ندرى كيف كان الرد سلبا أم ايجابا لكنه يبقى أن التدخين كان منتشرا بفلسطين فى هذه الآونة وربما من مدة ليست ببعيدة مادامت المناظرة والمحاورة عليه قائمة .

ويبدو أن عادة التدخين هذه قد قوبلت بالابتذال على الرغم من أن الذوق الشعبى قد زواج بين هذه العادة الجديدة وبين شرب القهوة فقالوا :

١٨١٣ ـ دخان بلا قهوة جندى بلا فروة .

وكانوا يدخنون بداية بغليون مصنوع من الفخار أسموه « جمق » متصل ببوصة طويلة . وقالوا بنفس المعنى الذى يفيد التلازم بين القهوة والدخان :

١٨١٤ ـ قهوة بلا دخان زى اليهودى بلا حاخام .

واعتبروا عادة التدخين من العادات غير المرغوب فيها وسيئة العواقب محذرين من يمارسها بمثلهم الشعبى :

ـ المختار من كتاب الحضرة الأنسية فى المرحلة القدسية ـ المرجع السابق ص ٥٢ .

١٨١٥ ـ الدخان اوله دلع وآخره ولع ·

واصبح المدخن عرضـــة للتهكم الشعبى خاصـــة بعد ان تتحكم وتستفحل به هذه العادة فينعتونه بمثلهم الشعبى الذى لا يخلو من السخرية اللاذعة قائلين :

١٨١٦ ـ حرق حارة تيولع سيجارة ·

وقد تغزل فى التدخين بالأرجيلة الشيخ الفلسطينى (*) :

يا صاحب الكيف لا تترك اراجيله
ولا تضن بهـــا من كان راجى له
لهـا لســـان غدا يقرا أناجيـــله
من كل فكر به الهموم ناجى له .

وقال أيضا :

ولهـا بدقة خصرها رقص على ... راس القلوب يرى لكل معـــانى
وتفوه فى وقت الوصـــال بالسن ... تغنى عن القـــانون والألحان
وتبيح دوما مص مرشـــفها الشهى ... لذوى النشـــاط ونزهة المشتاق

ومن هنا قال أصحاب التدخين قولهم السائر :

١٨١٧ ـ راس بلا كيف قطعه اولى ·

ثم أخذ السكان يدخنون بواسطة « الشيشة » أو الأرجيلة متباهين بارتفاعها وطول أنبوبها · وعندما سئل أحد المدخنين أيها أكثر سوءا على الصحة التدخين بالشيشة أم بالغليـــون ؟ فرد عليهم بما أصبح مثـــلا شعبيا قائلا :

١٨١٨ ـ كما حنا كما حنين والله يلعن الاتنين ·

١٨١٩ ـ السيكارة [السيجارة] ما خلت فى جيبى ولا باره ·

وعلى العموم لم يفضل الشعب الفلسطينى السهر طويلا سواء أكان

(*) الشيخ عثمان الطباع وقد دونها فى سفينته المخطوطة سنة ١٣٢٥ هـ ·

فى الديوان او الشق أو فى المقاهى العامة ، لأن معهم روادها كان من عامة الشعب التى تفضل النوم مبكرا معتقدين بمثلهم الشعبى القائل :

١٨٢٠ ـ السهر سوس العظام ·

ليفيقوا مبكرين نحو مزارعهم وهم فى صحة جيدة وعافية قوية · فلا عجب أن ترى القرية أو حتى المدينة تنام مع غروب الشمس بعد صلاة العشاء مباشرة · وهذا ينسجم مع تعاليم الدين الحنيف « وهو الذى جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا » صدق الله العظيم « الفرقان ٤٧ » ·

الفصل التاسع والعشرون

- الجار والجيرة
- الصـــــداقة

الجار و « الجيرة »

الجار فى المجتمع العربى الفلسطينى أو « الجيرة » بالمنطوق الشعبى من الركائز الأولى الداعمة للحياة الاجتماعية الشعبية سواء داخل أحياء المدينـة وازقتها أو فى مجتمع القرية ذات المبانى المتكتلة المتلاصقة كقوة دفاعية بل هى فى الحقيقة قلعة دفاعية سندها الجار ، فأحالوا الجدار الفاصل بينهم قوة واصـلة ولاحمة فيما بينهم فأصـبح بمثابة الجدار الاستنادى لكل منهم · حتى غدت هذه « الجيرة » المنافس الشديد لعصبية الدم وذوى القربى ، دعمتها منذ النشأة المدنية دوافع الأمن وقواها الدين ورسختها الملكية فمعظم أبناء المدن أو القرى داخل فلسطين يسكنون بيوتا ملكوها أبا عن جد · فأصبح الثبات والتجذر ديدنها مما قوى أواصر الود فيما بينهم وجعلهم يتواصون على بعضهم بالخير فقالوا :

١٨٢١ ـ النبى وصى على سابع جار ·

مثل شعبى استمدوه من نبيهم الكريم الذى أمرهم وأوصاهم على الجار وجار الجار قد قيل كاد أن يورثه ·

ومن خلال تلاحمهم أصبحوا على يقين تام بأن :

١٨٢٢ ـ جارك مرآتك ان ما شاف وجهك شاف قفاك ·

اذن لا محال من تقدير « الجار » وطرح الثقة المتبادلة فيما بين الجيران لرؤيتهم جميعا لبعضهم البعض ويوميا ولو بالنظرة العفوية التلقائية لأهل بعضهم ، وقد عبروا عن ذلك تأكيدا للمثل السابق قائلين :

١٨٢٣ ـ جارك قدامك ووراك ان ما شاف وجهك شاف قفاك ·

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى اعتبروا الجار ظهيرا لجاره عند

الحاجة فحرصـــوا على الوقوف بجانبه لأن الله ســـيقف معهم مادامو متآزرين .

١٨٢٤ ـ الجار بالجار والكل بالله .

مادام الحال كذلك ، فليس من السهل أن يفرطوا فى الجار مهما جار عليهم فقالوا :

١٨٢٥ ـ الجار جار ولو جار .

١٨٢٦ـ الجار للجار ولو رجمك بالحجار .

لأنه أعلم بأحوالهم ، وبأدق أمورهم ، بما اكتسبه مع طول السنين فقالوا :

١٨٢٧ ـ قال : مين أعرف بحالك .. قال : ربك وجارك .

ويقولون أحيانا :

١٨٢٨ ـ ربك وجارك أعلم بحالك .

وفسروا ذلك بصورة أعمق قائلين :

١٨٢ ـ ما بيعرف أسرارك غير ربك وجارك .

من هنا كان البحث عن الجار منذ البداية أمرا فى غاية الحساسية والدقة لدى الشعب الفلسطينى لا فى السكن فحسب بل وحتى عند شراء الأرض الزراعية حيث المجتمع الشرقى المسلم والمحافظ الذى غالبا ما تقف الزوجة كتفا بكتف مع زوجهـا كما فى المنزل وأيضـا فى « الحاكورة » أو المزرعة .

فترجموا هذا الحرص قائلين :

١٨٣٠ ـ اسأل عن الجار قبل الدار .

وقالوا أيضا :

١٨٣١ ـ اسأل عن الجار قبل ما تشترى الدار.

وقد أمدنا التراث الشعبى الزاخر بتجاربه التى عبر عنها بأمثاله الشعبية الجامعة بأن «الجيران» أنواع فهناك « جار الهنا » وآخر «جار السوء»

لكى تدلل تجاربنا الشعبية بذلك على شموليتها وصدقها المتمثل فى وجود النقائض والأضداد داخل المجتمع وهى سمة من سمات التكامل والتوازن فى أى مجتمع سوى .

فهم من حيث المبدأ وضعوا قواعد أصولية شعبية تمنوا فيها الخير وعملوا من أجله للجار فقالوا :

١٨٣٢ ـ تمنى الخير لجارك تشوفه فى ديارك .

١٨٣٣ ـ ان كان جارك بخير انت بالف خير .

١٨٣٤ ـ بات يا جارى بخير ببات انا واياك .

فلماذا كل ذلك ؟ لايمانهم بان طلب الخير له سيعود عليهم بالمنفعة او اتقاء لشره فقالوا :

١٨٣٥ ـ اطلب لجارك الخير ان ما نلت منه تكتفى شره .

وان كل شىء يصيب الجار فسيأتى الدور عليه من بعده سواء بالخير او الشر وقد عبروا عن ذلك رمزا بمثلهم القائل :

١٨٣٦ ـ ان حلق جارك ، بل انت ، ما بعد جارك الا انت .

وبالتالى رفضوا معاداة الجار وحثوا على حسن معاملته وهـذا أضعف الايمان فقالوا بمثلهم متسائلين باستغراب .

١٨٣٧ ـ الجار اللى بتصابحه وتماسيه ، كيف تعاديه ؟! .

وباختصار أبلغ :

١٨٣٨ ـ جار بتصابحه ، كيف تقابحه ؟! .

وعليه أكدوا ذلك بصيغة الأمر :

١٨٣٩ ـ اللى بتصابحه لا تقابحه .

وطمانوا بعضهم البعض بغض البصر ، بشكل ينم على حسن الخلق فقالوا :

١٨٤٠ ـ من يم الجارات رمد العيون احنا .

أى من ناحية الجارات ويعنون بذلك « النساء » فان أعيننا مصابة بالرمد صورة مثلية بلاغية سواء فى الوصف أو التصوير .

فالجيرة من هذا النوع وبهذه الضوابط السلوكية والخلقية الرفيعة التى نتحكم فيها وتوجهها ، لا نجد غرابة فى قولهم :

١٨٤١ ـ جارك القريب ولا اخوك لبعيد .

وبلغ الحد بقيمة الجار وتقديرهم له بقولهم :

١٨٤٢ ـ الجيران احسن من الأهل .

وتبدو قيمة الجار بعد هذه القواعد الخلقية التى أرسوا قواعدها فى تلبية حاجاتهم اذا ما أحوجتهم الظروف ، فها هى احداهن تعبر عن ذلك بمثلها الشعبى قائلة :

١٨٤٣ ـ لولا جارتى لانفرت مرارتى .

فجارتها تفرج عنها الكثير سواء بصورة نفسية أو بشكل مادى ، وتوضحها هنا عندما تقول :

١٨٤٤ ـ بتاكل من خزانتها وبتحن ع جارتها .

ويعلل المثل الشعبى هذا السلوك بحتمية حاجة الجار للجار مهما بلغ من اكتفائه الذاتى فيقول :

١٨٤٥ ـ الجار للجار ولو على بصة نار .

وعليه أقروا أسلوب المقايضة الشريفة والمتبادلة وقد غلفوها بمجاملة مثلية لطيفة قائلين :

١٨٤٦ ـ رغيف برغيف ولا يبات جارك جعان .

وهناك المقايضة الرقيقة بين الجيران وخاصة فيما بين النساء والقائمة على تبادل الملابس والثياب بالوانهـا الجميلة والتى قد تبدو فيها احداهن أثناء الفرح ، وعندها يرسلون بمثلهم الشعبى مداعبين بفكاهة ذكية قائلين :

١٨٤٧ ـ ان كترت الألوان اعرف انها من بيوت الجيران .

كذلك قد ينسحب هذا المثل ليدل على تبادل « الأكل » اذا ما راوا اصنافا عديدة على مائدة الطعام عند البعض . ليدلل من ناحية أخرى على روح التكاتف والتآزر والتكامل فيما بينهم . فمن عاداتهـم لو أرسلت جارة لجارتها صحنا من طعامها أو فاكهة مما عندها أن لا تعيد الجارة صحن جارتها فارغا بل تملؤه مما عندها وان لم يتيسر لها فى ذلك اليوم أبقته عندها لليوم التالى فقد يتاح لها فيه رزق جديد فترسل منه لجارتها فى صحنها نفسه .

تلك هى « جيرة الهنا » وهذه هى ملامحها .

ولكن ماذا عن جار السوء ؟

حاولوا جاهدين وبوحى من جميع المنطلقات الخيرة والضوابط الطيبة التى يجب أن تسود بين الجيران الابتعاد عن الاساءة للجار متبعين أقصى حدود ضبط النفس واتباع أسلوب الحياد عند حدوث الخلاف قائلين :

١٨٤٨ ـ صباح الخير يا جارى ، انت فى حالك وانا فى حالى .

واضعين فى حسبانهم أن لكل انسان ظروفه ومعاذيره يجب الأخذ بها والقياس بذلك على أنفسهم فقالوها مثلا شعبيا :

١٨٤٩ ـ من حالك اعذر جارك .

والتذرع بالصبر وابداء المرونة حيـاله نابع من تجربتهم المثليـة القائلة :

١٨٥٠ ـ جار الخير بيعدى وجار السوء بيعدى .

فعمل الخير لكليهما سواء جار الخير أو جار السوء عمل فاضل لأنهما سيزولان مع الزمن ويبقى عمل الخير .

أما اذا استفحل الشر من جار السوء فهناك وصية مثلية تعـالج الموقف بقولها :

١٨٥١ ـ ان أبغضك جارك حول باب دارك .

وهناك وصية أخرى حياله قائمة على الصبر عليه لأن الزمن كفيل بحل المشكلة سواء برحيله أو موته فتقول :

١٨٥٢ – جار السو طول بروحه يا بيرحل يا بتطلع روحه .

واذا شب الخلاف والاتهـــام بين الجيران قدمت التجربة الشعبية نصيحتها المثلية القائلة :

١٨٥٣ – فتش دارك قبل ما تتهم جارك .

واحيانا طلبوا منه قائلين :

١٨٥٤ – سكر بابك ولا تتهم جارك .

فما هى أسباب هذه الاتهامات ؟ وما المشاكل التى قد تحدث بينهم وما أنواعها ؟ .

اولها واخطرها افشاء الجار لأسرار جاره مما يدفعهم الى ســؤاله مؤنبين له ومعاتبين عبر مثلهم الشعبى القائل :

١٨٥٥ – انت جار ولا كشاف اسرار .

لأن واجب الجار على الجار وفق أعرافهم الشعبية هو :

١٨٥٦ – الجار مش لازم يكشف أسرار .

ومن مشاكل الجيران أنانية البعض منهم حين يأخذ ولا يعطى والأفدح له كان يمتلك ويأخذ ما عند جاره وعنـــدها يصفونه بمثلهم الشـــعبى موبخين :

١٨٥٧ – جار السو ما اراده ، اللى معنا اخده واللى معاه خباه .

ومما يثير الاشكال « الجار المنان » الذى يعير جاره اذا ما قدم له عونا وقد أوضحوه بهذه الصورة المثلية البليغة بقولهم :

١٨٥٨ – صحن جارى على باب دارى ، لا شبع شبعنى ، بس المعيار جانى

وبذات المعنى والمضمون يقولون على الجار المنان :

١٨٥٩ – لقمة جارى ما تشبعنى ، ومعيارها متبعنى .

لذلك فضلت كثير من النساء تجنب الاعتماد على غيرهن من جراء هذه التجارب رافضات أخذ الأشياء او استلافها « العيرة » حتى من أمهاتهن قائلات مثلهن الشعبى :

١٨٦٠ – الله يجى العيرة ولو كانت من امى تطلبها ولا تستحى منى .

حتى أنهم رفضوا حتى الشكوى لغيرهن تفـــاديا لتأنيب الآخريات لهن فقالوا :

١٨٦١ – ان حكيت للجار عيرنى وان صبرت للدهر حيرنى .

وقد يكون الحسد أحيانا سببا من أســباب الخلافات بين الجيران فقالوا :

١٨٦٢ – الحسد فى الجيران والبغض فى الاهل .

وخروجا من هذه المآزق فضلوا عدم الاعتماد كثيرا على جيران السوء والا وقعوا فريسة لما يقوله المثل :

١٨٦٣ – اللى يركن على لحاف جارتو يبات يردح فى الندى .

بذات المعنى قالوا :

١٨٦٤ – اللى بيركن على جارته بتنفقى مرارته .

لأن :

١٨٦٥ – خميرة جارك ما تخمر لك .

وعليه يقولون :

١٨٦٦ – الشاطره تقضى حاجتها ، والهاملة تنده جارتها .

هذه الفئات من جيران السوء الذين يصابحون بعضهم البعض كل يوم ، اعتبروا ذلك جحيما لا يطاق فقالوا :

١٨٦٧ – سوء الجوار امر من عذاب النار .

بل هى النيران نفسها :

١٨٦٨ – الجيران نيران .

خاصة وانهم يعيشون وجها لوجه :

١٨٦٩ ـ بابى على بابك يا طول عذابك ٠

وفى مثل هذه الأحوال الجهنمية لجار السوء فضلوا لو يعيشون فى منازل بلا جيران حتى ولو دفعوا آلاف الدنانير الذهبية :

١٨٧٠ ـ دار بلا جار تسوى الف دينار ٠

واحيانا تمنوا السكنى فى العراء ولا الجوار السىء فقالوا :

١٨٧١ ـ الخلا ولا جار السو ٠

ومنهم من فضل كومة من حجارة تجاوره عن جار السوء :

١٨٧٢ ـ كوم حجار ولا ها الجار ٠

وبلغ الكره مداه عند احداهن فرأت أن تكب طعامهـــا فى قارعة الطريق على أن تقدمه لجارتها السيئة قائلة :

١٨٧٣ ـ برميها فى الحارة ولا بعطيها للجارة ٠

وبنفس المعنى والمبنى قالت :

١٨٧٤ ـ كبه فى الحارة ولا تطعمه للجارة ٠

وتبقى الامرأة الرعناء والفرارة التى سبق وأن تحدثنا عنها ، ومدى ارتباطها بجارتها التى لا تستطيع الاستغناء عنها اذا ما خرجت جارتهـــا هذه ، عندها يسالونها بمثلهم الشعبى بتعجب ملؤه الاستهزاء :

١٨٧٥ ـ وين تروح الرعنا بعد جارتها ؟!! ٠

أما اذا تصادف وقد رأتها جارتها فى الشارع أو عند احدى الجارات فهذا يكفى ولا داعى فى ذلك اليوم لزيارتها فى بيتها مخلدين هذا الموقف الكوميدى بمثلهم القائل :

١٨٧٦ ـ رأتنى ورايتها ، تامم على خرق بيتها !!

وربما كان بسبب هذه الخلافات التى قد تطرأ بين الجيران قدم المثل نصيحته قائلا :

١٨٧٧ ـ تزاوروا ولا تتجاوروا ٠

مفضلا بذلك تبادل الزيارات التى قد توطد المحبة والصداقة عن « الجيرة » التى قد تسبب الخلاف ٠

الصـداقة

الصداقة والصديق أو « الصاحب » ظاهرة اجتمـــاعية بارزة فى الوسط الشعبى الفلسطينى يتسلح بها أفراد المجتمع وفقـــا للحيثيات البيئية السالفة الذكر وبحكم طبيعة الانسان كحيوان اجتماعى بفطرته ، يتوق لمن يصدقه ، ويبحث حثيثا عن من يصادقه ، فهو ملاذه عند الضيق ، ووعاؤه الذى يفرغ فيه همومه ويثبت فيه أسراره وأتراحه ٠

فأصبح كل فرد فى كل حى وحارة سواء أكان مدنيا أم ريفيا قرينا بصديق يكاد يكمله ، يجمعهما بعد فراغهما من العمل اما شارع يسيرون فيه أو مقهى يجلسون فيه ٠ أو داخل الديوان ، حتى لا يكاد يرى أحدهم منفردا حتى ينقضوا عليه بأســـئلتهم « وين صاحبك عنك ؟! » وهم يبتسمون وبالمقابل فهـم يضيقون ممن يرونه بلا صـــديق ويكرهون « الانفرادية » ويصفونه دوما بالرجل « الوحدانى » أو « فى حاله » وسبق أن ذكرنا قولهم المثل « الوحدانى مش من الناس » ٠ والوحدانية بالمفهوم الشعبى هنا تعنى الانفراد بالذات دون أن يكون له أصدقاء أو لكونه يفضل هو كذلك ٠ عكس الوحدة التى يخلو بها المرء بنفسه أحيانا بعدا عن شرور الناس وعندها يمتدحونها قائلين :

١٨٧٨ ـ الوحدة عبادة ٠

لذا يحرص كل فرد على اختيار صـــديقه ، وكثيرا ما كان يتدخل الآباء لتوجيه الأبناء فى اختيار الصديق الذى له غالبا علاقة بسمعة العائلة أو الأب ، لايمانهم بمدى تأثير الرفاق بعضهم على البعض ، فهم على دراية بأن :

١٨٧٩ ـ ولد يفسد ولد وبنت بتخرب بنت .

هذا التأثير دفعهم بقوة لاغراء أبنائهم بالتوجه نحو مصاحبة الفالحين الناجحين من الأبناء لكي يحذوا حذوهم فى حياتهم الاجتماعية فقالوا :

١٨٨٠ ـ رافق المفلح تفلح .

وكذلك قولهم :

١٨٨١ ـ رافق المسعد تسعد .

وبالعكس حذروهم من التعساء بقولهم :

١٨٨٢ ـ رافق المتعس تتعس .

لذا شبهوا رفقاء السوء « بالدست » الذى غالبا ما تلونه بدخان النار التى توقد أسفله لطهى الطعام فى الولائم فيسود لونه من « الهباب » فقالوا :

١٨٨٣ ـ من رافق الدست بتلوث .

كما أهابوا بأبنائهم بمصاحبة الأقوياء الشـجعان حتى ولو جاروا عليهم :

١٨٨٤ ـ رافق السبع ولو ياكلك .

لأن بمصادقتهم مفخرة وقوة فنصحوهم قائلين :

١٨٨٥ ـ عاشر سباع ولا تعاشر ضباع .

لأن من سمات الضبع الجبن ولا يظهر الا فى الظلام . وشجعوهم لهذا بقولهم :

١٨٨٦ ـ قراط فى السبع ولا الندل كله .

لأن الرجل الندل فى المفهوم الشعبى هو الجبان الرعديد الذى يرضى بالهوان فنبذوا صحبته والسير معه لأن فى ذلك خسارة ومضيعة فقالوا :

١٨٨٧ ـ جريك ورا الندل خسارة .

وقد تغنوا بذلك زجلا جميلا يحض على مصادقة الأجاويد والبعد عن الأندال .

١٨٨٨ ـ مشيك مع الأندال تتعب ولو كنت راكب
ومشيك مع الأجاويد ترتاح ولو كنت ماشى

ومثل « الندل » الرجل « المعيوب » الذى التصقت به عيون كثيرة وكبيرة من أبناء مجتمعه فنهوا مسايرته محشوة بزجلهم قائلين :

اياك تمشى مع المعيوب يا كامل .
مشيك مع المعيوب يضيع اسمك الكامل .
انت كامل واسمك فى البلد كامل .
ومشيك مع المعيوب يضيع اسمك الكامل .
يا كامل
انت كامل

وعليه اعتبروا مصادقة الرجال الشجعان والطيبين « الأجاويد » كنزا ثمينا يغتنى منه الرجال خلقا وأدبا فقالوا :

١٨٨٩ ـ معرفتك بالرجال كنوز وبالأرض فيروز .

وأصبح بالتالى كل صديق يدل على صديقه سواء فى مسـلكه أو خلقه ، وتغدو صحبتهم مثار اهتمام أبناء الحى ومحل مدحهم أو قدحهم . فاما أن يلمزوا قائلين :

١٨٩٠ ـ التم المتعوس على خايب الرجا .

أو يضحكوا وقد مر من أمامهم اثنان من الأصدقاء قائلين :

١٨٩١ ـ شوقع بوقع وكل طير على شكله بيوقع .

ويعبرون عن نفس الموقف بمعنى آخر قائلين :

١٨٩٢ ـ كل من هو فى قطينه بقطن .

فالتوافق فى الآراء والأفكار وكذا الميول والرغبات هو القوة الجاذبة التى توفق بين اثنين فى الغالب الأعم فاوجزوها بمثلهم القائل :

١٨٩٣ ـ المرافقة موافقة .

وأحيانا تدفعهم الأسفار الداخلية منها أو الخارجية لمصاحبة البعض كقوة اضافية مساندة ومجابهة لأخطار الطريق ومسليا لاختصار عناء المسير فقالوا :

١٨٩٤ ـ دور الرفيق قبل الطريق .

وهذا الرفيق أى « رفيق الطريق » يعتبرون رفقته آنية تزول بزوال المسير فوصفوها ببلاغة قائلين :

١٨٩٥ ـ رفق الغريب زى عجاج الطريق .

ففى رأيهم أن هـذا النـوع من الرفاق الذى تربطهم به الطريق (السفر) هو غريب بمعنى ليس من الحى أو القرية ولم يكن له به سابق معرفة .

وتمسكا منهم بديمومة الصداقة وحبا وحفاظا على بقائها وتقديرا للصديق وضعوا وفق تجاربهم نصائح مثلية تعمل على تقوية روابطها فيما لو اتبعوها ومنها :

١٨٩٦ ـ ان كان بدك صاحبك تبقيه لا تاخد منه ولا تديه (تعطيه) .

واختصروا ذلك بذات المعنى قائلين :

١٨٩٧ ـ اللى بدك تبقيه لا تاخد منه ولا تعطيه .

وهكذا ادركوا بتجربتهم أن العلاقة التى تسودها الماديات وتبادلها ستصل لا محالة للقطيعة وربما لعدم التكافؤ سواء فى مقدارها أو نوعيتها مما يدعو للنفور ، وكأنهم بذلك يرون أن الصداقة الحقة ما كانت خالصة لوجه الله فقط .

وتابعوا نصائحهم بقولهم :

١٨٩٨ ـ كتر القيمة بتقل الواجب .

فلا داعى للافراط فى المجاملات الجوفاء لأنها ستورث قلة الاحترام ، كذلك فان الألفة الزائدة هى مبعث لرفع الحواجز الخلقية والأدبية التى لابد من وجودها حتى بين الأصدقاء ولو شفافة . فقالوا :

١٨٩٩ ـ الألفة بترفع الكلفة .

وعليه قالوا :

١٩٠٠ ـ الألفة بتولد الاحتقار .

بمعنى التعود على المثير يفقد الاثارة فالألفة الزائدة ورفع الكلفة قد يكون من نتائجها الاحتقار .

ورأوا أن كثرة العتاب والمعاتبة بين الأصدقاء على كل صغيرة وكبيرة بينهما ستؤول بهم للقطيعة أو الفرقة فنصحوا بالكف عنها والتقليل منها :

١٩٠١ ـ كتر العتاب يفرق الأحباب .

كذلك حذروا الصديق من احصاء زلات صديقه ومداومة عدها كلما لاحت فرصة للخلاف أو العتاب لأن نتيجتها الجفاء المحتوم فقالوا محذرين :

١٩٠٢ ـ من عد زلات صاحبه جفاه .

وقد برهنوا على ذلك بسؤالهم المثل الشعبى السائل :

١٨٠٣ ـ حبيبك الى بتحبه كيف تنساه ؟! قال : من كتر اساه .

ان كثرة الأسى والاساءة من الصديق لصديقه ستفرض عليهم القطيعة وتجعل الصديق ينسى صديقه .

ومن نصائحهم للابقاء على الصديق أن يقسطوا فى حبهم وكذا عند بغضهم لدوام الصداقة وعدم زوالها فقالوا :

١٩٠٤ ـ حب ودارى وابغض ووارى .

أى المداراة نوعا ما عند الحب وكذا أن يوارى ويخفى بغضاءه ، وقد ينسحب هذا على الصديق أو الحبيبة .

وطلبوا من الصديق ألا يتكىء على صديقه بشكل مفرد وان ينبنى عليه الآمال الكبار فالصديق فى نظرهم ومثلهم :

١٩٠٥ ـ حبيبك ما يبنى لك (ينبى لك) قصر وعدوك ما يحفر لك قبر

كذلك نصحوا الصديق بالا يضيق صـدره لنصائح صديقه حتى

ولو رآها مرة أو جارحة لأن التجربة المثلية لأجداده أكدت لهم بأن فيها الصلاح وحسن الهداية فقالوها ببلاغة لا تخلو من الفلسفة العميقة :

١٩٠٦ – يا بخت من بكانى وبكى الناس على ، وياويل من ضحكنى وضحك الناس على ٠

وفضلوا الا يبالغوا فى التردد على الصديق أو على من يحب ، فمداومتها مدعاة للسآمة والملل فتنقلب النفوس فقالوا :

١٩٠٧ – ابعد تنحب ، قرب تنسب ٠

وباختصار :

١٩٠٨ – ابعد تحلى ٠

وقالوا :

١٩٠٩ – قربوا تبقوا بصل بعدوا تبقوا عسل ٠

أما رفقة العمل وزمالته ، فقد رأوا حرصا على مداومتها ومادام هناك مكان واحد يربطهم يوميا – ويفرض عليهم المخالطة والاحتكاك – تماما كحالة الجيران أن يتعاملوا فيما بينهم بالحسنى ونبذ الخلافات فنصحوا قائلين :

١٩١٠ – الوجه اللى بتصابحه لا تقابحه ٠

وأحيانا طلبوا المعاملة بالمثل للصديق قائلين :

١٩١١ – اللى بريدك ريده واللى بيطلب الجفا زيده ٠

والبعض فضل لأجل الصداقة التضحية وشرب المر قائلا :

١٩١٢ – لأجل الورد نشرب العليق (*) ٠

هذا وقد بينت التجربة الشعبية نوعا من الصداقة القائمة على تبادل المنافع والبعيدة عن الحب والتقدير فابتذلوا هذا النوع من الصداقة فشبهوها بصحبة الحمير عندما تحتك أجسامها ببعضها البعض فقالوا :

(*) العليق : نبات شائك معرش من فصيلة الورديات زهوره صغيرة بيضاء وردية اللون ويمكن استعماله سياجا ٠

١٩١٣ – صحبة حمايرية ٠٠ حكلى تاحكلك ٠

وهناك فصيل آخر من الناس يعذبون الآخرين عند حبهم لهم وذلك بالا يتجاوبوا معهم فلا يغدقوا الود على من يحبونهم فقالوا عنهم :

١٩١٤ – يا بخت اللى تحبوه وياويل اللى بحبكو ٠

ويبقى لنا الآن ما وضعته التجربة الشعبية من وسائل اختبارية مثلية للكشف بها عن مصداقية الصاحب وبذله تجاه صديقه ٠ معتبرين بأن المصائب والهموم التى تحل بالفرد هى المحك والنار التى تكشف نقاء معدنه ، فدعا الله أحدهم بدعائه المثلى :

١٩١٥ – يارب وريني ضيقى ، تعرف عدوى من صديقى ٠

هكذا يرى فى الضيق وسيلة للكشف عن أصدقائه ، لذا فقد قالوا :

١٩١٦ – الصديق وقت الضيق ٠

وبعضهم رأى اهالة المزيد من الأسى على رأس الصديق واصطناع الضغوط عليه لكى تضطره بالبوح عما يخفيه صدره فقالوا :

١٩١٧ – ان كان بدك صاحبك تنبلى بيه (أى تنبلى به) كتر عليه الأسى يظهر كل ما فيه ٠

وهكذا اما يرد عليك البلاء واما يظهر لك الود والصبر ٠ لأن الصديق من صفاته ما جاء فى المثل :

١٩١٨ – حبيبك يبلعلك (يبلع لك) الزلط وعدوك يعدلك الغلط ٠

ولشدة اعتزازهم بالصديق وتمسكهم به ، رفضوا تركه واعتبروا ذلك متاهة لهم فقالوا :

١٩١٩ – من فات صاحبه تاه ٠

كما قدمت لنا الأزجال الشعبية الفلسطينية بقوتها وقدرتها البلاغية أشكالا من المواعظ والحكم والتوصيات حيال الأصدقاء وكيفية انتقائهم وبمن نقترب وممن نبتعد عنهم وكيف نتواضع ونعتز بالنفس ونحاسبها فتغنوا قائلين :

حاسب نفسك وانهـــاها عل خاطرها لا تعطينها
عزة نفسك بين الناس تساوى الدنيـــا وما فيها
عمرك ما تشرب من كاس حتى تعرف شـو فيها
لاتصحبعصبى أو ظنان هى الصحبة ايش بدك فيها
هى زى شرب الدخان نسمة هوا بتهفيهـا
وطى نفسك بين النـــاس حتى ربك يعليهـــا
خل خيمة الســتر مبنيـــة اللى رفعها بحميهـــا

وقالوا فى اختيار الصديق :

١٩٢٠ ـ ادعى عل صاحبك بالغنى

وهناك من يتساءل فى حيرة ودهشة من أصحابه :

احبكم تكرهونى ليش يا وعدى ؟!
لا أنا بلية ولا فى مرض يعدى !

الفصل الثلاثون

- بعض المشاكل الاجتماعية · الخصومات ·
- الفروسية وأهل الرسان
- التحـــدى · السرقـــة

حل النزاعات والخصومات

عندما نتكلم عن الخصومات والمشاكل الاجتماعية التي تدب بين أفراد المجتمع الفلسطيني وما ينتاب العلاقات الشخصية فيما بينهم من منازعات سواء على مستوى الأفراد أو العائلات والتي قد وصلت أحيانا لحد الاقتتال بين القبائل والتي كان أشهرها الاقتتال القيسي اليمني « قيس ويمن » مستقطبة العديد من القبائل بين سكان الجبل « وينتمون في الغـالب لقيس » وبين أهل الساحل « ويعودون ليمن » هذا الاقتتال الذي استعرت ناره على الأرض العربية الفلسطينية بل وشمل الشام بأسره ووصل حتى مصر (منطقة الصالحية) .

واستغلته العديد من السلطات الحاكمة على مدار قرون عدة لتأجيج نار الفتنة والانقسام وحتى أيام الانتداب البريطاني الأسود .

هذه الخلافات وهذا الاقتتال حدا بالشعب العربي الفلسطيني كجزء من الأمة العربيـة أن ينسـج لنفسـه قواعد وأعرافا اجتماعية تحفظ له تماسكه الاجتماعي ، ونواميس تضبط له سلوكياته استمد العديد منها من تراثه الاسلامي الفياض وتاريخه المديد الزاخر بالتجارب وقاية وصدا لما تعرض له ويتعرض لغزوات تتنافر أعرافها وقوانينها الزمنية والروحية مع أعرافه وسلوكه الديني والاجتماعي وبوجه خاص عندما تهترىء هذه السلطات وتترهل قواها ثم تتحلل .

عندما تبرز قوة السلطات المحلية الاجتماعية وعلى رأسها المشايخ والوجهاء ورؤساء القبائل ومن يثقون فيهم من أهل المروءة والشـهامة ممسكين بأيديهم قوانين وأعراف شـعبية يحكمون بها العـلاقات بين الناس ، والتي نرى الآن في ظروف الاحتلال ضوءها الخافت يلمع بين الحين والآخر ، اذا ما استحكم الخلاف بين أفراد الشعب وفي وقت يرفضون فيه السلطة الحاكمة وقوانينها .

فيتجهون لحل مشاكلهم وفقـــا للقضاء العرفى وامام قضـــاتهم ومشايخهم كسلطة شعبية معترف بها أبدعت لهم على مر السنين والقرون اصول أعرافهم وكيفية تنظيم العـــلاقات فيما بينهم والمستوحاة من سلوكهم الاجتماعى الشعبى ومنبعثة من واقع حياتهم ، ثم صاغوها فى امثلة شعبية وفى عبارات وتعابير ومصطلحات ميسورة لفظا ووزنا ولحنا فشاعت وجرت على ألسنتهم شيوع الأمثال ليسهل حفظها ورسوخها فى ذاكرتهم ، فانطبعت بمعناها ومبناها ، وبمغزاها ومرماها رسوخ القانون الملزم والبات عند صدورها لحل ما اختلفوا فيه من مشاكل وقضـــايا اجتماعية واقتصادية ويتقبلونها بنفس رضية وينفذونها طائعين رغما عن ثقلها أحيانا ٠ فكبحت بالتالى جماح الجريمة ان لم تكن فى الحقيقة قد قضت عليها قضاء شبه تام ، وهذبت النفوس الأمارة بالسوء ، وأصلحت ما فسد بين الناس ، وطيبت علاقاتهم الاجتماعية ، وقوت أواصر المحبة والوفاق فيما بينهم ٠

فاشاعت فيهم حب الحق ، « وطلب الحق » و « الجلوس للحق » فأصبح كل فرد يردد فورا وعند بداية اية بادرة لخلاف مع الآخرين قول « انا طالبك للحق » ٠ واذا ما اعترض معترض لهذا النداء والمثول امام قضاتهم طردوه شر طردة وقد عنفوه بقولهم :

١٩٢١ ـ روح اسكن فى بلاد الباطل ، هادى بلاد الحق ٠

وهكذا تغذت نفوسهم بحب القواعد والأعراف الشعبية داخل المجتمع الفلسطينى وتمكنت بقوة وحزم ، بحيث لم تترك حتى الهفوات والأخطاء لمرتكبها اذا ما بدت منه حركات أو فلتات تنم عن غضب أو سوء نية تجاه غيره كتجاهل افشاء السلام مثلا أو مجرد الايماء برأسه أكثر من مرة ، الا حاسبوه عليها وأجلسوه للحق الذى استمدهيبته وجبروته من أحكامه السريعة النفاذ والتنفيذ ٠

وهكذا أشادوا بالحق وتغنوا به وطلبوه ممن وضعوا الثقـــة فيهم فأسموهم « المخاطيط » ولقبوهم بعديد من الألقـــاب كل وفق قضاياه وأنواعها كما سيجىء ذكره : والذين وعوا فى ذاكرتهم العديد من الأمثلة الشعبية سلاحا قويا ، ومبررا مقنعا ، وحجة دامغة لما يقولون وبما يفتون فتراهم يسألون :

١٩٢٢ ـ بدك الحق والا ابن عمه ٠

فيكون الرد الفورى « الحق » لاقتناعهم بأن :

١٩٢٣ ـ حق يضر ولا باطل يسر ٠

وبذا يرفضون الباطل حتى لو غلف بما يرضى ويسر مستنكرين أكل الحق ٠

١٩٢٤ ـ أكل الحق غصة ٠

ونبذوا العقـــوق وانكار الجميل وعـــدم الوفاء لمن قدم لهم الخير فاستهجنوا مرتكبه بمثلهم الشعبى سائلين بتعجب :

١٩٢٥ ـ فوق حقه لقه ٠

معتبرين الوقوع فى الخطأ ليس جريمة مادامت هناك نية لرده وتجنب تكراره فقالوا :

١٩٢٦ ـ الغلط مردود ٠

وعندما يتجهون لقضاتهم ينشدون منهم الانصاف فانهم فى الوقت نفسه على استعداد لرفض أحكامهم اذا ما بدا لهم أدنى تحيز ليقينهم بأن :

١٩٢٧ ـ المتحيز ما بميز ٠

ولقد تعدد القضاة العرفيون (المخاطيط) فى البلاد بتعدد القضايا المطروحة والمشاكل بين الناس ، حتى بلغ بهم حد التخصص كما سنرى فكان اذا اختلف اثنان ذهبـــا لقاض من هؤلاء القضاة وقد سموه « الملم » فى بيته الذى هو « بيت ملم » ليعرضـــا عليه قضيتهما لما له من دراية فيقوم بدورف اما بحـــل مشكلتهما لو كانت ميســـورة أو يحيلهما لقاض متخصص فى مثل قضيتهم ٠

ويطلق على هؤلاء فى البادية الفلســـطينية « الكبار » ومن القابهم أيضا « الكواكب » ولأهميتهم وعلو شأنهم يسمونهم أيضـــــا « معمرة الصيرة » (*) وهؤلاء كما ذكرنا لهم قوة البت فى اختيار نوع القاضى وفقا لدعوى المتخاصمين وبشكل قاطع ، وعليه فهم أشـــــبه بما يسمى فى فلسطين (قاضى التحقيق) وفى مصر « قضاة الاحالة » ٠

(*) الصيره : بمعنى الكلام أو « الهرج » وكذا الاتفاق وذلك لدورهم فى حل المشاكل أو كل أمر صار فهو بذلك يكون معمر لصيرورة ٠ وبالاضافة لهؤلاء القضاء العرفيين الذين لا علاقة لهم بالسلطة الحاكمة هناك قضاة محكمة العشائر الحكوميون (أيام الانتداب) يطلق عليهم عامة الشعب خاصة فى النقب الفلسطينى « لحاسة الختوم » ٠

ولهم الحق ايضا فى الاصلاح والفصل بين الناس دون الرجوع لأحد من القضاة .. وهكذا جاء المثل الشعبى القائل :

١٩٢٨ ـ الى ما الو كبير يشتريلو كبير .

لما لهؤلاء « الكبار » من مكانة كمراكز وفاقى واتفاق بين الناس .

وتسبق المثول بين يدى هؤلاء القضاة العرفيين اجراءات اعتاد عليها أبناء الشعب الفلسطينى فى البادية على وجه الخصوص وفى القرى المجاورة لها ، والطراف مدن الجنوب الفلسطينى ، يعنونها بكلمات ومصطلحات لها دور وفعالية الأوراق والتباليغ الرسمية الآن وتدور على ألسنة المتخاصمين غالبا وهى :

الحصى : أو « الحصوة » ، وتعنى الحصى الصغيرة فبمجرد قول أحد المتخاصمين لخصمه « هادى حصوتك » ، فهذا يعنى الاتفاق فيما بينهم على المقاضاة .

دفن الحصى :

اذا قام الطرفان المتخاصمان بالاعلان عن « دفن كل منهما حصاه » ، فهذا يعنى أنهما اتفقا على المثول أمام قاض بعينه وتم تبليغ كل طرف منهما للآخر (تبليغ وتبلغ فى القوانين المدنية) ورضاهما على تحديد نوع الخلاف أمام القاضى العرفى .

قرط الحصى :

وتعنى عدم التحدث والتداول فى بعض المواضيع أو جزء من الدعوى القائمة فيما بينهما . فيكفى ان يقول أحدهما « حصاة فلان مقروطة » ، أى لا نريد ادخال أشياء فلان فى الحديث . أو الحساب أمام القاضى .

العزف :

وتعنى أن يقوم الطرفان المتخاصمان بترشيح ثلاثة قضاة عرفيين فيما بينهم ، وبعدها يقوم كل واحد بحذف قاض واحد ليبقى فى النهاية الاسم الثالث الذى يمثلون أمامه ، فاذا ما اعترض فيما بعد أحدهما على حكمه ، قام الطرف الآخر باختيار اسم القاضى الذى رفضه خصمه ليحتكما أمامه (*) .

(*) ربما يذكرنا هذا بما هو قائم اليوم عند احالة القضايا بدرجات ثلاث : بداية واستئناف وتمييز .

الرزقة :

وهى بمفهوم أهل البادية الفلسطينية وحول عاصمتهم بئر السبع وما حولها داخل النقب ، الأجرة التى يقدمها المدعى للقاضى العرفى ، ويطلقون عليها أيضا « رزقة » ، ان كانت القضية جزائية ويسمونها «جعله» اذا كانت القضية المراد البت فيها خاصة بالأرض .

وبمفهوم أهل القرى وهوامش المدن الفلسطينية تعنى ما يقدمه أو بالمعنى الأدق ما يتراهن عليه المتخاصمان لتقديمه وهما فى فورة الحماس والاندفاع من مال أو ما تقع يدهما عليه فى جيبتها للقاضى العرفى ، ليربح أو يخسر أحدهما اذا ثبتت ادانته . ويحق للقاضى قبول أو رفض «الرزقة» وفقا لنوع القضية وأهميتها .

وما أن يفرغ المتخاصمان من هذه الطقوس التى لم يعد يذكر منها الآن سوى « الرزقة » ، وجلسا أمام الكبار أو القاضى العرفى قال أحدهما :

١٩٢٩ ـ مد ممدودك .

أو :

١٩٣٠ ـ حج حجتك .

فيقوم على الفور أحدهم بتقديم حجته مستهلا اياها بديباجة منمقة تشيد بالقاضى مادحا حكمته وحنكته وسعة صدره ليقص بعدها وقائع قضيته ومشكلته أمام خصمه الذى يعتبر وجوده ضرورة ملحة أمام القاضى والا رفض القاضى حديثه وحجته معللا ذلك بمثله الشعبى :

١٩٣١ ـ ما احلى حجتى وصاحبى غايب (*)

وحتى لا يتسنى له الحديث بما يروق له ، كما لا يخدعهم من يبادر مسرعا بالشكوى فيخضع لقولة المثل القائل :

١٩٣٢ ـ ضربنى وبكى وسبقنى واشتكى .

مؤكدين دور المواجهة عند التقاضى ومنح الجميع فرصة الحديث بقولهم :

(*) واذا كانت الحجة ضعيفة قال له رافضا : ١٩٢٥ ـ حجة ما بتقل عجة .

١٩٣٣ ـ هادا الجمل والجمال .

مصرحين أمامهم قائلين :

١٩٣٤ ـ بدل ما تغشو قوله في وشه .

وبعد أن ينتهى احد المتخاصمين من حديثه يقوم الطرف الآخر بالادلاء باقواله ، وبعد الانتهاء ، يقوم القاضى بتلخيص ما ذكراه والتدقيق خاصة على النقاط الحساسة والدفاعية التى ذكرها كلاهما ليؤكد لهما استيعابه لجميع الوقائع الدقيقة لشكواهما وأصبح على دراية تامة بدقائقها ليشيع الاطمئنان فى نفس كل منهما ثم يعلن حكمه بعدها .

وهنا تتفاوت أحكامهم وفقا لحيثيات الشكوى او القضية المطروحة ، فاحيانا يجد القاضى حبا فى التوفيق وسيادة الوئام ويتجنب اصدار حكمه وربما يعود ذلك لأحقية كليهما أو العكس خطأ الاثنين ومن ثم عدم اشاعة الخطأ الذى يشينهما فيخبرهما بكتمان القضية ووضعها تحت بند المثل القائل :

١٩٣٦ ـ كم ولم

أو :

١٩٣٧ ـ القديم عليه رديم

أو :

١٩٣٨ ـ حفار ودفان .

أى أن يلم الموضوع بكمه وكتمانه أو وفق المثل الثانى أن نحفر له وندفنه وكأن شيئا لم يكن ، مفضلا بذلك حكم التراضى وفقا للمثل القائل :

١٩٣٩ ـ حكم التراضى أحسن من حكم القاضى .

مفضلين تجنب استخدام القوة بقولهم :

١٩٤٠ ـ اللى بتقدر تحله بايديك تحلوش باسنانك .

مشجعين أسلوب التسامح وأهل السماح قائلين :

١٩٤١ ـ اهل السماح ملاح .

لما سينالون من جزاء عند ربهم بقولهم :

١٩٤٢ ـ لمسامحين غلبوا الصالحين .

وحثهم على الصفح والتغاضى :

١٩٤٣ ـ اللى ما بيغاضى ما بيراضى .

وبأسلوب تسامحى آخر يقولون :

١٩٤٤ ـ اللى ما بيجى معاك تعال معاه .

وهنا يدعم القاضى العرفى ميله للمصالحة والاحتكام للعقل والبعد عن الشر بدعامات المثل الشعبى وسيلة للاقناع واقتناع الأطراف المتخاصمة بقوله :

١٩٤٥ ـ غلب بستيره ولا غلب بفضيحه .

وكذلك :

١٩٤٦ ـ نام مغلوب ولا تنام غالب .

والابتعاد عن الشرور بقولهم :

١٩٤٧ ـ ابعد عن الشر وغنى له .

ومن فلسفة الفطرة السليمة لقضاتنا اتاحة الفرصة للمتخاصمين للعتاب وسيلة لصفاء النفوس وتفريغ ما بها وفقا لتجربتهم القائلة :

١٩٤٨ ـ العتاب صابون القلوب .

وبتعبير أكثر ايضاحا :

١٩٤٩ ـ العتاب بيجلى القلوب .

ويدركون تماما أن العتاب له أهله الذين يقدرونه ، وآخرون لا يجدى معهم ذلك فتأخذهم العزة بالاثم ولهؤلاء قالوا :

١٩٥٠ ـ ان عاتبته كبرته أو وجبته (*) .

وتتجلى حكمة القضاة الشعبيين وسعة خبرتهم فى الوعظ والارشاد وذلك بأسلوب سرد العديد من القضايا والمشاكل واستخلاص ما بها من عظات وعبر وكيف تصرف البعض حيال خصومهم بالتسامح والصفح والحلم وسعة الصدر ، مدعما بين الحين والآخر أقواله هذه بأمثلة شعبية لهـا الوقع الحسـن على النفـوس لشحذ هممهم واستنفار نخوتهم وحثهم على التمسك بهذه الخصال الحميدة فيقول لأحدهم :

١٩٥١ ـ حلمك على اللى دونك هيبة ، وحلمك على اللى أكبر منك مذلة .

ويشجعهم على طيبة النفس بقولهم :

١٩٥٢ ـ طيب من طيب ربى عليه
وعاطل من طيب لا بأس عليه
وعاطل من عاطل لا أسف عليه .

وأن :

١٩٥٣ ـ العيب من أهل العيب مش عيب .

مؤكدين أن الغلبة دوما للرجال الطيبين .

١٩٥٤ ـ طيب .. والطيب يغلب .

وان على الانسان أن يكظم غيظه ويعمل بالمثل القائل :

١٩٥٥ ـ حط على غمره حجر .

وان ليس فى ذلك منقصة لانسان أو مدعاة للاستهانة به مؤكدين له بأن لكل انسان قدرة وقدرا بقولهم :

١٩٥٦ ـ كل عود وفى دخانه .

وألا تترجم طيبة الرجـال وصفحهم عن ضعف وجبن كمان يتخيل من فى قلوبهم مرض تؤكد ذلك الخبرة المثلية الشعبية القائلة :

(*) وجبته : اى اقمت له الواجب بمعنى احترمته .

١٩٥٧ ـ اللى ما بيخاف ما بيخوف .

وعليه فان الرجل :

١٩٥٨ ـ اللى بيخاف خاف منه .

وأن الرجل الذى يعيب انما يعيب لنفسه :

١٩٥٩ ـ اللى بيعيب بعيب فى كيسه .

وكذلك فان الرجل الذى يكيد لغيره لن يستفيد :

١٩٦٠ ـ اللى بيكيد ما بستفيد .

ويكنون ذلك بمثلهم القائل :

١٩٦١ ـ فرس الكيد عرجة .

ويتخذون من أمثلتهم الشعبية هذه مبررا وتوضيحا للكشف عن جذور الشر واجتثاثه ومن ثم الابتعاد عنه وتلافيه فيقولون :

١٩٦٢ ـ أصل الشر شرارة .

وأن هذه الشرارة الصغيرة اذا ما استيرت ولم تجد من يطفؤها أحرقت حارة بكاملها :

١٩٦٣ ـ شرارة بتحرق حارة .

لذا أوصوا بمحاصرة الشر وخنقه وعدم الانجرار وراءه بقولهم :

١٩٦٤ ـ الشر بتلاحقش .

ومن عناصر الشر أحيانا أولئك الشامتون الذين يؤججون نار الفتنة أحيانا فيسخرون منهم قائلين :

١٩٦٥ ـ فرحان شمتان خاطرى عندك .

ويتصفون وفق المثل الدال عليهم بالتلون ، حالهم فى ذلك حال المثل القائل وعلى لسان الفار والقط :

١٩٦٦ ـ وقع الفار .. قاله القط .. الله .
قاله : لو انا سلمت منك يبقى من الله .

وربما كان من أسباب الخلاف والخصام التماثل والتشابه فى المهنة الواحدة وروح المنافسة التى تستعر بين الأشخاص والتى قد تصل لدرجة الحقد فالخلاف ، يدل على ذلك ما كشفته التجربة المثلية القائلة :

١٩٦٧ – العين بتكره ملاها .

ويقولون :

١٩٦٨ – أبو طبق بجبش أبو طبلية .

وتفصح الأمثال الشعبية عن أسباب أخرى للخلاف منها قلة معرفة الانسان بمكانة الآخرين وجهله بهم كما يوضح المثل القائل :

١٩٦٩ – اللى ما بيعرفك بيجهلك .

وعليه يلفتون انتباه هؤلاء بقولهم المثل :

١٩٧٠ – مش كل الطيور بتتاكل لحمها .

موضحين ذلك بتركيز أكثر :

١٩٧١ – اللى ما بيعرف الصقر بشويه .

منذرين هؤلاء الذين لا يقدرون الناس حق قدرهم بتجاهلهم وتجاهل الناس الكاملين لهم وعدم اعارتهم أى اهتمام تفاديا لشرورهم ومنهم من ينطبق عليهم قول المثل :

١٩٧٢ – خود صفاح زى اللواح وعيون مثل البحاح .

فيقولون لمن اتصفوا بالكمال بعدم الاهتمام والرد على مثل هؤلاء .

١٩٧٣ – خسارة الكامل يرد ع الهامل .

ومن أسباب المشاكل العائلية داخل المجتمع الفلسطينى ما ينشأ بين الأطفال الصغار من شجار ناجم عن اللهو البرىء فى الشوارع والساحات ، فتجد الأم وقد أمسكت بطفلها الباكى منطلقة نحو بيت ضارب ابنها ، وان كانوا جيران متقابلين فيكفى أن تقف كل أم على باب بيتها يتراجمون وقد يتعاقبون بالألفاظ ذات الاندفاع السريع الصارخ .

وقد نجد العكس المضحك ، طفل انسكب الدم من رأسه على وجهه يصرخ بأعلى صوته يقوده الأطفال نحو بيته ، فلا يكاد يقع بصر أمه عليه حتى تفرج أساريرها طربا وابتهاجا ، لتندفع بعدها مسرعة تجاه منزل من ضرب ابنها مقدمة للطفل الضارب قطعة من حلوى أو نقودا أو هدية ، تكون قد نذرتها لوجه الله مسبقا لمن يضرب ولدها أول مرة ويعود اليها باكيا [خاصة مولودها الأول] متفائلة بذلك بأنه أصبح رجلا يلعب فى الشارع ويتعارك مع الأولاد .

وهنا يحذر المثل الشعبى من الانجرار وراء مشاكل الصغار هـذه بقوله :

١٩٧٤ – عملوها الصغار ووقعوا فيها الكبار .

فالاندفاع السريع والمتسرع وراء خلافات الأطفال البريئة قد تسبب العديد من الويلات بقولهم :

١٩٧٥ – عصفورة خربت مطمورة .

وسبق أن ذكرنا بأن الطفل لو ارتكب خطا فى أعرافنا الاجتماعية حتى ولو كان جسيما فلا حرج أو ذنب عليه بقولهم :

١٩٧٦ – فرفور ذنبه مغفور .

ويصفون الطفل هذا بقولهم الشعبى « جاهل » أى لم يصل لسن الرشد بعد وربما ارتكب الأخطاء دون ادراكه لمدى فداحتها أو عواقبها حاله حال المثل القائل :

١٩٧٧ – جاهل يرمى حجر فى بير ميت (مائه) عاقل ما بيطلعوه .

فلا مناص عند ارتكاب الطفل لأى خطا الا اللجوء لله وقضائه كما أشار عليهم بذلك مثلهم الشعبى :

١٩٧٨ – اصغر منك طبك ، اصبر على حكم ربك .

ويوضحون أحيانا بنفس المعنى ولكن بتشبيه آخر كقولهم :

١٩٧٩ – اللا يلاعب القط ، يصبر على خرابيشه .

لذا كانت محاولة القضاء فى مشاكل الأطفال دربا من المحال من وجهة النظر الشعبية ومن حاول ذلك فلا يحسد على حاله بقولهم :

١٩٨٠ ـ قاضي الأولاد شنق حاله .

واحيانا يفسرون الخلاف واسبابه على عاتق « ابليس » بقولهم :

١٩٨١ ـ اذا دخل ابليس حمى الوطيس .

واذا حمى وطيس الخلاف ، أعلنوا منذرين :

١٩٨٢ ـ طفت وزاد كيلها .

وعند طفحها يناشدون أهل النخوة والحمية لاطفاء نارها :

١٩٨٣ ـ حميت وطار غبارها ، يامين يطفي نارها ؟! .

وعندئذ لن تخلف النار وراءها سوى الرماد والدمار .

١٩٨٤ ـ النار بتخلف رماد .

بل وأحيانا :

١٩٨٥ ـ النار بتخلف دمار .

مناشدين من أضرموا وخربوا ديارها باشمئزاز قائلين :

١٩٨٦ ـ خربوها وقعدوا على تلها .

ومن مخلفات هذه النار الحتمية « الفقر » تماما كما يكون الخلاف والاختلاف من نتائجه داخل البيت والأسرة فيقولون :

١٩٨٧ ـ كثر الطق والنق يضيع البركة .

١٩٨٨ ـ الزقر يورث الفقر .

وهناك فئة تتخذ من الشر والاقتتال سياجا ووقاء لشر الآخرين واعتداءاتهم معتقدين بأنهم ان لم يعتدوا فسيعتدى عليهم . وتنتشر مثل هذه الادعاءات أوقات ضياع الأمن وضعف السلطة الحاكمة ، متخذين هذا التكتيك الشعبى القائل :

١٩٨٩ ـ الشر سياج أهله .

وبمفهوم آخر أكثر اعتدالا وعقلانية

١٩٩٠ ـ سياج الدار رجالها .

ومن عادات الشعب الفلسطينى الفاضلة اذا ما نشب شجار بين اثنين أو بين عائلتين ، تداعى الجميع لهم وهبوا خفافا للفصل بينهم بكل قواهم كما يصفهم المثل الشعبى :

١٩٩١ ـ بالباع والدراع .

لوضع حد للخلاف والاقتتال ، ويطلق على مثل هؤلاء « الفزيعة » ، وعلى الشخص « الحويش » وهذا كثيرا ما يتلقى العديد من الضربات وقد تتمزق ملابسه فيصفون حاله بمثلهم الشعبى :

١٩٩٢ ـ ما ينوب الحويش غير تمزيع (تمزيق) أواعيه . (ملابسه) .

وفى حالة ما يكون المتشاجرون من أولئك الذين اعتادوا الشجار والاقتتال لسوء خلقهم ، تركوهم وشأنهم حتى يفيقوا بأنفسهم ، وعندما يقذفونهم بمثلهم الشعبى :

١٩٩٣ ـ فخار يكسر بعضه .

١٩٩٤ ـ لحم كلاب فى ملوخية .

مفضلين الابتعاد عن مثل هؤلاء مطبقين نصح المثل الشعبى :

١٩٩٥ ـ يا واقع بين البصلة وقشرتها ما ينوبك غير صنتها .

واذا ما انتهى الخلاف بين هذه الفئات ذات السوابق سخروا منهم قائلين :

١٩٩٦ ـ اصطلح المش واللبن ونسيو سمة البدن .

لاعتقادهم بأنهم سيعاودون الشجار لا محالة . لأنهم لا يسمعون وعظا ولا يتبعون النصح من غيرهم فينطبق عليهم قول المثل :

١٩٩٧ ـ اللى فى فى لو قطعوا رجلى .

ويوبخونهم بشعرهم الشعبى الذى هو أشبه بمثل شعبى يقول :

نصحتك وما انتصحت ، والطبع فيك غالب
ديل الكلب اعوج لو حطوه فى ميت قالب

وهناك من يذكرهم بمشاكلهم اذا ما نسوا ، وربما للعظة والعبرة قائلا :

١٩٩٨ ـ ان نسيتوا اللى جرى هاتوا الدفاتر تنقرى .

كما يوبخون ويعنفون من لا يتعظون من أخطائهم ويعاودون اقتراف الآثام قائلين :

١٩٩٩ ـ اللى بيندقم فى حجر وبيرجع ليه ، يستاهل كل ما يجرى عليه

واضعين نهاية المعتدين بالخسران والندم :

٢٠٠٠ ـ المتعدى خسران .

مؤكدين بأن :

٢٠٠١ ـ البادى بالظلم أظلم والبادي بالكرم اكرم .

وأن الشر والاعتداء على الآخرين سيرتد على فاعله :

٢٠٠٢ ـ جاجة عفرت على راسها غبرت .

مؤكدين ذلك بصورة مثلية رائعة قائلين :

٢٠٣ ـ البانى طالع والحافر نازل .

ويوضحونها قائلين :

٢٠٠٤ ـ يا فاحر جورة السو يا واقع فيها .

أو :

٢٠٠٥ ـ من حفر حفرة وقع فيها .

ومن حاول نصب فخاخ الشر لغيره وقع هو فيها أو ربما اصطادت أحب الناس اليه .

٢٠٠٦ ـ نصبنا فخ صاد الأخ .

واذا وقع مثل هؤلاء الأشرار فى شر أعماله سخروا منه قائلين :

٢٠٠٧ ـ اذا وقعت يا فصيح لا تصيح .

ويذكرونه وهو مازال فى كبوته بمثلهم :

٢٠٠٨ ـ اللى بيوقع هالوقعات يدوق هالدوقات .

٢٠٠٩ ـ اللى بياكل ها الآكلات بيعد ها العدات .

وبتعبير مثلى آخر .

٢٠١٠ ـ اللى بياكل حلوتها بياكل مرتها .

فاذا ما استفاد من الشر يوما فسيندم عليه ويدفع جزاءه أياما أكثر واذا طاب له الزمان بجبروته وعنفوانه ساعة فليتذكر قول التجربة المثلية :

٢٠١١ ـ ما عليت الا انهدت وما فارت الا انكبت .

فرضية مثلية حتمية تؤكد دوام الحال من المحال . وتذكرنا بقول الشاعر :

ما طار طائر وارتفـــع ... الا كما طـار وقـــع

كما تذكرنا التجارب المثلية الشعبية الزاخرة محذرة أولئك بقولها :

٢٠١٢ ـ مش كل مرة بتسلم الجره .

وان كل انسان مجزى بعمله :

٢٠١٣ ـ كل شاة معلقة من عرقوبها .

مذكرين وبالحاسة الشعبية السليمة بأن لكل انسان سمعته التى تسبقه :

٢٠١٤ ـ ادامه قدامه .

ان كان خيرا فخير وان كان شرا فشر ، فهم متأكدون بأن :

٢٠١٥ ـ طباخ السم بيدوقه .

وأحيانا يسخرون هذا المثل طلبا لجزاء ما يفعلون سواء أكان خيرا أم شرا .

وهم يرون أن المشاكل تأتى فى بعض الأحيان من بينهم أو من نفسها أو الأسرة الواحدة قائلين :

٢٠١٦ ـ دود المش منه وفيه .

ويحذرون من الأهل أحيانا وشرورهم لما يدب بينهم من منافسة .

٢٠١٧ ـ اهلك لا تقربهم بيقرصك عقربهم .

وبملخص مثل مفيد قالوا : الأقارب عقارب كما سبق وان أشرنا من قبل .. وان :

٢٠١٨ ـ الدخان القريب بيعمى .

وبانتهاء الخلافات وطرح الخصومات جنبا على أيدى الكبار وأهل الحل تجدهم يتذكرون مثلهم القائل :

٢٠١٩ ـ راحت السكرة واجت الفكرة .

مؤملين بعدها ألا يعود أحد للخلاف مرددين مثلهم الشعبى :

٢٠٢٠ ـ عمر عواد ما يعيدها .

والا سيضطرون وأمام القضاة العرفيين ان يثنوا تحت وطأة أحكامهم مما يدعوهم قائلين :

٢٠٢١ ـ خلصنى وخود عباتى او « طقيتى » .

وتصف الأمثال الشعبية ما يعانى منه الكثير من هؤلاء عندما يقعون تحت طائلة الجزاء العرفى بقولهم :

٢٠٢٢ ـ ليلة زى قاع الكيلة .

ويصفونها بقولهم :

٢٠٢٣ ـ ليلة شتاية وسهران ديبها .

وقولهم فى وصف أيام الشدائد وما يعانون منها :

٢٠٢٤ ـ سنتك طويلة وحبلك فى الندى جرار .

وكذلك :

٢٠٢٥ ـ بيجى يوم زى دق التوم .

ومن شدة ما يعانون ويقاسون يقولون :

٢٠٢٦ ـ فرجا نجوم الضهر .

وفى معمعة الحديث والتـــداول بين القاضى العرفى وأطراف النزاع او الخلاف كثيرا ما يوظفون أمثالا شعبية يمكن ان نطلق عليها أمثلة شعبية دفاعية لافحام الخصم كقولهم :

٢٠٢٧ ـ بحجارك بنرميك .

أى من وسائلك فى الدفاع عن نفسك نقذفك بها كحجة عليك وبتعبير آخر من فمك ندينك ، ويفصحون عن ذلك بفطنة فطرية ذكية بقولهم :

٢٠٢٨ ـ ما فيك بيظهر على فيك .

وبدراية سيكولوجية لماحة بما تخفيه النفوس يؤكدون :

٢٠٢٩ ـ اللى فى بطنه عضام بحسس عليها .

وان كذلك :

٢٠٣٠ ـ اللى بيخاف من القرد بيطلع له .

وتعتريهم الدهشة عندما يحاول أحد المتخاصمين تبرير موقفه بحبه لخصمه واحترامه له ، عندما يسألونه بمثلهم الشعبى قائلين :

٢٠٣١ ـ ايش حبب وايش بغض ؟!! .

كما لا يخدعهم علو الصوت عند الشـــاكى كمحاولة لتغطية ضعفه ، لذا يذكرونه بمثلهم :

٢٠٣٢ ـ خدوهم بالصوت ولا يغلبوكو ؟!! .

مؤكدين له أن الحقيقة واضحة وضوح الشمس ولا يمكن اخفاؤها :

٢٠٣٣ ـ الشمس بتتغطاش بغربال .

ويكشفونه لو حاول التملص باسناد الخطا الى غيره بقولهم :

٢٠٣٤ ـ بيعمل العملات وبديرهن ع الجارات .

وأحيانا له تصرف آخر وذلك بالاعتداء على ما هو دونه ضعفا :

٢-٣٤ ـ يقرني ع احقاو يتكا ع الرجلة .

وقد يتصل الأمر في بعض النفوس فلا هو يرحم الغير ولا يترك الغير والرحمة تصيبهم فهو عاتق ومعوق فصيحا عليه المثل القائل :

٢-٣٥ ـ لا يرحمك ولا يخلي من يرحمك ولا يخلي رحمة الله تنزل عليك

٢-٣٦ ـ لا يرحم ولا يخلي رحمة ربنا تنزل على غيره .

ومثله يصفونهم بمثلهم القائل :

٢-٣٧ ـ لا عشاك ولا كفاية شرك .

وكثيرا ما يختلف المتخاصمان العنيفة من السباب والشتائم المستمدة من الواقع البيئي الريفي في عفويتها بعد أن صيغت على هيئة أمثال شعبية فيما هي نماذج منها :

٢-٣٨ ـ من سب أبوي الحسب سبيت أبوه العصب .

٢-٣٩ ـ يا أبن أبوك البصل وأمك التــــوم امن فين تجيلك الروايح الحلية ؟! .

٢-٤٠ ـ أبو جلم وأحنا عبر وكلها العلايق مستور .

٢-٤١ ـ لا تعيرني يا أبو صبيح أنت أملك مني شوي .

٢-٤٢ ـ ما فضلت الا وأحنا مطرين .

٢-٤٣ ـ قبل ما تركل كنت أنا مسيل .

٢-٤٤ ـ والله لو أنك شمع ما حطت عليك الحمر .

٢-٤٥ ـ قال يا البـل ابوك مات من الجـــوع قال أي هــو قرى اكل وطرفيش باكل .

وأحيانا تدور الخلافات حول الغنى والفقير بأسلوب ساخر فيا هم يصفون حلهم الشعبي الفقير قائلين :

٢-٤٦ ـ فقر فقر حبله قرشي . الحمــار يعلق ترويه ولا يســد الدين .

ويحدونه أحيانا :

٢-٤٨ ـ أمك عويله ، وأبوك عويل ، والقيارة تجيلك من فين ؟! .

ومن هذه النماذج ما هو خاص بالمعايرة من بعضهم البعض :

٢-٤٩ ـ القرعة عايرت الست قالت كنا ولاد قسيح .

٢-٥٠ ـ إجت القمرة تعاير القرعة قالت روحي يا مسودة يا معرية مثل كل خبة قصة ، ومثل كل بيضة شحمة ومثل كل سوتة قصة .

وأخيرا يرى أصحاب وسيلة الكف عن هذه المنازعات أن يردد مثله الشعبي :

٢-٥١ ـ العوي يا كلب والربع يا كلب .

وأن يتناسى كل ما حدث وذلك بإهمال خصمه قائلا :

٢-٥٢ ـ كب القار بالزيت عتيبة .

أما إذا كان الخصام بين انسان له فضل كبير على غيره فتجده يقول :

٢-٥٣ ـ ربيتو واجا يحركني ويعركني .

وأحيانا يقولون لمن أنكر الجميل :

٢-٥٤ ـ ربيت كلب وعقرني وحرم على تربات الكلاب .

وعليه ينصحون بمثلهم الشعبي :

٢-٥٥ ـ جوع كلبك يتبعك .. شبع كلبك ياكل جنبك .

وتتكون أسلوب الرياضة بعد الإهانة أو الضرب بقولهم :

٢-٥٦ ـ تضربني بحد السيف لا تهيني وعند طلوع الروح تسقيني الشهادة .

ويقول بعض الصوت :

٢-٥٧ ـ تضربني بحد السيف لا تهيني وتكاويني وتحرم على دواك .

وعليه فهم على وعي تام بأن أسباب المشاكل هم الوشاة أحيانا :

٢٠٥٨ ـ ما سبك الا اللى بلغك .

وكذلك الناس أنفسهم :

٢٠٥٩ ـ الناس بلى الناس .

ويحاولون التخفيف من حدة النزاع والاختلاف بين الناس بتذكيرهم المثل القائل :

٢٠٦٠ ـ السلطان على هيبته بنشتم فى غيبته .

وان بالكلمة الطيبة يمكن ازالة الخلافات مؤكدين بان :

٢٠٦١ ـ النار الجيدة تطفيها المى .

الفروسية ودور « أهل الرسان »

وهناك من قضاة الشعب الفلسطينى العرفيين من كان يطلق عليهم « أهل الرسان » وهم المختصون بحل المشاكل والنزاعات القائمة على الخيل سواء عند شرائها أو بيعها ، تأكيدا واضحا لما كان للخيل من مكانة جلية فى النفس العربية الفلسطينية بحكم النزعة القتالية والفروسية التى تجذرت فى وجدانهم منذ ما قبل الميلاد .

فقد أكدت العديد من الدراسات الأثرية والحفائر التى عثر عليها فى المدن العربية الكنعانية الفلسطينية على عثور بقايا هياكل عظمية لخيول وقد رقد بجوارها صاحبها كما أبانت بذلك آثار مدينة « تل العجول » جنوب مدينة غزة والتى تعود للفترة الهكسوسية ، حتى ليقال بان الخيول دخلت مصر من فلسطين فى هذه الحقبة ، كما أورد ذلك عالم الآثار « فلندرز بترى » (١) .

وبقى الشعب العربى الفلسطينى متمسكا بصهوة جواده رمزا للفروسية والفتوة التى عمت مدن وقرى فلسطين على مر العصور ، فظهر منهم الأمراء والفرسان وافتخروا فى عزة واباء بتربية الخيول ، حتى غدت مبعث فخار لمقتنيها فيقال عنه « خيال الزرقا » أو « راعى الزرقا » و « خيال الأصيلة » و « خيال الكحيلة » تغزلا بألوانها وسلالاتها .

واعتبر فرسان فلسطين وفتواتها العرض فى ثلاث وفقا لناموسهم المثلى :

٢٠٦٢ ـ السرج والفرس والسلاح .

شعارهم الذين يحافظون ، وتمكنت منهم الفرس والفروسية حتى استعاروها فى العديد من أقوالهم وأمثلتهم الشعبية فقالوا :

(١) محمود العابدى ـ الحفريات الأثرية فى الاردن وفلسطين ١٩٠٠ ـ ١٩٢٩ م ـ عمان ـ ١٩٦٢ ص ١٣ ـ ١٤ .

٢٠٦٣ ـ الفرس من الفارس .

وقالوا :

٢٠٦٤ ـ لسانك حصانك ان صنتو صانك وان هنتو هانك .

كما اعتبروا الخيل مجلبة للحظ ومبعثا لسعادتهم تماما كالزوجة الصالحة والبيت الواسع الفسيح فقالوا كما سبق ذكره « كعاب واعتاب ونواصى » فالنواصى هى الخيل الأصيلة .

وكما قالوا أيضا :

٢٠٦٥ ـ اللى مالوش عيلة يشتريلو كحيلة .

لأهمية اقتنائها وحرصهم على وجودها فى البيت لما تعكسه على نفسية صاحبها من دلالات الثقة والفخر .

ومن كثرة ما أولوها من اهتماماتهم وحبهم للخيول الأصايل استثنوها فى العديد من قواعدهم وعاداتهم العرفية .

فالواسق « الوساقة » أى الرجل الذى يضع يده على مال غيره كمقدمة لرد ماله ، اشترطوا عليه مهما كانت وبلغت قيما ديونه ألا يضع يده على الخيل الأصايل والسلاح والدابة التى تنقل الماء والثياب الشخصية » (١) ليدل ذلك على مرتبة الخيول فى تراث هذا الشعب .

واذا اتهم أحدهم غيره بعدم صدق نياته أو دعواه وزيف أقاويله قال له :

٢٠٦٦ ـ مش مربط الفرس .

وان حاول أحدهم الكيد لصاحبه فيكفى أن يذكره بمثله القائل :

٢٠٦٧ ـ فرس الكيد عرجه :

ليثنيه عن موقفه .

واعتبروا أن الفروسية وركوب الخيل لها أهلها المتسمون بالشجاعة والاقدام والشهامة والنبل والكرم وهى صفات لا توجد فى كل فرد ، وعليه تجدهم يستعيذون بالله من ثلاثة أحدهم شحاد صار فارس .

أعوذ بالله من ثلاث : برد قارس ، وخرامى دارس ، وشحات صار فارس .

---

(١) عارف العارف ـ القضاء بين البدو ـ القدس ـ المرجع السابق .

فانسان كان طبعه الشحادة ، لا يمكن ان يكون بحال من الأحوال من وجهة النظر الشعبية الفلسطينية « فارس » يركب الخيول .

واستهزأوا بمثل هذه الفئة وفضلوا لهم الفروسية على ظهور « الكديش » فقالوا ساخرين « خيال الكديش العرجة » ونصحوهم بان ركوب الحمير تكفيهم :

ويش بدك بركوب الفرس   وركوب العير يكفاك .
امشى ممشى ابوك وجدك   يا اللى الكريم اعطاك .
خلك من ركوب الفرس   وبركوب الجحش يكفاك .

اذن فالفروسية والشجاعة صفات متأصلة فى نفوس البعض يؤكدون ذلك بمثلهم القائل :

٢٠٦٨ ـ على ضهرها عز وفى بطنها كنز .

ويصفون سرعتها بقولهم السائر :

٢٠٦٩ ـ لقطة من ريح .

بل ويعتبرون العلاقة بين بائعها وشاريها علاقة نسب :

٢٠٧٠ ـ شركة الخيل نسب .

وهم يرون ومن واقع الفروسية والشجاعة بان :

اللى بتمسكو السيف ما بيضرب

فالفروسية تنبع من الذات وبفطرتها الشجاعة ، لذا فهم يوضحوها بصورة مثلية أخرى قائلين :

٢٠٧١ ـ اللى بيطول عصاته بيضربش .

بمعنى أن هناك تلازما عكسيا بين كثرة التهديد والوعيد وبين التنفيذ فالشخص الذى يطيل عصاته (رمزا لمن يكثر تهديداته) لن يضرب بها تماما كما يقولون :

٢٠٧٢ ـ اللى بيقول ما بفعل واللى بفعل ما بيقول .

لذا تجدهم استنكروا التهديدات الجالسة وشبهوا صاحبها باقذع الصفات قائلين :

٢٠٧٣ ـ زى كلاب النور بيعوى وهو راقد .

وأحسنوا التشبيه عندما قالوا :

٢٠٧٤ ـ اغرق عن بحر هدار ولا تغرق عن بحر ساكت .

فالشجاعة أصبحت رمز الفارس ، تغنوا بها وسط بيئـــة هى فى الحقيقة مسرح للقتال منذ آلاف السنين فقالوا :

٢٠٧٥ ـ من آيس فعل .

اى من تشجع وتجرا استطاع أن يفعل ما يريد .

ويعتمدون أسلوب المباغتة والمفاجأة وسيلة لضمان النصر معتمدين على مثلهم الشعبى القائل :

٢٠٧٦ ـ الفيلة لمن فال .

لذا يطلقون على الجبان أو من تخلف عن القتال ولا يدرى من أمورها شيئا بقولهم :

٢٠٧٧ ـ غايب فيله .

ففى رأيهم أن :

٢٠٧٨ ـ الراس للقناص .

بمعنى أن الطيبات ورؤوس الأشياء هى من نصيب الفارس الشجاع القناص .

ويرون أن الشجاعة فى الصبر على المكاره والشدائد فيقولون :

٢٠٧٩ ـ السبع يصبر .

وقولهم بنفس المعنى :

٢٠٨٠ ـ الشجاعة صبر ساعة .

ولابد لهم من اعداد العدة فيقولون :

٢٠٨١ ـ أذكر الديب وهيىء القضيب .

لادراكهم بأن :

٢٠٨٢ ـ الحديد بالحديد يفلح (١) .

بمعنى :

---

(١) ذكره الميدانى بنصه والمتوفى فى سنة ٥١٨ هـ فى كتابه « مجمع الامثال » ـ دار الفكر ـ بيروت ١٩٧٢ ص ١١ .

٢٠٨٣ ـ لا يفل الحديد الا الحديد .

وعليه رفضوا عيشة الجبناء مفضلين حياة الأقوياء الشجعان فقالوا :

٢٠٨٤ ـ عيش ديك يوم ولا تعيش فرخة دوم .

وبنفس المعنى يقولون :

٢٠٨٥ ـ ألف ديب ولا نعجة .

كذلك يجدون فى الشخصية القوية ذات الملامح الجادة عنوانا للشجاعة ومهابة الناس لها فيحضون على ذلك بقولهم :

٢٠٨٦ ـ كشر على نابك الناس تهابك .

لأن مهابة الناس للفرد حماية وقوة له ضد أطماع الطامعين فيـــه ولا تفرض لما يعنيه المثل القائل :

٢٠٨٧ ـ الحيطة الواطية الكل بينط عليها .

كما يجدون فى الكثرة العددية أحيانا قوة قد تتفوق على الشجاعة الفردية فيقولون :

٢٠٨٨ ـ الكثرة بتغلب الشجاعة .

وبتعبير مثل شعبى آخر :

٢٠٨٩ ـ كلب داير ولا سبع مربوط .

وأحيانا يجدون فى احتماء الانسان بمسقط راسه سواء فى القرية أو بين عشيرته قوة له مهما كان ضعيفا وتتفوق على شجاعة الوافد من مكان آخر فقالوا :

٢٠٩٠ ـ كل حصينى فى بلاده ديب .

ويقولون بنفس المعنى :

٢٠٩١ ـ الكلب بتشاطر ع باب داره .

وهم لا يخشون الفشل أحيانا لايمانهم بأن :

٢٠٩٢ ـ ما بيقع الا الشاطر .

كما أنهم لا يجدون فى الاعتداء على الضعيف رجولة وشجاعة ويكنون عن ذلك بمثلهم الشعبى القائل :

٢٠٩٣ ـ الضرب فى الميت حرام .

وقولهم :

٢٠٩٤ ـ وين ما تضرب الأقرع بتسيل دمه .

ومن دواعى شجاعتهم الحذر وأخذ الحيطة دوما حتى فى أكثر الأماكن طمانينة كما دعاهم بذلك مثلهم القائل :

٢٠٩٥ ـ مطرح ما تامن خاف .

فقد يصاب الانسان فى مامنه ، لهذا حرصوا كل الحرص ونبذوا التواكل وفضلوا الاتكال بعد أن يأخذوا للأمور عدتها فقالوا :

٢٠٩٦ ـ لا تدير ضهرك للدبابير وتقول تقادير .

فان أعد الانسان عدته وأخلص نيته مما عليه بعدها سوء اتكال على ربه آمنا ومطمئنا فقالوا :

٢٠٩٧ ـ اخلص النية ونام فى البرية .

وحذروا لذلك من الاستهانة بالعدو مهما صغر حجمه وضعفت قواه وقدرته فقالوا :

٢٠٩٨ ـ ان كان عدوك نمله لا تنمله (لا تنم له) .

كما أنهم كرهوا شماتة الأعداء وعملوا جاهدين على عدم اتاحة الفرصة لهم لذلك ولو دعتهم الحاجة لاحتمائهم بالمظاهر ولبس فاخر الثياب وتحتها بطون خاوية جوعى فقالوا :

٢٠٩٩ ـ امرق عن عدوك معرش ولا تمرق عليه مكرش .

وفسروه بقولهم :

٢١٠٠ ـ امرق عن عدوك جعان ولا تمرق عليه عريان .

ولا يهمهم عند النزال ما يصيبهم من اصابات مهما بلغت مادام فيهم عرق ينبض لاعتقادهم المثل القائل :

٢١٠١ ـ ان ظل العود اللحم بيعود .

فما دام الانسان حيا فكل شىء ينمو ويشفى (اللحم) ويعود حاله .

التحـدى

ومما لا شك فيه بأن التحدى عنصر من عناصر الاختلاف التى قد تودى للشجار على اختلاف حدته ، فيستخدمون أمثلة شـعبية هى فى الحقيقة بمثابة وسائل مؤججة لها ، فها هو أحدهم يتحدى بقول مثله الشعبى :

٢١٠٢ ـ لما زرعك ابليس كنت انا مسبل .

وتستخدم الأمثلة كلماتها من عناصر البيئة الطبيعية الزراعية فيقال للتحدى والعناد :

٢١٠٣ ـ غريمك حجر يا لوز .

متحديا بذلك كل صلب ، وأحيانا يحيل خصمه للزمان متحديا :

٢١٠٤ ـ انا وانت والزمان طويل .

وربما تحدى أحدهم غيره ببينة أو حجة ورقية لتأكيد عدالة موقفه فيصرخ فيه معلنا رفضه وتحديه بقوله :

٢١٠٥ ـ انقعها واشرب ميتها (مائها) .

وهم يرون بأن الكفر أساسه العناد والتحدى فيقولون :

٢١٠٦ ـ أصل الكفر عناد .

ويستهزئون بمن دونهم لو حاول التطاول واظهار القوة على من هو أكثر قوة وكفاءة ، فيقولون :

٢١٠٧ ـ زغلول بزق عتيق .

وتصل بهم العزة بالنفس لمن حاول الاعتداء على كرامتهم والاستهانة بهم ، أن يردوا قائلين :

٢١٠٨ ـ اللى ما بعدك لا تعده لو كان السلطان جده .

وبمثل أكثر ايجازا :

٢١٠٩ ـ من باعك بيعه ومن طلب بعدك زيده .

ويقدمون صورا مثلية شعبية توضح نماذج من التحدي كقولهم :

٢١١٠ ـ بيدقوا الميه فى الهون .

٢١١١ ـ قولنالو طور .. قال احلبوه .

٢١١٢ ـ بيحطلوا فى الميه لا طالعين لبن ولا زبدية [illegible]

وأحيانا يبدو فى عناده :

٢١١٣ ـ زى اللقمة فى الزور .

وكذلك :

٢١١٤ ـ زى الحمصة فى الشخشورة .

ويبدو أحيانا وكأنه عقدة لا فكاك لها ولا حل فيقولون :

٢١١٥ ـ عقدة ما بتنحل وجلدة ما بتنبل .

ويصفون بعضهم بقولهم :

٢١١٦ ـ [illegible]

واذا زادوا فى غيهم قالوا عنهم :

٢١١٧ ـ ما حد بيدوق ملحه .

فهم ينكرون بأنهم يتصفون بالعناد والتحدى وفقا للمثل الشعبى القائل :

٢١١٨ ـ ما حد بيقول عن زيته عكر .

ومن خصال هؤلاء أنهم يرفضون سماع نصائح الآخرين بقولهم :

٢١١٩ ـ [illegible]

وتنصح الخبرة الشعبية كعادتها بالابتعاد عن هؤلاء [illegible] مادموا لا يسمعون النصح :

٢١٢٠ ـ اللى ما بسمع منك اتركه عنك .

فالعناد القائم على التحجر وعدم العقلانية ليس لصاحبه من علاج سوى الاهمال وعدم الاعتناء به لينطبق عليه المثل القائل :

٢١٢١ ـ اللى ما هو ع البال [illegible]

وهناك مجموعة [illegible] المثل الشعبى فى ذلك :

٢١٢٢ ـ لا عين تشوف ولا قلب يحزن .

موصدين الأبواب فى وجه ما يعترضهم من شدائد :

٢١٢٣ ـ الباب اللى بيجيك منه الريح سده واستريح

وان لزم سكر وخود المفاتيح

متخذين من أسلوب [illegible] طريقة للراحة [illegible] :

٢١٢٤ ـ ان كان بدك تستريح شوما شفت قول مليح .

ومستسلمين لكل الأوامر الصادرة لهم بالتنفيذ بغية الخلود للراحة [illegible] :

٢١٢٥ ـ اربط القرد مطرح ما يقولك صاحبه [illegible]

٢١٢٦ ـ ان شفت ناس بتعبد العجل [illegible]

وهم راضون بالعيش مع [illegible] مادام الأمر معمما على الجميع .

٢١٢٧ ـ [illegible]

وكذلك :

٢١٢٨ ـ حط ايدك على عينك زيك زى غيرك .

[illegible] :

٢١٢٩ ـ ميت (مائة) ام تبكى ولا امى .

واذا داهمتهم الهموم فلا قدرة لهم من حمل أكثر من جزء منها :

٢١٣٠ ـ يكفيك من الهم جانب .

وقد اقتنعوا أنفسهم بأن :

٢١٣١ ـ **الكل همه على قده .**

وان اصيبوا بالهم والمشاكل والبلاء ، حاولوا النفاذ من تبعاتها النفسية بترديدهم المثل الشعبى المسكن :

٢١٣٢ ـ **من شاف بلوة غيره .. هانت عليه بلوته .**

محاولين قدر جهدهم تبرير هذه السلبية المفرطة بأن لا حول ولا طول لهم بها :

٢١٣٣ ـ **ما باليد ولا حيلة .**

وتبقى لهذه الفئة أمثلتها الشعبية التبريرية كقولهم :

٢١٣٤ ـ **القرعة بتنطحش أم قرون .**

كناية من أن الضعيفة لا تستطيع مشاجرة أو مناطحة من هى أقوى منها . ويفسرونه أحيانا بمثل خنوعى آخر :

٢١٣٥ ـ **كف بعاندش مخرز .**

فقد أثبت هذا الشعب على مدى تاريخه الطويل قدرته على المعاندة ومنازلة الأقوياء المدججين بأسباب القوة وهو شبه أعزل .

وأحيانا لا يغرنهم قتال الأقرباء أو من هم من جنس واحد تجمعهم مطامع وأهداف مشتركة فيقولون :

٢١٣٦ ـ **زعل الحيات زى الحنة فى الديات .**

فليست هناك مدعاة للتدخل .

أما اذا كان المتشاجران ممن تعودا على ذلك والكل يحتقرهما قالوا فيهما المثل الشعبى الزاجر :

٢١٣٧ ـ **الكلب بعضش دان أخوه .**

وهم يكرهون المبالغة التى قد تؤدى بل تقلب الأمور الى عكسها فالدعاية المفرطة أحيانا بجبروت البعض والمبالغة فى تحميلهم الكثير قد تقود لنتائج عكسية تصل لحد الموت فيقولون :

٢١٣٨ ـ **صيت الجمل قتله .**

تماما كما نقول :

٢١٣٩ ـ **الزايد اخو الناقص .**

فالجمل هو رمز الصبر وتحمل المشاق العديدة حتى لينطق بمثله قائلا :

٢١٤٠ ـ **ياما كسرها الجمل بطيخ .**

وعليه يشبهون الرجل الجسور المتميز بالجلد والتضحية من أجل الآخرين دون ألم ومنه بقولهم :

٢١٤١ ـ **جمل المحامل .**

عنوانا لتحمله المشاق بصبر لا يعرف الشكوى والأنين .

ومن أمثلتهم الشعبية الفكاهية التى تتندر بالمتشاحنين قولهم :

٢١٤٢ ـ **عريان بيطارد متشلح .**

وتستخدم سخرية لشجار الضعفاء أو من هم من فئة واحدة متجانسة .

ومثلهم القائل لمن خاب من اول محاولة له سواء فى العمل او الغزو :

٢١٤٣ ـ **من أول غزاته كسر عصاته !**

ليتمنوا بعد ذلك لو لم يغز قائلين مثلهم الداعى :

٢١٤٤ ـ **ياريتك يابو زيد ما غزيت !! .**

ولأولئك الذين يخرجون من القتال دون جدوى ، ولمن يحاولون ضرب من اعتاد عليه ، يقولون متفكهين :

٢١٤٥ ـ **ضربوا الأعور على عينه .. قال . خسرانة خسرانة .**

السرقة ظاهرة مرضية لفظها الشعب العربي الفلسطيني واحط من قدر ومكانة مقترفها وانزله مكانة سفلى في قاع [illegible] نظرة ملؤها الاشمئزاز والاستنكار وقد القبوه بنعوت منفرة تميزا له للبعد عنه وتحاشيه فقالوا عنه بلفظهم العامي الدارج « سرسري » و « حرامي » و [illegible]

وكانت تنتشر مثل هذه الظاهرة وفي نطاق زمني محدود يضعف فيه الأمن وتنتشر المجاعات والتي كثيرا ما تعرض لها الشعب الفلسطيني [illegible] المتعمدة والتي ظهرت بشكل مبرمج أيام الانتداب البريطاني الاستعماري [illegible] مؤكدا وموضحا بأن :

٢١٤٦ – بيت النتاش ما يعلاش .

فلن يعلو شأن سارق أو « نتاش » مهمــا كثرت أمواله المسروقة فمآلها للفناء لأنهم على يقين ثابت بأن [illegible] ٢/٤٤

٢١٤٧ – مال الناس كناس .

فمال الناس الذي يؤخذ عنوة وقسرا مصيره الكنس والزوال دون أن ينعم به [illegible] ٢/٥٤

٢١٤٨ – مال الحرام بيدومش .

وبتعبير مثل آخر قالوا :

٢١٤٩ – مال الحرام ما بيدوم وإن دام ما بينفع .

بل وحذروا من الأكل الحرام وماله لأنه يجحف معه المال الحلال :

٢١٥٠ – [illegible] مال الحرام [illegible] الحلال

[illegible]

٢١٥١ – مال الحلال لا يسرق ولا يغرق .

ورفضوا بقوة هذه الأموال الحرام ، وأسلوبهم [illegible] حتى لو حاولوا تقديمها للآخرين المحتاجين ، مما يخالف الروح الإسلامية فقالوا بأسلوبهم [illegible] السياسي والتشهير بهذه التصرفات

٢١٥٢ – نهاب ووهاب !! .

[illegible] معاني [illegible]

٢١٥٣ – اللي ما تاخده الخمسة يصبح ويمسي .

فاستعاذ الشعب بالله من هؤلاء اللصوص خاصــة أولئك الذين يبيتون للسرقة مستغلين ما وهبهم به الله من ذكاء في استخدامه واستغلاله في المحرمات بقولهم :

٢١٥٤ – أعـوذ بالله من ثلاث : برد قارس – وحرامي دارس [illegible] صار فارس .

ومن علامات [illegible] القدرة على الافلات فيصرفون كما كشفه المثل الشعبي :

٢١٥٥ – بسوى السوايا ويلطم في الزوايا ..

فهاهو يقترف الآثام ، ليذهب من بعدها ويرتمي في الزوايا اعتقادا منه بالحماية والتعمية على الناس [illegible]

٢١٥٦ ـ قالوا للحرامى احلف ، قال اجت الميسرة ·

لهذا جابه الشعب جميع اللصوص بتحد واجماع الكل فى التعاون لكشفهم فمنحوا كل من يلقى القبض على لص مكافأة جيدة هى بمثـابة منحة له او يدل عليه ، ويطلق أهل البادية الفلسطينية على مثل هذه الجائزة النقدية « اكال الشاهد » ويسمونها بقولهم السائر الذى أصبح مثلا شعبيا :

٢١٥٧ ـ بشارة عن دوارة ·

وتكون هذه المكافأة التى اطلقوا عليها كما ذكرنا « بشارة » تلطفا على نفسية الشاهد أو المبلغ كبيرة ومجزية فى حالة اقامة الدليـــل على السارق وبذله مجهودا مضنيا فى سبيل اثبات ادعائه ·

وعند ضياع احدى الدواب كالأغنام او الابل وعثر أحـد الرجال عليها ، وجب عليه اعادتها فورا خاصة لو كانت موسومة بوسم القبيلة وان لم تكن كذلك ، احتفظ بها وقدم لها العلف لحين ظهور صاحبها الذى يقوم بدوره بتقديم بعض المال الذى يطلق عليه « الحفاظة » أما اذا كان الرجل صاحب الدابة من القبيلة نفســـها التى ينتمى لها من حفظهـــا له فلا « حفاظة » له ·

واذا أسىء الظن فيه اشتكوه لقضاتهم بتهمة السرقة ومثل هؤلاء القضاة يطلق عليهم « الزيود » ويسمى القاضى « الزيادى » أو « الضريبة » اى المختصون بالخلافات القائمة على الأموال والممتلكات ·

فالرجل المسرق غالبا ما يتملكه الضيق والقلق ويفقد الروية والاتزان فى تصرفاته واصدار أحكامه واتهـــاماته فيبررون موقفـــه هذا بمثلهم الشعبى :

٢١٥٨ ـ من ضاع شيه (شىء له) تهم خيه (اخيه) ·

وينصحون وفق تجربتهم الحياتية بالحذر واتخاذ الحيطة من أولئك الذين يدعون الصداقة ويستغلونها للوصول لأغراض دنيئة قد تصل حد السرقة فيكشفون أسلوبهم هذا بمثلهم الشعبى القائل :

٢١٥٩ ـ ان شفتنى بضحك عليك وان ما شفتنى راحت عليك ·

هكذا كما يقولون « بضحكة ولعبة » يمكن اســـتلاب الأشياء بل وابسط الأشياء وأكثر وضاعة فيدلون عليهم بمثلهم :

٢١٦٠ ـ اللى بيسرق البعرة بيسرق البعير ·

ولهم درايتهم وخبرتهم الحاذقة فى تقفى الأثر ، وبلغت الفراسة بهم حدا يعرفون أثر المرأة من البنت كما يميزون بين أثر الابل ان كان محملة باحمال أم غير ذلك ويلخصون درايتهم هذه بقولهم :

٢١٦١ ـ البعرة بتدل ع البعير ·

وقد يأتى احد الضيوف فجأة لبعض مضـــيفيه من مكان مضارب البادية الفلسطينية مما يضطر المضيف لاكرام ضيفه بسرعة فيأخذ ما تقع يده عليه من أغنام جاره دون استئذان ليذبحها لضيفه ـ وهذا أمر جائز عندهم ولا غبار عليه ويطلق على هذه الذبيحة « العداية » ·

ويشترط لاثبات صدق نيات المضيف أن يكون الضيف قد أتى فعلا دون سابق انذار وثانيها ألا يأخذ « الكبش » حفاظا على ازدياد السلالة وكذلك ألا يأخذ الشاة التى برقبتها جرس لحظوتها ومكانتها المفضلة لدى صاحبها وكذلك على من يطلقون عليها « ربيطة البيت » أى المربوطة وأخيرا الا يأخذ ابن البقرة والشاة المنذورة لوجه الله (١) ·

وان ثبت غير ذلك عرض نفسه لتهمة السرقة ، ففى رأيهم أن :

٢١٦٢ ـ الجودة (الحداة) لو بتطعم بتسرقشى الصيصان ·

ويبدو أن السرقة قد ارتبطت لحد ما « بالنواطير » فالنـــاطور فى الوجدان الشعبى الفلسطينى ذلك الرجل المسن الفقير المعدم وربما ان كان أقل من ذلك سنا قد أقعدته الأمراض أو احدى العاهات فلم يجد عملا يلائمه سوى « النطرة » أى الحراسة على بساتين الفواكه أو صليبة القمح بعد الحصاد ·

وعليه كانت أجورهم زهيـــدة ، وبالرغم من ذلك ينعتونهم بمثلهم القائل :

٢١٦٣ ـ الكرم ان سلم من النواطير بيحمل قناطير ·

فهل يعود ذلك لأخذه أشياء منه لأولاده وأسرته لقلة ما يقبضه ؟

---

(١) انظر التفاصيل ـ عارف العارف ـ القضاء بين البدو ، المرجع السابق ص ١١١ ـ ١١٢ ·

٢١٦٤ – فى الليل حارس وفى النهار يباع ...

وعليه يتهمونه أيضا بمثلهم الشعبى :

٢١٦٥ – ان سلم [illegible] من الحارس هو [illegible]

ويقولون :

٢١٦٦ – الكرم اذا سلم من حارسه طابت [illegible]

فهل هذا يعنى حقيقة واقعية توضح دور « الناطور » ومدى أمانته على حراسة الحقول ، ان فسرنا المثل تفسيرا على ما هو عليه ، وان كان الأمر كذلك ، أفلا يعود للعلاقة المشوبة بينه وبين المالك أو الاقطاعي الذى كثرت عن أمثاله الأقاويل فى المجتمع الفلسطينى تجاه الفلاحين و[illegible]

[illegible]

أمام ناظريه أن يردد مثله الشعبى القائل :

٢١٦٧ – اخضر ورقه مش حرام على سرقه .

وربما استشرى مرض السرقة والرشوة فى فترات الاهتراء الأنى و[illegible] من أعراض شيخوخة السلطة وازدياد الاضطرابات حتى برجال السلطة أنفسهم [illegible]

[illegible]

٢١٦٨ – حاميها حراميها .

ولقد تصدى لهم العديد من رجال الدين الفلسطينيين واشتكوهم للسلطان قائلين .

٢١٦٩ – اذا كان حرامي الدار منها وفيها شو يعمل الحراس ؟! .

ولكثرة تفشى السرقات قالوا :

وقاموا بمقاومتهم وهجائهم بقصائد شعرية (١) تفضح انحرافاتهم عند نهاية الفترة العثمانية .

ولم يترك الشعب هؤلاء دون التنكيت عليهم والاستهزاء بهم فهاهم يقولون لمن لا يضع الرجل المناسب فى مكانه الملائم :

٢١٧١ – زى اللى بامن القرد ع الصليبة .

اما عن اللص الوقح واولئك الذين يعتدون على أملاك الغير وكانه حق لهم ، فيقولون مثلهم الشعبى الذى يحمل فى ثناياه طابع النكتة والصورة الكاريكاتورية المضحكة والقائل :

٢١٧٢ – الحرامى بيقول لاهل الدار .. ايش الزول (*) ؟!!

واخيرا فلابد من القاء القبض على اللص مهما تخفى ، بل واحيانا يكشفون عن أنفسهم بأنفسهم عند اختلافهم على قسمتها فيقال فيهم :

٢١٧٣ – ماشافهمش وهم بيسرقوا .. شافوهم وهم بتحاسبوا .

(١) سليم المبيض – غزة وقطاعها – المرجع السابق .

(*) الزول بمعنى الرجل ومنه قولهم السائر « يا شايف الزول يا خايب الرجا » .

الفصل الحادى والثلاثون

- الثار .. ومناقع الدموم .
- الديــة .
- الشاهد والشهادة .
- الزنا والمفاسد .
- البشــعة .
- مشاكل الأرض وأهل الديار .
- التسويد ومبيضة الوجوه .
- المدنى .. والقروى .. والبدوى
- الأقليات .. الأكراد .
- الفجر .. والنور .
- المــلابس .

الثأر و[illegible] «[illegible]»

البعض يقدحون فى عادة الثأر ويبتذلونها ولا يقرونها بمنظور اليوم ومفاهيمه القائمة على منطق سيادة القوانين الوضعية الحديثة ، وكرد لفعل للتباعد القائم بين أفراد الحمولة الواحدة [illegible] ومشاكلها ووظائفها ، وقد يكون لهم مبرراتهم .

لكن ما نريد أن نضغط عليه هو أن الحكم على الماضى حتى ولو كان قريبا الى حد ما بمنظار الحاضر خطأ لا يمكن أن يؤخذ به أو يعول عليه .

فالممعن بنظره فى مجتمعنا العربى عامة والفلسطينى بوجه خاص قبل قرن من الزمان أو أقل قليلا وما [illegible] لكل أثر القانون ، حتى كاد فيه الوالى أن يستأذن من [illegible] القبائل بالخروج لمدينة أخرى ليضمن بذلك حياته .

فى مجتمع كهذا شلت فيه يد السلطة وافترى [illegible] واختلط الحابل [illegible] وترتعد لها الفرائص ، وحكم القضاء [illegible] اقتراف مثل هذه [illegible] الفقه الاسلامى الآمر بذلك فقد أقر المجتمع الشعبى الفلسطينى القتل لمن قتل نفسا بغير نفس أو فسادا [illegible]

٢١٧٤ — بشر القاتل بالقتل ولو بعد حين .

ولا يحسبون لهذا الحين أو الوقت حسابا ، فقد يطول وقد يقصر لكن الثأر يبقى فى الصدور لحين نفاذه فها هو ابن البادية يقول :

٢١٧٥ ـ البدوى اخذ ثاره بعد اربعين سنة وقال استعجلت ! .

فلم يعد هذا القول خبرا بل اضحى مثلا شعبيا يجرى على السنة الناس فملاحقة القاتل وتتبع آثاره كثيرا ما نسجت حولهــا القصص والحكايات الشعبية الفلسطينية التى لا تخـلو من المفاجآت وتتصف بالشهامة والرجولة ومنها ما يبرز العفو عند المقدرة والصبر والسماحة .

فاخذ الثار من القاتل امر مشروع ولا حرج فيه فى الأعراف الشعبية يوضحه مثلهم القائل :

٢١٧٦ ـ اخذ الثار مش معيار .

بل هو على العكس ينفى العار والمعيار الذى يلاحقهم وهم غير قادرين عليه ، وعند أخذه يقولون :

٢١٧٧ ـ اخذ الثار ونفى العار .

وذلك بقولهم ايضا :

٢١٧٨ ـ جاب الثار بعيار ونار .

فيكون بالتالى قد حقق نفى العار عنه ، أما ترك الثار فلا ينساه الا الرجل الردىء فقالوا :

٢١٧٩ ـ جاب الثار وطفى العار .

وكذلك :

٢١٨٠ ـ ما بنسى الثار الا ردى الحال .

ويرتبط بعادة أخذ الثار العديد من الممارسات والتقاليد والطقوس التى لا تدانيها فى كثرتها أية عادات أخرى .

فعندما يقتل شخص ما ويعرف قاتله ، تحتشد جميع أفراد حموله او قبيلته ليتشاوروا فى امرهم معاهدين القتيل بمثلهم الشعبى :

٢١٨١ ـ انت عليك النوم واحنا علينا القوم .

عاقدين بذلك العزم ووفق المعطيات المثلية الشعبية المتحكمة فى وجدانهم والتى سبق ذكرها على أخذ الثار يحثهم على ذلك كبيرهم بقوله :

٢١٨٢ ـ يا بدبوا حجرى نجوم يا ناقتى فى الدم تعوم .

ليندفعوا جميعا مهاجمين عائلة أو قبيلة القاتل يعملون فيها نهبا وسلبا وتخريبا لأثاثهم وحيواناتهم فيما يســمونه « فورة الدم » أو « شعت الدم » يحق لهم وفق الأعراف الشعبية ان يستمروا على ذلك من يوم الى ثلاثة أيام وثلث ليتوقف بعـدها كل شىء والا تعرضوا لدفع ثمن تخريبهم ، ويشترط عليهم فى أثناء هذه الفورة تجنب الاعتداء على العرض والأرض .

كما أن أخذ الثار خلال هذه الفورة وحتى ما بعدها لا يؤخذ من اى فرد من العائلة بل هو موجه فقط لذكور العائلة الذين تجاوزوا سن الثانية عشر عدا المعوقين والطاعنين فى السن والنساء جميعا ، فالمرأة فى العرف الشعبى المثلى يصفونها بانها :

٢١٨٣ ـ عين بصيرة ويد قصيرة .

ومن المشين الاعتداء عليهـا وقاتلها يدفع « دية مربعة » اى ثمانين بعيرا . كما يستثنى من عائلة القاتل ما يطلقون عليهم « الطلوع » اى ممن حاول الخروج من عائلة القاتل لأنه لا يمت للقـاتل حتى بالجد الخامس .

لهذا يهب وجوه القوم أى « الجاهة » خفافا لمجرد سماعهم خبر القتل حتى يطفئوا « فورة الدم » ويقفوا للحيلولة دون نفـاذها ولو لساعة واحدة ، متجهين لأهل القتيل ليأخذوا منهم « العطوة » أى الهدنة التى يمنحها لهم أهل القتيل ، وهى فى الحقيقة مقدمة للصلح يتفق فيهـا « الجاهة » على اتخاذ تدابير أمنية تحول دون احتكاك الأطراف المتنـازعة وتتمثل فى « العطوات » أو الاجراءات التالية :

عطوة طريق : ويقال أيضا « عطوة المروق » :

يحدد فيها « الجاهة » الطرق والشوارع التى يجب على أهل القاتل السير فيها وكذا الأسواق التى يتسوقون منهـا ، محاولين بذلك منع الاحتكاك بأهل القتيل فهى فى الحقيقة عملية تنظيم للسير والتحركات .

عطوة قشبية :

ويقوم بموجبها عدم الاعتداء على حقول البعض ومزارعهم من غلال وحنطة .. الخ .

عطوة الصلح :

وفيها يتفاوض الطرفان أمام قضاتهم العرفيين الملقبين « مناقع الدموم » أو « القصاصين » المختصين بحل مشاكل الدم والضرب المبرح .

وهذا النقاش المبدئى يقال عنه « عطوة تفتيش » لمناقشة ظروف وملابسات الجريمة .

وقد يطلب عندها أهل القتيل « عطوه صافية » (*) بموجبها يتم تقديم القاتل معترفا بين أيديهم دون قيد أو شرط .

والعطوة بجميع أنواعها لا تؤخذ من أهل القتيل عنوة أو بالاكراه وانما تتم عن قناعة ورضى لفترة محدودة قد تصل لعدة ايام أو شهور يحترم فيها الطرفان كل بنودها وشروطها كما جاءت على السنة « الجاهة » ، حيث يقف أحدهم قائلا :

٢١٨٤ ـ أنا حاطط وجهى على فلان من خوف الهبش والنبش .

فيضع وجهه على كبير أهل المقتول وآخر يضع وجهه على عائلة القاتل . ويطلق أهل البادية على هؤلاء « ناقل الدخل أو رامى الوجه » .

وقد تتجدد « العطوة » أكثر من مرة وفى هذه الحالة يقولون :

٢١٨٥ ـ شدها شد ومدها مد .

٢١٨٦ ـ قرض وفرض .

أى يقرض لسانه كتعبير عن السكوت ويقبل ما يفرض عليه من احكام ، وعندها يقولون :

٢١٨٧ ـ لا ايد تخط ولا لسان يرد .

وعكس ذلك « عطوه انكار » حيث ينكر فيها المتهم التهم الموجهة ضده . أى تجددت العطوة بنفس الشروط السابقة وبنفس الكفلاء .

وكالعادة عند أخذه « العطوة » يأخذ الوجهاء « الجاهة » معهم خرافا وأرزا ونقودا [مائة مجيدى فضى] (**) أو أكثر ، وعند وصولهم لمنزل أهل القتيل يقومون بنحرها ويقدمون المال .

(*) ويقال عنها أيضا « عطوة قرار » يدخل فيها المدعى عليه معترفا ، ولا حق له عملا فى الكلام او حتى الدفاع عنه . ويقال فى مثل هذه القضية :

(**) هذا المبلغ كان يقدم أيام السلطان عبد المجيد عند نهاية الحكم العثمانى أما أيام الانتداب فكان المبلغ خمسين جنيها فلسطينيا .

وكلما تجددت العطوة نقصت كمية النقود المقدمة للنصف ، وهكذا يقل كلما تجددت وطالت العطوة هذا فى القرى والمدن .

أما أهل البادية فيقدمون « الجيرة » أى ما يسمى « الطيبة » عند سكان القرى والمدن الفلسطينية وهى عبارة عن « جمل مكسو ـ نعاج ـ قهوة وسكر وصابون وأدوات الطبخ حتى الملح ومواد الوقود من حطب وأخشاب ومعها جميعا بيت شعر وبالاضافة لكل هذا « قاعود النوم » دليل الاستسلام .

وعند وصولهم يتقدم أحدهم سواء من كبار الجاهة أو أب القاتل بمخاطبة كبير أهل المقتول بقوله :

« **الراجل فى بيتك هرع فى منام صفوفك ، والحى ابقى من الميت ، من سلم سلم ، خد من المال عند رجلك خد ما تريد وخل ما تكيد** » .

وهكذا يتودد الجميع لأهل المقتول متسلحين بالايمان مؤكدين بان :

٢١٨٨ ـ الحى مالوش قاتل .

وكل شيء قضاء وقدر . وهكذا يحفظ « العطوة » هذه بجميع بنودها « الجاهة » بما لهم من مكانة وسطوة بين الأهل فهم على حد تعبير المثل :

٢١٨٩ ـ الوجه سيد القوم .

أى وجوه القوم سادتهم يساندهم الكفلاء وهم :

كفيل وفا : أى كفيل القاتل الذى يتعهد بالوفاء والأداء ويجب ان لا ينتمى لأهل المقتول حتى الجد الخامس .

كفيل دفا : وهو كفيل عن المقتول ويلعب دور كفيل الدفاء أى للأمان .

واذا اعتدى أحد الطرفين على بعضهما البعض أثناء العطوة بقتل أحدهم اعتبر ذلك فى العرف الشعبى عارا يطلقون عليه « كسر الوجه » ، وعندها يقوم أهل القتيل الجديد بحمل راية بيضاء ملطخة بدم المقتول وبالسناج الأسود ويرفعونها على باب بيوت الجاهة فمن كسرت وجوههم حيث ينضمون بدورهم معهم لمحاولة أخذ الثأر أو الجلوس للحق تطبيقا لقوله تعالى « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما فان بغت

احداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى أمر الله فان فاءت فاصلحوا بينهما ، (*) صدق الله العظيم • وكسر الوجه فى عرف البادية عند مصالحته ورد اعتباره فلابد من تقديم جمل يشترط فيه المواصفات التى يفصح عنها القول السائر :

٢١٩٠ ـ جملا اوضحا ، مبيض العروض ، لا يرتع رتايع ، ولا ينساق على جمايع •

وفى بعض الأحيان وعند « كسر الوجوه » تتركهم الجاهة يقتتلون لأنهم أناس لا يحفظون الذمم والعهود والأعراف ، حتى تنحط مكانتهم بين الناس ويضعوهم فى مصاف الساقطين الذين لا عهد لهم ولا أمان •

فى أثناء « العطوة » يكون القاتل فى الغالب ملتجئا أو « طنيبا » بالمفهوم الشعبى فى حمى أحد الوجهاء ، يأكل من أكله ، ويكسوه ، ويدافع عنه ، طيلة اقامته ، حتى يخيل للبعض تفسير ذلك بمحاولة اضاعة الوقت والمماطلة من جانب المضيف الذى يدحض الادعاءات هذه بقاعدته المثلية الشعبية القائلة :

٢١٩١ ـ لا جيرة على الشريعة •

ويفتخر هؤلاء « الجاهة » بدورهم هذا فيفتحون بيوتهم وصدورهم لكل من يلجأ أو « يطنب » عليهم ويعتبرون التقصير فى واجبهم ، أمرا مشينا يلحق بهم ، تمشيا مع القول المأثور :

٢١٩٢ ـ اللى بدو يعمل كبير يبعلى باب داره •

وهكذا يحدد القول علامات « الجاهة » وأن يكون الانسان « كبيرا » أو من الكبار باتساع بابه وارتفاعه دليلا ورمزا على كثرة دخول الابل المحملة بالأرزاق • فلا عجب والحالة هذه أن أصبح الوجهاء يتطـــارحون فخرا بأرجالهم ومواويلهم عن اكرام الطنيب والدفاع عنــــه ، فها هو أحدهم يناشد الآخر :

انتــــو تعزوا الطنيب والا تخلونه ؟

فيرد عليه :

احنا نعز الطنيب والسـيــف دونــه

(*) سورة الحجرات •

فيتحداه بقوله :

كيفن تعزوا الطنيب يا اللى بلا رجال ؟

الـــــرد :

احنا الطنب عندنا مثل الذهب غال (١)

ويطلق أهل البادية الفلسطينية على أولئك الذين « يطنبون » على غيرهم « وارد الحضين » وأحيانا يسمونهم « القصير » ، خاصة اذا أعلن احد الأشخاص أنه بوجه فلان مخافة الاعتداء عليه (٢) •

وفى حالة لجوء حمولة المقتول باكملها ـ لقلة عددهم او ضعفهم فى مجابهة عائلة القاتل كثيرة العدد والعدة ـ لأحد الوجهاء طالبين الحمـاية والمساندة • يطلق على هذه الحالة شعبيا « نثر الدم » أى كأنهم نثروا دمهم على غيرهم عندها يهب المجيرون لمساندتهم وربما طالبوا معهم بالدم والثأر كما لو أصبحوا جزءا منهم حتى تحل مشكلتهم سواء عن طريق الصلح أو دفع الدية •

(١) احسان النمر ـ تاريخ جبل نابلس والبلقاء / ج ٢ المرجع السابق ص ٥١٨ •

(٢) مجلة التراث والمجتمع ـ المجلد الأول ـ العدد الأول ابريل ١٩٧٤ ـ البيدى ص ٨٥ ـ ٩٢ • وكذلك / عمر صالح البرغوتى ـ القضاء العشائرى عند بدو فلسطين ـ فى مقال له بمجلة S.P.O.S., Vol. 2, pp. 34-65.

الدية

عندما يتم الصلح والذى قد يكون من بين بنوده « دفع الدية » التى هى وفق العرف الشعبى الفلسطينى لا تجوز الا على العاقل :

٢١٩٣ ـ الدية ع العاقل .

وقيمتها وفقا للأعراف البدوية فى الجنوب الفلسطينى كما يحددها المثل الشعبى القائل :

٢١٩٤ ـ الدية اربعين وقوف او غلام مكتوف .

بمعنى تقديم أربعين بعيرا أكبرها « رباع » ، وأصغرها « مخلول » وتقدم على النحو والمواصفات التالية :

١ ـ رباع ورباعية

(أى فى السنة الرابعة من عمرها ذكرا وانثى)

٢ ـ حق وحقة (أصغر سنا من الرباع)

٣ ـ جدع وجدعة (أصغر من الحق) .

٤ ـ مربوط ومربوطة (أصغر من الجدع)

٥ ـ لبنى ولبنية (أصغر من المربوط)

٦ ـ مفرود ومفرودة (أصغر من اللبنى) (١) .

على أن تقدم الابل الستة الاولى أو الثمانية أحيانا بنفس النوع والجنس وذلك لبذل أهل القاتل مجهودا فائقا فى البحث والتفتيش للعثور عليها ووسيلة دعائية ضدهم بين القبائل والسكان واذا ما تعذر العثور عليها قاموا بدفع ثمنها بما قيمته ثمانية جنيهات فلسطينية لكل واحدة . أى بما يتراوح ما بين ٤٨ ـ ٦٤ جنيها فلسطينيا .

أما باقى الابل فلا مانع من احضارها ـ اذا تعذر نوعها ـ مهما كانت ويطلق عليها فى هذه الحالة « ابل دم » أو بواقع ٢٥٠ قرشا فلسطينيا لكل منها اذا استحال جلبها أى بمبلغ يتراوح ما بين ٨٥/٪ الى ٨٠ جنيها

(١) عارف العارف ـ القضاء بين البدو ـ المرجع السابق .

فلسطينيا . أى بمجموع قدره يتراوح ما بين ١٢٨ الى ١٤٩/٪ جنيها فلسطينيا .

ومما يحسب حسابه من ضمن الدية ما يطلقون عليه « الغرة » وهى الفتاة التى يتزوجها ابن المقتول أو أخيه او أحد أقربائه من أهل القاتل وهى فى العرف البدوى واجبة التقديم (١) .

اما فى الأعراف القروية والمدنيـــة فقـــد تراوحت الدية ما بين ١٥٠ ـ ٣٠٠ جنيه فلسطينى . وقد كانت عند نهـــاية العصر التركى ٣٣٫٣٣٠ قرش و ٣٣ بارة (٢) .

ومن مراسيم الاحتفال بالصلح ان يؤتى بالقاتل وقد اقتادوه بكوفية ملتفة حول عنقة ممسكين بطرفها وقد جردوه من غطاء رأسه واخلعـــوه نعليه أو حذاءه وجعلوه فى حالة ينطبق عليها المثل القائل :

٢١٩٥ ـ حافى القدم عريان الراس .

علامة على الانكسار والاستسلام ، ليجلسوه وسط حشد النـــاس وكثيرا ما يستخدم هذا المثل الشعبى للدلالة على لجوء صاحبه معترفا بذنبه طالبا الصفح والقبول بأى عقاب يقع عليه فتراه واقفا أمام خصـــمه قائلا :

٢١٩٦ ـ جيتك حافى القدم عريان الراس ما تردنى خايب .

وعندها لا يجدون مناصا من العفو عنه سـواء أكان مذنبا أم قاتلا مطبقين بذلك مثلهم الشعبى القائل :

٢١٩٧ ـ من سلمك مدبحه لا تدبحه .

فمن استسلم منحوه الأمان ، كما انهم لا يطيقون « البوقة » (*) أى القتل والاعتداء على الغير بأسلوب خسيس وغادر ودنىء ، كأن يقتله بعد الصلح أو وهو نائم فيقولون « اخده بوقة » وعندها يحل لهم هدر دمه وليس لأحد الحق فى الثأر له .

هذه العقوبات الصارمة كانت تعنى فى حقيقة الأمر أن لحياة الانسان قيمة لا تضاهى وان ليس من الميسور الاعتداء عليها مما يعزز وحـدة الانصهار والتقارب بين أفراد المجتمع كله .

(١) عارف العارف ـ القضاء بين البدو ـ المرجع السابق ص ١٠٤ .

(٢) مجلة التراث والمجتمع ـ المجلد الأول العدد الأول ـ المرجع السابق ص ٩٠ . ولمعرفة قيمة هذه النقود انظر كتاب المؤلف ـ النقود العربية الفلسطينية ـ الهيئة العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٨٨ .

(*) البوقة : تعنى الغدر .

الشـــاهد

والشاهد له مكانته الفاعلة ودوره الحاسم فى حل العـــديد من الاختلافات والمشاكل بين الناس ، ولم يحظ بها كل انسان بل انتخب الشعب بفطرته المؤمنة الصادقة الرجل المتميز بخلقه القويم والذى تنطبق عليه شروط المثل القائل :

٢١٩٨ ـ عداهم اللوم .

أو :

عداهم العيب .

ويعنون أنهم ذوو خلق حميـد ومعروفون بكرم الضيـــافة ومتبعو واجباتها ، بارون بوالديهـم ولم ينتهكوا حـرمة الأيام المقدسـة . فان انطبقت عليهم تلك الخصال قيل عنهم وعن الفرد منهم « الشاهد العدل » وهم مؤمنون بأن :

٢١٩٩ ـ الشهادة طوق من الجنة (*) .

ولم ينكرها أو يختزنها فى صدره ولا يبوح بها أو شهد شـــهادة مزورة وللشاهد الزور وسط المجتمع الشعبى مكانة مزرية ومهينـة ، يستخف به أفراد الشعب ويهزأون به وهى له طوق من النار فيقولون :

٢٢٠٠ ـ زى شاهد الزور بيروح راكب وبيرجع ماشى .

فقد اعتاد البعض اذا ما استعان بمثل هؤلاء أن يأخذه راكبا الى

(*) والمقصود هنا شهادة الحق .

مكان الادلاء بشهادته وما ان يفرغ منها حتى يتركه عائدا على قدميه .

وأخيرا فان من بدهيات القضاء العرفى المثل الشعبى القائل :

٢٢٠١ ـ لا عرض عليه ورود ولا دم عليه شهود .

أى لا تقبل شهادة الشاهد بمجرد الاعتماد على السمع ، بل عليه اذا أدلى بشهادته أن يقول القول المأثور :

٢٢٠٢ ـ وقفت على رجلى وشاهدت بعينى .

أى انه رأى بأم عينيه جريمة القتل او الاعتداء على العرض .

أما مجرد الاعتماد على القول الناتج عن السمع من الآخرين فهـذا غير مقبول وفق العادة والعرف .

وغالبا ما يقولون فى مثل هذه الظروف :

٢٢٠٣ ـ ماله ممدود وبنوه شهود .

دليل الاستعداد التام لتقديم كل ما يلزم من أموال عند القضـاء وكذلك فهو أيضا على اثبات ذلك شهادة أولاده ليعبر بالتالى على كثرة عزوته .

كذلك فهم يرفضون وفق التقاليد التى ورثوها عن أجدادهم أموال الدية وتلك الخاصة بالنساء « الولية » وأموال العوض قائلين :

٢٢٠٤ ـ مال الدية والولية والعوض ما فيهم بركة .

وأخيرا فكثيرا ما تكشف مثل هذه المشـكلات والخلافات بين الأسر والقبائل عن شبكة العلاقات التى تربطهم مع بعضهم من حيث متانتهـا ومدى مصداقيتها وتفصح فى الوقت نفسه عن أصالة البعض ومدى نصرته للحق ودحضه للباطل فى ظاهرة « الطلوع » السابق ذكرها وتخلى البعض عن مؤازرة عائلاتهم أحيانا الا لمجرد عدم قناعتهم بما يسيرون عليه ، فمنهم من ينتهج أسلوب المثل القائل :

٢٢٠٥ ـ اللى بتعرف ديته اقتله .

وهذا قول مرفوض لدى العديد ، الا اذا كان الغرض منـه مجرد

تفيد شراء شيء بسيط ورخيص او استخدم المثل للكناية فقط وليس بمفهومه اللفظى المحدد .

كما ابانت الأمثال الشعبية شبكة العلاقات الأسرية من حيث الأصل والفروع ومدى ترابطها فهم يقولون :

٢٢٠٦ ـ النسوان شبكة .

فجاء دور الأمثال الشعبية فى تحديد تحمل المسئوليات مادامت « النساء » شبكة قد تربط العديد من الأسر المتباينة والمتعددة اسما . فعندما قالوا :

٢٢٠٧ ـ الخال متخلى والعم متولى .

فيقصدون بتخلى الخال عن مشاكل ابن أخته لو كان من أسرة غير أسرته على عكس العم الذى ينتمى للأسرة نفسها والعصبية ولا يمكن تخليه سواء فى السراء أو الضراء ، الا فى بعض الحالات والخلافات البسيطة عندما يقولون :

٢٢٠٨ ـ الأخ متولى والعم متخلى .

فالأخ الزم بأخيه سواء من حيث التربية أو المساعدة الشخصية من عمه .. وقالوا أيضا :

٢٢٠٩ ـ الخال الردى بيضرب من فوق الركبة .

وحذروا مشددين على عداء ابن الأخت لخاله فقالوا :

٢٢١٠ ـ ياويل الخال من رمح لبنناخ (ابن الاخت) .

وتبقى أخيرا عناصر الاخلاص والوفاء والمنفعة وعمل الطيب هى من أوضح القيم التى تحدد نوعية العلاقات وقوة الرابطة ليس فقط بين الناس بل وبين أشد الناس قربى كما يفصح عنها المثل الشعبى المتسائل :

٢٢١١ ـ أخوك والا أبوك ؟ قال النافع فيهم (*) .

هكذا .. ! تبدو « المنفعة » هى المحك والميزان التى يزنون بها الناس ومدى ما يقدمون لشعبهم حتى ولو كانت المفاضلة والتقييم بين الأخ والأب .

(*) يتفق هذا المثل مع قول المتنبى :
وآنف من اخى لأبى وأمى   اذا ما لم أجده من الكرام .

الزنا ودور المناشد

الزنا من أسوأ الفواحش التى يهتز لها الوجدان الشعبى الفلسطينى سخطا وخستا ويبذل دونها الدم ، وهى الحالة الوحيدة التى تقف مع القتيل جنبا لجنب فيبيح فيها الشعب دم مرتكبها وقتله تماما كحكمهم على القاتل عمدا « العار ما بنغسل الا بالدم » لذا بلغ التحفظ بالمرأة حدا يفوق الوصف متمثلا فى لباسها بثوبه الطويل وسروالها من اسفله كما فى العديد من القرى الفلسطينية ، وغطاء رأسها ووجهها سواء فى القرية أو المدينة وحتى مضارب البادية ، من هنا جاء لقبها « بالحرمة » ووصفها « بالمصونة » ويسمونها فى البادية « العورة » باعتبار أن كل ما بها عورة يجب ألا تنكشف على الرجال ويجب التستر عليها وصونها ، فمن المشين التحدث عنها بين الرجال أو حتى الادعاء بمعرفتها ففى أعرافهم المثلية الشعبية :

٢٢١٢ ـ معرفتك بالنسا نقاصة ولو كانت عجوز :

وبالتالى كانوا شديدى الحساسية فى معالجة تلك القضايا واستخدموا عند التداول فيها العديد من الكنايات والاستعارات اللفظية والمحوا لها دون التصريح فان اشتموا أن هناك علاقة ما تربط بين رجل وأنثى ، هبوا مسرعين لأهل الرجل الذى يعتبر دوما هو الطرف الملوم وهموا لأهله بالتلميح بعبارات مثل « ابعدوا بغلكو عن بغلتنا » أو « ابعدوا حماركو » واستخدموا كذلك ألفاظ « الكبريت والنار » حتى لا تزيد الأمور اشتعالا منذرين بمثلهم الشعبى :

٢٢١٣ ـ اللى بيتجمر فى حيط الناس ، الناس بتتجمر فى حيطته (حائطه)

ومهددين حتى الرجال الذين لا نساء ولا بنات لهم لو سولت أنفسهم بالفحشاء بمثلهم الشعبى :

٢٢١٤ ـ اللى مالوش وليه الو جوره خفية .

اى له فى آخرته قبر يحاسبه فيه عما اقترفه .

كما أنهم يأمرون بالستر فيما لو رأى البعض ما يشين او يظن فيه وتجنب التحدث عن أعراض الناس وأن يقتدوا برسولهم الكريم عليه الصلاة والسلام فقالوا :

٢٢١٥ ـ النبى شاف بعينه وستر بديله (أى ذيل جلبابه) .

كما ذكروا الزانى وتوعدوه بالفقر مهما تخفى قائلين :

٢٢١٦ ـ بشر الزانى بالفقر ولو بعد حين .

٢٢١٧ ـ الزانى ما بامن على مرته وكل خاين ما بامن ع بيته .

وكما ذكرنا لقد كان أمراء فلسطين وفتواتها يعتبرون العرض فى ثلاث « السرج والفرج والسلاح » يبذل دونها الدم والروح .

واعتبروا اهدار دم الزانى من الأمور المباحة التى لا حق لأهله بالمطالبة بالثأر له لو ثبت جرمه ، كما لا يجوز للوجهاء « الجاهة » قبول ايوائهم (الطنب) كما لا تقبل ولا تؤكل ذبائحهم . ويعتبرون دمه من ضمن ما يطلق عليه شعبيا « الدم المضاع » . واذا ما حاول البعض الأخذ بثار الزانى المقتول وقف الجميع فاستحلوا قتلهم ونهبهم وليس أمامهم فى هذه الحالة سوى الخروج من القرية أو المدينة ، وأينما حلوا بعدها فلا كرامة لهم ويرفض الجميع التقرب منهم أو مصاهرتهم باعتبارهم فئة ساقطة .

وقد اختص البعض من وجهاء الشعب العربى الفلسطينى فى معالجة هذه المشاكل فاسموهم « المناشد » ومفردها « منشد » حيث يقضى فى أمور العرض أو دخول البيوت بغير اذن مسبق وما قد يحوم حول ذلك من ملابسات وشكوك معتبرين ذلك « كسر محرم » لأن للبيوت وكذا النساء حرمتها وقد تصل أحكام المناشد وفق الظروف وحيثيات القضية لحد دية الرقبة أو قطع اليد التى امتدت على الأنثى أو فديتها بالمال .

واذا حامت الشكوك حول شخص ما لاعتراضه لامرأة وأرادوا قطع الشكوك طلبوا منه القسم على النحو التالى خاصة لأهل النقب الفلسطينى :

احلف ست كلمات أولهن الله وآخرهن الله .

انى لا هفيت (١) ولا لفيت (٢)

ولا خشيت (٣) عليها البيت

وانى ما لقطت (٤) الها يمين (٥)

ولا حبيت (٦) الها جبين .

واذا استمر فى الانكار طلبوا منه أن يبشع ، كذلك فيما لو أنكرت المرأة تهمة وجهت لها بهذا الخصوص فان عليها « البشعة » .

واذا أدينت المرأة ربما ذبحوها أو قطعوا احد شرايين ساقها فوق كعبها « عرقوبها » (٧) خشية « العار » الذى سيلحق بهم وربما انعكس ذلك بسلبياته النفسية التى بدت واضحة عند ولادة البنت وتفضيل الولد عليها كما سبق وأن ذكرنا سابقا من خلال الأمثلة الشعبية التى توضح ذلك . ومدى علاقتها وارتباطها بالعار والهم ناجمة عن رواسب الجاهلية الأولى التى بدأت منذ عقود تتبدد وتتلاشى من الفكر والوجدان الشعبى الفلسطينى .

البشعة

النار لها قيمتها البالغة ودلالتها الواضحة فى النفس العربية الفلسطينية فيكفى القول :

٢٢١٨ ـ نارهم قايده .

للدلالة اما على الكرم وحسن الضيافة ، أو تعبيرا عن التحفز والاستعداد وفورة الدم . وبالاضافة لذلك فهى وسيلة لحسم الخلاف والجهاد الحق فى تراث أهل البادية والقرى وحتى المدن الفلسطينية فيطلقون عليها « فكاكة نشب » أى فكاكة الخلافات الناشبة بين الناس .

ويتجلى ذلك فيما يسمونه « البشعة » ، حيث يقوم الرجل المبشع وهم قلائل بفلسطين باحماء « المحماسة » على النار حتى تحمر فيقوم بمسحها

---

(١) هفيت : من هفا يهفو او يذهب اليها .

(٢) لفيت : من اللفية أو اللجوء اليها .

(٣) خشيت : دخلت .

(٤ ، ٥) لقطت اليها عين : اى مسكت لها يد .

(٦) حبيت : قبلت .

(٧) للاستزادة انظر عارف العارف ـ القضاء بين البدو ـ المرجع السابق ص ١٣٥ ـ ١٣٨ .

بيده ثلاث مرات ويأمر المتهم بلحسها بلسانه ثلاث مرات بعد أن يتأكدوا من سلامة لسانه أمام المشاهدين وعلى رأسهم رجل يطلق عليه « السامعه » أى شاهد العيان والذى من وظائفه اشاعة الخبر ببراءة المتهم عند عدم ظهور اية اورام على لسانه ، أما اذا ما بدى على لسانه دلالات الاكتواء عندما يقولون عنه « موغوف » اى ثبتت ادانته .

ومما هو جدير بالذكر ان البشعة هذه استخدمت لدى العديد من الشعوب فى فترات زمنية بعيدة ، فقد عرفتها مدينة الاسكندرية فى القرن الثانى الميلادى عندما كانوا يأمرون المتهم ببلع قطعة من الخبز بعد تلاوة نص للاله الملك جبرائيل عليها ، فان نجح فى بلعها تمت براءته والا اتهم وثبتت ادانته .

كذلك فعلت الشعوب الاسكندنافية عندما أمرت المتهم بالسير على الحديد المحمى بمعدل تسع خطوات فاذا تورمت قدماه أدين والا فلا وبنفس الأسلوب اتبع الشعب الألمانى والانجليزى مع المتهمين بالسير تسع خطوات وهم حفاة على محرات حديدى مصلى بالنار (١) .

---

(١) انظر عارف العارف ـ القضاء بين البدو ـ المرجع السابق ص ١٠٠ ـ ١٠١ .

مشاكل الأرض وأهل الديار

تتعدد مشاكل الأرض بمقدار قيمتها المتمكنة والمتأصلة فى النفس العربية الفلسطينية ، فهى الجذور والجذور المتعمقة فى بنيته السلوكية ، بها يؤكد عمق انتمائه ، ومنها يستمد كرامته ورجولته ، فمن فرط فيها كمن فرط فى أصله وأصوله :

٢٢١٩ ـ من باع ملكه باع أصله .

بل وبلغت قيمتها مبلغا يساويها بالعرض ، فحكموا على بياع أرضه قائلين :

٢٢٢٠ ـ بياع ارضه ضاع عرضه .

لايمانهم المثل العميق القائل :

٢٢٢١ ـ الأرض كالعرض .

بل وتعداه لأكثر من ذلك بمثلهم القائل :

٢٢٢٢ ـ ما أغلى من العرض الا الأرض .

ففضل بالتالى هجرها أو تركها على أن يبيعها .

٢٢٢٣ ـ ارحل عن الأرض ولا تبيعها .

وذلك لأن :

٢٢٢٤ ـ المنازل ان اعطوها لغير اهلها ذلت .

فلن يسمح لأحد باذلالها . وأصبح معه كرامة الانسان الفلسطينى رهينة أرضه وقدرته على امتلاكها فقالوا :

٢٢٢٥ - اللى ما الو عتب ما بنعتب

ولن يقال هذا الوصف الا لمن يشك فى قدراته العقلية ، بل وفقدوا فيه الرجاء فقالوا مثلهم المتسائل باستعجاب عمن يبيع أرضه :

٢٢٢٦ - ايش تترجى من بياع البور ونفاخ الكور ؟!!

هكذا وضعوا مرتبة البائع لأرضه جنبا لجنب مع النورى نفاخ الكور . امعانا فى التقليل من مكانته وعدم احترامه .

لأن فقد ملكية الأرض أو حتى « دار » هى معابة كبيرة من وجهة النظر الشعبية يلصقونها بمثلهم الشعبى قائلين وباستغراب لا يخلو من الشماتة :

٢٢٢٧ - لا دار ملك ولا طاحونة شرك .

وكأنه بهذا رجل معدم ويعيش فى غربة داخل وطنه ، بل اعتبروه بلا وطن .

٢٢٢٨ - اللى ما الو عطن ما الو وطن .

والعطن هى الأرض السمراء الخصبة ، فمن لا يمتلكها فكأنه لا يعيش فى وطن ومن ثم ومثل هؤلاء من الرجال الذين لا يمتلكون أرضا خاطبوهم بمثلهم الشعبى القائل :

٢٢٢٩ - اللى ما الو ملك يتف فى كفه (١) .

فلأنها لم يعد لها قيمة ان لم تمارس الفـلاحة ، بل وزادوا على ذلك بمثلهم القائل :

٢٢٣٠ - اللى ما الو ارض يتبول فى كفه .

ومن وحى هذه القيم والمفاهيم السامية فى امتـلاك الأرض التى تشربهـا الانسان الفلسينى وشب عليها قام بافتدائها بالغالى والنفيس وحاول جاهدا على امتلاكها تساعده زوجته وتشجعه بتقديمها له كل ما تمتلك من ذهب فرحة مسرورة يشجعهم مثلهم الشعبى القائل :

---

(١) للاستزادة ارجع لكتاب المؤلف - الجغرافيا الفولكلورية للأمثال الشعبية الفلسطينية - المرجع السابق ص ٢٤٣ - ٢٥٧ .

٢٢٣١ - بيع الدهب واشترى العتب

فالأرض مهما غلا ثمنها - فى نظرهم - رخيصة :

٢٢٣٢ - الأرض بتفلاش .

وبذا أصبحت الأرض فى بؤرة التفكير والفكر الشعبى الفلسطينى مصدر الهامه ومبعث أشجانه ، وتعدت قيمتها القيمة الاقتصادية مما تنتجه وتغله فأضحت مرادفة للعرض والوطن والدار والديار والشهامة والرجولة والأصل والأصول فتغزل بها وبلونها فوصفها بانها حمراء مثل الجنة ، وسمراء زى الكلوة فقال « من طين بلادك حنى خدادك » ووصف طينها بأنها « حرة » فطهر بها ما علق بأدواته من دنس ونجاسـة . واتخذ منها مرهما يضعها أحيانا على جروحه وحروقه .

وبلغ شغفه بها وولعه بالتعامل الطيب معها أن ادرك مدى خصوبتها وخصائصها بوعى وخبرة فائقة تؤكد انتماءه وعمق تواصله وبرهن على ذلك بخبرته المثلية فقال :

٢٢٣٣ - ارض الينبوت موت فيها موت .

ولنوع آخر من الأرض وتربتها قال :

٢٢٣٤ - ارض العاقول بتطول وبتقول .

ولنوع آخر من التربة قال :

٢٢٣٥ - أرض الشبرق الدهب فيها بيبرق .

حتى غدت بالتالى الأرض من مكونات الشـخصية الفلسطينية الأصيلة التى تمجد ذاتهـا وانتمائها الوطنى الشريف وقيمة من القيم الوطنية المقدسة . فافتداها بروحه ودافع عنها وعن ملكيتها شبرا شبرا بل وظفرا ظفرا كما أكد مثله الشعبى :

لمعرفة المزيد من هذه الأمثلة الشعبية التى تدل مع خصوبتها وجيولوجيتها ارجع للكتاب المؤلف - الجرافيا الفولكلورية للأمثال الشعبية الفلسطينية - الهيئة العامة للكتاب - القاهرة ١٩٨٦ ص ٢٤٥ - ٢٥٧ .

٢٢٣٦ – قالوا الأرض بالشبر .. قالوا : لا الأرض بالظفر .

ومن خلال مكانتها وتقييمها هذا فى موازين الشعب الفلسطينى الحساسة ، الاجتماعية منها والخلقية ، قفزت بين الحين والآخر مشاكل الأرض ، التى اختص لها ولحل مشاكلها رجال أسموهم « أهل الديار » أو « أهل الاقطاعات » ممن يتسمون بالسمعة الطيبة ويتصفون بالدراية والاطلاع الواسع بحدود الأرض وأحوال الارث وهم فى الغالب ممن يمتلكون أراضى شاسعة .

وتتمحور مشاكل الأرض فى أغلبها حول تحديد حدودها فالمعروف ان الحدود مشاتل المشاكل فيما بين الملاك والاعتداء على الحدود بقصد أو غير قصد هو من أول المشاكل وقد فصل فيها المثل الشعبى القائل :

٢٢٣٧ – الى بيحط الحد فى مارسه بارتاح .

وكان الفلاح الفلسطينى منذ القدم يتخذ من نبات « البصول » حدا يزرعه ليفصل بين ملكيته وملكية غيره .

وكثيرا ما كانت تنشب الخلافات عندما يحاول البعض من ضعفاء النفوس اقتلاع بصيلة هذه النبتة صيفا عندما تجف أوراقها وغرسها فى أرض غيره حتى اذا قدم فصل الشتاء نمت وترعرعت فى أرض الغير ، وكانت هذه المحاولات يكتشف أمرها فورا ، ويسخرون من فاعلها بتلقيبه بما أصبح قولا سائرا ومثلا يلعن به الناس مقترفو هذه الأفعال قائلين عنه :

دفان البصول

كما اتخذوا من نبات الصبر الشوكى « التين الشوكى » لقدرته على تحمل الجفاف بالاضافة لأوراقه الابرية وضخامة جذوعه ومن ثم مناعته وصعوبة اجتيازه حدا يفصل ويحدد ملكياتهم عن بعضها البعض مضافا لهذا قيمته الغذائية كفاكهة صيفية . وقناعتهم بأن :

٢٢٣٨ – الأرض السايبة بتعلم الناس السرقة .

وقد تنشأ الخلافات على الأرض من جراء توزيع الارث بعد وفاة المالك سواء بين أبنائه وأقربائه ، فنجد الدين الاسلامى هو الحل الحاسم والحازم والعادل فهم مؤمنون من وحى كتابهم الكريم بأن :

٢٢٣٩ – من حرم آرثا من ارثه حرمه الله من الجنة .

وكثيرا ما تدب الخلافات بين الفلاح زارع الأرض وحارسها والمقيم فيها غالبا وبين مالكها بعد طول بقاء الأول ومحاولة الثانى (المالك) بيعها واخراجه منها فيرددون مثلهم عندها القائل :

٢٢٤٠ – الزرع للزارع والأرض لاهلها .

ومهما احتدم الخلاف على الأرض فالدين الاسلامى وشرعه الحنيف اوجد لها الحلول وكذا العرف الاجتماعى وقضاته من أهل الديار ما يتيح لهم الاستقرار وحسن الجوار .

مشاكل التسويد ودور مبيضة الوجوه
ونبذ التمايز الطبقي

التسويد بالمفهوم الشعبي يعني اساءة سمعة الآخرين وتسويد صحيفتهم بالعديد من الأقوال والأفعال الكاذبة ومحاولة التحقير من شأنهم ، وقد سبق ان أوضحنا قول المثل الشعبي القائل « القفا هيشة » مؤكدين بذلك عامة الشعب رفضهم التحدث عن الآخرين بما يسيء لهم في غيابهم أو « تقفاهم » لأن « القفا » هش يسهل على كل فرد ودون استثناء التحدث بالنميمة ولكن ليس ذلك من المروءة أو الشجاعة بشيء قالوا :

٢٢٤١ – لا تسب كافر وهو غافل .

وعليه قالوا :

٢٢٤٢ – لسانك فرسك ان صنته حرسك وان افلته رفسك .

٢٢٤٣ – يا ويل من دارت وراه الخلايق .

مصرين على رفض الاهتمام للدعايات الفاسدة والأقاويل الباهتة ومحاولة تكذيبها وعدم اتاحة الفرصة لترويجها واشاعتها قائلين مثلهم الشعبي :

٢٢٤٤ – من غربل الناس نخلوه .

معتبرين مثل هذه الدعايات وكأنها فقاقيع تنتفخ في مستنقعات آسنة قذرة لا تلبث أن تتلاشى فورا قائلين :

٢٢٤٥ – فقع وطقع في نقع .

ناصحين الناس بالا يكترثوا لها أو حتى مجرد سماعها لأن في متابعتها القلق والتعب قائلين :

٢٢٤٦ – اللي بيسمع كلام الناس بيتعب .

ويلعب قضاة الشعب العرفيون دورهم في اخماد مثل هذه الاشاعات وتكميم أفواه أهل النميمة ، ومحاولة اصلاح وتبييض من حاولوا تسويد وجوههم فلا غرابة أن يطلقوا على هؤلاء القضاة اسم « مبيضة الوجوه » ويتكون مجلسهم في الغالب من ثلاثة قضاة لمقاضاة من حاولوا اساءة سمعة الآخرين وتجريمهم ، فان ثبتت براءة البعض قالوا لهم :

٢٢٤٧ – بيض الله وجهك .

أو :

٢٢٤٨ – وجهك أبيض .

وأما من اسود وجهه من كذبه وبهتانه قالوا له :

٢٢٤٩ – سود الله وجهك .

أو :

٢٢٥٠ – وجهك أسود .

وهكذا حفظ قضاتنا العرفيون والجاهة والمخاطيط دورا بارزا في استقرار المجتمع الفلسطيني وصد الأبواب في وجه رياح المشاكل واخماد نارها والضرب بشدة صارمة على أيدي العصا والمنحرفين بأحكامهم التي نالت التقدير والتأييد ومن عصاها نبذوه وطردوه ، وفي بعض الأحيان خيروه بتسامح مدركين بأنه سينصاع لأعرافهم ان عاجلا أو آجلا :

٢٢٥١ – اللي ما بيرضى بالتوت بيرضى بشرابه .

او مهددين بأن :

٢٢٥٢ – اللي ما بيجي بعصاة موسى بييجي بعصاة فرعون .

لذا حرصوا أشد الحرص أن يسلموا زمام أمرهم لمن شهد له القوم من قضاتهم المتخصصين والمحنكين ورفضوا الذهاب للأدعياء فقالوا :

٢٢٥٣ ـ ما جتش من الرتوت لما تيجى من يياعين التوت .

مؤكدين على حكمتهم المثلية الشعبية القائلة :

٢٢٥٤ ـ قوم بلا جهال ضاعت حقوقهم وقوم بلا عقال ضاعوا قطايع (*)

مثل شعبى يحض الشباب (الجهال) على التعقل والصمود ضـــد الأعداء فى حين يؤكد الحاجة الماسة للعقلاء الذين هم كبار القوم وجاهتها لدورهم فى الحيلولة دون انتشار الشر واستفحاله .

وهكذا كان الفضل لهذه الفئة من القضاة العرفيين على اختـــلاف تخصصاتهم التى تدعو على الاعجاب والاكبار الى توطيد وترسيخ العادات والأعراف والتقاليد الفاضلة التى نظموها من خلال احتياجاتهم البيئيـة وظروفهم الاجتماعية فانعكست ايجابيا داخل البنية الاجتماعية الشعبية فعمقت القيم الحميدة والمفاهيم المميزة سواء بسواء فى السلوك الشخصى لكل افراد الشعب دون تمييز بين أبناء القرية أو المدينة وفى البادية مما خفف ان لم يكن اخفى العديد من الحواجز النفسية والاقتصـــادية فيهم فجعلهم جميعا أما [الأعراف ـ والحق ـ والمقاضاة] سواسية كاسنـــان المشط لا فرق بين مدنى او حضرى من أبنـــاء المدينة ولا فلاح من أبناء القرية أو بدوى يعيش فى المضارب الصحراوية وبطون الأودية · وزادهم ترسخا وتوثيقا [العونة ـ الفزعة ـ العزوة ـ الجيرة والطنب ـ الكرم] دعائم التركيبة الاجتماعية ونسيجها الطبيعى يجللها جميعا دستورهم بل قرآنهم الكريم وسنة رسولهم العظيم الداعية للمساواة وتحريم التمييز والتمايز بين الناس كافة الا بالتقوى (ان اكرمكم عنــــد الله أتقاكم) و « كلكم لآدام وآدم من تراب » و « ليس لعربى على عجمى فضـــل الا بالتقوى » ·

وعليه قالوا :

٢٢٥٥ ـ كلنا اولاد آدم ·

وقالوا :

(*) وقد يكون الجهال هم الحمقى والمعتدون الذين يدعون الجهل بحقوق الغير وغالبا ما يخشاهم الناس فلا يعتدون عليهم :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهليا .

٢٢٥٦ ـ كلنا ولاد تسعة .

رافضين بذلك رفضا باتا اســـلوب التمايز والتمييز فيما بينهم مؤكدين داخل مجتمعهم بانه :

٢٢٥٧ ـ ما حد احسن من حد .

مؤكدين ومدركين بان :

٢٢٥٨ ـ الناس للناس .

وان لا أحد يستطيع ان يعيش منفردا دون معونة واحتياج الآخرين والحاجة اليهم ·

٢٢٥٩ ـ ما حد بستغنى عن حد .

وبتعبير آخر :

٢٢٦٠ ـ الناس لبعض .

هذه القواعد المثلية الشعبية حدت من الفواصل والتمايز الطبقى المجاهر فجعلته أقرب للهمس اللين يهمس الفرد به وهو على خجل ولا يبوح به الا أوقات الغضب وأحيانا يلفظه من قبيل الطرفة اللاهية ·

يتهامس بها الثالوث الاجتماعى الفلسطينى الفلاح والبدوى والحضرى أو المدنى فهاهم يقولون :

٢٢٦١ ـ داره على شط البحر !! ·

وربما قصدوا فى المقام الأول الطبقة الاقطاعية الأشد قربا والتصاقا بحكم الموقع الجغرافى للمدن الساحلية الفلسطينية وتعبيرا عن الغنى حيث لا يملك القدرة أحد منهم للذهاب للبحر باكثر من يوم فى السنة يسمونه « شطحة » سواء ابن القرية او ابن البادية ، ومن منهم يملك القـــدرة بالاضافة لذلك بناء بيت على شاطىء البحر او حتى متســـعا من الوقت للوصول اليه ، غير تلك الفئة الاقطاعية فى المدينة التى أفرزتها الظروف التاريخية والسياسية فى الفترات المملوكة وحتى العثمانية فجعلت منهم الأمراء وكذا نظام « الزعامة ـ التيمار ـ همايون ـ خاص » وما تبعها من نظام « الالتزام » كركائز للاقطاع العسكرى أعقبه اقطاع مدنى متسلط بنى له قواعد وبنيان فوقية داخل مجتمع المدينة ، مما حـــدا بالطبقـة الفلاحية الفقيرة الكادحة من القول :

٢٢٦٢ ـ الى بيطلع لفوق بتنكسر رقبته .

قانعين بالعيش على قدرهم وقدرتهم ، وربما كانت هـــذه النظرة الفوقية مستمدة من الواقع التضاريسى الذى اتخذ أجدادنا القدماء بموجبه من رؤوس الجبال وقمم الهضاب والتلال مدنا وقلاعا لهم لدوافع أمنيـــة وعسكرية بموجبها يسهل الدفاع عنها ويصعب الاعتداء عليها . وهـــذا ما أطلق عليه فيما بعد « بالنظام الاكروبوليسى » .

وعليه أطلق شعبنا على مثل هذه المدن « فوق لمدينة » كما حملت العديد من قرانا صفتين هما « الفوقا والتحتا » فاصبح هناك « أهل فوق » واخرى « تحت » أو ما يطلق عليه أهل البادية « القيعان » .

فها هو أحد أبناء البادية الفلسطينى يوصى زميله عند نزوله لغزة قائلا :

ما قلت الك يا هـــانى   لا تنزل القيعـــانى (*)
وانـــزل لغـــزة   وسويقها الفوقانى (**)

فســوق مدينــة غزة « الفــوقانى » يحقق له كل ما يبتغى شراءه وعندها يتلقفه أبناء المدينة بل تجارها قائلين :

٢٢٦٣ ـ بدوى طوطى (***) المدينة .

ومعنى المثل هنا ليس بلفظه الذى يفيد بأن البدوى قد وطات قدماه المدينة بل بايحاءاته التى تفيد شعبيا بانه بمجرد قدومه المدينة ياخذ بشراء كل ما وقعت عليه عيناه وتصيبه يداه دون تمييز لكثرة ما بالمدينة من سلع متنوعة ، وأغلب ما يطلبه الذوق البـــدوى تلك الماكولات « الحـــلوة » فيقولون :

٢٢٦٤ ـ نزل البدوى ع المدينة ما اشتهى غير الدبس (****) .

باعتبار أن « الحلويات » من الكماليات الترفيهية التى تتوفر لديهم

(★) القيعانى : الأراضى المنخفضة التى تحيط بمدينة غزة الواقعـــة على تلـــة ترتفع ٤٥ مترا عن سطح البحر وبها سوق حى الشجاعية والتفاح .

(★★) الفوقانى : أى سوق مدينة غزة الواقعة على التلة المرتفعة ويطلق عليـــه السكان « فوق لمدينة » .

(★★★) طوطى : أى نزل المدينة أو ذهب اليها .

(★★★★) الدبس : يصنع عادة من العنب المطبوخ .

ولكى يفرح بها أبناء أسرته ، فياخذ فى شراء العديد المتنوع من السوق كمؤونة تكفيه لمدة قد تصل لاسبوع أو أكثر دون تمييز فيها فيقال :

٢٢٦٥ ـ كله عند العرب قطين .

ويقصد هنا ضعف قدرته على التمييز عند الشراء « فالقطين » هنا يعنى « الجميز الناشف » فى المثل الشعبى اعتقادا منه بانه قطين التين المجفف .

ويحذر ابن المدينة ومعه ابن القرية من معرفة البـــدوى لمنازلهم قائلين :

٢٢٦٦ ـ لا تعرف البدوى باب دارك .

وان شاء القدر وقد عرفه يقولون تاكيدا لمثلهم السابق :

٢٢٦٧ ـ اذا بدوى عرف باب دارك حوله .

فهل بخل الاستضافة هذه تعود لكثرة تردد البدوى لبيت من يعرفه لاستراحته من عناء سيره الطويل ، أم لكونه يقيم بها بضعة أيام بما يتنافر مع انشغاله الدؤوب سواء فى أرضه كفلاح أو داخل مدينتـــه كصاحب حرفة أو مهنة .

وعليه قابل « البدوى » هذا الجفاء التهكمى والبخل من وجهة نظره بالتحذير لكل فرد يحاول صحبة أولئك « الحضر » من أبناء المدينـــة قائلا مثله الشعبى الساخر عليهم :

٢٢٦٨ ـ الحذر كل الحذر من صحبة الحضر ومن كر الحمـــير وهرش (*) البقر .

هكذا .. ! وكان لسان حاله يقول مثله « مافيش حد أحسن من حد » ويوضح الفلاح بجلاء العلاقة المادية التى تربطه بابن المدينة (المدنى) بترديد مثله الشعبى القائل :

٢٢٦٩ ـ المدنى مثل الجاجة اطعمه سنة ما بشبعك ليلة .

ويفصح عنها بايجاز مثلى بليغ بقوله :

(*) هرش البقر : أى كبيرها فى السن

٢٢٧٠ ـ لولا الفلاح ما عاش المدنى .

بل وكال لهم « الصاع صاعين » وذلك بتشبيه تصرفاتهم كتصرفات « كر الحمـــير » و « هرش البقر » فالأولى تتميز بكثرة الحركة والرفس والأخرى لحمها غير مستساغ وهذا أقل ما يكتب !!! .

ويكفى البدوى نظرته لابن المدينة وابن القرية بأنهما « فلاحين » واستمر فترة طويلة يأنف مصاهرتهم ، واليوم قد صهر التعليم الجميع فلم يعد لهذه النظرة من سبيل فيما بينهم .

ونصيب « الفلاح » ليس ببعيد عن البدوى اذا ما قصد المدينـــة للشراء فهاهم يقولون :

٢٢٧١ ـ نزل الفلاح ع المدينة تحلى بدبس وطحينه .

وتساءلوا بتهكم :

٢٢٧٢ ـ ايش عرف الفلاح باكل التفاح ؟!! .

ومن غير الفلاح يزرع التفاح ؟! الا أنه يبقى الانسان الذى يضحى بما تتوق وتشتهى نفسه هو وأولاده من أجل تلبية احتياجاته العديدة التى لا تتوافق فى ثمنها بقيمة ما يقدمه للمدينة من ثمار فهو أول من يلتقطها وآخر من يأكلها . لذا قضى فترة طويلة تسحقه الفـاقة والفقر ويغالبها بالصبر والتقشف يغلفه الاباء وعزة النفس رافضا الى حد بعيد أسلوب أصحاب الاقطاعات وكبار الملاك .

٢٢٧٣ ـ اخدمنى وانا سيدك .

فمما لا شك فيه وجود فئة اجتماعية اكتسبت بحكم ملكيتها أو وظائفها سلطات ادارية أو سياسية كالأمراء والقضاة وأصحاب الرتب العسكرية والملتزمين وكبار الملاك ومن ذوى الألقاب ، ما جعل الجميع خاصة من طبقة الفلاحين الكادحة والمسحوقة تنظر لمثل هذه الفئات بأنها الصفوة صاحبة الكلمة المسموعة دون غيرها .

٢٢٧٤ ـ كلام ناس وناس تحت الأساس .

وكلام ناس وناس الو طناطن واجراس .

ومن هذا المنطلق الفئوى قالوا :

٢٢٧٥ ـ ناس عزة وناس معزة

وأصروا على هذا التقسيم واضعين سدودا أمام الطموحات للرجل والانثى على حد سواء فناشدوا المرأة قائلين :

٢٢٧٦ ـ اذا انت ست وانا ست مين يكب الدست ؟!!

وبذات المنطق يسالون الرجل الطموح :

٢٢٧٧ ـ اذا انت امير وانا امير مين يركب الحمير ؟!! .

٢٢٧٨ ـ انا رطل وانت رطل ومين يشيل السطل ؟!!

وكرد فعل تلقائى لمحاولة التمييز هذه أجاب الشعب :

٢٢٧٩ ـ مافيش عنا خيار وفقوس .

فهم فقط يقدرون الناس ويحترمونهم وفقا لما يتسمون وبما يتحلون به من أخلاق فاضلة ومقدرتهم على عمل الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والصلح والاصلاح بين الناس ، ومن خلال هـذه القيم والمنطلقات يؤكدون أن « الناس مقاسات » كما ذكرنا وان :

٢٢٨٠ ـ العين بتعلاش ع الحاجب .

من واقع التقدير ، لا بمنطق التمييز والتمايز المبتذل .

الإكـــراد

هناك فئة اسلامية تعرضت لها الأمثال الشعبية العربية الفلسطينية وهم الأكراد الذين صاحبوا المجاهد الاسلامى الكبير « صـــلاح الدين الأيوبى » فاستوطن العديد منهم المدن الرئيسية فى فلسطين وأصبحت لهم أحياء خاصة بهم فى غزة (١) والخليل والقدس ونابلس .. الخ وقد تميزوا بالفروسية وركوب الخيل واشتغلوا بصناعة الحدادة التى تخـــدم أدوات الفلاحة خاصة والبيوت عامة . حتى كادت فى الآونة الأخيرة أن تقضى على فروسيتهم ومهارتهم فى ركوب الخيل فغدت موضع شك من وجهة النظر الشعبية فقالوا :

٢٢٨١ ــ شيخة ولاد وخيالة كراد والشاطر اللى بيضب حاله .

بمعنى أنه اذا أتى الوقت الذى يحكم فيه ويسوس الناس صبية [شيخة أولاد] ويقودهم خيـــالة من الأكراد الحدادين ، وعندها على « الشاطر » من الناس أن ينزوى ويدارى بنفسه لأن الأمور سيسودها الفوضى والتسيب وغالبا ما تسود مثل هـــذه المراحل عنـــد شيخوخة السلطة وانتشار الفساد فى جسدها .

ومن أمثالنا الشعبية قالوا :

٢٢٨٢ ــ زى جراب الكردى (*) .

ويتميز « جراب الكردى » وفق القصة المعروفة لدى الشـــعب الفلسطينى باحتوائه على العديد من الأشياء المتنافرة والمتضادة ، فيحكى

(١) كتاب المؤلف ــ غزة وقطاعها . الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ ١٩٨٧ .

(*) وقد صدرت بمدينة حيفا الفلسطينية جريدة تحمل اسم « جراب الكردى » .

أن كرديا قام بايداع جرابه (كيسه) الذى يحوى على « حجر صـــوان وكبة خيطان » فقط ، عند تاجر بغدادى وقام بعدها للسفر لدمشق . وبعد طول غياب قام التاجر البغدادى بفتح الجراب فوجد أنه يحـــوى أشياء تافهة فقام برميه ، ولم يلبث أن عاد الكردى ليسأل التاجر برد الأمانة ولما لم يستجب له التاجر ، شكاه للقاضى مدعيا بأن جرابه يحتوى على : « قرص جبنة ووزنه وقية وأربعة أرغفة ، وحلاوة وجاجة هندية ، ووزة محشية ، وفواكه شامية ، وبضاعة فرنجية ، وبرج وعلية وعروس مجلية ، وعبد وسرية ، وسباع وأدوية ، ... الخ » (١) وواصل الكردى سرد ما يحويه جرابه مدة طويلة حتى قاطعه القاضى طالبا من التاجر بدفع دينار له عوضا عنه ولعدم حفاظه على الأمانة .

واستمرت بعد ذلك قصة الكردى وجرابه مضربا للأمثال التى تنم على الكثرة المتنافرة والتى لا رابط بينها والقدرة على التحايل .

ومن وحى هذا المثل يقال مثل شعبى آخر :

٢٢٨٣ ــ ان كنت جراب الكردى انا رباطه .

دلالة على التحدى فى القدرة على كشف الحقائق ومنع انطلاء الكذب أو الخداع على الآخرين .

(١) عيسى عطا الله ــ قالوا فى المثل ــ جمعية الدراسات العربية ــ الجزء الأول ــ القدس ــ ١٩٨٥ ــ ص ٢١٧ ــ ٢١٨ .

الغجر والنور

وهناك أقلية صغيرة سكنت الجنوب الفلسطيني خاصة بمدينة غزة وهي « النور » . ومن الشائع بين شعبنا وكما يقول « النور » أنفسهم بأنهم قدموا أيام « بني هلال » وهم يعبرون فلسطين في أثناء هجرتهم المعروفة في العالم العربي .

والنوري وكذا « الغجري » اسمان لهما دلالتهما السلبية فهما في الحقيقة سبة حتى ان « جالتييه GAITIER » يرى أن اسم « غجري » سوقي أو وقح مما يؤكد سمعتهم السيئة (١) .

فيكفي أن نصف رجلا في مجتمعنا الفلسطيني بأنه « نوري » أو « غجري » وكأننا بذلك نقذفه بأقذع الصفات المهينة أبسطها بءنه فاجر وصوته مرتفع وسوقي .

ويقولون بأن « النور » اسم مشتق من النار ربما لكثرة اشتغالهم بالحدادة واستخدامهم للنار ويقال لأنهم يحملون الفوانيس والمجمرة والمشكاة وهناك من يدعي بأن الصياغة الصحيحة لكلمة « نور » توجد في اللهجة السنسكريتية لشمال غرب الهند التي تعتبر الموطن الأصلي لجماعة الغجر (٢) .

وعلى العموم تفصح لنا الأمثلة الشعبية الفلسطينية بوضوح عن العديد من ملامحهم السلوكية وحرفهم الأساسية التي اتخذوها وسيلة لكسب قوتهم وهي ثلاث : الحدادة واحياء الأعراس والتسول .

ففي مجال الحدادة قالوا :

---

(١) د. نبيل صبحي حنا – البناء الاجتماعي والثقافي في مجتمع الغجر – دار المعارف – القاهرة ١٩٨٣ ص ١٠٥ .

(٢) د. نبيل صبحي حنا – المرجع السابق ص ١٠٩ . وانظر أيضا : الموسوعة العربية الميسرة – مؤسسة الشعب وفرانكلين – القاهرة – بدون تاريخ ص ١٢٥٢ .

٢٢٨٤ – زي النوري من غير كور .

دلالة على البطالة وذلك لارتباط النوري ارتباطا وثيقا بأداته الرئيسية وهي « الكور » الذي ينفخ بواسطته الهواء في الفحم المتقد نارا لصناعة الأدوات الفلاحية والمنزلية (الملاقط – المناصب – الكوانين – الفؤوس والمحاريث الحديدية .. الخ) وبدونه يصبح عاطلا لا عمل له .

وعليه لقبوا النوري « نفاخ الكور » ونظرا لمكانته الوضيعة التي لا يرتجى منه نخوة أو رجولة ، فقد زاوجوا بينه وبين « بياع أرضه » فقالوا متسائلين بتعجب لا يخلو من الاحتقار وكما سبق ذكره « ايش تترجى من بياع البور ونفاخ الكور » .

وهم يشغلون عجائزهم في النفخ على الكور او نفخ النار بأفواههم اذا لزم الأمر مما يضر بنظرهم وابصارهم فوصفوا تلك الحالة بالمثل قائلين :

٢٢٨٥ – مثل عجايز النور لا صحة ولا نظر .

وظاهرة التسول خاصة في أوقات الشدة هي مما يزاولونها – نساؤهم خاصة – ويبدو أنها متاصلة فيهم حتى لو شاءت الأقدار – على حد تعبير المثل الشعبي – بأن تتزوج احداهن سلطانا . فيقولون :

٢٢٨٦ – النورية تجوزت السلطان وما استغنت عن الشحدة .

بل وحتى لو أسكنوها قصرا فانها تتوق للشحدة :

٢٢٨٧ – خطوا النورية في قصر قالت : يا طاقة بدي رقاقة .

فهي تناجي طاقة القصر (نافذته) تريد منه أو بالمعنى الأدق تستجدي منه رغيف عيش (رقاقة) .

كذلك يفعل رجالهم عندما يستغلون حدوث مناسبات سعيدة وأفراح لدى بعض السكان ، فها هو أحدهم يسأل أبناء القرية بمناسبة مولود جديد له أن يعطيه شيئا ، فيكشف لنا المثل الشعبي الحوار بقوله :

٢٢٨٨ – قال مبارك ابنك يا مقدم . قال انا واياه ع وجوه الناس

هكذا يرده خائبا عندما حاول « النوري » شيئا ما فرد عليه بأنه

والولد يعيش على الناس !! ربما وسيلة للتخلص منه . وكلمة « مقدم » يقولها النورى لكل من يقدم له شيئا .

وفى مجال احياء الأفراح قالوا :

٢٢٨٩ ـ زى النورية اللى ضاع دفها .

مثالا لأولئك الذين لا يدرون ماذا يفعلون وقد أصابهم الهلع عند فقدهم شيئا عزيزا وغاليا كالدف بالنسبة للنورية فهو رأسمالها واداة معيشتها .

ولكثرة ما يتردد الناس على أماكن تواجد النور الذين يسكنون ما يشبه الخيام المصنوعة من « الخيش » سواء لشراء الأدوات الفلاحية أو للتعاقد معهم على احياء أفراحهم أو المكوث عندهم ، تجد كلابهم قد أصابها الخمول ودائمة الرقود حتى اذا ما نبحت تنبح جالسة ، فاتخذوا منها مثلهم الشعبى القائل :

٢٢٩٠ ـ زى كلاب النور بيعوى وقفاه ع الأرض .

وينعتون بهذا المثل أولئك الذين يهددون وهم جالسون غير منفذين لما يتوعدون او يهددون .

وعليه فان مثل هذه الفئة « النورية » لا يقبلون بأى حال على التعليم فقالوا :

٢٢٩١ ـ عمره ما طلع من النور عالم .

بهذا الجزم القاطع يؤكدون أيضا وبأسلوب الاستفهام الاستنكارى قائلين :

٢٢٩٢ ـ بدك يطلع من النور عالم ؟!! .

حتى انهم يتهكمون ضاحكين على أولئك الذين لا يميزون بين الناس ولا يقدرون مكانتهم عن جهالة قائلين :

٢٢٩٣ ـ من قلة عرفه فى الدولة بسلم ع النور !!

ومما هو معروف أن هؤلاء « النور » يأنفون وبكل تعصب الزواج من اى فرد خارج وسطهم بل ويرون فى ذلك مساسا واهانة بهم حتى ليقال

ان الرجل منهم عندما يغضب من زوجته يصيح فى وجهها قائلا « أحمل الدندن فى ايدى ولا اقناكى » أى يفضل حمل « المنساس » الذى يحمله الفلاح أو أن يكون فلاحا على أن يحتفظ بزوجته .

وقد اعتاد النور كمجموعة من الرحل دائمى التنقل أن يتنقلوا عند الظهيرة أثناء بلوغ درجة الحرارة أوج ارتفاعها فقالوا :

٢٢٩٤ ـ زى النور بيرحلوا فى عز القيالة .

ويرددون هذا الميقات لرحيلهم الى قوم « جساس » أيام هجرة ابن هلال الذى (*) دعاهم بذلك كما يقال شعبيا .

ومما يزعجهم عند رحيلهم عجائزهم اللواتى يقال فيهم :

٢٢٩٥ ـ زى عجايز النور قطيعة فى الزاد وتقلة ع الحمير

كما اعتاد العديد من النور محاولة التسول عن طريق اصطحابهم للقردة ويكشف عن هذه الصورة المثل الشعبى القائل :

٢٢٩٦ ـ زى رقص سعدان (**) النورى أولها قلة عقل .. وآخرها شحدة .

(*) اجتازت عرب بنى هلال فلسطين الى مصر سنة ٤٢٩هـ أيام الخليفة المستنصر .

(**) سعدان : قرد .

الملابس

ارتدى أجدادنا العرب الكنعانيون ملابس تشبه الى حد كبير ملابس أهل البادية الفلسطينية اليوم ، فلم يكن هناك فارق كبير بين ما يرتديه الرجل والمرأة الا فى الثوب الخارجى حيث يبدو أكثر اتساعا وفضفاضا عند النساء عنه عند الرجل . وكانت لهم عباءة من الصوف صنعت من قطع مستطيلة من القماش المزخرف بالوان زاهية ، وكانت تلف حول أحد الكتفين ويترك الكتف الآخر عاريا كما بدا ذلك فى لوحة بنى حسن المشهورة والتى تعود لسنة ١٨٩٢ قبل الميلاد لعائلة عربية كنعانية خرجت من جنوب فلسطين متجهة لمصر (١) .

ويتضح من خلال المثل الشعبى القائل :

٢٢٩٧ ـ كل بلد الها زى وكل شجرة الها فى (*) .

التعددية الواضحة فى تنوع الأزياء فى فلسطين ، فالمعروف أن لكل مدينة وقرية فلسطينية زيا خاصا ـ نسائها خاصة ـ (٢) ، وهذه الأزياء فى حاجة ماسة لدراسة مستفيضة .

وتتضح هذه التعددية بجلاء فى قولهم السائر :

٢٢٩٨ ـ خود من توبك .

بمعنى أن يتزوج الانسان من بنات قريته أو مدينته أو ممن ينتمون

---

(١) وليم اولبرايت ـ آثار فلسطين ـ ترجمة د. زكى اسكندر ـ المرجع السابق ص ١٩٩ .

(*) فى : بمعنى ظل .

(٢) عبد السميع أبو عمر ـ التراث الشعبى الفلسطينى ـ تطريز وحلى ـ القدس ١٩٨٦ حيث يضم هذا الكتاب صورا جميلة لأزياء شعبية نسائية لمعظم القرى والمدن الفلسطينية .

لوسطه البيئى الجغرافى والتى توحدهم أزياؤهم الشعبية . مؤكدين ذلك بمثلهم :

٢٢٩٩ ـ ما بلبس تيابك غير حبابك .

سواء أكان تابعا عن المشاركة الوجدانية أم الرغبة فى ارتداء ملابس الآخرين عند الحاجة .

ويبدو تمسكهم فى ارتداء زيهم الخاص بهم جليا بقولهم :

٢٣٠٠ ـ كل توب والو لبيس .

اى لكل ثوب انسان يلبسه ويرغب فى ارتدائه شكل وموضوع .

وقد اشتهرت النساء الفلسطينيات بالتطريز بأسلوب فنى بديع ورفيع المستوى (١) يزين به ملابسهم . ويقومون باعمال التطريز هذه خاصة بعد موسم الحصاد وانتهاء مشاركتهن فى أعمال الفلاحة ، ولذا قالوا :

٢٣٠١ ـ الفاضية بتتعلم التطريز .

أو :

٢٣٠٢ ـ قلة الشغل بتعلم التطريز .

واستخدم الرجال الفلسطينيون « الحطة والعقال » غطاء للراس يعتزون بها ويعتبرونها شرفا عظيما فوق رؤوسهم . كما استخدم البعض « اللفة » وهناك من وضع « الطربوش » على رأسه و « الطاقية » وكذا « اللبادة » . ومن أشهر ما ارتدوا « القمباز » وهو ثوب طويل يغطى كامل الجسد .

وقالوا ساخرين لمن يهتم بالمظهر دون الجوهر متعلقا بالأمور الهامشية تاركا اللباب والأصول :

٢٣٠٣ ـ على راسه طربوش وقمبازو (*) منبوش (**) .

---

(١) نصازمو ـ التطريز ـ مركز التطور التربوى ـ الأوزوا ـ اليونسكو ـ غزة ١٩٨٥ حيث عالج هذا المؤلف أشغال التطريز والابرة للثوب الفلسطينى .

(*) القمباز : له تسميات عديدة تختلف باختلاف القرى والمدن ومن أسمائه « الصاية ـ الديمايه ـ السرتيه ـ الشيته ـ الكبر » .

(**) منبوش ـ اى ممزق .

ومن نوادرهم المثلية على تلك الفئة التى يصيبها الغنى فجاة نتيجة لتحولات معيشية غير طبيعية :

٢٣٠٤ ـ لبسوه جوخ ظلموه ، لاهو ملبوسه ، ولاهو ملبوس أبوه .

وتميز هذا الشعب بذوقه الرفيع فى اختيار ملابسه بما يتلاءم مع لون البشرة والسن فقالوا :

٢٣٠٥ ـ لبس الأسمر أحمر واضحك عليه ، ولبس الأبيض اسـود واتفرج عليه .

ويبتهجون عند ارتداء الملابس الجديدة فيقولون :

٢٣٠٦ ـ كل جديد والو بهجة .

ومنعا للاطراء المبالغ فيه على الملابس الجديدة بدرجة يتاثر معهـا مرتديها تجدهم يبادرون بترديد قولهم السائر :

٢٣٠٧ ـ القالب غالب .

وذلك رفعة لشأن الانسان نفسه « القالب » .

كما انتعل الرجال « الصنادل » صيفا والحذاء شتاء « الكندرة » ولهذه أسماء شتى تختلف أيضا باختلاف المواقع الجغرافية (*) ، ومنهـا ما جاء فى هذا القول السائر :

٢٣٠٨ ـ هادا النعل من ذاك الوطى .

وكانت هذه الأحذية مصنوعة أيام الكنعانيين من الجلد وتاخذ شكل أخمص القدم وتشد بواسطة سيور من جلد لسهولة لبسها وخلعها .

وبالنسبة للبنت ألبسوها « عباءة » فضفاضة تستر بها جسدها وتحافظ على وقارها وحشمتها فقالوا :

٢٣٠٩ ـ لبس بنتك عباه وحطها فى بيت الفنا .

مفضلين بذلك حتى « الرقعة » التى هى جزء ثانوى من الثوب على البنت ذات القد المايل قائلين :

٢٣١٠ ـ الرقعة العوجا أحسن من القد المايل .

(*) من هذه التسميات « الكندرة ـ المشايه ـ الحفايه ـ المداس ـ النعل ـ الوطى ـ الصرمايه ... الخ » .

الفصل الثانى والثلاثون

- الفكاهة الشعبية الفلسطينية
- الحزازير (الأحاجى والألغاز)
- المطالب العشرة .
- الخاتمـة .

الفكاهة الشعبية

يمكن اعتبار أدب النكتة فرعا متميزا من الأمثال الشعبية كفن قولي يحتاج صاحبها لقدر عال من الفطنة والنباهة ، وأن يكون حاضر البديهة ولماحا ولديه المقدرة على اصطناع التورية وتسخير الالفاظ بسرعة ولباقة . والروح العربية الفلسطينية هي بلا أدنى شك روح تهوى استقبال الفكاهة والنكتة وتتذوقها ويستجيب لها الفلسطيني وهو ميال للمرح تماما كأجداده الذين ورثوه أدبا مليئا بالنوادر والملح والفكاهات . ولكن بمقدار ما يتقبلها ويستجيب لها بمقدار ما هو شديد الحرص على التفوه بها وابداعها اذا ما قارناه بجيرانه من أبناء الشعب المصرى ويعود ذلك للطبيعة السيكلوجية الذاتية التى حركتها الظروف السياسية والعسكرية وليدة موقع بلاده الاستراتيجى الدرامى وظروفه الاجتماعية التى قيدته بأوامرها ونواهيها الخاصة باطلاق الكلمة التى قد تفسر بمعان عديدة وتسبب الاحراج أو السخرية والاستهزاء بالآخرين مما يضعه تحت طائلة القضاء العرفى والجلوس للحق بتهمة « التسويد » لسمعة الآخرين ، لذا تجده حريصا على كلمته قبل نطقها واذا شعر بأنها تحمل عدة معان أو فيها من التورية أعقبها بجملة أصبحت تدور على كل لسان كأنها قول مأثور أو مثل شعبى سائر وهى :

٢٣١١ ـ بلا قافية .

فذكرها بعد كل كلمة تتحمل عدة معان يلغى سوء القصد او التأويل من قبل الآخرين ويخرجه من دائرة المساءلة الشعبية . مما جعله شديد الحرص عند اصدار أى نكتة أو طرفة .

بالاضافة لهذا هناك الظروف الاقتصادية الطاحنة وعلى رأسها وأهمها ظروف القحط والجدب الناجم عن أمطاره الاعصارية المتذبذبة

فسنوات المحل تكاد تتعاقب مع سنوات الخصاب وتتناوب معها بشكل يكاد يكون متساويا فيتعاقب الهم والغم والحزن مع الفرح . فان كان « الخصاب » يسبب له جنون الفرح فان المحل فى رأيه الذى سجله مثل شعبى يثير فيه الجنون الأكثر .

٢٣١٢ ـ الخصاب جنون والمحل أجن (١) .

وهذا يدفعه لقول مثله الشعبى أحيانا :

٢٣١٣ ـ هم يضحك وهم يبكى .

هذه الظروف جميعا من سياسية واجتماعية واقتصادية طبعت شخصيته بطابع الجدية والشدة والتمرد والثورة والاعتداد بالنفس وبالتالى البعد عن السخرية والضحك الكثير والا قالوا عنه شعبيا « مسخرجى » وهو لقب يقلل من قدره بين أفراد مجتمعه حتى ولو غلفته ابتسامة وكأنه بذلك قد ورث ووعى ما قاله الأب العربى الآرامى (فلسطين وسوريا) والملقب « احيقار » الكاتب فى بلاط سنحاريب ٧٠٤ ـ ٦٨١ قبل الميلاد والذى أوصى ولده قائلا :

« يا بنى ! لا تهذر كثيرا فتنطق كل كلمة تخطر ببالك ، ففى كل مكان عيونهم وآذانهم ، فكن حارسا على فمك حتى لا يكون فيه هلاكك ، افرض على فمك حراسة أشد من كل حراسة ، واغلق القلب على ما تسمع ، فالكلمة كالطائر اذا أطلقها أحد لم يستطع استعادتها » (٢) .

فلا عجب أن يستوعب العربى الفلسطينى هذه القيم ويسجلها تراثا شعبيا بمثله القائل :

٢٣١٤ ـ من كثر ضحكه قلت هيبته .

فكثرة الضحك ـ لا الضحك فى حد ذاته ـ رآه تقليلا لهيبته ووقاره بين الناس فأكد ذلك بمثل شعبى آخر قائلا :

---

(١) سليم المبيض ـ الجغرافيا الفلكلورية ـ المرجع السابق ص ٢٠٥ .

(٢) سبتينو موسكاتي ـ الحضارات السامية القديمة ـ ترجمة د. السيد يعقوب بكر ـ دار الرقى ـ بيروت ـ ١٩٨٦ ص ١٨٥ .

٢٣١٥ ـ قلة المزاح (*) هيبة وكثرته عيبة .

تماما وبذات المعنى قال :

٢٣١٦ ـ كتر الهزار (*) بيقل المقدار .

فالمزاح والهزار هما لونان من ألوان الفكاهة السلبية للضحك لكنهما يتميزان عن النكتة بأنهما غالبا ما يصاحبهما مد الأيدى ، اللكع ، وهذا ما لا يشجعه عامة الشعب لأنهم يرون فى بدايته الضحك وفى نهايته الشجار والغضب وهذا ما لفظوه ولم يشجعوا عليه ، لأن فيه العيب وانقاص الهيبة والمقدار بين أهله ومجتمعه .

وهم على قدوة برسولهم الكريم عليه الصلاة والسلام والذى يحذر من كثرة الضحك قائلا : « اياك وكثرة الضحك فانه يميت القلب ويذهب بنور الوجه » .

وهنا لا ينفى نبينا الكريم الضحك ولكنه ينهى عن كثرته لأنه هو القائل « روحوا عن القلوب ساعة بعد ساعة فان القلوب اذا كلت عميت » .

واقتداء بذلك وبهذا النهج القويم للترويح النفسى قسم العربى الفلسطينى وقته بين العبادة والجد وبين الترويح والترفيه قائلا :

٢٣١٧ ـ ساعة لقلبك وساعة لربك .

مبينا أيضا قيمة الضحك وفوائده نفسيا وجسمانيا عليه ففضلها على كل الأدوية قائلا :

٢٣١٨ ـ ضحك وانشراح أحسن دوا للأرواح .

محللا ذلك بمثله القائل :

٢٣١٩ ـ الضحك للانسان زى السماد للبستان (*) .

هكذا يغذيه الضحك ويبعث فيه الهمة والنشاط ويلغى الغمة

(*) يرى بعض علماء النفس انه لا يضير المرء أن يجمع بين الضحك والقليل من المزاح ، لان ذلك يسهل على الشخص التفاعل الاجتماعى ويحسن من الاحساس النفسى فى مواجهة الحياة .

(*) أكد العديد من علماء النفس اليوم بأن الضحك مفيد لجميع أجزاء الجسم حيث ينشط هرمونات معينة لها أهميتها فى تحسين مستوى تدفق الدم وتنشيط بعض المواد الكيماوية فى جهاز المناعة فى الجسم وفعالية أداء الجهاز التنفسى وتخفيف الاحساس بالألم .

والاحباط ويبعده ولو لفترة عن جدية الحياة الواقعية المليئة بالكثير من المشاكل والمتاعب والأعباء ليعود بعدها سريعا للجد والعمل .

من هنا يمكننا الضحك من الكشف عن ملامح الشخصية على اعتبار أن الضحك مقياس للشخص وتقييم سلوكه وقيمه الأخلاقية وذلك بما تفيض به نفسه من معرفة وثقافة ومن كبت وتحضر وموقفه من مجتمعه ورؤيته له تماما كما يفصح عن ذلك « مارسيل بانيول » بقوله : قل لى مم تضحك ؟ اقل لك من أنت ؟ .

فتجد العربى الفلسطينى اذا/ما ضحك واشتد ضحكه حتى دمعت عيناه يبادر سريعا وكأنه يحسد نفسه على ذلك معتبرا هذه « الضحكة » مدخلا لتشاؤم أو مكروه قادم فى المستقبل القريب فينهى ضحكته قائلا :

٢٣٢٠ ـ اللهم اجعله خير !! .

هكذا يحسب للضحك حسابه أو لعل ذلك يذكرنا بأبى العـــلاء المعرى دفين مشاكله الجسدية والنفسية عندما قال :

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة ... وحق لسكان البسيطة أن يبكوا
تحطمنا الأيــام حتى كأننــــا ... زجاج ولكن لا يعادله ســبك
فافرق من الضحك واحذر أن تحالفه ... اما ترى الغيم لما استضحك انتحبا

هذا الحذر من الضحك أصبح شـبه متمكن فى النفس العربيـة الفلسطينية حتى تجده يحذر الضاحكين أحيانا بمثله القائل :

٢٣٢١ ـ اضحك فى عبك .

وذلك بأن يضع وجهه الضاحك أسفل ملابسه الواقعة على صدره أى تحت ابطه لكى يسترها ويخفيها عن الآخرين ، ويقال عادة هذا المثل لمن نال شيئا عزيزا ربما لا يستحقه ولا يحلم حتى بالحصول عليه .

ويبقى التساؤل مطروحا لماذا الضحك فى الخفـــاء [فى العب] ؟! تلك هى الخاصية للنفسية الفلسطينية الحذرة والتى تبدى اهتماما كبيرا بالتحفظ على النكتة قبل النطق بها .

الا أن ذلك لم يمنعه من استخدامها وبكل أنواعها ومراميها سواء العدوانية منها أو التهكمية وكذا الساخرة فى معظم مراحل حياته ، وقد وظفها للتنفيس عن نفسه والاعراب عما يكنه تجاه الآخرين من أبناء شعبه أو تجاه الحاكم وسلطته سواء بقصد السرور أو التهكم والسخرية .

فها هو نائب القدس الشريف « دقماق » تعود ان يمازح الجالسين عنده من الناس فى سنة ٨٩٣هـ فى العصر المملوكى فتصدر عنه بعض الألفاظ المهملة مما يؤدى ـ من وجهة نظر القاضى الفلسطينى المعاصر له مجير الدين الحنبلى ـ الى انتقاص الناس له خاصة اذا ما استخدم الترهات الفشرية ، كما اعتاد هذا النائب اذا ما مر بجماعة من الناس أن يحييهم قائلا :

سلام عليكم جماعة

مما جعل الناس من أهالى القدس يرتبون له سجعا قائلين :

سلام عليكم جماعة .. دقماق عنده سقاعة .

ولما بلغه هذا ، أحضر أحدهم لمجلسه مستفسرا عما يقوله ، فرد عليه قائلا :

حاشى الله انما قلت :

سلام عليكم جماعة دقماق عنده شجاعة (١)

هكذا كان الشعب العربى الفلسطينى يرد على مثل هؤلاء النواب ورجال الســلطة عنـدما يزدرون تصرفاتهم وأقوالهم مســتخدمين الرد التهكمى والسخرية اللاذعة مستخدمين أسلوب التلاعب بالألفاظ والتأويل والاختزال فى الكلام .

واتخذوا ذات الأسلوب فى نهاية الدولة العثمانية عنـدما انتشرت الفوضى والرشوة والمحسوبية بين رجال السلطة فها هو أحد مشــايخ مدينــة غزة يتهكم على أحـد قضاتها ويلقبه « بالسخل » ويدعى محمود السرمينى فقال فيه سنة ١٢٨٨هـ .

سرمين بلدته والســخل شهرته ... ومكذب عادته فى كل ما قال
كم يدعى نسب الكيال من حلب ... فهل سمعت بكون السخل كيال(٢)

وها هو الشيخ عبد الله صلاح العلمى الشافعى الغزى قد قال هازلا عندما سمع بأن أحد أفراد أسرة « غزال » قد شــارك أحد أفراد عائلة « الفار » فى ساقية وهما عائلتان مرموقتان بمدينة غزة فقال :

---

(١) مجير الدين الحنبلى ـ الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ـ مكتبة المحتسب ـ عمان المجلد الثانى ـ ١٩٧٣ ص ٣٤٤ .

(٢) سليم المبيض ـ غزة وقطاعها ـ الهيئة العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٨٧ .

لما تشارك فار والغزال معـــا   انشات بيتا ظريفـا عند معرفته
الفـار اما ترقى فوق حالتــه   او الغزال تدل دون مرتبتـه (١)

وللمرحوم الشيخ راشد المظلوم الغزى فى نهاية القرن التاسع عشر الميلادى بعض الأشعار قالها لبعض المعاصرين الأدعياء، قائلا :

رب شخص جاهل قـد   يدعى عـلم البخـاري
قد سالت النـاس عنـه   قيل هـذا كلب خاري (٢)

وهكذا كانت هناك مجموعة من المشايخ الظرفاء يلقون بالعديد من فكاهاتهم الشعرية كأدباء وشعراء هواة نظموا الشعر الهزلى الضاحك عن الحماة – وكرى البيت والزوجات القبيحات اللواتى اقترنوا بهن لشرائهن ومنهم من تغزل فى الكنـافة أمثال عبد الله سكيك المتـوفى سنة ١٨٨٩م (٣) .

انتشرت النكتة والطرفة متسترة أيضا وراء الزجل والشـعر بين افراد البادية الفلسطينية خاصة لجذورهم العربية التى لم يمسسها تحديث وقد اتخذت أسلوب الدعابة والتهكم الاجتماعى تجاه أهل القرى والمدن ، فها هو أحدهم يصور احتفالا تكريميا لأهل القرى والمدن وقد ذبح لهم « ديك » !! وأخذ يوزعه عليهم بأسلوب ساخر قائلا :

جبنا الديك اللى اشتريناه   من نقوع الصـواحين (٤)
علقنا الديـك اللى جبنـاه   من دكاكين الجـراوين (٥)
نزلنا على السـوق الغربى   جبنـا له ثلاث جزادين
عـرف الديـك ان ادلى   مثـل طبايق قمر الدين
جبنـا ورك من أوراكه   كفى التياها (٦) والترابين (٧)
دلينـا على الـورك الثـانى   كفى عزازمة (٨) وجرادين (٩)
باقى الجثة اللى ظـلت   كفت قرايـا الفـلاحين
وبنى سهيلة (١٠) وعبسان (١١)   تلفن من جسر المصـارين

(١) من أوراق الشيخ عثمان الطباع الغزى – مخطوط .
(٢) من ضمن أوراق الشيخ عثمان الطباع – السابق .
(٣) ابراهيم خليل سكيك – المرجع السابق ، الجزء ١٢ ص ٥٦ – ٥٧ .
(من ٤ – ٩) أسماء لقبائل عربية فلسطينية تسكن حول مدينة بئر السبع وجنوبها فى النقب .
(١٠) قرية بنى سهيلا من قرى شرق مدينة خان يونس .
(١١) قرية عبسان وهى من قرى شرق خان يونس .

وهاهم بذات الأسلوب يقدمون لنا صورة هزلية فكاهية عن أبناء القرى والمدن :

شربنا لينا دجاجة من باقى تجرة واحـد يهود
امرار بنسـوقهى سوق وامرار بنقودهى قـود
طلع اختيار من باب الدار غلط وقالهـا حـود
طقته بسـنقودهى لتو على الأرض ممـدود
قامن الفـلاحات اسنحطات يتلاطمن على الخدود
جونا الفـلاحين قراعين الكل بسيف وعمـود

وتلك هى دعابة طريفة تأخذ مجالهـا فى أثناء احتفـال احدى البدويات الفلسطينيات وتدعى « سليمة » بمناسبة طهور ولدها (ختانه) فقام أحد « البداعين » يقول لكى يضفى جوا من المرح والبهجة :

هادا الغـوج أبو طاره (١)   وسبع مواس ومنشاره .
قطع فـاس وقـدومين   لما حضرتوا يـوم طهاره .

ثم نهض آخر ويدعى « صباح بن جهامه » يصف قدرها التى تطبخ فيه :

قدر سـليمة هبـوه يرمى الطيـارة
ياخد أربع ناقات الدربى من غير جزارة

فرد عليه أحدهم ويدعى « ابن عاصى » قائلا :

يا صباح الجهامات هيد بالشكر هيد (*)
والله قدر سليمة ما بياخد الديك الجيد

وبعد التخفى وراء الأهازيج والزجل والأشعار بدأوا يسـتخدمون النكتة أو الطرفة بأسلوب يشبه المثل الشعبى فى ايجـازه ومن طرفهم يقولون :

٢٣٢٢ – زى اللى خل الشيخ .

اى مثل الذى اختلى بالشيخ ، وهذه النكتة تحكى قصة امرأة بدوية ارادت لزوجها أن يخرج من عزلته وانطوائه ويجالس الناس فى « الشق »

(١) الغوج أبو طارة : اى الجمل الكبير .
(*) هيد : اى هون عليك او تمهل او اتئد .

اى المضافة فلما ذهب وجد كل رجلين يتجاذبان أطراف الحديث سويا بحيث لم يجد من يكلمه فما كان منه الا أن أشار باصبعه « للشيخ » أى كبير الشق الذى امتثل له فأخذه واختلى به بعيدا عن المجلس وقريبا من امرأته التى كانت تسترق السمع فما كان من زوجها الا أن قال للشيخ هامسا :

ان غزت العرب غزينا
وان رحلت رحلنـا
وناقتى غدى للجميع .

فلطمت زوجته خدها على زوجها الذى كسر عصاته من أول غزاته وضحى بما يملكون فى البيت « الناقة » وبقيت هذه النكتة نموذجا للرجل الذى يبحث عن ذاته فيضحى بأعز ما يملك فى سبيل ابراز كيانه السلبى .

وانتشرت النكتة وشاعت كذلك فى القرى والمدن الفلسطينية على أفواه العديد من أبنائها ممن تميزوا بخفة الدم وسرعة البديهة وطلاقة اللسان . ومثل هؤلاء الظرفاء اطلق عليهم الناس خاصة فى المدن لقب « زهرجى » تشبيها بالزهر وما يفوح به من أريج ذكى وشذا يبعث الانسجام والنشوة بين الناس كما سموهم « مسخرجى » لما يبديه من مساخر وأحيانا يطلقون عليه « هواوى » أى كالهواء فى انطلاقه وانسيابه بلا حدود . يدخلون فى نفوس الناس البهجة والفرح حتى لمجرد رؤيتهم وغالبا ما يتواجدون فى المجالس (الديوان) أو يصطحبونهم معهم فى رحلاتهم وأماكن تنزههم ، وغالبا ما يستأجرون البعض فى الأفراح فيطلبون منهم عمل « شنيعة » خاصة فى القرى أى يقوم بتشنيع نفسه ووجهه خاصة (أشبه بالحفلات التنكرية) لجلب الضحك بما يأتى به من تصرفات وأقوال وله الحرية للتنكيت على الجالسين مهما علت مكانتهم أو تدنت دون اعتراض لأنه فى نظرهم :

٢٣٢٣ ـ لا عليه دراك ولا عراك .

أى أنه :

٢٣٢٤ ـ مشمس .

فيبدع فى أثناء الفرح بأقواله النكات والطرف ويأتى بحركات تدعو للضحك .

وهناك طابع آخر للضحك يتناقله أبناء الشعب تماما كما يتناقلون الأمثال الشعبية بل هى فى الحقيقة نكتة مثلية شعبية اذا جاز لنا التعبير مبنية على التناقضات والسلبيات البشرية يتداولها أبناء الشعب كلما حانت لهم الفرصة فتدعوهم للابتسام والضحك منها :

٢٣٢٥ ـ النصاب بياخد من الحافى نعاله .

٢٣٢٦ ـ لما اختل حط الزيت فى السل .

٢٣٢٧ ـ لاحنى ولحتو ومن كتر عزمى اجيت تحته .

٢٣٢٨ ـ حزانة وطفرانين وبعشاهم اشتروا ياسمين .

٢٣٢٩ ـ زبال وفى ايده وردة .

٢٣٣٠ ـ حلاق جديد فى أقرع استفتح .

٢٣٣١ ـ زى الأطرش فى الزفة .

٢٣٣٢ ـ عقله جوزتين على جمل .

٢٣٣٣ ـ باع الطربوش واشترى منقوش (غزل البنات).

٢٣٣٤ ـ باع العماره واشترى حماره .

٢٣٣٥ ـ باع الفرس بطبخه عدس .

٢٣٣٦ ـ الهيصمى يومن زمر ضرط .

٢٣٣٧ ـ الحرامى بيقول لاهل البيت .. ايش الزول ؟!!

٢٣٣٨ ـ الفص الحزق ع لحمار الأجرب .

وكذلك كان للنساء نصيبهن من النكات المثلية الشعبية التى لا تخلو من الفكاهة كقولهم :

٢٣٣٩ ـ عميه بتحف مجنونة والطرشة بتتصنت ع الباب .

٢٣٤٠ ـ عورة وبتغامز القمر .

٢٣٤١ ـ قرعة وبتتباهى بشعر بنت اختها .

هذا بالاضافة للعديد من الأمثال الشعبية الفكاهية التى سبق ذكرها عند تحدثنا عن النساء الرعن والرغايات والفرارات .

وقد سخروا بعض الأحداث التاريخية والاجتمـــاعية اللامعة فى التنكيت على الادعياء فيقولون :

٢٣٤٢ ـ جايب راس كليب !! .

٢٣٤٣ ـ جايب راس أبو طبر !!

٢٣٤٤ ـ فتح عكا .

لمناعة مثل هؤلاء كشخصية « كليب » وأبو طبر الذى تميز بجبروته فى فلسطين وكذا منعة مدينة عكا قاهرة نابليون بونابرت . فيتقـــذفون هذه الأمثال الشعبية على من يحاول الادعاء باتيانه بالكثير والصعب وهو فى حقيقة أمره لم يحقق أى انجاز يذكر متهكمين عليه وساخرين منه .

ومن ألوان الفكاهة المتميزة لأبناء الشعب الفلسطينى تلك التى ارتبطت بكل أبناء قرية وقرية بل وكل مدينة وبكل حى من أحياء المدينة ذاتها .

فالقرية الفلسطينية لا تمثل فقط كتلة بشرية سكنية متراصـــة البنيان بل هى أيضا متكاتفة الوجدان يسود أهلها الوئام والمحبـــة ، وعليه أصبحت المنافسة قائمة بين كل قرية وقرية ومدينة ومدينة ، وجدوا متنفسا لهم باصطياد بعض النوادر والطرف على بعضهم البعض استمدوها فى الغالب من أحداث استثنائية حدثت فى الغالب لشخص تميز بظرفه ، أو باتيانه بعض التصرفات العفوية الغريبة والبعيدة عن المنطق والعادة ، حتى لتجدهم أحيانا يحاولون دفع هذه « الطرف » والفكاهات عنهم معللين ذلك بمثلهم القائل « كل قبيلة والها هبيلة » أو « لكل بلد بليـــد » مما يزيد من طرافة الموقف .

وعليه أصبحت هذه « الطرف » والنوادر توزع توزيعا جغرافيا ثابتا على كل قرية ومدينة بفلسطين ولصيقة بها وبأهلها الذين ما ان يبادر أحدهم بتقديم نفسه للآخرين ولأى قرية أو مدينـــة ينتمى اليها حتى يسرعون بذكر الطرفة أو النادرة التى اختصت بها قريته جلبا للضحك حتى كادت تأخذ طابع المثل الشعبى فى تعميمها وديمومتها .

ونسوق بعضها وفق ما استطعنا جمعه خاصة للقرى والمدن الجنوبية الفلسطينية وبعض المناطق الأخرى :

مدينـــة غزة :

٢٣٤٥ ـ أكال الفلفل غزاوى .

أخذوا على أبناء مدينة غزة حبهم المفرط لأكل الفلفل سواء الأخضر أو الأحمر .

وبمدينة غزة عدة أحياء لكل حى طرفة يتندرون بها عليه :

حى الشجاعية :

٢٣٤٦ ـ العواف يا بابنا :

قيل عن أحد أبناء هذا الحى أنه قالها لباب منزله بعد أن عاد اليه بعد طول غياب .

حى الزيتون :

٢٣٤٧ ـ رقاعين الصبرة .

يحكى أن رجلا من هذا الحى قام برقع صبرة (تين شوكى) نظرا لكبر حجمها لكى يضعها عنوانا فوق السل الذى يريد بيعه ، وقد اكتشف أمره فأخذوا أهل الحى بجريرته .

وكذلك قيل عن ذات الحى بأنهم :

٢٣٤٨ ـ زواقين البسة .

قامت احدى نســاء هذا الحى بتزويق أى تزيين قطتها (البسة) بالكثير من حليها الذهبية نظرا لعدم انجابها للاولاد أو البنات . وذلك لتعطشها على الانجاب ولقضاء وقت فراغها ، فما كان من القطة الا ان هربت فأخذت تجرى المرأة وراءها لتسأل عنها كل منزل ، وذهبت هذه الحادثة بعد ذلك طرفة على أهالى الحى .

قرية الفالوجا :

٢٣٤٩ ـ بيجيبك الخميس .

قالها أحد أبناء قرية الفالوجا عندما حاول أحد أبنـــاء قرية أخرى الاعتداء عليه فرد عليه متوعدا « بيجيبك الخميس » أى ستأتى الينـــا

« يوم الخميس » ، واقتص منك فى قريتنا ، وهذا اليوم « الخميس » هو السوق الاسبوعى فى الفالوجا وما حولها من القرى الفلسطينية .

قرية حمامة :

٢٣٥٠ ـ طلعنا كمرهم (قمر) بالفكوس .

اى طلعنا قمر مدينة المجدل بالفقوس ، حيث يحكى أن مجموعة من اهالى القرية خططوا ليلا لسرقة « مقشأة » فقوس وعندما طلع القمر فجأة واكتشف أمرهم بنوره ، عندها صاح عليهم صاحب « المقتاه » فردوا عليه « طلعنا كمرهم بالفقوس » فرد عليهم آه يا تيوس ، وذهبت طرفة عليهم .

المجـدل :

ذهب أحد أبناء المجدل متجها لقرية اسدود فتعرض له بعض المارة وهم على خيولهم محـاولين الاعتداء عليه عند موضـع يدعى « سـدرات معصبة » فهرب منهم وعند عودته دارت بينه وبين أهل المدينة المحاورة التالية التى أخذ الجميع يتندرون بها :

٢٣٥١ ـ سالوه : وين لقتك الخيل يا على

على : عند سدرات معصبه

سالوه : ليش ما صوتت يا على ؟

على : أنا صوتى جرس !

سالوه : وليش ما شردت يا على ؟

أجاب : أنا تحتى فرس !

ومما يقال عن أهل مدينة المجدل طرفة يمكن وصفها بأنها سياسية بقولهم :

٢٣٥٢ ـ يا ريتهم كسمو !!

يطلقونها على أهل المجدل عندما قالوها متمنين التقسيم الصادر فى عام ١٩٤٧ برقم ١٨١ عن الأمم المتحـدة والذى كان يقضى باقامة دولة فلسطينية وأخرى يهودية ، وقالوها بعد هزيمة ١٩٤٨ وقد رفض الجميع من الفلسطينين هذا التقسيم لاسـتحالة حتى التفكير فيه لهول الأحداث وكيف يرضى عندها أى فرد بقسـمة ولده الشرعى نصفين ؟!! ودارت الأيام ولسنا بصدد التحليل التاريخى والسياسى الآن وأصبحنا نطالب

بقرار التقسيم الآن ، فبعد أن كنا نقولها تهكما عليهم أصبحوا الآن وقد سبقوا عصرهم بسنوات عديدة !! ومما يجدر التنويه به أن اهالى مدينة المجدل متميزون بثقافتهم وبنشاطهم الاقتصادى وفضلهم الذى لن ينسى بتغطية السوق الفلسطينى بعد عام ١٩٤٨ بالمنسوجات حيث حولوا منازلهم وحتى الشوارع الى مصانع للغزل والنسيج .

قرية الجوره .

٢٣٥٣ ـ عومى يا بنت النواتى (*) عومى .

قالها أحد أبناء القرية وهو نائم فوق سطح منزله وبجواره زوجته أسفل عريشه وكان يعمل صيادا بحريا كباقى أفراد القرية ، وفى تلك الليلة غطى المنطقة الساحلية ضباب كثيف فلما فتح عينيه قليلا خيل اليه وكان البحر قد غمره فأخذ يجدف بيديه ويسبح على بطنه مناديا زوجته أن « عومى يا بنت النواتى عومى » حتى وقع مغشيا عليه على الأرض .

قرية اسدود

٢٣٥٤ ـ اركز تنعمل ليك سلطة .

اعتاد أن يقولها بعضهم لمن يزورونهم أو يمرون من أمامهم دلالة على البخل صائحين اجلس (اركز) حتى نعمل لك سلطة (بندورة + ملح وفلفل) .

ويقال لهم : ..

٢٣٥٥ ـ ليكى ولاد ولى ولاد حد الله بينى وبينك

قالهـا للطائر « أبو الوى » الذى يلوى رقبته باسـتمرار ظنـا منه بأنه أفعى .

مدينتى الرمله واللد .

٢٣٥٦ ـ شد قربت الرملة ع اللد .

نظرا لمنافسة مدينـة الرملة بجامعها الأبيض المنيف والذى أنشاها سليمان بن عبد الملك لمدينة اللد القريبة منها خاصة وقد أصبح لها موسما

(*) النواتى : بشهرتهم فى الصيد البحرى .

تجمع فيه جميع ابناء فلسطين « موســم النبى الصالح » مما حدا باهل اللد – كما تخيل البعض – او ادعى عليهم بان يقوموا بربط مسجدها بحبال (*) يشدونها وهم صائحين – شد قربت الرملة ع اللد – حتى يتسنى لهم نقل الجامع لجعل مركز الاهتمام يتجه لهم (١) .

قسطينة

٢٣٥٧ – على يمينك يا نمره

قيل ان رجلا من هذه القرية فيما كان يتجول فى المزارع راى ارنبا بريا وقد اختبا بين الأشواك فاسرع باحضار قطته وتدعى « نمرة » وقام بربط طرف وزرته على وسطه بذيل القطة والقى بها بالقرب من مخبأ الأرنب الذى خرج مسرعا ومتجها نحو اليمين بينما اسرعت القطة نحو اليسار وعندها صاح بها هذا الرجل قائلا « على يمينك يا نمرة » .

قرية صميل :

٢٣٥٨ – سرك مفضوح زى وشاويش اهل صميل .. فوق السطوح .

اعتادت نساء هذه القرية الوقوف فوق أسطح البيــوت بمجرد سماعهن لخبر فى القرية للتحدث فيه .

قرية برير :

٢٣٥٩– تضحكى والا ما تضحكى العجة على قلبكى ..

او « عليك مقل البيض » .

يحكى أن رجلا كان فى طريقه الى بيته ومعه حمارته ، اتفق معها على أن يسير كل منهما فى طريق ، والذى يتأخر فى وصول المنزل يقوم بقلى بيض أو عمل « عجة » .. وصــل الرجل المنزل ، فلم يجد الحمارة وانتظر دون جدوى فرجع يبحث عنها حيث وجدها ملقــاة وقد فتحت فمها وظهرت أسنانها فظنها تضحك وكانت ميتة على اثر عبورها لسيل ... وعندها قال قولته التى اضحت مثلا فكاهيا .

(*) وقيل بشريط مطاطى .

(١) انظر الى عبد الله محمد الجهشيارى – حققه مصطفى السقا وآخرون – الطبعة الثانية – القاهرة ١٩٨٠ ص ٤٨ .

قرية الجلدية

٢٣٦٠ – زى عزومة عزروق شيخ الجلدية يا سلطة يا ملاحية .

والمثل واضح يدل على نجل شيخ الجلدية واسمه « عزروق » الذى كان يحتفى بضيوفه اما بسلطة أو ملاحية .

قرية القباب

٢٣٦١ – يا حزريتشهم يا بزريتشهم الجاز من ايش بصنعوا ؟

قال من كموع الكرنبيط.

كان السؤال مجرد فزورة فرد عليها بالجواب ابن المختار للقرية ، والطرفة موجهة بصفة خاصة للمنقد والفكاهة على لهجة أهل القرية بصفة خاصة .

قرية عبدس

٢٣٦٢ – عبدس عب ودس .

يفسرون معنى قرية عبدس لفظيا بأنها عب ودس بمعنى أن بعض سكانها تميزوا بمجرد حصولهم على بعض الأشياء أن يسارعوا بوضعها أو دسها فى عبتهم لكيلا يراها أحد .

قرية ترشيحا :

٢٣٦٣ – يا أرض ليشن بتعنى ؟! ترشحانى مارق فوق منى .

فالأرض تشتكى وتئن (بتعنى) لأن أحد أبناء ترشيحا يمشى من فوقها !! .

قرية الرينة :

٢٣٦٤ – شباب الرينة كل عشرة بقطينة .

قرية الجيه .

٢٣٦٥ – هر امجك (أمك) احدانا .

قالها عندما أخذ كمية من الصوف لغســــلها بماء البحر تمهيدا لصباغتها فأخذت الأمواج بعضا منها وعندما رآها طافية ، أخذ يناديها :

٢٣٦٦ ـ هر امجك اى امك احدانا اى عندنا !!! .

تلك هي بعض من الطرف والنوادر . نسوقها ـ كنماذج ـ لأنها انتشرت واتسعت حتى غطت معظم ان لم يكن كل قرانا ومدننا الفلسطينية ، يتداولها وما زال شعبنا العربى الفلسطيني بقصد الترويح والضحك وان كان يختلف نوع الضحك باختلاف نفسية الضاحك فهناك الضحكة البريئة ومنها المستهزئة وأخرى الشامتة وضحكة الاستعلاء .. الخ تفيض بها كل نفس وفق تركيبتها النفسية والثقافية ونشأتها التربوية .

كما اتخذ الشعب العربى الفلسطيني من « نوادر جحا » سبيلا للترفيه والضحك فيما بينهم يتناقلونها فى مجالسهم الخاصة والعامة وغالبا ما كان يلقيها بعض الظرفاء الذين لا تخلو منهم قرية أو مدينة .

اما النكتة او الطرفة فى الصحافة الفلسطينية فقد أفردت لها أجزاء ومساحات بسيطة جدا كما كان في صحيفة «الدفاع»(*) وصحيفة فلسطين، وقد ظهرت بعض الصحف التى خصصت مساحات كبيرة للنكتة والسخرية اللاذعة ومنها صحيفة أطلق عليها « الزمر » وكان المسئول عنها السيد خليل طه زقوت الذى يعتبر من رواد الصحافة العربية الفلسطينية وقد عمل صحفيا بمصر قبل الحرب العالمية الاولى وعاد لبلاده بعد سنة ١٩١١م فأصدر صحيفته هذه وأطلق من خلالها النكات الهزلية الانتقادية على كبار المسئولين مع بداية الانتداب البريطانى الأسود ، وكتب على صدرها « كل من رآها أو سمع عنها أو لمسها أو شمها يعتبر مشتركا بها » ، وأطلق على نفسه « سفيه الشرق » وأحيانا كان يوقع « مؤدب السفهاء » ، كما صدرت بذات الأسلوب صحيفة أخرى أطلق عليها مسئولها السيد هاشم السبع اسم « الصريح » ، وقد صدرت بمدينة يافا فى الأربعينات من هذا القرن اتخذت من الأشعار الهزلية والفكاهة وسيلة انقد المسئولين والحكام .

(★) من الصحف الفلسطينية ـ الكرمل ـ فلسطين ـ الدفاع وقد صدرت بمدينة يافا بالاضافة لصحف النفير ـ الكرمل ـ جراب الكردى ـ الزهرة ـ النفائس وجميعها صدرت بحيفا وكذلك الأجمعى ـ الجامعة العربية ـ الدستور ـ النصير ـ وسوريا الجنوبية وجميعها صدرت بمدينة القدس .

ومن المجلات ـ النفائس العصرية ـ المنتدى ـ القافلة وكانت تصدر من القدس .

الأحاجى والالغاز

« الحزازير المثلية الشعبية »

واذا اختلفت الحزازير « الفوازير » فى معناها ومرماها الا أنها تقترب ان لم تنطبق تمام الانطباق مع الأمثال الشعبية فى مبناها القائم على الايجاز والسجع وحسن التقطيع .

وان كانت الأمثال الشعبية تتشعب فى مغزاها وأهدافها وما ترمى اليه ، كما بان لنا فى معالجتنا للمواضيع العديد السابقة ، تبقى « الحزازير » محددة الهدف ولا تخرج عن كونها وسيلة للتسلية ورياضة الفكر واستنفار القدرة على التفكير وتعويد الطفل بخاصة والبالغ بعامة على كيفية الربط بين الأشياء ومهارة المقارنة بينها ليتسنى له الوصول للحل الصحيح للسؤال اللغزى فى « الحزيرة » وقضاء الوقت فيما هو ممتع ومفيد.

وقد توصلت الى ثلاثة نماذج للالغاز « للحزازير » فى الوسط الشعبى الفلسطينى منها ما يشبه المثل الشعبى فى مبناه ، وآخر فى صورة « موال شعبى » وثالث أشبه بالأغنية الشعبية .

فهاهى « حزيرة » تقول : تكسى الناس وهى عريانة ، والجواب بطبيعة الحال هى « الابرة » لكن الشعب يوظفها فيجعلها مثلا عندما يقول :

٢٣٦٧ ـ زى الابره تكسى الناس وهى عريانة .

للدلالة على من يهتم بالآخرين وينسى نفسه .

وها هى احدى النساء الفلسطينيات متجهة لحقلها على ظهر حمار فناشدت أحد الرجال متحدية اياه بأن يأتى اها بمثل شعبى يوقف حمارها . فما كان منه الا أن قال :

٢٣٦٨ ــ اللى زرع زرعته بين الحطب والهيش .

تطرح زوانيين حتى الفقير يعيش .

وعندما وقف الحمار وذلك للتشديد على كلمتى « الهيش ويعيش » ومدها ومطها كما عوده الفلاح بقوله « هيش .. هيش » .

كما اعتاد « البداع » الفلسطينى أن يأتى « بمواويل » لغزية نورد على سبيل التمثيل لا الحصر بعضا منها ليكشف لنا عن عمق درايتـــه ودراسته للقرآن الكريم جاء فيه :

ايش له سبب يا بديع الحسن والأوصاف
تخص غيرى باول سورة الأعراف (١) .
أول (٢) فتحة الرعد تسقينى الغصص اوصاف
آخر (٣) ســبا تجعله يا بدر اسمى ، انا عملت ايه تهجرنى
بآخر (٤) قاف .

وهناك موال آخر يقول :

كف الملامة وخاف الله يا فتـــان — اعطى زكاة الخدود الحمر بالاحسان
يا اللى خديدك درا المبتلى العيـــان — أهل المحبة عليهم ربنـــا شاهد
يوفون بالنذر ويخافون يوما كان

مفاصل فصلت ، عم تسل عـــنى — واصبحت فى هداى والليل يسعدنى
النجـــم لى داء والرحمن يرحمنى — حبى اجالى الضحى يقرا الم نشرح

ونموذج آخر للموال اللغزى :

تبارك الرحمن أصـــل الواقعـــة منى
حبى من الحب حـــــد من على خـــاطره
واحبيت اداري واتعطف على خاطره
يا اللى تحب الجميـــل سيبه على خاطره
بلكى الزمان يعود لك والقلب يصفالك
واتعود ليالى الهنـــا لكن على خاطره .

---

(١) هو المص (قصب المص) .
(٢) هو المر .
(٣) هو رجع بعيد .
(٤) هو فى شك مريب .
احسان النمر ــ تاريخ نابلس والبلقاء / ج٢ ص ٩٣ .

ويبقى النموذج التقليــدى من الحزازير الشــعبية التى اعتــادت « عجائزنا » طرحها على مسامع الأطفال قبل نومهم لتسليتهم فى ليـالى الشتاء الطويلة نورد نماذج منها مثلا :

ــ اشى اشى لولا حمله ما مشى

« القبقاب » أو الحذاء .

ــ طاسة طاسة فى البحر غطاسة من جوا لولو ومن بره نحاسة

« الرمان »

ــ طير طار مع الخطار محمل مية ومحمل نار

« الشيشة » « الأرجيلة »

ــ بنت الملك فى قصرها ترطن رطنها ما حد بفهمها

« الشيشة أو الأرجيلة »

ــ عين بتسيل ماالهاش مثيل من غيرها حالنا بيميل

« الحنفية »

ــ طويل ما بيطول ديل لحماره

« الأرض »

ــ أربع حواية وواحد رافع راية

« الكلب »

ــ اشى اشى جاى من بعيد بزفة وزغاريد

« الرعد والمطر »

ــ طير طار مع الخطار لا الو ريش ولا منقار

« المكتوب »

ــ قنطار فول بيبدر لاسطنبول

« النجم »

ــ طاسة طاسة فى البحر غطاسة لا يمسها ميه ولا نجاسة

« الشمس »

ــ قط محشى ما بيقدر يمشى

« المخدة »

ــ أسمر بورنه قاعد فى القرنة

« الجدى »

ــ عجل وقف على رجل

« الباب »

ـ حاملة ومحمولة ناشفة ومبلولة

« السفينة »

ـ قد البندقة وفيها ميت عين مبرزقة

« الكستبان »

ـ شجرة ابو سعد هلت تلاتين عرف ادلت فى النهار حرمت وفى الليل حللت

« رمضان »

ـ حديد مقرب لبعيد

« السيارة »

ـ قد الكف وفى ميه والف

« المشط »

ـ بنت الملك فى قصرها ودموعها على خصرها

« الشمعة »

والحزازير تذكرنا بتوأمتها « الحواديت » (*) التى يترنم الطفل بأحداثها شجيا على صوت جدته أو أمه ذات الصوت الرخيم الذى يخرج وئيدا دافئا بفطرته الطبيعية وقد استهلتها بمقدمة تقليدية شبه دائمة شعبيا بقولها : كان ياما كان ·· يا سعد لكرام ·· ما يطيب الحكى والكلام ·· الا بذكر النبى عليه الصلاة والسلام ··· كان فى ····· وتختتم « الحدوتة » بخاتمة متفق عليها شعبيا بقولهم « توته توته فرغت الحدوته » ·

وتذكرنا « الحواديت » بالمثل الشعبى القائل :

٢٣٦٩ ـ زى ابن الحدوتة بيكبر بالعجل « بسرعة » ·

(*) من الحواديت الشائعة فى الجنوب الفلسطينى خاصة « الغولة ·· الشاطر حسن ـ البقرة الصفرة ، بنات القاضى ـ بنت القاضى والغول ، وديعه والوله ـ فرط الرمان والغول ، ابن الملك وبنت الحطاب ، الصيف والشتاء ، منخل الفوله ، المطر والصحو ، تفاح المجل للحبل (· وقد جاء ذكر معظمها فى كتاب الأستاذ : ابراهيم سكيك ـ حكايات وامثال شعبية ضمن سلسلة غزة عبر التاريخ ـ ج ١٢ ـ ١٩٨٤) ·

المطالب العشرة

لعل فى ذكرنا لهذه المطالب الشعبية العشرة التى نظمها ابناء الشعب العربى الفلسطينى على هيئة اشعار ما يوحى للعديد من الأمنيات ، ونستشف منها رغباته الحياتية وامنياته التى انبثقت من مفاهيم وقيم سلوكية وخلقية تلخص وتجسد الواقع المادى والروحى الملموس الذى يعتمل فى صدره ·

وقد لوحظ انتشارها وتداولها على ألسنة أبناء البادية كما يتغنى بها أبناء القرية فى الريف الفلسطينى ، فابن البادية ينشد قائلا :

يارب يا رحمن يا معتلى فوق
يا خالق قمرا وشمس تغيب
يارب انا قاصدك عشرة يزيدين
بالأعمار وبينهن يارب اكتب نصيب
الاول بيت به الظل يحتار
ويحتاطنه ناكسات السبيب
والثانية يارب حرمة طبعها كار (١)
لن اوجه (٢) الضيف بالندب (٣) تجيب
والثالثة يارب عزوة ٣٠٠ خيال
وعدل بها لو مال حق الطنيب
والرابعة يارب مهرة تلحق الخيال بهجار
وبندهيه فى الكف ترمى الظبيب (٤)

---

(١) كار : تجيد استقبال الضيوف ·
(٢) بأهجار أو بهجار : أى مربوطه اليدين والرجلين ·
(٣) بالندب : بسرعة ·
(٤) الظبيب ـ الغزال ·

والخامسة يارب بها العشب يحتار
نطلع لحمها ع المناسف غصيب

والسادسة يارب ستر الولايا من العار
من خوف مقعد السفاه وهرج يصيب

والسابعة يارب ٧٠٠ فدان تسرح
وتظوى فى كراب يجيب

والثامنة يارب يا مؤمنين الدهر غدار
لا تامنوا للدهر يا احباب

والتاسعة يارب أروح لابويا ابراهيم زوار
وازور مكة واشاهد حبيب .

والعاشرة يارب تكتبنى من طويلين الأعمار
وبجنة الفردوس تكتب نصيب

واختم قولى بالصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم .

وها هو ابن الريف الفلسطينى يقول :

بقول يارب انا طالب منك جملة
مطاليب يارب تكتب فيها نصيب

الاولى يارب دار وسيعه باربع لواوين
ورياحها يارب مسك يطيب

والثانية يارب حليله طبعها كار
يوم تقعد الاجواد تركض تجيب

والثالثة يارب مضافة بساحة الدار واسعة
يتواصف الاجواد حبيب لحبيب

والرابعة يارب على عزوة كبيرة مفاليح
شطار نعدل ابهم حق الطنيب

والخامسة يارب على مهره تلحق الخيل
بهجار والبندق فى الكف يرمى الظبيب

والسادسة يارب ستر العذارى من العار
فى مقعد السفاه وهرج يصيب

والسابعة يارب على سعو فى الخلا
نطلع من لحمها ع المناسف غصيب

والثامنة يارب أصلى صلاة العشا مع
الوتار واصلى صلاة الصبح وراء الخطيب

والتاسعة يارب انال الزين زوار
وشاهد نورة آه محمد حبيب

والعاشرة يارب اختم كلامى بالنبى
المختار فى جنة الفردوس تكتب نصيب

هكذا نجد هذه المطالب العشرة تختزل الأمانى الشعبية فى الدار الوسيعة والامرأة المطيعة ، والمضافة (الديوان) ثم العزوة المتمثلة فى كثرة الأولاد لتحقيق اكرام الطنيب ورد الحقوق لأهلها ـ ثم المهرة السريعة والبندقية لتامين حياته ـ والأرض الواسعة بالزرع والكلا ليكرم الضيف بسعة ثم الستر من العار وكلام السفهاء ـ والقدرة دوما على أداء الصلاة فى ميقاتها ـ والقيام بالحج وأخيرا الموت الشريف .

وهذه المطالب جميعا قد وردت ضمن أمثاله الشعبية السابقة .

الخاتمة

هكذا شخصت الأمثال الشعبية بمجالاتها المتعددة ، سمات الشخصية العربية الفلسطينية : موضحة ملامحها البارزة التى استمدتها من عوامل جغرافية وتاريخية حضارية : حددت أصولها وجذورها . وأوضحت كيانها بشكل تفردت فيه بقسمات تفصح عن هويتها العربية الكنعانية الفينيقية بالجد والعربية الفلسطينية بالأب ، فهو عربى أبا عن جد — · تسلحت بالقيم العربية الاسلامية ومنظومتها الروحية والأخلاقية ، فهى امتداد جغرافى وطبيعى للجزيرة العربية الأم وبدون انفصال · فكان الشعب الفلسطينى ووطنه بوابة التعريب الأولى والجسر الحضارى الواصل بين الحضارات العربية القديمة والتليدة فى أرض الرافدين ثم مصر الفرعونية ، ومن بعدهما الحضارة اليونانية الرومانية ، ليمثل شعبها ويأخذ على عاتقه دور الموصل الحضارى الجيد فهو المتميز بعراقته وثقافته الأصيلة كأول من بنى المدن وأقام الزراعة بأريحا وآمن أجداده بالتوحيد على يد أبى الأنبياء ابراهيم خليل الله ، فأصبح بالتالى يختزن ثروة ثقافية ناتجة من حصيلة ثقافات سابقة اتصلت بنا بالهيمنة تارة وبالتجارة والجوار الجغرافى أحيانا ، أخذت منه وأخذ منها مما أضفى على الشخصية الفلسطينية وبحكم موقعها الوسيط كمركز وقطب العالم المتحضر — مدخل آسيا وبوابة أفريقيا وجارة أوربا عبر بحرها المتوسط — خاصية الاستيعاب التى ترعرعت فيها دون أن تأخذ منها أو تسلبها ملامحها وخصوصيتها الثقافية لتؤكد بذلك بأنها شخصية غير جامدة أو متصلبة ، بل متجددة ومتطورة ، وعليه قاومت وماتزال تقاوم أفظع قوى الاستلاب والطمس والتشويه بلغتها العربية وحتى التمسك بلهجتها ، بدينها وعقيدتها ، بعرقها ودمها · بتراثها التاريخى والجغرافى العريق المتجذر ، بسهل أرضها وجبلها وغورها بل وبحجارتها التى

اثبتت ولأول مرة فى تاريخ الثورات بأنها قادرة على بعث قضية حق أرادوا لها أن تغفو ويهيلوا عليها التراب ، فيسمعوا العالم أجمع بها وبعدالتها .

كما أمدتها وسطية الموقع الجغرافى وما انهال عليـــه من ضربات وشهدت من مواقع حربية فاصلة ـ الجلد والصبر والمرونة وسهولة التأقلم مع الآخرين وتحمل مشاق الغربة والاغتراب فانتشروا فى شتى أرجاء المعمورة فأسهموا فى تعليم وتشييد العديد من أقطار الأمة العربية فزرعوا فيها شيدوا المصـــانع دون أن تنتزع منهم حب الوطن وحتى انتمائه الفردى لقريته أو مدينته وقبيلته بل وحتى الحى الذى يســـكنه داخل المدينة محتفظا أينما وجد ـ بخصائصها التجميعية النابعـــة من ظروفهم الحياتية التى وضعوها من القرية والمدينة والقبيلة فى الوطن الأم .

كما استطاعت هذه الشخصية العربية الفلسطينية وداخل اطارها الجغرافى والتاريخى ـ فلسطين ـ أن تحتفظ بعقيدتها الدينية السمحة ذات الرسالات السماوية المقدسة فأبقت على ديانتين أساسيتين الاســـلام والمسيحية ربطتهما وشائج الحب والاخوة دون أدنى حساسية تذكر على طول تاريخها المديد ، بل وقد كانت الأمثال الشعبية خير دليل على هذا التمازج والتفاعل الأخوى الصادق فى كمها وكيفها المتداول على ألسنتهم صباح مساء . على العكس من ديانة أخرى تشرذمت وتقوقعت وتصلبت رافضة الأخذ والعطاء ويشهد على ذلك أيضا الوثائق الاجتماعية المثليـة الشعبية فى بلادنا بأعدادها ومعناها والمتمثل فى الكم الذى جمعناه فى هذا الكتاب بهذه الشمائل جميعا فهو شعب يمتلك كل خصائص الشخصية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وحتى النفسية السوية المتكاملة على ترابه الذى جبله بعرقه ودمه آلاف السنين دون انقطاع ، وفى أن يحمل هويته فى جمهوريته العربية الفلسطينية ، ليتكامل ـ ليس له فحسب ـ بل وللعرب جميعا تواصلهم الجغرافى وتلاقيهم الثقافى وتجمعهم الدينى فى قبلة الاسلام الاولى فى القدس عاصمة فلسطين وقدس أقداسها .

سليم عرفات المبيض

المراجع العربية

- ابن سيده ـ المخصص ـ المجلد الثانى ـ دار الفكر ـ بدون تاريخ .
- الامام أبى الحسن البلاذرى ـ فتوح البلدان ـ المكتبة التجارية الكبرى مصر ١٩٥٩ .
- أبى عبد الله المهشيارى ـ حققه مصطفى السقا وآخرون ـ الطبعـة الثانية ـ شركة ومطبعة مصطفى البابى ـ مصر ـ ١٩٨٠ .
- تقى الدين أحمد بن على المقريزى الشافعى ـ ضوء السارى لمعرفة خبر تميم الدارى ـ مخطوط .
- السويدى ـ سبائك الذهب فى معرفة قبائل العرب ـ دار احيـــاء العلوم ـ بيروت ـ بدون تاريخ .
- مجير الدين الحنبلى ـ الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ـ الجزء الاول والثانى ـ عمان ١٩٧٣ .
- عارف العارف ـ القضاء بين البدو ـ القدس ـ ١٩٣٣
- عارف العارف ـ تاريخ القدس المفصل ـ القدس ١٩٦١ .
- عارف العارف ـ تاريخ غزة ـ القدس ١٩٤٣ .
- الامام الغزالى ـ احياء علوم الدين ـ دار الفـــكر ـ بيروت ـ بدون تاريخ .
- كامل اسعيفان ـ التراث وواجبنا نحوه ـ مكتبة الانجلو ـ القاهرة ـ بدون تاريخ .
- ميشيل عفلق ـ البعث والتراث ـ بغداد ـ ١٩٧٦ .

- د. نبيله ابراهيم ـ الدراسات الشعبية بين النظرية والتطبيق ـ دار المريخ ـ الرياض ـ ١٩٨٥ .
- مجلة التراث والمجتمع ـ لجنة الأبحاث الاجتماعية والتراث الفلسطيني مجلد ١ عدد ٢ البيرة ـ تموز ـ ١٩٧٤ .
- شوقي عبد الحكيم ، الحكايات الشعبية العربية ـ بيروت ١٩٨٠ .
- سليم المبيض ـ الجغرافيا الفلكلورية للأمثال الشعبية الفلسطينية ـ الهيئة العامة للكتاب ـ القاهرة ـ ١٩٨٦ .
- سليم المبيض ـ غزة وقطاعها دراسة في خلود المكان وحضارة السكان ـ الهيئة العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٨٧ .
- مصطفى مراد الدباغ ـ بلادنا فلسطين ـ المجلد الأول ـ القسم الأول ـ بيروت ـ ١٩٦٥ .
- مصطفى مراد الدباغ ـ القبائل العربية وسلائلها في بلادنا فلسطين ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٨٦ .
- د. السيد عبد العزيز سالم ـ تاريخ البحرية الاسلامية ـ مؤسسة شباب الجامعة ـ الاسكندرية ١٩٧١ .
- وليم نظير ـ الزراعة في مصر الاسلامية ـ مراقبة التحرير والنشر ـ القاهرة ١٩٦١ .
- الامام محمد الرازي فخر الدين ـ قصة السحر والسحرة في القرآن الكريم ـ مكتبة القرآن القاهرة ـ ١٩٨٥ .
- ابراهيم مصباح ـ حول قضية التصوف في الاسلام ـ مجلة الفيصل ـ العدد الأول يونيه ١٩٧٧ .
- زكي العيلة ـ تراث البحر الفلسطيني ـ دار الرداد ـ القدس ١٩٨٢ .
- الامام عبد الحليم محمود ـ أبو مدين الغوث ـ دار المعارف ـ القاهرة ١٩٨٥ .
- محمد ربيع المدخيلي ـ مقال بمجلة الفيصل ـ العدد الأول ـ السنة الاولى ـ يونيه ١٩٧٧ .
- د. مصطفى العبادي ـ محاضرات في تاريخ العرب قبل الاسلام ـ بيروت ١٩٨٢ .

- احسان النمر ـ تاريخ جبل نابلس والبلقاء ، الجزء الثاني ، نابلس ١٩٦١ .
- فوزي العنتيل ـ بين الفلكلور والثقافة الشعبية ـ الهيئة العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٧٨ .
- ناجي زين الدين المصرف ـ موسوعة الخط العربي ـ الجزء الأول والثاني ـ منشورات وزارة الثقافة والاعلام ـ بغداد ـ ١٩٨٤ .
- نعوم شقير ـ أمثال العوام في مصر والسودان والشام ـ مطبعة المعارف ـ مصر ١٨٩٤ .
- أبي عبيد البكري ـ فصل المقال في شرح كتب الأمثال ـ حققه د. احسان عباس وصديقه ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٩٧١ .
- على بن حبيب الماوردي ـ الأمثال والحكم ـ تحقيق د. فؤاد عبد المنعم أحمد ـ مؤسسة شباب الجامعة ـ الاسكندرية ـ بدون تاريخ .
- الميداني ـ مجمع الأمثال ـ حققه محمد محي الدين عبد الحميد ـ دار الفكر ـ بيروت ١٩٧٢ .
- الابشيهي ـ المستطرف في كل فن مستظرف ـ دار الفكر ـ بيروت ـ بدون تاريخ .
- ابراهيم شعلان ـ الشعب المصري في أمثاله ـ الهيئة العامة للكتاب ـ القاهر ١٩٧٢ .
- الكسندر هجرتي كراب ـ علم الفلكلور ـ ترجمة رشدي صالح ـ دار الكتاب العربي ـ القاهر ١٩٦٧ .
- أحمد أمين ـ قاموس العادات والتقاليد والتعابير الشعبية ـ مكتبة النهضة المصرية الطبعة الثانية ـ بدون تاريخ .
- محمد قنديل البقلي ـ وحدة الأمثال العامة في البلاد العربية ـ مكتبة الانجلو ـ القاهر ١٩٦٨ .
- د. أحمد أبوزيد ـ مستقبل الثقافة في مصر ـ مجلة الهلال ـ عدد أول يناير ١٩٨٨ .
- رودلف زلهايم ـ الأمثال العربية القديمة ـ ترجمة د. رمضان عبد التواب ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ بدون تاريخ .

- أحمد تيمور - لهجات العرب - سلسلة المكتبة الثقافية - ٢٩ - الهيئة العامة - القاهرة ١٩٧٣ .
- نبيل فرج - التجديد والثورة فى الفكر العربى الحديث - مجلة القاهرة عدد ٧٧ - ١٩٨٧/١١/١٥ .
- مجلة التراث الشعبى - العددان ١١ - ١٢ - السنة السابعة - وزارة الاعلام - بغداد ١٩٧٦ .
- وليم اولبرايت - آثار فلسطين - ترجمة د. زكى اسكندر وزميله - المجلس الأعلى للشئون الاسلامية - الكتاب ١١ القاهرة ١٩٧١ .
- أحمد تيمور - معجم تيمور فى الألفاظ العامية - الجزء الأول - الهيئة العامة للكتاب القاهرة ١٩٧١ .
- يسرى عرنيطه - الفنون الشعبية فى فلسطين - م.ت.ف. - بيروت ١٩٦٨ .
- اسبتينو موسكاتى - الحضارات السامية القديمة - ترجمة .
- أحمد سوسة - حضارة وادى الرافدين - وزارة الاعلام العراقيــة - بغداد ١٩٨٣ .
- ف.ب. ماير - حياة ابراهيم - ترجمة القمص مرقص داود - مكتبة المحبة - الطبعة الثانية - القاهرة ١٩٦٠ .
- د. محمد أحمد حسن - المسجد الأقصى فى الكتب المقدسة - مكتبة النهضة - القاهرة ١٩٨٥ .
- رحلة ابن جبير - دار التراث - بيروت ١٩٦٨ .
- عبد الوهاب النجار - قصص الأنبياء - الطبعـة الثالثة - دار احياء التراث العربى - بيروت - بدون تاريخ .
- عمر البرغوثى وخليل وطح - تاريخ فلسطين - القدس ١٩٣٢ .
- امليا جلبى - سياحتنا مى سى - ترجمة حنا اســـطفان - المتحف الفلسطينى - القدس .
- محمد ابشرلى ومحمد التميمى - أوقاف وأملاك المسلمين فى فلسطين - استانبول ١٩٨٢ .

- المختار فى تاريخ الجبرتى - اختيار محمد قنديل البقلى - كتاب الشعب ٣١ ج ٣ - مطابع الشعب - القاهرة ١٩٥٨ .
- جيرالد هوكنز - بدائع السماء - ترجمة د. عبد الرحيم بدر - المكتبة العصرية - بيروت ١٩٦٧ .
- د. محمد الجوهرى - علم الفلكلور - الجزء الثانى - دار المعارف - ١٩٨٠ .
- سعد الخادم - الفن الشعبى والمعتقدات السحرية - الألف كتاب ٤٨٨ القاهرة - بدون تاريخ .
- اتحاف الاخصا بفضائل المسجد الأقصى - تحقيق - د. أحمد رمضان أحمد - القسم الأول الهيئة العامة - القاهرة - ١٩٨٢ .
- ج. برونوفسكى - ارتقاء الحضارة - ترجمة د. موفق شخاشيرط - عالم المعرفة - الكويت - مارس ١٩٨١ .
- أحمد رفيق - بيوك تاريخ عمومى - استانبول ١٣٢٨هـ .
- شكرى عراف - الأرض الانسان الجهد - عكا القديمة - ١٩٨٢ .
- الشيخ عبد الغنى النابلسى - الحقيقة والمجاز فى رحلة الشام ومصر والحجاز - مخطوط .
- أحمد بسيسو - كشف النقاب فى بيان أحوال ســكان غزة وبعض نواحيها من الأعراب - غزة - ١٣١٥هـ مخطوط .
- أحمد بسيسو - طرائق السادة الصوفية - غزة ١٢٨٩هـ مخطوط .
- أحمد بسيسو - فوائد وقواعد وضوابط من عدة نوادر غريبة وتحائف عجيبة - غزة - مخطوط .
- مجلة شئون فلسطينية - العدد ٩ آيار ١٩٧٢ .

المراجع الأجنبية

K. M. Kenyon, Archaeology in the Holly land, Edif, London, 1970.

— Hilma Granqvist, Marriage conditions in Palestinians village, Helsingfore, 1931.

— H. Y ma Granquist. Birth and Childhood among the Arab Helsingfors, 1947.

— G. A. Smith, Historical geagraphy of the Holly land.

— G. Dawney, Gaza in the Early Sixth Century University of Acklahoma Press, 1963.

— M. A. Murray, Some connite scrabs, P.E.F., 9, 1949.

— G. A. Raux, Incient Iraq, London, Pelican book, 1966.

— Journal of the Palestine Oriental Society, Vol. xix.

— Jaussen. A. Coustunes de Arabs au Pays de Moab, Paris, Gabalda.

— Canaan. Tawfiq, Mohammdan Saints and Sancturies in Palestine, London, 1927.

— I.E.J., Vol 24, 1974.

صدر للمؤلف

١ ـ الجغرافيا الفلكلورية للأمثال الشعبية في الفلسطينية ـ الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٦

٢ ـ غزة وقطاعها « دراسة فى خلود المكان وحضارة السكان » ـ الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٧ .

٣ ـ النقود العربية الفلسطينية وسكتها المدنية الأجنبية « من القرن الخامس قبل الميلاد وفى عام ١٩٤٦ م » الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٩ .

٤ ـ ملامح الشخصية الفلسطينية فى أمثالها الشعبية ـ الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٠ .

كتب تحت الطبع :

ـ المصيدة فى التراث الشعبى الفلسطينى .

ـ الابل فى التراث الشعبى الفلسطينى .

الفهرس

الصفحة

الصفحة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٧٢٩/١٩٩٠

ISBN ـ ٩٧٧ ـ ٠١ ـ ٢٣٣٧ ـ ٧

○○ لقد أكد الكثيرممن تعمقوا فى دراسة التراث الشعبى ان الإبداعات الشعبية الحاضرة أو القريبة لا يتسنى لأحد فهمها إلا من خلال النظر إليها من بعيد ، وسبر غور القريب ، وان ادراك الخاص يتعذر فهمه إلا فى إطار معرفة النواميس والقوانين التى تتحكم فى العام الشائع .

ولما كان الشعب العربى الفلسطينى ، وما زال يمثل تركيبة حضارية ذات طبقات ثقافية سميكة بسمك التاريخ ، تميزت بالتفاعل مع الحضارات العريقة ، عربية وسومرية وكلدانية وبابلية وكذا حبشية وفرعونية ، استوعبها الشعب العربى من أجدادنا القدماء ، فاخذوا منها وأعطوها بحثا عن ملامح هذه الشخصية الفلسطينية انتقينا « المثل الشعبى » القادر - هكذا نامل - على تشخيص ملامح هذا الشعب بما تميز من غزارة فياضة لها قدرة الكشف عن البيئة الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية وحتى النفسية .

١٢٠٠ قرش

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب